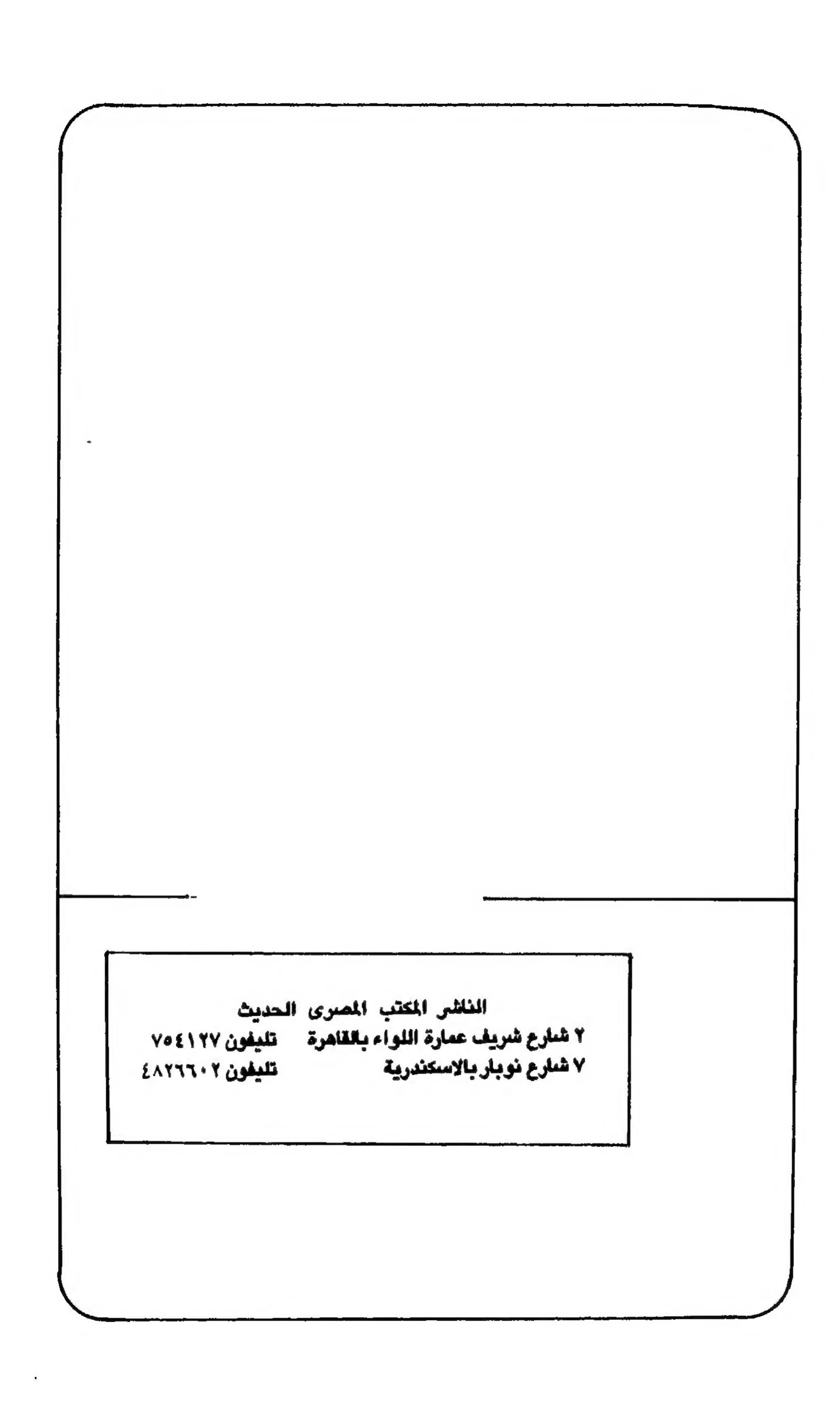
جيهان السادات

سيدة
من
مصر

المكتب المصري الحديث



سيدة
من
مصر



الناشر المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٤٨٢٦٦٠٢

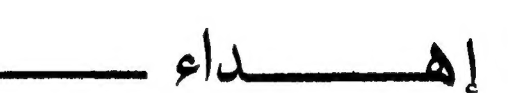

البحر المتوسط

المحتويات

الصفحة

المحتويات

الصفحة



إهداء

إلى الذكرى . . .

إلى ذكرى زوجي أنور السادات

وإلى أولادنا لبنى وجمال ونهى وجيهان

الذين قاسوا كما قاسيت وأحبوا كما أحببت .

مقدمة الطبعة العربية

رغم أن الطبعة العربية لهذا الكتاب هي بالضرورة ترجمة حرفية لطبعات صدرت بالانجليزية فى الولايات المتحدة الأمريكية وبالفرنسية فى غيرها من الدول الأوروبية ، إلا أن الوقع والصدى لابد أن يختلف هنا عما كان هناك . . .

هناك كانت الصورة الحضارية لمصر هى المطلوب إبرازها ، ولقد تحقق الهدف بالانتشار الواسع للكتاب فى أمريكا وأوروبا . . .

بينما هنا فإن الكتاب شهادة على عصر عايشه الجميع ، واختلف حوله البعض مؤيداً ومعارضاً . . محباً وحاقداً ، وأعنى به عصر محمد أنور السادات . . عصر لابد أن يكون له أو عليه حسب اختلاف زوايا الرؤيا . . إلا أنه عصر عايشه الكل وما زالوا يعايشونه ، ذلك أن الأمجاد لا تموت وإن غيب الثرى أجساد أصحابها . . .

فلا فناء للمجد . . . ولا خلود للأحقاد . . تبقى مصر ومن أعطاها ، ويبقى الوفاء فيها فى شموخ الهرم وصمود الزمن .

« مقدمة الطبعة الانجليزية »

حين بدأت منذ عدة سنوات مضت فى تأليف هذا الكتاب ، تخيلته كتابا صغيرا عن زوجى وحياتنا معا . ولكن كلما كثرت أسفارى ، واتسعت دائرة أحاديثى مع الناس خارج مصر ، اتضح لى كيف أسىء فهم الثقافة المصرية . إن كثيرا من الغربيين يعتقدون أننا مازلنا نركب الإبل ونتوارى خلف الحجاب ، ولكن هذه كانت حكاية لورنس العرب وليست مصر الحديثة .

ومن ثم تحول اتجاه الكتاب ليعرض صورة لتاريخ مصر منذ قيام ثورة ١٩٥٢ عبر زيارة زوجى التاريخية للقدس عام ١٩٧٧ ، والسلام مع اسرائيل عام ١٩٧٩ ، حتى اغتيال زوجى عام ١٩٨١ . واتسع الكتاب ليضم شرحا لديننا « الإسلام » ، وتقاليدنا العريقة التى تلعب دورا كبيرا فى الحياة المصرية ، وفى مجتمعنا الذى يدور حول الأسرة . لقد نما أكثر من قدرتى على تذكر كل التفصيلات ، فالجأنى إلى تاريخ مصر الحديثة فى المؤلفات الممتازة لـ ب . ج مايتكبورلى ، أستاذ السياسة فى جامعة لندن وجون ووتربرى ، أستاذ العلوم السياسية فى مدرسة وودرو ويلسون بجامعة برلستون .

وأعدت قراءة كتاب الصديق موسى صبرى « السادات ، الحقيقة والأسطورة » وكذلك كتابَىْ زوجى : « البحث عن الذات » الذى نشر عام ١٩٧٧ ، و« هؤلاء الذين عرفتهم » الذى نشر عام ١٩٨٤ بعد وفاة زوجى . وأصبحت غرفة الاستقبال مليئة بالبحوث وقصاصات المجلات والصحف المصرية .

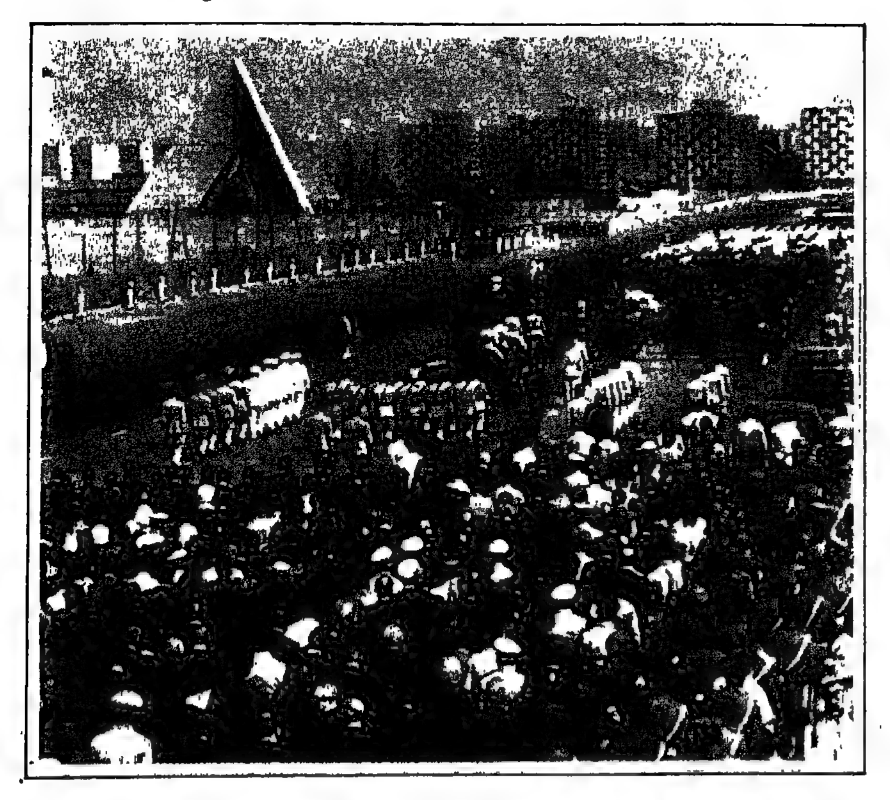
وقد ساعدتنى إليس « مايهيو » ، المشرفة على الكتاب مع سيمون وشستر ، وكذلك دانييل وولف الذى ساعد كثيرا فى البحوث والمراجعة . وفى القاهرة قرأ حسن مرعى ، زوج ابنتى ، النص وقدم اقتراحات قيمة فلهم جميعا شكرى .

وأخيرا تم الكتاب . ولم يعد ملكا لى بل لكم ، وإنى لأرجو ـ بعد الانتهاء من قراءته ـ أن يكون قد عمق فهمكم لمنطقتنا الجميلة بما يغريكم على زيارتها . ان مصر هى أرض الحضارة قديمها وحديثها ، وهى خليط من نقيضين : من الصحراء التى تكنسها الرياح ، والحقول الخضراء الخصبة ، إنها واحة غنية على طول نهر النيل ، فليكن هذا الكتاب جسرا بين ثقافتى وثقافتكم . وليصبح كتابا للأمل ، وليصبح كتابا للسلام .



الفصل الاول

موت زوجي



كان السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ من الأيام القليلة بين آلاف الأيام التى لم يساورنى فيها أى خوف على حياة زوجى . . .

لقد أصبح السادس من أكتوبر واحدا من أكبر أعياد مصر القومية ، فهو الاحتفال السنوى لتلك اللحظة من عام ١٩٧٣ حين قام جنودنا بعبور قناة السويس واستعادة الأرض التى اغتصبتها منا إسرائيل .

فى ذلك اليوم الذى اجتمعت فيه كل مقومات الإنجاز الوطنى العظيم كما صنعه جنودنا الذين عبروا قناة السويس فى إعجاز عسكرى أذهل قادة العالم .

فى يوم كهذا يتصدر أعيادنا القومية ، كان يقينى ألا خطر يمكن أن يهدد أنور السادات ، فهو القائد والبطل ، واليوم تكريم له وللأبطال . وقد فكرت ألا أحضر العرض العسكرى اكتفاء بمشاهدته على شاشة التليفزيون مع بناتى الثلاث (لأن جمال كان وقتها فى أمريكا) ، فيتوفر لى بعض الوقت لاستكمال رسالة الدكتوراه

فى « الأدب المقارن » من جامعة القاهرة ، إلا أن الضابط المسئول أقنعنى بضرورة الحضور للمشاركة فى الاحتفال ، فغيرت رأيى .

وقد مضت سنوات سبع واليوم أسجل امتنانى لهذا الضابط ، فلولاه لظل الندم يخالط آلامى طيلة ما تبقى لى من عمر . وها أنذا أعيش اليوم وحتى آخر عمرى على ذكرى الطلقات المروعة التى قضت على حياة زوجى وتسعة آخرين . . وستظل عيناى حافظتين لمرأى دماء أنور وهى تخضب المقاعد المبعثرة على المنصة . . ولا أستطيع حتى الآن أن أمنع دموعى كلما أتذكر أحفادى الصغار وهم يصرخون فى رعب حين حطم الرصاص زجاج النوافذ فوق المنصة . . لقد ظلوا لعدة سنوات فريسة للأحلام المزعجة تقتحم عليهم مضاجعهم البريئة . . فينهضون من نومهم فزعين مرتاعين . أما عنى ، فقد أدركت للتو أننى سلبت محور حياتى ومغزاها ، واستوى عندى النوم ـ كلما غلبنى ـ مع اليقظة الذاهلة عن واقع الكارثة التماسا لما لا يستعاد !

وتتكفل الفصول التالية بزيادة القارىء إيضاحا لبعض المعانى التى قد أشير إليها ضمن وقائع هذا الفصل ، الذى شئت ان يكون فاتحة لكتابى . . فقد كان أنور فى ذلك الصباح شديد العناية بأناقته ، وقد أعد للعرض سترة جديدة تليق بالأهمية الكبرى لهذا اليوم المجيد . وقد كان ذلك نابعا من اعتزازه الشديد بالجندية ، وزهوه بزى ضباط الجيش ، وقد بلغ به هذا الاعتزاز حد التهور والمخاطرة بحريته ، ففى الفترة التى أعقبت طرده من الجيش كان يصر على ارتداء البدلة العسكرية المحرمة عليه تحديا لكل السلطات . وكان معجبا بوجه خاص بضيق الزى العسكرى الألمانى ، وكنا نداعبه أنا والأولاد بقولنا : « إن سترتك تبدو اليوم واسعة ، كان ينبغى أن تضيق أكثر عند الصدر » . . وكان يضيق بدعابتنا ويرد على جادا : أنت لا تفقهين شيئا فى الأمور العسكرية .

ومن مظاهر اعتزازه بعسكريته حرصه على تأبط عصا الماريشاليه فى المناسبات الرسمية . . ومع ذلك ففى ذلك اليوم بالذات ـ آخر سادس من أكتوبر يحضره ـ لم يأخذ هذه العصا معه . . فهل نسيها ؟ لن أعرف الحقيقة أبدا . .

كان كل شىء مختلفا فى هذا السادس من أكتوبر ، كنت أرتدى ملابسى مبكرة فى كل عام مضى ، ثم أساعد زوجى على ارتداء حلته ، وبينما ينتهى هو من ارتدائها ، كنت أنزل إلى الطابق الأسفل لأرحب بنائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع ، اللذين كانا يحضران مبكرين إلى منزلنا الذى يطل على النيل فى الجيزة وذلك لمصاحبة زوجى إلى ساحة الاستعراض . وكنا جميعا نحيى أنور وهو ينزل الدرج ، كنت أقدم له تحية رسمية قائلة : « كل سنة وأنت طيب ، الله يحميكم جميعا » ، ثم يمضون فى سيارة واحدة لاجتماع فى وزارة الدفاع ، وبعد عشرين دقيقة كنت استقل سيارة أخرى إلى ساحة العرض .

ولكن فى ٦ أكتوبر من ذلك العام ، ولأنى لم أكن قد قررت الذهاب إلا فى اللحظة الأخيرة ، كان على أن أهرع لأرتدى ملابسى ، ومن ثم فقد فاتتنى لحظة خروج أنور إلى العرض ، وكنت كالعادة قد أيقظته فى الصباح الباكر وأعطيته الصحف لقراءتها . ولأن ذلك اليوم كان يوما خاصا فإنى حملت حفيدتنا التى تبلغ من العمر سنتين ، « ياسمين » ابنة ابنى ووضعتها بجواره فى السرير ودوت ضحكاته وهى تحاول جذب شاربه ، وضحك مرة ثانية حين رفضت أن تقبل وجهه المغطى بصابون الحلاقة .

وقال أنور لى : « جيهان ، تأكدى من حضور شريف معك وهو يرتدى الزى العسكرى » وهو حفيدنا الذى يبلغ من العمر خمس سنوات « إنه يكبر الآن وأريده أن يشاهد الاستعراض » ، وأجبته : « طبعا سأحضره » .

كان أنور يعامل ابننا جمال ، بنفس الطريقة حين كان صغيرا ، فكان يلبسه الزى العسكرى ، منتظرا منه أن يشارك فى الاحتفالات العسكرية وأن يتعلم مسئولياته كرجل . وكان أنور حين يسافر يقول لجمال ، حتى حين كان فى الخامسة من عمره « جمال . . . أنت مسئول عن أخواتك الثلاث ، أنت رجل البيت ، وأنى أثق فى أنك ستكون طيبا معهن وستحافظ عليهن » ، وقد قبل جمال هذه المهمة بجد كبير وكان يقول لأخته الأكبر منه حين تريد الخروج « لبنى » :

« إلى أين أنت ذاهبة ؟ » وعلى الرغم من أن هذا كان يسبب مضايقة لهن . إلا أنهن كن يستجبن له .

كان أنور يريد أن يجعل شريف رجلا ، ولكن لم تكن لدى أية نية لكى يلبس تلك الحلة الثقيلة . فقد كان شريف يقاسى أزمات ربو ، وكان اليوم دافئا ، وكنت أخاف أن يقاسى من شدة الحرارة ، لهذا قررت أن أصحبه وهو يرتدى ملابس خفيفه وأن أشرح الموقف لأنور بعد ذلك ، ولكن إذا لم أسرع فلن أستطيع استصحاب شريف ، إن آخر ذكرى لزوجى فى المنزل كانت وهو يحلق ذقنه فى الحمام . بل لم يكن لدى الوقت للوداع التقليدى فى الطابق السفلى ، لم أقل له مع السلامة ولم أقبله ولم أره بعد ذلك . ومن نافذة غرفة نومى سمعت سيارته وهى تمرق خلال البوابة .

وقلت آنذاك إن هذا لا يهم ، فإنى سأراه بعد فترة وجيزة فى ساحة العرض ثم سنعود معا إلى احتفال النصر فى المنزل ، كما كنت أفعل دائما فى ذلك اليوم ، سأقابله عند باب البيت بالزغاريد ، وسيخرج جميع الجيران إلى الشرفات وستقوم السيدات بمشاركتى فى الزغاريد ، ويملأن الجو بالتحيات والتهانى . كنت أنتظر هذا كله وأنتظر كذلك الصورة العائلية التى اعتدنا أن نلتقطها كل عام فى حديقتنا .

وكان المصور قد زار منزلنا فى اليوم السابق ، وأخذ صورا لأنور وياسمين فى الحديقة ، وكنت أراقب أنور وهو جالس يقرأ فى هدوء تام بينما تحبو حفيدتنا من حوله ونادانى المصور آنذاك لاشارك فى الصور التى يلتقطها ، ولكنى كنت فى طريقى إلى أحد اللقاءات فقلت له : « أجل الصورة إلى الغد ، فإنى مشغولة الآن » ، ولم أكن أعلم أنه بعد ساعات معدودة سيلقى المصور مصرعه مع زوجى فى تلك المجزرة الدموية .

وصرخت حفيدتى حين بدأت أستعد للذهاب إلى العرض مع شريف : « جدتى جدتى نرجوك أن تصحبينا » ، وفكرت لماذا لا أصحبهن أيضا ؟ إنه يوم

خاص لجدهن وللأمة كلها ، وإذا تعبن أو قلقن من مشاهدة العرض العسكرى تستطيع المربية أن تصحبهن إلى البيت فى السيارة ، وهكذا ذهبنا جميعا إلى العرض معا .

إن الله أراد أن يعطى أنور تلك الفترة الوجيزة من السعادة الغامرة على الأرض ، ولن أنسى أبدا الابتسامة التى أرتسمت على وجهه حين دخل إلى منصة الاستعراض وسط موجة من التصفيق ثم نظر إلى أعلى المنصة ليرى أحفاده الأربعة يقفون معى . وفجأة إمتلأ وجهه الذى كان عادة هادئا ومفكرا ، بدفء الشمس وهو يلوح لنا ، وهمست صديقتى عضو البرلمان د . زينب السبكى : « يا لها من ابتسامة » وكانت على حق ، إنها لم تكن مجرد إبتسامة بل كانت إبتسامة مصرى أحب بلده وخاصة فى ذلك اليوم ، ولم أزل أرى فى خيالى روعة تلك الابتسامة الأخيرة ، وأتذكر السعادة التى كان يفيض بها وجهه .

وقلت للسيدة سوزان مبارك زوجة نائب رئيس الجمهورية وقتها ، وكنا نجلس متجاورتين : « فيما كل هذا التأخير ؟ » . . فقال قائل إن دراجة بخارية تعطلت ، لكن هذا لم يكن مبررا مستساغا . .

وصاح مذيع العرض فى مكبرات الصوت: « والآن سنرى القوات الجوية الباسلة » . . . ومرت دقيقتان أو ثلاث ولم يظهر فى السماء شيىء . . وكان واضحا أن العرض لم يكن بالدقة التى تميز بها فى السنوات الماضية ، عندما كان تحت اشراف وزير الدفاع السابق الفريق الجمسى . .

ووجدتنى أشكو سوء التنظيم مرة أخرى للسيدة سوزان ، ثم الفيتنى ألوم نفسى على تورطى فى نقد أحوال لا دخل للسيدة سوزان فيها ، وشعرت بالحرج لأننى أكشف عن إحساسى الخاص بلا تحفظ . .

ثم أقبلت طائرات سلاح الطيران فى تشكيلاتها ، طائرات الفانتوم تقوم بحركات اكروباتية تاركة خلفها خطوطا من الدخان ذى الألوان البراقة . كانت

السماء مليئة بالأشرطة المتقاطعة ، الحمراء والزرقاء والخضراء ، والطائرات النفاثة ترعد فى السماء .

وضحكت حرم النائب مبارك قائلة : « هذا أحسن ما فى العرض » فقد كان زوجها الذى يجلس الآن بجوار أنور ، ضابطا فى سلاح الطيران .

وضحكت معها وسط تلك الإثارة والضوضاء ، وإن كنت أشعر بالقلق من أجل الطيارين ، لابد أن أنور يستمتع بكل ما يحدث ، ومن خلال النوافذ الزجاجية فى الشرفات العلوية نظرت إلى أنور ، وكان كالآخرين ينظر إلى أعلى ليراقب الاستعراض فى السماء ، وكانت قبعته على الدرابزين المقام أمامه ، ولكن ما هذا ؟ ماذا تفعل هذه المركبة العسكرية التى خرجت فجأة من بين صفوف مركبات المدفعية وتوقفت أمام منصة العرض ؟ وجرى ثلاثة من العسكريين تجاه المنصة وهم يحملون المدافع الرشاشة ، وفى نفس الوقت سمعت فرقعة قنبلة يدوية وقد كاد صوتها يضيع وسط زئير الطائرات النفاثة ، وملأ الدخان الجو ، وفى الحال نظرت إلى أنور وكان واقفا مشيرا إلى حراسه وكأنه يقول : « اذهبوا وأوقفوا هذا » وكان هذا آخر ما رأيت من زوجى .

صراخ وعويل . . . والرصاص يحطم النوافذ الزجاجية التى كنت من خلالها أشاهد العرض وأحاول أن أسرع نحو زوجى ولكن حارسى وقف فى طريقى : « سيدتى أرجوك ألا تتركى مكانك » ، ولكن يجب أن أذهب إلى أنور وقلت لحارسى : « ابتعد عنى » ولكنه كان أقوى منى وجذبنى بعنف شديد إلى الأرض فالتوت ذراعى وظلت تؤلمنى طويلا بعد ذلك . وكان كل ما حولى فوضى ، أحفادى يصرخون ويصرخون حين انفجرت قنبلة أخرى ، وملأ صوت الرصاص آذاننا .

كانت مصر منذ شهور تعانى من العنف الدينى ، وكان التوتر شديدا بين المتطرفين من الجماعات الإسلامية وبين الأقباط المسيحيين . ونتج عن ذلك ضياع أرواح كثيرة وإراقة دماء غزيرة مما هدد استقرار البلاد . واضطر أنور -

بالرغم منه ـ أن يتحفظ بصفة مؤقتة فى سبتمبر على أكثر من ألف من المتطرفين من رجال السياسة والدين ، ووقتها كانت المرحلة الأخيرة من استعادة سيناء ، الأرض المصرية التى إحتلتها إسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ قد أقتربت ، ولم يكن أنور يرغب فى المغامرة بحدوث قلاقل مدنية .

وقد أدى الصراع الدينى إلى زيادة معارضة الأقلية لقيادة أنور ، وبسبب السلام الذى حققه مع إسرائيل أتهم بالخيانة من جانب الجماعات المتطرفة وبعض قادة الدول العربية . . ومن أجل حلمه بأن يقيم التوافق بين معتنقى المسيحية واليهودية والإسلام ، وصف أنور بالكفر ، وبسبب سياسة الإنفتاح الاقتصادى تجاه الإستثمارات الأجنبية قيل أنه ألعوبة فى يد الغرب . وكنت خلال تلك الفترة العصيبة من صيف وخريف ١٩٨١ أخاف كثيراً على حياة زوجى ، وخلال التوتر المتصاعد فى الأسابيع القليلة التى سبقت العرض لم يمر يوم واحد ـ حين كنت أودع زوجى وأباركه فى الصباح ـ إلا كنت أنتظر موته فى المساء ، ما عدا ذلك اليوم .

واستمرت النيران فى أرض الاستعراض ، بل زادت قوة . وكنا ونحن جاثمون فى الممر خلف الحائط الذى يوجد بين الحجرتين ، لا نستطيع أن نرى شيئا ، ولكنى كنت متأكدة أن الرصاص الذى نسمعه من حراسنا سيضع حدا لما حدث . وجعلت أكرر للسيدات « اهدأن » ، والغريب أنى شخصيا كنت أشعر بالهدوء الشديد ، إنى لا أبكى ولست خائفة ، بل ولا أشعر بالخوف على حياة زوجى . لازلت أعتقد أن أبناءه أفراد القوات المسلحة لا يمكن أن يصيبوه بأذى ، أنه يفكر فيهم كأولاده وكان يصفهم بأنهم أبناؤه ، وهم من جانبهم يحبونه ، فهو قائدهم الأعلى الذى قادهم إلى النصر فى عام ١٩٧٣ عندما استطاعت القوات المصرية أن تعبر قناة السويس وتجتاح خط بارليف ، ذلك الحاجز الترابى الذى يرتفع سبعة وأربعين قدما ، والذى ادعى الإسرائيليون أنه لا يمكن اختراقه ، وقد أعاد أنور العزة لجيش مصر حين هزم الإسرائيليين لأول مرة على إمتداد خمسة

وعشرين عاما ، ونصرنا عليهم بعد ثلاث من الهزائم المذلة . ومن أجل هذا كان الجنود والمدنيون يصفونه ببطل العبور .

وكان سفير الولايات المتحدة هو أول من رأيت بعد أن سكتت النيران ، وصحت منادية عليه ، ولكنه لم يسمعنى . كانت المقاعد المقلوبة فى كل مكان ، وكان كثيرون على الأرض وهم يحملون إلى عربات الإسعاف ، وكان الذين لم يصابوا بجراح يقفون ويحملقون فى ذهول وكأنهم أصيبوا بضربة قاضية وإن كانوا لا يزالون واقفين . وبحثت عن زوجى ولكنه لم يكن هناك ، وبدأت أسير بين المنصة فى بطء وحذر ، لم أكن أريد أن أبدو هستيرية فى تلك اللحظة ، أو أن أظهر خوفا على زوجى أو بلدى .

وسألت أحد رجال الحرس الجمهورى ، محاولة ألا ألاحظ الدم الذى يلطخ سترته البيضاء ، أين الرئيس السادات ؟ « فرد قائلا » : إنه بخير ، أقسم لك يا سيدتى ، لقد حملته بنفسى إلى الهليوكبتر التى ستنقله إلى مستشفى المعادى ، يبدو أنه أصيب فى يده فقط » .

واستدرت إلى حارسى وقلت بهدوء : « لنذهب إلى المستشفى » ، ولكن هناك الكثير الذى لا أعرفه هل هناك عملية للاستيلاء على الحكم ؟ هل بناتى فى البيت ؟ وما الذى حدث لزوجى ؟ وأرى فوزى عبد الحافظ سكرتير زوجى وهو محمول على نقالة وقد أصيب إصابات بالغة ، وأتذكر إنه كان يجلس خلف زوجى ، وبرغم ذلك كنت لا أزال أعتقد أن زوجى لم يصبه أى ضرر ، أنى أعرف أن نائب الرئيس بخير ، فحين كنا خلف الحائط فى المنصة جاء أحد حراسه وهمس فى أذن السيدة حرمه أن زوجها فى أمان .

وجمعت أحفادى بسرعة وأسرعنا إلى السيارة لتحملنا إلى الهليوكبتر التى كانت فى الانتظار فى قصر القبة لتذهب بنا إلى المستشفى ، وكان أحفادى فى حالة شبه هستيرية من شدة الخوف ، وقضيت وقتى فى السيارة أحاول أن أهدىء من روعهم . وقررت أن أطلب من طيار الهليوكبتر أن يتوقف عند منزلنا لكى أترك

الاحفاد ، ثم أتم الرحلة إلى المستشفى بالسيارة ، فقد كانت منطقة هبوط الهليوكبتر فى المستشفى بعيدة عن المدخل الأمامى ، وكنت أخاف ألا تكون هناك سيارة فى انتظارنا وأن نضيع وقتا طويلا ونحن نقطع المسافة الأخيرة من رحلتنا على الأقدام .

ولم أفهم لماذا ينظر إلى جميع من بالمستشفى بوجوم دون أن يوجهوا إلى أى حديث ؟ إنى أعرف جميع الأطباء والممرضات ، فقد أمضيت أوقاتا طويلة فى المستشفى مع الجرحى من حربى ٦٧ و٧٣ .

وهرع إلى رجل يبدو عليه الارتباك وبدأ يوجه إلى أسئلة باللغة الفرنسية حول حالة السفير البلجيكى « روبل » ، وحين تعرف أخيرا على قال : « آسف مسز سادات » ، وعرفت أنه السفير الفرنسى ، وعلمت فيما بعد أن السفير البلجيكى أصيب إصابة بالغة ولكن كتبت له الحياة .

وبدأ قلقى على زوجى يزداد حين أخبرونى أنه فى غرفة العمليات ولم تبد لى الممرات بهذا الطول من قبل ، وأنا أسرع نحو الحجرة التى ينتظرنى فيها ، وأتذكر بناتى وأنا أسير ، فقد كن فى المنزل يشاهدن العرض على شاشة التلفزيون . وأخيرا أجد الحجرة التى ينتظرننى فيها فى صحبة أزواجهن والوزراء الذين نجوا من الاعتداء ، ووجدت نائب الرئيس « مبارك » قد ضمد يده وكانت قد أصابتها بعض الخدوش .

هناك سكوت تام فى الحجرة . وإنضممت إليهم دون أن أقول شيئا كنت فى إنتظار طبيب يأتى إلى ليطمئننى على زوجى ، ولكن أحدا لم يأت ، ويتلقى زوج إبنتى حسن مرعى محادثة تليفونية من إبنى جمال من كاليفورنيا حيث علم بالاعتداء على أبيه . الجرح ، كما ذكر التلفزيون الأمريكى فى صدر أنور بجوار القلب . وذكر جمال لحسن أن سفارتنا فى واشنطن قد أعدت طائرة لنقله إلى مصر بسرعة ، وقام جمال بالاتصال بسفيرنا فى لندن حسن أبو سعده لكى يتصل بالدكتور مجدى يعقوب أخصائى القلب العالمى لكى يصحبه فى الطائرة إلى

مصر ، وكان د . مجدى يجرى عملية جراحية ولكنه أعطى المهمة إلى زميل له وأسرع فى الحال إلى المطار ومعه معداته وآلاته .

ومرت ساعات كاملة ونحن ننتظر فى مستشفى المعادى فى صمت عميق ، ورغم لهفتى على معرفة الحقيقة لم يأت أحد بها ، ومع ذلك شعرت أنى أعرفها . . وكان أول رد فعلّ لهذا الشعور أن أقوم بواجبى . . ووجدتنى آخذ نفسا عميقا وأنهض واقفة ثم استدرت نحو السيد نائب الرئيس وقلت فى هدوء : « يبدو أن السادات قد ذهب ، لقد جاء دورك الآن لقيادة الأمة ، أرجوك يا سيادة النائب أن تتفضل فإنها مسئوليتك الآن لرعاية مصر » . . ونظر إلىّ دون أن يتكلم .

وسمعت صوتا صارخا يقول : « لا تقولى هذا يا سيدتى لا تقولى هذا » ، وإستدرت لأرى الأستاذ أنيس منصور الكاتب المعروف ، وكان وقتها رئيسا لتحرير مجلة « أكتوبر » لكنى لم أجبه ، فقد انطلقت الى الممر فلم يوقفنى أحد واتجهت بمفردى الى حيث يرقد زوجى . ورأيت فى البهو المؤدى إلى غرفة العمليات كبير الجراحين يستند الى الحائط فى إعياء شديد ، وكنت أعرفه جيدا فقد فقد إبنه فى حرب ١٩٦٧ ، وسألته لماذا هو موجود خارج غرفة العمليات ، فليحاول انقاذ زوجى ، فأجاب وعيناه مليئتان بالدموع : « لا أستطيع أن أتحمل رؤيته » . . وهكذا تأكد شعورى فقلت له : « لقد فهمت يا دكتور ، أشكرك لكل ما فعلت » .
وبينما كنت أدفع أبواب غرفة العمليات ، كان الأمل ما زال يراودنى ، لكنه سرعان ما انطفأ ، فقد كان أنور راقداً على سريره وما زال مرتديا حلته الرسمية ، وكان الكم ممزقا لكى يسرع الأطباء بنقل الدم ، لكن القضاء حم وحل الأجل فلم يستطيعوا شيئا . وأرتميت على صدره ودموعى تنهمر . . وضعت فى حزنى فلم أر الأطباء والممرضات الذين ملأوا الغرفة ودموعهم تفيض على وجوههم . . كانوا قد أغمضوا عينيه ، ولفوا قماشا حول رأسه ليظل فمه مغلقا .

لا أستطيع الافاضة أكثر ولا أرى داعيا ، فالتصور أبلغ وأقدر ، يكفى ذكر إبتسامته قبيل إغتياله بدقائق وهى تشرق بآمال وطنه ، ثم ها هو سجى

بلا حراك . . وكانت دموعى تسيل فى هدوء حتى تنبهت إلى الوضع الرسمى ، واختلطت على الأمور ثم سرعان ما تماسكت أفكارى . . إن أحدا لا يعلم حتى الآن أن السادات قد مات ، ولا يجب أن يذيع ذلك حتى تتأكد أن الأمة فى أمان . . وتحاملت على نفسى ومسحت على شعره أسويه وقبلت وجهه ويديه وأنا لا أصدق أنه ميت ، فلم تكن هناك جروح بادية ولا دماء على سترته ، وهممت أن أوقظه من سباته ، وفطنت الى عبث اوهامى ، فكيف يعود ما لا يستعاد ؟

ومن خلال دموعى شاهدت أحد أزواج بناتى يدخل الغرفة وقلت له بهدوء : « حسن أحضر الأولاد » ، ولكنه اعترض قائلا : « لا ، لا » وكأنه لا يريد أن يصدق ما يراه . . وقلت بشدة : « حسن . . أرجوك ، أحضر الاولاد لكى يودعوا أباهم » وجاءت بناتى مع أزواجهن إلى غرفة العمليات ، قبلن أباهن المرة بعد المرة على جبهته ويديه والدموع تنهمر على جسده . لقد كن ، مثلى ، يحملن له الحب العظيم ، ولم يستطعن إيقاف حزنهن ، وقمنا معا بترديد ما يقال عادة فى هذه المناسبات : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . وقلت لأولادى بعد دقائق قصيرة ، « دعونا نذهب » ، ثم إستدرت إلى الأطباء وقلت : « أشكركم على كل ما فعلتم لزوجى والآن لى طلب أخير ، لا أريد أن يدخل أى شخص هذه الغرفة ، لا أريد أن يدخل أحد لمجرد رؤ يته ، أرجوكم أن تعطوا زوجى خلوته » . وهزوا رؤ وسهم بالموافقة .

يجب أن يعرف الوزراء ، ومبارك يجب أن يعرف ، لقد أستمر زوجى رئيسا لمصر لأحد عشر عاما والآن انتقلت المسئولية إلى مبارك .

وحين عدت إلى غرفة الانتظار قلت له : « السيد الرئيس ، لقد ذهب أنور السادات ، إنه لم يعد حيا وهذه إرادة الله ، ولكن مصر لا تزال حية ومعرضة لخطر قاتل ، والآن أنت الذى يجب أن تقودنا ، ولكنه ظل جالسا دون حركة ، ومضيت قائلة « إن لى طلبا واحدا : أرجوك ألا تعلن موت السادات حتى تعرف ما هو الموقف فى البلاد وكيف يمكن السيطرة عليه » .

وفى الحال بدأ الوزراء فى الخروج واحدا بعد الآخر ليعقدوا اجتماعا طارئا ، ولكن الرئيس مبارك كان لا يزال جالسا ، وعاد أحد وزرائه لكى يصحبه ، وقلت له : « لن أترك المستشفى حتى تذهب إلى الاجتماع ، تفضل سيادتك الآن ، إن واجبك أن تنقذ مصر » ، وفى النهاية نهض مبارك .

واستمرت الإشاعة بأن السادات جرح فى يده فقط ، ولكن كل من كانوا فى المستشفى يعرفون الحقيقة ، حين سرت أنا وبناتى خلال الدهاليز الطويلة كان الأطباء والممرضات وحتى الحراس يبكون بأصوات مرتفعة . وحاولت أن أسيطر على نفسى ، وأن أخفى عينى خلف نظارة سوداء ولكن لم أفلح ، وجاءت إحدى الممرضات وكنت أعرفها جيدا وأحاطتنى بذراعيها وبكينا معا ولكن فى صمت .

وتجمع الكثيرون خارج المستشفى ، حتى أعضاء مجلس الشعب ، كانوا يقفون ويبكون ، ورأيت وزيرة الشئون الاجتماعية وقد جلست على الأرض تضرب صدرها بيديها صارخة « إلى الله » وهذه طريقة التعبير عن الحزن التى ورثناها منذ أيام الفراعنة ، كان الحزن لموت زوجى عميقا عميقا ، وفى طريق عودتنا ارتفع بكاء سائق سيارتى وازداد ارتفاعا ، وازداد البكاء حين دخلنا المنزل ، كان الموظفون يعتقدون حتى تلك اللحظة أن السادات قد جرح فقط وأنه سرعان ما سيشفى ، ولكن حين شاهدوا السائق وأسرتى ، عرفوا الحقيقة .

لم أستطع التحدث معهم فى الحال ، بل أسرعت إلى الطابق العلوى ومعى بناتى وتوجهنا إلى شرفة حجرة أنور التى اعتاد أن يجلس فيها ويفكر وهو ينظر إلى النيل ، أخيرا . . أستطيع أن أبكى بحرية ، أبكى الرجل الذى كان زوجى لواحد وثلاثين عاما ، الذى دفع حياته ثمنا لرؤياه عن السلام والديمقراطية ، كنت أسمع صوت العويل وهو ينتشر فى البيت ، وبدأت مربية أحفادى تمزق ملابسها وهى تقفز فى الهواء وتولول حسب تقاليد القرية ، وتوسلت إليها أن تتوقف إذ كنت أخاف أن تؤذى نفسها .

ورن جرس التليفون ، كان جمال يتكلم من مطار نيويورك وقال لى : « أمى انى فى طريقى لكى أحضر الدكتور مجدى يعقوب » . . وأخذت نفسا عميقا ، كان الخط الذى نتخاطب عبره ليس مأمونا ، فقلت له بهدوء : « عد مباشرة

يا جمال ، لا يوجد داع لطبيب آخر » ، وتبع ذلك فترة سكوت رهيبة وأخيرا قال جمال : « لقد فهمت يا أمى » سأتصل بالسفير فى لندن لأخبره ان هناك فى مصر ما يكفى من الأطباء وأنه لا داعى لحضور الدكتور مجدى يعقوب .

وسألته « هل أنت بخير ؟ » .

وأجاب : « نعم يا أمى ، لقد أعطانى طبيب السفارة حبة « فاليوم » لكى أهدأ » ، فقلت له : « تشجع وكن ما يريد أبوك أن تكونه » . . كم هفا قلبى فى تلك اللحظة إلى جمال ، كان قريبا ، قريبا جدا لأبيه ، كان أبوه يسير كل يوم لمدة ساعة على الأقل فى حديقتنا وكثيرا ما كان جمال يشاركه السير ، كان أنور يريد من إبنه أن يفهم مسئوليته تجاه مصر وأيضا تجاه الأسرة ، ولما كان جمال هو إبننا الوحيد ، فقد قضى أنور وقتا طويلا فى إعداده لتلك اللحظة التى يودع فيها أبوه هذا العالم ، والآن قد حلت هذه اللحظة .

ولكن أحدا فى مصر لم يعرف الحقيقة ، وبمجرد أن بدأ إطلاق النيران فى ساحة العرض ، توقفت التغطية التلفزيونية وهذا أدى إلى التخمينات وانطلقت الاشاعات بأن هناك ثورة شاملة وأن المتطرفين المسلمين يحاولون الاستيلاء على الاذاعة ، وإشاعة أخرى بأن القتلة قد هربوا إلى جامعة أسيوط وهى مركز للجماعات الاسلامية وهناك استولوا على مبانى الجامعة وأنهم يقتلون كل من يتصدى لهم ، كما كانت هناك تخمينات حول مصير الرئيس : قائل بأنه لم يصب وأنه يحاول أن يوقف الانقلاب ، وآخر بأن الرئيس قد مات .

وقرب المساء ظهرت على شاشة التلفزيون الآية القرآنية التى تقول : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . وكانت تلك الآية هى علامة النهاية ، وبدأ الناس فى التجمع فى الشارع المواجه لمنزلنا ، يبكون ويندبون الاعتداء على قائدهم ولم ينقطع رنين التليفونات فى منزلنا ولكن الموظفين قاموا بحمايتى وقالوا إن الطبيب أعطانى مهدئا لكى أستطيع النوم ، وحتى جيمى كارتر الرئيس السابق للولايات المتحدة والذى كان له دور فعال فى تحقيق السلام بين مصر وإسرائيل ، لم يسمح له بالحديث معى ، لم أستطع الوصول إلى التليفون ، لم أستطع

التحدث إلى الناس ، كنت أنا وأولادى فى حالة من الذهول والحزن العميق .

وفى الثامنة مساء ، أى بعد سبع ساعات من الاعتداء على زوجى ظهر مبارك على شاشة التلفزيون ليعلن فى خشوع موت زوجى .

وقد علمت بعد ذلك أن إذاعة صوت أمريكا التى يستمع اليها الكثيرون من المصريين ، أذاعت المارش الجنائزى لشوبان وكانت تقطع إذاعتها من وقت إلى آخر لتذيع باللغة العربية أن أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية قد مات .

كيف يمكن أن يقتله أفراد القوات المسلحة ؟ من هو المسئول عن غياب إجراءات الأمن ؟ . فى ساعة متأخرة من الليل حين كنت أنا وبناتى نحاول أن نسيطر على دموعنا ونجد إجابات على هذه الاسئلة ، كانت هناك فعلا بعض الاجابات ، لقد طلب أنور شخصيا من حرسه الخاص ألا يقفوا بينه وبين القوات المسلحة ، معتقدا ليس فقط إنه ليس فى حاجة إلى حماية من جيشه هو ولكن أيضا لاعتقاده أن مثل هذه الحراسة تعنى أنه معرض للخطر ، وفى ذلك اليوم الخاص كانت قوات الأمن الخاصة بالرئيس تقف فى أقصى جانب من منصة العرض ، بعيدة عن النظر .

لكن أسئلة كثيرة ظلت بلا إجابة . . ففى كل عام كانت فرقة من فرق الصاعقة تتقدم العرض ثم تأخذ مكانها بين الرئيس وقوات العرض ، لكن هذا لم يحدث فى ذلك العام ، وفى كل عام كان القناصة يرابطون فوق أسطح الأبنية المحيطة لمراقبة أية محاولات عدوانية ، لكن لم يظهر لهؤلاء القناصة أثر فى ذلك العام ، وكان المفروض أن تخضع كل مركبة عسكرية وكل مدفع لتفتيش دقيق للتأكد من خلوها من الذخيرة الحية ، لكن أولئك الثلاثة ـ ضابطا وجنديين ، استطاعوا بطريقة أوبأخرى أن يصلوا أمام زوجى ومعهم ذخيرة حية .

هل كان حجم التآمر أكبر مما حدث ؟ لقد اعتقد ذلك كل من كانوا على المنصة وحين سمع الناس القنابل والطلقات الأوتوماتيكية فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الطائرات النفاثة اعتقدوا أننا نتعرض لهجوم جوى وقد جثوا تلقائيا ،

وأيديهم فوق آذانهم معتقدين أن كل شىء قد انتهى ، لم يعتقد أحد أن الاعتداء على رئيس جمهورية مصر يمكن أن يكون مجرد فعل من جانب قلة ، بل إنه مؤامرة من جانب كثرة . ومرت ساعات على هذا الحال ، كان جميع من فى مصر يوجهون اللوم للجميع ، كان الحرس الجمهورى يوجه اللوم إلى الحرس الخاص للرئيس ، ووسط هذا زاد العويل فى الشوارع .

وجفت دموعى وتحولت إلى الشك ، الشك فى الجميع ، هل كان هناك غريب فى منصة العرض ، شخص لا نعرفه ؟ وفى اليوم التالى حين كنت أتلقى عزاء السفراء الاجانب فى الصالون ، اتصل بى رئيس الوزراء الدكتور فؤاد محيى الدين ليطلب إذنى لإخراج الرصاصة الوحيدة التى بقيت فى جسم أنور كجزء من التحقيق حول الاغتيال ، ووافقت فى الحال . وأخبرت رئيس الوزراء أن هناك شرطاً واحداً وهو أن أكون موجودة أنا وإبنى جمال . وكما قلت له أن إرادة الله هى أن يعطى جمال الفرصة ليودع أباه الذى مات أثناء غيابه . ولم أخبره بالسبب الحقيقى . كان جمال عضواً فى نادى الرماية بالقاهرة وكثيرا ما كان يذهب لصيد البط مع والده . وكان يعرف الكثير عن البنادق والذخيرة وكان يريد التأكد هل كانت الرصاصة الموجودة فى جسم والده من مدافع الارهابيين الرشاشة أم من بندقية أخرى أوحتى من مسدس . لعل زوجى قد أصيب من الخلف من جانب شخص موال للمتطرفين المسلمين . أوحتى من جانب أحد الحراس الموجودين هناك ، لم أعد أثق فى أى شخص .

وقد صدم رئيس الوزراء حين صممت على الحضور أنا وجمال ، وقال محتجا : « سيكون من الصعب عليك مشاهدة ذلك » ، ولكنى صممت قائلة : « سأكون هناك » .

وفى طريقنا إلى المستشفى كان قلقى على رؤية جمال لجثمان أبيه أكثر من قلقى على نفسى . واعتقدت ان وابل الرصاصات التى استعملت لابد أن تكون قد مزقت جسده ، ولكى أعد جمال للمنظر الذى سيراه ذكرت له اعتقادنا بأنه إن كان جسد أبيه معرضا للموت فإن روحه ستعيش أبدا فى الجنة . كان أنور على درجة

كبيرة من التدين ، وفى النهاية أصبح متصوفا ، يصوم كثيرا ، مصليا أكثر من الصلوات الخمس . وأخبرت جمال أن روحه لابد أن تدخل الجنة وأنها ستنال أعلى شرف روحى وهو رؤية وجه الله .

وقلت لجمال : « لا تنزعج مما ستراه ، بل كنْ سعيدا لأنه سيكون فى الجنة ، إنى زوجته وأنت إبنه ، ولأننا لا زلنا على هذه الأرض فإن واجبنا أن نكرم بقاياه ، لا يجب أن تتم العملية الجراحية وهو وحده ، يجب أن نكون بجواره » ، ثم أشركته معى فى شكوكى وقلت له فى هدوء : « انظر جيدا إلى الرصاصة لتعرف نوعها ، إن لك خبرة فى هذه الأمور ليست لى ، إذا كانت الرصاصة خارجة من نوع من البنادق يختلف عن ذلك الذى استعمله القتلة ، حينئذ سنعرف أن هناك آخرين مسئولين » .

وفى المستشفى جاء دور كبير الجراحين ليحاول أن يثنينى عن عزمى بلطف : أنك ستذكرين دائما آخر رؤية لزوجك وستعود هذه الذكرى إليك لتزعجك ، ولكنى صممت قائلة « إنى سأقف بجوار زوجى ، أرجوك ألا تناقشنى ولن أعطى موافقتى على اجراء العملية على زوجى إلا إذا كنت بجانبه » . . ولكنه صمم على المعارضة . وحينئذ اتصل جمال بالرئيس مبارك الذى قال له : « لا أستطيع أن أمنعها ، فقد كان زوجها ولا أستطيع أن أرفض لها هذا الطلب » ، ثم أعطى أوامره إلى الأطباء لكى يسمحوا لى بحضور التشريح .

وجاء جسد أنور على سرير متحرك من المشرحة ، تغطيه ملاءة بيضاء وكتمت أنفاسى من الصدمة ، كيف هذا لم أصدق ما أرى لم أره مستريحا وسعيدا كما آراه الآن والابتسامة على شفتيه . كنت أوقظه فى الساعة التاسعة كل صباح وكثيرا ما يقول لى ، وقد انتفخت عيناه من قلة النوم : « دعينى أنام عشر دقائق أخرى » ، وفى نومته الأبدية بدا لى أحسن وأهدأ من أى وقت آخر ، وبدا لى وكأن شعاعا من نور ينعكس منه ، ولولا أن عينيه كانتا مغمضتين لانتظرت منه أن يتحدث الىّ .

وحتى جسده بدا كاملا ولم يكن ممزقا بالرصاص ، بل على العكس حين نزعوا الغطاء شاهدت ثلاثة ثقوب صغيرة فقط : واحدا فى رجله واثنين فى صدره قرب القلب ، كانت تبدو كأنها كدمات صغيرة وليست جروحا مميتة ، أقل من أن تقضى على مثل هذا الرجل ، ومددت يدى لكى ألمسه فقد بدا وكأنه ملىء بالحياة ، ولكن حين لمست يداى جسده شعرت بالبرودة ، لا توجد حياة ، وقبلته آخر قبلة على جبينه وكان كالثلج فى برودته .

ولم يستطع جمال أن يمنع دموعه أمام منظر أبيه . ولكنه جفف دموعه ووقف قريبا من الجراح وهو يفتح كتف أنور ويدخل أصبعه ويخرج الرصاصة وأخذ جمال الرصاصة من الطبيب واختبرها بتمعن . . كانت من نفس النوع الذى استعمله الارهابيون ، لم يكن هناك شخص آخر أطلق الرصاص على زوجى .

وقلت لجمال « نستطيع أن نذهب الآن » ، وعدنا إلى منزلنا واستمر الاطباء ليتموا عملية التشريح الرسمى .

وأعلنت الأحكام العرفية بعد الاعتداء على زوجى وكذلك حظر التجول ، وكان البوليس الحربى قد بدأ فى اعتقال مئات من المتطرفين الدينيين ، فتش منازلهم لا ليجد فقط مخابىء كبيرة للأسلحة ؛ ولكن أيضا خطة مفصلة للاستيلاء على الحكم .

لقد قتل التهاون زوجى ، لقد قتل الإهمال زوجى ، أن حب أنور شخصيا للقوات المسلحة واعتقاده بأن المتطرفين المسلمين لن يتغلغلوا فيها ساعدا على قتل زوجى ، وقفنا جميعا لنراقب « هذا غير معقول » كانت تلك كلمات أنور الأخيرة إلى حسنى مبارك ، حين جرى بعض أفراد جيشه نحوه وهم يحملون الرشاشات التى تمطر الموت .

ودفن أنور فى قبر على شكل هرم صغير ، عبر ساحة العرض فى مدينة نصر حيث أطلق عليه الرصاص . . كان هذا قرارى وليس قراره ، كنا أنا وهو كثيرا ما نتحدث عن المكان الذى يدفن فيه ، وخاصة فى الشهور الأخيرة حين شعر أن

موته بات قريبا . وكنت أحاول أن أمزح فى هذا الأمر لكى أزيل ذلك الاحساس الذى سيطر عليه بشدة . ولكنه استمر فى التحدث عن موته بتصميم غريب ، وعن رغبته فى أن يدفن فى قرية طفولته الميمونة ـ ميت أبو الكوم ـ فى دلتا النيل . وكنت أشاكسه فى محاولة لتغيير الموضوع قائلة : « إن الرحلة لزيارتك ستستغرق منى ومن الأولاد ساعة ونصف ساعة . . ولكنه لم يتزحزح عن رأيه ، ولكنه قال فى مرة أخرى ونحن نمشى فى حديقتنا : « إن لم تكن ميت أبو الكوم ، فلتكن إذن عند سفح جبل سيناء عند دير سانت كاترين ـ حيث سيبنى جامعا ومعبدا يهوديا ـ إن دفنى هناك سيقول للناس إن جميع الأديان واحدة وأن الله واحد لنا جميعا » ، كانت فكرة بديعة طبعا ، كان حلم أنور أن يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون فى توافق وسلام . وكانت سيناء مهمة لنا جميعا ، ففى سيناء تلقى سيدنا موسى الوصايا العشر من الله ورأى النار المشتعلة فى الشجرة المباركة ، وعبر سيناء سافر المسيح حين فر هو والعائلة المقدسة من الملك الرومانى هيرودس ملك فلسطين .

كان الدفن فى سيناء رمزا خاصا لأنور ، فقد كرس نفسه لاستعادة هذه الأرض التى استولت عليها إسرائيل فى عهد عبد الناصر ، ومن سخريات القدر أن نجاح زوجى فى هذه المهمة بالطرق السلمية كان هو الحكم عليه بالموت . نعم إن دفنه هناك كان مناسبا ، لكننى كنت أحاول دائما أن أداعبه حول اختيار مكان لقبره ، فإذا كانت ميت أبو الكوم بعيدة فما بالك بجبل سيناء ؟ وكنت أقول له : « إننا سنحتاج إلى طائرة وسيارة لكى نصل هناك يا أنور . وهذا يعنى أنى لن أستطيع زيارتك إلا مرة أو مرتين فى السنة ، من الأحسن إذن أن تدفن فى ميت أبو الكوم » .

ولكن وقت المداعبة قد انتهى ، وحين سألنى الرئيس مبارك : أين ندفن أنور ؟ قررت أن أتجاهل رغبات زوجى . لقد كان رجلا عظيما وليس عاديا ، فلماذا ندفنه فى مكان يصعب على الناس زيارته ، لم لا ندفنه حيث لقى حتفه ، إنه مكان عسكرى كان شغوفا به ؟ كم كان يستمتع بذهابه فى ٦ أكتوبر كل عام إلى

قبر الجندى المجهول ليوقد الشعلة على أنغام موسيقية جميلة ، ثم يستعرض القوات المسلحة التى خدمت مصر بكل شجاعة . إن دفنه هناك سيذكر الجميع بكل ما فعله من أجل بلدنا . . وكل عام أثناء استعراض ٦ أكتوبر ، سيمر كل جندى وكل ضابط على قبره ويعرف أن السادات هناك ويحييه .

ولم أكن أعرف إذ ذاك أن الرئيس مبارك ينوى إلغاء أية استعراضات أخرى فى ٦ أكتوبر ، وهو على حق فى هذا القرار حتى يتفادى وضع نفسه فى نفس الموقف الخطر الذى تعرض له سلفه . وأيضا لم أكن أعرف أن الرئيس مبارك سيعلن للسنتين التاليتين أن الذكرى الرسمية لموت السادات هى ٥ أكتوبر محتفظا بيوم ٦ أكتوبر لذكرى الانتصار على اسرائيل ، ولم يكن أنور ليحب هذا ، كان يحب أن يجمع المتناقضات . . لقد اختار ٥ يونيو ذكرى الهزيمة المزرية فى حرب الأيام الستة عام ٦٧ ، لكى تكون يوم اعادة افتتاح قناة السويس فى عام ١٩٧٥ ، وبذلك حول يوم العار الوطنى إلى يوم الاحتفالات الوطنية .

ولكن الرئيس مبارك لم يفكر فى مثل هذه المتناقضات والمفارقات ، وكنت أقول له : « أرجوك ، أن السادات ينتمى إلى السادس من أكتوبر ولا تستطيع أن تنزع ذلك منه » ، ولمدة سنتين كان يجيب بأنه يخاف من أن الاحتفال بذكرى النصر فى نفس اليوم الذى قتل فيه زوجى قد يثير فى المرارة ، وكنت أقول له بلطف : « إنى أشعر بالمرارة من أشياء أخرى » ، وأخيرا لابد إنه صدقنى ، فقد أصبح اليوم الآن واحدا مراً ـ حلواً يوم حداد واحتفال فى السادس من أكتوبر ، ومهما كنت فى أية جهة من العالم ، فإنى أعود دائما إلى القاهرة لأكرم زوجى وأزور قبره .

وفى يوم الجنازة جلست على نفس المقعد الذى جلس عليه أنور فى منصة العرض ، وشعرت كأنى أعيش قصة مأساوية ، لا أعرف بالضبط ما هو الواقع وما هو الخيال . وجعلت أفكر أنه قتل فى نفس هذا المقعد ، منذ أيام معدودات كان يجلس فى هذا المكان بالضبط . مليئا بالحيوية ، مليئا بالحياة ، مليئا بالحب

لبلده . والآن يعود هنا مرة أخرى ولكن مجرد جسد ، إن أياما معدودات غيرت تماما من حياتنا ومن مستقبلنا .

كان عدد قليل من الجمهور فى شوارع القاهرة لمشاهدة الجنازة ، ففى حالة الطوارىء التى أعلنت بعد اغتيال زوجى ، كان التجمع العام لأكثر من خمسة ممنوعا ، ومن ثم فقد شاهد الجمهور الجنازة على شاشة التلفزيون ، وعرض قبل الجنازة فيلم تسجيلى عن حياته ، يبين أنور وهو فى الجبهة عام ٧٣ على الرغم من الاخطار ، أنور يصلى فى المسجد الأقصى بالقدس عام ٧٧ أثناء رحلته الجريئة إلى اسرائيل للسلام ، أنور وهو يوجه خطابا إلى الكنيست . . . إن زوجى لم يكن ضحية حرب ، لقد كان ضحية سلام .

وسار موكب الجنازة الحزين . وسار من خلفه المشيعون ، وكان من بينهم جيمى كارتر ، ورتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجميعهم رؤساء سابقون للولايات المتحدة والأمير تشارلز من انجلترا والملك بدوان ملك بلجيكا وجيرالد ديوك جين من لوكسمبرج وهلموت شميدت مستشار ألمانيا الغربية والرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران ، والرئيس الفرنسى السابق فاليرى جيسكار دستان ، وقادة من الاتحاد السوفيتى وأفريقيا ومئات من الشخصيات الأجنبية الهامة جاءوا ليكرموا زوجى . . . بالإضافة إلى مناحم بيجين رئيس وزارء إسرائيل ، وقد صاحبتنى صديقتى الحميمة فرح ديبا الامبراطورة السابقة لإيران فى المنصة كما فعلت أيضا روزالين كارتر وجين كرك باترك سفيرة الولايات المتحدة وممثلتها فى الأمم المتحدة وبثينة النميرى زوجة رئيس السودان .

وقد صدمت وحزنت ألا أجد أى زعيم عربى إلا الرئيس نميرى رئيس السودان ورئيس الصومال سياد برى اللذين جاءا ليقدما احترامهما إلى أخ سقط ، حقا كانت هناك خلافات بين مصر والدول العربية بعد أن أقام أنور السلام مع اسرائيل ، وبعد توقيع إتفاقيات كامب دافيد قامت جميع الدول العربية ، ما عدا السودان وعمان والصومال ، بقطع علاقاتها الديبلوماسية مع مصر . ولكن الاسلام

يقول أن أية خلافات بيننا فى هذه الحياة يصفيها الموت . إن واجب هؤلاء القادة العرب بصفتهم مسلمين كان تكريم وفاة واحد منهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، وسألت واحداً من الزعماء العرب فيما بعد لماذا ؟ فأجاب : « لأن بيجين حضر الجنازة ولن أسير فى جنازة يسير فيها رئيس وزراء إسرائيل » ، وكنت أعرف أن هذا كان مجرد عذر ، إن غيابهم أصابنى بجرح عميق .

وبدأت السيارات التى تحمل جثمان أنور فى الاقتراب ، كان فى المقدمة سيارة شرطة أمام العربة العسكرية التى تجرها الخيول ، وسيارة أخرى وراءها وموتوسيكلان على كل جانب ، كنت أهز رأسى غير مصدقة وصحبت أولادى وعبرنا الشارع إلى القبر لننضم إلى الرئيس مبارك والرئيس النميرى . وكان النعش الذى يضم رفات أنور مغطى بالعلم المصرى . وكان أنفه مسدودا بقطن معطر وكان كاحلاه مربطوين معا ويداه فوق صدره . وكان جسده قد غسل تماما ورش عليه ماء الورد ثم لف فى سبعة أكفان بيضاء ، وكان زوج إبنتى حسن مرعى وطلعت شقيق أنور قد حضرا الغسل ولكن جمال لم يستطع من شدة حزنه ، لم أستطع أن أخفى دموعى حين أنزل النعش إلى القبر . ووقفت متمالكة نفسى بقدر ما أستطعت وشاهدت جمال وأزواج بناتى وأخوة أنور ينزلون مع النعش إلى القبر لكى يؤدوا الشعائر الأخيرة ، ويودعوا أنور الوداع الأخير ، ولم أستطع كامرأة أن أتبع نعش زوجى إلى القبر ولكن كنت أعرف ما سيحدث هناك ، سيفتح غطاء الكفن الذى يغطى وجه أنور ويوضع الجسد فى إتجاه (القبلة) ، وسيقوم الرجال بقراءة بعض آيات من القرآن .

لقد جئنا من التراب وإلى التراب نعود . وكنت أحاول أن أسيطر على نفسى وأنا أنتظر أمام باب القبر . وكنت أنصت إلى الموسيقى الجنائزية تعزفها فرق الموسيقى العسكرية . وكان النفير يلعب نغمة حزينة ، ونزع العلم من فوق النعش ، وحين خرج الرجال من القبر تم إغلاق بابه ، وكنت أعلم أن جسد أنور كان ملفوفا فى علم بلده التى كان يحبها بعمق ، بلده التى أعطى حياته لها . من أجل مصر ، أنور ؟ هل هذا ممكن ؟ كنت أنام فى سريره بعد الجنازة ، وفجأة

شعرت أنه بجوارى ، كنت أراه بجوارى ، كنت أراه بجوارى نائما ، هل هو حلم ؟ لا ، إنى مستيقظة ، إنه هنا بجانبى ، واستدار إلى وفتح عينيه وابتسم . أنى لا أجرؤ على الحركة ، داعية إلى الله ألا يفارقنى مرة أخرى ، كان فى السرير ، وأمد يدى ببطء لكى ألمسه ، إنه لا يزال مبتسما . . ثم ذهب .

وسمعت صوت جمال ينادى بانفعال : « أمى ، إن أبى معى فى الحجرة لقد تحدث إلىّ » وسالت دموعى وأنا أنظر إلى عينى جمال وقد إتسعتا من الدهشة ، وقال : « كنت فى السرير أقرأ وفجأة سمعت صوته يقول : « جمال إنى سعيد وفى سلام ، قل لأمك وأخوتك ألا يقلقوا ، إنى فى أسعد حال » . وقفزت من السرير باحثا عنه ، بحثت عنه فى كل حجرة ولكنى لم أجده » .

وبعد مرور أربعين يوما على وفاة زوجى ، ذهبت إلى قبره أنا وأكثر من خمسين فردا من أقاربه ، أخوته وأخواته وأولاد أعمامه وبنات أعمامه وبناته الثلاث من زواجه الأول للإحتفال بالأربعين ، وبكيت أنا وأولادى ونحن ننصت إلى قراءة آى الذكر الحكيم ، ولم أستطع أن أبعد عن ذهنى ما قاله لى فوزى عبد الحافظ سكرتير أنور ، وكان يرقد جريحا بجوار أنور بعد الاعتداء ، ورأى عينى زوجى مفتوحتين وهو ينظر إلى الشرفة التى كنت أقف فيها ، لم يستطع زوجى الكلام وكان يعرف أنه على وشك الموت ، ولكن عينيه كانتا تتحدثان ، كانت عيناه تقولان لصديقه المخلص . . أرع أسرتى ، أرعهم يا فوزى ، وبقى فوزى واحداً من أكثر أصدقائنا ولاء ، كثيرا ما يأتى لزيارتنا ويشاركنا فى أحزاننا ويسأل عنا دائما .

إنى أذهب الآن بمفردى لزيارة قبر أنور ، وهناك أقف وأقرأ بعض آيات من القرآن ، وكلما ذهبت هناك ، سواء فى الصباح أو بعد الظهر ، أو فى المساء حين يهجرنى النوم ، أجد دائما جموعا من الناس ، وقد أخبرت أنه بعد الأهرام وأبى الهول فإن قبر أنور من أكثر الأماكن المزورة فى القاهرة .

ولاتزال دموعى تجرى حين أذكر زوجى ، ولكن منذ البداية كنت أعرف أن على ان أتقبل موته ، وأن أستمر ، كان علىّ أن أواجه فقده بشجاعة من أجل

أسرتى ، ومن أجل مصر ، لم يكن من السهل أن أتعايش مع هذا الحزن والألم ، لم يكن من السهل بعد واحد وثلاثين عاما مع هذا الرجل الذى أحبنى واحببته ، كنا شريكين يكمل أحدنا الآخر ، وليس ككل زوج وزوجة عاديين ، كنا نتفاهم تماما ، ويحترم كل منا الآخر أقصى احترام ، كان مصدر قوتى وكنت ضوءه ، كان هذا شيئا من الصعب علىّ أن أفقده .

إنى أحاول الآن أن أكفكف دموعى ، وبدلا من البكاء أحاول أن أفكر كيف يريد أن يرانى ، إذا رآنى فى حزنى فإنه لن يكون مرتاحا ، كان يرانى مقاتلة وكان يشعر دائما بالفخر بى ، على أن أستمر كما أرادنى أن أستمر ، كانت تطلعاته دائما فى ذهنى ، وحين أشعر أنى سأفقد نفسى من الحزن أو أضعف ، فإنى أقول لنفسى فى الحال : « لا تكونى هكذا ، إن السادات لا يريدك بهذا الشكل ، إن أنور يريد أن يراك قوية كما كنت دائما » . وبسبب صورته هذه التى أحملها دائما ، أستطعت أن أتغلب على الصعوبات الكثيرة حتى برغم كل ما شاهدته وعانيته .



الفصل الثانى

الطفولة فى القاهرة



لم أعرف أن اسمى جيهان حتى بلغت الحادية عشرة من عمرى ، وجيهان اسم فارسى اختاره والدى وهو يعنى العالم ، وكانت أمى - وهى إنجليزية - تطلق على اسم جين ، وهذا هو الاسم الذى نادانى به والدى ، وكان موظفا فى وزارة الصحة ، وكذلك المدرسون فى المدرسة الابتدائية التى كنت أدرس فيها ، وأيضاً جميع زميلاتى . ولم يكن بالشىء الغريب أن تطلق علينا أسماء أوروبية ، كان لى صديقات بأسماء ميمى وفيفى وهلين وبيتى ، كان المصريون يعجبون بطريقة الحياة الأوروبية منذ أن فتح الوالى محمد على مصر للتأثير الأجنبى معتقداً أن الأوروبيين أكثر تقدماً ، ولكن الغريب أنى لم أعرف اسمى الحقيقى إلا عندما تسلمت شهادة الابتدائية قبل أن أنتقل إلى المدرسة الثانوية . . . وحين رأيته مكتوبا على شهادتى يتلوه عنوانى سألت المدرسة : من هى جيهان ؟

فقالت : أنت .

وعدت إلى البيت مسرعة وسألت أمى : ما اسمى ؟

فقالت : فى المدرسة الآن اسمك جيهان ، اما فى العائلة فأنت جين . وحتى الآن هذا هو الاسم الذى تنادينى به أختى وأخواى .

لقد ولدت فى جزيرة الروضة وهى إحدى جزيرتين فى النيل تصل بينهما جسورٍ إلى القاهرة فى الشرق والجيزة فى الغرب ، كانت جزيرة الروضة منطقة جميلة بها حدائق وفيلات بلون الخوخ مبنية من الحجر الجيرى وكانت تسكنها عائلات من الطبقة المتوسطة ، وكانت الجزيرة الأخرى ، الزمالك ، أكثر فخامة يسكنها الكثيرات من الأسر الانجليزية والأثرياء من المصريين .

كنت الثالثة بين أربعة أطفال فى الأسرة ، وكنت الابنة الأولى ، وهناك فارق كبير فى السن بين أخوىّ وبينى ، فمجدى يكبرنى بعشر سنوات وعلى بسبع ، وقيل لى إن أمى كانت مشتاقة إلى أن يكون لها أبنة ، لكى تمشط لها شعرها وتطرز لها ملابسها ، وكان يوم ولادتى حفلا فى بيتنا ، زادته بهجة العلاوة التى حصل عليها والدى فى نفس اليوم من الحكومة ، ومنذ البداية نظر إلىّ والدى على أننى أجلب الحظ ، وولدت أختى داليا بعد واحد وعشرين شهرا وبذلك تمت أسرتنا .

كنا جميعا نميل إلى الشقرة ليس فقط من ناحية أمى الإنجليزية ، ولكن من ناحية والدى أيضا ، كان والد أبى من الصعيد من أصل فرعونى خالص يمتاز بالطول واللون الأسمر ، وبرغم ذلك فإنه كان ناصع البشرة أزرق العينين ، وكان أولاده ـ وهم والدى وعمى وعمتان ـ أيضاً بنفس اللون ، ومثل جميع الأسر المصرية كنا مترابطين تماما .

وحين كنت طفلة كنا نعيش مع بعض أقاربنا ، ولكننا افترقنا حين بلغت الخامسة ، وان لم ننتقل الى مكان بعيد ، فكان عمى الأعزب مصطفى يعيش على بعد منزل واحد منا ، ومعه اخته المطلقة عزيزة ، إذ كانت مسئوليته كأخ أن يرعاها هى وابنتها عايدة ، وكنت أزور عمتى عزيزة ـ أو زوزو كما كنا نسميها ـ كل يوم بعد الظهر ، وكثيرا ما كانت تزورنا فى المساء . كانت عمتى المفضلة وأمى المصرية ، وكانت تغمرنى بالحب والرعاية .

وحين تزوج عمى مصطفى وهو فى الثامنة والثلاثين استمرت عمتى زوزو فى منزله معه ومع زوجته ، إذ لم يكن من اللائق فى ذلك الوقت أن تعيش امرأة بمفردها وأنا أعرف أنها رفضت كثيرا من عروض الزواج خيفة أن تتعرض ابنتها لسوء المعاملة من زوج الأم .

وكانت عمتى الأخرى فاطمة التى كنا نناديها بعمتى بطة تسكن خارج القاهرة فى شارع الهرم ، ولم تكن عاطفية مثل عمتى زوزو ولكنها كانت امرأة قوية . وبعد موت جدتى أخذت عمتى بطة مكانها بجدارة ، فكان بيتها هو ملتقى الأسرة فى إفطار أول يوم فى رمضان ، وكانوا يذهبون إليها للمشورة . وكانت متزوجة من حسنى أبو زيد الذى كان عضوا فى حزب الوفد ، وعمل مديرا لمحافظتى المنوفية والمنيا . وكان لعمى حسنى سيارة حكومية ، وهى رمز للوجاهة فى ذلك الوقت ، وكنت أحب أن أركب معه ونجوب نواحى المحافظة ، وبسبب أرقام السيارة الحكومية وعلم المنوفية الذى يرفرف عليها كان الجنود الذين يشاهدونها يؤدون لها التحية ، وكطفلة صغيرة كنت أتصور أنهم يحيوننى .

وكطفلة نشأت فى الروضة علقت بمخيلتى مشاهد عديدة من معالم القاهرة فكنت فى طريقى الى المدرسة أشاهد أبراج كنيسة أبو سرجة التى بنيت فى المكان الذى يقال ان العائلة المقدسة اقامت فيه عند فرارها إلى مصر . وبعد « ابو سرجة » كنت أرى المآذن الرفيعة الثمانية للمسجد الذى بناه محمد على فى القرن التاسع عشر . وأبعد من هذا كانت تقع المدينة القديمة التى أقامها الفاطميون فى عام ٩٧٣ ، والجامع الأزهر الذى يعد أقدم جامعة فى العالم ، ويقصده أكثر من مائة ألف طالب من جميع أنحاء العالم ليدرسوا أسس الإسلام وأصوله وعلومه .

وفى الجانب الآخر من الروضة كنت أنظر عبر النيل الى الغرب واشاهد حدائق ومنازل الجيزة ، ثم مبانى جامعة القاهرة وشارع الهرم الذى يقودنا اذا توغلنا فى الصحراء الى واحة الفرافرة والصحراء الليبية . وحين يكون اليوم صحوا والجو خاليا من التراب والرمال كنت أستطيع أن أشاهد الأهرام . وكنت أسمع

خمس مرات فى اليوم صوت المؤذن يتصاعد من مآذن عشرات المساجد فى القاهرة داعيا المسلمين الى الصلاة .

كم كانت جزيرة الروضة جميلة وهادئة أيام طفولتى ، كانت لكل فيلا حديقة خضراء ، وكنت ترى النيل ينساب ساحراً على امتداد الفيلات المتناثرة على ضفتيه . لقد كان عدد سكان مصر عام ١٩٣٣ لا يزيد عن ١٥ مليوناً وعدد سكان القاهرة أقل من مليون .

لاشك فى أن أمى كانت جريئة حين تركت بلدها انجلترا لتأتى لتعيش فى مصر ، ولا شك فى أن والدى أيضا كان شجاعا ليتزوج من أجنبية ، إن مثل هذا الزواج ليس منافيا لديننا الإسلامى لأن أبناء الرجل المسلم يظلون مسلمين . وإنما يحرم فقط على المرأة المسلمة أن تتزوج رجلا من دين آخر لأن أولادها سيحملون دين أبيهم ، ومع ذلك اعترض أجدادى على هذا الزواج ولم يكن ذلك بسبب الدين ، ولكن بسبب تقاليد العائلة .

كان والدى صفوت رؤوف قد قابل والدتى جلاديس تشارلس كوتريل فى عام ١٩٢٣ بمدينة شفيلد بانجلترا حيث كان يدرس الطب فى جامعة شفيلد ، وكانت هى تعمل مدرسة للموسيقى ، وكان حبهما قويا منذ البداية ، ولابد انه كان كذلك فقد كان هناك ترتيب سابق بأن يتزوج والدى من ابنة عمه فى القاهرة . وكتب جدى رسالة الى والدى يقول فيها « لا يوجد أحد فى اسرتنا تزوج من أجنبية ، ولن اعطيك موافقتى لكى تتزوج من هذه السيدة الانجليزية » .

كان أجدادى بطبيعة الحال معتادين على الانجليز ، فقد كان هناك أعداد كبيرة منهم فى مصر فى ذلك الوقت ، ومنذ عام ١٨٨٢ تمركز أكثر من عشرة آلاف جندى بريطانى فى مصر لحماية الحكومة ، وكان المندوب السامى البريطانى لورد كرومر هو الحاكم الحقيقى للبلاد ، وكانت إنجلترا وفرنسا تتحكمان فى مالية مصر ، حتى أنصبة مصر فى قناة السويس التى تم حفرها عام ١٨٦٩ قام ببيعها الى بريطانيا الخديو اسماعيل الذى أثقلته الديون . . ومن ثم كان من الطبيعى أن

يشاهد البريطانيون وكثير غيرهم من الأجانب فى القاهرة ، ولكن كان من الصعب على أجدادى المحافظين أن يكيفوا أنفسهم لتقبل أساليب الحياة الأوروبية الجديدة .

وكتب والدى إلى جدى يقول : « اذا لم تصرح لى بهذا الزواج فإنى سأمتنع عن الطعام حتى أموت » . وكان عناد جدى لا يقل عن عناد أبى فكتب يقول : « لن أعطى موافقتى » ، واستمرت الخطابات بينهما ، حتى بدأت جدتى تخشى أن ينفذ والدى تهديده أو لا يعود إلى مصر مطلقا وهذا ليس أقل سوءا ، وتوسلت إلى جدى أن يعطيه موافقته ، أليس من الأحسن أن ترحب بابنك وزوجته فى مصر بدلا من أن تجبره على الحياة فى بلاد تختلف الحياة فيها عنا ؟

واضطر جدى أن يوافق ، وأرسلت جدتى إلى أبى هدية الزواج التقليدية من المجوهرات ، وكانت خاتما من الماس وعقدا من الماس والزفير كانت ورثتهما عن جدها ، ومعها مبلغ من النقود لقضاء شهر العسل . وتم زواج أبى وأمى زواجاً مدنياً فى إنجلترا ، وحين عادا إلى مصر بعد أربع سنوات كان معهما أخى الذى ولد فى ليفربول . وكما كانت التقاليد إذ ذاك فقد وصل أبى وأمى إلى بيت أجدادى فى جزيرة الروضة . وسرعان ما نما حب أجدادى لأمى وأن كان هذا لم يكن سهلا لأى منهما ، لقد كان مجتمعنا فى ذلك الحين مختلفا ، وكانت أحوال أمى فى الحقيقة غريبة جداً .

إنها لم تكن تأكل أى طعام مصرى ، وكانت تصمم على أن يقوم الطباخ السودانى باعداد طعام لها من اللحوم المسلوقة والخضراوات المسلوقة ومن كل شىء مسلوق إلى جانب البطاطس وعليه سلطة النعناع . وكانت بقية الأسرة تأكل الطعام المصرى : الحمام المشوى والأسماك المشوية والكباب والكفتة والفطائر المتبلة وورق العنب والملوخية والبامية وأنواعا عديدة من السلاطات والفول .

وكان الإفطار مختلفا أيضا ، ففى الصباح - وأحيانا فى جميع الوجبات - يأكل المصريون الفول المدمس ، أما فى منزلنا فكنا نأكل الكورن فلاكس والبيض

المسلوق والتوست الرقيق بدلا من الخبز ، بالإضافة إلى المربى التى كانت أمى تصنعها ، وكان الشاى بعد الظهر من الأمور المقدسة ، وكانت تقدم لنا شاياً إنجليزياً بدلا من الشاى بالنعناع الذى يفضله المصريون ، ومعه كعك انجليزى جميل وبسكويت وحلوى صنعتها بنفسها ، كانت مأكولات شهية حقا وخاصة مربى الليمون باللبن التى لم يكن نعرفها فى مصر .

وكانت تشاركنا فى منزلنا عائلة أخرى تسكن شقة فى الدور العلوى ، وكانت أمى تحضر شجرة أرز جميلة إلى البيت فى عيد الميلاد وتزينها بنجوم ساطعة وكرات ملونة ، وتضع على قمتها تمثالاً لبابا نويل . وكانت نادية وتهانى وهما من بنات العائلة التى كانت تسكن فى الدور العلوى ، وكذلك أطفال الحى ، يهرعون إلى منزلنا ليشاهدوا شجرتنا ، لأن عائلات قليلة جدا فى مصر هى التى تحتفل عادة بعيد الميلاد ، فلم يشاهدوا شجرته التقليدية وكان أصدقاؤنا يحسدوننا ، ليس فقط من أجل شجرتنا وكعكة عيد الميلاد التى تصنعها أمى ، ولكن لما كنا نتلقاه من الهدايا فى هذه المناسبة أيضا .

كان من الصعب على أمى أن تعيش على هذا البعد البعيد من بلدها ، وبخاصة بعد أن انقطعت جميع الاتصالات بين إنجلترا ومصر خلال الحرب العالمية الثانية ، فلم تعد تسمع أية أخبار من أسرتها . وفى يوم من الأيام ـ حين عودتى من المدرسة ـ وجدتها تبكى فى حجرتها ، وسألت بتى وهى صديقة لها : « ما الذى يزعج أمى ؟ » وأخبرتنى بتى : « لقد عرفت الآن أن والدها قد توفى ، وقد أرسلت أسرتها إليها ساعته وبعض النقود ، وبعد شهور قليلة فقدت أمها أيضا . وشعرت بالأسى الشديد لها . لم تكن تقدر على البعد عن أسرتها طيلة هذه المدة ، ولكنها لم تكن ترغب فى ترك أولادها وزوجها لتزور بلدها . وقد مضت ثلاثون سنة لم تعد فيها إلى إنجلترا ، وحين ذهبت بعد ذلك لم تستطع أن تتعرف على الشوارع ، أو حتى تعثر على بيت أسرتها فى شفيلد ، ولكى تتوصل إلى الإهتداء إلى أسرتها نشرت إعلانا فى الجريدة المحلية ذكرت فيه أسم الفندق الذى تنزل فيه ، وبعد ظهر ذلك اليوم هرعت لرؤيتها أختها الباقية على قيد الحياة

وبعض أقاربها ، وكان لقاء مؤثرا للغاية بعد هذا الفراق الطويل . وقد نشرت الجريدة التى تصدر فى شفيلد قصة هذا اللقاء .

لم تنشئنا أمنا لنكون بريطانيين ، ولم تقصد إلى ذلك مطلقا ، ففى بيتنا كنا نتحدث العربية التى تعلمتها وأصبحت تتحدث بها بطلاقة ، ولم تحاول بأى شكل من الأشكال أن تبعدنا عن تقاليدنا الإسلامية ، وعلى الرغم من ذلك فقد شعرت ـ كطفلة صغيرة ـ بشىء من الحيرة ، فقد كانت أمى تحتفظ بتمثال لصلب المسيح فوق سريرها ، وأحيانا كنت أراها راكعة أمامه وتصلى وقد شبكت يديها بالطريقة المسيحية ، ولذا شعرت بحيرة شديدة من الاختلاف فى الصلاة بين أمى وبقية العائلة . وفى يوم ما سألتها سؤالا كانت وجهته لى إحدى زميلاتى فى المدرسة : لماذا أنت مسيحية ونحن مسلمون ؟ وشرحت أمى لى بطريقة لطيفة « لا يختار أحد دينه فنحن جميعا كما نولد ، الشىء المهم هو أن نتذكر أن هناك إلهاً واحداً لجميع الأديان ، ولا يهم كيف نعبده ما دام الإيمان فى قلوبنا » .

وعلى الرغم من هذا فقد أقلقنى الأمر ، ففى مدرسة الإرسالية المسيحية التى كان جميع الأطفال فى حينا يلتحقون بها لأنها المدرسة الابتدائية الوحيدة فى جزيرة الروضة ، وكانت المدرسة تقرأ لنا أكثر من مرة كل أسبوع قصصا من الإنجيل عن الأنبياء ، وعن السيد المسيح ، وكان هناك كل يوم قبل بدء الدراسة صلاة مسيحية عامة ، أخبرتنا المدرسة إننا لسنا مجبرين على حضورها إذا لم نرغب فى ذلك . ولذلك لم أحضرها وبقيت عند مكتبى فى الفصل بينما ذهبت بقية التلميذات إلى الصلاة ، وفيهن أختى التى كانت أصغر من أن تفهم ما يحدث . وقالت لى أختى : « لماذا لا تأتين معنا ؟ » فقلت لها : « إنه للمسيحيين أما أنا فمسلمة » ، فقالت : « ولكن هذا سيغضب المدرِّسة » .

لم يهمنى ذلك وقلت لها بتصميم « لن أنصت إلى قسيس لمجرد أن أرضى المدرِّسة » ولكن أختى كانت على حق ، فقد بدأت المدرِّسة تقسو علىّ وتعاقبنى بالوقوف فى ركن الفصل ووجهى إلى الحائط ، وذلك كل يوم أثناء الفسحة وقالت لى : إن أختك تحضر الصلاة وكذلك بقية التلميذات وآباؤهم مسلمون ، فلماذا

انت مختلفة ؟ فأجبتها قائلة : « لأنى لست مسيحية » وكانت النتيجة أن واصلت عقابى فى ركن الفصل ، وكنت فى الثامنة من عمرى فى ذلك الوقت . وبعد ثلاثة أسابيع من العقاب المستمر أخبرت والدى عن القسوة التى تعاملنى بها المدرسة ، وجاء والدى فى اليوم التالى ليقابل الناظرة البريطانية وقال لها : « لا أريد أى واحدة من إبنتىّ أن تحضر الصلاة ، إن هذا ليس دينهما والمدرّسة تضغط عليهما » .

ومن الواضح ان الناظرة فوجئت بما أخبرها به والدى عن قسوة المدرسة معى ، ولابد أنها تحدثت إليها فى ذلك ، لأنه بعد زيارة أبى أقلعت المدرسة عن المعاملة السيئة ، ومنذ تلك اللحظة كنت أنا وداليا نبقى فى الفصل بينما يذهب الآخرون إلى الصلاة .

لم تعتنق أمى الإسلام على الرغم من أن كثيرات من صديقاتها اللاتى تزوجن بمصريين اعتنقوه . وكان ذلك يحير عماتى وأعمامى وأصدقاء الأسرة ، وكانوا كثيرا ما يتساءلون « لماذا لا تغير جلاديس دينها ؟ » ولكن أبى كان يحب أمى حبا جما ولم يرغب مطلقا فى الضغط عليها ، ولذلك كنا نتبع تقاليدنا وأعيادنا مع أسرة أبى ، وكانت أمى تشاركنا فى هذا بشكل ما ، حتى إنها كانت تصوم بضعة أيام فى رمضان لتشجعنا على الصيام .

لم تكن أمى فى معاملتها لنا كالأم المصرية التى تدور حول أطفالها لتحميهم . لم تكن كذلك أبداً ، فكانت عندما نقع أثناء اللعب فى الحديقة تسرع إلينا عماتنا يحملننا ولكن أمى كانت تقول : « دعوهن يقفن وحدهن » ، وكانت تختلف عن الأمهات المصريات اللاتى حين يغسلن شعر بناتهن مثلا يبقينهن فى داخل المنزل حتى تجف شعورهن . . كانت أمى تقول : « هذا كلام فارغ إذهبن إلى الخارج حتى تجفف الريح شعركن » . وكثير من الأمهات المصريات يجلسن مع أطفالهن حتى يغلبهم النوم ، ثم يتركن « اللمبة السهارى » مضاءة حتى لا يخاف الأطفال إذا ما استيقظوا ، وكانت أمى تعترض على هذا الأسلوب ، لأنه لا ينمى فى الأطفال الاعتماد على النفس , وإنما مضت فى الأسلوب المضاد ، فكانت كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم تدفعنا إلى أن نخرج إلى الحديقة المظلمة

السوداء بمفردنا ، وأن نجد طريقنا حولها ثلاث مرات فى الظلام ، وكانت تقول إنه بهذه الطريقة ستتعلم ألا نخاف من أن نكون بمفردنا أو أن نخاف الظلام . وكانت على حق .

كان لبيتنا جو دافىء محبوب ، وكان والدى يعود من عمله كل يوم فى الساعة الثانية ، وهو موعد إنتهاء العمل فى جميع المصالح الحكومية ، وكان يحمل معه قوالب الشيكولاتة ، ونوعا جديدا من الجبن الفرنسى ، أو هدية من اللسان المدخن ، وكانت وجبتنا الأساسية هى الغداء كأغلب سكان القاهرة ، وبعدها ننام ـ كما اعتادوا أن يناموا ـ حتى الساعة الرابعة أو الخامسة . وبعد فترة النوم هذه لم يكن أبى يترك البيت كما يفعل كثير من الرجال المصريين ممن يذهبون إلى المقاهى لتناول القهوة أو لعب الطاولة أو تدخين النرجيلة ، كنا إما أن نخرج معا وإما أن نبقى فى البيت .

وأحيانا كان والدنا يأخذنا يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة إلى المدينة القديمة حتى بوابة المتولى التى سميت باسم واحد من الصوفيين يقال إنه كان يجلس هناك منذ قرون بعيدة ، ويظهر الكرامات للمارة . وعلى الرغم من أن القاهرة هى بلدى فإنى لم أتوقف عن الاعجاب بالمناظر الأثرية وبتاريخها الطويل الذى صنع مدينتى ، كانت شوارع المدينة القديمة أضيق من أن تسمح للسيارات بالمرور فيها ، ولكنها كانت مزدحمة بالخيول والحمير وحتى بالناس الذين يئنون تحت أثقال من الخضراوات الطازجة وخشب التدفئة وأوانى النحاس لتباع فى خان الخليلى الذى يعج بالحركة . . كانت القاهرة دائما أكبر مركز تجارى فى العالم لأجيال طويلة ، وكان فى « المسافرخانة » فى خان الخليلى مزار تجار القرون الوسطى من جميع أنحاء العالم العربى حيث يتخلصون من بضائعهم المحمولة على الجمال ، وبجوار هذا المكان كان الخلفاء الفاطميون قد أقاموا حديقة للحيوان : للزراف والنعام والفيلة التى كانت ترسل لهم فى صورة إتاوات من الدول الأفريقية .

وكانت الحوانيت فى خان الخليلى مليئة بآثار الماضى التى تستعمل فى الحاضر . وكثيرا ما كان آباؤ نا يأخذوننا خلال الشوارع المظلمة الملتوية الى سوق

الفضة والذهب التى أقيمت فى قلب المدينة حتى يمكن حمايتها من الغزاة . وهناك كنت أنا وأختى نشترى الفوانيس الفضية ببضعة قروش ، وبينما كانت أمى تقف عند سوق التوابل لتشترى النعناع والبقدونس والزعتر للصلصات الانجليزية كنا نحن الأطفال نلح على أبينا أن يشترى لنا أكوابا من التمر هندى .

وبالقرب من خان الخليلى يوجد جامع الحاكم بأمر الله من القرن الحادى عشر وقد بناه ذلك السلطان الفاطمى الأسطورى الذى عرف باضطراب عقله حين حاول أن يجبر النساء على أن يقبعن فى بيوتهن فمنع صانعى الأحذية من صنع أحذية لهن ، كما أمر بقتل كل كلب فى المدينة . وكان شغوفا بركوب حماره فى المساء ليستكشف سلوك رعيته ، وكان كل من يغضبه يقتل . وكان ذلك القتل الجائر سببا فى جعل الحاكم مكروها فلم يبك عليه أحد حين ركب حماره فى ليلة من ليالى سنة ١٠٢٠ وصعد إلى جبل المقطم ولم يعد . وكجميع الفاطميين الذين جاءوا فى القرن العاشر من شمال أفريقيا كان الحاكم مسلما شيعيا . وكان المصريون من المسلمين السنيين وحين كنت طفلة لم أكن أعرف الشيعة ولا المذهب الشيعى ، ويبدو الفرق بين السنيين المعتدلين والشيعة الراديكاليين واضحا فى احتفالاتنا المختلفة لتكريم الحسين ، حفيد النبى ، فمولد الحسين الذى أحبه يستمر عندنا أسبوعا كاملا ، ومرة كل عام كانت العائلة ، شأن معظم سكان القاهرة ، يتزاحمون فى المسجد الذى يسمى باسمه فى المدينة القديمة ، ويستمتعون بالإنصات إلى التواشيح الدينية ، ويقوم الباعة المتجولون بعرض بضائعهم من حلوى ومكسرات ولعب صغيرة ، كما كان الأطفال يركبون الأراجيح التى تقام بهذه المناسبة .

وبدافع من الاحساس بالذنب لعدم انقاذ حياة الحسين يقوم الشيعة المتطرفون فى هذا اليوم بضرب رؤوسهم وصدورهم العارية بالسلاسل والسياط ليشاركوا الحسين فى معاناته ، ولم أكن أشاهدهم شخصيا ـ وهم يضربون أنفسهم ولكن مجرد سماعى عما يحدث جعلنى أشعر بالضيق ، فقد كنت أفضل اللطف

والسماحة التى تتميز بهما التقاليد السنية أثناء مولد الحسين وخاصة الذكر الذى يقوم به الصوفية فى خيامهم ذات الألوان البراقة .

وفى هذه الطقوس يقوم الصوفيون بهز أكتافهم يمنة ويسرة على أنغام الطبول والصاجات والغناء الجميل ، وهم يرددون كلمة « الله » . ويصل الذاكرون الى درجة من فقدان الوعى تجعل الكثير منهم يدعون أنهم يتصلون بالله وهم فى هذه الحال ، تاركين خلفهم العالم الحسى . ولكى يبرزوا قوة الذكر أثناء المولد فإن بعض المجموعات الصوفية ينبطحون على الأرض ليمر على ظهورهم الفرسان الراكبون خيولهم . أو يبتلعون الثعابين أو يضعون الفحم المتقد فى أفواههم . ومن شأن الأشياء أن تؤلم بل قد تقتل الفرد العادى ولكن ـ لسبب أو لآخر ـ لا يصاب الصوفيون بأى ضرر .

وبعد ذلك بدأت أشعر بالإعجاب تجاه هذه العلاقة العميقة بين الصوفيين وبين الله فإن الصوفيين ينظرون إلى الله بكل حب وعاطفة ، إنهم دائما رقيقو القلب ، لا يحتاجون إلا إلى القليل من مسرات الدنيا لأنفسهم ، ويحترمون جميع مخلوقات الله ، وأحيانا يكتبون شعرا جميلا ويحدث حتى الآن فى مصر حين نرى ثعبانا فى منزل ما أو فى أحد المكاتب فإننا نطلب صوفيا من الرفاعية ليأتى ويقرأ تعويذات يخرج بعدها الثعبان من جحره ، وبفضل موسيقاه الجميلة يستطيع الصوفى دائما أن يخرج الثعبان دون أن يصيبه بضرر .

والسير فى وسط المدينة القديمة جميل حتى بدون مولد ، فحين تمر بمنازل مماليك العصور الوسطى التى بنيت وبها حرملك منفصل لزوجاتهم وأقاربهم من النساء ، تصل إلى أنوفنا رائحة البصل المحمر ونسمع اصوات الأوز التى تمتلكها العائلات الفقيرة التى تعيش هناك ، واحيانا كنت أنظر أنا وأختى إلى مشربيات الحرملك التى تسمح للنساء برؤية ما فى الخارج دون أن تتيح لأحد فى الخارج رؤيتهن ، وكنت أنا وأختى نقفز من الخوف حين نرى عين شخص من الداخل تنظر إلينا وكنت أتخيل أنها عين شبح من الأشباح ، إنى لا أتخيل أن أكون مختبئة كما كانت الكثيرات من بنات جنسى ، كما لا أستطيع أن أتخيل أمى وهى تسير

الآن متعلقة بذراع أبى أن تكون خنوعة كما كانت النساء فى الحرملك ، وقلت لنفسى « حمدا لله ، إن تلك الأيام قد ولت » ، ولكن سرعان ما أكتشفت إنها لم تذهب .

وحين بلغت حوالى الثامنة ذهبت لزيارة إحدى صديقاتى من الجيران ورأيت أمها توقف نفسها على خدمة زوجها فقط ، وتعد له الطعام وتقدمه إليه دون أن تتناول هى أى طعام حتى يشبع هو تماما ، وكانت تلك صدمة لى ، إنها لم تكن تجلس معه مطلقا أو ترى فى نفسها إنها تستحقه . . وهى نادراً ما تترك البيت ، وحين تفعل ذلك فإنما لكى تشترى لزوجها طعامه المفضل ، ولكن بمجرد أن ينتهى من طعامه يخرج مع أصدقائه ويتركها هى فى المنزل ، وأذكر حين كنت هناك أن جاء أحد أصدقائه . . ليأخذه إلى المقهى ، وبعد أن أدخلته الزوجة أسرعت إلى غرف أخرى حتى لا يشاهدها ، وحين أخبرت أبى بهذا ضحك وقال « إنهم موضة قديمة » .

لم تكن الأمور كذلك فى منزلنا . وأحيانا كان أخوة أبى وأحيانا بعض صديقات أمى ومعظمهن إنجليزيات متزوجات بمصريين ، يزرننا فى منزلنا ، وكانوا . . رجالا ونساء ـ يجلسون معا فى الصالون ، وأحيانا كنا نحن الأطفال نجلس معهم وننصت إلى حديثهم ، كان هذا طبيعيا بالنسبة لنا ، ولكن ليس بالنسبة لكثير من العائلات المصرية ، حتى زوجى نفسه كان يشعر بصدمة بعد زواجنا حين كنت أدخل أصدقاءه من الرجال إلى المنزل ، وأقدم لهم الشاى فى حجرة جلوسنا وأسأل عن عائلاتهم بينما ينتظرون حضوره . وكان يقول لى بغضب فيما بعد « جيهان كيف تفعلين هذا ؟ أنت لا تكادين تعرفينهم » ، وكنت أجيبه « إنى مضيفة هذا البيت ، ولا يختلف بالنسبة لى إذا كان الضيف رجلا أو امرأة » ، ولكن زوجى كان يرى غير ذلك ، وكان يحاول فى عامنا الأول أن يقف فى وجه هذا الأسلوب .

لم تكن أسرتى فقيرة ولا غنية ، بل من الطبقة الوسطى ، ولم يكن هناك عدد كبير من الطبقة المتوسطة فى ذلك الوقت ، وكان معظمهم من موظفى

الحكومة ، وعلى عكس البلاد الأخرى يحدد دخل الفرد إنتماءه للطبقة المتوسطة ، ففى مصر كان موظفو الحكومة يشكلون هذه الطبقة . وكانوا مثل أبى يلبس معظمهم الملابس الأوروبية ، ولكنهم لا يكسبون الكثير ـ مجرد خمسة عشر جنيها تقريبا فى الشهر ، وكانت بقية المصريين فى عهد الملك فاروق ينقسمون إلى طبقتين : كبار الأغنياء وكان عددهم ضئيلا ، وكانوا يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضى ولا يتحدثون إلا الفرنسية ، والفقراء وعددهم بالملايين وكانوا لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ولم يكونوا يكسبون أكثر من خمسين جنيها فى السنة ، وكان معظم الفقراء من الفلاحين وهم الذين يعملون فى مزارع الأغنياء ، وكانوا بمثابة العمود الفقرى لمصر .

ثم كانت هناك ، بطبيعة الحال ، الجاليات الأجنبية ، لقد كانت مصر دائما فى مفترق الطرق يعيش فيها أكثر من ٣٠٠ ألف يونانى و ١٠٠ ألف إيطالى ، وآلاف أخرى من الذين يحملون جنسيات فرنسية وبريطانية ، استقروا فى القاهرة والاسكندرية بعد الحرب العالمية الأولى . . وكان هناك أيضا كثير من القبارصة والمالطيين والمغاربة الذين إتخذوا مصر وطنا لهم . وجاءت الحرب العالمية الثانية وجاء معها كثير من المهاجرين ، آلاف من الجنود الذين وفدوا تحت العلم البريطانى ، انجليز وهنودا واستراليين وأفارقة من المستعمرات البريطانية ، وفى القاهرة كانت الثكنات البريطانية تمتد من ميدان التحرير ومكان فندق الهيلتون الآن حتى شاطىء النيل ، وكانت تحيط بها أسوار عالية عليها اسلاك شائكة . . كانت قاهرة طفولتى مدينتين مختلفتين : وسط المدينة وكان حديثا وغربيا ، والضواحى وكانت مصرية قديمة تقليدية .

وتعودت أن أراقب الضباط البريطانيين وهم يركبون عربات « الحنطور » أو سيارات التاكسى فى طريقهم لزيارة أصدقائهم فى العمارات العالية النظيفة ذات « الروف جاردن » أو إلى فندق شبرد العالمى ، أو الريتز وسيسيل وغيرهما من المطاعم المعروفة فى وسط المدينة ، أما فى المساء فكان الضباط البريطانيون يذهبون إلى دار الأوبرا التى كانت قد بنيت بمناسبة إفتتاح قناة السويس وتقديم أول

عرض لأوبرا « عايدة » ، وإن لم يتم ذلك ، فقدمت ريجوليتو . . . كان منظرهم غريبا بالنسبة لى ، وجوههم فى حمرة الطرابيش التى كانوا يرتدونها على رؤ وسهم لكى يختلطوا بالأهالى ، ولكن كانت تبدو عليهم علامات الرضا . فالشمس تشرق دائما فى مصر ، والأيدى العاملة رخيصة ، وكانت القاهرة تقدم لهم كل ما تقدمه باريس وبثلث الثمن .

كانت الحياة فى الأربعينيات لطيفة بالنسبة لنا أيضا . فقد جذبت الحرب مئات الآلاف من الفلاحين من قراهم للعمل مع البريطانيين ، ولم تكن هناك أية حدود لعدد العمال . ففى منزلنا فى الروضة كان يخدمنا ستة من الشغالين : الطاهى السودانى ، عثمان الذى انتقل معى بعد سنوات عديدة إلى منزل الرئاسة ، وكان هناك بستانى ، وسائق سيارة ، وثلاث نساء لتنظيف الحجرات وللغسيل . ولم يكن هذا غير طبيعى ، فكل عائلات الطبقة المتوسطة كانت لديها شغالات ، إذ كانت الأجور منخفضة فى ذلك الوقت ، لا تزيد على جنيهين فى الشهر . وكان دخل الأسرة يضاف إليه دخل الأرض التى ورثها أبى وأخوته وأخواته عن أبيهم ، وكانت أكثر من ١٢٠ فدانا فى البحيرة . وكان الفلاحون هم اللذين يزرعونها ، وكان دخل الأرض يضعنا على حافة الطبقة المتميزة ، وأحيانا كان والدى يأخذنا معه للنزهة فى الريف أو إلى الأهرام التى كانت على بعد عشر دقائق من بيتنا ، أو للإحتفال بالأعياد الدينية الكثيرة والإجازات المدنية .

وكان رمضان من أكثر الأجازات الدينية التى أحبها كطفلة . وبرغم أن القرآن لا يفرض علينا الصيام حتى سن البلوغ ، إلا أن العائلة كانت تشجعنا على الصيام ، على الأقل يوما أو يومين حتى نبلغ الحادية أو الثالثة عشرة . وقد حاولت فى سن الحادية عشرة أن أصوم الشهر بأكمله ، ولكن لم أستطع إلا حين بلغت الثالثة عشرة .

ولم تكن الأيام مختلفة كثيرا أثناء رمضان ، فالعمل مستمر فى معظم المكاتب وإن يكن يبدأ متأخرا لكى يعطى هؤلاء الذين سهروا الفرصة لكى يتأخروا فى الاستيقاظ فى الصباح . ولكن عند الشفق حين يقترب ميعاد الإفطار

فإن الجو يتغير تماما . اذ تخلو الشوارع كلها من الناس فجأة ويسودها الهدوء ، ولا يوجد حانوت مفتوح ، ولا تشاهد سيارة أو أتوبيسا ، فالجميع يهرعون إلى منازلهم ليستعدوا لتلك اللحظة حين يباح لهم الطعام والشراب . وكنا ننتظر بلهفة لنسمع صوت المدفع يدوى فى جميع الأحياء المجاورة بمجرد أن تغرب الشمس ، وفى نفس الوقت تضىء جميع مساجد المدينة أنوارها اللامعة التى تحيط بمآذنها ، وتقوم عائلتى مع الملايين من العائلات الأخرى ، برى ظمئنا بشراب قمر الدين المصنوع من عصير المشمش . وفى نفس الوقت يبدأ جميع المسلمين فى كل أنحاء مصر تناول إفطارهم .

وبكل (ممنوعاته) فإن شهر رمضان كان ـ ولا يزال ـ أكثر شهور السنة مسرة ومودة ولم تكن أسرتنا تتناول وجبة المساء وحدها فى رمضان ، بل كانت تجمع عشرين من أقاربنا فى منازل الاسرة المختلفة .

وكنا كأطفال نقف حول المائدة ونحملق بنهم إلى الأطباق الشهية المعدة خصيصا لرمضان ، بالقطائف والكنافة أو سلاطة الفواكة بالمشمش والتين والبرقوق والعنب ، وما أن ينطلق المدفع حتى نبدأ فى حشو معداتنا ، ثم نجلس لساعات حول المائدة نتبادل القصص والنكات .

كنت أحب كل دقيقة فى رمضان ، وفجأة أصبح كل ماهو عادى شيئا خاصا .

فقد تحول الليل إلى نهار مما يجعل الحياة تبدو أطول مما هى عليه .

وكنا نحن الأطفال نجرى من بيت إلى بيت ، نقرع الأبواب ونطلب الحلوى ، وكانت شوارع القاهرة تعج بالمارة بعد الثانية صباحا بكثير ، فقد كان الجميع يخرجون لزيارة الأصدقاء بعد جلوسهم مع عائلاتهم ، ويحيى الجميع بعضهم البعض قائلين : (رمضان كريم) ، ولكى ننير طريق الكبار كان كل منا يحمل فانوسا من الزجاج الملون على شكل مسجد ، بينما علقت فوانيس أكبر وأكثر زركشة على أعمدة مقامة فى نواصى الشوارع .

وكان الشيوخ يرتلون القرآن طوال الليل فى خيام ذات ألوان زاهية فى ميدان الحسين وفى جميع ميادين القرى على طول مصر ، وكان المغنون والراقصون الشعبيون يقدمون فنونهم الشعبية .

وكنت أسهر إلى وقت متأخر فى رمضان وأستيقظ مبكرة ، وبمجرد أن يغلبنا النوم أنا وأختى كان يوقظنا صوت المسحراتى الجميل ، وكان المسحراتى وهو يغنى فى صحبة دقات طبلته يتوقف عند كل بيت ويوجه جملة خاصة إلى الأطفال الذين ينامون هناك « اصحى يا جيهان . . اصحى يا داليا . . اصحى يا نادية . . اصحى يا تهانى . . الصوم خير من النوم . . اصح يا نايم وحد الدايم » .

وعندما ينتهى رمضان يأتى المسحراتى فى أول أيام العيد ليتلقى « العيدية » ولكى نعبر له عن شكرنا لأغانيه الجميلة كنا نلف بعض القروش فى ورقة ونوقد فيها النار حتى يستطيع أن يراها ثم نقذفها من النافذة . ولكنى كنت أكره الاستيقاظ فى الثالثة صباحا للسحور وأقول لأمى حين تجىء لإيقاظى « دعينى أنام » ، ولكنها كانت تصمم دائما على أن أستيقظ تماما كما كنت أفعل مع أولادى على الرغم من احتجاجاتهم المماثلة ، « . . إن وجبة واحدة فى اليوم ليست كافية لأن أجسامهم فى مرحلة نمو » .

ومع نهاية رمضان تبدأ أجازة عيد الفطر (العيد الصغير) .

وفى أيام العيد تغلق المكاتب والمدارس والمصانع ، وتوزع الصدقات على الفقراء ، ويمنح الشغالون العيدية وهدايا من الملابس الجديدة .

ويلبس الأطفال ملابس جديدة وأحذية جديدة ، ولا يجب أن يوجد محروم فى نهاية رمضان ، ثم تعود الحياة إلى طبيعتها .

ومن الأعياد التى كنت أحبها فى طفولتى (شم النسيم) وهو يأتى فى أول يوم من أيام الربيع ودائما يوم الاثنين الذى يلى عيد الأقباط . وفى هذا اليوم يخرج سكان القاهرة القادرون الى الريف تبعا للتقاليد ، إذ كان يعتقد أن الرياح التى

تهب فى الصباح الباكر لها تأثير صحى . . وكغيره من تقاليدنا فقد كان يحتفل بشم النسيم منذ أيام الفراعنة . وكثير من طقوس شم النسيم جاءت الينا من الماضى دون أى تغيير . وكان الشغالة الذين يعملون عندنا يحتفلون به احتفالا آخر ، فيضعون بصله تحت المخدة أو يبدأون اليوم بكسر بصلة وشيها ، وتقول التقاليد إنه بهذه الطريقة يستطيع الأنف أن يتنفس الهواء النقى طوال السنة التالية . . أما بالنسبة لنا فإن شم النسيم كان يوما بديعا فى فصل الربيع نقضيه فى الريف مع أصدقائنا وأقاربنا .

وكانت الاستعدادات لذلك اليوم بهيجة للغاية ، فكنت أنا وأختى نقوم بتلوين البيض بألوان حمراء وصفراء وزرقاء ، ونرسم مناظر عليه بقلم الشمع ، وإذا كنا محظوظين فإن والدينا يصحبانا إلى جروبى ، المكان المشهور للشيكولاتة ، حيث كنا نختار سلالا مليئة بالأرانب والبيض وكلها مصنوعة من الشيكولاتة . وفى الصباح الباكر كنا نتجه إلى بيت عمتى بطة الذى كان يطل على أحد فروع النيل ، أو إلى الأهرام أو إلى الحدائق العامة الجميلة فى القناطر الخيرية ، أو إلى الجيزة ، وإن كانت حديقة الحيوانات مكتظة دائما . وكانت الطرق مزدحمة ، وكذلك ضفتا النيل ، ولكن أحدا لم يكن يأبه بالزحام ، وفى ذلك اليوم يلبس الأطفال ملابس براقة الألوان ، وكانت الحدائق تعج بالعائلات ، وكان بائعو الزهور يجوبون المتنزهات ويعرضون عقود الياسمين والورود التى قطفت حديثا . وأحيانا كان أبى يؤجر « فلوكة » وهى مركب ذات شراع واحد لم تتغير منذ الفراعنة ونقلع بها جيئة وذهابا على صفحة النيل الساحر ، ونستنشق نسماته الرقيقة ، وأحيانا كان والدنا يأخذنا للغداء فى مينا هاوس ، وهو فندق قديم بديع بجوار الأهرام ، بنى أساسا للخديو إسماعيل ليكون بيتا ملكيا للصيد ، ثم حول عام ١٨٦٩ إلى بيت للضيافة فى اثناء الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس ، وهناك كنا نتناول مشروبات مثلجة على (الشرفة) التى تطل على حمام السباحة ، ونتناول الأطعمة التقليدية منذ أيام الفراعنة ، وهى ترمز إلى الحياة الجديدة التى تولد مع الربيع ـ البيض المسلوق والبصل والخس والفسيخ .

كانت رائحة الفسيخ مزعجة ولكن مذاقه كان بديعا ولم ندهش عندما كانت أمنا ترفض دائما تناوله وتطلب بدلا منه البيض والجبن . . .

كانت أمى تحب ميناهاوس بصفة خاصة ، وقد اعتاد كثير من سكان القاهرة على تناول الشاى فى (شرفة) الفندق تحت ظلال الأهرام ، وبعد الزواج كنا دائما نأخذ أولادنا إلى مينا هاوس لتناول وجبة شم النسيم . . وفى ميناهاوس أيضا قابل أنور السادات الرئيس كارتر للتفاوض حول السلام مع اسرائيل .

وإذا كان عيد شم النسيم هو يوم عطلتى المفضلة فى فصل الربيع ، فان يوم وفاء النيل كان عطلتى المفضلة فى أواخر الصيف . وفى هذا اليوم من شهر اغسطس يغلق السد الكائن جنوب القاهرة مباشرة ، فيفيض النيل بالماء والطمى الخصيب القادم من منابعه فى أوغندا والحبشة ويبدأ فيضانه السنوى الذى يستمر شهرين .

وكان أجمل مافى يوم وفاء النيل تلك الاحتفالات التى تقام على جزيرة الروضة . فقبل ذلك بأيام يسير منادى النيل فى حيِّنا وينادى معلنا أن ارتفاع منسوب النهر قد وصل إلى مقياس النيل القائم عند الطرف الجنوبى من جزيرتنا منذ القرن الثامن ، والذى شيد فى البقعة التى يعتقد بأنه تم العثور فيها على النبى موسى طفلا بين نبات البردى وكل يوم ينادى المنادى فى حيِّنا معلنا أن منسوب النيل قد اقترب من الستة عشر ذراعا على مقياس النيل ، وهو ارتفاع يزيد على عشرين قدما من منسوبه العادى .

وياله من احتفال ذلك الذى يحدث يوم يصل النيل أخيرا إلى منسوب الفيضان . ونعرف ذلك عندما يخرج المنادى يصاحبه صبية صغار يقرعون على الطبول الصغيرة ويحملون أعلاما ذات ألوان زاهية ، وينادى :

- البحر زاد .

فيجيب الصبية :

- عوف الله .

فيعود المنادى صائحا :

ـ فاض عالبلاد .

فيرد عليه الصبية ثانية :

ـ عوف الله .

ويستمرون فى ندائهم أمام كل منزل حتى يعطيهم أصحابه مبلغا صغيرا من المال ، وهكذا يبدأ الاحتفال .

وتتزاحم المراكب التى تظهر حبالها وأشرعتها وصواريها سابحة فى الأضواء ومكسوة بالاعلام والبيارق الملونة ، وتتمايل فوق صفحة النيل الرقراق عند ضفاف الروضة . وتمتد الأضواء متلألئة على الشاطىء أيضا . وعلى ظهر بعض المراكب فرق موسيقية تصل إلينا ـ ونحن على الشاطىء ـ أصوات أغانيها المختلفة التى يتردد صداها عبر النهر . وتطلق المراكب المزودة بالمدافع طلقات متتالية تحية كل ربع ساعة طوال اليوم حتى التاسعة مساء تدعو الجميع إلى ضفاف النيل .

كان منظرا جميلا . . وبالنسبة لى كان رومانسيا جدا ، وكانت إحدى المراكب ترسو وهى مصبوغة بالوان زاهية عند طرف جزيرتنا حاملة تمثالا كبيرا لفتاة فى أحلى زينتها وهى المعروفة بعروس النيل . وعند بدء الفيضان يلقى بالعروس فى النيل عند غروب الشمس لتلحق بعريسها ، مبشرة بذلك بعام وفير المحصول ، ونقف نحن على الشاطىء نصفق ونهتف جميعنا ونطلق الزغاريد ، بينما تنطلق الصواريخ والألعاب النارية فى الهواء التى كنت أحب مشاهدة التحامها بالماء ، ولكنى كنت أحمد الله أن « العروس » قد أصبحت تمثالا بعدما كان يقال إنها كانت عذراء صغيرة اعتاد المصريون القدماء حسب الأسطورة الفرعونية التضحية بها فى كل سنة مع فيضان النهر المقدس .

وعندما منع السد العالى فى أسوان بعد إتمامه مياه الفيضان أن تصل الينا فى عام ١٩٦٤ ، حزنت جدا لأننا توقفنا بعدها عن الاحتفال بوفاء النيل . وتلاشت التقاليد الممتعة ، وحل محل منادى النيل المذيع العصرى الذى يذيع منسوب

الفيضان فى إذاعة القاهرة . ولكن استمرت بقايا من أساطير وفاء النيل ، فمازالت أزهار اللوتس الجميلة الزاهرة فى المناطق المنعزلة الهادئة من نهرنا تدعى « عرائس النيل » .

وفى طفولتى قبل بناء السد العالى ، كان انسياب النيل المعتاد يتحرك بسرعة بشكل هدار فى اتجاه البحر الأبيض المتوسط لمدة شهرى الفيضان . وكنا نمشى كل صباح للمدرسة بجانب النهر ويرتفع الماء خلال الفيضان إلى ستة أقدام من الطريق . وكان والدانا يحذراننا من المشى قرب النهر . ولكننا كنا اطفالا ولانعى ما وراء هذا التحذير .

وذات يوم وكنت فى التاسعة وكانت أختى فى السابعة من عمرها ، رأيت قطة سوداء تهرب من « فلوكة » وهى تقفز قرب السلالم ثم سقطت فى النيل فقلت لأختى :

ـ يجب أن ننقذ القطة . . والا ستغرق .

ولكن أختى هى التى كانت على وشك الغرق . فبينما وقفت مذعورة أرقب أختى ، انزلقت قدماها إلى أسفل السلم وسقطت فى الماء . . واختفت فى الحال فى دوامة ، وسحبتها تيارات النهر السريعة . فناديت على أخوى اللذين كانا يتبعاننا وأنا مندفعة عائدة لأعثر عليها . . وغطسا كلاهما وراءها فسحبت الدوامة أخى الأصغر . . واخذت أصرخ وأصرخ على ضفة النهر وأنا أرقب أخى الأكبر مجدى يصارع لإنقاذ كل من أختى وعلى . واستطاع مجدى أن يعيدهما الى الشاطىء بأعجوبة ، وبعدها انهار من التعب . وتجمع حشد من الناس وتقدم عدد منهم على الفور لأجراء تنفس صناعى لأختى ، وكنت فى قمة الرعب ، وانتفخت معدتها بالماء واحمر وجهها ، فقلبوها على وجهها ورفعوا رجليها الى أعلى بينما اخذوا يخبطون على ظهرها ، ولم أشعر بالذنب مثلما شعرت فى تلك اللحظة ، فقد كنت مهتمة بالقطة التى على الزورق أكثر من إهتمامى بأختى وبدأت داليا أخيرا تهتز وتتنفس ثانية . وإندفع والداى إلى النيل ، بعد أن تم إستدعاؤهما ، وأخذانا جميعا إلى البيت . وكانت المرة الأولى والوحيدة التى عوقبت فيها عقابا

شديدا ، فقد صاحت فى أمى وأبى ثم أغلق أبى على حجرتى حيث ضربنى وصفعنى على وجهى . ولم أقاوم على الإطلاق ، إذ كنت على يقين من أننى أستحق العقاب .

كنت دائما أعتبر نفسى زعيمة الأطفال فى أسرتى ولم أكن أدرى لماذا ، مع أن أخويى كانا أكبر منى ، ربما بسبب الطريقة التى كنت أعبر بها عن نفسى ، وكأنى كنت أعرف أن حياتى ستكون حياة خاصة . وحلمت كثيرا إن الناس يقدمون لى مزيدا من الاحترام ، وكنت أحكى هذه الاحلام لأمى ولأبى ولعمتى زوزو . وأخبرتهم جميعا ببشرى متبجحة أخافت عمتى زوزو :

ـ سوف أفعل شيئا خاصا عندما أكبر .

فقالت لى وهى مرتعبة من تهورى ، وخائفة من أن أجلب سوء المصير على نفسى :

ـ لا تقولى ذلك .

فطمأنتها قائلة :

ـ لا تخافى .

وذكرتها بقصة سيدنا يوسف ـ المذكورة فى القرآن ـ الذى عفا ـ بعدما أصبح صاحب سلطة ـ عن أخوته الذين ألقوا به فى الجب وتسببوا فى بيعه كأى عبد من العبيد ، ومضيت قائلة :

ـ وعندما يأتى اليوم ، سأكون طيبة معكم وابذل كل مافى وسعى نحو أسرتى كلها ، تماما مثلما فعل سيدنا يوسف عليه السلام . وضحكت عمتى ، لكنها نصحتنى مرة أخرى بأن أحتفظ بأحلامى لنفسى .

لا أدرى من أين جاءت هذه الأحلام . وظننت أن كل العائلات كانت تعيش فى دعة ويسر وسلام مثلنا ، لم نر الفقر الذى يمثل مشكلة فى حياة كثير من المصريين . حتى إننى لم أقم بزيارة أى قرية من قرى الريف إلى أن صرت فى الخامسة عشرة من عمرى ، عندما ذهبت مع أبى لأرى أرض أسرته ، ولكن

مشاكل العالم الأكبر بدأت تقتحم عقلى وبدأ تعلقى بسيدة عجوز كانت تعيش فى جوف جذع شجرة .

اخبرتنى صديقة لى بالمدرسة عن هذه المرأة فى أحد الأيام ، وذهبت على الفور بعد اليوم الدراسى لرؤية هذا اللغز المحير . وكانت حقيقة ، وأخبرتنى المرأة العجوز انها لا أطفال لها ، ولا أحد يعنى بأمرها . وشعرت بحزن بالغ وصممت ، عندما أصل إلى سن العاشرة ، أن أعنى بأمرها بنفسى ، وبدأت أزورها كل يوم قبل المدرسة وعند عودتى إلى البيت ، وأعطيها مصروف جيبى وأقدم لها الساندويتش المعد لى لآكله فى المدرسة . ولم أخبر أحدا عنها ، ولا حتى أمى فكانت سرى ، وصديقتى .

وسألتها ، وأنا اخشى غضب أمى إذا وافقت :

- هل تحبين أن تأتى وتعيشى فى منزلى ؟
- فقالت العجوز التى تتخذ من الشجرة مأوى لها :
- انى احب هنا . تعالى انت وزورينى كل يوم .

واخذت أقلق على عينيها ، اذ لاحظت أنها تحكهما دائما . فبدأت أحضر لها قطرة للعين ومرهما لها ، فى حقيبة المدرسة واضع منهما برفق فى عينيها ، ولم تمنعنى أبدا .

وبعد أسبوع من التأخير عند عودتى من المدرسة للبيت ، سألتنى أمى ، فتحللت من سرى وأخبرتها به ، فصدمت وأرسلت فى الحال طبيبا ليعنى بعينى المرأة العجوز ، وعندئذ أكتشفت أنها كانت عمياء ، ربما من « عمى النهر » وهو مرض عيون شائع يحمل عدواه الذباب ، ولكن سرى أصبح مكشوفا فقررت أن أشارك صديقاتى وأصحبهن للمرأة العجوز ، وقلت لها مقدمة صديقاتى لها :

- إنك ليس عندك أطفال ، ونحن الآن أطفالك .

وظللنا لمدة شهور نزورها بعد المدرسة ، نحضر لها هدايا وطعاما

وملابس ، وفى أحد الأيام وجدنا الشجرة خاوية ، فسألت رجلا على الناصية كان يبيع الحلوى :

ـ أين هى ؟

فقال لى :

ـ ماتت فى الصباح الباكر ، وجاءت الشرطة وحملت جثتها .

لقد تحطم قلبى ، لأننى تخيلت أننى كنت استطيع برعايتى لها أن أحفظها حية ، ولم أنسها مطلقا .

كانت شهور الصيف حارة جدا فى القاهرة ، خصوصا شهرى يوليو وأغسطس حيث كانت درجة الحرارة تقترب فيهما من الأربعين درجة مئوية ، فذهبنا كمعظم العائلات الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ولمدة سنين كانت عائلتى تستأجر « عشة » فى بورسعيد التى تبعد ١١٠ ميلا عن القاهرة عند مشارف قناة السويس ، وقد اعتاد أبى أن يصطاد فوق جسر عند أول القنال ، وكنا نعرف ـ إذا كان كل السمك الذى اتى به فى حجم واحد ـ انه قد اشتراه بدلا من ان يصطاده .

كانت مدينة بورسعيد تبدو أوربية أكثر منها مصرية ، صفوف منتظمة من منازل مبنية من الطوب الأحمر لها أسطح بيضاء وحدائق معتنى بها عناية بالغة ، وكانت العشش الخشبية التى تستأجرها عمتى زوزو وعمتى بطة وأبى على الشاطىء مباشرة ومقامة على أعمدة ، فكانت أبرد الأماكن تلك التى تقع تحت العشش ، وكان ذلك هو المكان الذى نجتمع فيه أنا وبنات عماتى وصديقاتنا لنلعب . وفى المساء يتجمع كل الاقارب فى عشة واحدة للعشاء ، وكانت العشة تضاء بلمبات الجاز (الكيروسين) لأن الكهرباء لم تكن قد دخلت هناك بعد ، وأحببت هذا الضوء الناعم ، وحزنت جدا وأنا فى سن الرابعة عشرة عندما جاءت الكهرباء إلى بورسعيد .

كان الأثرياء من الناس يقضون عادة صيفهم فى الخارج ، ولكنى لم أحسدهم أبدا على ذلك . فلقد أحببت بور سعيد كطفلة ، أقضى كل اليوم فى ملابس الاستحمام سواء فى السباحة فى البحر أو اللعب على الرمل . وعند الغروب يتجمع كل الأطفال ليلعبوا « القطة العمياء » أو لعبة « الاستغماية » بينما يجلس الأهل معا يتجاذبون أطراف الحديث ، متجمعين تحت مصابيح الغاز التى كانت منتشرة على طول الشاطىء ، حتى يأتى موعد عشائنا فى التاسعة مساء .

كانت الإسكندرية التى تبعد مائة ميل نحو الغرب ، أكثر ازدحاما وتحضرا ، فهى مدينة بحرية عالمية ، أما بور سعيد فكانت أقرب إلى أن تكون منتجعا للأسرة المصرية ، ونفس الأسر تأتى سنة بعد سنة . وكنا كثيرا ما نذهب فى أغلب الأمسيات إلى سينما صيفية مكشوفة كبيرة ، حيث نجلس على كراسى من الخوص « ونقزقز » اللب المحمص ، ونأكل المشبك الذى يقطر عسلا وقد اشتهرت به بور سعيد ودمياط . وكانت مصر تنتج أفلاما رائعة فى ذلك الوقت ، كانت فى الحقيقة ، الثانية فى العالم فى إنتاج الأفلام . ولكنى لا أدرى كم عدد المرات التى شاهدت فيها فيلم « ذهب مع الريح » أو استر وليامز وهى تقفز فى الماء من خلال باقات الزهور ، وكان الهواء حلوا كالمشبك الذى نأكله ، وكنت أحب أن يظل الصيف إلى الأبد .

وكنا ، فى أول خميس من كل شهر نتبع نفس الروتين الذى يتبعه ملايين من المصريين بل فى الحقيقة ملايين من الناس فى شتى أنحاء العالم العربى . كنا نتجمع حول جهاز الراديو الذى يعمل بالبطارية فى بور سعيد ، أو فى القاهرة ، أينما كنا ، فكنا ننصت لحفلة السيدة أم كلثوم الشهرية المنقولة على الهواء .

ولم تأت مطربة أفضل منها حتى الآن فى العالم العربى كله . كانت أم كلثوم تغنى للحب والأسى بحس عاطفى يجعل الكثير من مستمعيها الحاضرين حفلتها أو الجالسين فى بيوتهم يبكون ، كان صوتها ساحرا ، وكانت مهارتها القديرة تفوق الوصف ، كانت قادرة على الاستمرار فى نغمة واحدة لمدة دقيقة

ونصف ، وكانت فى حفلاتها عادة تغنى ثلاث أغنيات ، كل من الأولبين حوالى ساعتين ، والأغنية الأخيرة ساعة كاملة ، وكانت تردد المقطع الواحد مرات ومرات ولكنها فى كل مرة تضيف إليه شيئا جديدا .

كان الأوربيون يحسون أن أغانيها تتسم بالتكرار ، ولكننا كنا لا نشعر بشىء من هذا ، فالكثبان الرملية فى الصحراء تبدو للأجانب متماثلة ، ولكننا نعرف أن كل حبة رمل مختلفة عن غيرها . وهكذا كانت كل حفلة من حفلات أم كلثوم فى أول خميس من كل شهر تجذب إليها عشاقها والمتيمين بها إلى القاهرة من كل أنحاء العالم العربى : رجال أعمال لبنانيين وأمراء وشيوخا من السعودية والكويت يطيرون كل شهر لسماعها .

وكان صوتها يجمعنا حتى إننا أرتبطنا بها ، وعندما أنحبس صوتها بسبب مرض فى الحلق فى عام ١٩٥٣ ، وضع هذا الخبر فى الصحف داخل إطار مكلل بالسواد . ولم يجرؤ أى طبيب عربى أن يلمسها خوفا من أن يتلف أو يتسبب فى إضعاف صوتها الأسطورى ، وأخيرا تطوعت البحرية الأمريكية فى مركزها الطبى فى بيثيسدا بمريلاند ، وأخذت على عاتقها المخاطرة فى علاجها ، وأجرت عملية جراحية ناجحة فى حلقها ونجحت واستطاعت الغناء ثانية . وقال البعض إن هذا الصنيع من الأمريكيين كان الشىء الوحيد الذى حافظ على تماسك الروابط المصرية الأمريكية فى أثناء فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر .

وبعد ذلك ، أصبحت أنا وأم كلثوم صديقتين ، فجاءت وغنت فى حفلة خطبة ابنتى الكبرى ، وعندما كبرت فى السن ومنعها المرض من الغناء كنت أذهب لزيارتها وأمشى معها كنوع من الرياضة . ولكنها أخذت تضعف وتضعف إلى أن أصبحت طريحة الفراش . وفى آخر مرة رأيتها فيها فى عام ١٩٧٥ ، قلت لها وأنا أناديها باسمها المحبب لدى الجميع :

ـ سوما ، إننى مضطرة للسفر لأمريكا لبضعة أسابيع . . أريدك أن تكونى قوية وفى صحة جيدة ، بإذن الله ، عندما أعود ، حتى أجد رفيقة فى المشى .

فقالت بضعف :

ـ إن شاء الله ، أعدك .

وعندما عدت ، كانت قد إنتقلت إلى رحمة الله ، ولتكريم ذكراها ، قامت إذاعة القاهرة بإذاعة القرآن بعد نشرة الأخبار المسائية ، وهى لفتة جليلة تقام عند وفاة رؤساء الدولة وفى المناسبات الكبرى . وتكريما لذكراها تبث محطة إذاعة خاصة تحمل اسم « محطة أم كلثوم » برنامجا يوميا من الخامسة الى العاشرة كل مساء ويبدأ وينتهى بمختارات من أغانيها .

عندما عبرت الجسر لأذهب إلى المدرسة الثانوية فى الجيزة فى سن الحادية عشرة ، تغيرت حياتى . لم أعد أذهب إلى مدرسة تضم بنات وبنين كما كانت عليه مدرستى الابتدائية ، وإنما ذهبت إلى مدرسة حكومية للبنات فقط ، كان أبى يدفع لها ثلاثة جنيهات فى الشهر ، لم يكن هذا عدلا وقتها بالطبع ، فلم يكن يقدر على دفع هذه المصاريف إلا الأثرياء وقلة من متوسطى الحال ، ومع ذلك ، كان التعليم الذى حصلنا عليه ممتازا .

وبسبب الاحتلال البريطانى لمصر ، تعلمنا جميعا اللغة الإنجليزية قراءة وكتابة فى المدرسة الابتدائية ، كما أننا كنا نتحدث بها بوضوح ، هذا بالطبع إلى جانب اللغة العربية الفصحى ، وفى المدرسة الثانوية تلقينا بالإضافة للرياضيات والعلوم ـ كثيرا من المعارف والتعبيرات البليغة باللغة العربية الفصحى . وعندئذ استطعت قراءة القرآن الكريم ، أجمل وأبلغ مرجع للغة العربية الفصحى ، بدأت أهتم بالخطب الرسمية لرجال الدولة الذين كانوا بالطبع يلقونها باللغة العربية الفصحى .

ولكى أدخل المدرسة الثانوية ، كان على أن أختار بين اتجاهين للدراسة : اتجاه يؤهلنى للدخول للجامعة ويركز على الهندسة والجبر واللغة الفرنسية والأدب والعلوم ، والآخر إتجاه خاص للبنات ، ويركز على موضوعات مثل الفن والموسيقى والرسم والتاريخ وتصميم الملابس والخياطة والطبخ ، إعدادا فى

الحقيقة للزواج . وسواء من قبيل الكسل أولأن كل صديقاتى قمن بنفس الاختيار ، اخترت الأخير .

لقد ندمت دائما على هذا القرار . ولم أرض أبدا لبناتى أن يقدمن على هذا الاختيار ويغلقن مستقبلهن بهذه الطريقة . ولكن الوضع فى الأربعينات كان مختلفا .

سألت أمى :
ـ أى قسم دراسى أختار ؟
لم تكن هى نفسها طموحة ، إذ كانت تستمتع بكونها زوجة وأما ، فقالت :
اختارى الخياطة والطبخ ، ستحتاجين إلى معرفة ذلك عندما تتزوجين .
وسألت أبى ، فقال :
ـ إنك جميلة ولعلك تتزوجين صغيرة ، وهذه الدراسة ستؤهلك لتكونى زوجة صالحة .

ولم تكن توجد أى فكرة فى عقل أى إنسان منا ، حتى أنا نفسى ، أن أفعل أى شىء سوى أن أتزوج .

وعندما بلغت الثالثة عشرة أصابت عائلتى مأساة ، فبعد صراع طويل وأسابيع عديدة فى مصحة بصحراء حلوان توفيت ابنة عمتى ، عواطف ، الابنة الكبرى لعمتى بطة ، وكانت مريضة بالسل ، وكان جسدها قد هزل لا بسبب الوضع مرتين متواليتين فى فترة زمنية قصيرة ، ولكن أيضا بسبب إصرارها على نظام أكل معين لاستعادة ما كان عليه قوامها ، لقد كنت دائما معجبة بابنة عمتى الجميلة ، وأصبت بصدمة قلبية كبيرة ، بل أصابنى الفزع والرعب من أن سيدة صغيرة هكذا يمكن أن تنهار فجأة . أنها كانت تجربتى الأولى مع الموت .

وتبعتها وفاة ثانية بسرعة ، ففى غضون سنة ، توفى عمى مصطفى أيضا فريسة للتيفود ، وصدمت مرة أخرى ، كان عمى مصطفى لا يزال صغيرا ، تسعة وثلاثين عاما فقط ، وكان موسوس نظافة حتى إنه كان يغسل حتى العملات

المعدنية التى فى جيبه كل ليلة . كان عمى قد بدأ يعرف طعم السعادة بعد زواجه من إحدى قريباته كان قد التقى بها فى جنازة ابنة عمتى . وكان زواجهما ، فى الحقيقة ، أول زواج رتبت له . لقد قلت له بعد الجنازة عندما تجمعت كل العائلة :

- إنك وحيد يا عمى مصطفى ، يجب أن تتزوج نينى ، إنها قريبة لنا وستكون زوجة مناسبة جدا لك ، فأنت تحتاج لواحدة لتهتم بشئونك وتنجب لك أولادا طيبين مثلك .

فضحك عمى مصطفى على جرأتى ، وقال لى موبخا :

- يا بنت يا شقية ، لا تتدخلى فى شئون غيرك .

ولكنى لم أستسلم وقلت لعمتى زوزو :

- إن عمى مصطفى وحيد ، يجب أن يتزوج نينى .

وافقتنى على رأيى على الرغم من أن ذلك يعنى أن امرأة أخرى سوف تنتقل إلى المنزل الذى تشترك فيه مع أخيها ، وقالت :

- نينى من العائلة ، والزواج سيكون مناسبا جدا ، سأكلم والدتها .

ووافقت والدة نينى أيضا قائلة إن مثل هذا الزواج سيشرف الأسرة . وبعد سنة واحدة أصبحت ابنتها أرملة ، وكانت حاملا فى أربعة أشهر . وانهرت تماما واتجهت إلى الله .

شعرت بالحاجة لفهم سر الموت ، ومضيت أبحث عن إجابات لتساؤلاتى الحائرة فى القرآن ، لقد أحببت من قبل لغة القرآن الكريم وإيقاعاتها الموسيقية . وكنت أستمع للآذان خمس مرات يوميا ، وأنصت لترتيل القرآن الكريم فى الإذاعة ، ولقد أثرت فى روحى لغة القرآن الجميلة ، كما أثرت فى غيرى من الناس ، فحاولت أن أعبر عن نفسى فى نظم الشعر والاعجاب بالشعراء ، والآن أبحث فى دينى عن سلوى وعزاء .

وكانت عمة صديقتى رجاء ، تانت نعمت ، أول من قدمتنى الى جماعة

المتدينات ، وأول من علمتنى الصلاة . كانت محافظة ومحتشمة ، فملابسها طويلة دائما تغطى ذراعيها وساقيها ، وترتدى حجابا على رأسها تلملم فيه كل شعرها . ولقد حيرنى هذا دائما ، لأن أسرتى لم تكن هكذا . وعندما اقترحت رجاء بعد ظهر أحد الأيام أن نتناول الشاى مع عمتها ، وافقت فى شوق . وهكذا بدأت سلسلة من لقاءات بعد الظهر ، تلك التى عثرت فيها على هويتى كمسلمة ومؤمنة ، وأثرت التجربة فى تأثيرا بعيد المدى .

كنت أعرف الكثير من تعليمات العمة نعمت الدينية عن القرآن الكريم من قبل ، ولكنى لم أكن ناضجة بما فيه الكفاية لفهمها أو استيعابها ، كنت أعرف على سبيل المثال أن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى الذى ألقاه على النبى محمد عن طريق جبريل فى سنة ٦١٠ ميلادية ، وأن كتابنا المقدس يختلف عن الكتب المقدسة للمسيحيين واليهود لأنه كلام الله الفعلى وليس كلاما مسجلا عن انسان أو مفسرا عن كلام الله سبحانه وتعالى ، وكنت أعرف أيضا الأركان الخمسة لدينى ، وشعائر الإسلام وتعاليمه الأخلاقية : ـ شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج لبيت الله لمن يستطيع ، وكان الله رحيما فعفا عن هؤلاء الفقراء أو الضعفاء الذين لا يقدرون على القيام بهذه الرحلة المقدسة إلى مكة المكرمة .

كنت أؤدى ما أستطيعه كطفلة من هذه الفروض وكنت أعطى مصروف جيبى للمرأة العاجزة التى تسكن فى الشجرة ، وكنت أصوم شهر رمضان مع أسرتى ، وما تعلمته من العمة نعمت هو أن الصلاة عمود الدين و « مفتاح الفردوس » كما يصفونها ولا يوجد أى عذر يمنع المسلم من الصلاة ، فله أن يصلى قاعدا وإذا كان عاجزا تماما عن الحركة والكلام فيستطيع أن يصلى بعينيه ، واذا كان مسافرا أو غير قادر على الصلاة فى مواقيتها المحددة فيمكنه أن يؤديها قصرا وجمعا ، فيختصر عدد ركعاتها ويجمع بينها تقديما أو تأخيرا . وأثناء تعلمى شعائر الصلاة من العمة نعمت ، أخذ دينى معنى داخليا جديدا بالنسبة لى . . إحساس عاطفى مفاجىء استقر فى أعماقى ، وإيمان داخلى عميق تغلغل فى نفسى .

ولم أكن أذهب إلى المسجد للصلاة ، فهو أمر ليس مفروضا على المرأة ، ولا هو من تقاليدنا ، فالرسول ﷺ لم يمنع النساء صراحة من الصلاة فى المساجد ، ولكنه أمرنا بالصلاة فى منازلنا ، وعندما تحضر النساء الصلاة فى المساجد فإنهن يصلين فى مكان مستقل وراء الرجال ، ومع أن كثيرا من النساء يرتدين ملابس طويلة حتى الكعبين فإنهن يجب أن يشعرن بالاحتشام أثناء الصلاة ، وكنت أفضل الصلاة وحدى أو مع أسرتى فى عزلة ، فقد كان إيمانى بالله يسمو إلى أعلى درجاته عندما أخلو لنفسى مع الصلاة ، مقتنعة بهذا الاكتفاء الذاتى الذى وجدته فى ديننا الإسلامى السمح » .

وأول وأهم شيء تعلمناه من العمة نعمت هى النظافة لأن الله لا يقبل الصلاة من أى شخص غير نظيف أو طاهر ، والوضوء من تمام الصلاة فلا تصح صلاة بدون وضوء وإذا لم يتوفر الماء ، فيجوز للمسلم أن يستبدل التراب أو الرمل بالماء عند موعد الصلاة ، وهذا هو التيمم الذى جعله الله تيسيرا للمسلم حتى لا يقصر فى هذا الركن الأساسى من أركان الإسلام .

وفى الروضة ، كان لدينا بالطبع وفرة من الماء ، وكنا تلميذات متلهفات لمعرفة ديننا ، ففى كل يوم أدخل مع رجاء والعمة نعمت الحمام لنراقبها عن كثب وهى تغسل يديها ثلاث مرات وتغسل فمها بالماء باليد اليمنى ثم أنفها ووجهها وذراعيها حتى المرفقين والرأس والأذنين والرقبة وأخيرا قدميها حتى الكعبين ، وكان كل هذا يستغرق منها أقل من دقيقتين ، بينما أنا ورجاء نكافح لنقوم به على الوجه الصحيح ، ويستغرق ذلك منا وقتا أطول بكثير ، ومن حسن الحظ بالنسبة لنا ، أن الوضوء ليس ضروريا قبل كل صلاة إذا ظل الانسان على وضوئه السابق .

وعندما نتم الوضوء تأخذنا العمة « نعمت » إلى حجرة نومها فنقف بعد خلع أحذيتنا فى اتجاه مكة المكرمة ونبدأ الصلاة .

وكنا نقف دائما وراءها بعدة أقدام ، وكان سنها وعلمها يؤهلانها أن تكون « الإمام » المسئول عن توقيت الحركات بالنسبة للمصلين الآخرين ، ولم يكن هؤلاء المصلون إلا تلميذتين صغيرتين فى زى المدرسة الأخضر .

نقف ونرفع أيدينا بمحاذاة وجوهنا ، ونقول معا فى انسجام واتساق :

« الله أكبر » ونبدأ صلاة العصر ، فقد كنا نذهب إليها بعد انتهاء اليوم الدراسى .

وتبدأ الصلاة بقراءة فاتحة القرآن الكريم ولا أعتقد أنه يوجد مسلم فى أى مكان فى العالم لا يستطيع قراءة الفاتحة عن ظهر قلب وباللغة العربية ، حتى لو كانت لغته القومية الاندونيسية أو لهجة من اللهجات الافريقية ، سواء أكان يعرف القراءة والكتابة أم لا يعرفهما .

وفى مصر ، يتعلم كل طفل الفاتحة أول ما يتعلم ، فهى التى تبدأ بها كل صلاة ، وهى التى نقرأها فى كل مناسبة على أرواح أحبائنا الراحلين وقبورهم . والآية الأولى بصفة خاصة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » تقال دائما فى بداية كل محاضرة أو خطبة أو عظة يلقيها أى مسلم ، وتكتب على رأس كل ورقة يكتبها أى مؤمن .

ويوجد إيقاع محكم وسليم يجب اتباعه فى ترتيل الفاتحة وترتيل جميع آيات القرآن الكريم .

فكنت أنا ورجاء نستمع عن كثب لإمامنا ، ونحرص على تقصير أو تطويل الحروف المتحركة كما تفعل عند ترتيلها ، وكذلك نراعى السكنات والوقفات فى نهاية (كلمات) معينة .

ويأتى جزء من قوة الصلاة من الانضباط المتضمن فى تنفيذها انضباطا يقوى عقيدتك ، ويؤكد الاتجاه نحو مكة ولمس الرأس للأرض التزام المؤمن بالسجود لله ، وبطريقة مماثلة يرمز الوضوء الذى يسبق الصلاة إلى ضرورة أن نبقى طاهرين أنقياء فى نظافة تامة أمام الله .

ويذكرنا تكرار صلاتنا أكثر من مرة فى اليوم بألا نسمح لعقيدتنا أن تبتعد عن عقولنا ، لأنه بوقوفنا كل ثلاث أو أربع ساعات لترتيل كلام الله فإننا نؤكد أننا لا ننمو بعيدا عنه .

كم كانت العمة نعمت تبدو بسيطة فى سجدات الصلاة ، ففى حركة واحدة متواصلة تنحنى وتثنى ركبتيها وتنزل حتى يلمس أنفها وجبهتها الأرض بينما ترتل ثلاث مرات فى كل سجدة :

ـ سبحان ربى الأعلى .

وخلال هذه الامسيات جربت ميلادا دينيا عميقا وتلهفا لتعلم المزيد ، وبدأت أقرأ سيرة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وأحفظ آيات القرآن الكريم ، وأقرأه فى الليل وعند الفجر ، فغالبا ما كنت أضبط ساعة المنبه على الخامسة صباحا ، وأستيقظ أثناء نوم بقية العائلة لأقرأ كلام الله وأنا أشهد شروق الشمس . وكنت دائما أحب قراءة القرآن الكريم بصوت عالٍ ، وأتدرب على قراءة الآيات حتى أجيد قراءتها ولا أخطىء فيها .

ولا يمكن وصف جمال لغة القرآن أو سحرها الذى يشد الآذان والقلوب ، ويعتبر ترتيل القرآن للجمهور بايقاعاته وفواصله ومقاطعه فنا فى العالم العربى والاسلامى ، وقراؤه ذائعو الصيت يتمتعون بشهرة واسعة لا تقل عن شهرة الموسيقيين الكلاسيكيين فى الغرب .

ونما توهجى الدينى بكل الحماس الذى يشتعل فى سن المراهقة . وفى سن الرابعة عشرة بدأت أضيف صلوات قصيرة اضافية من السنن والنوافل للصلوات الخمس التى أقوم بها كل يوم .

وأخذت أقرأ القرآن مرتين فى اليوم ، وبدأت أقرأ الحديث النبوى الذى يعد المصدر الثانى فى الأهمية الدينية بعد القرآن ، وحرصت على اتباع الأوامر التى يأمر بها أيضا .

وبدلا من الصيام فى شهر رمضان فقط ، أخذت أصوم مرة أو مرتين فى الاسبوع ، وغيرت طريقتى فى اللبس وطلبت من أمى أن تشترى لى ملابس تشبه ملابس « تانت نعمت » تغطى رسغى وكعبى .

ولا زلت لا أصدق ذلك حتى الآن فقد وصل بى الأمر حتى ذهبت إلى أقاربى وأصدقائى وكل من أعرفه أطلب إليهم أن يتبرعوا بأموالهم للإخوان المسلمين .

كان الإخوان المسلمون فى كل مكان بحينا فى الروضة كما كانوا فى كل مكان بالقاهرة يعلمون المسلمين الصغار تاريخ الإسلام ويحثونهم على تنفيذ أوامر الله كما نزلت فى القرآن ، ويشجعون المؤمنين أن يسيروا فى الطريق المستقيم .

وكفتاة صغيرة اعتقدت أن هذه الجماعة العصماء تدعو إلى المثل العليا فى الدين والاخلاق ، وأن رؤيتهم للعالم ليست فقط مثالية على نمط المدينة الفاضلة ولكن يمكن تطبيقها . وكانت توجد عيادات طبية تابعة لهم فى مناطق القاهرة الفقيرة لتقديم العلاج الطبى وعلاج الأسنان بالمجان ، وصيدليات تبيع الدواء بأسعار مخفضة جدا ، وأيضا تأمين الاخوان المسلمين من العمال الذين يمرضون وليس لديهم ما يعينهم على الإنفاق على أسرهم .

كنت أرى كل يوم الشباب الجاد الذين يعملون مع هذه الجماعة فى ساحات المدارس فى الروضة متطوعين لتعليم الصبية الصغار دينهم وتاريخهم الاسلامى ، وقد تركت الفتيات فى أغلب الأحوال ليتعلمن الإسلام من عائلاتهن بالرغم من أن بعضهن قد التحقن بجمعية الأخوات المسلمات الأكثر حكمة .

ولم أهتم بأن أخوتى الصبيان قد التحقوا بالحلقات الدراسية التى كان ينظمها الإخوان المسلمون بينما لم ألتحق أنا .

كان هذا يبدو طبيعيا تماما لى ، فقد كان طبيعيا أن يعامل الشبان بشكل مختلف عن الفتيات . وكنت أعجب باهتمام هذه الجماعة بالصغار ، وأعجبت جدا بأولئك الأولاد الذين تركوا الملاعب لجماعات الإخوان المسلمين الدراسية ، وتركوا الكرة من أجل القرآن ، وارتفعوا على طفولتهم من أجل وضع جديد أكثر جدية .

وكان الإخوان المسلمون يقبلون بامتنان الإعانات المالية من أى أحد بغض النظر عن الجنس ، فكنت أذهب بالمبلغ الذى أجمعه من المال مرة كل أسبوع ، وبدون أن يصحبنى أحد أتسلل إلى منزل الرجل الذى كان يلى حسن البنا « المرشد العام » ومؤسس الإخوان المسلمين ، الذى أنشأ فى عام ١٩٢٨ « جماعة » من الشباب المؤهل لتعليم مبادىء الإسلام .

وعندما كنت فى الرابعة عشرة من عمرى أصبح « الجهاز » السرى من الشباب لحسن البنا جيشا من الشباب المحترف ، الذى انتشر فى أحياء الطبقة الوسطى فى كل بلدة ومدينة فى مصر .

وكان من المفروض فى ذلك الوقت أن تتم تحركات الإخوان المسلمين سرا ، ولكن السرية فى الأحياء المصرية ليس لها أى معنى إطلاقا ، فكل واحد يعرف أين يعيش كل واحد آخر ؟ وماذا يفعل ؟ ومع من ؟ ومتى ؟ وهكذا عرفت بلا سؤال منزل حسن الهضيبى القريب جدا من منزلنا وهو من أهم أعضاء الإخوان المسلمين ، فأقرع الباب وأسلم تبرعى ببساطة للرجل الذى ألاقيه هناك قائلة فى همس وأنا مستمتعة بالتجربة التى أخوضها :

ـ هذا من أجل الإخوان المسلمين .

فيقول الرجل :

ـ شكرا يا أختى ، هل لى أن أسأل من أين جاءت هذه النقود ؟

وفى كل مرة كنت أهز رأسى وأنا أتمتم قبل انصرافى :

ـ من صديق .

وأثناء استمتاعى بالاكتفاء الذاتى الذى وجدته فى الدين ، اكتشفت أيضا انفعالا جديدا : (السياسة) .

فعندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى تأثرت بموجة الوطنية التى كانت تجتاح البلاد . ففى ١٩٤٥ ، كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، وانتصر البريطانيون . لماذا إذن لا يجلون عن مصر ليحكمها المصريون ويذهبون إلى بلادهم ؟

كنا نسمع أن البريطانيين لا يهتمون إطلاقا بالشعب المصرى . لقد بنوا مطارات وطرقا من القاهرة إلى بورسعيد والسويس لاستخداماتهم العسكرية ولكن فى كل السنين التى احتلوا بلادنا فيها « لحمايتنا » لم يفعلوا إلا القليل للغالبية العظمى من المواطنين .

ففى الريف المصرى ، حيث يموت نصف الأطفال قبل الخامسة ، وحيث يصاب الناس بالعمى أكثر من أى مكان آخر فى العالم كله ، وحيث ٧٠٪ من الكبار مصابون بالبلهارسيا من شرب ماء النيل ، كل هذا ولم ينشىء البريطانيون مستشفى واحدا ، ولم يحفروا بئرا واحدة يستطيع الفلاحون أن يشربوا منها ماء نظيفا .

ملايين من الفلاحيين لا يستطيعون القراءة ولكن البريطانيين ـ فى الكلام الذى يدور بيننا ـ لم يبنوا حتى مدرسة واحدة لتعليمهم .

ملايين ليس فى مقدروهم أن يستأجروا منزلا ، لكن البريطانيين لم يبنوا حتى مأوى رخيصا واحدا أبدا .

ولم أستطع أن أفهم ذلك ، وأحسست فى أعماقى بالجيشان الوطنى والتصاعد الثائر الذى كان يحس به كل المصريين .

أصبحت ـ وأنا مازلت تلك الفتاة الصغيرة ـ مفعمة بشعور حب الوطن وتحرير مصر من المستعمرين الأجانب .

وكانت الأحاسيس تتصاعد أيضا ، ضد الملك فاروق .

كان يفعل ما يطلب منه البريطانيون طالما يدعونه جالسا على العرش .

وبدلا من مساعدة المحتاجين كما يطلب كتابنا المقدس ، كان يساعد نفسه فقط منغمسا فى كل رغباته وخيالاته الصبيانية .

كانت لديه تليفونات خضراء فى كل مكان فى قصوره واستراحاته ، وفرض قانونا يحرم تركيب التليفون الملون لدى أى إنسان آخر .

واشترى لنفسه يختين وثلاث عشرة طائرة ، وما يزيد على مائة سيارة ، نصفها تقريبا رولز رويس وكاديلاك .

وكان يقود السيارات أحيانا بنفسه بطيش وتهور ويمرق بأقصى سرعة حتى على الطرق الضيقة ، وذات مرة أطلق الرصاص على إطارات سيارة حاولت أن تسبقه ، وليتأكد من أن الشرطة لن تتعرض له فى مثل هذه الأعمال صبغ معظم سياراته باللون الأحمر القانى وحرمه على سيارات الآخرين .

وكانت حكومته فاسدة تماما ، وقيل إن كثيرين فيها باعوا الالقاب والمراكز والرتب الحكومية مقابل الأرض .

وكان المقربون من الملك ، حتى حلاقيه ، يزدادون ثراء دائما ، أما الفلاحون الذين يساندون الاقتصاد المصرى بمحاصيلهم فكانوا يزدادون فقرا ، ويزدادون معاناة من الحياة . وبدأ الفلاحون يقولون :

ـ إننا كأبرة الخياطة تحيك ملابس للآخرين ولكن نظل نحن عراة .

وبدلا من أن أفاخر بملكنا ، كنت أخجل من مجرد ذكر اسمه . ولم يكن فاروق حتى مصريا ، إنما كان ألبانيا ، من أحفاد محمد على ، الذى حكم مصر فى الأربعينيات من القرن الماضى .

وعندما أخرجونا ذات مرة من المدرسة لمشاهدة مرور موكب الملك ، لم أستطع حتى أن أقنع نفسى بالتصفيق أو بتحية السيارة الملكية كما فعلت زميلات فصلى ، وظللت أقول لصديقاتى فى المدرسة :

ـ إن مصر من حق المصريين .

فكن ينظرن إلى وكأننى مخبولة ، فهذه لم تكن الأفكار العادية للفتيات المراهقات ـ لقد أخذ حماسى الوطنى يزداد ويزداد .

كنت أحلم باليوم الذى يخرج فيه البريطانيون والملك من مصر .

كان انغماسى فى الشعور السياسى يحير أسرتى ، فلم يكن أبى سياسيا على الاطلاق ، ولكننى لم أستطع التوقف عن الحديث عن حلم تحرير مصر ، وكان أبى يقول لى وهو يهز رأسه فى دهشة :

ـ من أين جئت بكل هذه الأفكار ؟

لم يكن هو حريصا على أن يقرأ الصحف ، بينما لم أستطع أنا التوقف عن قراءتها ، خصوصا بعد اشتعال حرب فلسطين .

لقد وعدت بريطانيا فلسطين خلال الحربين العالميتين بالاستقلال مقابل مساندة العرب لها ضد الألمان .

ولكن حدث فى مايو ١٩٤٨ أن تراجعت بريطانيا عن كل وعودها ، منسحبة بشكل غير متوقع من المنطقة تاركة للامم المتحدة ان تخلق دولة جديدة لإسرائيل .

ياله من انتهاك للحق ! كيف يمكن لبريطانيا « حامية » فلسطين أن تدع إسرائيل تنشأ على أرض عربية ؟ وتساءلت بسذاجة فى ذلك الوقت لماذا لم ينشئوا إسرائيل فى استراليا ؟ .

ودخلت مصر الحرب بمجرد أن غادر آخر القوات البريطانية فلسطين ، وانضمت مع سوريا والأردن فى معركة ضد الدولة الجديدة التى فرضت على الأرض العربية .

وشاهدنا فى القاهرة مظاهر قليلة للحرب ، ولكن قلبى كان مع قواتنا المقاتلة لحماية كرامة بلدنا وكرامة الفلسطينيين .

وامتلأت فخرا عندما شاهدت فرقا خاصة من المتطوعين التى دربها وسلحها الإخوان المسلمون وهم يسيرون فى شوارع القاهرة ، وكان هؤلاء الفدائيون الذين يقدمون أرواحهم فداء للقضية العربية يتكونون من طلبة الجامعة ومن بعض الجوالة أو الكشافة الذين ظلوا يرتدون ملابس الكشافة الكاكى وهم ذاهبون إلى الحرب .

وحتى بعد هزيمة مصر والدول العربية أمام اسرائيل بعد شهرين من بدء الحرب رفض الإخوان المسلمون الاستسلام ، واستمروا فى ارسال فدائيين للقتال فى سيناء وكانت شعاراتهم التى يحملونها فى استعراضاتهم تعبر عن احساسى بالضبط :

- فلسطين للفلسطينيين ، كفانا خداعا يا بريطانيا .

وقد يبدو غريبا أن أمى البريطانية كانت سببا فى توهج وطنيتى لمصر ، فكم كانت تروى لنا على الشاى أو الغداء قصصا عن الطيارين البريطانيين أو رجال المشاة الشجعان الذين ضحوا بالكثير من أجل بلدهم أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان بطلها الخاص الذى كانت تعجب به فوق كل الأخرين هو رئيس الوزراء وينستون تشرشل ، لقد كانت فخورة ببلادها وحضارتها ، حتى قطع الصينى أحضرتها من وطنها ، فكانت تقول وهى تقلب صحنا أو ابريقا للحليب .

- انظرى ياجين ، خزف اسبودى ، صنع فى بريطانيا العظمى .

أحببت أمى جدا وحاولت أن أحاكى تصرفاتها فإذا كانت تحب بلدها بمثل هذا الإخلاص الشديد ، فلابد لى بالتأكيد من أن أشعر بنفس هذه الدرجة من الحب لبلدى ، ولم أجد أى تناقض من أن « العدو » فى مصر كان البريطانيين ، فالمسألة كانت الإخلاص والتضحية والواجب المفروض على كل إنسان إزاء وطنه .

وكما أشعلت أمى الإنجليزية فى أعماقى حبى لمصر ، فقد أشعلت العمة زوزو وصديقاتها فى داخلى الافتخار بالنساء ، لقد قرأت كفتاة صغيرة ، مثل كثيرات من صديقاتى قصصا كثيرة عن بطلات مصريات . . . ملكات ، وشاعرات ، وقديسات ، ومحاربات ، ولقد قرأت عدة مرات قصة الخنساء المشهورة الشاعرة الجاهلية التى عاشت حتى أيام سيدنا محمد عليه السلام ، والتى حازت على أعلى الجوائز فى سوق الشعر المهيب الذى كان يعقد سنويا بالقرب من مكة ، سوق عكاظ . ولقد كان للشاعرات أهمية كبيرة فى الإسلام ،

كن يقمن بدور المؤرخات والناقدات الاجتماعيات والمشاركات فى الحرب لإنقاذ وإسعاف من يسقط فيها من المجاهدين .

فقد قيل إن الخنساء عندما فقدت أخاها فى معركة من معارك قبيلتها قبل الاسلام حزنت عليه حزنا شديدا وتفتق حزنها عن شعر صورت فيه معاناة عشيرتها فى قتالهم الدائم من أجل الحياة ، شعرا أثر فى بشكل عظيم وجعلنى أكتب الشعر أنا نفسى . كما أعطتنى قصة السيدة خديجة أولى زوجات النبى شعورا خاصا كنت أحس به كأنه مشاركة روحية لهذه السيدة العظيمة . الأرملة الثرية التى كانت تعمل بالتجارة عن طريق قوافل قبيلتها قريش وهى أيضا قبيلة النبى عليه السلام .

كانت السيدة خديجة أول من آمن بدين الإسلام الجديد ، عندما جاءها سيدنا محمد عليه السلام فى فزع عظيم يقص عليها أن أمين الوحى جبريل ظهر له فى غار « حراء » ، وأنبأه بأنه رسول الله ، فصدقته وساندته فى الحال وقالت له :

« أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

وأخذت تهدىء من روعه مؤكدة له أن الله لن يخذله لأنه عاش شبابه يفعل الخير ، ويعين الفقراء ، ويساعد المحتاجين ، ويقف إلى جوار المظلومين والضعفاء .

وكانت شجاعتها وقوة حبها كثيرا ما أشاد بهما سيدنا محمد طوال حياتها ، ولم يتزوج عليها إلا بعد وفاتها .

وهزتنى كذلك قصة السيدة عائشة بنت أبى بكر ، فتاة قالت بعض الروايات إنها كانت فى التاسعة فقط عندما تزوجت النبى ، فقد كانت قصة محببة إلى أيضا .

فتاة شجاعة وحكيمة كبرت لتصبح حبا كبيرا فى حياة سيدنا « محمد » ، لقد روت عائشة كثيرا من الأحاديث المأثورة التى توضح بعض المسائل المهمة للمسلمين ، وحاربت أيضا من أجل ما كانت تؤمن به ، معتلية جملها بعد وفاة

النبى بسنوات قليلة . . . كم كان سيدنا « محمد » يعتز بها ويقدر لها دورها فى حياته ، وفى لحظاته الأخيرة وهو يودع الحياة إلى الرفيق الأعلى أسلم روحه الطاهرة على صدرها .

ولا نهاية لقصص البطلات المسلمات ، وكثير منها عن نساء فى منزلة القداسة مثل ـ السيدة زينب ، « أم العواجز » ـ أو رابعة العدوية « الأمة اليتيمة » التى زهدت فى ملذات الحياة ومباهجها ، وتفانت فى حب الله والإخلاص له سبحانه ، فارتفعت إلى منزلة القديسات .

ولقد قرأت أيضا قصص بطلات الغرب مثل مدام كورى التى تفانت فى أبحاثها حتى اكتشفت الراديوم ، فلورنس نيتنجيل التى ضحت براحتها وصحتها للعناية بالمرضى ، ومن القصص المحببة لدى قصة هيلين كيلر ، فبالرغم من أنها كانت عمياء بكماء صماء فإنها كافحت لتصبح إنسانة لها كيان ، ولكن القصص التى كانت أشد إثارة لى كانت قصص العمة زوزو عن نساء مصر الحديثة . وعند تناول شاى بعد الظهيرة عندها كنت أنصت فى انبهار ووله للحديث عن هدى شعراوى التى كانت من أوائل السيدات اللاتى وقفن فى وجه المستعمر البريطانى وحاربت من أجل حقوق المرأة . فلولا هدى شعراوى ما استطاعت كثيرات من نساء مصر الحصول على حق التعليم . انها هى التى فتحت فى عام ١٩١٠ أول مدرسة للتعليم العام للبنات فى القاهرة . وأسست هى وصديقتها سيزا نبراوى فى عام ١٩٢٠ أول جمعية نسائية ، وكذلك أول مجلة نسائية « المصرية » التى كانت تقرؤها عمتى زوزو بانتظام . وعند عودة هدى شعراوى إلى الإسكندرية من مؤتمر نسائى دولى فى روما عام ١٩٢٣ ، كانت أول امرأة مصرية تكشف عن وجهها الحجاب علنا معلنة أنه رمز لسيطرة الرجل وأنه تقليد أجنبى مستورد أتى به الأتراك لمصر .

وأصبح إعجابى بهدى شعراوى لاحد له ، فقد ضحت بالكثير جدا لتقدم المرأة المصرية بما فى ذلك حياتها الزوجية فقد طلقها زوجها الذى كان ابن عمها الأكبر ويكبرها بثلاثين عاما ، لأنها رفضت لبس الحجاب . ولكنها استمرت فى

كفاحها ، وفى عام ١٩٢٤ حققت على الأقل أحد مطالبها فى الاصلاح : تحديد سن السادسة عشرة للبنات كحد أدنى للزواج بدلا من سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وهى السن التى تزوجت فيها هدى شعراوى ، أما الإصلاحات الأخرى التى حاولت تحقيقها فى العشرينات فهى : إباحة التعليم العالى للفتيات ، والعمل على تحديد تعدد الزوجات والزيجات المعقودة مسبقا وإلغاء الدعارة ، وختان البنات ، وفشلت . كانت محاربة من أجل النساء ، الشىء الذى رفع من قدرها فى نظرى . ولكن الذى جعلها ذات تأثير رئيسى فى حياتى وأنا صغيرة هى وقفتها ضد البريطانيين .

وكنت أتوسل إلى عمتى زوزو قائلة :

ـ قولى لى مرة أخرى قصة مظاهرة هدى شعراوى ضد البريطانيين . فى الثورة الوطنية التى أعقبت الحرب العالمية الأولى والوعود الفاشلة الأولى لبريطانيا العظمى بأن تترك مصر .

وكانت عمتى تبتسم لاهتمامى وتعيد وتزيد : « . . . قامت هدى شعراوى بقيادة ٣٥٠ امرأة إلى مكتب المندوب السامى البريطانى مطالبة بحرية مصر . ولم يستجب المندوب السامى ، ثم اشتركت هدى شعراوى بعد ذلك بشهر واحد فى موكب جنازة فى القاهرة لمن قتلهم البريطانيون من رجال ونساء فى المظاهرات القائمة ، وفتح البريطانيون النيران مرة أخرى على الجمهور وقتلوا المزيد من المصريين ، وفجأة خطت هدى شعراوى للأمام وواجهت رئيس قوات الفرسان ، وأعادت عمتى زوزو عندئذ الكلمات الأسطورية التى قالتها هدى شعراوى فى لغة إنجليزية سليمة :

ـ « ها أنا ذى أقف أمامك . لماذا لا تطلق على النا
المصريات الأخريات ؟ إننا نريد الحرية لبلدنا . إننا لـ
هذا الإحتلال » . فأمر الضابط البريطانى قواته بوقف
مندهشا لبسالتها . وتكف عمتى عن الكلام لتجدنى
القصة تجعلنى دائما أقف مسحورة أتساءل : هل أ

وقبل عيد ميلادى الخامس عشر بقليل قالت لى أمى :

ـ جين ، لقد دعتك عمتك زوزو لقضاء شهر رمضان فى السويس معها . هل تحبين الذهاب ؟

طبعا ، كنت أحب أن أغادر القاهرة فى أيام الاجازات . كما تطلعت لرؤ ية ابنة عمتى عايدة التى جسد زوجها حسن عزت صورة البطل التى تملأ خيال كل فتاة ، فقد قام البريطانيون أثناء الحرب العالمية الثانية بحبس حسن بسبب عمله مع الألمان ، وكان حسن واحدا من ضباط الجيش المصرى الذين يؤمنون بالمثل العربى : « عدو عدونا صديقنا » .

فشعر هو وغيره أن انتصارا ألمانيا فى مصر ، قد يؤدى إلى طرد نهائى للبريطانيين منها وتركنا لنحكم أنفسنا .

كان يوما حارا عندما غادرت القاهرة للسويس فى صيف ١٩٤٨ . وكان قلبى يرقص طربا لرؤية عمتى زوزو ، وقطعت السيارة مسافة ثمانين ميلا تقريبا شرق القاهرة إلى البحر الأحمر . فالسباحة سوف تكون هناك ممتعة فى المياه الصافية ، والبلاجات جميلة ينعكس عليها لون اللافندر الارجوانى من الجبال الشاهقة . وكان حسن عندئذ مهندسا مطرودا من القوات الجوية بإيعاز من البريطانيين ، وهو راوى قصص مدهش ، وكنت اتطلع شوقا لحكاياته عن تحدى المحتلين ، وكنت كما قلت فى الخامسة عشرة تلميذة رومانسية لا يعرف خيالها أى حدود وفى السويس كنت على وشك اللقاء مع قدرى .



الفصل الثالث

الثائر والطالبة



لم أستطع التعرف عليه فى أول مرة رأيته . ربما لأن الساعة كانت الثانية صباحا وأنا فى مطبخ عمتى فى السويس ، أساعد فى تحضير وجبة سحور رمضان ، وربما كان هذا لعدم ورود احتمالات الموقف أبدا . كيف يتأتى وجود هذا البطل القومى ، فى صالة منزل ابن عمتى ؟ هذا لا يصدقه عقل .

« لدينا ضيف فى المنزل » ، قال حسن عزت وهو يدخل المطبخ ، فور عودته بالسيارة من القاهرة ، « لقد تحمل الكثير ، ولذلك يجب أن نقدم له أفضل ما عندنا» . من هو ؟ سألت بفضول أثارته فكرة أن يكون هناك شخص آخر مثل « أنور السادات » الذى عانى الكثير من أجل مصر ! ولكن حينما أجاب حسن عزت عن سؤالى ، شعرت بلطمة شديدة ، وبينما كنت أحدق فى حسن غير مصدقة ، إذا بثمار المانجو التى كنت ممسكة بها تسقط من بين يدى وتتناثر على الأرض .

« أنور السادات .. نفسه ! » ..

لا ، لا يمكن ، أخذت فى التقاط المانجو المتناثرة وأنا أردد لنفسى : « لابد أن حسن يسخر منى » . وطوال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى السويس ، لم يكن لنا من حديث سوى أنور السادات ، والمحنة التى اجتازها هو وزملاؤه المتهمون ، فقد استغرقت محاكمتهم ثلاثين شهرا فى قضية اغتيال أمين عثمان ، وزير المالية ، الذى كان قد اغتيل قبل عامين . حينئذ كانت المحاكمة توشك على الانتهاء ، وكانت الصحف تطالعنا كل يوم بصور الضابط أنور السادات بزعم أنه قائد المجموعة المتورطة فى حادث الاغتيال ، إلى جانب قصص عديدة تتناول مغامرات فراره . . . لقد حرصت على قراءة كل كلمة وردت فيها ، سواء أكان السادات متورطا فى حادث اغتيال عثمان أم لا ، فهذا لم يكن أمرا يعنينى ، إذ أنه من المؤكد أن موت عثمان كان له ما يبرره . فقد اشتهر بأنه من دعاة إيجاد روابط بين حكومتنا والبريطانيين . وفى الواقع ، فإن عثمان كان قد وقع بنفسه على وثيقة موته قبل مقتله بفترة وجيزة ، حينما أصدر تصريحه الفاضح المشئوم الذى كان له أسوأ الآثار فى المحافل الوطنية ، وقد شبه فيه العلاقة بين مصر وبريطانيا بعلاقة الزواج الكاثوليكى ، بمعنى أنها علاقات أبدية لا يمكن قطعها ، إذ أن كثيرين اعتبروا صدور مثل هذا التصريح من وزير فى حكومتنا بمثابة خيانة . وفى يناير ١٩٤٦ لقى أمين عثمان حتفه بالرصاص الذى أطلق عليه . ولقد علمت فيما بعد أن أنور هو الذى كان قد توجه بمرتكبى الحادث إلى الصحراء حيث دربهم على إطلاق الرصاص .

ولقد كان إعجابى بالسادات والرجال الآخرين الشجعان الذين يحاكمون يتزايد مع قراءة كل موضوع جديد ينشر عنهم فى الصحف . كنت أترقب بفارغ صبر عودة زوج ابنة عمتى من منطقة وسط البلد حاملا معه الصحف . لقد سيطرت على تماما قضية المحاكمة وبطولات المتهمين ، إلى الحد الذى تضاءل فيه إحساسى بالحرمان أثناء الصيام بالمقارنة بمعاناة انتظار وصول « أبيه » حسن .

وعلى مدى ليالى رمضان الطويلة ، وبعد أن نكون قد تناولنا إفطارنا ، كنت أبادر زوج ابنة عمتى - « أبيه » حسن - ليحكى لى المزيد عن أنور السادات ، كنت

أتوسل إليه قائلة : « من فضلك يا أبيه » فيأخذ حسن فى رواية قصة أخرى عن أنور الذى عرفه عن قرب عندما كان طيارا فى القوات المسلحة ثم أثناء السجن فيما بعد .

ولقد هزتنى وأثارتنى قصة دخول أنور السادات السجن لأول مرة ، بعد أن فتشت قوات الأمن البريطانية بيته ، وعثرت فيه على جهاز إرسال ألمانى كان يحاول استخدامه فى إرسال اتفاق إلى روميل فى الصحراء غربى الاسكندرية . لقد أراد أنور السادات أن يقدم لروميل مساندة عسكرية مصرية مقابل استقلال مصر ، ومن أجل هذا سجنه البريطانيون لمدة عامين من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ .

كنت ألح على حسن قائلة : « حدثنى عن فترة اختبائه من البريطانيين » ، وكان بالتالى يسترسل فى حكاياته . . خلال فترة سجنه تمكن السادات من الهرب مرتين ، وانتهى به الأمر ليعيش هاربا من أكتوبر ١٩٤٤ حتى سبتمبر ١٩٤٥ ، لقد عانى كثيرا فى محاولاته تجنب الوقوع فى أيدى البريطانيين ، لقد تنكر بإطلاق لحيته ، وسمى نفسه الحاج محمد ، وعمل كبواب عند حسن عزت ، وكان يقوم بتحميل وتفريغ سيارته اللورى ، بل قام بتوصيل الفواكه والخضراوات إلى معسكر الجيش البريطانى فى التل الكبير بمنطقة القنال ، ويستطرد حسن ضاحكا : « لقد كان دائما أذكى منهم » . ويستطرد حسن قائلا : « إن السادات وجد فيما بعد عملا متواضعا فى مزغونة قرب القاهرة حيث كان ينقل الأحجار من السفن الراسية فى النيل إلى موقع طريق جديد يجرى إنشاؤه بين القاهرة وأسوان . ولم يكن دخله يسمح له بأكثر من وجبة واحدة فى اليوم كانت طبقا من شوربة العدس ثم ينام فى جراج . أما عمله التالى فكان المشاركة فى حفر قناة جديدة فى بلدة أبى كبير بمحافظة الشرقية . وعندما انتهى شق القناة ، توجه للعمل فى نقل قطع الرخام من محجر فى بلدة سنور بالصحراء إلى موقع قرب أهرام الجيزة ، لقد اضطر أنور أن يحمل ألواح الرخام على ظهره مثله فى ذلك مثل الذين بنوا الأهرام منذ ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد ، ويستطرد حسن ضاحكا : « أتعرفين فيم كان يستخدم هذا الرخام ؟ . . لقد كان يستخدم لبناء استراحة للملك فاروق » .

ولم يستطع أنور السادات أن يستعيد هويته وأن يعود إلى بيته إلا بعد أن انتهت الحرب فى عام ١٩٤٥ وأُلغيت الأحكام العرفية . وبالطبع لم يكن البريطانيون ليسمحوا له بالعودة إلى الجيش ، ولكن كانت أمامه فرص أخرى ، ولقد كان بوسعه أن يعمل بالزراعة أو أن يحصل على وظيفة فى القاهرة . ولكن مصر كانت لا تزال تسيرّ فى ركاب البريطانيين ، وشعر أنور أن مهمته لم تتم ، وخلال شهر كان أنور السادات قد شكل تنظيما سريا وهدفه هذه المرة هو تخليص البلاد من الزعماء المصريين المتواطئين مع البريطانيين ، ومن خلال ذلك إقناع الآخرين بسحب تأييدهم . وبعد أربعة أشهر من ذلك اعتقل مرة أخرى بتهمة اغتيال عثمان ، وقضى عامين ونصف العام فى السجن فى انتظار المحاكمة التى كنت أتابعها فى الصحف يوميا ، وكانت إدانته بهذه التهمة تعنى الحكم عليه إما بالإعدام وإما بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وطوال فترة إجازتى التى قضيتها فى السويس ، لم أكن أفكر فى شىء آخر ، إن هذا الرجل قد جسد كل ما أعجب به وأرغب فى أن أكونه . لقد كان بطلا . . إنسانا يعتنق أرقى المثاليات . . لقد استعاد كرامته ، لقد ضحى كثيرا من أجل مصر . . متحملا العقوبات التى يفرضها عليه البريطانيون دون أن يفقد شجاعته أو اقتناعه . . وفى يوم نشرت إحدى الصحف صورة له وهو واقف فى قفص المتهمين بقاعة المحكمة ، وتقول الجريدة إنه كان يصيح قائلا : « احكموا على بالموت . . إذا رغبتم ولكن امنعوا النائب العام من أن يمتدح الاستعمار البريطانى داخل هذه القاعة المصرية الموقرة » ، وتقرر إعلان الحكم آخر شهر يوليو .

وبينما كان موعد النطق بالحكم يقترب ، لم أكن أستطيع النوم ، أو أتذوق الفواكه والحلوى التى اعتدنا تناولها بعد الإفطار ، فقد أصبح هذا الرجل متسلطا على كل كيانى ، وبينما كان أقرانى من الفتيات يبهرن بنجوم السينما والمغنيين العاطفيين ، كان أنور السادات بطل كل أحلامى ، وهكذا كنت أصلى من أجل سلامته . وفى يوم النطق بالحكم : « يارب إذا برأته المحكمة وأنقذت حياته . .

فإننى أتعهد بأن أصوم شهرا آخر شكرا لك » ، وبالنسبة لفتاة فى الخامسة عشرة ، مولعة بالطعام ، فإن هذا التعهد لم يكن أمرا هينا !

لم أستطع الصبر حتى يحضر « أبيه » حسن ومعه الصحيفة ، ولكنى كفتاة صغيرة لم يكن ليسمح لى بالخروج من المنزل بمفردى . فما كان منى إلا أن ناديت على خادمة عمتى « تعالى يا سنية . . لابد أن أتوجه للسويس لقضاء أمر عاجل » . لابد أنها تشككت فى أمرى إذ ما هو الأمر العاجل الذى يمكن أن ينتظر فتاة فى سن المراهقة ؟ على أى حال فقد رافقتنى بدافع الواجب إلى خارج المنزل ، وأنا أسبقها بخطوات مسرعة فقد كنت فى عجلة من أمرى . لقد قطعت مسافة الأميال الثلاثة إلى السويس جريا فى قيظ الصيف ، وكان الطريق مغطى بالرمال ، وكانت خطواتى تثير الغبار من حولى على طول الطريق وأنا أجرى مسرعة ، وكانت نظرات الدهشة تلاحقنى من الأطفال الذين يمتطون الحمير المحملة بالبرسيم والقش ، ومن النسوة اللاتى يحملن الجرار على رؤوسهن وأطفالهن على أكتافهن . وبأنفاس لاهثة وبإحساس شديد بالعطش الذى لا يرتوى بسبب الصوم ، خطفت صحيفة من أول كشك قابلنى « براءة السادات » هكذا كان مانشيت الصفحة الأولى .

وطوال سنوات عمرى لا أعرف إن كنت قد شعرت بمثل هذه الفرحة والارتياح ، ربما أكون قد شعرت بهذا الإحساس بعد ثلاثين عاما عندما عاد أنور سالما من رحلته إلى القدس عام ١٩٧٧ ، وربما أحسسته أيضا بعد الانسحاب الإسرائيلى الأول من سيناء عام ١٩٧٩ عندما صمت لمدة ثلاثة شهور شكرا لله . ولكن فى تلك اللحظات فى السويس والمشاعر البكر لفتاة فى سن المراهقة ، فقد كنت أشعر وكأنى أدور بداخل الجنة ، وأخذت أردد الآية القرآنية : « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » . . صدق الله العظيم ، بينما كانت الدموع تنهمر من عينى . لقد نجا السادات .

اشتريت فى ذلك اليوم علبة شيكولاتة لنحتفل أنا وسنية التى تمكنت أخيرا من اللحاق بى وأخذنا سيارة أجرة لنعود بها إلى المنزل . لم يكن لدى فكرة إلى

أى مدى سيصبح ذلك اليوم يوما خاصا .

وفى ليلة اليوم ذاته ، وبينما كنت أحملق فى حسن بداخل المطبخ ، استطعت فى النهاية أن أسأله ، أنور السادات . . هل سأراه ؟ فأجابنى حسن وقد بدا عليه الإحساس بالاستمتاع بوقع المفاجأة التى هوى بها على سمعى : « طبعا يا أيتها البلهاء ، سوف يبقى معنا إلى أن يقرر ما سيفعله » .

ودون أن أدرى تحسست وجهى بيدى تاركة أثر عصير المانجو عليه ، ونظرت إلى فستانى البسيط الذى مازال متربا من رحلتى داخل السويس ، وكانت يداى متسختين من الفاكهة وشعرى غير ممشط ، وقلت لحسن : « لابد أن أعد نفسى » .

وأثناء خروجى مهرولة من المطبخ إلى غرفة النوم ، لم ألحظ وجود ذلك الشخص الجالس فى هدوء فى الصالة إلا بعد فوات الأوان . شلت حركتى مرة أخرى وأنا شاخصة هناك لا أستطيع أن أتحرك ولسانى معقود تماما . لماذا هو جالس فى الممر ، وليس فى حجرة الجلوس ؟

والتفت نحوى ببطء ، كنت أعلم أنى لابد أن أخفض بصرى وألا أنظر إلى هذا الرجل ـ أو أى رجل آخر ـ وبهذه الجرأة ، ولكن فى تلك اللحظة لم أقو على ضبط نفسى . كان الممر مظلما ولكن ملامحه كانت مألوفة لى بعد كل الصور التى شاهدتها له لدرجة أنى شعرت بالأضواء وكأنها باهرة . وعندما التقت نظراتنا ، لمحت فى عينيه مسحة من الجدية والحزن ، ولم أستطع أن أبتعد بعينى عنه . كان وجهه يبدو أكثر سمرة مما يبدو فى صوره وبدا وكأنه يحمل عبء العالم على كتفيه ، وخلال وقفتى فى الممر شعرت بمدى الإجهاد الذى لابد أنه يعانى منه .

وللحظات وقفنا بلا حراك حتى تذكرت فجأة آداب السلوكيات ، ودون أن أتذكر لزوجة يدى المتسخة ، مددتها إليه مرحبة ، فصحافحنى بهدوء . لم ينبس أى منا بحرف واحد ، وبينما كنت واقفة فى مكانى ، إذا بى أتذكر تلك الثمرة من الجوز التى كسرتها قبل أسبوع ، وعندما انشطرت قشرتها إلى نصفين ، بدت

التعاريج على أحد النصفين كما لو كان مكتوبا فى ثناياها اسم « أنور » بحروف عربية جميلة ، بينما استطعت أن أقرأ بوضوح على النصف الآخر كلمة « الله » . وقد اعتبرت هذا فألا حسنا بالنسبة لنتيجة محاكمته . والآن فإننى أعتقد أن هذا الفأل شملنى أيضا .

وعندما جلسنا لتناول وجبة السحور ، لم أستطع أن أبتعد بعينى عنه ، ولابد أنه كان يشعر بالجوع الشديد بعد الطعام الردىء الذى كان يتناوله فى السجن ، لكنه لم يأكل إلا أقل القليل . وكالعادة أخذ أفراد الأسرة يتبادلون النكات والحكايات ، ولكن أنور لم ينبس بحرف واحد ، والتزمت أنا الصمت على غير عادتى ، وكانت الأسئلة تدور بداخلى ، لكنها مباشرة إلى حد لا أستطيع معه النطق بها . لماذا هو هنا معنا ؟ وليس مع زوجته وأطفاله الذين قرأت عنهم فى الصحف ؟ ولماذا هو صامت إلى هذا الحد ؟

ولمدة يومين لم يتكلم أبدا . وفى الصباح التالى ، وبعد أن قضيت الليلة بطولها دون أن تغمض لى عين ، وأنا مازلت لا أصدق أنه معى فى منزل واحد ، عرض حسن على عمتى توصيلها بالسيارة إلى طبيب أسنان فى السويس لتدرك موعدها معه . جلسنا أنا وعمتى فى المقعد الخلفى ، وجلس أنور وحسن فى المقعد الأمامى ، وحتى عندئذ استمر على صمته . . وأخيرا استجمعت شجاعتى وقلت له : « حدثنى أبيه حسن عن شجاعتك الجسور ووطنيتك البطولية » ، أومأ لى برأسه وهمهم بكلمات شكر ومرة أخرى عاد للصمت .

وأدركت حينئذ أنه كان يفكر ويتأمل فى القرارات والمواقف التى يعتزم اتخاذها فى المستقبل . وبعد زواجنا فإنى كثيرا ما لاحظت أنه يتأمل بنفس الطريقة ، عندما يجلس لساعات صامتا على مقعده فى الشرفة محملقا فى النيل ، وهو يدخن غليونه فى عزلة تامة ، وبعد أن يكون قد أصغى إلى نصيحة وزرائه وقرأ كل الأوراق والإحصاءات والتنبؤات إلا أن أى قرار يصل إليه يكون قراره وحده . وكان هذا هو أسلوبه دائما فى الوصول إلى قراراته . . . بمفرده . والآن ، وأنا جالسة فى المقعد الخلفى فى السيارة فى طريقنا إلى السويس ، اعتقدت أن صمته

يجعله يبدو أكثر غموضا .

وفى اليوم التالى اتصلت بوالدى فى القاهرة تليفونيا : « أبى . . من فضلك . . هل يمكن أن أمكث مدة أطول مع عمتى زوزو ؟ إن الجو فى القاهرة حار ولكننا هنا بوسعنا التوجه للبحر » . وكتمت أنفاسى وأنا أترقب جوابه . ولم أجرؤ أن أقول له السبب الحقيقى الذى من أجله أريد البقاء . لأنه بالقطع كان سيأمرنى بالعودة . ولحسن الحظ فقد سمح لى بأن أمد بقائى دون أن يوجه إلى أية أسئلة .

لم يكن باستطاعتى أن أكذب على أبى ، فإننى كنت أحبه وأحترمه للغاية ، لكننى لم أستطع أن أبلغه بالسبب الحقيقى . فقد كانت الشكوك ستساوره ـ وله فى هذا كل الحق ـ فيما يتعلق بمشاعرى تجاه أنور ، وبالرغم من أننى كنت قد أتممت لتوى الخامسة عشرة من عمرى ، لم يكن من غير المألوف بالنسبة لفتيات الطبقة المتوسطة فى مصر أن يتزوجن قبل سن السابعة عشرة . وبالفعل فإن الحديث كان يدور بين أفراد أسرتى حول من سأتزوج ، وكان « على » شقيق حسن عزت قد أفصح عن نواياه بزياراته المتكررة لنا فى القاهرة . لكنى لم أكن متقبلة تماما للفكرة ، كان على شابا لطيفا يشغل وظيفة تدر عليه دخلا كبيرا ويملك سيارة ، لكن شخصيته كانت ضعيفة ، كما كان يفتقد روح الدعابة ، وأيضا فإننى كنت أتشكك فى مدى شجاعته . . لقد أبلغنى « على » أنه كان فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية عندما كانت صفارات الإنذار لا تفتأ تطلق معلنة عن هجوم وشيك تشنه طائرات دول المحور ، لقد كانت مثل هذه الغارات أمرا مألوفا أثناء الحرب ، وخاصة لأن الاسكندرية لم تكن تبعد أكثر من ٦٥ ميلا عن الجبهة فى الصحراء ، ولكن على كان يشعر بالخوف . وعندما يسمع صفارات الإنذار كان يسقط على الأرض فى رعب وعلى حد تعبيره فإن الخوف كان يشله عن الحركة وكان يشعر كل مرة بأنه لن يفلت من الموت !

وبالرغم من أن لسلوكه هذا مبررا إنسانيا ، فإن رغبتى فيه كزوج قد تضاءلت ، لقد كنت أريد رجلا لا يخشى الغارات الجوية ولا يهاب الموت ، ولم

أكن لأعجب برجل ينبطح على الأرض .

لم يخطر ببالى أو ببال أحد من أفراد أسرتى أننى قد لا أتزوج على الاطلاق . لقد كنا ننتمى للطبقة المتوسطة ولدينا بعض الممتلكات وما كانت أسرتى تتمناه لى ـ مثلما تتمنى جميع الأسر المصرية لبناتها ـ هو زواج سعيد وموفق . وبالطبع كلما كان الزوج المرشح مقتدرا أمكنه توفير مستوى معيشة أفضل لى ، وكلما ارتقى مركزه الاجتماعى فان ذلك سينعكس على ، وفى جميع الأحوال فإن هويته ستصبح هويتى .

وكنت أستخلص من كلامى مع حسن أن أسرة أنور فقيرة مثله تماما . فأبوه محمد كان موظفا فى المستشفى العسكرى بالقبة وكانت أمه « ست البرين » إبنة فلاح سودانى ، إن الحياة كانت دائما بالنسبة لأنور دربا من الكفاح حتى أثناء طفولته .

ولد أنور يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٨ فى قرية بدلتا النيل وكان الابن الثانى للزوجة الثانية لأبيه . ولم يكن بقريته ميت أبو الكوم كهرباء أو مجارى مياه . وكانت جدته أم محمد تعالج المرضى فى القرية بمزيج من الأعشاب القديمة ، وتعالج المشاكل العاطفية لأبناء عشيرتها بالسحر والأحجبة . ومثل الكثيرين فى القرى الريفية فإن أسرة السادات كان لديها فقط القليل من المال الذى يمكن أن تقدمه لأطفالها . وفى الكتّاب حيث حفظ أنور مع غيره من أبناء القرية سور القرآن الكريم عن ظهر قلب ، فإن الوجبة الوحيدة التى كان يتناولها كانت كسرة من الخبز وقطعة من الجبن الفلاحى يضعها فى جيب جلبابه .

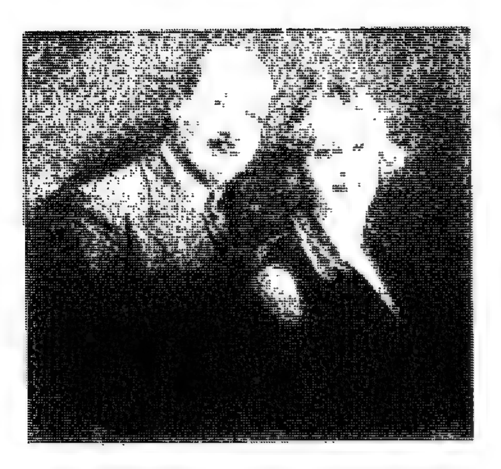
وخلال الفترات التى كان أنور يقضيها بعيدا عن الكتاب فانه كان يقود البقر والجاموس لتشرب من ترعة القرية ، ويقود الثور الذى يجر المحراث فى حقول القمح ، ويساعد فى جمع حصاد البلح والقطن . وخلال حكاياته التى كان مولعا بأن يقصها علىّ فيما بعد ، قال إنه عندما يحل المساء كان يرقد فوق الفرن المصنوع من الطين ، ويأكل البصل المشوى الذى تركه لينضج بداخل الفرن طوال اليوم . وينصت إلى حكايات ما قبل النوم تقصها عليه أمه وجدته حول أبطال

مصر الذين وقفوا فى مواجهة الانجليز . ولقد ارتبط أنور عاطفيا بتلك اللحظات إلى حد أنه عندما شرعنا فى بناء منزلنا فى ميت أبو الكوم أصر على بناء فرن على الطريقة الريفية التقليدية بينما هناك الفرن الحديث الذى يعمل بالغاز .

وعندما أتم أنور السابعة من عمره انتقل من قريته الحبيبة ميت أبو الكوم إلى القاهرة حيث أقام مع جدته وشقيقيه طلعت وعصمت وأخته نفيسة ووالده ووالدته فى شقة تتكون من أربع حجرات . ولقد ضاقت الشقة أكثر فيما بعد بعدد من يقيمون فيها عندما اتخذ والده من إحدى سيدات القرية زوجة أخرى له . وأنجبت أمينة تسعة أطفال آخرين . وعاشوا جميعهم فى نفس الشقة المؤلفة من أربع حجرات .

كان مرتب والد أنور لا يكاد يكفى إطعام الأسرة ، وكان أنور ينفق مصروفه اليومى على كوب واحد من الشاى بالحليب . وفى طريقه اليومى إلى المدرسة ومنها ، كان يمر على أحد قصور الملك فؤاد ـ قصر القبة ، الذى كانت أشجار بساتينه تزخر فى فصل الربيع بثمار المشمش ، والتى لم يكن أنور ليجرؤ أن يقطف واحدة منها ، إذ أن مجرد لمس أى شىء من متعلقات الملك قد تكون عقوبته الموت . وكان من الممكن لأنور أن تكون قد كتبت له حياة الفاقة والظلام ، لولا أن معاهدة سنة ١٩٣٦ بين انجلترا ومصر كانت قد سمحت للجيش المصرى بزيادة أفراده ، والأهم من هذا سمحت أيضا وللمرة الأولى أن يفتح الجيش أبوابه للطبقات الفقيرة بعد أن كان مقصورا على علية القوم فقط . ومنذ ثورة عام ١٨٨٢ ضد الخديو توفيق ، التى اشترك فيها ضباط الكلية الحربية ، لم يكن مصرحا إلا لشباب المصريين الأغنياء من ملاك الأراضى ، الذين كانوا يرعون مصالح الطبقة الحاكمة ، بأن يصبحوا ضباطا فى الجيش كفالة لحماية العرش ، ولكن مثل هذه التفرقة لم تكن لتدوم طويلا .

وفى غمار موجة الوطنية العارمة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى حاول الملك فؤاد أن يهدىء من حالة القلق المتزايد بين أفراد الطبقات الفقيرة ، وذلك بفتح أبواب الجيش لهم ، وتعيينهم ضباطا به . وقد تسبب هذا العمل فيما بعد فى



والدى ـ صفوت رءوف ـ ووالدتى البريطانية جلاديس كوتريـل ـ فى القاهرة .



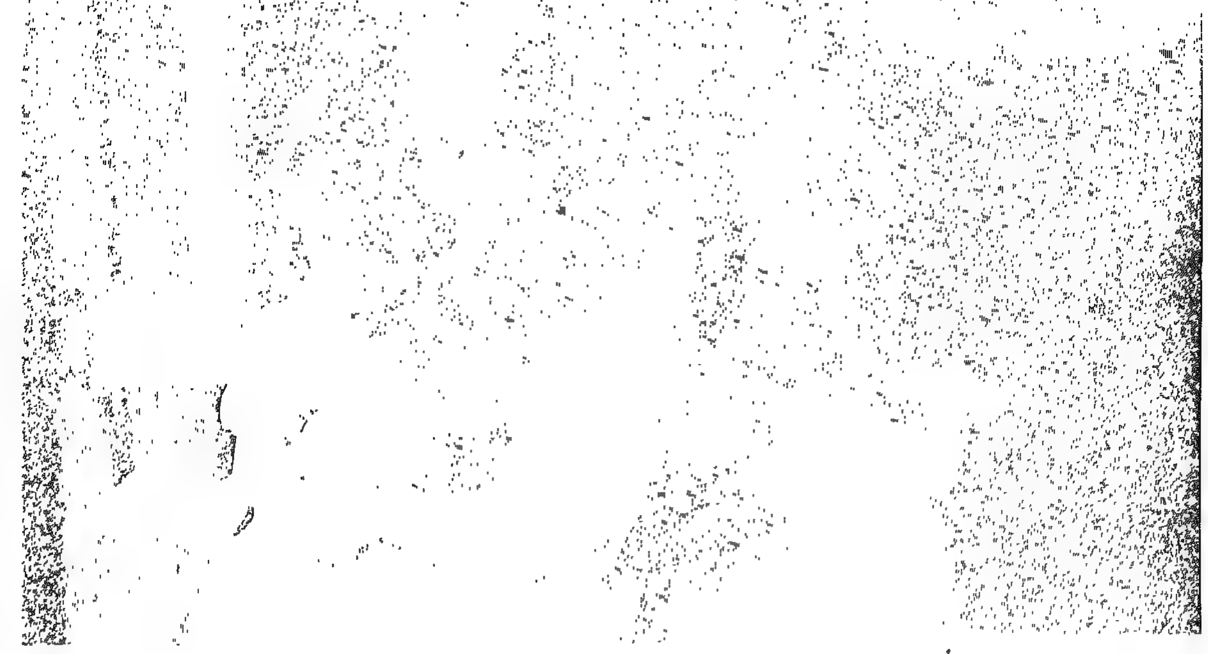
عمتى زوزو التى كنت أعدها لفرط تفاهمنا « أمى المصرية » .



عمتى بطة التى كانت تريدنى زوجة لابنها .



جدى (والد أبى) جراح من جيل الرواد ، إعترض على زواجهما .



وأنا مع الطفلتين اليتيمتين ابنتى «عواطف» ابنة عمتى نعلة، فى بورسعيد

انور الواقف إلى اليمين بين زملائه فى المدرسة

في الخامسة عشره في السويس ،
أول صورة لي أهديها لأنور .



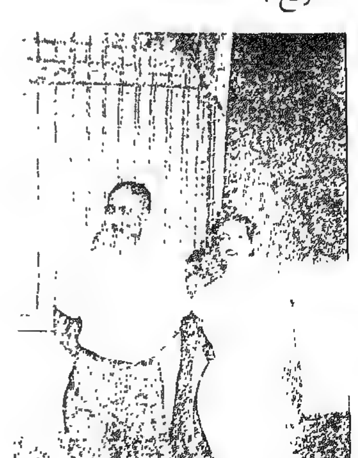


في السويس ، من اليسار شقيقتي داليا ، وسكينة شقيقة أنور ، وأنا ، ثم حسن عزت ، فأنور ثم والدتي ، بعد إعلان خطوبتنا



٢٩ مايو ١٩٤٩ - أسعد أيام حياتي .

أول بيت لنا حيث عين أنور في رفح .



بعد أن ولدت عام ١٩٥٤ ابنتنا الأولى لبنى كنا نأخذها معنا فى كل مكان . وتراها هنا أثناء أجازة لنا فى بورسعيد ، وفى حفل زواج شقيقتى داليا .



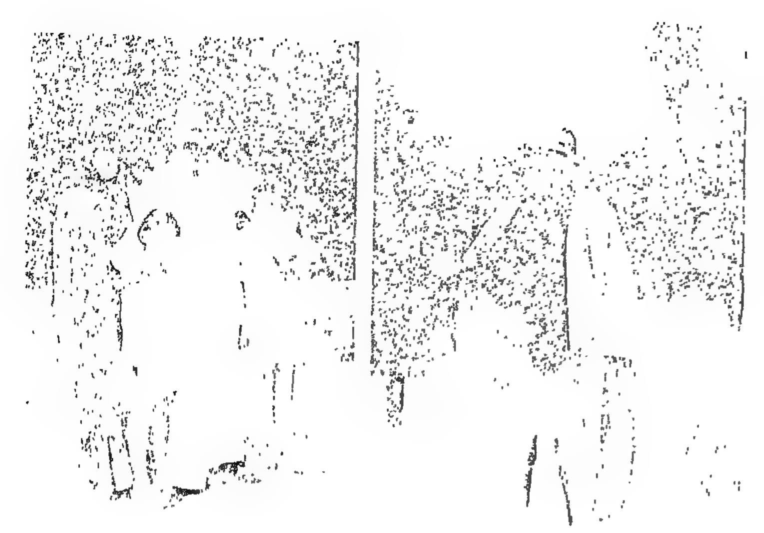








مع أولادي .



أسعد لحظات الراحة والاسترخاء كان يتمتع بها أنور فى مسقط رأسه ومهد صباه ـ قرية ميت أبو الكوم .

وفى تلا القريبة من ميت أبو الكوم بدأت تعاونيات المرأة لأعلم القرويات الحياكة ، وأوفر لهن الضمان المادى .





فى حرب الانتصار عام ١٩٧٣ تجولت فى خط بارليف مع قائد الجيش الثانى اللواء فؤاد عالى .



ثمن الحرب : فى حرب الهزيمة عام ١٩٦٧ بلغت إصابة هذا المحارب درجة منعته عن تناول الطعام .



واستطعت أن أختلس لحظات قليلة مع أنور فى مقر القيادة العامة بقصر الطاهرة .



« . . وأنتم يامن خدمتم مصر ، ووهبتم دماءكم لاستعادة كرامتنا ، أنتم أبطالنا الحقيقيون

سقوط إبنه فاروق . ولقد كان أنور من أوائل أفراد الطبقات الفقيرة ، ممن تخرجوا من الكلية الملكية الحربية وذلك عام ١٩٣٨ برتبة ملازم ثان ، ومن بين الخريجين الآخرين كان جمال عبد الناصر الذى قاد الثورة التى أطاحت بالملك فاروق بعد ذلك بأربعة عشر عاما ، وضباط شبان آخرون هم الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة .

وقد كان ممكنا لأنور أن يؤمن مستقبله فى جيش الملك ، إذ ارتفع مستواه الاجتماعى كثيرا بفضل رتبته العسكرية ، لكنه اختار ـ عوضا عن هذا ـ أن يضحى بكل شىء فى سبيل تحرير مصر . وبعد ما قبض عليه أول مرة طرد من الجيش . ولقد أخبرنى حسن أن فرصة عودته إلى صفوف الجيش مرة أخرى كانت ضئيلة جدا وذلك بسبب سجله الطويل فى أعمال التدمير والتخريب ضد الانجليز . وإذا اختار أن يستمر فى نشاطه السياسى ، فقد كان احتمال اعتقاله مرة أخرى كبيرا .

وقد كان فيما اختاره حسن وأدلى به إلى مؤخرا تفسير لصمت أنور فى السويس . فقد قال حسن إن أنور قد أتى ليمكث معنا بدلا من الرجوع إلى عائلته ، لأنه كان ينوى أن يطلق زوجته ، التى كانت تعيش هى وبناتهما الصغيرات مع والده فى القاهرة . فلم يكن لأنور بيت يذهب إليه ، وبعد ما يقرب من ثلاث سنوات فى السجن لم يكن معه نقود ومعظم ما كان سيحصل عليه فى المستقبل كان يذهب لإعالة أولاده ، ليس فقط بمقتضى القانون ، بل كان هذا واجبا عليه ، فقد حطمته قراراته التى اتخذها للمستقبل . ومن الناحية العملية تسبب ما أخبرنى به حسن عن أنور السادات فى إخماد عاطفتى وشعورى وأحاسيسى المتزايدة . لكن هل من الممكن لبنت الخمسة عشر ربيعا أن تكون عملية ؟ عوضا عن هذا كنت أنظر إلى لون بشرته القاتم ، الذى يعتبر فى رأى كثير من المصريين ليس جذابا ، فأراه رائعا وجذابا . ونظرت إلى سترته البيضاء المجعدة وبنطلونه البسيط فوجدته من وجهة نظرى بلا عيب ، بل أنيقا . وعلى قسمات وجهه رأيت سنه ، فهو يكبرنى بخمسة عشر عاما ، ولكننى أحسست أنه مثل للشباب القوى . وقد كنت أنصت إلى صمته ، فأسمع شخصيته قوية طالما

أعجبت بها . فقد كان الصورة البطولية لأحلامى ، ولكن لم أتمكن من معرفة ما يظنه هو عنى .

« لقد أحضرت لك ثمرة تين » قلت له بعد أن قطفت واحدة من فرع متدل . . وللمرة الأولى نظر إلى مبتسما وسألنى : « هل حقا ستحتفلين بعيد ميلادك قريبا ؟ » فأجبته بالايجاب وأنا أحبس أنفاسى وكلى أمل أن يشترك معنا فى رحلة إلى شاطىء الاسماعيلية فى ذلك اليوم . ثم قال معتذرا : « أنا لا يمكننى أن اشترى لك هدية » ، ولكنى لم أهتم بذلك ، وسألته « هل ستأتى معنا إلى الشاطىء ؟ » فتردد قليلا ، وكم خشيت أن يرفض ويفضل قضاء اليوم صامتا فى حديقتنا لكنه قال « سأذهب معكم » .

ولقد كان ذلك اليوم ساحرا من أوله . فلقد أخذت أغنى فى السيارة طوال الطريق إلى الاسماعيلية ، وهى مسافة طويلة حيث الصحراء من جانب والبحر الأحمر من جانب آخر حتى نهاية قناة السويس . وهناك شىء ما فى قيادة السيارة يجعلنى دائما أميل إلى الغناء ، وهى عادة عرفها عنى فيما بعد من كانوا يقودون سيارتى ، فقد كانوا يبادرون بادارة المذياع بحثا عن أغانى السيدة أم كلثوم ـ مطربتى المفضلة ـ حيث كنت اشترك معها فى الغناء . ولكن فى ذلك اليوم لم يكن غنائى هو الشىء المتميز ، ولكنه كان صوت أنور . وفجأة فى السيارة قال لى « لا يمكننى أن أبتاع لك هدية عيد ميلادك ، ولكنى سأغنى لك أغنية » ولم أصدق التغيير الذى حدث له حينما أخذ يغنى بصوت جميل إحدى أغنيات فريد الأطرش الغرامية ، وعوضا عن التفكير والتأمل تهلل وجهه ممتلئا بالحيوية ، وبدلا عن عادته فى التطلع بعيدا دون أن يرى شيئا توجه إلى المقعد الأمامى وأخذ ينظر إلى مباشرة وهنا أخذت سعادتى فى الازدياد طوال الطريق وحتى أثناء طعام الغداء على شاطىء البحر الأحمر .

وكل الأسئلة التى احتجزتها بدافع من احترامى لوحدته أخذت تنهمر فى اندفاع ، وهو يجيب عنها بحيوية متزايدة . ولقد سألته كيف قضيت وقتك فى السجن ؟ فأخبرنى عن محنته التى بدأت أولا فى سجن الأجانب عام ١٩٤٢ ، والتى لم تكن سيئة ، حيث كان لديه سرير وبطاطين وكرسى ومنضدة صغيرة

وسجائر أيضا ، وكان عليه أن يستعين بحارس السجن فى إشعالها له ، حيث أن الثقاب كان ممنوعا داخل الزنزانات . وحتى قراءة الجرائد والكتب كان مسموحا له بها ، مستخدما معظم وقته فى تحسين معرفته بالانجليزية عن طريق كتب بهذه اللغة . وخلال فترتى استراحة مدة كل منهما خمس عشرة دقيقة كان يسمح له بالمشى داخل جدران السجن .

ولقد تم نقله مرتين إلى سجون أخرى : فقد نقل أولا إلى حجز سياسى بداخل أحد القصور المنيفة بالصعيد ، حيث أمضى ما يقرب من السنة . وهناك تعلم الألمانية عن طريق طبعة ألمانية لقصة للكاتب إدجار والاس . والسنة التالية قضاها فى مركز الحجز بالزيتون بالقرب من القاهرة ، حيث أخذ هو وزملاؤه السجناء فى تربية الأرانب لقضاء الوقت . وكان بين السجناء « كونت » من البلقان ، الذى اتضح انه ماهر فى طهو الأرانب ، وقد أكلوا منها كثيرا إلى أن أصاب هذه الأرانب مرض وبائى ونفقت جميعها ، لكن أنور لم يطق صبرا على البقاء عاطلا داخل السجن . وكانت ألمانيا تسير نحو الهزيمة فى الحرب ، وبقى الانجليز فى خنادقهم فى مصر ، لذلك كان على أنور أن يخرج من السجن ، وقد حدث هذا . . لا مرة واحدة بل مرتين .

وبينما كنا نسير معا على شاطىء الاسماعيلية بعد الغداء سألته كيف تمكنت من الهرب ؟ ولقد أضحكته الذكرى وقال « فى المرة الأولى قمنا ـ ستة منا ، من بينهم حسن عزت ـ بعمل ثقب فى السقف واستخدمنا سلما فى الصعود إلى الثقب ومنه إلى الشارع . ولم يعلم أحد بهروبنا حتى صباح اليوم التالى . . وبينما كنت أخلع حذائى لأعبث بقدمى فى مياه الشاطىء سألته : « ولماذا عدت ؟ » فضحك قائلا : « أنا أردت فقط تحذير الحكومة ! وقد فعلت هذا . وتوجهنا رأسا إلى قصر عابدين ووقعنا فى سجل التشريفات الملكى ، الأمر الذى يفعله الآخرون ليشكروا الملك على عطفه السامى ، أو حينما كانوا يقومون باجازاتهم . ثم أخبرنا السكرتير بأننا هربنا لتونا من سجن الزيتون مؤقتا لنسلم الملك رسالة بألا يستسلم للانجليز » ولربما اتسعت حدقتا عينى من فرط الدهشة تماما كما اتسعت حدقتا عينى السكرتير بقصر عابدين . فسألته « ماذا فعلتم بعد ذلك ؟ » قال : « لقد أخذنا

سيارة أجرة إلى الزيتون وسلمنا أنفسنا للسجن . . » .

وبعد هذا بتسعة أشهر كان ما يزال بالزيتون ولو أن الحلفاء فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ كانوا واثقين من النصر ، وتم الإفراج عن كثير من المسجونين السياسيين . ولكن أنور ورفاقه بقوا فى السجن بأمر الإنجليز . وهنا أخبرنى أنور أنه كان « قد ضاق ذرعا وصمم على الهرب إلى غير رجعة » ، ثم قال : « لقد أضربت عن الطعام الأمر الذى اضطرهم ـ حسب التعليمات ـ إلى إيداعى أحد المستشفيات » ، ثم خلع حذاءه ورفع بنطلونه إلى أعلى أثناء سيرنا على الشاطىء . ثم قال : « وبينما كان المستشفى يغص بالناس أثناء طعام الغداء ، تسللت من حارسى ووجدت حسن ينتظرنى أمام المستشفى فى سيارة محركها يعمل فى استعداد . وقد قضيت السنة التالية هاربا » . أمضينا حوالى الساعة نمشى ونتحدث والدقائق تمر تباعا وكنت أعلم تماما أن علينا أن نعود إلى حيث ابنة عمتى وحسن عزت ، لكن قصص أنور سحرتنى ، وتركت نفسى لهذا التصرف الطائش ، ولم أشعر حتى بالخجل . فقد كان التعاطف بيننا ينمو ، والتفاهم الذى عرفته معه لم أعهده فى أى شخص آخر من قبل ، وحينما عدنا أخيرا بعد ساعة أخرى إلى ابنة عمتى سألها أنور مرارا وتكرارا عن سنى ، غير مصدق أننى فى الخامسة عشرة من عمرى ، ولقد كان هذا اليوم فريدا فى حياتنا حتى أنه أمكننا أن نتحدث عنه خلال السنوات الطويلة التالية ، حتى اليوم السابق على اغتياله .

واحتفظ أنور بمشاعره لنفسه . وكان ارتياحه فى التحدث مساويا لاشتياقى إلى الاستماع ، بالرغم من أنه أدام النظر إلى فى شىء من الحيرة ، وهو يرى أن المستمعة لأفكاره تلميذة صغيرة . ولكن بقى القليل الذى لم نتكلم عنه خلال أول لقاء بيننا على شاطىء الاسماعيلية ، وخلال باقى اللقاءات فى ذلك الصيف حيث كنا نسير ونتحدث فى حقول السويس . وزاد احترامى له وإعجابى وتعلقى به وأنا مراهقة ، ثم سرعان ما تحول إلى حب .

ومن الناحية الأخرى كان اضطراب أنور فى ازدياد ، ليس فقط من فارق

السن بيننا ، ولكن أيضا لإنغماسه وتكريسه نفسه للسياسة ، ولإلتزاماته لأسرته الأولى . وكان الزواج الثانى فى ذلك الوقت ـ حسب رأيه ـ ضربا من المستحيل . وخلال سنتى السجن لم يكن فى مقدوره إعالة أسرته ، ولقد قام والده بهذه المهمة فى حدود طاقته ، ولكن لم يكن هذا كافيا . فسألته : « كيف استطاعت أسرتك أن تعيش ؟ » فأجاب : « عن طريق الأصدقاء المقربين » . فابتسمت وقلت « ربما كان لى أنا أيضا دور فى هذا » وفكرت أن أخبره كيف أنى كنت أجمع الأموال للإخوان عندما كنت صغيرة .

وكان أنور قلقا على زوجته الأولى وبناته منها . وكما هى العادة فى الريف كان أنور صغيرا عندما تزوج : كان ملازما ثانيا فى الثانية والعشرين من عمره . وكانت زوجته تمت له بصلة بعيدة من القرابة وكانت من نفس قريته . وكانت هذه الزيجات بين أفراد العائلة شائعة ، وما تزال فى القرى الريفية حيث تعمل على تقوية أوضاع العائلة كما تعمل على تجميع الأرض . ولذلك كان هذا الزواج مناسبا للفتى القروى أنور ، وتم فى ميت أبو الكوم ، وكان والد زوجته هو عمدة القرية وكبيرها . وكانت زوجته تكبره بسبع سنوات ، وكانت سيدة فاضلة مهذبة ، ولكنها أيضا كانت قروية لم تحظ بقسط من التعليم المنظم . ولم تذهب قط إلى القاهرة ، وقال أنور فى أثناء مشينا على شاطىء الاسماعيلية : « لقد وددت كثيرا أن تشاركنى زوجتى حياتى وأحلامى ، لكنها لم تقدر أن تفهم ، ولم تكن هذه غلطتها بالتأكيد » .

وفى أثناء وجود أنور فى السجن للمرة الثانية عام ١٩٤٦ بتهمة اغتيال أمين عثمان ، تمكن من استيعاب معنى الحب ـ أو الحاجة إلى الحب ـ فى حياته ، على عكس المرة الأولى التى دخل فيها السجن حيث كانت الظروف على الأقل محتملة ، كان الحكم هذه المرة فى سجن القاهرة المركزى غير محتمل ، فقد عاش لمدة ثلاثين شهرا فى حبس انفرادى داخل زنزانة صغيرة ، لم يكن لديه سرير أو منضدة أو كرسى ولا حتى مصباح ، ولو أن هذا لم يكن ذا أهمية له ولكن الأمر أنه حرم من القراءة والكتابة وسماع الراديو ، ولقد أخبرنى أن المياه الباردة فى فصل الشتاء كانت ترشح من جدران الزنزانة ، أما فى الصيف فكانت جحافل

الصراصير تغطى كل مساحة بما فيها برش النوم ، وهو عبارة عن حصيرة مصنوعة من سعف النخيل ، مغطاة ببطانية قذرة .

وخلال إحدى المرات التى كنا نتمشى فيها معا قال لى أنور : « أنا أشكر تقشفى فى القرية أثناء صباى ، فقد ساعدنى ذلك على احتمال المشقة » . ولقد كانت هذه المشقة عارمة خصوصا للمسلمين عند وضوئهم للصلاة ، وكان فى كل زنزانة جردلان يستعمل أحدهما لقضاء الحاجة . وبالطبع كان هناك وباء الجرب بين الثلاثة آلاف سجين ، نتيجة للظروف غير الصحية ، وكان ساندوتش الفول يقذف من خلال طاقة مربعة فى باب كل زنزانة ، وكان من النادر أن يأكل أنور هذا الساندوتش ، وكان الضغط والحرمان سببا فى اختلال عملية الهضم الذى لازمه بعد ذلك طوال حياته . فقد كان أنور يبدأ يومه بكوب من أملاح إينو الفوارة ، وحتى بعد ذلك كان يأكل بكل حرص ، وأقل القليل . وقرب النهاية كان كل ما يتناوله قليلا من الحساء .

ولقد أصبحت الزنزانة رقم ٥٤ كل عالمه ، ولم يكن له من مؤنس سوى شخصه ، وبقى فى صراع مع أفكاره وكان دائم التساؤل مع نفسه : « كيف يمكننى أن أعاقب زوجتى بالطلاق وهى لم تقترف شيئا سوى انتظارى طوال هذه السنين ؟ » ولكم أعجبت به حين كان يصف آلامه فيما يختص بواجبه نحو زوجته . ولقد كانت هناك فرصة طبعا لزوجته أن تتزوج ثانية ، لكن هذه الفرصة كانت ضعيفة وهى أم لثلاثة أطفال .

وظل يعانى لمدة عام ونصف العام من مأزق زواجه ، فكان يأرق فى زنزانته أغلب الليل ، فاذا واتاه النوم صحا على مشكلته قائمة شائكة بلا حل . والاسلام يكره الطلاق ، والنبى عليه السلام يقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق » . لكن أنور لم يستطع أن يرى سوى مخرج واحد . . ومن الزنزانة بعث برسالة إلى زوجته يطلب منها أن تتوقف عن التردد على السجن لرؤيته . .

وعند اطلاق سراحه ، أبلغها بنفسه أنهما لا يستطيعان الاستمرار فى الحياة معا ، فإن طاقات الحب التى تكشفت له فى الزنزانة رقم (٥٤) من الأفضل أن يوجهها إلى مصر ، وإلى كل الكائنات الحية ، وإلى الله .

وفى سن الخامسة عشرة ، لم أكن بحاجة إلى أن يحدثنى أحد عن قوة الحب . إنها عاطفة تشعر بها المرأة شعورا طبيعيا ، وتسيطر عليها فى بعض الأحيان بكل بهجتها وآلامها ، وطوال حياتى ـ بعد ذلك ـ كان يحكمنى ، وبلا تحفظ ، حبى لزوجى ولأطفالى ولبلدى .

وبالرغم من أن مشاعر الحب لم تكن بعيدة عن أنور ، منذ أن أحس بها فى العزلة التى عاشها فى الزنزانة رقم (٥٤) إلا أن كلمة الحب لم ترد على لسانه أبدا فى كلامه معى طوال فترة زواجنا ، فكثيرا ما كنت أداعبه محاولة أن أدفعه لكى يقول لى أنه يحبنى . ولم أكن أريد الا اعادة تأكيد حبه لى مثلى فى ذلك مثل كل النساء .

ومع أننى كنت أعرف أنه يحبنى ، إلا أنه لم ينطق بهذه الكلمة أبدا . وكان يحتفنى برقة قائلا : « دعى عنك هذا ، إنك تعرفين كيف أشعر فى تصرفاتى معك وفى احترامى لك وكل ما لدى فهو لك » .

إلا أننى كنت أصر فى عناد : « حسنا أريد أن أسمعها منك » ، ثم أداعبه قائله : « أريد أن أتأكد من حبك لى » ، إلا أنه لم يرضخ أبدا ، ربما كان شديد الخجل ليفصح .

فى السويس لم نكن نتبادل الكثير من الحديث ، وفى الواقع فان عمتى وابن عمتى أدركا ما كان يحدث بيننا قبل أن أدركه أنا نفسى ، مما كان يضعهما فى موقف حرج ، لقد كان أمرا غير مألوف لفتاة صغيرة أن تقضى مثل هذا الوقت الطويل وحدها ، وهى برفقة رجل ، وبوصفه أكبر رجال الأسرة الموجودين معنا ، فان حسن لم يكن ليسمح لى اطلاقا بالسير بمفردى مع أنور ، مما جعله أكثر تشددا فى موقفه ، هذا بالاضافة إلى أنه كان يعلم أن أخاه كان يريد الزواج بى ، فأى جانب يأخذ ؟ بالطبع كان سيأخذ صف أخيه لا صف هذا الرجل الغريب ، لكن أنور لم يكن مجرد شخص غريب ، فانه كان بطلا قوميا .

أننى لم أفكر فى المخاطر ، فكل ما كنت أريده ، هو أن أكون مع أنور وأنصت إلى حديثه عن ماضيه ونضاله ، وحتى عن الكتب التى قرأها فى السجن ، ولما كانت حياتى مغلقة وتكاد تخلو من أية أحداث ، فلم يكن لدى الكثير لأسهم به فى الحديث ، ومع ذلك فاننى لم أمل أبدا من الاصغاء إلى صوته العالى العميق بنبراته القوية التى كنت قد أعتدت سماعها بالفعل ، وكان لأنور صوتان أحدهما منخفض والآخر عال ، وفيما بعد كان الناس يسألوننى بعد الاستماع إلى بعض خطبه لماذا يبدو أنور غاضبا هكذا ؟ فكنت أضحك وأشرح لهم أنه ليس غاضبا وأنها فقط نبرة صوته !

ولم أكن أشارك فى الحديث الا بقدر ضئيل عندما كان يتحدث فى السويس عن الكتب التى قرأها فى الشهور الستة الأخيرة التى قضاها فى الزنزانة رقم (٥٤) فقد كان يسمح له ولزملائه المسجونين أن يستأجروا قطع الأثاث . . مرتبة محشوة بقش الأرز ومنضدة ومقعدا ، والأهم من ذلك أنه كان يسمح لهم بالقراءة . لقد قرأ جميع أعمال جاك لندن ، واستمتع بوجه خاص بكتاب ضحية فى البرية حيث كان يجد وجه تشابه بينه وبين الذئب الذى استعصى على الترويض ، وقد تأثر بالكتب الدينية للويد دوجلاس ، واستمتع بكتاب اسمه « الرداء » غير أن العمل الذى ربما غير مجرى حياته كان مقالا لعالم نفسى أمريكى قرأه فى مجلة ريدرز دايجست . .

قال لى : لقد تولدت لدى عقد كثيرة نتيجة القاء القبض على دائما فى الساعات الأولى من الصباح ووسط البرد القارس ، لقد أصبحت أخاف أن أتوجه إلى الفراش وأصحو من نومى فى الثالثة أو الرابعة صباحا وأنا أرتعش ، موقنا من أنهم سيعتقلوننى مرة أخرى . . إننى لم أعرف الخوف أبدا من قبل ، وفى داخل الزنزانة (٥٤) بدأت اتساءل ما إذا كان الأمر يستحق هذا العناء الذى أتكبده من أجل مصر ؟ وهل يختلف الأمر لو كان غير ذلك ؟ وهل دمرت كرجل ؟

وجاءته الاجابة على هذه التساؤلات التى جعلته يتشكك فى نفسه فى مجلة « ريدرز دايجست » فقد جاء فى مقال العالم النفسانى أن الله هو الذى يعرض بنى البشر للمحن بشتى أنواعها ، وليس فقط ليعلمهم القدرة على التحمل ولكن أيضا ليعلمهم القدرة على التصدى للعواقب ، وليس هذا بأى حال من قبيل الشر من جانب الله ، ولكنه من قبيل المودة ليعلم خلقه كيف يقومون بالأدوار التى تسند اليهم ، وبالايمان والحب لله الرحيم العادل فان جميع الأبواب تفتح ، ويمكن التغلب على جميع الشرور . وقال لى أنور إنه منذ تلك اللحظة تحقق له سلام النفس واحساس واضح بهويته ، ولم تعد الأحداث العاصفة تهزه .

كنا قد حضرنا إلى الاسكندرية ـ ابنة عمتى وحسن وأنور وأنا ـ لقضاء أجازة عيد « الفطر » ، بينما كنا جالسين فى شرفة فندق البوريفاج سألت ابنة عمتى : « ماذا أفعل ؟ إنى أحب هذا الرجل » .

فنصحتنى قائلة : « كونى حذرة . . لا تمشى بمفردك معه فى الصباح » لكننى لم أكن بقادرة على أن أتخلى عن السير معه على شاطىء البحر فى الصباح على الرغم من أننى فى أحد الأيام أصبت برعب عندما قابلنا أصدقاء لوالدى من القاهرة .

ولقد أومأت بالتحية لهم وأنا لا أريد أن أبدو كأننى أحاول الاختفاء منهم ، ولا أريد أيضا أن أشد الانتباه إلى نفسى .

لقد شعرت فى داخلى بخوف شديد من أن يبلغوا والدى بالقاهرة ، لكنهم لم يفعلوا .

وعلى أى حال ، قد بدأت المجازفة تتعاظم ، وقالت لى ابنة عمتى بعد أن سمح لها زوجها حسن : « إننى سأجلس معكما وبالتالى يمكن لكما أن تكونا معا » ، وقد فعلت على الغداء فى « البوريفاج » وعلى العشاء فى سان استيفانو ، وعلى طول الكورنيش حيث زادت الشمس من سمرة أنور وأكسبتنى أنا أيضا احمرارا شبهه أنور بلون « الجمبرى » .

لقد كنا نفعل ما كان يعد أمرا غير مألوف فى مصر فى ذلك الوقت ، فقد كنا على علاقة حب ونخرج معا بدون أى ارتباط رسمى . ولكننا لم نستطع أن نسيطر على أنفسنا ، لقد فقدنا السيطرة على عواطفنا وملأ الحب قلبينا .

كان يجب أن نكون معا ونبقى معا مهما كان الثمن ، فقد قال لى : « أنت لازلت صغيرة ، وحين أصبح كبيرا ستكونين فى بداية سنى عمرك » فقلت له : « فكر فى السنوات التى أمامنا ، إنى أحبك بغض النظر عن الفارق بين عمرينا » قال لى : « ولكنى تزوجت من قبل ولى أطفال لابد أن أرعاهم وليس هذا بشىء عادل لك » فهززت رأسى وقلت له : « قبول هذا أو رفضه أمر متروك لى » .

هل كان يختبرنى بعرض المعوقات لرفضه ؟ لم أعرف ، وبدلا من ذلك اعتقدت أنه كان أكثر واقعية منى . فقال لى : « ليست لدى أية خطط للمستقبل . . أنا خارج من السجن ولا عمل لى ، وأنت لم تتعودى على الحياة فى هذا المستوى المنخفض » ولكنى كنت فى الخامسة عشرة من عمرى وكنت متأكدة أنى أستطيع أن أحيا بالحب وحده ، فقلت له : « سنكون شخصا واحدا ، هذا كل ما يهم . . وكان علينا أن نخبر والدى وأن نحصل على موافقتهما على الزواج ، ولكن كيف ؟ .

إن هذه المهمة ستقع على عاتق حسن عزت قريبى وممثل أنور ، مهمة التقدم بطلب أنور للزواج منى ولم تكن الاحتمالات مضمونة أو مؤكدة .

واقترح حسن عزت علينا ، ونحن نخطط الاستراتيجية المطلوبة : « لنكذب على والدك ، سأخبره أن أنور رجل غنى يملك المزارع وحدائق البرتقال التى يحصل منها على دخل كبير . إنهم سيصدقوننى ، فعلى الرغم من أن هناك الكثير الذى نشر عن أنور فى الصحف ، إلا أنها كانت جميعا أمورا سياسية وليست شخصية » . ولكن أنور رفض ذلك وقال : « هذا أمر لا يمكن حتى التفكير فيه ولن أقبل الخديعة » .

ولأول مرة وجدت نفسى أكثر واقعية ، فقد كنت أعرف أن أبى لن يقبل رجلا مفلسا ليكون زوجا لابنته ، وإذا آلفنا كذبة صغيرة الآن نستطيع عن طريقها أن نكسب وقتا ، فمن الممكن أن يعرف والدى أنور وأن يحترمه ويحبه كما أفعل وأن يقبل الشروط الصعبة لخطبتنا .

ولكن كان على أولا أن أقنع أنور وليس والدى ، فقلت له بلطف : « إنك لا تخدعنى وأنا على أى حال التى ستصبح زوجتك . سأخبر والدى بالحقيقة كاملة قبل أن نتزوج لأنى لم أتعود أن أكذب عليه ولكن إذا تركنا الأمر كما هو ، فإنه لن يوافق حتى على مبدأ رغبتنا فى الزواج » .

وبقى أنور صامتا وأخذنا هذا الصمت على أنه موافقة المتألم غير السعيد . كان اجتماع حسن الأول مع والدى بمجرد عودتنا إلى القاهرة عاصفا كما توقعنا بالرغم مما اخترعه عن دخل أنور المستقل .

ولكن أمى قالت بعزم وتصميم « إنى لازلت صغيرة على الزواج » ، وكان أنور ينتمى إلى أسرة أقل مستوى من أسرتى ، ولم يتزوج أحد من أسرتى من شخص مطلق ، وبالإضافة إلى ذلك فإن لون أنور كان داكنا وهذه حقيقة لا يمكن انكارها ، إذ كانت تعرفها من الصور التى نشرت له كثيرا فى الصحف .

لقد فشل حسن وكان على الآن أن أتوسل من أجل سعادتى إذ أنى لم أكن لأتزوج أنور أو أى شخص آخر دون موافقة والدى . وكغيرى من الشباب المصريين كان على بسبب احترامى لهما ، ومن أجل تعاليمى الدينية ، أن أطيعهما ، فالطاعة للوالدين مذكورة فى القرآن بعد طاعة الله .

ولم يكن ليخطر ببالى أن أتحدى رغبات والدى فى أى شىء من الأشياء وخاصة فى موضوع مهم كالزواج ، فقد كانت موافقتهما أمرا أساسيا .

ولكن أمى ظلت متشبثة برأيها ، وقالت وهى تبدو مثل أنور تكرر قوله تقريبا : « هناك خمسة عشر عاما فارق السن بينكما وهذا فرق كبير وستأسفين على ذلك فيما بعد » . واستمرت قائلة : « لقد كان متزوجا ولديه أطفال . . إن هذا أمر

سينغص عليك حياتك » فسألتها : « لماذا يا أمي ؟ » فقالت : « لأنك ستضطرين إلى رعايتهم وستشعرين بالغيرة وهو سيصرف كل نقوده عليهم ، وهذا من شأنه أن يفسد حياتك » . فقلت لها : « إنى أحبه » ، ولكن هذا كان دون جدوى ثم قالت وقد ارتفع صوتها « ألا تفكرين الا في الحب فقط ؟ إن حبك سيختفى بسرعة مادامت هناك أشياء أخرى عديدة لابد من مراعاتها » ، فقلت بتصميم : « إن حبى يغطى كل شىء » . ولكنها كانت تتميز بعناد ونستون تشرشل ، فقلت لها راجية : « هل ستتركينى أقابله على الأقل ؟ » فقالت : « لا » .

أما والدى فقد كان أكثر تعاطفا معى ، ولكن دون أن يكون أقل صلابة منها ، فحين كان طالبا فى أسيوط ، اعتقل هو أيضا بسبب مظاهراته ضد البريطانيين ، ولم يعرف والداه مكانه لمدة ثلاثة أيام ، وحين وجداه كانت مدة الحبس القصيرة قد تركت فى نفسه آثارا مدمرة ، وأخذ على نفسه عهدا الا يتدخل فى السياسة بعد ذلك ، ولم يكن يريدنى أن أفعل ذلك ، وقال لى وكنت واقفة أمامه شاخصة إلى الأرض : « أنور السادات دخل السجن ومعسكرات الاعتقال ، فكيف أضمن أنه لن يعود اليه فى المستقبل ما دام سيظل مستمرا فى السياسة ؟ » ولم أستطع انكار هذا الاحتمال ، وان كان بالنسبة لى شيئا له وليس عليه ، فان وطنية أنور هى التى جذبتنى اليه من أول لحظة ، فقد كنت أريد أن أكون زوجة رجل وطنى ، وأن أقف بجانبه للدفاع عن المثل العليا التى نتشارك فيها ، ولكن هذا بالضبط ما كان يخشاه والدى .

لم أستطع الأكل والنوم ، والآن ، وقد عدنا إلى منزلى لم يكن فى استطاعتى حتى رؤية أنور الذى كان قد استأجر حجرة فى بنسيون فى وسط المدينة ، وكنت أحادثه تليفونيا فقط ، وبدأ أبى يقلق على فقد كنت دائما أول من يلقى النكات ويغنى مرحا ولكنى الآن أصبحت شاحبة وصامتة .

وجاء حسن مرة أخرى إلى المنزل إلى أبى ليدافع عن قضية أنور ، ولاحظت أن أبى قد بدأ يلين بعد أن أقتنع بصدق أحاسيسى ، وفهم الصعوبات التى أواجهها ، فقد عرفت إذ ذاك أنه أيضا تزوج عن حب وتحدى والديه ، وقال

أبى بحذر : « أوافق إذا استطاع أن يوفر لابنتى مستوى كريما للمعيشة ، إنى لا أريدها أن تقاسى بسبب الزواج من شخص ليس لديه سوى مرتب صغير ولا يملك أى مصدر آخر للدخل . . أنها لم تتعود على ذلك » .

فقال حسن بتصميم : « بل على العكس انه رجل غنى » . واستمر مرة أخرى فى وصف الفدادين والحدائق التى كان من المفروض أن يمتلكها أنور ، وأحسست وأنا أنصت اليه أنى ممزقة بين أمرين : لماذا أحاول أن أغش والدى الذى كان أقرب الناس إلى قلبى . ألا يحسن أن أخبره بالحقيقة الآن ؟ أما الصوت الآخر فكان يقول لى : « لتنظرى إلى الواقع يا جيهان . . ان هذا هو السبيل الوحيد الذى يحقق لك الزواج من أنور » وقد استمر هذا الصراع فى داخلى حتى خرج « أبيه » حسن ، وحينئذ انفجرت باكية واعترفت لأبى ودموعى تجرى على خدى : « أبى ليست هناك كلمة صدق فى كل ما قاله حسن . إن أنور لا يملك شيئا ، وكما نعرف أنك لن تعطى موافقتك الا إذا ادعينا لك أنه كذلك » ، ولم تبد الدهشة على والدى ، فقد كان يعرف أن حسن من الرجال الذين يكذبون فى بعض الأحيان ، ولكن هذا جعلنى أشعر شعورا أسوأ من ذى قبل ، وقلت له : « أنى أحبه يا أبى ، أحبه والمال لا يعنى شيئا بالنسبة لى . إنى لا أريد خدمات وسأطهو بنفسى ، وسأنظف بنفسى ، وسأفعل كل شىء . وحتى المرتب الذى سيحصل عليه سيكون أكثر مما أحتاج . انى أتوسل اليك أن توافق » وأخيرا قال : « إذا كانت هذه رغبتك الحقيقية يا جين فأنى أوافق » . فجثوت على ركبتى وقبلت يده عرفانا بالجميل . لم أكن لأصدق أنه قد أعطى موافقته . ولكن لا تزال هناك أمى لنكسبها إلى جانبنا . فرجوت أبى قائلة : « لا تخبر أمى أن أنور لا يملك مالا ، فإن هذا بالاضافة إلى كل الأشياء الأخرى سيحرمنى أكثر من موافقتها » . فوافقنى على ما أقول وأضاف وهو يربت على رأسى : « أنت محقة يا جيهان . يجب أن يصبح هذا سرا والا ستقول لى لماذا توافق على هذا الرجل ؟ » فسألته : « هل ستساعدنى على اقناعها ؟ » فابتسم وقال : « سأحاول يا جيهان . ولكنها بريطانية عنيدة » .

وحاولت خلال الأسابيع التالية أن أجعلها تغير رأيها فلم يكن لتغير أبى أى تأثير عليها . فقلت لها : « فلتتم الخطبة يا أمى وإذا وجدت بعد بضعة شهور أنى لازلت أحبه كما أحبه الآن فإن كل شىء سيكون على خير ما يرام . وإذا لم يكن فستكونين على حق ، وعندئذ يمكننا فسخ الخطبة » ، ولكنها رفضت . وظللت أطاردها ليلا ونهارا ، وأخيرا جثوت أمامها فى يوم من الأيام وقبلت يديها وقدميها : « أرجوك . . أتوسل أليك . . على الأقل قابليه ، وإذا لم يعجبك ، افعلى ما تريدين » . وبدأت أشعر أنها لانت قليلا ، فاندفعت مرة أخرى أقول : « أنت تعرفين أنى لست فتاة صغيرة غبية تعيش بآراء رومانسية فى رأسها (وان كنت فى الواقع كذلك) إنى حقا أحب هذا الرجل ولا أستطيع العيش بدونه » . فقالت أمى على مضض : « حسنا . . حسنا . . سأقابله » وحاولت التملص من ذراعى اللتين أحطت ساقيها بهما ، وحددنا مقابلة فى الأسبوع التالى . وهنا أحسست فعلا بالخوف ، فها هى أمى ، امرأة انجليزية ، لا تعرف حدودا لحبها لوطنها . وفى الجانب الآخر هناك أنور ، واحد من أكثر المصريين الوطنيين مجاهرة بمواقفه ضد بريطانيا . هنا تقف أمى التى تحترم بطولة الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية ، والتى تعتقد أن ونستون تشرشل واحد من أعظم الرجال فى كل العصور ، وفى الجانب الآخر يوجد أنور الذى ناضل ضد البريطانيين ، فى نفس الحرب ، والذى كان يبغض ونستون تشرشل أكثر من أى شخص آخر فى العالم !

فقد كان تشرشل بناء على طلب برلماننا فى عام ١٩٤١ هو الذى أصدر أوامر إلى الجيش المصرى ليتقهقر من مرسى مطروح إلى الصحراء الغربية ثم عاقبهم باعطاء الأوامر المهينة ، بتجريدهم من سلاحهم ، وكان أنور فى ذلك الوقت ضابط اشارة فى المدفعية بمرسى مطروح ، فثار ضد ما حدث ورفض أن يسلم سلاحه ودخل تشرشل فى حياة أنور مرة أخرى بطريقة مباشرة عام ١٩٤٢ حينما قام رئيس الوزراء البريطانى بزيارة سرية إلى العلمين ، ليرفع من الروح المعنوية للجيش الثامن الذى كان قد هزم لتوه على يد روميل ، ولقد كان قرار تشرشل فى ذلك الوقت الخاص بتعيين مونتجومرى قائدا عاما هو الذى غير مسار الحرب ،

ولكن فى أثناء نفس الرحلة غير تشرشل من حياة أنور أيضا . . فحينما تقابل تشرشل مع الجواسيس الألمان الذين اتهم أنور بمعاونتهم ، وعدهم تشرشل حينذاك بالعفو عنهم لو أقروا باعترافاتهم كاملة ، هذه الاعترافات هى التى أدت بأنور إلى السجن لمدة السنتين التاليتين .

ماذا يمكن أن يحدث فى اللقاء بين أنور ووالدتى ؟ لقد كنت أرتعد خوفاً فى اليوم الذى تحدد لنجتمع والدى ووالدتى وأنور وأنا على الشاى ، صليت أكثر من المعتاد ودعوت الله ألا تكون هذه المرة هى الأخيرة ، كنت أصلى طوال اليوم وصليت أكثر حينما أقترب موعد وصول أنور ، ولقد كنت واثقة من أن والدى سوف يحبه كلما كثر وجودهما معا ، ولكن أمى ؟ كان عندى نفس القدر من الثقة فى أنها سوف تتشاحن مع أنور ، وأنها لابد أن ترفضه ، وكنت أكاد أسمع صوتها قائلة لى : « لا ياجيهان هذا الزواج لن يتم أبدا » .

ألن يتنازل أنور ولو مرة واحدة عن مبادئه ويقول لأمى ما تريد هى أن تسمعه بدلا مما يعتقد هو فيه ؟ حقا لقد كان نبلا منه أن يقف فى مواجهة السيطرة البريطانية وأن يشجب الانجليز علنا فى المحكمة ، ولكن هذه هى أمى ولآخر العمر ، ماذا هو فاعل ، وماذا هى فاعلة ؟

كانت جلستى على الشاى بين أمى وأنور ، لم أجرؤ على النظر إلى أى منهما مركزة نظرى على رسم السجادة الذى لازلت أذكره منذ ذلك اليوم ، هذه المقابلة ، ومنذ بدايتها ، بدت كأنها امتحان بدلا من مجرد محادثة مهذبة . . لم أنبس بحرف ، وكنت فقط منصتة لوابل الأسئلة التى توجهها اليه :

ـ « نقرأ عنك كثيرا فى الصحف يا سيد سادات ، هل مازلت ضد العمل البريطانى ؟ » وتوقف قلبى ورد قائلا : « نعم أنا ضد العمل البريطانى ، فأنا كمصرى لا أريد دولة أخرى أن تفرض علينا تماما كما أنك لن تريدى مثل ذلك لبريطانيا » . قلت لنفسى : « حسنا . فلسوف تتفهم هذا » .

قالت أمى ضاغطة : « هل تريد أن ترى كل أفراد الشعب البريطانى قد غادروا مصر ؟ » وتوقف قلبى مرة أخرى .

ولكن أنور كان رائعا وهو يقول : « بالطبع لا . إنى لا آخذ شيئا على الشعب البريطانى . نحن جميعا بشر ، نملك نفس الأحلام والآمال . أنا ضد الحكومة البريطانية التى تحتل أرضى » .

وبدأت اختلس النظر اليها وهى تسائله وهو يجيب ، محاولة أن استشف شيئا من خلال تعبيرها ، ولكنى لم أجد أى تعبير على وجهها . ونظرت إلى والدى بقلق ولكنى لم أجد على وجهه هو الآخر أى تعبير . لم ينبس أبى بكلمة لأنه كان يعلم أن هذا الامتحان هو الفيصل بين أمى وأنور فقط .

ثم جاء السؤال الذى كنت أخشاه أكثر من أية أسئلة أخرى :

ـ ما رأيك فى ونستون تشرشل ؟ سألت أمى أنور .

قلت لنفسى : « هذه هى النهاية » ولم أستطع أن أحدد هل كان سيغشى على أم هى نوبة قلب ستنتابنى من جراء النبض الذى كان يرتفع ويسرع فى صدرى ، حاولت أن أختلس نظرة إلى عين أنور لأتوسل اليه أن يكون رقيقا فى رده على الأقل ولكنه كان ينظر مباشرة وبوضوح إلى أمى :

ـ « ونستون تشرشل حرامى » قالها أنور بحزم : « إن مصر تحكمها الملكية منذ عام ١٩٢٣ ، ولكنه بالرغم من هذا يسرق من دولتنا كبرياءها واستقلالها ، ان سياسته أسوأ أنواع السياسات ، لأنه يسعى لما ينشده لدولته من خلال تحقير وطنى . إن تشرشل قائد عظيم فى بريطانيا ، ولكنه بالنسبة لنا العدو المكروه ، ومع احترامى لك يا سيدتى ، فأنا لا أشعر نحو مستر ونستون تشرشل سوى بالازدراء » حملقت أمى فى صمت تنظر لأنور فوق فنجان الشاى الانجليزى الذى بيدها ، وشعرت كأنى سأموت وكلمات أنور ما زالت عالقة بالهواء .

ـ « لابد أن تأتى لزيارتنا مرة أخرى يا سيد أنور ، لقد كان هذا اجتماعا شيقا للغاية » .

قال أبى هذا وهو يسير مع أنور نحو الباب .

وظللت جالسة بجوار أمى كأنما أصابنى الشلل ، ان ما تنطق به أمى الآن هو الذى سوف يحدد مصيرنا ، كيف سيكون هذا ؟ .

وأخيرا . . قالت أمى : « أنا لا أتفق مع أى شىء قاله السادات عن ونستون تشرشل وعن السياسة البريطانية (وسقط قلبى) ولكنى احترمه لصدقه ولصراحته فى الكلام معى » ، واستطردت قائلة : « لم يكن يتملقنى وهذا يدعو للاعجاب » . وسألت أمى ، وقلبى يرقص فرحا : « اذن يمكننا أن نتمم خطبتنا » ، وقالت : « لست متأكدة بعد ، فأنا لازلت اعتقد أنك مازلت صغيرة جدا على ذلك ، سوف أرى بعد أن أجلس معه مرة أخرى . وبعد مناقشة الأمر مع والدك » .

أخذت روحى المعنوية فى الهبوط ، وزاد احساسى بالألم والاحباط طوال الأسابيع التالية ، وكثيرا ما كانت عمتى بطة تزور أمى لاقناعها بفكرة الزواج من إبنها ، وهى تشحن أمى بالاعتراضات على أنور ، بقولها أنى جميلة وصغيرة ومستقبل أنور غير مأمون ، ولماذا تزوجنى أمى بهذه السرعة لشخص فقير فى حين أن ابنها أحمد مناسب ؟ » وكانت تقول محذرة : « نار القريب ولا جنة الغريب » .

ونجحت فى اقناع أمى التى اقترحت على قائلة : « لماذا لا تنتظرين يا جيهان بضع سنوات ؟ إذا كان حبك حقيقيا فانه سيظل بداخلك » . . بضع سنوات قد تبدد العمر كله .

ولم يكن جارنا الذى طلب يدى هو الآخر بأقل منها محاولة لتعطيل المسألة : « أنور السادات لا مستقبل له » كان يقول لأبى : « كيف له أن يتكفل بجيهان وهو خارج من سجن سياسى ؟ »

وبدأ أبى فى التعبير عن شكوكه ، أما أنا فكنت يائسة ، وتوسلت لأمى ـ وأنا أرى أن مستقبلى مع أنور بدأ يتقهقر مرة أخرى أمام جميع هذه الاعتراضات ـ « لنجتمع بأنور مرة ثانية » . وفى الواقع لم يكن من الممكن إنكار صحة التحفظات التى يبديها كل واحد منهم . ولكن لو تعرف والداى ـ وخاصة أمى ـ على شخصيته ، فقد يغيران رأيهما . وهمست لأنور عبر التليفون : « تحدث عن الكتب ، إنها تعشق القراءة » .

وفى المرة التالية اجتمعنا لتناول الشاى ، فقال أنور لأمى : « تشارلز ديكنز من أحب الكتاب إلى نفسى » . وأصيبت أمى بدهشة بالغة وقالت له وهى تحدثه بالانجليزية لأول مرة : « هل حقا قرأت لديكنز ؟ » .

أجابها أنور : « نعم » . وبدءا يتناقشان بالانجليزية حول « التوقعات العظيمة » ، « وأوليفر تويست » الذى كان أنور معجبا به بوجه خاص لأن القصة تدور حول يتامى صغار وتضحياتهم البطولية . إن المسلمين يتعاطفون دائما مع موضوع اليتامى ، وهم يعتبرون الطفل يتيما إذا توفى أحد والديه ، وقد كان النبى محمد عليه الصلاة والسلام نفسه يتيما منذ السادسة من عمره ، ويحثنا القرآن الكريم على معاملة الايتام بالعدل والرحمة .

كنت أصغى إلى حديثهما باهتمام وبأمل يتزايد ، فاننى كنت أيضا من المعجبين بديكنز ، لقد قرأت « أوليفر توست » فى المرحلة الثانوية وأديت امتحانا فى « قصة مدينتين » ويكفى أن أنور استشف من التعبيرات المرتسمة على وجهها أنها مستمتعة بالحديث ، وأن كلا منهما يجد فى حديثه مع الآخر موضوعات اهتمام مشتركة ، ولاحظت وأنا أراقب أمى أن وجهها يمتلىء حيوية عندما تتحدث عن أحد المؤلفين الانجليز المحببين إليها بلغتها الأصلية مع مصرى متعلم يتحدث بلكنة وإن كانت غليظة بعض الشىء إلا أن إلمامه بمفردات اللغة كان واسعا ودقيقا .

وبعد أن تركنا أنور قالت أمى : « حسنا جين حسنا . . الآن استطيع أن أتفهم مشاعرك نحو هذا الرجل ، إنه ذكى ، وله شخصية . إنه سيرعاك رعاية طيبة » . ثم أضافت قائلة : « ولن تشعرى أبدا معه بالملل » .

واحتضنت أمى بشدة حتى آلمتنى ذراعى ، وتحدد الأسبوع التالى موعدا لحفل خطبتنا ، وبدأت اشعر بشىء من الاستثارة والعصبية ، فاننى لم أعرف بعد أسرة أنور ، وكنت أعرف أنها ستكون مختلفة عن أسرتى ، ومن المؤكد أنها كانت كذلك .

حضر طلعت ونفيسة وسكينة وعفت وزين وزينب ، وحضر محمد والد أنور مع زوجته « ست البرين » وزوجته الأخرى « أمينة » ، وحضر عصمت شقيق أنور مع زوجته الأولى زينب . ووصل أقارب أنور واحدا بعد الآخر إلى منزل والدى للاحتفال بالخطوبة . وشعرت بالصدمة ازاء عدد أفراد أسرة أنور ، ولكن كان من المستحيل أن أخشى شيئا ، فقد كانوا ودودين ويتمتعون بروح الدعابة التى أدركت فيما بعد أنها سمة مشتركة فى الأسر المصرية التى تعيش فى الريف ، وأخذ أشقاء أنور وشقيقاته يداعبوننى بود ورقة قائلين : « كيف عثر شقيقنا المحظوظ على فتاة بيضاء مثلك . » .

وأعرب لى والد أنور فى ود شديد عن مدى فخره لأننى سأصبح أحد أفراد الأسرة . أما والدته فكانت سعيدة إلى حد أنها لم تستطع الكلام . كانت بين حين وآخر تقبل على لتحضننى وتقبلنى . وقد جعلتنى كل هذه العواطف الجياشة التى بدت منهم أشعر فورا بمدى الترحيب الذى استقبلونى به . والشىء الوحيد الذى تمنيته هو أن أستطيع أن أتذكر اسم كل واحد منهم .

وفيما بعد عندما توجهنا أنور وأنا لزيارة منزل أسرته أدركت كم كان الأمر صعبا هناك . فقد كانت كل أسرة أنور بما فى ذلك أبناء أخواته وابناء اخوته والاحفاد والاشقاء والشقيقات يتناولون العشاء معا كل ليلة ، وعندما كنت أنظر إلى هذه الاجيال الثلاثة المجتمعة حول المائدة كنت أقول لنفسى أنها أشبه بقبيلة أكثر منها أسرة . ولقد شعرت بالدهشة أيضا ازاء الاطباق التى تعدها أسرة أنور للعشاء كل ليلة .

فقد كنت دائما ، مثل أبى لا أهتم كثيرا بالأكل مفضلة أن أدخر نقودى لشراء ثوب أوصورة أوشىء أجمّل به ركنا فى إحدى حجرات بيتى .

ولكن والدىّ أنور كانا من جيل مختلف يهتمان أكثر بالطعام ، ويقدمان الطبق بعد الطبق وكانت « ست البرين » تمزح معى حين أتوقف عن الأكل معلنة أنى امتلأت تماما وتقول لى : « أنت لا تأكلين أبدا يا جيهان » .

والواقع أن أنور هو الذى أكل القليل ، مجرد حساء به لحم يتناوله كل مساء .

كان أنور أكثر جدية من بقية الأسرة ، وكان كثيرا ما يتركهم يمزحون ويضحكون وهم حول المائدة ليذهب لقراءة أحد الكتب .

كان أنور مختلفا عن كل أفراد أسرته وأسرتى . كانت له رسالة . . وفى يوم خطبتنا لاحظت ومضة التوتر والأخطار التى سنواجهها فى زواجنا . وكان أنور قد ارتدى ملابسه العسكرية فى تحدٍّ واضح ، وهو يعلم جيدا أن ارتداءها بعد أن طرده البريطانيون من الجيش يعد أمرا مخالفا للقانون . وكان « ابن الجيران » الذى كان يرغب فى الزواج منى ـ وكان هو أيضا ضابطا فى الجيش ـ قد رأى أنور وهو يرتدى البدلة الرسمية ، فأبلغ الأمر إلى الشرطة . وصعدت ابنة البواب لتحذرنى ولكن من حسن الحظ أن الشرطة لم تأت لاقتياد أنور .

وكانت أول لحظة من الخطر هى التى جعلت أبى يتخذ قراره حول مستقبلنا ، فأخذه جانبا وقال : « أنور إنى أحبك كإبنى وأكن لك كل الاحترام ولكنى لا أستطيع أن أوافق على زواجك من ابنتى إلا إذا وعدتنى ألا تزج بنفسك فى السياسة . إنها حياة خطرة لا أرضاها لابنتى . ولذلك لك أن تختار وأنت حر فى اختيارك » .

وأوقع طلب أبى أنور فى حيرة كان من الصعب الخروج منها ، فإن هو وعد أبى فهذا يعنى التنازل عن كل ما عمل وضحى من أجله . ومن ناحية أخرى فإن مثل هذه الحياة المشحونة بالمخاطر لن تضمن له الأمان سواء لى أو لأسرته الأولى .

وأجاب أنور بتمنع واضح « أنى أعد » وكان هو نفس التمنع الذى وافق به على مشاركة حسن فى أعمال البناء .

شعرت بسعادة عظمى ، وبدأت أتطلع إلى المستقبل بكل جوارحى ، وفى يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩ سأصبح جيهان السادات . ولم أعرف آنذاك أن شهور خطبتنا

الثمانية ستكون فترة من أكثر فترات مصر عنفا وثورة .

كان الشعور فى مصر هو شعور بالاحباط والغضب . فقد أدت هزيمتنا فى حرب فلسطين إلى إحساس بالمهانة ، كما أنها أضعفت اقتصادنا الضعيف أصلا . وارتفعت أسعار الغذاء والملابس والمسكن بينما انخفض دخل الفرد بسبب الزيادة الكبيرة فى البطالة .

وكان جميع أفراد الشعب (ما عدا الطبقة الحاكمة) يقاسون من هذه الأزمة الطاحنة ، وهم موظفوا الحكومة وخريجوا الجامعات الذين لم يجدوا عملا وأفراد الجيش من الطبقة المتوسطة . وبدأ نظام البطاقات الذى عشناه وقت الحرب يطبق على السلع الأساسية مثل السكر ، والدقيق ، والكيروسين وهو الوقود الذى كان يعتمد عليه غالبية سكان المدينة للطهو والاستحمام . ووزعت علينا بطاقات تحقيق الشخصية مدوّنا عليها عدد أفراد الأسرة ودفتر كوبونات نشترى بها مواد التموين.. وعلى كل حال لم تكن هناك سلع كثيرة ، فحتى الدمور ، وهو قماش من القطن العادى الذى يستعمله عامة الشعب فى صنع « الجلاليب » أصبح نادرا .

وبرغم ذلك لم تبد الحكومة أى اهتمام ، فقد كانت غالبية أعضاء البرلمان من الأغنياء ، وكانوا دائما يصوتون ضد أى مشروع قانون لزيادة الضرائب على الأغنياء . ولم يروا أنه من الظلم أن ٦٥٪ من ثروة مصر يملكها (٥٪) من السكان . كانوا هم الذين يكونون (٥٪) ولم يكن يهمهم مطلقا أن (٢٪) من المميزين يمتلكون أكثر من نصف الأراضى الزراعية فى مصر . ولماذا يهمهم ذلك ؟ إن كبار موظفى الدولة ينتمون إلى طبقة كبار الملاك الأثرياء الذين تتزايد ثرواتهم باستمرار ، بينما ينغمس الفلاحون الذين يعملون لهم فى الفقر يوما بعد يوم . وزادت المظاهرات التى ينظمها الفقراء والعاطلون احتجاجا على هذا الظلم . ولكن رد فعل الحكومة كان اعتقال المتظاهرين وتعريضهم لمعاملة قاسية . وكان ما ينشر فى الصحافة التى كانت تتمتع بشىء من الحرية فى ذلك الوقت سببا فى خلق الوعى بالفوارق الطبقية ، كما أنها أضافت إلى التوتر الموجود فعلا .

كان التوتر فى كل مكان ، ولم تستطع محاولات استصلاح الصحراء وبناء سد جديد على النيل أن تتعادل مع معدل زيادة السكان ، فقد زاد السكان من حوالى ١٦ مليونا عام ١٩٣٠ إلى ٢٢ مليونا فى عام ١٩٤٨ . وزاد الازدحام فى القاهرة إلى درجة مخيفة ، فكان حوالى عشرة آلاف شخص يعيشون فى حارة واحدة وكانت الأتوبيسات وعربات الترام تتحطم تحت ضغط السكان ، وبدأت الجريمة تزيد بعد أن كانت نادرة فى مصر . وظل آلاف الفلاحين الذين نزحوا إلى المدن للعمل أثناء الحرب العالمية الثانية يقاسون من البطالة .

وعلى الرغم من القانون الذى أصدره الملك « فاروق » بمنع الهجرة من الريف إلا أن آلافا من الفلاحين كانوا يصلون إلى القاهرة كل يوم .

وكلما زاد التوتر زادت قوة الاخوان المسلمين ، وفى نهاية عام ١٩٤٨ كان أكثر من ٢٠٠ ألف فرد قد التحقوا بالمنظمة فى مصر يتبعون تعليمات المرشد العام « حسن البنا » ، واستمر الفدائيون فى القتال من أجل مصير إخوانهم من المسلمين ، وبينما كان المصريون فى المدن يشكون من الفساد فى الحكومة ومن الاحتلال البريطانى المهين ـ كان الاخوان المسلمون يشنون حربهم الدينية فى الشوارع .

وبدأت عمليات العنف ضد الحكومة والبريطانيين ، وحتى الأجانب الذين كانوا يعيشون دائما فى سلام فى مصر . وبينما كانت قواتنا تحارب بدون جدوى فى فلسطين ، كانت الحوانيت التى يمتلكها اليهود فى مصر مثل داوود عدس حيث كنت دائما أبتاع الصينى والأوانى الزجاجية مع أمى وأختى ، وشيكوريل وبنزايون وجاتينيو ـ تتعرض للقنابل . لقد أصبحت أية مؤسسة غير مصرية هدفا ومنها سينما مترو والمكاتب التجارية الفرنسية والبريطانية . وعلى الرغم من أن كثيرا من اليهود المصريين هربوا أثناء التقدم الألمانى نحو الاسكندرية فى الحرب العالمية الثانية ، إلا أن طائفة كبيرة بقيت فى القاهرة . وأذكر أنه فى عام ١٩٤٨ حين كنت فى السويس مع أنور انفجرت قنبلة فى حارة اليهود ، وتسببت فى قتل عشرين من سكانها وجرح آخرين .

كان أنور يشعر بالقلق العميق من هذه الحقائق ، كما كنت أيضا .

كان منظر الأسلحة المصادرة التى نشرتها الجرائد والمجلات يثير الخوف ، وعلى الرغم من أن أنور كان يكن إعجابا شديدا لمرشد الاخوان حسن البنا الذى قابله عدة مرات ، إلا أنه كان يعتقد أن تكوين الجهاز السرى لن يحل مشاكل مصر ، وفى نفس الوقت لم يكن يرى أن حل الحكومة للاخوان المسلمين سيحل المشكلة ، وكثيرا ما كان يقول لى أثناء تلك الاضطرابات ، لابد أن يوجد من يضع حدا لهذا الجنون . إن العنف لا يولد إلا عنفا ، إن أى عمل يرمى إلى إصلاح الفساد وإزالة المرارة فى مصر يجب أن يأتى فى شكل منظم . . من الجيش .

ومثل غيرى من أبناء جيلى كان لدى إحساس مزدوج تجاه الاخوان ، فقد كنت أعجب بقوة عزمهم وبمبادئهم وبالتزامهم بديننا ومثلهم . كنت أريد خروج فاروق والبريطانيين ولكن لم أكن أريد وسائل العنف . إن الاغتيالات السياسية وإلقاء القنابل على الأبرياء سببت قلقا كبيرا فى مصر ، فقد كنا نعيش فترة قصيرة من الحرية السياسية وحرية التعبير ، وكانت حياتنا الثقافية فى ازدهار ، ففرقة أوبرا سكالا الايطالية تقدم موسما فى دار الأوبرا ، وفرقة الكوميدى فرانسيز تقدم مسرحياتها لجماهير غفيرة . وشعر الكثير من المصريين أن الاخوان متصلبون أكثر مما يجب ، وأنهم يسرعون إلى إدانة كل مالا يمت إلى الاسلام .

وجاء بعد ذلك دور المصريين المتعاطفين مع الحكومة . ففى ديسمبر ١٩٤٨ بعد ثلاثة شهور من خطبتى إلى أنور قتل الطلبة رئيس بوليس القاهرة بأن أسقطوا قنبلة فوق سيارته ، وحين شك رئيس الوزراء فى أن ما يحدث من عمل الاخوان المسلمين أمر بحل الجماعة ومصادرة ممتلكاتها .

وكان ما اكتشفه البوليس يثير الرعب حقا ـ كميات هائلة من البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية والذخيرة ، وكان هناك الجهاز السرى الذى يقوم بالجانب الارهابى للاخوان ، وكانت أهدافهم هى إسقاط الحكومة . ومن شواهد زيادة قوة الاخوان اكتشاف مراكز التدريب العسكرى فى جميع أنحاء البلاد ، وكانت تلك المراكز قبلت أعداد متزايدة من المتطوعين . وعلى الرغم من ذلك فقد توجست

خيفة حين حلت الحكومة الاخوان ، كنت أشعر فى قرارة قلبى أن المشاكل التى تشتعل فى كيان مصر لم تواجهها الحكومة مواجهة صحيحة وأن الاخوان لن يكفوا عن القتال ، وقد حدث فعلا ما توقعته فقد اختبأ الاخوان واستمرت أعمال العنف .

وفى يوم ٢٨ ديسمبر أى بعد ثلاثة أسابيع من حل جماعة الاخوان المسلمين قام أحد أعضاء الجماعة ـ وكان مختفيا فى زى عسكرى بوليس باغتيال رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى ، وبعد شهرين من هذه الجريمة قام بوليس فاروق السرى بإطلاق النار على مرشد الاخوان حسن البنا ، وقالت الشائعات إن قوات فاروق تركته فى الشارع ودمه يسيل حتى الموت ، لقد أحسست بصدمة كبيرة ، وكان هذا شعور الجميع . وكان حسن البنا مشهورا فى جميع البلاد لعمق روحانياته وذكائه الخارق وقدرته على التأثير بحديثه على مستمعيه لساعات طويلة والآن أصبح فريسة سلسلة من الاغتيالات التى بدأها مريدوه .

لقد مات رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى ومات كذلك حسن البنا ولكن لم يوجد حل لأعمال العنف المتزايدة بين المتطرفين الدينيين فى مصر وبين الحكومة ، وصار أى عمل من أعمال الثأر يليه عمل إنتقامى آخر . وقد انشقت بعض الجماعات الجديدة الأكثر عنفا على الاخوان ، وبعد ثلاثة وثلاثين عاما من المواجهة بين الجماعات المتطرفة وبين الحكومة وصلت إلى ذروتها بموت زوجى .

وفى يوم زفافى صحوت فى الفجر أستمتع بالشىء الهادىء الوحيد الذى سيتحقق ، وبدأت أقرأ سورة يس وأنا أراقب الشمس وهى تمزق الضباب فوق نهر النيل ، ولم أتذكر أنى شعرت بمثل هذه السعادة من قلبى . . كم كان حظى سعيدا بأن أزف إلى رجل أعرف أنى أحبه ، وهذا شىء لا يعرفه إلا القليلات من صديقاتى ، وقد شعرت زميلاتى فى المدرسة بالدهشة حين أخبرتهن ، وعرضت عليهن صورة أنور وبدأن يسألننى : هل هو غنى ؟ فنفيت ذلك فقلن هل يتولى منصبا كبيرا ؟ فكان الرد ليس عنده وظيفة ، ثم قلن وهن يتضاحكن : إذن لماذا

تزوجته وهو أكبر منك سنا ؟ . . « ولكن شخصيته هي التي جذبتني » . . هكذا كان ردي :

ونظرت إلى أصابعي لأرى خاتمي الخطوبة الذهبيين ، وكان أبي قد عاوننا على شرائهما ، وكان أحدهما على شكل فراشة ، وتقضي التقاليد أن يعطي العريس خطيبته دبلة الخطوبة وقطعة أخري من المجوهرات : مثل أسورة أو حلق ولكن لم يكن ذلك في مقدرة أنور .

« ماذا سنفعل » وجهت هذا السؤال لأبي وأنا أعرف أن أنور لن يستطيع من خجله الشديد أن يخبرني أنه لن يقدر على مجاراة هذه التقاليد ، كما كنت أعرف أن أمي وعماتي لابد أن يتأكدن أني أعامل معاملة حسنة مثل بقية بنات الأسرة .

وقال أبي : دعيه يأتي إلي القاهرة لنشتري لك الخاتم .

ولكن أنور لم يكن راغبا في ذلك وقال : الا نستطيع أن ننتظر حتى أتمكن من شراء شيء لك . وكان في ذلك الوقت يعمل في دار الهلال ، وهي دار النشر التي أصدرت مذكراته وهو في السجن ، ولكن لم تكن لديه أية نقود متوفرة من مرتبه إذ كان يرسل جزءا منه إلي أسرته الأولى والباقي لمصاريفه الشخصية . ولكن كان من الضروري أن أعرض علي الجميع دليل حبه لي ، فلم تكن أمي قد اكتشفت مدى فقر أنور .

ورجوت أنور قائلة : أرجوك يا أنور اذهب مع أبي لتختار شيئا غير غالي الثمن وفي استطاعتك أن ترد ثمنه فيما بعد لأبي .

وذهب الاثنان إلى بايوكي الجواهرجي واختارا الخاتمين . ومن المعتاد في مصر أن تساهم الزوجة في تأسيس المنزل ، فتحضر بعض الأثاث وبعض احتياجات المنزل وملاءات السرير والمفروشات . .

أما قيمة الصداق فتتم مناقشتها مع من يمثل العروس ـ وهو عادة أبوها ـ وتكتب هذه القيمة في قسيمة الزواج ، ويدفع ثلثا المبلغ في الحال أما الثلث الآخر فيدفع مؤخراً في حالة الطلاق . أو حسب الاتفاق بينهما . وبرغم أن قيمة

الصداق الشرعى هى ٢٥ قرشا فإن الحد الأقصى قد يصل إلى الآلاف من الجنيهات تبعا لمستوى العريس .

ولم يكن فى استطاعة أنور أن يواجه تقاليد الزواج ، وكانت قيمة الصداق المدونة مائة وخمسين جنيها . وحتى هذا الصداق المتواضع لم يكن فى قدرة أنور أن يدفعه وكنت أداعبه وأقول له فى احتجاج وغضب مصطنع ، لقد أخذتنى بلا ثمن .

ولم يقل أبى لأمى أى شىء بخصوص النقود . وبدلا من ذلك قام بترتيبات الزواج بحماس وكرم بل وقبل عرضا جيدا لبيع أرض الأسرة حتى يتوفر المال اللازم لحفل الزفاف ، وذهب أبى معى إلى الحائكة ليختار الأقمشة للفساتين التى قمت باختيار تصميمها مستعينة بما تعلمته فى المدرسة ، وكان يختار المفارش وأغطية السرير وقمصان النوم المشغولة من الحرير والكريب ديشين والفساتين والمعطف . وجاء معنا أيضا إلى محال الفضة حيث اخترنا نوعين من الأطقم : واحد مطلى بالفضة للاستعمال اليومى ، والآخر من الفضة الخالصة للضيوف . ثم اخترنا الأطباق أيضا من نوعين : نوع للاستعمال العادى ، ونوع آخر للمناسبات ، وأكواب عادية بالاضافة إلى مجموعة من الكريستال .

وبدأنا نبحث عن شقة مناسبة فى الروضة ، وفى القرى كان الشاب غالبا ما يحضر زوجته لتعيش فى بيت أبيه . أما فى القاهرة وغيرها من المدن الكبرى ، فإن الزوجين يعيشان فى بيتهما الخاص بهما ، ولكن ليس بعيدا عن والديهما . وشعرت بسعادة كبيرة حين عثرنا على شقة فى عمارة جديدة على بعد دقيقتين من بيت أبى . كانت شقة بديعة تحتوى على غرفتى نوم وصالون وحجرة للطعام ومطبخ وثلاث شرفات . ومن إحدى هذه الشرفات يمكننا أن نطل على فرعى النيل اللذين يحيطان بجزيرة الروضة ولم يكن النيل يخلو من نشاط هام كل يوم : استعراض للنشات المسرعة ، والفلايك وهى تجوب النهر جيئة ورواحا حسب الرياح وتيار الماء ، والمراكب الكبيرة فى طريقها إلى الصعيد وعليها حمولات من الأثاث ومواقد الطهى ، ثم تعود وهى محملة بقصب السكر وبلاليص العسل الأسود .

وفى الشرفة الواقعة على الجانب الآخر من الشقة ، كنا نرى الأهرامات الثلاثة لخوفو وخفرع ومنقرع ، وأحيانا فى الفجر كنا نعاين الشمس وهى تعطى الأهرامات لونا أحمر ، وعند الغروب نراها وهى تغرب خلفها . وفى ذلك الوقت لم يكن بين الروضة والصحراء إلا الحدائق والحقول الخضراء ..وكان الخط الذى ينتهى عنده الجانب الأخضر وتبدأ الصحراء محددا ، وكأنه مقطع سكين . وكلا الجانبين لهما سحرهما : الحقول الخضراء تحمل الحياة ، أما الصحراء والأهرامات فهى تهمس بأسرارها ومع ذلك تظل أسرارا .

وكثير من المصريين يكرهون الصحراء ويخافون من وحدتها ، أما أنا فكنت أحبها لذلك الاحساس بالمساحة الشاسعة ولقوة التحمل التى توحى بها ، وكنت أحيانا أرى الجمال وهى قادمة من السودان بعد أن عبرت الصحراء فى طريقها إلى القاهرة ، وكان هناك دائما بعض الفرسان يركبون الخيول . وكان أنور يقضى أوقاتا طويلة فى الشرفات ليس فقط للاستمتاع بالمنظر ، ولكن لأن السنوات التى قضاها فى السجون أورثته شعورا دائما بالقلق .

لقد كنت محقة حول إحساسات أبى نحو أنور . وفى خلال فترة الخطوبة التى طالت ثمانية شهور حين لم يكن مصرحا لأنور وأنا أن نبقى منفردين ، كان أنور يقضى أمسيات عديدة فى منزلنا تحت أعين العائلة . . وبدأ أبى وأنور يتعرفان على بعض ، وكانا يلعبان الطاولة معا بعد العشاء ، ونما بينهما حب واحترام عظيمان . وحين حاول أنور أن يرد إلى أبى ثمن الخواتم التى كان قد ابتاعها وثمن الأثاث والفساتين ، رفض أبى أن يأخذ منه قرشا واحدا . وقال لأنور « إنى لا أبيع ابنتى ولكنى كسبت إبنا » .

ولم ينس أنور ابدا كرم أبى . وحين أحيل أبى إلى المعاش وكان أنور آنذاك ، رئيس مجلس الشعب صمم على أن ينتقل والدى من شقتهما التى تقع أمامنا فى شارع الهرم إلى بيتنا ليعيش معنا . وقلت لأنور بعد أن تحدثت إلى أبى ، إنه يشعر أنه سيكون عبئا علينا ، ولكن أنور كان مصرا وأعطانى تعليمات محددة : اذهبى إلى منزله وأحضرى أثاثه هنا . إنى أدين له بالكثير منذ السنوات

الأولى من زواجنا ، ويسعدني أن أردها . أنه الآن ليس لديه ما يشغله طوال اليوم وأنا لا أريده أن يكون وحيدا ، إنى أريده أن يفتح عينيه فى الصباح ليرى أحفاده فوق سريره وأن يتناول إفطاره وغداءه وعشاءه معنا . .

وحين وصلت إلى البيت ومعى عمال العزال سالت الدموع على وجه أبى ، فقد كان يريد أن يكون قريبا منا ومن أحفاده ، ولكنه شعر بالحرج من أجل مركز أنور . وبعد سنة واحدة توفى والدى ، ولكن أمى استمرت فى المعيشة معنا أربعة عشر عاما ، وانتقلت معنا إلى منزلنا فى الجيزة بعد أن أصبح أنور رئيسا للجمهورية . وكنت أرعاها بنفسى أثناء مرضها الأخير حتى توفيت قبيل رحلتى الأولى إلى إسرائيل . وخلال الشهور الستة الأخيرة من حياتها لم تنطق بأية كلمة عربية بل كان كل حديثها باللغة الإنجليزية .

وحين ذهبت إلى الحائكة نظرت إلى نظرة ناقدة وأنا أرتدى الفستان الجميل الذى قمت بتصميمه وقالت : « إن شكلك صغير جدا ، لماذا لا تضعين بعض الماكياج ؟ » ، ولم أكن استعملت الماكياج أبدا وجلست أمامها فى نشوة ظاهرة وهى تضع لى الماكياج .

وذهبت مع أنور إلى المصور لالتقاط تذكار الزواج وأنا عصبية ، ولم أكن عصبية بسبب الصور الفوتوغرافية ، ولكن بسبب أنور الذى كان يرتدى البذلة العسكرية ، وكانت نكات المصور هى التى ألهتنى عن مخاوفى من احتمال اعتقال أنور .

وقال المصور لأنور حين تهيأنا لأخذ الصورة : « إن حظك سعيد حقا فأنت متزوج بواحدة من أجمل العرائس اللاتى شاهدتهن » . إنى متأكد أنه قال ذلك لكل عروس ، ولكنى بالتأكيد سررت مما قاله .

وقلت لأنور مداعبة وقد وقف بجانبى وعليه مظاهر الجد « يا لك من رجل محظوظ ، ألم تسمعه يقول إنى من أجمل العرائس اللاتى شاهدهن » .

وكان أنور ساكتا يحاول أن يتجاهل مداعباتى ، كما كان يفعل سنوات بعد

ذلك فى الاستقبالات الرسمية . وكان أحيانا يقول لى ونحن واقفون لاستقبال طابور طويل من الضيوف : « قصى على دعابة (نكتة) » وأحيانا أخرى كان يستشيط غضبا من الدعابات التى أهمسها فى أذنه ويتمتم « أسكتى . . يبدو أن كل إنسان فى استطاعته السكوت ما عداك ! » .

ولكنى لم أستطع أن أهدأ يوم زفافى ، أهم يوم فى حياة الفتاة المصرية . وكان الضيوف وهم أقرب الأقارب ، قد بدأوا يفدون إلى منزلنا فى الروضة لحضور طقوس الزواج ، وذلك قبل الذهاب إلى حفل الاستقبال الذى سيقام فى حديقة المنزل الجديد لعمتى زوزو بجوار الأهرامات .

وجلست مع عائلتى والسعادة تفيض بى ، وجعلت أتأكد من أن الخمار فى مكانه الصحيح ، وأن الرداء الأبيض غير منكوش وأن باقة الورد والياسمين فى يدى . وتقضى التقاليد فى مصر بأن تجلس العروس فى مواجهة زوجها أمام المأذون ، ولكن لسبب صغر سنى ناب أبى عنى ووضع يده فى يد أنور .

كنت على الأقل فى الغرفة معهم . وفى كثير من الزيجات المصرية إذا كان سن العروس أقل من واحد وعشرين عاما وهو الحد الأدنى الذى تستطيع المرأة فيه أن توقع عقدا قانونيا ، فإنها تجلس فى غرفة منفصلة مع زميلاتها بينما يقوم رجال عائلتها بالتوقيع على عقد القران . وهى لن تعرف بالضبط متى تم زواجها حتى يأتى خادم يوزع « الشربات » على الرجال وتتفجر الزغاريد . وعند سماع ذلك تشارك العروس وزميلاتها فى الزغاريد التى تؤكد للفتاة الصغيرة أنها قد أصبحت زوجة .

وكانت أكثر الزغاريد ارتفاعا فى يوم زفافى هى زغاريدى أنا ، إذ لم أستطع أن أملك زمام نفسى حين سأل المأذون أبى إذا كنت قد قبلت أنور زوجا . إن المرأة فى الاسلام من حقها أن ترفض حتى إذا كان كل شىء قد اتفق عليه ، ومع ذلك فإن السؤال يثير بعض التوتر . وحين سأل المأذون ـ هل وافقت على الزواج نظر أبى إلى وهو يفخر بإبنته . فهززت رأسى بشدة حتى أحسست أنى أكسر رقبتى وقلت : « نعم » ، وأضاف أبى : « إنها توافق » .

وكان أبى وأنور يجلسان وجها لوجه على مقعديهما ، وقد شبكا يديهما اليمنى ، وقام المأذون بوضع منديل أبيض فوق أيديهما ، ثم بدأ المأذون فى طقوس الزواج .

ويدأ أبى يقول موجها حديثه إلى أنور كما تقضى التقاليد : « إنى أزوجك ابنتى جيهان العذراء لصداق قدره مائة وخمسون جنيها » ، ويجيب أنور : « إنى أقبل منك زواجها منى وآخذها تحت رعايتى ، وأعد بأن أعطيها حمايتى . وأنتم الحاضرين هنا شهود على ما أقول » .

ثم قرأ المأذون بعض آيات القرآن ، وحين بدأت الزغاريد تملأ المكان أصبحت أنا وأنور زوجا وزوجة .

يا للحفلة التى أقيمت فى بيت عمتى ! وحين وصلنا إلى الحفل شاهدنا ثلاثة خيول وهى ترقص على أنغام الناى ، وكانت الزهور تزين الخيول فى أعرافها وذيولها . وحين وصل جميع الضيوف ، بدأت الزفة ، وهى الموكب التقليدى ، وأمامها الفنانون الذين سيحيون الحفلة ، من مغنيين وراقصات إلى موسيقيين يعزفون ويدقون الطبول ، ثم المونولوجست الذى يضحك الضيوف بنكاته .

وملأت الزغاريد الجو وشارك فيها الجميع ، الأصدقاء والجيران وحتى المارة ، وذلك احتفالا بمسيرتنا نحو حياة جديدة . وجلبا للحظ السعيد بدأ أصدقاؤنا وأقاربنا فى قذفنا بالنقود المعدنية ، وكادت الزغاريد تصم الآذان .

وكان زفافنا متوسطا ، إذ غالبا ما يقام الزفاف اليوم فى أحد فنادق القاهرة ، وتسير الزفة فى جوانب الفندق والزغاريد تدوى فى أنحائه ، وينثر الضيوف نقودا . وتكلف الحفلة القادرين ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف جنيه ، بل أكثر من ذلك أحيانا .

واستمرت احتفالات زفافنا حتى الفجر ، وكنت أنا وأنور نجلس على عرش الزواج ، « الكوشة » وهو مزدان بالزهور . وبدأنا نأكل من البوفيه الذى احتوى على أطباق كبيرة من اللحوم والسلاطة والحلوى ، وشربنا « الشربات » وهو عصير

من الفاكهة والسكر . ولم تنقطع الراقصات عن الرقص طوال الليل ، واستمر الموسيقيون فى عزفهم ، وغنى المغنون أغانى الحب وألقى المونولوجست بنكاته المصرية اللاذعة .

وكنت أعرف أننا لن نقضى الليلة فى بيتنا ، فقد كانت شقتنا فى عمارة جديدة لم تنته بعد ، ففى ليلة زفافنا سيعود أنور إلى حجرته الصغيرة فى البنسيون الذى ينزل فيه وسأعود أنا إلى منزل أسرتى .

ولكن سرعان ما ولى الليل وجاء النهار ، وبدأ الضيوف فى الخروج وهم يصافحوننا ويتمنون لنا حياة سعيدة وكنا نرد عليهم قائلين « لقد شرفتمونا » .

وأخيرا أصبحت أنا وأنور بمفردنا ، فقال لى « تعالى » وقادنى إلى السيارة وتوجهنا إلى الأهرامات .

وقد بدا سكون الصحراء عميقا لا نهائيا ، وخاصة بعد ضوضاء العرس ، وسرنا معا عبر الرمال إلى قاعدة هرم « خوفو » ، ونظرنا إلى أعلى إلى ارتفاع يصل إلى ٥٠٠ قدم . لقد صمد هذا الهرم الكبير خمسة آلاف سنة تقريبا ، وهو مبنى من حجارة على درجة من الدقة حتى ليقال أنه من الصعب أن يمر (موسى) حلاقة بينها . لقد شاهدت الأهرامات ، وأبا الهول مرات عديدة ، ولكن حين وقفت أمامهما الآن فى سكوت تام بجوار زوجى وراقبت الشمس وهى تلمس بأشعتها الصحراء الباردة ، رأيت كل شىء بعيون مختلفة .

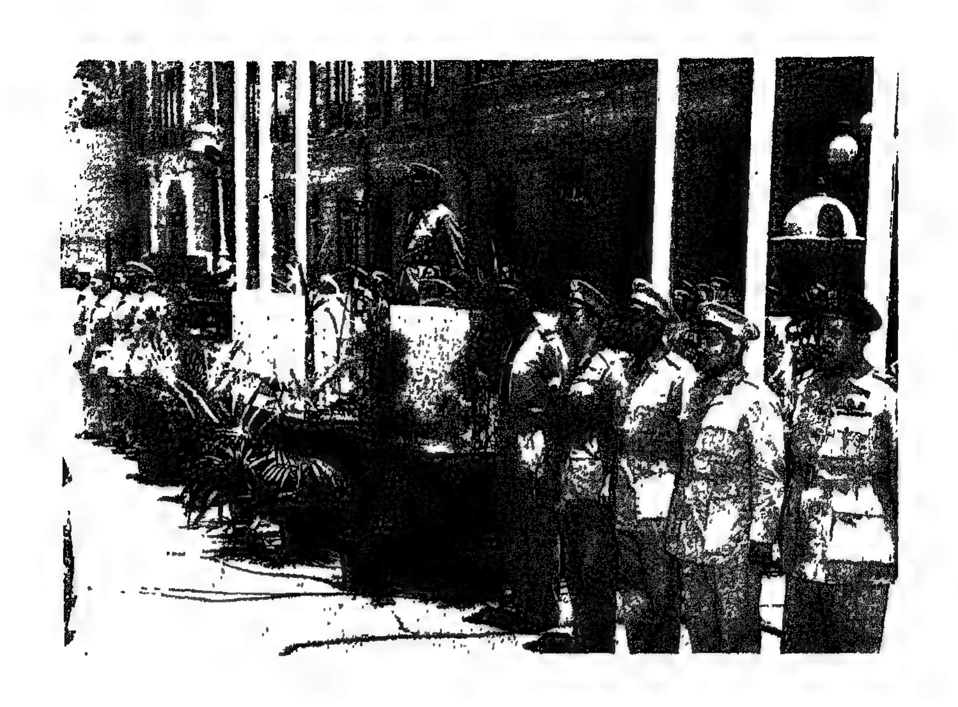
هل يمكن أن نكون فى حكمة أبى الهول الذى يتفرس عبر مصر فى تسامح الخلود ؟ . لقد استعمل جنود نابليون وجه هذا الأثر العظيم هدفا للتدرب فيه على الرماية . . فهل نستطيع أن نصمد فى كبرياء مثل هذا الصمود ، هل سيستمر حبنا كما استمر الهرم الأكبر ؟ لم أشعر من قبل بهذا الأمل يملأ قلبى ، الأمل لزوجى ولبلدى ولكل ثروات وعجائب مصر التى جاءت من قبل ، وللوعود التى تنتظرنا .

كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء حين أوصلنى أنور إلى منزل أسرتى ثم عاد بمفرده إلى البنسيون .

كثيرا ما فكرت فى ذلك الفجر فى الصحراء . لا شك فى أن إرادة الله هى التى دفعتنا إلى هناك ، لنستحيى آمال أمتنا فى قلبينا . ومنذ بداية زواجنا كان حبنا لبعضنا يتشابك مع حبنا لمصر . ومنذ تلك اللحظة في الصحراء أصبحت مصر جزءا من كل صعوبة عرضت لنا . . من كل تحد كان يبدو عسيرا بلا حل ، من كل تضحية ضحيناها . كنا نعطى حبنا لبعضنا ولمصر بلا حساب .

ولم يكن فى مقدورنا غير ذلك .

لقد حدد الله لنا هذا الطريق ، وكل ما سيحدث من صالح أو طالح إنما يأتى منه سبحانه ، إنه المصير . . ولم نكن بالطبع نعرف ما قدر الله لنا ، كل ما كنا نعرفه بالإيمان واليقين أن ما سيحدث مكتوب علينا . . ومنذ ذلك الفجر الأول عند سفح الأهرامات بدأت مع زوجى رحلة كانت قد خططت لنا بكل عناية . وكم اختلفت سبلنا أحيانا ، ولكن هدفنا دائما كان واحدا : الحب والكرامة والشرف والسلام .



الفصل الرابع

تحرير مصر



« إن زوجتى كانت منفعلة اليوم حتى أنها رفضت أن تعد لى الغداء . هل تصدق هذا ؟ إذا تكرر هذا فانى سأطلقها » ، « كل شىء مزعج فى بيتى ، الجميع فى شجار مستمر . فزوجتى اتفقت على تزويج إبنى من إبنة أخيها ولكنه يريد الزواج من فتاة أخرى. وطوال اليوم يعلو صراخ إبنى وزوجتى . إنى لا أكاد أذهب إلى البيت ، إذ لا توجد به أية راحة » ، « لا أدرى ماذا أفعل ؟ لقد رأيت فتاة جميلة فى بيت إبن عمى وإنى أحلم بزواجى منها . ولكنى لازلت أدفع نقودا إلى زوجتى الأولى والثانية حامل الآن ، وإذا طلقتها الآن ثم ولدت ولدا ، سأضطر إلى ترك زوجتى الجديدة » ، يوما بعد يوم فى أثناء شهر العسل الذى كنا نقضيه فى الزقازيق حيث كان أنور يعمل ، كنت أجلس فى شرفة حجرتنا فى الفندق ، وأنصت إلى أحاديث الرجال الذين يجلسون على المقهى . وكمعظم الرجال المصريين كانوا يتحدثون بصوت مرتفع ، وبانفعال شديد ، وهم يرتشفون القهوة التركية أو الشاى بالنعناع المسكر ، أو يدخنون النرجيلة ويتبادلون القيل والقال

وهم يلعبون الطاولة . وقد تعودت على أصواتهم المرتفعة ولكن لم أتقبل الطريقة التى يتحدثون بها عن زوجاتهم ، إنى لم أسمع والدى يتشاجران ولم يرتفع صوت أبى على أمى . إنهم حتى لم يناقشا السياسة كما يفعل معظم المصريين دائما وبعمق شديد . ولكن هؤلاء الرجال يجتمعون كل يوم فى المقهى للشكوى « علانية » من الأمور الخاصة فى بيوتهم .

يا لها من دروس تلك التى تلقيتها فى الزقازيق ! تلك المدينة الصغيرة فى شرقى الدلتا حيث أرسل حسن عزت أنور للاشراف على مد أنابيب لمياه الشرب فى أثنتين وخمسين قرية . كان أنور يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم ، ومن ثم لم يكن لدى ما أفعله طوال الشهر الذى قضيته هناك . وعرفت الوحدة لأول مرة ، وحدة فتاة من القاهرة فى السادسة عشرة من عمرها دون أن يكون حولها أى عضو من أسرتها . وكنت أتصل تليفونيا بأختى أو بوالدى كل يومين أو ثلاثة أيام ، ولكن الخط التليفونى مع القاهرة كان سيئا بحيث كان يشعرنى أنى بعيدة عنهم . ولم يكن من السهل أن أبدا صداقات جديدة فى الزقازيق ، فالبنات من سنى فى المدرسة والزوجات مشغولات فى شئون البيت والأطفال ، بالاضافة إلى هذا فلقد كنت أخجل أن أصادق من لم أنشأ معهن .

لقد أصبح الفندق وشرفتى هى عالمى كله ، ولم يكن من اللائق أن أترك الفندق بمفردى ، وعلى أى حال ، فغير السوق لم يكن هناك أى مكان يمكن أن أذهب اليه . لم يكن من اللائق أن أذهب إلى السينما بمفردى . أما المقاهى فهى بالطبع للرجال فقط ، وكنت دائما بمفردى منذ الصباح حتى الغروب حين يعود أنور ليأخذنى « للتمشية » أو لنركب عربة حنطور تأخذنا إلى مطعم لنتناول العشاء . كنت أقرأ فى الصباح ، وبعد الظهر يصبح الرجال الذين يجلسون فى المقهى هم مسرحى ، وكنت فى شرفتى المتفرج الخفى المتحفز لما يقولون ويفعلون :

« كان الغداء اليوم متأخرا وسيئا ، يكفى هذا ، لقد طلقتها »

« لقد ملكتنى الفتاة الصغيرة التى قابلتها فى بيت إبن عمى ، ولكنى قررت

ألا أطلق زوجتى بعد ، فقد ترزق بولد ، سأخبرها الليلة أن زوجتى الجديدة ستنتقل لتعيش معنا » . وفى المساء عندما أعرض على أنور مسرحيات اليوم كان يقول لى : « جيهان ، هؤلاء الناس ليسوا متعلمين ، وبلا دراية بالحياة ، وهم غير هؤلاء الذين تعرفينهم فى المدينة ، إنهم يتحدثون بطريقة فجة ، ولكن الكثيرين منهم مؤدبون . أنصتى لكى تسمعى أصوات هؤلاء الذين يعاملون زوجاتهم وأولادهم معاملة حسنة » . واخذت بنصيحته وكنت أصغى باهتمام ولكنى سمعت رجلا واحداً فقط رفض أن يشارك فى لعبة الطاولة برهان ، لأنه فى حاجة إلى النقود ليصرفها على عائلته . وفى داخلى كنت اتميز غيظا من ذلك السلوك الذى يعامل به هؤلاء الرجال زوجاتهم ، وقد بدا لى أنه خطأ جسيم أن يكون الطلاق لديهم بمثل السهولة التى يشربون بها كوب ماء . وكثيرا ما كان هؤلاء الرجال يتحدثون عن زواجهم وكأنهم يتحدثون عن المصيف . كانوا يتحدثون وكأنهم يسألون انفسهم : « هل المصيف يروق لى ؟ فاذا كان يروق لى سأبقى فترة ما ، أما إذا شعرت بالملل فسأحاول أن أجد مكانا آخر » . لقد شعرت بالأسى من أجل هؤلاء الزوجات اللاتى يتوقف أمرهن على مزاج أزواجهن . هذا ليس عدلا . وكنت أستعيد فى ذهنى دائما تلك الاحاديث التى كنت أصغى اليها فى الزقازيق .

وحين عدنا إلى القاهرة قال لى أنور : « إنى تعس يا جيهان ، لقد عرفت الآن أنى لا أستطيع أن أكون رجل أعمال أو أن أعمل من أجل النقود فقط . إن مثل هذا العمل يلغى كل ما أسسته فى حياتى ، إنى آسف » . ولعل أنور اعتقد أن ما قاله كدرنى ، ولكن بدلا من ذلك شعرت بالحماس ، فقد كنت أكره مواعيد أنور فى العمل لأنها كانت تبعده عن المنزل لساعات طويلة ، فقد كنت تعودت على النظام المتبع فى أسرتى وغيرها من الأسر فى مصر ، وهو أن ينتهى العمل فى الثانية بعد الظهر ، ومنذ عودتنا من الزقازيق ساءت مواعيد أنور أكثر من ذى قبل ، فقد كان حسن يرسل زوجى للاشراف على مشروع مياه آخر يستغرق الوصول اليه ساعتين ونصف الساعة ، وقال حسن فى بادىء الأمر : « أترك جيهان فى القاهرة » . ثم غير رأيه وقال : « خذها معك » .

لم يرق لى الأسلوب الذى يعاملنا به حسن وكأننا مجرد ألعوبتين فى يديه ، وكأنه وحده الذى يستطيع أن يحرك الخيوط التى تسيطر على حياتنا ، وعرفنا إذ ذاك لماذا ساعدنا حسن على تحقيق زواجنا ، فبمشاركة أنور زادت مكاسبه إلى حد كبير ، ولكن برغم ثرائه الجديد فانه رفض أن يدفع لأنور ما يدين له به ، ولعله بذلك كان يجبره على الذهاب إلى الصعيد . كم كان حسن ماهرا ، فقد كان يعلم تماما أن ولائى لزوجته لن يتزعزع ، فقد كنت أحبها كأخت ، ومحاربة حسن تعنى قطع الصداقة الممتدة بيننا منذ فترة طويلة ، إذ أنه يجب على الزوجة أن تقف إلى جانب زوجها . وبسبب هذه الروابط الأسرية فاننا لم نكن فى وضع يمكننا من استعادة المال الذى يدين حسن به لأنور .

وقال لى أنور « إننى لن أتفوه بشىء ضده . إن عايدة إبنة عمتك ، ولكنك عندما تتوجهين إلى زيارتها الآن فعليك أن تذهبى بمفردك » . وقد ترك أنور العمل بعد شهر بالضبط من زواجنا مضحيا بأجره .

وقد اعتاد أنور من اللحظة التى تزوجنا فيها أن يسلم إلى مرتبه ، وكنت أنا المسئولة عن جميع النواحى المالية ، فلم يكن له القدرة على التعامل مع الأرقام ، بل إنه لم يكن يحمل محفظة حين كنا نخرج معا . وحين كنا نذهب إلى السينما أو لنتناول شرابا مثلجا ، كنت أسرب له النقود بمجرد أن يحين وقت دفع الحساب . وبعد أن ترك أنور وظيفته بمدة قصيرة عرفت أنه لن تكون هناك سينما ولا مشروبات مثلجة ، إلى أن يستطيع أنور أن يجد مصدرا آخر للحياة .

كنا مفلسين . وخلال الأشهر السبعة التالية كنت أوفر كل قرش فى الميزانية حتى يمكننا أن ندفع إيجار منزلنا فى الروضة ، وكان إثنى عشر جنيها فى الشهر ، وجنيهين لفاتورتى الكهرباء والمياه ، بالاضافة إلى عشرة جنيهات يدفعها أنور لأسرته الأولى ، لم يتبق لنا أية نقود للذهاب إلى المطاعم أو حتى لشراء الفاكهة . وشعرت بالجوع لأول مرة فى حياتى . وكنت أنا وأنور نسلى أنفسنا بالسير مسافات طويلة كل ليلة على شاطىء النيل ، وكهدية خاصة كنا نتشارك فى « سميطة » وعليها « دقة » وكانت تكلفنا قرشا واحدا .

وفى الوقت الذى كانت صديقاتى فى المدرسة ، كنت أغسل الملاءات واكنس الأرض وأغسل وأكوى بدل زوجى وقمصانه على يدى . كان شغل البيت كثيرا وكانت الرياح تأتى بالرمال والأتربة من الصحراء ، وما أكاد أكنس الأرض حتى تتكون طبقة جديدة من التراب . وكانت مشكلة شراء القليل مشكلة صعبة ، فلم يكن المصعد قد ركب فى العمارة وكان على كل مرة أعود فيها محملة باللفافات أن أصعد الدرج على قدمى إلى شقتنا فى الطابق العاشر .

كنت أريد العودة إلى المدرسة مع صديقاتى ، ولكن فى ذلك الوقت لم يكن يسمح للمتزوجات بالذهاب إلى المدرسة . وبدلا من ذلك حاولت أن أستذكر الدروس فى البيت ، ولكن كان ذلك صعبا على بسبب انشغالى بشئوننا المالية ، لم يردنى أنور أن آخذ أية نقود من أسرتى ولم أكن أرغب أنا فى ذلك .

وكان والدى يسألنى كل يوم حين يزورنى بعد انتهاء عمله : « هل أنت بخير يا ابنتى ، هل تحتاجين الى أى شىء ؟ » وكنت أجيبه وأنا أنظر بنهم إلى هدايا الفاكهة والخضروات واللحوم التى أحضرها لى : « عندى كل ما أحتاج اليه » . وكنا نعرف أن جميع مخاوفه أصبحت حقيقة ، ولكننا لم نقل أى شىء علنا حتى لانجرح شعور أنور ، وإذا كان زواجى معناه التضحية والمعاناة فليكن كذلك .

وكنت أقول لأنور كل صباح ، وأنا أضع أمامه طبق الفول المدمس والبيض : « كل أنت الآن وسآكل أنا فيما بعد » ، وفى بعض الأحيان كنت أعد لنفسى كوب شاى وأجلس معه حتى يذهب إلى قيادة الجيش محاولا أن يعود إليه مرة أخرى ، أو إلى مكاتب الصحف ليقدم طلبا للعمل فيها . وبرغم أنى كنت أخبره أن ليس لدى شهية للأكل فى الصباح ، وأنى أفضل الأكل فيما بعد ، إلا أنى لم أكن أتناول أى شىء حتى يعود فى المغرب ، إذ لم يكن لدينا ما يكفى .

ولم أحدث أى إنسان سواء من صديقاتى أو من الأسرة عن سوء وضعنا . وكنت أعرف أن بعض النساء يشاركن فى مشاكلهن حتى الحلاق ، ولكنى لم أكن

أفعل ذلك ، كانت مشاكلنا تخصنا نحن ونحن فقط ، وعلينا أن نتحملها ونحاول حلها . وكنت أدعى للجميع أن كل شىء على ما يرام ، وفعلا كان هناك ما يرام .

وفى أحد الأيام سألتنى صديقاتى وهن يزرننى : « هل يفتح زوجك خطاباتك ؟ » فضحكت قائلة : « لا إذ إعتدت أن أخبره على أى حال » ، فنظرن بعضهن إلى بعض بقلق وسألن : « هل يضربك حين تفعلين شيئا يسىء إليه » ؟ فقلت بتأكيد وقد شعرت بصدمة : « بالطبع لا » . وزاد القلق على وجوههن وتساءلن : « إذن كيف تعرفين أنه مهتم بك ؟ » .

وما أن حل شهر يناير حتى كانت نقودنا قد نفدت تماما ، وكان علينا أن ندفع إيجار البيت فى اليوم التالى ، وكذلك فاتورة البقال . وشعرنا بالقلق وعدم الاستقرار . وبرغم أن أنور كان قد قدم طلبا للعودة إلى الجيش فإنه كان يشك فى قبول طلبه . كان سجله كضابط وكمواطن مصرى رائعا . ولكن سجله فى أعين البريطانيين كان عكس ذلك بصفته ثائرا ، ماذا نفعل ؟ لقد بقى السؤال بلا إجابة حين خرجنا لنزهتنا المسائية وهى السير عبر كوبرى عباس الذى يصل الجيزة بالروضة .

وحين وصلنا إلى مقهى خلوى عند نهاية الكوبرى ، تقدم منا عراف وأخرجت من جيبى أحد القروش الباقية . . إذا كان العراف سيخبرنا بأشياء سارة فلعلها تزيل عن أنور شعور الحزن الذى يطغى عليه . وإذا أفضى إلينا بأخبار سيئة ، فلا يهم ، إذ لا يمكن أن تكون الأمور أسوأ مما هى عليه الآن .

وأخذ العراف يدى فى يده وتفرس فيها بعناية ثم نظر إلى عينى نظرة مركزة وقال : « إنك ستصبحين سيدة مصر الأولى » . . « سيدة مصر الأولى ؟ » لم تكن هناك مثل هذه الصفة ، وسألت العراف ، ولم أكن أعطى أية أهمية للسحر : « ماذا تعنى ؟ » وبرغم أن كثيرا من النساء المصريات ، بما فيهن عماتى وأختى ، يعتقدن فى السحر ، وكثيرا ما ذهبن إلى قارئة الفنجان أوبلوشوشة الودع ، فإنى كنت عملية ، فاذا كان العرافون يعرفون كل هذا فلم لا يقودون العالم ؟ لا أحد فى استطاعته أن يعلم المستقبل إلا الله .

وقال لى العراف « ستصبحين ملكة مصر » . . وغرقت فى الضحك . . ملكة مصر ؟ كل ما كنت أريده هو أجرة البيت ، ولكن العراف لم يكن قد انتهى بعد ، وقال « ستنجبين أربعة أطفال من بينهم ولد واحد ، وستسافرين إلى العالم كله » . . وشغلت عنه بما وقع ، إن الحظ قد أعطانى سحرا ، فلأول مرة منذ أيام رأيت أنور يبتسم .

ووجه أنور حديثه الى العراف بلطف رافضا قراءة كفه وقال : « لقد قرأت كف زوجتى ، وقد أعطيتنا مصيرنا » . ودق جرس التليفون فى اليوم التالى ، وكان المتحدث يوسف رشاد ، صديق أنور وكان الطبيب الخاص للملك . وكان حظنا حسنا لدرجة لا تصدق فقد رتب يوسف عودة أنور إلى الجيش .

أكان هذا سحرا ؟ أم إرادة الله ، ومثل لعبة اللوحات المجزأة كانت جزئيات حياتنا الدقيقة تتجاور نحو تكملة الصورة . لم يكن هناك أى أمل فى عودة أنور إلى الجيش لولا العمل الطيب الذى كان أنور قد قدمه إلى يوسف رشاد فى الصحراء منذ ثمانى سنوات . فقد قابل أنور الطبيب الشاب حين كان مع فرقته فى معسكر بين الاسكندرية وحدود ليبيا ، كان رشاد قلقا على إبنه الصغير الذى كان مريضا بالتهاب رئوى ، وكان يريد أن يتصل ببيته تليفونيا . وكان أنور ضابطا فى سلاح الاشارة ولديه جميع التليفونات فى خيمته ، فتبادل الخيمة مع الدكتور رشاد حتى يستطيع أن يستعمل التليفون فى أثناء الليل ، ولم ينس رشاد هذا العمل الانسانى أبدا .

وسرعان ماجاء جزء آخر من اللغز ، فبعد الحرب كان الملك فاروق يسرع بسيارته فى الطريق الصحراوى من قصر رأس التين فى إحدى سيارات السباق العديدة فتصادم مع لورى بريطانى ، وأسرع الملك إلى أقرب مستشفى حيث كان يوسف رشاد نوبتجيا ، وتأثر الملك فاروق بالعناية الطبية التى تلقاها من يوسف ، فعينه فى حاشيته واتخذه كبير أطبائه . وهكذا نزلت جزئية أخرى فى مكانها ، وأصبح رشاد الآن فى موقع سلطة من العرش ، وشعر أن عليه دينا لأنور .

وفى يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ قال رشاد لأنور : « إذهب وقابل الفريق محمد حيدر باشا » . . وذهب أنور لمقابلة قائد القوات المسلحة ، الذى صرخ فى سكرتيره قائلا « يعود هذا الولد الى الجيش من اليوم » ، وعاد أنور مرة أخرى الى الجيش برتبة نقيب .

كان مرتب أنور فى بادىء الأمر ضئيلا ، مجرد أربعة وثلاثين جنيها فى الشهر واستمرت المعاناة ، ولكن على الأقل صار لأنور ولى حياتنا معا دون تدخل أشخاص من الخارج مثل حسن . وكانت هناك مزايا أخرى ، فقد كان الجيش المصرى يوفر لضباطه سيارة وسائقا وحتى مراسلة . ولما كان الجيش هو أكبر هيئة فى الدولة ، فقد كان يدفع لخريجى الكلية الحربية مرتبا يفوق مرتبات الخريجين الآخرين .

ولم يكن جيش مصر هو أكبر جيوش الدول العربية فحسب بل كان أكثرها تمتعا بالاحترام . وكان القبول كضابط فى الجيش من أحلام كثير من الشبان المصريين ، إذ أن لمثل هذا المركز مكانة خاصة فى مجتمعنا ليس من السهل الوصول إليها . لقد كان ضباطنا يلاقون تكريما كبيرا لدرجة أن مجرد وجودهم فى الزى الرسمى يثير إهتماما خاصا من جانب الناس سواء فى الشوارع أو المقاهى أو الحوانيت ، كان الجميع يحترمون ضباطنا .

لم يصدق أنور حظه السعيد ، فقد كانت فكرة أن يكون ضابطا تسرى فى دمه . كانت صورته عن نفسه هى أنه حامى مصر مرتديا الزى العسكرى لجيش مصر ، متتبعا أحلامه حول استقلال مصر . ولم تكن هناك وظيفة أخرى تشبعه ، وسعدت أنا أيضا ، فقد أصبح مستقبلنا مضمونا .

واتصل احد اصدقائه القدامى به تليفونيا وكان زميله فى الدراسة فى الكلية الحربية ، وهو عبد الحكيم عامر وقال له : « مبروك » واتصل ايضا جمال عبد الناصر ليهنئه .

وزاد حظنا السعيد مرة أخرى حين أرسل إلى العريش ورفح فى سيناء بعد

أن أمضى فترة قصيرة فى مأموريات فى الاسماعيلية والقنطرة ، وكانت سيناء تعد من المراكز النائية ومن ثم أصبح مرتب أنور مضاعفا ، يا لراحة البال ! لم يكن علينا دفع أية إيجارات أو فواتير كهرباء أو حتى فواتير الطعام ، فكل المستحقات كان الجيش مسئولا عن سدادها ، وأصبح فى استطاعتنا أن نبدأ فى توفير جزء من المرتب ، واحتفالا بهذا الرخاء الطارىء ، قررنا شراء سيارة فوكسهول بعد أن اقترضنا نصف ثمنها .

وحين ذهب أنور إلى سيناء توجهت للاقامة مع والدى ، إذ أنه برغم أنى امرأة متزوجة لم تسمح التقاليد أن أعيش فى شقتنا بمفردى . وكنت مصممة على تكملة دراستى الثانوية . ولما لم يكن مصرحا لى بالعودة إلى المدرسة فقد بدأت أتلقى دروسا خصوصية فى البيت . وبذلت مجهودا كبيرا لأعوض ما فقدته . وكنت حين تزوجت قد أتممت ثلاثا من السنوات الدراسية الأربع . ولكن الامتحان النهائى كان لا يدور حول ما درسناه فى السنة الأخيرة فقط بل مقرر السنوات الأربع كلها . وبالاضافة إلى منهج إدارة المنزل درست الهندسة والعلوم والجبر حتى أستطيع أن ألتحق بالجامعة . كنت أقضى اليوم كله منكبة على الكتب . كنت أشعر بالوحدة فى الليل وبالشوق إلى أنور ، وكنت أقرأ ثم أعيد قراءة الخطابات التى كان أنور يرسلها إلى ويشجعنى فيها على الدراسة ، وقبل شهر واحد من بدء الامتحان لحقت بأنور فى رفح لأول مرة فى البيت الصغير الذى عثر عليه لنا .

كان البيت جميلا قائما وحده فى الصحراء ، ولم يكن أنور اجتماعيا ، ولذلك فقد طلب الاذن بأن يعيش خارج المعسكر حيث يعيش بقية الضباط . وفى سن السابعة عشرة كنت لا أزال خجولة ولذلك فقد رحبت بهذا الابتعاد . كنت أنا وأنور فى صحبة بعضنا بعضا ، وكنا فى المساء نقوم بالسير مسافات طويلة فى الصحراء ، وفى يوم الجمعة كنا نعد الطعام ونذهب إلى الشاطىء ، وكان حديثنا دائما حول التاريخ والسياسة . وأحيانا كان أنور يذهب إلى الصحراء للصلاة حيث كان يشعر أنه أكثر قربا إلى الله وسط هذا الهدوء الطبيعى .

وزاد اقترابنا من بعضنا ، وأصبحت قوتانا المنفصلتان قوة عظيمة واحدة ، وكان أنور يميل إلى التأمل ، وكان يفقد نفسه فى التأمل العميق . أما أنا فكنت مرحة وبقلب مفتوح ، وكثيرا ما كنت أنجح فى أن أخرج به من تفكيره العميق ، وأحيانا أخرى أفشل . كنت أعرف حاجته بمجرد مراقبة وجهه . وحين كنت أشاكسه كانت سحب يأسه تتبدد فى ثانية واحدة ، فيتحول وجهه الداكن الى وجه ملىء بالاشراق والضحك .

وكنت أحيانا لا أستطيع أن أتغلغل فى ذلك الوجوم مهما حاولت ، وكان يقول لى بلطف « جيهان . . لابد أن افكر » وفى الحال كنت أنسحب محترمة انفراده .

وكنت أعود إلى بيت والدى فى القاهرة مدة أسبوع كل شهر ، وذلك فى الشتاء حين تشتد البرودة فى الصحراء . وكانت القاهرة تبدو مليئة بالكماليات اذا ما قيست بحياة الشظف التى كنا نحياها فى شمال سيناء . وحين يكون أنور فى إجازة كنا دائما نذهب إلى إحدى دور السينما فى وسط البلد ، حيث نشاهد فيلما من الثالثة الى السادسة بعد الظهر ، ثم نذهب مباشرة لمشاهدة فيلم آخر من السادسة الى التاسعة . ولم تكن هناك مطاعم فى منطقتنا فى سيناء ولذلك كنت لا أمل من الذهاب إلى المطاعم أثناء وجودى فى القاهرة . لقد فشلت تماما كطاهية فى رفح ، وكان ما أطهوه المرة بعد الأخرى غير قابل للأكل مما دعا أنور إلى إحضار طباخ لكى لا نموت جوعا . ومن حسن الحظ أن أنور لم يكن مهتما بالأكل ، ولذلك لم يشعر مطلقا بالضيق من محاولاتى الفاشلة فى المطبخ .

وحين كنت فى سيناء مع أنور صدمت لما رأيت . لقد تركت الحرب آثارها فى كل مكان وعلى كل شخص ، وكنت أينما ذهبت أشاهد الفلسطينيين الذين أجبروا على ترك بلدهم بسبب إقامة دولة إسرائيل ، والقتال الذى دار فى سنة ١٩٤٨ . وكانت الامهات ، وقد ارتدين الملابس السوداء ويحملن أطفالهن ، يجلسن القرفصاء فى سكوت على طول الطريق فى المدن وحول الأسواق فى رفح والعريش وغزة ، لقد أصبح أكثر من مليون عربى فجأة بلا مأوى ، معتمدين على

مساعدات الأمم المتحدة لمجرد الحياة . لقد كانت نظراتهن الخاوية والمعاناة المرسومة على وجوههن تحطم قلبي وهن يحملن السلال فى انتظار الطعام .

لقد كانت غزة فى ذلك الوقت نموذجا للتباين ، فعلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط وعلى بعد ١٦٠ ميلا شرقى قناة السويس كانت غزة دائما مصيفا جميلا لسكان الجنوب الذين يعيشون فى حر الصحراء . كانت العائلات الغنية فى الدول العربية تأتى كل سنة لتستمتع بالمياة الزرقاء العميقة ، وليأكلوا السمك الطازج المتوفر بكثرة ، وليستمتعوا بالخضراوات والفواكه ، واللوز الأخضر ، وكلها كانت تنمو بغزارة بجوار البحر . والآن لم يعد لها وجود . وكنت أنا وأنور نذهب فى عربة جيب عسكرية إلى السوق فى غزة ، وبرغم أن الطريق إلى غزة كان لا يزال جميلا ، فانه أصبح منظرا باعثا على اليأس .

كانت معسكرات اللاجئين مصطفة على طول الطرقات ، والخيام قريبة بعضها من بعض ، حتى لتبدو كأنها مدينة للخيام . كنت أشعر بالقلق من النيران التى تستعملها النساء للطهو ، فلو اشتعلت النار فى واحدة ستشتعل فى كل الخيام . وكانت هناك مدرسة مؤقتة أقيمت فى الخلاء ولكن معظم الاطفال كانوا يتجولون بلا هدف بين الخيام وبلا عمل . وكنا نرى فى كل مكان مجموعات من الرجال وقد جلسوا على الأرض . يقضون وقتهم فى لعب « السيجة » ، وهى تلعب بالحصى فى رسم على الرمال . وعلى هذه الخلفية كانت النساء المتشحات بالسواد يسرن ، وهن يحملن الحطب وأوعية المياه فوق رؤوسهن .

وسألت طاهيتنا وهى فلسطينية من أحد معسكرات اللاجئين : « هل أسرتك بخير ؟ » فنظرت إلى الأرض وقالت بهدوء « إن الأمور ليست كما كانت » ، فدفعتها إلى الحديث وأنا أشعر بالاعجاب لجبهتها العالية وعينيها الواسعتين اللتين تميزان الفلسطينيات وقلت « أخبريني » . فقالت ببطء وكأنها لا تريد أن تتذكر « من المعسكر تستطيعين أن ترى قمم أشجار الليمون والبرتقال فى مزرعتنا القديمة . كانت أراضينا دائما خضراء ودافئة ، ولكن هنا فى الصحراء كل شىء بارد ، وفى الليل ننام فى خيمتنا ونقترب بعضنا من بعض لنشعر بالدفء » ،

وارتعدت وجلست أفكر فى الامطار التى تدق على السطح الألومنيوم فى منزلنا فى بعض الليالى مما يدفع النوم عن عينى ، وفى ليالى الشتاء فى الصحراء وبرودتها التى لاتحتمل . وفكرت أيضا فى العقارب التى تعيش فى الصحراء . لقد لدغت واحدة منها أختى حين جاءت لزيارتى أنا وأنور ، وبعد أن نقلناها إلى المستشفى العسكرى للعلاج قضينا ليالى عديدة ننام على أسرتنا بعد أن أقمنا أرجلها فى اوعية مليئة بالماء . أما الفلسطينيون فلم تكن لديهم أية اسرة ، وإنما قليل من الأغطية ، وليست هناك أية مستشفيات لعلاجهم .

وضغطت عليها وسألت « أخبرينى عن زوجك ، ما عمله ؟ » ونظرت المرأة إلى الأرض وقالت : « فى بلدنا كان فلاحا ، أما هنا فلا يوجد ما يفعله . وهو يقضى يومه فى لعب السيجة مع الآخرين » . فقلت لها بدهشة « إذن أنت وحدك التى تعملين » .

فهمست « نعم » .

وفى تلك الليلة أرسلتها إلى خيمتها ومعها أغطية من منزلنا وأثنتى عشرة بيضة كنت قد اشتريتها من نساء بدويات كن يأتين كل يوم من الصحراء لبيع منتجاتهن إلى المعسكرات الحربية .

وفجأة بدت ممارستى لشغل الابرة والطهو عبثا . لم أستطع أن أبعد النظر عن معاناة هؤلاء الناس الذين يجمعنى معهم دين واحد ولغة واحدة وتاريخ واحد . نظرت إلى النساء وقد هدهن الاعياء من نضالهن من أجل عائلاتهن ثم نظرت إلى نفسى ، نظرت إلى الأطفال بنحافتهم وتهدلهم ، نظرت إلى هؤلاء الناس المطرودين من منطقة لايمكنهم أن يطلقوا عليها إسم الوطن ، أدركت أنه برغم كل مشاكلنا لا أستطيع أن أعيش بدون مصر ، وبدا لى كل ما حولى وكأن نسيج عالمى قد راح يتفسخ ويتمزق .

لم يكن اللاجئون الفلسطينيون وحدهم ضحايا الحرب ، فقد قاسى المصريون أيضا . وبينما قضى أنور فترة الحرب الفلسطينية فى حالة من الاحباط

فى الزنزانة رقم ٥٤ إلا أن إحباطه كان أكبر من أجل زملائه من الضباط فى الجبهة ، فقد كانت الاسلحة التى سلمتها لهم الحكومة أسلحة فاسدة ، وكانت خطوط التموين غير موجودة ، والاستراتيجية العسكرية غير واضحة ، وكان زميل أنور جمال عبد الناصر يكتب له مؤخرا عن البلدة التى كان يدافع عنها . إن ما كان يحدث فى الفالوجا هو نفسه ما كان يحدث فى مصر ، هى أيضا كانت محاصرة بالصعوبات ، كما كانت فريسة للعدو ، هى أيضا كانت فريسة لعمليات الخداع ، وقد دفع بها إلى حرب لم تكن مستعدة لها . إنه الجشع والتآمر والاندفاع الأهوج الذى أتخذ منها لعبة أيضا ووضعها فى مواجهة النيران بدون أسلحة .

وكان التذمر من الملك فاروق يتزايد بسرعة بين العسكريين والفلاحين والجميع . وبدا الملك وكأنه غير مكترث بما انتهت إليه الحرب من هزيمة ، يقضى فى الحفلات بالقصور الملكية والفيلات والاستراحات الملكية أكثر مما يقضى فى تدبير شئون الدولة ، وأصبح من الواضح أن مشاكل مصر لم تفقده شهيته ، كان يأكل ثلاثين بيضة فى الافطار ، وفى العشاء كان يتناول ستة أطباق أو سبعة من اللحوم والخضروات . وكان يشرب فى اليوم الواحد ثلاثين زجاجة من المياه الغازية أو العصير . لقد زاد وزنه وثقل إلى درجة أصبح يتحرك معها بصعوبة ، وصنعت له مقاعد خاصة ليجلس عليها فى قصوره .

كانت تلك المبالغات وعدم القدرة على ضبط النفس تثير فينا شعور الخجل فى مصر وللحق كان سلوك الملك العام مخجلا . كان يحضر حلاقين بالطائرة من أوروبا ليقصوا له شعره ، وحين كان يذهب إلى شاطىء البحر كانت له أخصائية « مانيكور » لكل يد من يديه . والقرآن يمنع المسلم من المقامرة ولكن الملك المسلم كان يذهب إلى كازينوهات القمار بصفة دائمة . وفى مونت كارلو كان يلعب لعبة الحظ بآلاف من الدولارات ويخسر خمسين الف دولار فى الليلة الواحدة . وفى الاسكندرية كان يذهب إلى الكازينوهات المخصصة للأجانب حيث كانت خسارته أقل ، ولكن زياراته كانت كثيرة ، وفى الشتاء حين كان ينتقل إلى القاهرة كانت السيارات الملكية تشاهد كل ليلة أمام ناد ليلى حيث كان يشرب علنا ويراقص الفتيات .

وفى ذلك الوقت الذى نما فيه الشعور بالوطنية كان فاروق يهاجم بأنه أجنبى ، وكان من المعروف أنه يفضل التحدث بالفرنسية أو الانجليزية بدلا من العربية . وكان يصادق دائما الأجانب فى نادى الجزيرة وكان أقرب صديق له « مشهلاتى » إيطاليا ، ولما كان فاروق من أصل غير مصرى فقد كان يحاول دائما أن يثبت أنه من سلالة النبى محمد ولكنه فشل فى ذلك . وحين طلق زوجته الملكة فريدة لأنها لم تنجب له ولدا تصاعد الاستياء ضده . لقد كان تراث جده محمد على أول حاكم لمصر يتمثل فى وضع نظام تعليمى للدولة وإرسال البعثات الى الخارج . وكان محمد على أول من أحدث ثورة فى الزراعة ، وبدأ باقامة الصناعات الوطنية ، وأول من بنى جيشا قويا ، كان فاروق يعمل ضد هذا التراث الشامخ على طول الخط .

وكانت هناك قوى تنادى بالتغيير فى اقصى اليمين ، وبحماس ، أقل فى أقصى اليسار . وكان الملك يحارب الوفد ، الحزب الذى يرأسه مصطفى النحاس باشا ، من أجل السيطرة . وكان الوفد يحاربه ويوزع الوظائف على أتباعه ، وكان شعور معاداة البريطانيين فى تصاعد مستمر ومن أجل تخفيف عداء المصريين المتزايد انتقلت القيادة البريطانية عام ١٩٥٠ من القاهرة إلى السويس ، وأزيلت الثكنات التى كانت تغطى مساحة كبيرة فى وسط البلد ، كما اختفت إلى حد ما البدلة العسكرية البريطانية . وكانت القوات البريطانية فى القاهرة قد نصحت بارتداء ملابس مدنية بدلا من العسكرية .

لم أكن أتصور أن أنور لم يكن بطريقة ما مرتبطا بالقلق المتزايد . وكنت على حق ، فبينما كنت أستذكر دروسى فى القاهرة استعدادا للامتحان ، وفى نفس الوقت أزور رفح من وقت الى آخر ، وذلك فى عام ١٩٥١ ، كان جمال عبد الناصر قد أعاد قيد أنور فى صفوف الضباط الأحرار ، وهم مجموعة من الضباط كانت ترتب لاسقاط الحكومة ، ولم يخبرنى أنور بأى شىء متذكرا القسم الذى أخذه مع والدى بألا يعود إلى السياسة .

وفى نوفمبر عام ١٩٥١ زاد الخلاف بين البريطانيين والحكومة ، وتحت

ضغط الوطنية المتزايد قام رئيس الوزراء مصطفى النحاس بالغاء المعاهدة المصرية الانجليزية التى كانت قد وقعت عام ١٩٣٦ ، والتى سمحت لأنور وزملائه الثوريين بأن يصبحوا ضباطا . وكان معنى إلغاء المعاهدة للكثيرين أن البريطانيين لم يعد لهم حق فى بقاء ثكناتهم العسكرية فى مصر ، ورفض حوالى مائة ألف مصرى يعملون مع القيادة البريطانية الذهاب إلى عملهم . وتوقف مهندسوا السكك الحديدية عن قيادة القطارات التى تحمل الجنود البريطانيين ومؤنهم ، ولم يجد عمال الجمارك الوقت للتصريح بخروج البضائع التى طلبها البريطانيون من الخارج ، وحتى التجار ألغوا ارتباطاتهم مع البريطانيين ، وفى الشوارع بدأ المصريون يتحرشون بالبريطانيين الذين يقفون فى طريقهم .

أما فى منطقة القناة فى السويس والاسماعيلية وبور سعيد ، فقد تزايدت الاعتداءات ضد المعسكرات البريطانية . ولم يستطع الجيش المصرى أن يشارك رسميا فى هذه الأعمال ، ولكن أنور وبعض الضباط الآخرين كانوا يزودون الفدائيين بالأسلحة ويدربونهم ، وقام هؤلاء الفدائيون بدورهم فى التنغيص على البريطانيين ، وبعد ثلاثة شهور من القتال ، قام البريطانيون بقطع خطوط المواصلات بين السويس وبقية أنحاء البلاد ، ونجحوا فى عزل منطقة القنال بأكملها .

ومالبث البريطانيون أن تمادوا فى تصرفاتهم ، ففى يناير ١٩٥٢ ردوا على هجمات الفدائيين بمحاولة احتلال الاسماعيلية ، وقامت القوات البريطانية المسلحة بالمدافع الرشاشة باصدار أوامرها إلى قوات الشرطة المصرية بتسليم أسلحتهم وترك المدينة . وبالرغم من أن المصريين كانوا يحملون أسلحة صغيرة قليلة العدد فان الحكومة أصدرت لهم الأوامر بالمقاومة . ولم يظهر البريطانيون أية رحمة بل قاموا بمذبحة قتلوا فيها خمسين من رجال الشرطة وجرحوا عدداً كبيراً منهم . وفى اليوم التالى ٢٦ يناير شب حريق القاهرة .

يا له من منظر فظيع فظيع ! سمعت صوت إنفجار وأنا فى حجرة نومى فى بيت والدى بالروضة ، ثم صوت انفجار آخر ثم آخر ، وهرعت مع والدى الى

سطح البيت لنشاهد سحبا من الدخان الأسود والسنة من النيران تغطى المدينة ، وحتى نهر النيل بدا مشتعلا بسبب انعكاس النيران فوقه . كان شيئا مخيفا أن نشاهد المدينة تحترق دون أن نعرف لماذا . وجعلت أهرع جيئة وذهابا فوق السطح وقد تزايدت الانفجارات وألسنة النيران وبدا كأن البلد كلها ، وليست القاهرة فقط ، تشتعل فيها النيران ، ما الذى يحدث ؟ هل نحن معرضون لهجوم من جانب دولة أجنبية ؟ أم هل هذا بداية إنقلاب ؟ .

علمنا من الاذاعة أن مابدا كمجرد مظاهرة طلابية ضد الحكومة والملك تصاعد إلى شغب واسع النطاق ، وجعلنا نراقب ما يحدث طول اليوم من فوق سطحنا ، بينما استمرت الانفجارات والنيران دون محاولة للسيطرة عليها حتى المساء تقريبا . لماذا لم تحاول الحكومة أن تضع حدا لتلك الفوضى ؟ لم يستطع رجال الشرطة أن يفعلوا شيئا ، لأنهم كانوا مضربين فى ذلك اليوم احتجاجا على قتل زملائهم فى الاسماعيلية ، وكانوا غاضبين لأن الحكومة أسلمتهم لقمة سائغة وبدون حماية الى العدو البريطانى . ولكن بدا أن الحكومة لم تفعل شيئا ، وقد اكتشفنا فيما بعد أن الملك فاروق كان مشغولا فى تكريم إبنه ووريثه الذى ولد حديثا والذى أسماه فؤاد وذلك فى غداء لستمائة ضيف ومن ثم لم يهتم بالتقارير التى وصلت إليه عن الفوضى .

وفى ذلك اليوم الذى أطلق عليه فيما بعد اسم « السبت الأسود » ، انطلقت جماهير المصريين فى وسط القاهرة ينهبون المحلات ويحرقون الأبنية واصبح كل ماهو مرتبط بالأجانب هدفا لاشعال النيران ، لقد أحرقت سينما ريفولى وسينما مترو والمحلات التى يمتلكها اليهود ومعرض سيارات فورد وبنك باركليز .

اما محلات بيع المشروبات الروحية والبارات والمطاعم المعروفة فى وسط البلد سيسيل وسانت جيمس والارميتاج ـ فقد احرقت جميعا وتغير لون النيران وزادت شدة حين انفجرت زجاجات الخمر التى كانت قابعة فوق رفوف هذه المحلات وقد قتل الأجانب القليلون الذين شاء سوء حظهم أن يكونوا موجودين فى نادى « الترف » وقد ادعى البعض أنهم شاهدوا شبابا يركبون دراجات بخارية

ويسرعون بها فى شوارع القاهرة مشعلين النيران من مكان الى مكان ، والبعض يقسم أنهم شاهدوا رجالا فى سيارات جيب محملة بالمشاعل وبراميل الجازولين .

وكان آخر ما أحرق فندق شبرد العالمى الذى كان فى وقت ما القصر الذى أقام فيه البك التركى . ولم نزر أنا وأنور هذا الفندق مطلقا لأنه كان مرتفع الأسعار بالنسبة لنا . وكانت شرفته المكان المفضل للضباط البريطانيين ، وكانت حجرة احتفالاته ـ وهى من طراز لويس الرابع عشر ـ المكان المفضل لكثير من الحفلات التنكرية التى كان السياح الاجانب يرتدون فيها ملابس مصرية . وقال البعض إنه فى يوم « السبت الأسود » حين وصل رجال المطافىء لانقاذ شبرد من ألسنة النيران قام المشاغبون بقطع خراطيم الماء بالمطاوى .

وما أن حل المساء حتى كان أربعون شخصا قد قتلوا بينما جرح كثيرون . وقد وصلت الجماهير إلى بعد ألف ياردة من قصر عابدين . وفى النهاية فرضت الحكومة حظر التجول ، وأرسلت قوات الجيش لتضع حدا للحرائق والدمار فى الشوارع . واتصل بى أنور من رفح ليتأكد أننا جميعا بخير وقال : « أرجوك ياجيهان أن تكونى حذرة ، لاتخرجى حتى تهدأ الشوارع تماما . لا أحد يعرف حتى الآن معنى هذا الشغب » .

وفى صباح اليوم التالى علمنا أن الشغب لم يكن مقدمة لانقلاب لأنه لم تحدث أية محاولات للاستيلاء على السلطة ، ولكن حريق القاهرة كان منظما بدرجة لايمكن معها أن يكون تلقائيا . من الذى آثار الشغب ، لم يعرف أحد ذلك بصفة مؤكدة ، لقد أبدى البعض شكوكهم تجاه الشيوعيين ، وهو التعبير الذى نستعمله فى مصر للماركسيين والمتعاطفين مع الاتحاد السوفيتى واعضاء الجماعات المناهضة للغرب . وكان البعض يشك فى الاخوان المسلمين ، بل إن البعض أبدى شكه فى الملك نفسه . ولكن حين كانت آخر السحب القاتمة لا تزال فوق القاهرة كان هناك تأكيد موحش بأن نهاية عهد فاروق أصبحت وشيكة . ولم يعد المصريون يسألون هل ستسقط الحكومة ؟ السؤال الوحيد كان : متى ؟

لقد حفر يوم حريق القاهرة الكبير بحروف من نار فى ذاكرة مصر وغير مجرى التاريخ . لقد انفجر السخط على الحكومة وهز العرش نفسه .

وكان يوسف رشاد ، الذى لم يكن يعرف أن أنور ينتمى إلى جماعة مناهضة للملك ، قد افضى اليه بأن الشعب قد أخاف الملك إلى درجة أنه كان يستعد للهرب من البلاد . ودفع ذلك الضباط الأحرار إلى أن قدموا تاريخ القيام بالثورة من عام ١٩٥٥ الى نوفمبر ١٩٥٣ أى بعد عام واحد .

كان يوسف رشاد من أهم الشخصيات فى حياة أنور فى ذلك الوقت ، وإن كنت لم أعرف ذلك فى حينه . فقد عين الملك أخيرا يوسف رشاد رئيسا للمخابرات الملكية مما أقام قناة إتصال مباشرة لأنور مع القصر . كان أنور مصمما ألا تفشل عملية الضباط الأحرار ، ومن ثم فقد كان يستغل يوسف رشاد فى نقل معلومات خاطئة إلى الملك . كان ذلك ضروريا . فبعد حريق القاهرة كانت الشائعات منتشرة فى كل مكان عن قيام ثورة ، وقال البعض إن الاخوان المسلمين هم الذين سيقودونها ، بينما قال البعض إن الجيش هو الذى سيتولى الحكم . وكان فاروق يحاول أن يتحرى هذه الاشاعات مما وضع أنور وزملاءه فى موقف صعب . واتقاء لاحتمال اعتقاله هو وزملائه فى أى وقت ، بدأ أنور فى مايو ويونيو من عام ١٩٥٢ فى السفر إلى الاسكندرية حيث كان يوسف يقضى الصيف مع الملك ، وكان أنور يؤكد ليوسف أنه لا يجب على الملك أن يخاف من ضباط الجيش ، لقد كانت الاشاعات بلا أساس .

كنت فى الاسكندرية مع أنور فى أوائل يوليو حين تم أحد لقاءاته مع يوسف . كنا قد قضينا يوما جميلا على شاطىء البحر ، وكنت راضية تماما وأنا أنتظر فى السيارة حين أخبرنى أنور أنه يريد أن يتبادل حديثا سريعا مع يوسف فى نادى السيارات ، وهو أحد أندية الاسكندرية الفخمة ، وحين عرف يوسف أنى أنتظر فى الخارج فى السيارة ، صمم على أن نتناول معه العشاء . وقد سعدت بهذا إذ كنت أشعر بجوع شديد بعد يوم فى الهواء الطلق ، وكنت أحلم بعشاء من الجمبرى المشوى الذى يجود فى البحر الأبيض المتوسط . وبعد فترة وجيزة من

جلوسنا دخلت مجموعة أخرى وجلست على المنضدة المجاورة وفى الحال شعرت بحركة غير عادية ، ونظرت فاذا بى أحملق مباشرة فى وجه الملك فاروق .

وجاء أحد أعوان فاروق الى منضدتنا وقال للدكتور يوسف رشاد إن صاحب الجلالة يطلب منك أن تنضم اليه . وتجمدت إذ لابد أنه يسأل عمن معه ، وأردت أن أنظر إلى أنور وأقترح عليه أن نترك المكان .

وحين إنضم يوسف إلينا مرة أخرى قال بطريقة لا مبالية « لقد أراد الملك أن يعرف مع من أجلس ، فقلت له : إنكما من أصدقائى » . وأحسست بخوف شديد ونظرت إلى الجمبرى وقد فقدت كل رغبة فى تناوله .

« دكتور رشاد . . يريد الملك أن يتحدث اليك » ، وهكذا طلبه الملك مرة ثم مرة أخرى . وفى كل مرة يستدعى الملك رشاد كان أنور يزداد إنفعالا ، وكنت أعتقد أنه قلق بسببى ، ولكننى عرفت فيما بعد أن قلقه كان خوفا من أن يربطه الملك بالشائعات التى انطلقت حول المؤامرات بين ضباط الجيش . فقد كان أنور يعرف أن بعض التقارير قد قدمت ليس عن الضباط الأحرار فقط ، بل عنه هو شخصيا ، وكان آخر ما يريده الآن هو أن يجذب اهتمام الملك .

وقال لى أنور بعنف : « أسرعى بالأكل يا جيهان ، إذ يجب أن نذهب » . ولكننى لم أستطع الأكل . وبمجرد ان انتهى العشاء تركت النادى لكى نعود بالسيارة إلى القاهرة . ولم يتحدث أنور إلا قليلا ، فقد كان مشغولا بمخاوفه . ولم أتحدث معه كثيرا إذ لم أكن أرغب فى أن أزعجه ، فقد كان لديه ما يزعجه من قبل .

وعاد أنور ذات ليلة الى فرحا وأحسست بالراحة وأنا أذهب إلى بيت والدى . ومرة أخرى تأكد أن الحكومة تسير مسرعة نحو الانهيار . ففى الشهور الستة منذ يوم السبت الأسود ، قام الملك بطرد حكومة ، وقدمت حكومتان استقالتهما . . وفى ٢٠ يوليو قدمت حكومة الملك استقالتها مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع فقط من تشكيلها ، وترددت الاشاعات بأن الحكومة التى كونها فاروق

لتحل محل الحكومة المستقيلة سيرأسها عديل الملك اسماعيل شيرين الذى كان يرتدى بذلة الضابط وإن كان لم يتخرج من الكلية الحربية . وشعر رجال الجيش بالضيق من فكرة تعيين شيرين . . وأكدوا أنهم لن يقبلوا ذلك أبدا .

واتصل بى أنور تليفونيا من رفح فى يوم ٢٢ يوليو ، وقال « جيهان . . إنى قادم فى إجازة » . . فى اجازة ؟ لقد كان فى إجازة من مدة قريبة وقدم لى الشرح قائلا « إن أمى مريضة » . . أمه مريضة ؟ كنت قد زرت فى ذلك اليوم ست البرين فى بيتها ووجدتها فى صحة جيدة . ما هذا الغموض ؟ وذهبت لمقابلته فى محطة السكك الحديدية . وبمجرد أن وصل قال لى « دعينا نذهب إلى شارع الهرم » وبينما كنا نطوف بالسيارة سألنى ونحن فى وسط الصحراء « جيهان . هل تذكرين الوعد الذى أخذته على نفسى أمام والدك بألا أتدخل فى السياسة » فأجبت وأنا أنظر بحب استطلاع إلى زوجى ، وكان يدخن السيجارة بعد السيجارة : « طبعا » ، فقال بسرعة : « حسنا إنى فى الواقع لا أعمل فى السياسة ولكن أحيانا أجلس مع بعض أصدقائى ونتحدث فى السياسة ثم ينتابنى شعور بالجرم » ، ثم أضاف بسرعة : « أتفهمين ، إنى لا أعمل فى السياسة وإنما مجرد مشاركة بأفكارى مع أصدقائى » .

ولم أدهش بالمرة ، والواقع إنى أحسست بالراحة وأجبت فى الحال وان كنت شعرت أن أنور لا يقول الحقيقة كاملة : « إذا لم تشارك بآرائك السياسية مع أصدقائك ، فلن تكون السادات الذى تزوجته ، لقد كنت وطنيا غيورا فكيف تتوقف فجأة ؟ » .

فقال أنور وعيناه مركزتان على الطريق : « ولكنى وعدت أباك وعدا لم أحفظه تماما » . ومددت يدى لألمس ذراعه وقلت له : « أنور ، إن والدى طلب منك ذلك بسببى وأنت أعطيت وعدك من أجلى ، إن كلا الوعدين كانا من أجلى . ولكن لم يسألنى أحد عن رأيى » .

فسأل أنور بهدوء « إذن ماذا تقولين ؟ » .

لم أتردد فى الاجابة إذ كنت أعرف أهمية إجابتى ، من الصعب أن نكسر وعدا بين قريبين ، وهما الآن أبى وأنور ، فقلت : « إن معظم الزوجات لا يرغبن فى أن يعيش أزواجهن فى خطر ، أو أن يجازفن بأمانهن بسبب دخول أزواجهن السجن . ولكنك لست زوجا عاديا ، وأنا لا أريدك أن تكون كذلك . إن أنور الذى وعد أبى لم يكن أنور الذى تزوجته ولا أنور الذى يتحدث الآن ، إن ما فعله والذى كان واجبه تجاه إبنته . ولكنى الآن زوجتك ، لا تحاول حتى التفكير فى ذلك الوعد » .

وفى الحال بدأ أنور فى الاسترخاء واقترح « لنذهب إلى السينما الليلة مع والديك » . كان غريبا كيف استطاعت كلمات قليلة أن تزيح مثل هذا العبء الثقيل عنه ؟ ولكن لم أكن أعرف حتى الآن لماذا عاد إلى القاهرة ؟

- جيهان ، أتريدين آيس كريم ؟
- جيهان ، هل تحبين بعض الشيكولاته ؟
- تعالى ياجيهان وخذى آيس كريم آخر
- لا ياأنور ، لقد أكلت ما فيه الكفاية وإلا سأنفجر
- لا ، لا ، أريدك أن تحصلى على كل ما تريدين دون حتى التفكير .

وكان أثناء الفيلم عطوفا أكثر من المعتاد واضعا ذراعه حولى ، لم أكن أتخيل ما الذى يجعله محبا إلى هذه الدرجة ؟ وإن كنت طبعا لم أحاول أن أصرفه عن هذا وحتى حين حدث عطل فى جهاز العرض وتوقف الفيلم لم يغضب أنور ، ولم يبد أى قلق ، لم أكن أعرف إذ ذاك أن أنور كان فى الواقع يودعنى .

فقد تلقى رسالة شفوية فى رفح من جمال عبد الناصر بأن الثورة ستقوم فى تاريخ بين ٢٢ يوليو الى ١٥ أغسطس وأنه لابد من حضوره فى الحال إلى القاهرة ، ومرة أخرى تقرر تقديم موعد الثورة بسبب إشاعة بأن الحكومة الجديدة لن تضم اسماعيل شيرين فقط ، وإنما حسين سرى عامر أيضا ، وهو يعرف شخصيا سبعة من الضباط الاحرار ، وكان دائم التهديد بأن يكشف أمرهم للملك ، وقال عبد الناصر لأنور « يجب أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا » .

وفجأة وجد الضباط الأحرار أنفسهم فى سباق مع الزمن ، فاذا كشف أمرهم ، فلاشك فى فشل ثورتهم قبل أن تبدأ . وفى هذه الحالة سيتم إعدام مؤيديها . وإذا بدأوا الثورة وفشلت فانهم سيتعرضون أيضا للاعدام . وبينما كنت أتقبل مسرورة ما قدمه لى من شيكولاته وآيس كريم ، كان يشعر هو بأن هذا اللقاء قد يكون الأخير . وكان أنور ـ بسبب معرفته الأخطار التى تنتظره ـ يريدنى أن أستمتع بالأمسية الأخيرة الخاصة لكى تملأ ذكرياتى .

وحين عدنا إلى منزل والدى حوالى منتصف الليل سألنى البواب : « أين زوجك ؟ »

فقلت : « إنه يدخل السيارة فى الجراج » .

وأعطانى البواب رسالة قائلا : « لقد جاء رجل مرتين باحثا عنه وأخيرا ترك له هذه الرسالة » .

وفى طريقنا لجمع (حاجاتنا) لنذهب إلى شقتنا أعطيت الرسالة إلى أنور وفى الحال وجدت الدم يهرب من وجهه ، وقال لى وهو يهرع إلى المنزل : « لابد أن أذهب فى الحال »

وهرعت خلفه إلى حجرة النوم ، حيث كان يخلع قميصه الاسبور ويرتدى بذلته العسكرية ، وسألته :

ـ « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ أحد أصدقائى مريض جدا ويجب أن أذهب إليه .

ـ فى بذلتك العسكرية ؟

فتوقف لحظة وقال بعنف : « يجب أن آخذه إلى المستشفى للحصول على دواء له فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، والبذلة الرسمية تسهل الأمور » ، ثم قبل وجهى وأسرع فى نزول الدرج .

وناديت خلفه : « أنور . . إذا دخلت السجن لن أحضر لزيارتك » .

وتجمدت حركته وهو فى منتصف السلم وقال بعمق ، ناظراً إلىّ بعينيه السوداوين الفاحصتين : « ماذا قلت يا جيهان ؟ »

فضحكت دون أن أكرر ما قلت ، ولكنى رأيت شيئا فيه جعل الضحكة تتوقف . لقد فهمته جيدا فهناك وقت للضحك والهزل معه ، وهناك أوقات لا أنطق فيها ببنت شفة ، وكانت هذه اللحظة إحدى تلك اللحظات . . كنت اشعر بها من عينيه وهو ينظر إلىّ بتركيز مهرولا على الدرج ، وكنت أسمعها فى صوته العميق المحسوب .

وقلت له بهدوء : « فليحرسك الله يا أنور » وذهب بعد ذلك . .

انتظرت طول الليل عودة أنور ، أو على الأقل اتصاله بى ، ولكن لم تأت كلمة منه ، وأخذ أبى يقول لى وهو ينتظر معى كلمة من أنور « الغائب عذره معه » .

وأخيرا فى الساعة السابعة الا ربعا دق جرس التليفون ، وتحول سرورى لسماع صوت أنور إلى غضب منه لقلقى عليه بهذا الشكل ، وسألته بغضب « أين أنت ؟ أين قضيت الليل ؟ » . فقال : « افتحى الراديو يا جيهان وستعرفين كل شىء » . وكان هناك شىء فى صوته أكبر من أى شك ، بل أكبر من القلق الذى أحسسته فسألته : « هل أنت بخير ؟ »

فأجاب : « بخير »

فقلت : « فليحرسك الله ويسبغ عليك النجاح فى أى شىء تفعله الآن » .
وأدرت الراديو فى الحال ولم أسمع إلا القرآن يقرؤه أحد القراء . . ما الذى يحدث ؟ وفجأة فى الساعة السابعة والنصف سمعت وسمعت كل مصر صوت أنور يقرأ بيان الضباط الأحرار :

بيان من القائد العام للقوات المسلحة
إلى الشعب المصرى

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب

المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين .

واما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

اما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب وأنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية . وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس وأنى أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق » .

ولم يقل شيئا عن وقوع انقلاب أو عن الملك فاروق ، ففى بدء الثورة لم يكن هناك أى ذكر لاسقاط الملك ، ولم يكن هناك ذكر لأية تغييرات فى الدولة . وحتى حين نزلت إلى الشارع لزيارة صديقة طفولتى علا ، لم أكن أتصور أنى لن أسمع صوت أنور مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام .

كانت الروضة هادئة فى صباح يوم ٢٣ يوليو، ولم توجد أية بشائر على وجود تغيرات ولكن الأخبار التى وصلت إلينا من إبنة عم علا صديقتى التي كانت ستلحق بنا ، كانت مخيفة . فقد اتصلت تليفونيا لتقول إنها لن تستطيع الحضور لأن شوارع المدينة تعج بالجيش بدباباته وجنوده وأن جميع الطرق مغلقة . دبابات ؟ جنود فى الشوارع ؟ لم أكن شاهدت ذلك من قبل ، وشعرت بخوفى يتزايد ، أين أنور ؟ هل اعتقله الملك ؟ أم هل خلع الجيش الملك ؟

وأسرعت بالعودة إلى منزل والدى لأجد أبى وقد عاد مبكرا من مكتبه وأخبرنى أنه هو وزملاؤه فى الحكومة لا يعرفون ماذا يجرى ، وقال إن هناك بعض الاصلاحات فى الجيش .

وسألته بانفعال : « هل فاروق لا يزال فى الحكم ؟ »

فأجاب : « لا أعرف يا جيهان ، لعله لا يزال ولكن من يدرى »

ولم يكن أبى فى موقف يختلف عن بقية المصريين ، كان القليلون فقط هم الذين على استعداد عاطفى لثورة . لقد حكمنا أجانب لأكثر من ألف وأربعمائة سنة ، سواء أطلقوا على أنفسهم لقب ملوك أو خلفاء أو خديويين أو سلاطين أو أباطرة . لقد غزت مصر قوات الهكسوس والفرس والاغريق واليونان ، وفى القرن السابع جاء الفتح العربى الذى انعكس أثره فى ديننا الاسلام ، ثم تعرضنا لغزوات أخرى من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر من جانب الفاطميين والأيوبيين والعثمانيين ، وجاء نابليون على رأس حملة على مصر عام ١٧٩٨ ومن ١٨٨٢ احتلنا البريطانيون . ولذلك فليس بالمستغرب أن يكون مفهوم الثورة بل حتى الحكم الذاتى مفهوما جديدا ومخيفا بالنسبة إلينا ، وفى البداية كان من الصعب على المصريين أن يتحققوا من أن هناك ثورة .

وقد عرفت فيما بعد أن هذه الصعوبة شعر بها قادة الثورة الأحد عشر ، فبعد أن استولوا بسرعة على المطارات ومحطة الإذاعة والطرق الرئيسية والكبارى ووسط القاهرة بقوات المشاة والدبابات ، قضوا ثلاثة أيام فى محاولات لتشكيل الحكومة ، وليقرروا أحسن طريقة للتعامل مع الملك فى الاسكندرية . أراد البعض قتله ، بينما اقترح البعض نفيه فى الحال . وكان هناك من يريد الابقاء عليه فى مصر . وكانت هناك مجموعة من بينها أنور تريد المفاوضة مع الملك ، والتوصل إلى حل غير دموى يؤدى إلى تنازله التطوعى عن العرش . وقال لى أنور فيما بعد : « إذا بدأت الدماء تسيل فقد لا تتوقف بعد ذلك » .

وطوال ثلاثة أيام لم نعرف إلا القليل ، وفى الروضة لم نشاهد الدبابات أو الأسلحة أو الجنود الذين سمعنا عن تمركزهم فى وسط المدينة ، وحيثما ذهبت

كنت أجد الناس وقد تجمعوا حول أجهزة الراديو فى الحوانيت والمقاهى والمنازل فى انتظار المزيد من الأخبار ، لقد أمضى الناس ساعات طويلة فى التحدث فى التليفون فى محاولة لمعرفة آخر الشائعات . وكانت الشوارع التى كانت دائما تعج بالسيارات ، شبه خالية ، ومع ذلك فان الهواء نفسه بدا كأنه مشحون بالتوتر فى حر الصيف ، لم يعرف أحد أى شىء بما فى ذلك أنا . وكلما مر يوم شعرت بالأمل فى أن يستطيع الجيش التخلص من الملك ، ولكن فى نفس الوقت زاد خوفى يوما بعد يوم من ألا أرى زوجى ثانية ، فقد تقوم قوات الملك أو القوات البريطانية باعتقال زوجى ثم قتله فى أى وقت .

كان ما أشعر به خوفا أحسسته كثيرا فى حياتى . . أنور فى خطر . . سيقتل ولن يعود إلى البيت . ولكنى لم أظهر شعورى الحقيقى . . حتى أثناء الثورة كان خوفى هو العبء الذى حملته داخل نفسى ، لم أرغب فى أن يحس من حولى بمعاناتى ، كما لم أرغب فى إزعاجهم . وكنت أقول لمن يكررون سؤالى عن الأخبار ، « إن كل ما أعرفه هو أن أنور اتصل بى تليفونيا فى صباح اليوم الذى ذهب فيه إلى الاذاعة وطلب منى الانصات والاستماع الى البيان الذى ألقاه » .

وبدأت الاشاعات تنتشر ، وظهر بعد ذلك أن بعضها كان حقيقيا . . لقد منع الملك فاروق من الهرب من قصر إلى قصر آخر ، وأن القوات الموالية للثورة حاصرت قصر رأس التين فى الاسكندرية فى السابعة من صباح ٢٥ يوليو وهو اليوم الثالث للثورة . وأنه حدث تبادل النيران بين الحرس الملكى وقوات الثورة ، ولكن الملك أمر رجاله بوقف إطلاق النار ، وإغلاق بوابات القصر . ولخوفه من أن يقتله حرسه الخاص اتصل فاروق بالسفير الأمريكى وطلب حمايته . ولعلم السفير بعدم شعبية الملك ولعدم رغبته فى معاداة قوى الثورة أرسل للملك سكرتيره الخاص .

ولم أكن أعرف أن أنور ومعه جمال سالم ومحمد نجيب وهما من رجال الثورة فى الاسكندرية منذ ٢٦ يوليو . وقد ذهبوا لتقديم إنذار إلى الملك « أنه اذا لم يترك فاروق البلاد فى السادسة فى المساء ، فان الضباط الأحرار ليسوا مسئولين عن النتائج » . ولم يستغرق الأمر من فاروق أكثر من خمس دقائق ليعطى

موافقته . كان خوفه على حياته كبيرا لدرجة أنه حين ذهب ليوقع تنازله عن العرش لابنه الأمير أحمد فؤاد كانت يداه ترتعشان ، مما جعله ينسى هجاءه لاسمه واضطر إلى التوقيع مرتين ، وكان خطأ الهجاء عند البعض له مغزى خاص . . فاروق لا يستطيع أن يتهجى إسمه باللغة العربية ، أليس هذا دليلا واضحا على أنه أجنبى لحما ودما ؟ ولكنه فى الحقيقة كان فى حالة اضطراب شديد .

وذهب جمال سالم ومحمد نجيب بعد ذلك لاعداد اليخت الملكى المحروسة لسفر الملك إلى المنفى ، بينما أمر أنور سلاح الطيران وقوات خفر السواحل بتحية الملك وهو يترك مياه مصر الاقليمية . كان هذا من علامات الاحترام ، ولكنه كان أيضا نوعا من الحماية لأن بعض أعضاء سلاح خفر السواحل هددوا باطلاق النار على اليخت الملكى ، بينما كان أنور ورجال الثورة لا يرغبون فى إراقة أية دماء . وقد نجحت الخطة ، ففى السادسة مساء بالضبط أبحرت المحروسة وعلى ظهرها الملك فاروق والملكة الجديدة ناريمان والأمير الطفل إلى المنفى ، وبينما كان أنور وجمال يرقبان الإبحار من على سطح سفينة حربية مصرية دوت ٢١ طلقة مدفع فى الميناء . . لقد نجحت الثورة .

ولم تكن لدينا فى القاهرة أية معلومات عما يحدث فى الاسكندرية وحين أعلنت الاذاعة رحيل فاروق ، لم أسمع النبأ ، فقد أذيع وأنا فى طريقى إلى طبيب الأسنان .

وحين وصلت إلى العيادة مساء ٢٦ يوليو نادانى طبيب الأسنان ، وكان ضابطا فى الجيش : « السيدة جيهان السادات ، تفضلى » .

ونظرت حولى إلى الذين ينتظرون من قبلى وقلت للطبيب فى شىء من الدهشة : « ألا يجب أن أنتظر دورى ؟ »

وقال الطبيب: « تفضلى . . هل سمعت يا سيدتى ؟ لقد طرد الجيش الملك ، وقد انتهى كل شىء ، إن زوجك الآن أحد زعماء مصر » .

وأحسست بالذهول ، فكل الشائعات ونشرات الاذاعة تركزت الآن . لقد

قامت فعلا ثورة . لم أعرف أأضحك أم أبكى ؟ لقد خرج الملك، يا له من شىء رائع ، ولكن ماذا سيفعل البريطانيون ؟ هل سيقفون متفرجين برغم وجود قواتهم فى مصر ؟ وما الذى سيحدث لأنور ؟ إنى لا أستطيع أن أمضى هذه اللحظة عند طبيب الاسنان .

وحين عدت إلى الشارع وجدت أن الجو قد تغير تماما . فالشوارع التى كانت خالية أصبحت الآن تعج بالناس يرقصون ويهتفون ، والمقاهى الهادئة التى كان زبائنها يلتفون حول جهاز الراديو ، أصبحت الآن مليئة بالضوضاء وكان أحد أصحاب هذه المقاهى يعلن « كل المشروبات على حساب المحل » .

وانضممت إلى أسرتى فى البيت حول جهاز الراديو . وزادت إثارتى فى نفس الوقت مع خوفى ، ليس فقط من أجل أنور ولكن من غضب أبى . وجعلت أستسمحه قائلة « أرجوك ألا تغضب من أنور لأنه رجع فيما وعدك به » . ولكن أبى كان مشغولا بالأخبار لدرجة لا تسمح له حتى بالتفكير . وكان كل تفكيرى منحصرا فى زوجى . أين هو ؟

ولم أستطع أن أوقف دموعى حين وصل أنور فجأة فى اليوم التالى . كان متعبا وقال :

« بسرعة ، أريد حماما ساخنا وطعاما ساخنا وبذلة رسمية نظيفة » .

وأسرعت لأفعل ما يريد ، وأنا أمطره بالاسئلة : أين كنت ؟ ماالذى يحدث ؟ »

فقال لى « فيما بعد يا جيهان ، فيما بعد ، » وخلال العشاء بدأ يخبر جميع أفراد اسرتى بتطور الأحداث ، وذلك قبل أن يذهب إلى اجتماع مع عبد الناصر : « ستصبح مصر منذ هذه اللحظة بلدا لجميع الناس ، وليس فقط للأقلية الغنية . لن يستعمل الملوك بعد ذلك عمال السخرة لحفر القنوات وبناء القصور ، أو تبديد أموال الدولة على أشياء تفيدهم وحدهم . وستعطى الأرض لهؤلاء الذين كانوا يفلحونها للآخرين . وأخيرا سيضطر البريطانيون أن يتركونا نحكم أنفسنا » .

لم أستطع أن أرفع عينى عن أنور أو أشبع من كلماته . لقد تحقق حلمه لمصر ، وتحقق حلمى لمصر . وحتى أمى كانت سعيدة ، لأن كل من كان قريبا إلى قلبها مصريون .

وبينما كنا نجلس حول المائدة بدأت أتفهم حقيقة هامة ، وهى أنه لأول مرة منذ أن غزا الفرس مصر عام ٥٢٢ قبل الميلاد سيتولى حكم مصر مصريون ، وكان زوجى أنور السادات واحدا منهم . وسيكون واجبى كزوجة له أن أقف بجانبه مهما كان الطريق الذى تأخذه بلدنا . وتعجبت من نبوءة العراف ، ووددت لو أننى كنت معدة إعدادا حقيقيا للمسئوليات التى تنتظرنى . . كان عيد ميلادى منذ يومين ، فقد أتممت التاسعة عشرة .



الفصل الخامس

فترة عبد الناصر



هل ستؤمم الأراضى الخاصة ؟ هل البلد فى طريقها إلى الشيوعية ؟ هل صحيح أن الأجانب أجبروا على ترك البلاد ؟ حيثما كنا نذهب بعد الثورة كنا نتعرض لهذه الأسئلة من جانب أصدقائنا ـ المهندسين والأطباء والمحامين وأساتذة الجامعة وصغار الملاك ـ وكانت تلك الأسئلة تدور حول مغزى القوانين الجديدة التى صدرت عن مجلس قيادة الثورة . لم يكن أحد يعرف ما الذى سيحدث ؟ وساد البلاد جو من بلبلة كبرى . كنا ندعى أحيانا إلى العشاء من أصدقائنا الذين كانوا يتوقون إلى معرفة ما ينطوى عليه ما يصدر عن الثورة من قوانين . وليلة بعد ليلة كان أنور ينضم إلينا فى وقت متأخر . وكان يقول لى فى الصباح قبل أن يذهب إلى اجتماعاته فى مجلس الثورة الجديد : « اذهبى أنت بدونى وسأقابلك على العشاء » ، وتدق الساعة التاسعة ولا يكون انور قد وصل بعد إلى بيت مضيفنا ، ثم تدق العاشرة والحادية عشرة أو حتى منتصف الليل قبل أن يلحق بنا . وكنت

ـ بحكم أنى زوجة لأحد أعضاء الثورة ـ أحجم عن إظهار قلقى . وكنت دائما أذكر للمدعوين بهدوء تام أن أنور على وشك الحضور ولم أكن لأجرؤ على إظهار ارتياحى حين يصل أنور فى النهاية . وعند وصوله تبدأ الأسئلة : هل ستؤمم الحكومة المصانع ؟ هل صحيح أن التعليم سيصبح مجانيا ؟ وكانوا على حق فى أسئلتهم . فقد كانت مصر تمر بفترة تغير اجتماعى حاد . وعلى مر السنوات العشرين التالية كان لبناء الحياة المصرية أن يتعرض لتغيرات أكثر مما تعرضت له خلال أربعة عشر قرنا . وقد بدأت التغيرات فى الحال . فبعد شهرين من الثورة صدر قانون الاصلاح الزراعى ، وقسمت المزارع الاقطاعية الشاسعة وسلمت إلى الفلاحين ، والآن لم يعد لمالك واحد أن يحوز أكثر من مائتى فدان . وكان هذا هو الحد الأقصى الذى خفض بعد تسع سنوات إلى مائة فدان .

وقبل الثورة كان هناك ثمانية ملايين فلاح لا يملكون شبرا من الأرض ، أما الآن فإن الأرض التى تم الاستيلاء عليها ، والتى تسلم أصحابها الأصليون سندات حكومية ، قسمت بين الفلاحين وكان نصيب كل منهم خمسة أفدنة . أما الستمائة ألف فدان التى كانت تملكها الأسرة المالكة ، والتى تمثل عشر الأراضى المزروعة فى مصر ، فقد تم الاستيلاء عليها أيضا بدون أية تعويضات .

وكان أبى وأقاربه قد باعوا ما يملكونه من أرض قبل الثورة بأربع سنوات . وخلال المرحلة الأولى من الاصلاح الزراعى كانوا يملكون أقل من المساحة القانونية من الأرض . أما ممتلكات كبار الملاك فقد خفضت إلى حد كبير . وخلال ثلاثين سنة من الحكومات البرلمانية لم يتخذ أى إجراء لصالح الفلاحين . كان الكثير من الفلاحين لا يكسبون أكثر من خمسة جنيهات فى الشهر ، بينما تزايدت ثروات الملاك الذين يشقى هؤلاء الفلاحون فى أرضهم ، والذين كانوا يستولون على ثمانين فى المائة من المحصول لأنفسهم . وقد قوبلت تلك الاصلاحات الزراعية الشاملة بالاستحسان من جانب الفلاحين ومن جانب أعضاء مجلس قيادة الثورة ، فقد كان كثير من هؤلاء الضباط من أصول ريفية ورأوا

بأنفسهم الظلم فى ملكية الأرض وأثره على اقتصاد البلاد الذى يقوم أساسا على الزراعة . لقد كان أعضاء مجلس قيادة الثورة مصرّين على التخلص من النظام القديم الذى حكم مصر بطريقة غير عادلة قبل قيام الثورة .

كنت أعرف أسرة تملك آلافا وآلافا من الأفدنة فى دلتا النيل . كانت تؤجر حراسا ليوصلوا إلى « البنك » ما جمعوه من نقود بعد جمع محصول القطن . أما الفلاحون الذين زرعوا الأرض ونثروا البذور وقاموا برى الحقول وجمعوا الديدان بأيديهم قبل أن يجنوا المحصول فقد كانوا يشاهدون سيارات اللورى وهى محملة بزكائب الأموال . لماذا لم يقم الملاك بتوزيع بعض هذه الأموال على الفلاحين الذين عملوا فى أرضهم ؟ حقا أنه لاختلال اجتماعى شديد فى بلد يعيش غالبية سكانه فى فقر .

وعرفت أسرة أخرى غنية من الصعيد كانت تملك أيضا آلاف الأفدنة ، وكانت مشهورة بإقامة الحفلات الكبيرة ، وبدلا من أن توزع ما تبقى من طعام على الفلاحين والخدم الذين خدموا الضيوف كانت تصدر أوامرها بحفر حفر كبيرة تدفن فيها بقايا الطعام ، وكان منطق الأسرة أنه إذا تذوق الفلاحون هذه الأنواع من الطعام فإنهم سيشتهون الحصول عليها ويشعرون بالمرارة نحو الأسرة ، ومن ثم فقد كان من الأفضل التخلص من هذا الطعام المترف وترك هؤلاء الفقراء وبعض طعامهم التقليدى وهو الخبز وقطعة الجبن الأبيض وبعض الخضروات الموجودة فى الحقول . إن مثل هذا السلوك كان قاسيا لدرجة كبيرة وكان يجب أن ينتهى .

وتبقى بعد ذلك إصلاحات لا حصر لها . . فقد كونت الجمعيات التعاونية فى المناطق الريفية لتقديم القروض للفلاحين ، ووضع حد أدنى للأجور ، وخفض عدد ساعات العمل بالنسبة لهم ولعمال المصانع ، وحددت إيجارات الأراضى ، وأقامت الحكومة عيادات طبية فى القرى ، وقامت ببناء مدارس جديدة تجاوز ما تم بناؤه منها فى سنة واحدة ما تم بناؤه فى السنوات العشرين السابقة ، بالاضافة إلى أن التعليم الابتدائى أصبح إجباريا لجميع الأطفال بنين وبنات حتى

فى المناطق الريفية ، وأصبحت الجامعات التى كانت وقفا على القادرين مفتوحة أمام الجميع ، كما ضمنت الحكومة وظيفة لكل خريج جامعة . وفى مثل هذا المناخ الذى يتميز بالمساواة ألغيت الألقاب التركية ـ الباشا والبك والأفندى ـ مما أثار البهجة فى مجتمع كان يتميز بالطبقية القاسية ، وكان الأمل فى إقامة الحكم الذاتى وفى تصفية النظام القديم بمثابة مؤشر لما يحدث فى المستقبل ، وزاد هذا التوقع عندما تم تفتيش قصور فاروق الأربعة وتكشف مدى الثروة الخاصة التى جمعها على حساب المصريين الفقراء . ويرغم أن فاروق أخذ معه الكثير من الحقائب حين أبحر من الاسكندرية ، إلا أنه ترك عددا كبيرا من الأشياء الثمينة فى حجرات قصر القبة الأربعمائة مما أغرى الخبراء الأجانب من صالة سوثبى للمزاد على السفر إلى مصر لتقييم تلك التحف قبل عرضها فى المزاد ، لقد كانت مجموعة فاروق من النقود الذهبية والأوسمة وحدها يزيد عددها على ثمانين ألف قطعة ، وكانت مجموعته من ثقالات الورق التى كان الكثير منها مطعما بالأحجار الكريمة أكبر مجموعة فى العالم . وكانت هناك أيضا تحف من الذهب الخالص فى الغرفة بعد الغرفة بما فيها مقبض من ذهب لزجاجات الكوكاكولا وتحف أخرى صممها فابورجيه « الجواهرجى » الروسى المشهور .

أما فى الجناح الغربى حيث توجد حجرات المعيشة الخاصة بفاروق فقد كانت الحمامات من المرمر الأخضر . أما فى الدواليب الكبيرة فقد وجدت أكثر من مائة بدلة وربطة عنق .

وفى كل مكان كانت تنتشر رسوم مختلفة وبعضها رسوم خليعة . . على أوراق الكوتشينة فى صالة القمار الخاصة به . وعلى مناضد القمار ، وحتى فى أوضاع التماثيل المصنوعة من الرخام ، وفى اللوحات الزيتية والساعات ، وحتى على الصناديق التى تنبعث منها الموسيقى .

كان أمراً محزناً للمصريين أن يلمسوا فساد وجشع الملك ، ولكن الأموال التى ستعود من المزاد كانت ستؤول فى النهاية إلى الفقراء الذين يستحقونها .

وعندما قدرت ممتلكات الأسرة المالكة التى تمت مصادرتها بلغت قيمتها فى النهاية سبعين مليون جنيه مصرى ، وهى الأموال التى استغلتها الحكومة فى إقامة المراكز الصحية والمستشفيات والمدارس فى القرى .

وقد تحركت الحكومة الثورية الجديدة بسرعة للعمل من أجل التخلص من الاحتلال ، فبدأت المفاوضات مع البريطانيين لتحديد جدول زمنى لرحيلهم . وهذا هو ما كان أنور يناضل من أجله طوال حياته . وكان المفروض أن تكون هذه الأيام أسعد أيامه . ولكن بدلا من ذلك كان أنور يشعر بالأسى بسبب الصراع السياسى داخل مجلس قيادة الثورة ، وخاصة الاتجاه العدائى الذى اتخذه محمد نجيب رئيس المجلس . ولما كان الضباط الذين قادوا الثورة صغار السن فقد عينوا محمد نجيب (الأكبر سنا) قائدا لهم ليبثوا الطمأنينة فى نفوس عامة الشعب ، وقد أصبح بعد فترة قصيرة أول رئيس لجمهورية مصر الجديدة . ولكن لسبب أو لآخر اختلف نجيب وأنور منذ البداية ، وكانت العلاقات بين نجيب وعبد الناصر والأعضاء الآخرين فى المجلس قد بدأت تسوء بصفة عامة ، ولكن علاقته مع أنور كانت سيئة بوجه خاص وتتسم بالغيرة والشك . وقد وصل به الأمر إلى درجة نشر الشائعات حول زوجى زاعما أن أنور يريد رئاسة مصر لنفسه . وفى البداية شعر أنور بالامتعاض الشديد ، ثم بدأ ينتابه إحساس بالاكتئاب إذ أن أعضاء مجلس قيادة الثورة ومحمد نجيب كانوا يقضون معظم الوقت فى الصراعات فيما بينهم بدلا من التركيز على وضع سياسات اقتصادية جديدة ، وإعادة صياغة علاقات مصر الدولية أو توجيه الاصلاحات الاجتماعية فى الداخل ولم يكن ذلك هو ما أمضى كل حياته تقريبا فى النضال وبذل التضحيات من أجله .

وقد كدت أتورط فى الصراع بين أنور ونجيب ، ففى يوم من أيام العيد فى هذا العام الصعب ، وكان أنور فى الخارج يؤدى فريضة الحج مع عبد الناصر ، سمعت صوت (سارينة) السيارات يملأ الشارع أمام العمارة التى نقطنها ، ومن الشرفة شاهدت قافلة من الدراجات البخارية وسيارات الشرطة والعربات العسكرية

تقترب من منزلنا . ووسط هذا الموكب كان الرئيس نجيب يستقل سيارة مكشوفة وقد شاهدت أنا وكل الذين كانوا يطلون من النوافذ والشرفات الموكب يتوقف أمام باب العمارة التى نسكنها وكانت أصوات السارينة لا تزال مستمرة .

ترى ماذا يفعل نجيب هنا ؟ لقد كان من العادات المألوفة أن يزور المرء الأصدقاء المقربين والأقارب بعد صلاة العيد للتهنئة بحلول العيد . لكن نجيب يعلم أن أنور مسافر إلى مكة المكرمة ، وهو الآن يحضر ليزور زوجته طبعا ليستعرض أهميته من ناحية ، وعلى أمل أن يخفف من حملته ضد زوجى من ناحية أخرى . وربما يكون هذا الاهتمام من جانب الرئيس قد ترك انطباعا قويا لدى الجيران لكنه لم يترك مثل هذا الانطباع لدى . ولم يكن لدى أية نية بأن أرحب فى بيتى بشخص جعل حياة زوجى على هذا القدر من الصعوبة . وقلت للحارس : « أسرع وأبلغ الرئيس أن أحدا لا يوجد بالمنزل ، وقل له أنك لا تتوقع عودتى قبل علة ساعات » ، ولقد شعرت بالراحة عندما رأيت الموكب يبتعد عن المنزل عبر النيل .

وتزايد إحساس أنور بالاكتئاب . لقد أراد أن يضع مشاحنات اليوم وأعباءه وراءه وأن يترك هموم العمل بعيداً عن منزلنا ، ولكنه لم يستطع ذلك فى أكثر من مرة وأكثر من مناسبة . كان أحيانا ينادى بصوت عال وغاضب : « جيهان ، إن هذا القميص ينقصه زرار » ، وكنت أسرع فى الحال لأحضر إبرة وخيطا . « جيهان ، أننى لم أستطع النوم هذه الليلة » . ألا ترين أن الملاءات يمكن كيها بطريقة أفضل ؟ » وفى يوم من الأيام قال : « جيهان . . إن هذه الحجرة لم يتم تنظيفها منذ يومين على الأقل » . فقلت : « أنور هذا لا يمكن أن يكون صحيحا ، فإن الحجرات يتم تنظيفها يوميا » . لكنه كان مصرا على البحث عن أى خطأ ، إذ أردف قائلا : « لقد تركت منديلى فى هذا الركن منذ يومين ولا يزال فى مكانه » فأجبته قائلة : « لابد أنك ألقيته هناك وقت الغداء » ، وعندما رأى أنى كدت أبكي ، تراجع قائلا : « إنك على حق ياجيهان . . أنا آسف » .

لم يكن هذا التوتر يكدرنى كثيرا ، فقد كنت أعرف أننى لست مصدره ، ولكنه كان ناجما عن الصراعات بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ونجيب . وإنما الذى كان يكدرنى أكثر هو اكتئابه . وخلال الشهور الأولى للثورة كنت كثيرا ما أجده جالسا فى إحدى الشرفات لا يقرأ أو يكتب أو يفعل أى شيء . وكانت قسمات وجهه خلال هذه الفترات تجعلنى أشعر بالحزن مثله . وكثيرا ما كنت أجلس صامتة إلى جانبه لمدة ساعة أو أكثر لعله إذا ما أراد أن يشركنى فى همومه يجدنى إلى جانبه . وفى النهاية كنت أسأله : « ماذا بك يا أنور ؟ » وكان فى بعض الأحيان يجيبنى وفى أحيان أخرى لا يرد . ونادرا ما شعرت أن صمته هذا سببه راجع إلىّ أو إلى خيبة أمل فىّ ، وبالطبع كنا نتشاجر مثل أى زوج وزوجته ولكن ذلك كان يحدث نادرا ، وحتى عندما كان يحدث فقد اكتشفنا من بداية زواجنا أن أياً منا ليس من النوعية التى تهين الآخر ، وبسبب ذلك فقد التقينا عند أشياء كثيرة . لقد كان كل منا يحترم الآخر للغاية ، وقد كنت أفهمه فهما كاملا حتى فى لحظات المعاناة الشديدة التى يمر بها .

وفى إحدى الليالى فوجئت به يقول : « جيهان . . إننا سنترك البلاد » . . نترك مصر ؟ وتجمدت الكلمات على شفتى . . « إننى لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك تلك الشائعات التى ينشرها نجيب حولى . إن المجلس منقسم ، وكل ما نفعله هو أن كلا منا يحارب الآخر . إننى أشعر بالغثيان وقد كتبت خطاب استقالتى » . حملقت فى وجهه بينما تلح على فكرة كيف أترك بلدى وبيتى ووالدى . سألنى « هل ستأتين معى ؟ » . وقلت على الفور « بالطبع أينما ذهبت فسأكون معك » . قال أنور : « حسنا . . لنبدأ بلبنان . إنه بلد جميل وهو بلد عربى ، وسأتمكن من الحصول على عمل فى بيروت » .

لابد أنه كان واثقا من أننى سأذهب معه إذ أنه فى الحال أبرز تذكرتين وجوازات سفر استخرجت حديثا وتأشيرات الخروج . ولكن لحسن الحظ فإن صديقيه فى مجلس قيادة الثورة ، عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر ، أقنعاه أن

يسحب استقالته ، وبقينا فى القاهرة وبخبرته السابقة فى دور النشر ، فإن أنور لم يكرس كل وقته للحكومة الجديدة . ولكنه عمل فى صحيفة جديدة « الجمهورية » لتقدم آراء النظام الجديد . وأصبح لا يكاد يوجد بالمنزل ، إذ يغادره فى الصباح المبكر ويعود فقط لينام . ومع أننى كنت أحترم ما يفعله من أجل بلادنا ، إلا أن طول الوقت الذى كنت أقضيه بمفردى لم يكن يشعرنى بالرضا ، ولكننى لم أكن ألح عليه بالسؤال مثلما تفعل الزوجات الأخريات بسؤال أزواجهن عن سبب تأخرهم فى العودة إلى المنزل . فقد كنت أعرف أين يكون أنور؟ ولماذا ؟

فى ذلك الوقت كان المعهد البريطانى يسمح للسيدات المتزوجات بالدراسة فيه فانضممت إلى أحد فروعه حتى أكمل السنة النهائية فى دراستى ، ولكن الأمور لم تمض على ما أشتهى ، فقد كان أنور مشغولا للغاية ، وفى بعض الأحيان لا يعود للمنزل أبدا ليغير ملابسه أوحتى ليتناول طعامه بسرعة . ولم يكن من الممكن أبدا أن نعرف لا أنا ولا هو مواعيده . ولكن باعتبارى زوجته كان من واجبى أن أكون موجودة بالمنزل كلما حضر ، وكأى زوج مصرى كان يتوقع ذلك منى ، ولذلك لم أجعل من هذا الأمر موضوع تساؤل . وبعد أن تكرر اعتذارى عن عدم الحضور للمعهد اعتذرت لأساتذتى قائلة : « أنه يتعين على أن أتخلى عن دراستى من الآن » وحتى لوكانوا قد شعروا بخيبة أمل فإنهم لم يظهروا ذلك فقد كانوا هم أيضا يعرفون بوضوح مسئولياتى كزوجة .

وأصبحت أهتم كثيرا بمظهرى وأحرص على أن أبدو فى شكل وقور طوال الوقت . فكنت حريصة على ألا أرتدى أى رداء بأكمام قصيرة أو فتحات كبيرة على الصدر . ولم أكن لأسمح بأى حال بأن توجه الانتقادات إلى زوجى من ناحيتى . وكنت أيضا أحرص على أن أرتدى ملابس بسيطة وعملية من منطلق الحرص على ألا تكون هناك بقدر الامكان فجوة كبيرة بينى وبين الفقراء فى بلدى . فقد كانت الفجوة بين الأغنياء والملايين من الفقراء أحد الأسباب الأولى للثورة والآن أصبح جميع المصريين كشخص واحد بما فى ذلك قادتهم وحكامهم .

وبالرغم من روح المساواة التى تدعو إليها الثورة فإن من الأشياء التى كانت تقلق راحتى وتحرجنى أن أهالى الحى الذى نقطنه كانوا يصرون على معاملتي كإحدى الشهيرات ، فلم يكونوا ليسمحوا لى أبدا بالوقوف فى الصف فى دور السينما أو بانتظار دورى فى العيادات الطبية . وبدلا من ذلك كانوا يشيرون إلى بالتوجه إلى أول الصف . وقد سألنى الجزار الذى أتعامل معه : « هل ستواصلين شراء اللحم منى ؟ » ومما أثار دهشتى أن نفس التساؤل كان لدى صاحب الصيدلية وبائع الخضروات وحتى صاحب المكتبة التى كنت أشترى منها الأوراق والأقلام . وكنت أؤكد لكل منهم أننى لم أتغير : « طبعا . . ربما يكون وضعنا قد تغير لكننا مازلنا نفس الأشخاص » . وبدأت اللافتات تظهر على واجهات المتاجر « حرم السادات تشترى حاجياتها من هنا » .

ولقد كان التغيير مثيرا فى أحد المتاجر حيث كنت أشترى بعض الملابس لأنور . فقبيل الثورة حدث أن كنت هناك عندما دخل وزير من النظام السابق وهو يدخن السيجار ومعه حاشيته كلها ، وفورا تركتنى السيدة التى كانت تبيع لى مسرعة إليه ، فتركت المتجر مدركة أن أحدا من العاملين فيه لن يوجه لى اهتماما حتى ينصرف الوزير . وعندما عدت بعد الثورة وأصبح زوجى رئيس مجلس الشعب فإن نفس الأشخاص فى المتجر سارعوا إلى خدمتى ، مهملين كل الآخرين ، وقلت لنفسى : « يا إلهى . . ليس هناك اختلاف حتى الآن » . وقلت للبائعة : « من فضلك ، عودى إلى أولئك الذين حضروا من قبل وأنا سأنتظر دورى » .

ولم يكن هناك مفر من أن نفقد أنا وأنور حياتنا الخاصة . فأينما توجهنا بسيارتنا كان الناس يتعرفون علينا ويحيوننا بود شديد . وإذا توجهنا إلى إحدى دور السينما أو تناولنا الطعام فى مطعم ، كان الناس يقطعون علينا جلستنا ويتوجهون إلينا لمصافحة أنور قائلين : « باركك الله يا سادات » وفى بعض الأحيان كنت أتوق أن أكون بمفردى مع زوجى ولكن نادرا ما كنت أشعر بأن هذا الاهتمام الذى يوجهه

الآخرون لأنور يمثل عبئا عليّ . فإننى كنت سعيدة ـ بوصفى زوجته ـ بهذا الترحيب الذى يبديه الناس تجاهه ، ففى نفس الوقت الذى كنا نقدم فيه العطاء لبلادنا كنا نحصل على هذه المشاعر الطيبة من الناس تجاهنا . وعندما كان أصدقاؤنا يسألون : « ألا تجدين ذلك عبئا ؟ » . . « لا . . على الاطلاق » ولم تتغير مشاعرى أبدا . وكانت صديقاتى من المدرسة يسألننى : « هل سنستمر فى أن نناديك (يا جيهان) ؟ » فكنت أقول لهم : « بالطبع فما الفرق بيننا ؟ » . وكنت أؤكد لهن أننى لكننى ما زلت زميلتكن ثم نتضاحك ونحن نستعيد أيامنا فى المدرسة . وتبادرنى إحدى صديقاتى قائلة : « هل تذكرين عندما ركلتك فى فناء المدرسة وكانت المدرسة غافلة عنا ؟ » فأجيبها وأنا أحتضنها : « بالطبع أذكر وقد جاء دورى الآن لأنتقم وسترين » .

على أى حال فإن كثيرا من مسئولياتى الجديدة كانت مفاجئة بالنسبة لى ، فلم يكد يمضى وقت طويل منذ أن غادر فاروق البلاد حتى وجدت مئات من السيدات يتوجهن إلى اعتقادا منهن أننى قد أقدم خدمات لهن . ففى إحدى المرات كانت هناك سيدة تنتظرنى خارج شقتى وبادرتنى قائلة : « مدام السادات . . من فضلك ساعدينى . لقد فقد زوجى وظيفته ، ألا تبلغين صاحب العمل أن يعيده ؟ » . وفى يوم آخر بينما كنت أشترى حاجياتى سمعت سيدة تهمس فى أذنى أن ابنها لم يقبل فى جامعة القاهرة : « أرجوك الاتصال بالعميد من أجلى وأبلغيه أن يقبل ابنى فى الكلية » . وفى كل يوم أعود إلى البيت لأجد فى انتظارى أربع أوخمس سيدات يحملن التماسات فى انتظارى ولأستمع إليهن . وفى أيام الجمع ، وهى عطلتنا الأسبوعية ، كان عدد الذين يطرقون بابنا يفوق ذلك كثيرا ، وكذلك ازدحم بريدى فجأة بالتماسات من أناس يريدون مساعدتى لهم فى كل شىء ، ابتداء من إيجاد شقة لهم ، وانتهاء بالتوسط لدى صاحب العمل من أجل شخص يريد العلاج بالخارج . كانت مئات الخطابات تتدفق على كما لوكان بوسعى أن أقدم هبات ملكية ، لم أستطع أن أمحو من

ذاكرتى كلمات العراف الذى قرأ كفى فى حى الروضة أو ذلك الهاجس الذى كان يلح على فى طفولتى بأننى يوما ما سأصبح ملاذا لمساعدة الآخرين ، الآن وبين عشية وضحاها أصبحت فى هذه المكانة المرموقة وأنا ما زلت فى سن التاسعة عشرة ، وهو سن تلميذة ما زالت تطلب العلم .

وكنت أرد على كل خطاب أتسلمه ، وأحرص على أن أخصص ساعات بعد الظهر للاصغاء إلى مشاكل أصحاب الالتماسات الذين يتوافدون على منزلى . فقد تعلمت صبرا تجاوز الحدود الطبيعية ، لأنهم كثيرا ما يكررون الكلام فيما يريدونه : قبول طفل فى مدرسة ، إطلاق سراح زوج من السجن ، ولم أكن أصدهم أبدا . كنت أشعر بأن ثمة مهمة قد أسندت إلىّ لمساعدة الناس وعلىّ أن أبذل كل ما فى جهدى لتحسين أحوالهم ، لقد جاءت هذه الفرصة من عند الله والأمر يتوقف علىّ فى استخدامها ، ومنذ تلك الأيام التى كنت أستقبل فيها أصحاب الالتماسات حتى يوم وفاة أنور ، فإننى لم أكن أخلد إلى الراحة وإنما كنت أعمل ليلا ونهارا بما كنت أراه التزاما علىّ من قبل الله .

لم أصد شخصا قط ، وبذلت كل ما فى وسعى لتحقيق رغباتهم المعقولة ، كنت أرسل لأصحاب العمارات لأساعد فى إيجاد شقق لمن يحتاج . كنت أتصل بأصحاب الأعمال لأحاول إيجاد وظائف ، لقد فعلت كل ما يمكن للمساعدة فى حل المشاكل التى كنت أستمع إليها .

وعندما أصبح أنور رئيسا أقام المؤسسات وأصدر القوانين التى عاملت الجميع بالعدل والقسطاس وبمقياس واحد ، حتى ابننا جمال لم يلتحق بكلية الطب جامعة القاهرة بل بكلية الهندسة لأنه لم يحصل على الدرجات المطلوبة لكلية الطب .

واستطعت أن أتغلب على خجلى فقد كان هذا ضروريا فى تعاملى مع هذا العدد . وازداد تأثرى وقلقى من الخطابات التى كانت تصل إلىّ من السيدات ،

وبالرغم من أننى لم أقابلهن إلا أنهن كن يعبرن فيها عما فى قلوبهن . قالت إحداهن : « إنى وأطفالى نشعر بالجوع لأن زوجى تركنا وكان قد وعد بدفع النفقة ولكنه اختفى » ، وكتبت أخرى تقول « لقد أحضر زوجى زوجة أخرى لتعيش معنا ولا أدرى ماذا أفعل » ، كانت جميعها خطابات تعبر عن حياة مليئة بالمعاناة ، وكانت كلها تتحدث عن صميم خصوصيات كاتباتها ، وبالرغم من ذلك فإن السيدات تعلقن بالأمل فى أن أفعل شيئا من أجلهن . يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » (سورة النساء ـ الآية ٣٥) . والآن شعرت كأنى قد أصبحت هذا الحكم . واتصلت بأحد هؤلاء الأزواج وهو طبيب وقلت له : « لقد تسلمت خطابا من زوجتك التى تريد أن تعود إليها ، وإنى آسفة إذا اعتقدت أن هذا تدخل منى فى حياتك الخاصة لأنى لا أفعل ذلك ، ولكنى اتصل بك كأخت لك لأعرفك إن كان فى استطاعتى أن أفعل شيئا للصلح بينكما . فهل تستطيع أن تحضر لمقابلتى ؟ إنك أنت الذى تقرر ذلك » . وجاء فعلا ووقف أمامى وقد بدا عليه الاضطراب وقال : « إذا أردتنى أن أعود إلى زوجتى يا سيدتى فإننى سأفعل ذلك ، ولكن لو تعلمين ما قاسيته منها فستقدرين موقفى » ، ثم أخبرنى كيف أن زوجته قد أصبحت غيورة لدرجة أنها كانت تتبعه حيثما يذهب حتى إلى عيادته حيث كان يعالج مرضاه ، ووافقت على أنه ما من رجل يستطيع أن يحتمل مثل هذه الغيرة . وقلت له : « كنت أرجو لو استطعت المساعدة ولكن من الواضح أننى لا أستطيع » فأجابنى بتصميم « ولكن فى استطاعتك أن تساعدينى ، إننى أرسل لها نفقتها كل شهر ولكنها تنكر هذا ، فهل يمكن أن يأخذ موظف من مكتبك النفقة ليوصلها إليها حتى تتأكدى أنها قد تسلمتها فعلا ؟ » . فقلت له « بكل تأكيد » . وكنت أرسل النفقة إليها كل شهر .

ولكن غيرة زوجته والشك الذى تحس به الكثيرات أقلقنى حقا فقد كن يعشن حياتهن فى رعب من فقدان أزواجهن . وبسبب هذا كن أحيانا يدفعن

أزواجهن إلى تركهن . إن اعتمادهن على أزواجهن فى توفير المال والمسكن وحتى فى اكتساب هويتهن جعل منهن سجينات للزواج ولسن شريكات فيه . ولكى تستطيع المرأة أن تعيش حياتها كاملة وحرة يجب أن تتعلم كيف تعتمد على نفسها . واتصلت بزوجة الطبيب لكى تحضر إلى زيارتى وقلت لها : « إن زواجك قد انتهى ويجب أن تواجهى حياتك الآن وأن تعيدى بناءها . لماذا لا تحصلين على وظيفة ؟ » فصرخت « وظيفة ؟ » فأجبت « نعم . وسأساعدك على إيجاد هذه الوظيفة » وهذا ما فعلته وتغيرت حياتها تغيرا كاملا . والآن لقد تزوجت مرة أخرى واستمرت فى العمل وهى تعيش فى سعادة .

أما المشاكل الأخرى فقد كانت أسهل ، وقد نجحت فى الاصلاح بين الأزواج عن طريق بدء حوار بينهما من خلالى . وكانت هناك نساء أخريات يخلقن مشاكلهن وقد نصحت إحدى هؤلاء السيدات وأنا أنصت إلى شكواها غير المبررة فقلت لها : « يجب أن تعاملى زوجك بطريقة أفضل وإلا ستفقدينه . لماذا لا تتكسبين من عمل ما بدلا من الالحاح عليه ليعطيك نقودا أكثر ؟ » . وكنت فى الليل أقص على أنور ما سمعت أثناء النهار وما فعلته من أجل حل تلك المشاكل وكان يقول لى « لماذا تتدخلين فى هذه الأمور ؟ » وكنت أقول « إذن لماذا يأتين إلىّ وكأنى أستطيع أن أصنع المعجزات ؟ هل تريدنى أن أطردهن ؟ » . وواصلت تقديم العون كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ومن الطبيعى أن قادة مصر الجدد لم يكن فى استطاعتهم إرضاء الجميع . فلم تمض ستة أسابيع بعد الثورة حتى قام بعض زعماء الأحزاب ومعهم بعض الضباط بمحاولة للاطاحة بالنظام الجديد . ونتيجة لذلك قام مجلس قيادة الثورة بحل جميع الأحزاب القديمة واعتقال السياسيين ومحاكمة الضباط أمام المحكمة العسكرية . وبعد عام من هذا الحدث وفى ١٢ يناير ١٩٥٤ بالذات حاول الاخوان المسلمون أيضا الاستيلاء على الحكم . واستعملوا أساليبهم القديمة فحرضوا طلبة جامعة القاهرة على القيام بمظاهرات ضد الحكومة أثناء اجتماع لاحياء ذكرى

أولئك الذين فقدوا حياتهم فى النضال ضد الانجليز فى منطقة القناة .

وكان رد فعل مجلس قيادة الثورة سريعا وحاسما . فاعتقلوا قادة الاخوان المسلمين وحلوا تنظيمهم . ولكن الاخوان لجأوا مرة أخرى إلى العمل السرى . ففى مارس تقدم أعضاء جماعة الاخوان المنحلة فى مظاهرة إلى ما أطلق عليه القصر الجمهورى فى عابدين وهم يلوحون بلافتات ملطخة بالدماء ويرددون شعارات ضد الثورة . ويبدو أنه لا يوجد شىء يمكن أن يرضيهم . لم يكن يرضى الاخوان المسلمين أن الحكومة الجديدة قد بدأت فى التخلص من التدخل الأجنبى فى مصر أو أنها تخلصت من الملك الفاسد . . لقد كانوا يريدون السلطة المطلقة ولا يتوقفون عند أى شىء للحصول عليها . كانت تلك أياما مضطربة . كان من النادر فى سنوات الثورة الأولى أن يبقى أنور فى البيت إذ كانت اجتماعاته مع الثوريين الآخرين تمتد إلى ساعة متأخرة فى الليل . ومرة أخرى بدأت أقضى أوقاتى وحيدة ولكننى فى هذه المرة لم أشعر بهذه الوحدة فقد كنت بدأت مشروعا خاصا بى . . كنت أنتظر حادثا سعيدا .

بعد قيام الثورة بقليل تعرضت لحالة إجهاض واعتقدت فى ذلك الوقت أنه بسبب المشى لساعات طويلة ـ حين سمعت هذا الخبر السعيد ـ لكى أختار ملابس فترة الحمل وحاجيات المولود الجديد . والآن فى صيف ١٩٥٤ قررت ألا أكرر ما حدث من قبل ولزمت الفراش . ولكن الطبيب قال لى لابد أن تتركى السرير وتكثرى من الحركة لأن عضلاتك تحتاج إلى التمرين . ولكننى رفضت نصيحته . وبرغم أنى كنت فى سن العشرين إلا أنى كنت أجهل أشياء كثيرة فقد تخيلت مثلا أنى إذا وقفت فإن الجنين سيسقط . ولم أكن أجرؤ على التفكير فى أنى سأصبح أما خوفا من أن أفقد الجنين ، ولذلك كنت أقضى وقتى فى السرير أقرأ الكتب وأتعلم التريكو والكروشيه وشغل الابرة . وكانت أمى وأبى وأختى يأتون أحيانا لزيارتى وكنت سعيدة بذلك وزاد إنتاجى من أغطية الأباجورات وأغطية المقاعد وغيرها من الأشغال اليدوية .

وعلى الرغم من احتياطاتى فقد وضعت فى الشهر السابع . ففى سبتمبر ١٩٥٤ جلس أنور بجوارى طوال الليل فى المستشفى بينما كان القلق يبدو على وجوه الأطباء . وكنت أداوم السؤال حول ما يحدث متسائلة : « هل سيكون الطفل على ما يرام ؟ » ومن خلال آلامى كان وجه أنور يختلط مع وجوه أمى وأبى وأختى وأخوتى ، وكانت تلك الوجوه تقول لى « لابد أن تسترخى » ولم أسمع الأطباء وهم يخبرون أنور أن الطفل فى وضع غير طبيعى وأن قدميه إلى أسفل بدلا من رأسه وأن ضربات قلبه ضعيفة وأن فرصته للحياة لا تتعدى خمسين فى المائة » ولم يقل لى أنور أى شىء من هذا . وبمجرد أن أفقت من تأثير المخدر قال لى أنور : « لقد جاءتنا طفلة جميلة يا جيهان » . لم أصدق عينى حين رأيتها . . إنها جميلة بيضاء البشرة ولها عينان زرقاوان .

لم أكن أريد أكثر من أن أحتضن ابنتى وجعلت أمسك بأصابع لبنى الصغيرة ، وأصابع قدميها ولكن سرعان ما تحولت سعادتى إلى دموع فإن إحدى قدميها تحركت حين لمستها بينما لم تتحرك القدم الأخرى . وصرخت فى الطبيب قائلة : « هناك شىء غير طبيعى » ، فقال لى أنه أثناء الولادة العسرة كادت أعصاب القدم اليمنى أن تقطع . وأكد لى أن هذا شىء مؤقت . وفى نفس اليوم وضع مشدا جلديا على قدمها حتى تنمو بطريقة طبيعية .

إنى عادة لا أعتقد فى الخرافات ، ولكن فى الحال وضعت خرزة زرقاء على مهد لبنى لتبعد الحسد عنها . وقد أشار القرآن الكريم إلى الحسد فى سورة (الفلق) « ومن شر حاسد إذا حسد » . ونحن نعتقد فى مصر أن اللون الأزرق يبعد العين الحسود . وفى اليوم السابع من ولادة لبنى أقمت (السبوع) ولا يولد طفل فى مصر غنيا كان أو فقيرا إلا أقاموا له (سبوعا) لأن الطفل أكبر هبة من الله على الاطلاق . وكما هى عادتنا بقيت فى الفراش أسبوعا بينما ازدحمت حجرتى بالقريبات والصديقات والجيران للتهنئة وليشاهدوا لبنى . وكنوع من الاحتياط وضعت خرزات زرقاء على الملابس التى كنت أرتديها لأنهم يقولون أن السيدة

بعد الوضع تكون عرضة للحسد ليس فقط هى وحدها وإنما أيضا مولودها الجديد ، ولكى أحمى نفسى ـ كما تفعل الأخريات ـ علقت بعض الخرز الأزرق حتى لا يجف اللبن منى أثناء الليل . . ووضعت بجوارى « قلة » لبنى التى كان أقاربى قد زينوها فى الليلة السابقة بالشرائط الحريرية والدانتيل وأيضا بقرطين صغيرين يرمزان إلى أن المولود الجديد أنثى ، وقامت عماتى وبناتهن وغيرهن من الصديقات بتناول رشفة من « القلة » لجلب الحظ للبنى أو كرمز للخصوبة . ولا أدرى أيهما أصح . ثم بدأ « السبوع » . . ووضعت عمتى زوزو لبنى فى الغربال بكل حرص لتعطى الفرصة لأى روح شريرة لتنساب من جسمها أثناء الاحتفال ، وبدأت بنت عمتى عايدة تدق « الهون » وبدأت السيدات يغنين « حلقاتك برجالاتك » وينشدون الأغانى التقليدية « اسمع كلام أمك . . اسمع كلام أبوك » ثم أشعلن جميعا الشموع ، وحملت عمتى زوزو لبنى فى الغربال كما حملتنى من قبل أثناء سبوعى وبدأت الزفة التقليدية .

كانت أختى داليا فى المقدمة وهى تدق « الهون » وخلفها النساء حاملات الشموع . وكنت أشعر بالسعادة وأنا أرقد فى سريرى وأنصت إلى الزغاريد المجلجلة وإلى الغناء وهو يملأ الجو ، وكانت النساء ينثرن حبات القمح كرمز لمستقبل مشرق للمولود كما ينثرن الملح كنوع من رد عيون الحاسدين ، وهن يرددن : « حصوة فى عين اللى يشوفك وما يصلى على النبى » وفى كل حجرة كن يطلبن من لبنى أن تطيع أبويها وتحترم الكبار وهى النصيحة التى توجه إلى كل طفل فى يوم « سبوعه » . وشعرت وأنا فى سريرى بالرضا الكامل وأنا أنصت إلى الزغاريد وهى تزف لبنى ، وشربت كوبا من « المغات » وهو الشراب « المحوج » الذى يعد خصيصا من الحلبة للأمهات الحديثات الولادة للمساعدة على إدرار اللبن . وفى الغرفة المجاورة كان هناك إناء كبير ملىء بالمغات وأطباق بها الشكولاتة فى انتظار ضيوفى أو أى شخص آخر قد يحضر لزيارة لبنى ، وكانت سعادتى كاملة عدا القلق الذى كنت أشعر به بسبب قدم لبنى . وعلى طول الشهور

الثلاثة التالية كنت أصحب لبنى إلى الطبيب كل يوم لعلاجها بالكهرباء . وكنت فى البيت أدلكها وأحركها وفقا لتوجيهات الطبيب وذلك لكى تنمو عضلاتها . ولم أترك لبنى مطلقا ولا حتى أيام الجمعة وكنت أقول لأنور « لنبق فى البيت معها بدلا من الخروج » وكان أنور يبقى معنا فى البيت متلهفا فى تعلق شديد بإبنتنا .

ولكى لا أقلق أنور فى نومه انتقلت إلى حجرة أخرى مع لبنى ، وكنت أراقبها أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، وفى المرة الوحيدة التى تركت البيت بدونها كنت تعسة . كنت قد أهملت مظهرى منذ ولادتها ثم فكرت أن أتركها مع أختى وأذهب إلى « الكوافير » ، ولكن حين جلست تحت « السشوار » بدأت الدموع تنهمر على وجهى : « هل لبنى بخير ؟ هل هى جائعة ؟ هل هى تبكى ؟ وأسرعت إلى شقتنا ولا تزال الدموع فى عينى . وقالت لى أمى لتطمئنى « أنها بخير » .

وفجأة تحرك أصبع قدمها . رأيته بنفسى وكنت غير مصدقة ، ثم رأيته يتحرك مرة أخرى ، فأسرعت بها إلى الطبيب وفحصها وطمأننى أن طفلتى تنمو صحيحة البدن وقوية ، كان مفروضا أن يكون هذا اليوم هو أسعد أيام حياتى ولكن قدرى الذى تحكم فى حياتى بقية عمرى كان يفرض علىّ أن تظل الأحداث السياسية تلقى بظلالها على سعادتى الشخصية . أن لبنى ستكون بخير الآن ، ولكن ما هو مصير زوجى ؟ لقد بدأ ينتابنى مرة أخرى بعد شهر واحد من ولادة لبنى ذلك الخوف الذى سيسيطر على حياتى مع أنور .

وفى يوم ٢٦ أكتوبر جاء فى بلاغ أذاعته الاذاعة أن محاولة وقعت لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر فى الاسكندرية ، وقد أطلقت ثمانى طلقات ولكن عبد الناصر لم يصبه أى ضرر .

كنت فى البيت مع لبنى حين سمعت تلك الأخبار المخيفة . . محاولة لقتل عبد الناصر . . لماذا ؟ كان ذلك وقتا للاحتفال لا للعنف . منذ أسبوع واحد تم توقيع اتفاقية الجلاء المصرية الانجليزية التى أنهت أخيرا احتلال البريطانيين

لمصر . عبد الناصر الذى قاد الوفد المصرى فى المحادثات مع بريطانيا ذهب للاحتفال بتوقيع هذه الاتفاقية فى اجتماع فى ميدان المنشية بالاسكندرية ، وهناك أخرج سباك صغير مسدسا وبدأ فى إطلاق نيرانه . لقد كاد عبد الناصر أن يقتل . وكان المعتقد أن هذا السباك له علاقة بالاخوان المسلمين ، وبدأت ردود الفعل .

تم استجواب الآلاف واعتقال المئات وأعلن أن التحقيقات كشفت عن وجود مؤامرة متكاملة للاخوان للاطاحة بالحكومة . وفى القاهرة كان يبدو أن التآمر يحيط بنا من كل الجهات ، فقد هرب اثنان من أبناء عمومتى إلى الخارج خوفا من الاعتقال كأعضاء فى الاخوان المسلمين ، وهكذا فعل عبد المنعم عبد الرؤوف وهو صديق وزميل لأنور وكان معروفا بأنه زعيم المجموعة التى تؤيد الاخوان فى داخل الجيش ، وحتى نجيب نفسه ظهر أن له اتصالات مع الاخوان وقد أقصى عن الرئاسة وحددت إقامته .

وفى نوفمبر ١٩٥٤ تكونت محكمة الشعب لمحاكمة جميع المتآمرين على النظام ، وكان أنور الذى أصبح وزيرا للدولة منذ أيام قبل مولد ابنتنا قد عينه عبد الناصر واحدا من القضاة الثلاثة فى محكمة الشعب . وكانت مهمة محكمة الشعب والمحاكم العسكرية محاكمة أكثرمن ألف شخص وجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى ، وحكم على ستة منهم بالاعدام . وبدأت المكالمات التليفونية مرة أخرى . . « هل هذا بيت السادات ؟ » . . « نعم ، من المتحدث » ، « هل هو موجود ؟ » . . « لا ، ليس موجودا الآن » « من الذى يتحدث ؟ » « إننى زوجته » . . « إذن لتعلمى أننا سنقتل زوجك » . . « من أنتم ؟ » . . « ليس هذا بالشىء المهم ، ولتعلمى أننا سنقتل السادات لما فعل بالاخوان المسلمين » . . وتنتهى المكالمة . وأحيانا كانت تصل تلك التهديدات عن طريق البريد . وأحيانا أخرى من تقارير المخابرات الحكومية . وحين كنت أجلس مع ابنتى الصغيرة فى شقتنا بدأت أخاف من جرس التليفون ، وكنت فى كل مرة يدق يبدأ قلبى فى الخفقان ، وتسرع ضرباته من الخوف . . وكان أنور ينصحنى

قائلا : « أعيدى السماعة إلى مكانها . . ولا تردى على التليفون » ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى ، كنت دائما أنصت باهتمام لعل هناك طريقة لأحميه . وحاولت جاهدة أن أخفى مخاوفى عن أنور فقد كان عليه أن يؤدى واجبه فى المحكمة دون أن يقلق علىّ . كيف يفكر الاخوان المسلمون فى قتل زوجى الثائر الذى كان قريبا منهم قبل الثورة ؟ . . هل سأصبح أرملة فى سن الحادية والعشرين ؟ هل ستكبر ابنتى (لبنى) بدون أب ؟

وكان أنور يحاول أن يطمئننى قائلا « لا تقلقى ، إن هؤلاء الذى يقتلون فعلا لن يتصلوا تليفونيا ليخبرونا أنهم سيقتلون . إنهم يهددوننى عبر التليفون لمجرد خلق متاعب لك وليدفعوك إلى القلق » . وكنت أتعلق بكلماته محاولة أن أصدقها ، ولكن تأتى المكالمة التالية لتقضى على ذلك . وخصص لنا حراس لحمايتنا ووضع واحد أمام باب شقتنا بينما وزع الآخرون فى الشارع أمام البيت ، وقد رحبت بوجودهم من ناحية ، ولكن من ناحية أخرى أحسست أن مجرد وجودهم يؤكد الخطر الذى يتربص بأنور . كنت متأكدة أنه سيقتل . ما الذى أستطيع عمله لانقاذه ؟ لم أكن أستطيع أن أفكر فى شىء آخر . لم أكن أشعر فى هذه الفترة بأننى مهددة أيضا ، ولكن بعد أن أصبح أنور رئيسا لمصر وسافرت إلى جميع أنحاء البلاد مكرسة نفسى لمشروعاتى بدأت أشعر أننى أتعرض للتهديد أيضا ، ولكن فى البداية كانت حياة أنور هى المهددة . وسمعت أصوات إطلاق النيران وقفزت من سريرى وجريت إلى الشرفة وأنا أنظر من ارتفاع تسعة أدوار لأبحث عن جثة فى الشارع . وأحسست أن ما كنت أخشاه قد حدث أخيرا . لقد أطلق الرصاص على زوجى ، لكنى لم أستطع أن أرى أى شىء وارتديت ملابسى بسرعة على استعداد لأن أسرع فى نزول الدرج بحثا عن جثته . ولكنى توقفت . ماذا سيعتقد الحراس ؟ إنى خائفة ؟ أو على الأقل سيعتقدون أننى امرأة مجنونة تندفع إلى الشارع فى الساعة الثانية صباحا ؟ . وأقول لنفسى من الأحسن ألا أذهب . علىّ أن أكون محترمة وهادئة . ولكن صوتا آخر فى أعماقى يقول :

اذهبى بهدوء إلى الدور الأسفل واسألى بهدوء عما حدث . لا يا جيهان . . . لا تنصتى إلى هذا الصوت . كونى زوجة صالحة والبثى فى البيت محترمة . وكان الصوتان يتصارعان فى رأسى وأنا أسرع ، جيئة وذهابا بين الباب الأمامى لأذهب إلى أنور وبين الشرفة لأنصت إلى المزيد من الطلقات .

ومرت خمس عشرة دقيقة وسمعت مفتاح الباب يدور وفجأة كان أنور أمامى وعلى شفتيه ابتسامة عريضة . وقال وأنا أرتمى بين ذراعيه باكية : « ماذا بك يا جيهان ؟ » ، وقلت وأنا أخبره عن الطلقات النارية : « لقد اعتقدت أنهم قتلوك » . وضحك تلك الضحكة العميقة التى أعرفها له وقال وهو يرفع وجهى إلى وجهه ليتأكد أنى مصغية : « أنصتى جيدا يا جيهان . حين تحين نهايتى فلا أنت ولا أى شخص آخر فى استطاعته أن يمنعها تذكرى قول الله تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » وحين يأتى أجلى فلا رادّ له سواء أكنت هناك لتسرعى بى إلى المستشفى أو لا . لن يختلف الموقف كثيرا أو قليلا ، فهدئى من روعك واهدئى . ولا يوجد شىء تستطيعين أن تفعليه ليضيف يوما واحدا إلى حياتى حتى ولا لحظة واحدة » .

وطبعا كنت أعرف أنه على حق . إنه المصير المحتوم . لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يغيّر ما كتبه الله لنا . وظللت أتذكر طوال حياتى تلك الكلمات التى نطق بها أنور فى تلك الليلة أن أى شىء أفعله لا يمكن أن يضيف لحظة واحدة إلى عمره . وكانت تلك هى الحقيقة . لم أستطع أن أفعل أى شىء له يوم قتل ، إن ما حدث كان بالضبط كما توقعه .

وبرغم ذلك فقد كنت ـ طوال حياتنا معا ـ ينتابنى ذلك الاحساس ـ إن مصيرى هو أن أفقد أنور وأن علىّ على الأقل أن أؤجل نهاية حياته . ولم أكن لأقبل فى أعماق قلبى عجزى السلبى عن حمايته . وتذكرت أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : « هل يربط ناقته حين الصلاة أم يتركها فى حماية الله

سبحانه وتعالى ؟ » فقال النبى : « أعقلها وتوكل » . وطبعا لم أكن أستطيع أن أفعل مثل ذلك ، وإنما كنت دائما أشعر أن علىّ أن أفعل شيئا . لقد كنت دائما فى صراع . هل سأعرف اللحظة التى أحقق فيها مصيرى وأنقذه ؟ أم أن حمايته حقا ليست فى يدى ؟ .

ويبدأ ينتابنى صداع شديد لازمنى حتى بعد وفاة أنور ومازال مستمراً حتى هذه اللحظة . وكانت قد بدأت أعراض ذلك الصداع منذ تهديدات الاخوان المسلمين . يبدأ الألم من خلف رقبتى ويصعد تدريجيا إلى أعلى داخل رأسى حتى لأشعر أن رأسى تتحطم ، ولا يبقى أى طعام فى معدتى ، وتغشش رؤيتى وأشعر أن كل ضوء أراه مثل نصل سكين ساخن . ولم يفلح معه أى دواء أشار به الأطباء فى مصر أو أثناء سفرى فى الخارج . وكان الأطباء . يخبروننى دائما بعد الكشف على حين لا يجدون شيئا من الناحية الاكلينيكية « إنك تعانين من صداع بسبب التوتر » . وكنت طبعا أعرف ذلك . ولكن الذى لم يستطيعوا أن يفهموه هو ذلك الضغط الذى كنت دائما أعيش تحت وطأته .

وسألنى طبيب فى باريس : « كيف تتعاملين مع آلامك ؟ هل تصرخين أو تبكين ؟ » فقلت له : « أبدا » .

فاستمر فى أسئلته « إذن ماذا تفعلين ؟ » .

فقلت له : « إن أقصى ما أفعله حيثما كنت هو أن أعتذر واحبس نفسى فى الحمام وأطلق العنان لدموعى . ثم أغسل وجهى حتى لا يلاحظ أحد ما كنت فيه » . ذلك كان مخطط حياتى ، أدارى آلامى بينما أجعل كل من حولى يعتقدون أنى أشعر بالأمان والرضا . إن ذلك الهدوء الذى يبدو فى الظاهر كان واجبى نحو بلدى ونحو زوجى خاصة . إن صداعى كان ثمن حبنا .

وقلت لزوجى فى أحد أيام الجمعة وهو اليوم الوحيد الذى كان يقضيه معى « علمنى قيادة السيارة يا أنور » . إن معظم الزوجات الشابات اللاتى عرفتهن كن

يرغبن فى تعلم القيادة حتى يستطعن الذهاب لشراء حاجياتهن من أماكن مختلفة أو ليأخذن أطفالهن خارج القاهرة إلى الريف . . لكن الدافع وراء رغبتى فى تعلم القيادة كان مختلفا . لقد فكرت : إذا كنا فى السيارة بمفردنا وقام أحد المتعصبين بالاعتداء على زوجى فماذا أستطيع أن أفعل ؟ هل أجلس فى مكانى لا حول لى ولا قوة بينما يموت زوجى أمامى من كثرة الدماء التى تتدفق منه ؟ ولكن إذا كنت أعرف القيادة فإنى على الأقل كنت أنقله للمقعد الآخر وأتولى بنفسى القيادة إلى المستشفى . . وفعلا تعلمت قيادة السيارة .

وقلت له بعد ذلك : « علمنى كيف أطلق النار يا أنور » ، فنظر إلى فى حيرة ولكنه لم يوجه إلى أية أسئلة وقال : « كما تريدين » . .

وصحبنى فى يوم الجمعة التالى إلى الصحراء عند الأهرام وأعطانى مسدسا صغيرا ، وشرح لى كيف أستعمله ، وكيف أصوب نحو الهدف ، ثم وضع علبة من الصفيح فى الرمال ولكنه قال : « إنى لا أوافق على استعمالك المسدس » ، فقلت له : إنى اعرف ، ولكنى سأشعر بالأمان أكثر حين يكون معى . فقال : « إنى أعرف ولكنى أرجو ألا تستعمليه فى شىء خطأ » ، وضحكت قائلة : « هل تتوقع أنى سأسرق بنكا ؟ » فقال : « حاولى أن تصيبى العلبة » ، وأطلقت النار المرة بعد المرة ولكن بلا فائدة . لقد كنت فى ذلك الوقت ـ مثلى الآن ـ أقاسى من قصر النظر ، وفى كل مرة أطلق فيها النار كان المسدس يرتد فى يدى وتطير الرصاصة بعيدا عن العلبة ، ولم أكن أتوقف عن القفز خوفا من صوت الرصاص وأخيرا قلت : « يبدو أن كل ما على أن أفعله هو أن أصرخ وأستغيث بالحراس لانقاذك . سيكون هذا أسهل من تعلم إطلاق النار » . وبدا أنور وكأنما قد أزيح عبء عن صدره . .

كان أنور وعبد الناصر يقضيان معا وقتا طويلا ، فيتناول أنور عشاءه فى بيت عبد الناصر أو يتناول هو عشاءه فى بيتنا . وأحيانا ـ وخصوصا فى المناسبات ـ كنت أذهب إلى بيت عبد الناصر فى المناسبات الرسمية . وكانت العلاقة بينه وبين

زوجته تبدو لى رسمية وتقليدية ، فتحية لم تكن تخاطب زوجها أبدا باسمه ، بل دائما بالريس ، حتى أمامنا . وكذلك كان يفعل أولاده الخمسة . وكانت تحية خجولا ومتواضعة جدا ، ونادرا ما تتحدث فى أثناء الطعام الذى نلتقى عليه ، ولم تشارك مطلقا فى أى حديث فى السياسة . . الموضوع الدائم على المائدة .

كان أنور يحب عبد الناصر ويحترمه كثيرا جدا ، وأنا أيضا . ولكن أحيانا كان عبد الناصر صعبا جدا . إنه كثير الشك إلى درجة كبيرة ، وهى « خصلة » عادية فى أبناء الصعيد فكثير منهم فى طباعهم غيرة وحدّة . كنت أشعر بالأسف أحيانا من أجل عبد الناصر ، لمعرفتى كم يتعذب بارتيابه فى إخلاص هؤلاء الذين حوله . ولكنى فهمته . .

لقد اشتعلت طبيعته الشكاكة بعد نجاح الثورة مباشرة . لقد كانت عشر سنوات من السرية التى أحاطت تنظيم الضباط الأحرار فى منتهى النجاح فى بلد كثير من الأسرار فيه معروفة لكل إنسان ، مما حدا بناصر إلى أن يشعر باستمرار بإمكانية قيام نفس المؤامرة ضده . وقد غذى شكوكه أكثر بطانته المحيطة به من الذين حاولوا إثبات إخلاصهم بإضافة مؤامرات خيالية كل فترة إلى المؤامرات الحقيقية التى دبرتها الجماعات الاسلامية والأحزاب السياسية الأخرى .

كان عبد الناصر يثق فى أنور أكثر من غيره ، مدركا أنه زاهد فى السلطة لنفسه بقدر اهتمامه الحقيقى بنجاح الثورة ، لكنه كان مصابا بالتوجس والريبة فى اخلاص الآخرين وصدق نواياهم . . وفطنت بطانته إلى ذلك ، واستغلت عقدته لجمع السلطة فى أيديهم بالتخلص من خصومهم ، وذلك بالقبض عليهم وإيداعهم المعتقلات إتقاء لمؤامرات مفتعلة لقلب نظام الحكم . . وتفشت الظاهرة حتى شكلت إرهابا حقيقيا أشاع الذعر بين أفراد الشعب ، واعتقد الناس أن الاعتقال احتمال قائم حتى لو كتموا أنفاسهم ، وجرت على الألسنة ، كعادة المصريين إزاء الأمور إذا تأزمت ، فكاهات وقفشات لعل أشهرها هذا الحوار : ـ

أحدهم ـ الجو اليوم حار جدا ، ولا يطاق !

فأسرع صاحبه بالرد عليه :

ـ ألم نتفق على ألا نناقش السياسة أبدا ؟

وكان هذا الذى يحدث فى مصر يكدر أنور جدا ، فقلت لزوجى :

ـ إنه فى دمه . أن ناصر لا حيلة له فى ذلك .

كان يبدو على الغالبية أنها توافق ، لأن ناصر ظل محبوبا جدا عند الناس . وليس كمثل السياسيين الرسميين في أيام الملك فاروق . كان ناصر يخطب فى الناس بلغتهم اليومية الدارجة لا باللغة الفصحى . وكان الناس يرون فى ناصر ابن البوسطجى ، واحدا منهم ، رجلا مثلهم ، يأكل الفول على الافطار ، يصلى كل جمعة فى المسجد ، وكل خميس فى أول الشهر يستمع لحفل أم كلثوم من إذاعة القاهرة . كان ناصر مصريا بكل ما فى الكلمة من معنى .

لقد أشاع فخرا جديدا وكرامة بين المصريين . فبالرغم من أن كثيرين ظلوا فقراء جدا إلا أننا أصبحنا أخيرا سادة بيوتنا ، وجعلت روح المساواة الجديدة الهواء جديدا . ولم تعد الطبقة الراقية تتحدث فيما بينها باللغة الفرنسية ولكن باللغة العربية . ولم تعد مصر تحكم من السفارة البريطانية ، ولكن من مكاتب الوزارات المصرية . وبعد آلاف من السنين من الحكم الأجنبى ، كنا نعيد اكتشاف ميراثنا .

وتحت حكم عبد الناصر ، بدأت مصر تقطع روابطها الأوربية ، وتبسط يدها للعرب والدول الاسلامية . وفى ١٩٥٥ عين جمال أنور سكرتيرا عاما للمجلس الاسلامى الذى شكل حديثا . وراح أنور يقضى كثيرا من وقته على مدى السنوات القليلة التى أعقبت ذلك فى زيارة الملك حسين فى الأردن ، والملك محمد الخامس فى المغرب ، ويسافر أيضا إلى ماليزيا وأندونيسيا وباكستان وإلى كل

البلاد الاسلامية تقريبا ، وأصبح قريبا من الأسر الحاكمة لدول الخليج والعائلة المالكة فى السعودية .

ومع ذلك ، لم يكن الطريق يبدو سهلا أمام عبد الناصر . فقد كان الخطر يهدد مصر من الداخل والخارج . ففى يناير ١٩٥٥ ضغط أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا على جمال عبد الناصر لينضم مع تركيا والعراق وباكستان فى حلف بغداد ، ومعاهدة دفاع تتحكم فيها بريطانيا . فرفض جمال بالطبع ، فقد كان قد وضع لتوه بنجاح نهاية للوجود العسكرى البريطانى فى مصر . وفى انتقام سريع شرعت إسرائيل تساندها بريطانيا والولايات المتحدة عندئذ فى سلسلة هجمات دموية على معسكرات الجيش المصرى فى المنطقة المنزوعة السلاح فى سيناء ، ومهاجمة غزة وكونتللا وصابحة . وغيرت هذه الهجمات فى آخر يوم من شهر فبراير ١٩٥٥ مجرى الثورة وعبد الناصر والشرق الأوسط كله .

الأسلحة . . لقد أصبحت الأسلحة أهم شىء فى عقول عبد الناصر وأنور والثوار الآخرين . وحتى تلك اللحظة ، لم تفكر الحكومة الثورية فى إمكانية الحرب مع إسرائيل . فكل ما كان يتكلم عنه عبد الناصر سواء على الملأ أو بشكل خاص كان عن إصلاح المجتمع المصرى ، وحاجة الحكومة لانفاق أموالها فى القضاء على أعداء مصر التقليديين الثلاثة : الفقر والجهل والمرض . والآن أصبح كل كلامه عن شراء الأسلحة . كان جيشنا لا يزال مجهزا بالأسلحة الفاسدة عتيقة الطراز التى اشتراها فاروق ، الأسلحة التى خذلت مصر بشكل بائس فى حرب فلسطين .

واتجه عبد الناصر للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى أولا بطلب الأسلحة ، فحصل فقط على شروط غير مقبولة وضعها جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة وإيدن رئيس الوزراء البريطانى . كان إيدن مترددا فى البداية ، فى بيع الأسلحة للمصريين ، حتى توصلت الحكومة الجديدة إلى اتفاق بشأن وضع قناة السويس ، ممر الكتلة الغربية إلى الهند والشرق . عندئذ رفع

إيدن مطالبه . وأعلن أن بريطانيا لن تبيع مصر أى سلاح على الاطلاق إلا إذا وقعت حلف دفاع انجليزى مصرى جديد . فرفض جمال عبد الناصر بالطبع .

وكان العرض الذى قدمه دالاس أكثر تنازلا : يمكن للأسلحة الأمريكية أن تقدم لمصر فى حالة تحكم مستشارين عسكريين أمريكيين فيها ، ورفض جمال عبد الناصر عرض دالاس أيضا ، حيث أنه لن يضحى بالاستقلال الذى نالته مصر أخيرا لتصبح دمية عسكرية للولايات المتحدة .

وغضب كلا القائدين الغربيين من جمال عبد الناصر لعدم قبوله شروطهما . ولكنه كان قد صمم ألا يتحكم فيه أحد . وكان لدى مصر تقليد حيادى وافق العصر وفرضته حكومة الوفد واستمر تحت حكم كل من الملك فاروق والرئيس نجيب . وفى أبريل ١٩٥٥ جعل ناصر حياد مصر رسميا . وأعلن بعد حضوره أول مؤتمر آسيوى أفريقى لدول عدم الانحياز فى باندونج بأندونيسيا أن مصر سوف تنضم لمجموعة دول عدم الانحياز بالعالم الثالث . وبذلك حسمت كل محادثات السلاح بين مصر والولايات المتحدة وبريطانيا بصفة قاطعة ، وأجبرت ناصر للاتجاه نحو الشرق لحاجاته العسكرية . وفى سبتمبر ١٩٥٥ وقع ناصر اتفاقية أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى .

ومع سنة ١٩٥٦ كانت الثورة المصرية تدخل مرحلتها الثانية . لقد وضع دستور جديد قيد التنفيذ منح مصر نظاما حكوميا جديدا مع رئيس منتخب . وعندما أجرى أول استفتاء شعبى للرئاسة فى يونيو ، لم يدهش أحد لانتصار جمال عبد الناصر الساحق . لقد أدليت بصوتى له بانفعال عظيم ليس فقط لأنى كنت أرى فيه قائدا عظيما بل أيضا لأن هذه كانت أول مرة يحق للمرأة فيها الانتخاب . وبدا المستقبل ساطعا . ورقص المصريون فى الشوارع بعد الانتخابات بفترة قصيرة عندما غادر آخر جندى بريطانى تراب مصر ورفع ناصر بنفسه العلم على القاعدة العسكرية البريطانية السابقة فى منطقة القنال .

ولم نكن مستعدين على الاطلاق للصدمة التى تلت ذلك بشهر واحد فقط

عندما ألغت الولايات المتحدة وبريطانيا التزامهما بالمساعدة المالية فى أعظم مشروعات مصر الأكثر إلحاحا : السد العالى بأسوان ، عقابا لمصر على تطاولها بعقد صفقة الأسلحة مع الكتلة الشرقية . وصدم ناصر صدمة كبرى عندما أخلّت الدول الغربية بكلمتها فقد كان السد العالى حلم مصر الطويل شيئا ضروريا لمستقبلنا .

ولم تعد مصر تستطيع أن تعتمد على اقتصاد قائم فقط على الزراعة . وكان السد العالى سيولد آلاف الكيلووات المطلوبة للبدء فى عملية التصنيع الأساسية . وسيساعد السد العالى على إطعام النمو السكانى المتضخم كذلك ، وسيسمح برى مليون فدان من الأرض البور حاليا فى الصحراء ، ويتيح للفلاحين أن يزرعوا ثلاثة محاصيل فى السنة بدلا من محصول واحد ، بالاضافة إلى أنه سيوفر كثيرا من الكهرباء المطلوبة لملايين من الفلاحين الذين عاشوا قرونا طويلة على مصابيح الزيت . لم يكن هذا مشروعا عبثيا . لقد كمن السد العالى فى قلب أحلام الثوار من أجل مصر . وقد حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا وأده تشفيا وتأديبا !

واتجه ناصر مرة أخرى إلى الشرق ، وبسرعة قدم الاتحاد السوفيتى التمويل المطلوب للسد العالى . وتم إنقاذ المشروع الجوهرى . ولكن لم يعرف أحد كم شعر ناصر بأنه قد خدع بعمق من قبل الغرب إلى أن ألقى خطابه فى الاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ لاحياء الذكرى الرابعة لمغادرة فاروق أرض مصر . وطلب من أنور أن يلحقه فى الاسكندرية ، ولكن أنور لم يستطع أن يذهب فى آخر لحظة لشعوره بألم حاد فى معدته .

ـ آسف . .

وقال ناصر لأنور :

ـ أرجو أن تستمع لخطبتى بالاذاعة .

وأثناء استماع أنور فى القاهرة لخطبة ناصر ، استمعت لها أنا فى بور سعيد حيث كنت مع أسرتى . كما استمع إليها ملايين من المصريين الآخرين من أسوان

إلى الاسكندرية . ولم يصدق أحد أذنيه . كان ما نسمعه الآن يفوق أقصى أحلامنا .

كان ناصر يقول :

ـ لن نكرر الماضى ، ولكننا سوف نحذف الماضى . سوف نحذف الماضى بإعادة حقوقنا لقناة السويس . . إن هذه القناة ملك مصر .

وفى بور سعيد ، تطلعنا أنا ووالدى (أحدنا للآخر) فى دهشة . ماذا يقول ناصر ؟ واستمر قائلا :

ـ أثناء حديثى معكم الآن ، بعض من أخوتكم المصريين يتوجهون لادارة شركة القناة . والآن وفى هذه اللحظة ، يستولون على قناة السويس . . شركة القناة المصرية ، وليست شركة « القناة الأجنبية » ، ومن الآن فصاعدا سوف نبنى مستقبلنا بكرامة .

وانفجرت المظاهرات ، فى كل مصر . فى شوارع بور سعيد ، تشابكت أذرع الرجال وبدأوا يرقصون بينما صفقت النساء من الفرحة وأطلقت الزغاريد . واحتفل آخرون بنسف التمثال البرونزى لفرديناند دى ليسبس مشيد القناة الفرنسى ، حاولت ألا أنفعل ، لأنى كنت حاملا فى شهرين فى الطفل الثانى . ولكن كلمات ناصر وعمله الجسور أثارنا جميعا .

وفى شجاعة بالغة ، وقف بالمرصاد للقوى التى سيطرت على مصر طول هذا الوقت واسترد لمصر عزتها . وبجملة واحدة أمم ناصر قناة السويس ، وأصبح البطل الأسطورى لكل المصريين . ومن تلك اللحظة نادى ناصر بأن الـ ٣٥ مليون دولار العائد السنوى من القناة لن تذهب بعد الآن للشركة الفرنسية الانجليزية التى كانت تتحكم فيها ، ولكن لمصر مالكتها الحقيقية . وسيكون المال من الآن لنا لبناء السد العالى إذا أردنا ذلك . وسنشرف تضحية الـ ١٢٠,٠٠٠ مصرى الذين ماتوا وهم يحفرون القناة .

فركضت إلى التليفون وطلبت مكالمة لأنور بالقاهرة ، وصحت بانفعال :

- أنور هل تستمع للاذاعة ؟ هل سمعت ناصر يعلن أن قناة السويس أصبحت قناتنا ثانية ؟

ولم أستطع سماع رده ، كانت الضجة والهتاف من الناس المتجمعين فى منزلنا عظيمة جدا . وقلت عبر التليفون ، وأنا مشدودة لسماع رد أنور .

- ماذا ؟ ماذا تقول يا أنور ؟

وألقت كلماته برجفة فوق انفعالى ، وأخيرا سمعته يقول :

- إننى فى غاية السعادة وأؤيده تماما ، ولكنى قلق إزاء العواقب . فالغرب لا يقدر على فقدان القناة . ونحن لسنا مستعدين بعد لدخول حرب .

هل يوجد صوتٌ أكثر إزعاجا من نعيق زمارة الانذار ؟ ففيما عدا صوت المدافع ، لم أسمع أى صوت أكثر إزعاجا . وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، سمعت الصوت الذى جعلنى أرتعد بقية عمرى .

لقد وقف ناصر بحزم حتى بعد ما جمدت حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة كل الأموال المصرية فى دولهم لمعاقبته على تأميم قناة السويس . والآن ، وبشكل لا يصدق ، بدأت اسرائيل تغزو سيناء ، بينما بدأت فى نفس الوقت طائرات بريطانية وفرنسية فى إلقاء القنابل على القاهرة . لقد بدأ ما أصبح يعرف عندنا بالعدوان الثلاثى وعند الغرب بحرب السويس .

لقد بهتنا جميعا ، كيف يسوغ لدولتين من أقوى دول العالم أن تضما قواتهما إلى إسرائيل لتهاجم بلدا فقيرا . . مصر ؟ حتى ناصر ، عندما أبلغوه بالهجوم ، لم يستطع تصديقه إلى أن وقف فوق سطح منزله ورأى أن الطائرات التى تملأ القاهرة بطنينها يظهر على أجنحتها الشعار الفرنسى والبريطانى . ولكنه لم يرتعد . ففى أول يوم من أيام الهجوم أصدرت بريطانيا وفرنسا إنذارا ما بمنح عبد الناصر اثنتى عشرة ساعة لسحب قواتنا عشرة أميال غرب القناة ، ولا يسرى

هذا على القناة فقط بل على شبه جزيرة سيناء كلها . ورفض ناصر الانذار ، ورفض معه الاذعان لتكتيكات القوى العظمى التهديدية .

وجاءت الطائرات . وأخذت أهدىء من روع ابنتنا الصغيرة المتعلقة بى فى فزع بينما صفارات الانذار تعوى :

ـ لبنى ، لا تخافى . .

وكانت التعليمات أن ننزل فى المخابىء أثناء الغارات ، ولكنى كنت حاملا فى ستة شهور عندئذ ، وكان نزول وصعود تسعة طوابق من السلالم حاملة لبنى مرهقا . وبقينا عوضا عن ذلك فى شقتنا ، حيث كانت سماء الليل فى الخارج ساطعة كضوء النهار . تضيئها الصواريخ التى تلقى بها الطائرات حتى تستطيع قاذفات القنابل البريطانية والفرنسية أن ترى أين تلقى بأحمالها . ومع ذلك ، كان داخل الشقة ظلاما تاما بسبب إطفاء الأنوار الذى أمرت به الحكومة فى كل مكان بمصر . وظلت لبنى تتوسل إلىّ ، وقد خبأت رأسها فى رقبتى :

ـ افتحى النور .

وكان خوفها يتزايد عندما تحدث أصوات القنابل المتفجرة رجّة عبر شقتنا وكانت لبنى تبكى فى نحيب ليلة بعد ليلة وتقول :

ـ أنا خائفة . دعى الصوت يقف .

وحاولت ذات ليلة أن أحملها خارج ظلام الشقة إلى شرفتنا وقلت لها :

ـ أنظرى كم السماء جميلة .

وكنا نستطيع أن نرى طائرات العدو محلقة فوق القاهرة كلها وملقية بصواريخها التى تضىء المدينة بضوء ساطع رهيب . وكان الضوء الساطع الشديد يغسل كل الألوان الطبيعية ويجعل المبانى تبدو كأنها أمام أشعة إكس . وأخفيت خوفى لأحاول التخفيف عن لبنى وقلت لها :

ـ ألا تشبه السماء الألعاب النارية التى رأيتها فى احتفال الثالث والعشرين من يوليو ؟

ودأبت إذاعة راديو إسرائيل ولمدة سبعة أيام على تحذيرنا من أن طائراتها سوف تقصف المصانع بقنابلها فى إحدى الليالى ، وفى ليلة أخرى محطة الاذاعة ، وأخرى مكاتب الصحف الثلاث ، وكانت هذه الحرب النفسية تفزعنا جميعا . وكقدوة للعاملين فى صحيفة الجمهورية ، كان أنور ينام فى مكتبه بالصحيفة . وكنت أنا فى البيت بجانب سرير لبنى أغنى لها وأقص عليها القصص فى الظلام حتى تروح فى نوم متعب . وعندما أستيقظ كل صباح كانت لبنى فى سريرى ، وذراعاها ملتفان حول رقبتى . كان من المزعج أن أرى معاناة ابنتنا ، ومزعجا أيضا أن أتخيل معاناة الطفل الذى أوشك أن أضعه .

ومرة واحدة فقط نزلت أنا ولبنى إلى المخبأ ، بعد أن أمرنا قائد طوارىء الغارات الجوية الذى دقّ بابنا ، لأن الغارة الليلة كانت مقلقة بشكل خاص . فقد أعلنت إسرائيل أن الهدف هو كبارى القاهرة ، وكان منزلنا يقف على مشارف كوبرى عباس .

وعندما بدأت صفارات الانذار عويلها ، تزاحم الجميع فى الطابق الأرضى . واندفعت أنا ولبنى جهة صاحبة الشقة التى كانت تصرخ وتصرخ . فصحت فيها محاولة أن يعلو صوتى على صفارات الانذار وصرخاتها العالية :

ـ لماذا تصرخين ؟ أنت تثيرين قلق الآخرين .

فردت صائحة وعيناها تتدحرجان فى فزع :

ـ ألا تسمعين صفارات الانذار يا سيدة جيهان ؟

ـ فقلت لها :

ـ بالطبع أسمعها ، ولكن صراخك لن يجعل صفارات الانذار تتوقف ، سيكون لطيفا لو أوقفها ، ولكن ذلك لن يحدث كما تعلمين !

ونقلت لبنى على كتفى الأخرى . كانت الطفلة ترتعد فرائصها ، وعيناها مزمومتان ، وأذناها مسدودتان بيديها .

وقلت لصاحبة العمارة :

ـ إذا كنا سنموت ، فدعينا نموت على الأقل بطريقة كريمة . فلا يوجد ما نستطيع عمله ، لذلك لابد أن نكون هادئين .

فقالت السيدة لى :

ـ أنا لا أفهمك يا سيدة جيهان .

ولكنها توقفت عن الصراخ . وانتهت الغارة .

ولم نذهب إلى المخبأ مرة أخرى . وقال أنور فى الصباح التالى :

ـ ستذهبين مع لبنى لتقيمى مع أختك فى الريف .

فهززت رأسى وقلت له :

ـ سأرسل لبنى ، ولكنى أريد أن أبقى معك . هنا على الأقل نحن معا فى الخطر .

ولكن أنور كان مصمما ، على قضاء الليل فى الجريدة ليشجع العمال بوجوده .

ـ يجب أن تذهبى مع لبنى ، لا أريد أن أتمزق من القلق عليكما . وحتى ينتهى العدوان سوف أظل فى الصحيفة ليل نهار .

وهكذا ذهبت مع والدى ولبنى إلى عزبة عائلة زوج أختى فى محافظة البحيرة ، على بعد ساعتين من القاهرة .

وجلست بجوار الراديو ليل نهار أستمع لأخبار الحرب . وكنت لا أكاد أصدق ما كان يحدث بنا . كانت كل الأخبار سيئة . لقد تحطمت طائراتنا الجديدة التى استلمناها حديثا من السوفييت قبل أن يجد طيارونا الوقت للتدريب الكافى

على كيفية قيادتها . ودمرت مدينة بور سعيد الجميلة ودكت دكا ، وكذلك مدينتا السويس والاسماعيلية حيث قضيت ـ وأنا طفلة ـ الصيف الذى قابلت فيه أنور أول مرة ، كنا بلا دفاع ولكن ما يزال المعتدون يأتون . وسحب ناصر معظم قواتنا من شبه جزيرة سيناء لكى يقوى خطوط الدفاع عن الأراضى المصرية الأساسية ضد الغزو المتوقع . وفى يومين اكتسح الاسرائيليون سيناء وأصبحوا الآن عند قناة السويس .

وفى بسالة فائقة ، كان الفدائيون يحاربون مرة أخرى فى منطقة قناة السويس وحدهم ضد الغزاة الأجانب . وقامت النساء وسيدات الهلال الأحمر ـ تحت ستار إحضار الطعام لأقاربهن ـ بتهريب الأسلحة فى سلال إلى مدينة بور سعيد المحاصرة ، ليستخدمها الرجال فى الهجوم على القوات البريطانية والفرنسية . وأشعلت النيران فى ثكنات الأجانب بواسطة قنابل مصنعة محليا . وقامت فتيات فى سن المراهقة بإغراء الجنود الأجانب وإيقاعهم فى شراكهن لكى يقطع إخوتهن وأبناء أعمامهن رقابهم فى الحوارى . لم يكن هناك أمل فى أن يستطيع هؤلاء المدنيون العاديون أن يوقفوا بمفردهم الغزاة الأجانب ، ولكن العدوان الغاشم (وَلَّد) موجة جديدة من الوطنية وموجة من البطولة . ولقد قتل واحد من أصدقاء طفولتى فى بور سعيد وهو يحاول نسف قطار محمل بالجنود البريطانيين .

وبعد ثلاثة أيام من بدء الغارات القاصفة ، أعلنت الأمم المتحدة وقف إطلاق النار ، الذى وافقت مصر عليه فى الحال ، ولكن بريطانيا وفرنسا استعملتا حق الفيتو . وبعد خمسة أيام ـ فى ٨ يونيو ـ صدر إعلان ثان لوقف إطلاق النار قبلته كل الأطراف . ولكن القتال استمر فى منطقة القناة . ولم يحدث تدمير كثير للمنشئات فى القاهرة ، فقد تركزت الغارات الأساسية على مطار القاهرة وحوله ، ولكن حدث كثير من الأذى النفسى للناس وأنا منهم .

لقد خضت قلقا ذهنيا قاسيا وأنا فى البحيرة . ماذا يحدث فى القاهرة ؟ هل سيقتل زوجى وكل رجال الثورة الآخرين ؟ ولم أستطع إظهار خوفى بالطبع لأن كل واحد هناك كان ينظر إلىّ على أنى زوجة أحد رجال الثورة . فكنت أضحك

وأتحدث طوال اليوم مع عائلة محمود أبو وافية ، زوج أختى ، أثناء متابعتى للأخبار . ولكنى داخليا كنت فى رعب . وكانت خطب ناصر فى الإذاعة تنتقد الاعتداء علينا بحدة بينما تمتدح بسالة المصريين . وكان ناصر يبدو واثقا جدا ومتأكدا جدا ، وتعلقت بكل كلمة ، كما فعل كل المصريين . ولكنى فى الليل أحيانا كنت أفقد قلبى : « هل سترين أباك ثانية ؟ » ـ كنت أفكر وأنا أنظر إلى لبنى التى ما زالت رافضة النوم وحدها بسبب فزعها من أضوات القنابل التى تطن فى أذنيها ـ « أم ستصبحين بنتا يتيمة ؟ » .

وفى ١٢ نوفمبر ، بعد أسبوعين من بدء الطائرات قصف القاهرة ، بدأت الآلام . فصرخت قائلة :

ـ لا ، لم يحن الوقت بعد .

ولكن استمرت الآلام ، فصرخت ثانية :

ـ لا ، أرجوك يا ربى ، لا . إنى حامل فقط فى ستة شهور وأسبوعين . سيموت الوليد . أرجوك يا ربى ، لا .

ولكن توتر الحرب والغارات الجوية كانت أكثر من اللازم . وتصاعدت الآلام .

فقالت لى أختى فى الصباح :

ـ يجب أن نطلب أنور .

فهززت برأسى قائلة :

ـ لا أريد أن أضيف إليه عبئا جديدا . سأخوض ذلك مثل أى امرأة ريفية أو أى امرأة أخرى .

وبعد الظهر استدعت أختى طبيبا محليا ، فسألته :

ـ هل قمت بعملية توليد قبل ذلك ؟

فقال :

ـ نعم .

ولكنه قالها فى شىء من العصبية ، واعترف أنه ليس أخصائيا ولكنه طبيب ممارس عام .

وتحول قلقى إلى نوع من الهستريا عندما جاء الليل . بالتأكيد سيموت الطفل الذى سيولد قبل موعده بدون رعاية خاصة . ولا توجد مستشفى خاصة فى المنطقة ، وأما المستشفيات الحكومية فكانت مكتظة بالجرحى ، وحتى المستشفيات كانت يجب عليها أن تطفىء أنوارها فى الليل .

كان على أن أتماسك . يجب . ولكن هل كنت أستطيع ؟

ومع المساء كان رأسى على وشك أن ينفجر من الألم والقلق . (أسألك) يا ربى أن توقف المخاض . وأخذت أدعو الله بأن يؤخر الولادة مدة أطول . ولكن جاءت الآلام بشكل مركز وسريع . وتكلم زوج أختى من القاهرة ليطمئن علينا ، فقالت له أختى :

ـ جيهان فى مخاض ولادة مبكرة .

ونظرت إلىّ وقالت :

ـ هل يستطيع أن يخبر أنور ؟

فأومأت برأسى ، فقد كنت مرهقة غاية الإرهاق من أن أقاوم وحدى أطول من ذلك .

ورأيت الطبيب وهو يصل فى الثالثة صباحا يوم ١٣ نوفمبر بل كنت لا أكاد أراه من خلال ضباب الألم . ولم أكتشف إلا فيما بعد أن أنور قد أرسل فورا سيارة للدكتور محمد مجدى ابراهيم ، الطبيب الذى أشرف على ولادة لبنى من قبل . جمع الدكتور مجدى الأكسوجين والبنج والمعدات الجراحية التى أمكن توفرها فى المستشفى واندفع إلى البحيرة مع ممرضة ولادة وطبيب تخدير . واستغرقت الرحلة منهم أربع ساعات ، وهى تستغرق عادة ساعتين . كان يوجد حظر تجول

على سفر كل المدنيين ، وكان عليهم أن يتوقفوا عدة مرات فى نقاط تفتيش عسكرية لشرح مهمتهم . وكانت هناك عربات جيش كثيرة فى الطريق ، وبسبب إطفاء الأنوار كان عليهم أن يقودوا السيارة بدون أضواء . ولكنى لم أعرف شيئا من هذا إلا فيما بعد .

وحالما رأيت وجه الدكتور مجدى المألوف ، استرخت أعصابى ، وقلت له قبل أن يضع قناع التخدير على وجهى :

ـ الآن أستطيع أن أضع طفلى .

وانفجر كل القلق الذى أخفيته فى نفسى فى الأسبوعين الماضيين . فصرخت فى الطبيب المذهول أكثر من مرة : وأنا تحت تأثير المخدر .

ـ والله سينقذ بلدنا . . الله سينقذ جمال عبد الناصر . .

ووصلت وطنيتى القلقة إلى أعلى مداها تحت المخدر ، فصحت :

ـ لماذا تدمر بريطانيا بلدنا ؟ فَلْتَحْىَ مصر . . ولْيَحْىَ رئيسنا . .

وعندما استعدت وعيى ، أدركت أنى أنجبت ولدا صغيرا ، ولدا صغيرا جدا يزن ثلاثة أرطال فقط .

وكان الطبيب يقول ضاحكا لمن حوله فيما بعد :

ـ إنه أول ولادة سياسية لى .

ولم يذهب مخاضى الوطنى هباء .

كان ابنى صغيرا ، صغيرا جدا . وكانت ليلة من نوفمبر باردة ، فبسرعة انطلقوا بنا ملفوفين فى بطاطين إلى مستشفى مجدى بالقاهرة . فوضعت الممرضة قناع الأكسجين على وجه الطفّل الضئيل ، ولكنه ظل يصدر (شهقات) غير طبيعية ، وعرفت بأن هناك شيئا ما خطأ فى رئتيه . وفى الطريق إلى القاهرة أوقفونا أكثر من مرة عند متاريس الطريق ، ويسألوننا :

ـ من أنتم وإلى أين تذهبون ؟ كنت واهنة القوى فلم أستطع أن أقول شيئا .

وبعد ما أضاء واحد من الشرطة العسكرية بطاريته فى وجهى سمحوا لنا بالاستمرار .

كنت مازلت أشعر بدوار من المخدر . وخُيِّل إلى - وأنا فى السيارة - أننا نلعب مشهدا من فيلم « ذهب مع الريح » حيث أنجبت ميلافى طفلا فى وسط الحرب الأهلية بدون أى استعدادات أو أجهزة طبية . ورفضت استخدام كرسى متحرك عندما وصلنا للمستشفى ، لم أستطع الوقوف فكان على أن أستخدمه إلى الداخل . وأسرعوا بإدخال الطفل خيمة أوكسجين لأن رئتيه لم يكتمل نموهما بعد حتى يستطيع أن يتنفس .

وظل رأسى يدور كالدوامة فى حجرتى بالمستشفى وأنا أطفو على حافة الوعى . وجاء والد أنور ودخل دون أن يقول كلمة ، وبدأ يصلى على الأرض عدة ركعات . وأخذ يقول :

- شكرا لله . . . ولدى أنجب ولدا .

ووصلت أيضا أم أنور ست البرين مرتدية ثيابها السوداء . وفتحت عينىَّ عليها وهى تحوم حول الحجرة وترقص فى حركة هيسترية ولا تتوقف إلا لتقبلنى . ومن خلال غشاوتى رأيت أبى جالسا فى الحجرة وأخوىّ وأختى ، وست البرين تقبلنى وهى ترقص ووالد زوجى يقف ويركع ، يقف ويركع ، شاكرا الله طول الوقت .

وقال لى أنور فى الصباح التالى عندما وصل إلى المستشفى :

- لا ترهقى نفسك حتى بالنظر إلى الطفل . إنه ليس جميلا . إن ابنتنا أجمل بكثير .

لم أعرف عندئذ أن أنور قد تحدث مع الطبيب ، الذى أخبره أن فرص طفلنا للحياة أقل من خمسين فى المائة . كل ما عرفته أن قلبى اتجه إلى أنور فى تلك اللحظة ، لأنى عرفت بالضبط ما كان يقوله لى بالفعل :

ـ إنى أحاول أن أهيئك لوفاة ابننا . لا تهتمى بهذا الولد ولا تهتمى بى ، مهما حدث . إننى راض جدا بك وبلبنى .

ولكنى رفضت أن أصدقه .

لقد خططنا أن نسمى المولود صفوت على اسم أبى . ولكن بسبب العدوان ضد مصر وشجاعة ناصر ، قررنا أن نسميه « جمال » . وتمنيت على الله أن يعيش جمال الصغير . كان أملى كبيرا أن يعيش . وهمست فى المخلوق الضئيل الصغير :

ـ انك مقاتل ، مثل من سميت على اسمه .

لم يستطع جمال الرضاعة فى البداية . وحاولت أن أضع فى فمه الصغير قطنة مشبعة باللبن ، ولكنه كان ضعيفا غير قادر على سحب أى كمية منها . فقلت للممرضة :

ـ آتينى بقطارة .

ونجحت . ولكن التوتر من الحرب ومن ظروف ولادة جمال جفف اللبن فى صدرى . فذهبت الممرضات لكل الأمهات حديثات الولادة فى المستشفى وجمعن لبنا منهن واستطعت إطعام ابنى . وضحكت إحدى الأمهات وهى تقول لأبنتها الوليدة :

ـ إنه لشىء سيىء فطفلانا لن يستطيعا أن يتزوجا أبدا فهما أخ وأخت بالطبع . وكانت تشير إلى تحريم الزواج بين الاخوة فى الرضاعة .

وطوال الشهر التالى ـ وجمال فى حضانته فى المستشفى ـ كنت أقطر اللبن فى فمه كل ساعة على مدى اليوم كله . وكنت أجلس بالليل فى الحضانة إلى أن ينام . فقال لى أنور :

ـ أنت مرهقة يا جيهان . دعى الممرضات يعتنين به لفترة وجيزة .

ولكنى رفضت . لقد كنت حريصة على أن يعيش طفلى .

سادت حالة من الفرح لمولد الإبن الأول لأنور بعد ابنتنا وبناته الثلاث من زواجه الأول . ولكنى لم أستطع أن أشعر بالسعادة التى يجب أن أشعر بها . وجاء أنور للمستشفى عدة مرات قدر استطاعته ، ولكن لم يكن ذلك كثيرا ، وأخذنى بالسيارة فى محاولة ليخرجنى من حالتى ، ولكنه لم ينجح فى ذلك فكل شىء كان يكدرنى . ولم تستطع لبنى البقاء معى فى المستشفى ، فأخذتها أختى إلى بيتها . ولم يستطع أنور أن يبقى معى كأى زوج فى مثل هذه الحالة . إن بلدى محتلة . وابنى الضئيل يقاتل من أجل حياته ، وشعرت بالتمزق بين كل ذلك ، حتى أمى .

إنها أمى ، ولكنها كانت أيضا بريطانية . إنهم البريطانيون الذين يقصفون بلدى بالقنابل ، ولكنى لا أزال أحبها . كانت أحاسيسى فى صراع فظيع وسألتها عدة مرات فى المستشفى :

ـ يا أمى ، لماذا غزت بلدك بلدى . لماذا ؟ إننا لم نفعل شيئا ضدهم .
فكانت تهدىء من روعى قائلة :

ـ جيهان ، لست أنا من يفعل ذلك يا حبيبتى ، لست أنا .

فكنت أقول لها :

ـ أعرف ذلك يا أمى . ولكن لماذا يقاتلنا البريطانيون ؟
كان من حقنا أن نؤمم قناتنا .

فكانت تقول لى وهى تهز الكرسى الذى تجلس عليه :

ـ ثقى يا جيهان ، البريطانيون مخطئون . إنهم مخطئون .

وبدأ جمال يقوى ببطء ، وبدأ يضم فمه حول القطارة ويمص . وعندما أصبح قويا وسمح لنا بمغادرة المستشفى كنت قد تأهلت كممرضة للأطفال المبتسرين . وكنت دائما بعد ذلك ـ عندما أقوم بزيارة بلدان أخرى ـ أدرس أحدث

المعدات فى رعاية الأطفال المبتسرين وأتأكد من إحضار هذه المعدات لمصر . وكان أنور يقول لى فيما بعد :

ـ إن مولد جمال كان كحلم جميل فى وسط كابوس .

ولكن حتى أسعد اللحظات فى حياتنا ، كان فيها دائما ما يدعو للتوتر ، فلا يدعنا نشعر بسعادة كاملة . وبسبب الحرب لم نحتفل بميلاد جمال ، ولا عملنا له « السبوع » التقليدى . فقد كان كل إنسان يشعر بالقلق . ولا مجال للحفلات ولا توجد إمكانية فى نفس الوقت لأى ابتهاج على الاطلاق .

ولقد طالب ناصر ـ من خلال شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا ـ الاتحاد السوفييتى باستخدام نفوذه فى مساعدة مصر ضد الاحتلال البريطانى والفرنسى ، ولكن خوروشوف وبولجانين رفضا . ثم اتجه ناصر نحو الأمريكان . واستجاب الرئيس إيزنهاور . . . كان حانقا على خداع البريطانيين والفرنسيين الذين لم يبلغوه شيئا عن خططهما فى الهجوم على مصر . والآن أصبح الرئيس الأمريكى هو الذى يضغط على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للانسحاب .

كان ينظر للغربيين الذين عاشوا فى مصر أيضا سنين طويلة بالشك والكراهية . ولمدة أسبوعين اختفت أمى داخل منزلها بالقاهرة ، خائفة تقدم رجلا وتؤخر أخرى . واقتصاصا لحرب السويس بدأ ناصر « يمصر » البنوك الكبرى وشركات التأمين التى يتحكم فيها البريطانيون والفرنسيون ، وفرض رقابة على أكثر من خمسة عشر ألفا منهم فى نهاية عام ١٩٥٦ . حتى اليونانيون والأتراك والأرمن الذين عاشوا فى مصر كل حياتهم بدأوا يرحلون ، خائفين أن تكون أعمالهم هى التالية ، متوجهين إلى بلادهم التى لم يروها أبدا من قبل أو منتقلين إلى وجهات جديدة فى أوربا أو أمريكا أو استراليا . فحيثما سافرت فيما بعد فى العالم ، كنت أعثر دائما على أناس بأسماء أوروبية يتحدثون اللغة العربية باللهجة المصرية ويتعطشون لأخبار القاهرة .

ويكمل ناصر عملية التأميم فى عام ١٩٦١ ، عندما يصدر قوانين اشتراكية

تطبق على كل البنوك والصناعة والتجارة وشركات التأمين ، وينزع الأراضى من أصحابها الأجانب . وبينما تحركه سياساته أبعد وأبعد من بريطانيا والولايات المتحدة فتفتح عصرا جديدا للتعاون بين مصر والكتلة الشرقية . . فيحضر مستشارون من تشيكوسلوفاكيا معهم أسلحة جديدة ، بل وصناعات ومعدات بناء جديدة . وتوافق ألمانيا الشرقية على بناء جسر جديد يمتد فوق النيل بين الروضة والجيزة ، ويعمل الروس مع علمائنا لإنشاء أول مختبر ذرى لنا . وفى القاهرة ينتشر على مسارحنا مغنون وراقصون وسيرك أوروبى شرقى وتظهر فى المكتبات كتب من رومانيا وبلغاريا والمجر . وبدأت المحلات فى قلب العاصمة تعرض بضائع روسية . حتى دور السينما عندنا تعرض أفلاما روسية ، لتخدم الأعداد النامية من الأوروبيين الشرقيين الذين جاءوا ليعيشوا بيننا .

وعندما عدت إلى بيتنا فى الروضة مع جمال فى ديسمبر ١٩٥٦ ، كانت أسرتنا قد زادت وأصبحت كبيرة على شقتنا وكان علينا أن ننتقل إلى سكن جديد . كنت قد أحببت الشقة ومنظر النيل المطلة عليه . ولكنى فكرت أنه ليس من العدل بالنسبة للأطفال أن ينشأوا بدون حديقة يلعبون فيها . وكم تملكنى الرعب ذات يوم عندما أمسكت بلبنى تحاول التسلق من نافذة الطابق التاسع للوصول إلى خارج الشقة . فقال لى أنور صباح أحد الأيام بعد ما أنجبت جمال بقليل :

ـ لقد رأيت منزلا للإيجار على طريق الأهرامات ، تعال لتلقى نظرة عليه .

وصرخت عندما رأيته أول مرة . فبالرغم من أن كثيرا من المنازل التى على طريق الأهرامات كانت جميلة ، بناها الخديو اسماعيل لنقل الضيوف الأجانب من القاهرة إلى منطقة الأهرامات خلال احتفالات افتتاح قناة السويس ، إلا أن هذا المنزل ، كان ضخما وكئيبا ، وكان الطلاء منزوعا من فوق الجدران ، كما كانت هناك ثقوب كبيرة فى المحار حيث انتزع المالك السابق الزخارف والتركيبات الخفيفة عند مغادرته . وكانت الحديقة بالرغم من كبر مساحتها مهملة كلية . فصرخت قائلة لأنور أثناء وقوفنا فى القاعة المتداعية :

ـ لا أستطيع البقاء فى هذا المنزل .

ولكنه كان معجبا به فقال متحفظا :

ـ لا تنظرى إليه الآن . انظرى إليه عندما يعاد طلاؤه .

وكان على حق ، بالطبع ، وأصبحت أحب المنزل ، الذى عشنا فيه الخمس عشرة سنة التالية . وفرشته بمفروشات وأثاثات مستعملة عثرت عليها فى مزادات أو فى العطارين ـ الحى العتيق بالاسكندرية . وعندما انتقلنا ، كانت الأعداد الكبيرة من الأجانب المغادرين أرض مصر بعد الحرب تبيع الكثير من الأشياء وكان من الممكن شراء أثاث فرنسى قديم : شمعدانات كريستال ، وفازات جاليه ، وتحف أخرى عديدة مقابل عشر ثمنها الأصلى . واشتريت أيضا نسخا من التحف المصرية القديمة لأضفى على المنزل المذاق المصرى . وما لم أستطع استخدامه وقتها قمت بتخزينه فى البدروم الكبير من أجل الأولاد عند زواجهم .

إننى أحب الطبيعة وأحب الخضرة وأحب الأزهار . وقد أعدنا الحياة إلى الحديقة بالتدريج ، وزرعنا كثيرا من النباتات والأشجار ، وكنت أستطيع أن ألتقط من شرفة حجرة النوم بالطابق الثانى عناقيد العنب من تكعيبة العنب التى تنمو من الشرفة السفلية ، وبلحا من النخل . وانتقلت بعد ذلك أمى وأبى إلى شقة عبر الشارع بينما انتقلت أختى داليا وزوجها محمود وأطفالهما الأربعة الى المنزل الملاصق لمنزلنا ، وفتحنا البوابات بين الحديقتين حتى يظل الأولاد دائما تحت مراقبة أفراد الأسرة .

وفى ديسمبر ١٩٥٨ ، شكل عبد الناصر اتحادا مع سوريا وغير اسم مصر إلى الجمهورية العربية المتحدة . أعرف هذا التاريخ جيدا لأنى أنجبت ابنتى الثانية فى ١٩٥٨ . . وحدث نقاش كبير مع أنور على اسمها ، كان أنور طائرا فى الجو عائدا من سوريا عندما أنجبت الطفلة ، فأبلغوه وهو فى الطائرة :

ـ مبروك ، لقد رزقت ببنت ، تهانينا .

وعندما وصل إلى المستشفى من الطائرة مباشرة أبلغنى أنه يريد أن يسمى ابنتنا الجديدة زنوبيا .

فقلت لأنور فى عدم تصديق :

ـ زنوبيا . ؟

فقال :

ـ نعم ـ زنوبيا كان اسم ملكة « تدمر » التى أقامت وحدة بين مصر وسوريا ولقد ولدت ابنتنا أثناء عودتى من إعداد لوحدة من نفس النوع بين بلدينا ، لذلك فالاسم مناسب .

فقلت له :

ـ لا يمكن أن نسميها زنوبيا .

فقال بحزم وهو يغادرنا ليعطى تقريرا لناصر عن رحلته :

ـ بل سنسميها زنوبيا .

استشطت غضبا ، وعندما جاءت حرم الرئيس عبد الناصر لتزورنى فى المستشفى بعد مغادرة أنور مباشرة أخبرتها عن اختيار زوجى للإسم :

ـ تصورى البنت الصغيرة المسكينة فى المدرسة وكل الأطفال يضحكون عندما تنادى المدرسة على اسمها .

وأردفت لتحية قائلة :

ـ أنور يقول بأن الاسم يمكن أن يخفف باسم ، زيزيت ، ولكنى أعرف أن المدرسة لن تناديها به . سيكون وضعا عصيبا لها .

وعندما عادت تحية إلى بيتها ، كان أنور لا يزال هناك مع زوجها فأبلغتهما اعتراضى على الاسم وتمسكى برفضه ، فلام عبد الناصر أنور قائلا :

ـ من حمل البنت تسعة أشهر؟ من تحمل آلام ومصاعب الولادة ؟

فما تمكن أنور إلا أن يجيب :

ـ جيهان بالطبع .

فقال ناصر :

ـ حسن ، إذن ، اترك جيهان تسمى البنت كما تريد .

وسميت البنت نهى ، التى كتبت الصحف وكأنها تقوم بالواجب أن معنى الاسم « وحدة » . ولكنه لا يعنى ذلك ، وإنما معناه « العقول » . وقد صارت نهى فعلا ذات عقل راجح . ولم يحدث نقاش على تسمية مولودنا الأخير فى عام ١٩٦١ ، وكان بنتا سميناها على اسمى جيهان وتعرف باسم نانا . وقد انتشر الاسم انتشارا كبيرا بين أفراد الشعب . لقد أعطيت كل حياتى لأولادى عندما كانوا صغارا ، أقرأ لهم ، أطعمهم ، ألعب معهم ، وأعد لهم حمامهم معا فى البانيو ، أعتنى بشعرهم ، أتأكد من حصولهم على الفيتامينات وشرب الحليب من أجل عظامهم ، وعصير الجزر من أجل بشرتهم وعيونهم . وعندما كانوا يلعبون فى الحديقة كنت إما أن أراقبهم من الشرفة أو أنزل معهم فى الحديقة . وعندما كنت أركن للراحة بعد الظهر ، فكنت آخذهم معى فى حجرة نومى وأغلق الباب حتى لا يتجول أحد منهم ويؤذى نفسه .

وكنت أشعر نحو أطفالى وكأنهم نباتات . فإذا أعطيت النبات ماء ورعاية كافيين ، فسوف يعطيك ثمرا فيما بعد . وعندما كانوا صغارا كنت أدللهم ، ولكن عندما وصلوا إلى سن السابعة تقريبا حاولت أن أبث فيهم بكل وضوح مبادئى وقيمى واستشعار الاحترام . فعرفوا كيف يجلسون أمام الأكبر منهم وأرجلهم متلاصقة ، لأننا كنا نعتبر وضع رجل على رجل تنطوى على قلة احترام . وكانوا يخاطبون والدهم بحضرتك أو « أفندم » كما ينادوننى بحضرتك أو « ماما » . وعندما يدخل واحد منا إلى الحجرة يقف الأطفال دائما ويقدمون لنا مقاعدهم . وإذا خرجوا على السلوك السوى أوبخهم ، وإذا ردوا على فلا أتردد فى ضربهم ، وكنت أستشهد لهم بالقرآن حيث يوصى الله تعالى بالوالدين :

« ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » .

وغالبا ما نصلى سويا فى حجرة الجلوس كأسرة ويقوم أنور بدور الامام . وكان عمر جمال خمس أو ست سنوات فقط عندما بدأ يصلى فكان يقف خلف والده وأنا وبناتى نقف فى المؤخرة . وكان هذا يبدو طبيعيا وصائبا تماما لنا كلنا . فالنساء يصلين فى البيت أو فى المساجد خلف الرجال . وفى أيام الجمع ، عندما يأخذ أنور جمال إلى المسجد للصلاة ، كنت أصلى فى البيت مع بناتى . وأقوم أنا بدور الإمام وأقودهن فى الصلاة .

أردت أنا وأنور أن يحصل الأطفال على السلام والفهم الذى حصلنا نحن أنفسنا عليه من الدين . فعلمت الأطفال فى وقت مبكر جدا أن يقرأوا القرآن الكريم وأن يصلوا ويصوموا ، وكانوا صغارا جدا على صوم شهر رمضان كله ، لذلك شجعتهم فى البداية أن يصوموا مجرد أول يوم من الشهر حتى لا يكرهونه . وكنت أشجعهم بإغرائهم :

ـ إذا أكملتم اليوم الأول فسوف أضع عشرين جنيها لكم فى البنك .

ونجحت ابنتى الكبرى فى الصيام فى سن العاشرة ، ولكن جمال وكان فى الثامنة لم يستطع وقال صارخا :

ـ مامى ، لا أريد النقود ، ولا أريد اللعب ، أريد ساندوتش فقط ! ! .

وفى الحادية عشرة أو الثانية عشرة استطاعوا جميعا أن ينجحوا فى صيام الشهر كله .

وفقدت والدى بعد انتقاله ليعيش معنا فى منزل طريق الأهرام بعام واحد فقط . ففى شهر رمضان وأثناء تناولنا الإفطار عند سكرتير زوجى فوزى عبد الحافظ اتصل بنا طباخنا عثمان ليخبرنا بأن أبى ليس على ما يرام . فاندفعنا فى الحال إلى البيت ، ولكنى عرفت حالما دخلت ورأيت عثمان يبكى فى حجرة الجلوس بأن شيئا مروعا قد حدث . وأخبرنا عثمان بأن أبى قد بدا عليه الضعف فجأة ، فطلب عثمان الطبيب على الفور ثم بوازع منه توسل لأبى أن ينطق بالشهادة : فقال أبى هامسا فى صوت ضعيف خافت :

ـ أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وبعدها بلحظات مات بأزمة قلبية .

وبعد جنازة والدى ودفنه فى اليوم التالى ، تقبل أنور وأخواى وزوج أختى محمود أبو وافية التعازى من الرجال فى (السرادق) الذى أقيم أمام مسجد عمر مكرم بقلب المدينة . وتقبلت أنا وأمى وأختى التعازى من السيدات فى البيت . وكانت زوجات أصدقاء أبى يتمتمن لكل واحدة منا :

ـ البقية فى حياتكم .

ولأن الوفاة حدثت فى شهر رمضان فلم نستطع أن نقدم للمعزين القهوة ولا السجائر ، ولكنهم ظلوا يأتون ، لأن أبى كان محبوبا . ولأن أبوته كانت صداقة وتفاهم ، فقد ترك موت ابى فى نفسى أثراً عميقا وحزنا ما زال يتجدد كلما استعدت ذكراه .

وعندما كبر أبنائى كنت أردد دائما أمامهم لقد أتينا من تراب والى التراب نعود . . ولا فائدة من الجشع أو التكالب على الأشياء المادية . فكلنا حين ندفن لن نأخذ معنا شيئا .

واعتقد أبنائى أنى متشددة ، ولعلى كنت كذلك . فعندما كانوا يعودون للبيت من المدرسة كنت أجلس معهم دائما أثناء إنجازهم واجباتهم المدرسية .

وكنت أسألهم :

ـ ما هى الكلمات التى أخذتموها لحفظ هجائها ؟

ثم أجعلهم يقومون بهجائها أمامى . وإذا كان لديهم واجب قراءة فكنت أيضا أقوم بدور المدرسة وأجعلهم يقرأون بصوت عال . ونادرا ما كنت أتركهم وحدهم . وكنت أجلس فى المساء على كنبة فى الصالة أمام حجراتهم أتأكد من ذهابهم مباشرة للنوم . وكانوا يتضاحكون عندما أدخل عليهم حجراتهم :

ـ انتبهوا ، ها هو الأسد قادم !

وكنت أتأكد أيضا من أنهم لم يصادقوا أطفالا لا أعرف أسرهم . فكان أنور يقول لى : كونى أكثر رفقا بهم منى :

ـ جيهان ، لم لا تدعيهم يذهبون إلى حفلة عيد الميلاد هذه ؟ إنك قاسية جدا معهم .

وكنت أقول لأنور :

ـ ولكنك لا تعرف العائلة .

فيهز أنور رأسه ويقول :

ـ ومع ذلك يا جيهان ، يجب أن نسمح لهم بأن يختلطوا بأصدقائهم .

ويأتى دورى فى هز رأسى أنا قائلة :

ـ أرجوك يا أنور ، دعنى أقوم بواجبى .

وأحيانا كان يصر ويدع الأطفال تفعل ما تريد ، وكان هذا يثير غضبى ، ولكننا لم نتشاجر أمامهم أبدا .

كان أنور يحكى للأطفال قصص النوم ، التى كانوا يحبونها أكثر من قصصى . فكان الأطفال يقولون لى أن قصص أبيهم دائما مختلفة بينما كانوا يتهموننى بأننى أكرر قصص مرات ومرات ، وغالبا ما كنت أجد أنور بعد العشاء يتسلى فى الشرفة فى اختراع قصة المساء ، التى دائما ما يكون لها مغزى . وفى أمسيات أيام الجمع كان يلعب كرة القدم مع الأطفال فى الحديقة أو ألعابا مثل الاستغماية . ويستمرون لعدة ساعات يجرون ويضحكون سويا . وكنت أتنهد قائلة وأنا أشعر بما أقول فعلا :

ـ أنور ، أنك أصغر منى .

وأسأل ناظرة إلى وجهه فى غبطة :

ـ لماذا يخلو وجهك من التجاعيد ؟ إنك أكبر منى بخمسة عشر عاما ، ولكنى أنا التى أعانى من التجاعيد .

فيجيب :

ـ هذا بسبب المساحيق التى تضعينها فى بشرتك .

ولكنى أعرف أنه ليس كذلك ، كانت روحه دائما شابة ورقيقة كما كانت روحه شفافة تكشف ما وراءها .

وفى عام ١٩٥٩ جاءت اثنتان من بنات أنور من زواجه الأول (راوية التى كانت فى الثالثة عشرة عندئذ ، وكاميليا التى تصغرها بعامين لتعيشا معنا . وكانت أختهما الكبرى رقية قد تزوجت وتعيش مع زوجها . وكانتا بنتين فاتنتين وسررت أنهما انضمتا إلينا أخيرا . فلقد كنت ألح على أنور من سنين أن يدعوهما ليعيشا معنا ، ولكنه كان يقاوم بل لم يكن يريد فى البداية حتى أن التقى بهما وكان يقول لى :

ـ إنك لا زلت صغيرة . لم يحن الوقت بعد .

إلى أن أخذنى أنور معه فى يوم لرؤية راوية التى كانت فى المستشفى لالتهاب الزائدة ، فقابلت واحدة من بناته وزوجته الأولى إقبال . ولم يقدم أحد إحدانا إلى الأخرى فى حجرة المستشفى ، ولكنى عرفت بالغريزة أول ما رأيتها من تكون . وأحب أبنائى اختيهما « الجديدتين » ونظروا إليهما على أنهما أكبر وأكثر حكمة . وشعروا بافتقادهما لراوية وكاميليا جدا عندما تزوجتا وانتقلنا من منزلنا فى أكتوبر ١٩٦١ .

وليس هناك أطفال كاملون بالطبع . فكان أطفالى أحيانا فى منتهى الشقاوة . فذات مرة ضبطتهم يدخنون أعقاب السجائر التى التقطوها من الطفايات ، بالرغم من أنهم حاولوا إخفاءها . فقلت لهم :

ـ دعونى أشم أنفاسكم .

وضربتهم عقابا على ذلك ، وضربت لبنى ذات مرة أيضا ، عندما طلبتُ منها أن تحضر لى شيئا وسمعتها تتنهد متظلمة . فذكرتها بشىء تعرفه من قبل جيدا :

ـ « ولا تقل لهما أف . . » .

ولكنى شعرت ببعض الأسف لما بدر من لبنى خاصة وأنها الكبرى والقدوة .

وكثيرا ما كانوا يركبون رأسهم . ففى الاسكندرية فى يوم ما عندما كان جمال فى الثالثة عشرة تقريبا ، رأيت أنه يحتاج إلى حلاقة شعره فقلت له :

ـ اذهب إلى الحلاق .

ولم يذهب فى اليوم التالى ولا اليوم الذى يليه . وبعد أسبوع أجلسته فى الكرسى وحلقت له شعره بنفسى بلا هوادة ، وقلت له :

ـ ربما ستذهب الآن إلى الحلاق لتحسن منظر شعرك.

وكانت دموعه تسيل طول الوقت الذى كنت أقص فيه شعره . وكان حزينا . وجاءت نانا أخته الصغرى لتطفىء غضبه .

كان لدينا فى الحديقة فى ذلك الوقت قرد أليف وكانوا يعرفون أنى أحبه كثيرا ، وأطعمه فاكهة وفول سودانى فقالت نانا لأخيها :

ـ تعال يا جمال ، دعنا نقص شعر القرد ونرى بماذا تشعر مامى عندئذ .

ولم أصدق ذلك عندما رأيت القرد . كان منظره سيئا تماما أسوأ من منظر جمال . وعرفت فى الحال أنها نانا ، لأنها كانت شقية صغيرة . ولكنى عرفت أيضا أنها قد فعلت ذلك لتخفف من حالة أخيها وتسرى عنه . ولم أعاقب أيا منهما .

وعلى قدر ما أحببت منزل طريق الأهرام إلا أنه كان منعزلا تماما وبعيدا عن مدارس الأولاد . وبالرغم من أن كثيرا من الأجانب قد غادروا مصر ، إلا أن المدارس الأجنبية ظلت مفتوحة ومستمرة فى تقديم تعليم أفضل من المدارس الحكومية الجديدة . وعند المرور غير المزدحم كان الطريق إلى المدرسة الألمانية التى تدرس فيها لبنى ومدرسة بور سعيد بالزمالك التى يدرس فيها جمال يأخذ ثلث ساعة ، لكنه يأخذ أكثر من ساعة أثناء الزحام . وأصبحت المسافة أسهل عندما

وضعت كل الأولاد سويا فى مدرسة بور سعيد الخاصة فى الزمالك ، ولكن بقيت دروس الموسيقى التى يحضرونها مساء فى الكونسرفتوار .

وتعبت أيضا من الناموس الذى ابتلينا به ليل نهار ، لأن طريق الهرم كان قريبا من الترع والحقول . وكان الأولاد دائما مصابين يبقع من قرصات الناموس وكأن لديهم حصبة ، وكان علينا أن نضع ناموسيات حول أسرتنا . وفى الليل كنت أشعر أنى أتسلق داخلة سجنا مصنوعا من التل . وعندما كبر الأطفال بدأت أبحث عن منزل بالقرب من مدارسهم . وكان أكثرها استهواء منزل أحد التجار فى الجيزة ، وكانت إحدى بنات ناصر قد استأجرته ولكن أنور كان كثير الأعباء بحيث لم يستطع أن يراه معى .

وفى ١٩٦٠ ، طلب ناصر من أنور أن يرشح نفسه لمجلس الأمة . وفعلا تم انتخابه . وتغيرت حياتنا فى يوم وليلة ثانية حيث بدأ أنور يعمل أكثر ويسافر أكثر . وأصبحت أنا والأولاد من النادر أن نراه . كان إما مسافرا أو فى اجتماعات مع ناصر فى القاهرة أو فى الاسكندرية حيث كان الرئيس يأخذ كل قادة حكومته لقضاء الصيف .

وأحببت منزلنا فى المعمورة على مشارف الاسكندرية الذى خصصته لنا الحكومة . كان منعزلا وخاصا ، ومطلا على الشاطىء . وكان أمام المنزل جزيرة خاصة وبها كابينة للاستحمام . ولما كان البلاج خاصا استطاعت بناتى أن يسبحن ويستمتعن بالبحر . وأحب أطفالى الغطس وجمع القواقع البحرية . وكانت الحديقة جميلة وبها ملعبا للتنس . وكان الأطفال سعداء جدا هناك وكذلك كنت أنا . وكان الجو فى الاسكندرية يدعو إلى السباحة ، وكانت أسرة ناصر ، التى تعيش مقابلنا ، كثيرا ما تأتى لزيارتنا . فبينما أنور والرئيس كانا يلعبان الطاولة ، كنت أنا وتحية نذهب لتمشيات طويلة حول الحديقة .

واندهشت لكبر الاسكندرية كثيرا عن بور سعيد . وكم كان البلاج طويلا ، حوالى خمسة عشر ميلا . وكنا محاطين فى أى مكان فى الاسكندرية بالتاريخ كان

من الصعب إدراك أن هذا الميناء البحرى القديم قد بناه أولا الاسكندر الأكبر فى ٣٣٢ قبل الميلاد ، بعدما غزا مصر . وظلت الاسكندرية لعدة قرون عاصمة البطالمة ، وبها واحدة من عجائب العالم السبع منارة برج فاروسى ٢٢٠ قدما . واختارت الملكة البطلمية كليوباترا مرسى مطروح غرب الاسكندرية كموقع لقصور جميلة عاشت فيها مع يوليوس قيصر . وتقول الأسطورة أن كليوباترا عملت على حفر نفقين عبر الصخور فى غدير قريب لتحل مياه البحر المتجددة تدخل وتخرج إلى مكان سباحتها المفضل ، الذى لا يزال يسمى حمام كليوباترا . وأخذت الأولاد للاستحمام فى الاسكندرية ، ولنرى أطلال المدرج الرومانى ، حيث قيل أن كليوباترا تقابلت مع حبيبها أنطونيوس قبل هزيمة الرومان مباشرة فى سنة ٣٠ قبل الميلاد .

وفى العهد الرومانى ، كان فى الاسكندرية أشهر مكتبتين ملكيتين فى العالم وأقدم جامعة فى التاريخ . فيها عثر على حجر رشيد الذى كان مفتاح فك رموز لغتنا الهيروغليفية القديمة بواسطة واحد من جنود نابليون فى ١٧٩٩ على بعد خمسة وثلاثين ميلا شرق الاسكندرية . وعندما كنت فى العاشرة وقعت معركة العلمين بالغة الأهمية فى الحرب العالمية الثانية على بعد خمسة وستين ميلا غرب الاسكندرية . ولا تزال القبائل البدوية تجوب الصحراء عبر أراضى الغام متروكة قد زرعها الألمان والايطاليون والبريطانيون وكثيرا ما انفجرت فى قطائع أغنامهم ومعزهم . واعتدت أن أقود السيارة لأزور النساء البدويات فى الصحراء ، معجبة بملابسهم المطرزة بألوان صارخة وبحليهن الفضية الثقيلة كأساور وخلاخيل ذات جلاجل .

وبالرغم من أن اليونانيين والايطاليين واليهود قد غادروا الاسكندرية بعد حرب ١٩٥٦ ، ما زالت المدينة تحمل طابع جو البحر المتوسط أكثر مما تحمل طابع الجو الشرقى وعلى طول خمسة عشر ميلا من الكورنيش الذى يمتد على البحر تقدم المطاعم خارجها السمك والحمام واللحوم المشوية ويبيع الباعة الآيس كريم من أكشاك بجانب البحر . كما توجد النوادى الرياضية للتنس والاسكواش

ونواد لتناول الأطعمة على جانب الماء مباشرة . تعرفنا أنا وأنور على كثير من الأصدقاء بنادى السيارات ، نفس النادى الذى التقينا فيه من قبل مع الملك فاروق .

ومع ذلك ما كنا نقضى وقتا طويلا مع أصدقائنا ، بسبب وجود مهام حكومية كثيرة كان عليه أن يقوم بها .

ففى الاسكندرية كما فى القاهرة كانت هناك كثير من المقابلات الرسمية مع الوفود الأجنبية الزائرة من أوربا والعالم العربى . وغالبا ما يطلب من زوجات قادة حكومتنا أن يقمن بضيافة زوجات الوفود الزائرة . فذهبت إلى حفلات غذاء ولقاءات مع الزوجات الأخريات بشكل لا نهاية له ، لنتحدث عن الأزياء وعن أطفالنا . ولما كنت أقضى معظم وقت حياتى الزوجية وحيدة أقرأ كتبا فى التاريخ وفى السياسة وعن حياة النساء اللاتى أعجب بهن ، كنت أجد هذه المهام مضيعة للوقت . وبالرغم من أنى لازلت لا أستطيع استئناف دراساتى الرسمية ، كان التعليم الذى أعطيه لنفسى مرضيا . بينما كانت هذه اللقاءات غير ذلك . إلى جانب أن الأطعمة كانت سخية جدا ، كنا نقضى وقتا طويلا فى أكلها فأخذ وزنى يزداد .

فاقترحت فى إحدى حفلات الغذاء هذه لمجموعة من زوجات ممثلى الحكومة .

ـ فلنحاول أن نستفيد من اجتماعاتنا بدلا من ضياع الوقت هكذا ، ولنتناول طعاما سريعا وخفيفا ثم ندعو شخصا ما ليحدثنا عن مختلف الموضوعات . فيمكننا دعوة صلاح عبد الصبور ليحدثنا عن الشعر ، أو ندعو زوجات السفراء العرب ليحدثونا عن الكويت أو السعودية . ماذا نعرف عن الصورة الكاملة لهذه الدول ، اقتصادياتها ، مواقفها السياسية ، وضع المرأة ؟

فتطلعت النساء فى دهشة ، فقلت :

ـ الغذاء القادم سيكون فى منزلى وسيكون لدينا متحدث .

ونجحت فكرتى ، وبعد سنة أصبحن جميعا أكثر معرفة ، وفى إحدى اللقاءات أخبرتنا أمينة السعيد ، أول سيدة صحفية فى مصر ، كيف بدأت عملها كمساعدة لرائدة الحركة النسائية فى مصر هدى شعراوى . وكان على أمينة أن تنشر أولى مقالاتها تحت اسم رجل لأن الصحف لا تسمح بنشر اسم امرأة على رأس مقالة . وفى لقاء آخر أحضرت سمية زوجة السفير الأردنى بالجامعة العربية فيلما شاهدناه عن الأراضى الفلسطينية التى تحتلها إسرائيل وأخبرتنا عن المصاعب التى يعانيها اللاجئون الفلسطينيون الذين ليس لديهم جوازات سفر حاليا ، ولا بيوتا ولا مكانا يذهبون إليه . وبعد هذا اللقاء قررنا بالتصويت أن نعطى النقود التى وفرناها من حفلات الغداء المسرفة السابقة للفلسطينيين ، وأن نبحث عن مساعدات أخرى يمكن أن نقدمها .

ولأول مرة كانت محادثاتنا واهتماماتنا تحوم خارج نطاق البيوت والأسر . أليس من واجبنا أن نعرف شئون العالم الذى انغمس فيه أزواجنا ؟ لقد اندهش أنور عندما أخبرته عن لقاءات الغداء هذه ، معتقدا أن النساء يفضلن الحديث عن الأسر لا عن السياسة والمجتمع . ربما يفضل بعض منهن هذا ، ولكنى لا أريد أن أجلس صامتة فى جهل بجانب زوجى أثناء ضيافتنا للدبلوماسيين الأجانب . ويوجد الكثير لتعلمه . وعندما كنت أذهب مدعوة إلى منزل من منازل الأخريات كنت أسأل دائما :

ـ من سيكون المتحدث الذى سنستمع إليه ؟

وإذا أرادت المضيفة أن أساعدها فى تنظيم ذلك ، كنت أفعل . وتحولت الاجتماعات إلى مثل حلقات تعليمية لنا جميعا .

ولأول مرة كان على أن أقف أمام جماعة من الناس وأتحدث :

ـ صديقاتى العزيزات ، سوف نستفيد من وقتنا اليوم ونستمع لضيفنا فلان الفلانى ، يحدثنا عن وضع المرأة قبل وبعد الإسلام .

كنت عصبية فى البداية . ومثل معظم السيدات المصريات ، لم يكن لدى

أى تدريب أو خبرة فى التحدث على الملأ غير قراءة المحفوظات فى المدرسة . لقد تم تشجيعنا ، فى الحقيقة ، أنا وجيلى من النساء على أن نظل صامتات خصوصا فى حضرة الرجال . . ومن حسن الحظ لم يكن يحضر أى رجل هذه الاجتماعات الأولى ، وهكذا كان على أن أتغلب على الخجل فقط لا على التقاليد أيضا .

ولكنى شعرت بالارتباط بشكل زائد . فلقد حركت فىّ هذه الاجتماعات شيئا لم أكن أعرف وجوده . كانت السيدات اللاتى يتحدثن لنا ذكيات جدا ومتعلمات جدا . وتجاوبت السيدات المستمعات بشغف ، فأخذن المذكرات وسألن الأسئلة . لماذا لا تشارك السيدات فى المعرفة وتعبر كل منهن عن نفسها هكذا كل الوقت ؟ فلدينا عقول أيضا ، وآراؤنا وأفكارنا . لماذا لا تسمح عاداتنا أن نعبر عنها ؟ وقال أنور صباح أحد الأيام :

ـ جيهان ، الفيلسوف الهندى نارايان سيأتى لمنزلنا للعشاء الليلة .

فأجبت :

ـ سأكون سعيدة باستقباله .

وعندما جلسنا ، تحولت المحادثة بسرعة إلى إسرائيل . أراد ناريان أن تصفى مصر متاعبها مع إسرائيل وأعلن أنه لا يستطيع أن يفهم أسباب عداوة البلدين . وقال :

ـ كل الأراضى على الكرة الأرضية ملك لله وليست ملكا للإنسان . لذلك فلا داعى أن تشن دولة حربا ضد دولة أخرى من أجل شىء لا تملكه .

فتجمدت فى الكرسى ، مفكرة فيما قد كلفتنا إسرائيل حتى الآن . وألقى أنور نظرة عصبية ، ولكنى لم أسكت أكثر من ذلك ، وقلت :

ـ لقد حاول الاسرائيليون أخذ أرض فى سيناء لا تخصهم وليست ملكا لهم هل لو حاولوا أخذ أرضك فى الهند ، ستقول عندئذ أن كل الأرض تخص الله ؟ وهل ستقول ذلك ؟

وكان الرجل صامتا ، فاستمررت قائلة :

ـ إننا لا نكره الاسرائيليين . ولكن هذه أرضنا ونحن نريدها .

وظل الرجل صامتا ، واستطعت بنظرة جانبية من عينى أن أرى أنور يبدو عصبيا بعض الشىء على جرأتى فى الحديث ، ولكنه كان فخورا أيضا . لم أكن وقحة فى جرأتى ، ولكن كان علىّ أن أقول الحقيقة لهذا الرجل . وبالفعل لم يكن عنده إجابة . وقال لى أنور فيما بعد :

ـ سوف تجلبين لى المتاعب يا جيهان . لقد كنت بالطبع على صواب أن تقولى ما قلته . ولكن يظل الأمر صعبا على الآخرين أن يعتادوا على طريقتك .

فقلت له :

ـ إنى آسفة يا أنور ، ولكنى لست مقتنعة أن أظل صامتة أو أتكلم عن الطقس عندما يوجد الكثير فى ذهنى .

كان أنور هو الذى لديه الكثير فى ذهنه . ففى ربيع ١٩٦٠ كان أنور يعمل اليوم كله تقريبا . وكانت وحدة مصر مع سوريا ليست على ما يرام . وكانت التوترات شديدة بين الأعضاء القدامى لمجلس قيادة الثورة . وارتاح أنور لمغادرة مصر فى مايو ١٩٦٠ ليرأس مؤتمرا فى كوناكرى غرب أفريقيا ، ولكن كان الطقس هناك حارا جدا ورطبا ، لا يناسبه .

لم يبد فى صحة جيدة عندما جلسنا على الغداء فى ١٥ مايو ، بعد عودته بأيام قليلة . وبالرغم من أن أنور كان دائما يستطيع أن يعطى انطباعا بالهدوء ، وأنه بعيد عن كثير من المشاحنات التافهة لبعض السياسيين الانتهازيين ، لكنه كان يتحمل فى داخله الغضب وخيبة الأمل . وكان فى هذا اليوم قلقا أيضا على صحة ناصر ، الذى أصيب بمرض السكر منذ وقت قريب . وبدأ عبء العمل يفرض أثره على صحته .

سهر أنور طوال الليلة السابقة ، يكتب خطبه . وبعد أن ارتاح ساعتين فقط

ذهب إلى مكتبه ، ثم عاد للبيت للغذاء ، فبدا عليه شحوب غير طبيعى عندما جلسنا ، وقال بعد الغداء :

ـ أظن أنى سأرقد .

فقلت له وأنا أخفى قلقى على مظهره :

ـ إنها لفكرة طيبة . سوف أحافظ على هدوء الأولاد . ولكن بدلا من النوم بدأ أنور يتقيأ وبشدة متزايدة . وبدأ الألم أولا فى صدره ، ثم انتشر أسفل ذراعه اليسرى .

فطلبت الطبيب الذى وصل فى الحال بجهاز رسم القلب ، وحذرنى الطبيب وهو ينظر عن كثب إلى صورة نبضات قلب أنور :

ـ يجب أن يظل فى الفراش لمدة ثلاثة أسابيع بدون حركة على الإطلاق ، لا يزعجه أحد أو يتكلم أى مكالمة تليفونية بل حتى لا يغادر الفراش لاستخدام الحمام .

فسألت وقلبى يدق بعنف :

ـ ما هذا يا دكتور ؟ ما الذى حدث ؟

فخفض الطبيب صوته حتى لا يسمعه أنور ، وقال لى :

ـ لقد أصيب بأزمة قلبية .

فسألت الطبيب :

ـ أزمة قلبية ؟ أنور ما زال صغيرا . إنه اثنان وأربعون سنة فقط . أزمة قلبية ؟ هل سيموت ؟

فنظر إلى بعطف وقال :

ـ لا ، بإذن الله ، إذا اتخذت العناية الكافية من أجله .

فسألت :

ـ هل يعرف أنه أصيب بأزمة قلبية ؟

فهز رأسه بالنفى وقال :

ـ هذا يزيد متاعبه .

وقمت برعاية أنور لمدة ثلاثة أسابيع .

ولقد أحضر الطبيب سريرا من المستشفى حتى أستطيع أن أرفع وأخفض مستواه ، ولم أبعد عنه إطلاقا . أخذت أقرأ له وأهدئه بقصص عن الأولاد ، وأبعدت عنه سجائره لأن الطبيب قال أنه لا يستطيع أن يدخن بعد ذلك ولم أسمح لأحد أن يدخل إلى حجرته ، أى أحد ، حتى أخته ، التى تضايقت جدا .

فقلت لها :

ـ إذا كنت تهتمين بأخيك فعلا ، فلا تطلبى منى أن تريه ، إذا دخلت فسيدخل أخواتك وأطفالهم أيضا . لا أريده أن يبذل مجهودا فى الحديث أو الرد على أى أسئلة . فتفهمت السبب .

وبدأت أرى كوابيس . فكنت أرى فى أحلامى أنور وهو لا يستطيع أن يرانى . كنت أنادى عليه وأحاول أن ألمسه ، ولكنه لا يستطيع أن يسمعنى أو يشعر بى ، ورأيت أطفالى فى أحلامى . ماذا سيحدث لهؤلاء الأطفال الصغار . . ؟ كان من المرعب أن أتصور نفسى كأرملة ، لأنى أحببت أنور جدا . وخلال الأيام التى جلست بجانبه فيها بدأت مخاوفى تعود . وكثيرا ما دخلت الحمام لأبكى ثم أغسل وجهى وأعود وأبتسم له .

كان مريضا صعبا ، مصرا على النهوض لاستخدام الحمام بدلا من استخدام مبولة السرير ، وقلت للطبيب :

ـ لا أستطيع منعه .

فقال الطبيب :

ـ إذن لابد أن نخبره أنه فى أزمة قلبية .

وبعدما أدرك أنور ما قد ألم به ، بقى فى فراشه كما طلبنا منه .

وغيرت أزمته القلبية فى هذه السن الصغيرة حياته ، وجعلته يترك تدخين السجائر ويستعمل الغليون بالرغم من أن الطبيب فى بادنهايم بألمانيا ، حيث ذهبنا لأسبوعين إضافيين للنقاهة نصحه ، ألا يدخن . نصحه أيضا أن يقوم برياضة المشى من أجل صحته وأعصابه . وبعد ثلاثة أسابيع فى السرير بالبيت ، بدأ يمشى فى حديقتنا ، لمدة خمس دقائق فى البداية ثم لمدة عشر دقائق ، وفى ألمانيا قضينا كل صباح فى المصحة وكنا نمشى بعد الظهر فى المدينة . وأصبح أنور يمشى بقية حياته ساعة على الأقل كل يوم ، أحيانا وحده ، وأحيانا معى ، وأحيانا مع جمال أو صديقه عثمان أحمد عثمان ، والد زوج ابنتنا جيهان . وعندما لا يستطيع المشى كان يستخدم عجلة الرياضة .

وتعلم تمرينات للاسترخاء . ففى الأمسيات كان يرقد على أرضية حجرة نومنا عاصبا عينيه لمدة نصف ساعة استرخاء . وأحب الأولاد ذلك ، بالطبع ، وكانوا يقفزون عليه وكأنه قطار أو حصان . فأحاول بسرعة أن أبعدهم عنه . ولكن كان أنور دائما يمنعنى . كان يحب ذلك . واستمر مع ذلك فى العمل كثيرا وكان سيصاب فى عام ١٩٦٩ بأزمة أخرى ولكن أبسط بكثير عندما كان ناصر فى روسيا يتم علاجه من مرض السكر وكان أنور يقوم بالرئاسة بالنيابة . فأصيب مرة ثانية عند الظهر ، ولم يتقيأ هذه المرة ولكن شعر بنفس الألم . وكانت التقلصات إنذارا ، هكذا قال له الطبيب ، لأنه يضغط كثيرا على قلبه وأنه يجب أن يعتنى بنفسه بشكل أفضل . وفعل .

ومنذ ذلك الحين ، حتى عندما أصبح رئيسا لمصر ، قلل من حجم الوقت الذى يعمل فيه . وتعلم واقتنع أن الإنسان الذى يعمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم لن يكون مؤثرا أكثر من الإنسان الذى يعمل ثمان ساعات باجتهاد ثم يأخذ قسطه من الراحة . فالإنسان فى حاجة لصفاء الذهن ونقاء التفكير ليأخذ أفضل القرارات التى قرر أنها من الأفضل إنجازها قبل السادسة مساء . ورفض أنور أن يعمل

بالليل ، إلا إذا كان هناك أمر قومى عاجل . وكان يجلس ويقرأ تقارير ، ويجيب على المكالمات التليفونية من وزرائه إذا كانت هامة . ولكنه كان معظم الليالى يشاهد أفلام رعاة البقر فى بدروم البيت ، الذى وضعنا فيه آلة عرض وبعض الكراسى والأرائك المريحة .

وكان حريصا جدا بخصوص راحته . وبينما كنت أستيقظ فى الخامسة صباحا ، كان أنور ينام أحيانا حتى الثامنة .

لقد احتاج أنور إلى أزمتين قلبيتين ليتعلم كيف يهتم بنفسه . وارتحت أنا بشكل عظيم . وبدأ يقضى وقتا أطول قدر ما يستطيع فى ميت أبو الكوم ، قرية صباه . هناك فقط ، فى بساطة حياة القرية حيث يشارك كل واحد فى العمل ، وفى الضحك والأحزان كان أنور يستطيع الاسترخاء الحقيقى . كانت جذوره هناك وبالتالى أصبحت أنا كذلك .



الفصل السادس

الحياة فى القرى



« يا أم جمال ، كيف حال ابنك ؟ » « يا أم جمال ، إنى أرثى لحالتك يجب أن يكون لك أطفال آخرون » .

لم يكن يهم السيدات فى قرية أنور ـ ميت أبو الكوم ـ أن يكون لى ثلاث بنات جميلات وإبن . كلا ، كنت معروفة فى القرية باسم « أم جمال » ، بالرغم من احتجاجى على هذه التسمية . . ففى القرية لا يعتد بذرية البنات . وكانت السيدات يستنكرن ذلك ـ حتى بعد مولد ابنتى الصغرى جيهان عام ١٩٦١ ـ ويقلن لى : « عندك طفل واحد فقط » . فكنت أجيب « بل عندى أربعة » . . « لكن لك إبن واحد فقط . يجب أن تنجبى إبنا آخر حتى لا يشب جمال وحيدا » .

« إنه ليس وحيدا ، فله من الأخوات الشقيقات ثلاث وثلاث أخريات غير شقيقات » ، هذا ما كنت أجيب به ، ولكن السيدات كن يتبادلن النظرات الجانبية ويهززن رؤوسهن قائلات بكل جدية : « يجب أن تنجبى أطفالا آخرين ، وإلا فقدت زوجك » .

لقد أحببت الذهاب مع أنور إلى قريته فى دلتا النيل . وكانت المسافة بينها وبين القاهرة ساعتين فى السيارة . والطريق إليها جميل تحف به أشجار الجميز والكافور ، مخترقا أميالا من حقول القطن الخضراء الزاهية شتاء ، والتى تصبح محملة بزهور صفراء صيفا ، وحالما نصل إلى ميت أبو الكوم يتحول زوجى إلى شخص آخر ، فسرعان ما يخلع بدلة المدينة ويرتدى الجلباب الأبيض كباقى رجال القرية ، ويذهب ليمشى مسافات طويلة معى ومعنا أطفالنا ، ويضحك حينما يراهم يتدحرجون فى وسط البرسيم مثل الأرانب والقطط الصغيرة . وأحيانا كان أنور يرفع صوته بالغناء مترنما بالمواويل الحزينة للفلاحين المكدودين فى الحقول ، وكنت أتوقع أن يضج الجيران بالشكوى لكنهم لم يفعلوا أبدا . أما فى البيت فكان يحلو له أن يعلم الأطفال كيف يصنعون الخبز بنفس الطريقة التى كان يحبها فى طفولته ، حينما كان يكسر بيضة ويلقيها فى عجينة الخبز قبل دخولها إلى الفرن ، وكانوا يتدربون على ذلك مرارا وتكرارا حتى أجادوا العملية .

ولما حضرت مع أنور لأول مرة إلى قريته ، كان شديد العصبية وقال لى : « لا يمكنك الخروج من البيت أثناء النهار على الإطلاق ، يجب أن تبقى فيه حتى المساء » . ولما سألته : « لماذا ؟ » أجاب : « لأن أهالى قريتى لن يفهموا هذا » . ولما توسلت إليه أن أخرج بالنهار » » بدا عليه التوتر وعدم الارتياح وشرح لى رأيه : « أنت سيدة قد اعتادت على أساليب المدينة . وبما أن أهالى قريتى أناس محافظون جدا ، فلن يعتادوا أن يروك فى ملابس المدينة التى تكشف عن ساقيك ورأسك . إن هذا الملبس ليس من تقاليد المرأة هنا فى الريف . فقلت : « لماذا إذن يروننى فى المساء ؟ » فأجاب أنور : « المساء هو الوقت المخصص للزيارة حينما يخرج أصحاب الأراضى وموظفوا الحكومة إلى القرى . وفى هذه الحالة يألف جميع الناس الأساليب المختلفة ويقبلونها » .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى طنطا حيث اشتريت قماشا يكفى لفستان طويل كفساتين الفلاحات ، ومنديلا ملونا مرصعا بالزهور وربطته على رأسى حسب عادتهن ، وفى المرة التالية التى ذهبنا فيها إلى القرية خرجت وأنا أرتديهما

مثلهن . وكانت ميت أبو الكوم تبدو غريبة فى نظرى كما لو كانت تنتمى إلى بلد مختلف ، وإلى جيل مختلف ، فقد كانت الشوارع غير مرصوفة ، وكان التراب يغلف المارة بغلالة رقيقة ، والبيوت كانت مبنية من الطين ، ونوافذها قليلة ، وكان الدخان يخرج من فتحات في السقوف المغطاة بسعف النخيل . وفوق معظم هذه السقوف كانت أكوام « الجلة » المستعملة فى الوقود والمصنوعة من خليط من القش ومخلفات الحيوانات ويترك فى الشمس حتى يجف . وطبقا للخرافات العميقة كان معظم الفلاحين يدهنون أبواب منازلهم باللون الأزرق لطرد الجن والأرواح الشريرة التى ارتبطت حياتهم بالاعتقاد فيها . ولمزيد من الوقاية من العين الشريرة ونظرات الحسد كان الفلاحون يغمسون أياديهم فى دهان أزرق اللون ويطبعون أصابعهم على جدران منازلهم من الخارج ، وكانوا أيضا يعلقون حدوة الحصان ، واليد الخزفية التى تحمل الخرز الأزرق على أبواب منازلهم ، وعلى سروج دوابهم ، وحتى على أسرتهم .

والقلائل الذين أسعدهم الحظ من أهل القرية بزيارة بيت الله الحرام نقشوا قصة رحلتهم المقدسة على جدران منازلهم . فإذا كانوا قد عبروا البحر الأحمر إلى الحجاز بالباخرة فإنهم يرسمون باخرة تمخر عباب البحر ، أو يرسمون طائرة إذا كان سفرهم قد تم عن طريق الجو . والبعض قطع جزءا من الطريق بالأوتوبيس أو السيارة ، فيرسم كل هذا بالألوان الزاهية على جدران منازلهم بالإضافة إلى رسم الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة .

والبيوت المصنوعة من الطين متينة جدا لعدم وجود أمطار ، ولو أن هذه البيوت بدائية للغاية ، وقبل توليد الكهرباء من خزان أسوان عام ١٩٦٨ لم تكن هناك كهرباء فى ميت أبو الكوم ، ولم تكن هناك مجار أو مياه بالمنازل . وكان الفلاحون يستيقظون مع شروق الشمس وينامون مع بزوغ القمر . ومعظم البيوت مقسمة إلى غرفتين : واحدة تستعملها العائلة فى الطهو والنوم والصلاة ، والأخرى لايواء الجاموس والحمير والبقر وحتى الجمل ، مع بعض الأوز والبط والدجاج . وبين الغرفتين توجد عادة مساحة خالية تعلق فيها النسوة حصائرهم التى يضعن فيها

اللبن المملح الذى يتحول إلى جبن .

ويوجد فى وسط القرية برج عال تأوى إليه أسراب الحمام التى يحدث خفق أجنحتها ضجيجا مستمرا . وهذه الطيور البيضاء الجميلة هى مصدر طعام للفلاحين ومصدر رزق لهم حين يبيعونها يوم السوق . والبناء الوحيد الذى يفوق برج الحمام فى الارتفاع هو مسجد القرية . الذى شيد عقب الثورة مباشرة . ولقد ساهم أنور فى تكاليف تشييده إذ دفع أول مرتب له من عمله بجريدة الجمهورية ، حتى يمكن لمسجد ميت أبو الكوم الصغيرَ المصنوع من الطين أن يبدل بآخر من الطوب الأحمر ، وله مئذنة عالية .

لقد أحزننى فى البداية منظر سيدات القرية ، اللاتى فوق الأربعين ، لا تراهن إلا مرتديات الأسود من هامة الرأس إلى أخمص القدم ، وكلهن فى جميع الأعمار يعملن ويشقين أكثر من الرجال . فيستيقظن من النوم فى الفجر على صوت المؤذن الذى يدعو المؤمنين إلى صلاة الفجر ، ثم يعددن طعام الإفطار لعائلاتهن ، وهو مكون من الجبن الأبيض والشاى الحلو الثقيل الأسود . وبعدها يبدأ كنس الأرضية ، ثم إطعام الحيوانات ، وتجهيز العجين لعمل الخبز الطازج ، ثم الماء الذى يحملنه من بئر القرية فى صفائح على رؤوسهن . وفى الوقت المناسب يهرولن إلى الحقول حاملات طعام الغداء لأزواجهن ، وعند الانتهاء من وجبة الطعام يبقين مع الرجال بقية اليوم يستأصلن الأعشاب ويعزقن الأرض ويجمعن محاصيل القطن والذرة والبرسيم والقمح .

ولقد كان المنظر فى ميت أبو الكوم دائما كما هو : السماء فى الفجر تضىء مواكب الرجال فى جلابيبهم ذاهبين إلى الحقول يتبعهم الأطفال الذين يقودون الجاموس والأبقار لتأكل وتشرب ، وتتبع الجميع أسراب من طائر البلشون التى تحط فى الصباح الباكر على الحقول لتلتقط الديدان التى تخرج إلى سطح الأرض أثناء الليل ، وكانت هذه الطيور فى نظرى تجعل الحقول كسجادة خضراء مرصعة ومنقوشة بنقط بيضاء . وعند منتصف النهار تحط هذه الطيور على الحيوانات حيث تبدأ بنشاط كبير فى التقاط الهوام من على ظهورها .

وفى الغسق تنعكس وجهة الموكب ، الذى يتخذ حينئذ شكلا آخر ، إذ تظهر فى الأفق المنبسط الحيوانات والرجال ، وليس هذا فقط بل أيضا المنظر الجانبى لزوجاتهم فى ملابسهن الطويلة سائرات خلفهم ، حاملات فى أحايين كثيرة أحمالا كبيرة من نتاج الحقول على ظهورهن . ويتبع الجميع طيور البلشون فى طريقها إلى أوكارها فى الأشجار حيث تحيل أغصانها إلى اللون الأبيض .

ومع أن هذا المنظر كان يبدو لى دائما فى غاية الجمال ، إلا أننى ارتعشت حينما شاهدته لأول مرة . فقد بدا لى أن السيدات خلقن للعمل الشاق ولحمل الأشياء ، وأن الرجال كانوا يهتمون بماشيتهم أكثر مما يهتمون بزوجاتهم . فالبقرة حياة الرجل ، وهى مدرة للبن الذى يصنع منه الجبن والزبد ليأكل ويبيع ، ولا شك فى أنه سوف يحزن إذا توفيت زوجته ، ولكن إذا نفقت بقرته انكسر قلبه حزنا على فقدان مدخرات حياته ومستقبله الاقتصادى ، وعلى ذلك فقد كان من الأوفر للرجل فى الريف أن يضيف إليه زوجة أخرى عما لو أراد شراء بقرة جديدة .

ولقد استطاع الرجال أن يسيطروا على زوجاتهم ويضعوهن فى أماكنهن ، حينما كانوا يتبادلون النصح بالمثل القائل « اقتل قطتك ليلة زفافك » ، متشددين ومتمسكين باليد الطولى فى الزواج . وعندما تولد بنت كان الفرح يعم الجميع ، فالمصريون يحبون الأطفال ، ولكن هذا الفرح لم يكن يعادل الفرح بمولد ولد . وكان المثل الشائع يقول « اللى تحت الطرحة مالهاش فرحة » . ونادرا ما يذكر الرجال أسماء زوجاتهم ، إذ ينادونهن : « يا ست » . ولا يجوز للمرأة أن تقاطع زوجها أثناء حديثه مع أصدقائه ، وتمشى خلفه - وليس بجواره - فى الطريق إلى السوق . ولقد كنت أرثى لحال السيدات وأظن أنهن بائسات ولكننى كنت مخطئة .

وتسأل امرأة زميلتها بجوار الساقية ، عندما تجتمع النساء ظهرا للحديث والثرثرة قبل حمل وجبة الغداء لأزواجهن فى الحقول ، تسألها قائلة : « لماذا تبدين سعيدة هكذا يا أمينة ؟ » فتجيب أمينة قائلة : « لقد بعت ثلاث دجاجات وأربع عشرة بيضة بالأمس فى السوق ، والآن يمكننى أن أشترى ما يكفينا من السكر والشاى حتى نهاية فصل الشتاء » . وتبتسم امرأة أخرى وتقول : « لقد درَّت

بقرتنا لبنا كثيرا حتى أننى بعت عشرة كيلوجرامات من الجبن ، ولسوف يكون حفل زفاف إبنتى أجمل حفل شهدته القرية » .

وكنت كل يوم أشترك مع هؤلاء النسوة فى الحديث بجوار الساقية . ولقد تغيرت نظرتى وفكرتى عن هؤلاء السيدات وأنا أشاهد الحمار أو الجاموس المغطى العينين حتى لا يصاب بالدوار ، وهو يدور بالساقية مرات ومرات ، فقد كان هؤلاء النسوة ـ بالمقاييس العادية ـ باشسات ، إذ كان معظمهن أميات . ولكن بالمقارنة بكثير من سيدات الطبقة المتوسطة فى مصر خلال الخمسينيات وحتى الستينيات ، فقد كان للمرأة الريفية قدر أكبر من الحرية والاستقلال .

ماذا كانت الفرص التى أتيحت للمرأة فى الطبقة المتوسطة ، عدا اللاتى يعشن فى القاهرة والاسكندرية ؟ فقد كان تعليم المرأة التى تسكن فى المدن الصغيرة محدودا بحيث لم يكن يكفى لتأهيلها لوظيفة محترمة . وكان الأزواج من نفس الطبقة يتمسكون بالتقاليد القديمة ، وينتظرون من زوجاتهم البقاء فى البيت للعناية بهم وبالأطفال فقط . ولقد عاشت نساء الطبقة المتوسطة فى عزلة اجتماعية غير مشتركات إطلاقا فى حياة أزواجهن ، ولم تكن لهن حياتهن الخاصة خارج نطاق البيت .

أما فى المناطق الريفية فتعمل النساء جنبا إلى جنب مع الرجال ويشتركن معهم فى جميع جوانب الحياة ، حيث كانوا ـ رجالا وسيدات ـ يروون الأرض معا . ويستأصلون الأعشاب ويحصدون المحاصيل ويزرعون الزرع الجديد . وعندما تحين ولادة عجل صغير كانت المرأة ـ بكل سرور ـ تساعد الرجل فى عملية الوضع ، لأن مولد عجل كان بشيرا بالبركات على البيت . ولم يكن اللبن للشرب فقط بل كان يفيض بكميات أكبر لصنع الجبن وللبيع . ولقد كان للمرأة نشاطها الشخصى كتربية الدواجن والأوز وجمع البيض وعمل الجبن ، وبيع الفائض من كل هذا الخير يوم السوق . وفى مجمل القول كانت هذه حريات صغيرة ، ولكن الأشياء الصغيرة فى مجموعها تصنع الكل . ولقد كنت أحسدهن

بطريقة أو أخرى ، فقد كن مشاركات فى نشاطات خارجية مختلفة أكثر منى حينما كان أطفالى ما يزالون صغارا .

ولقد أحببت طريقة حديث السيدات المباشر ، فقد كن ذكيات وممتلئات بالحيوية مثل صديقتى هانم التى كان ابنها (ممرضا) بالوحدة الريفية الجديدة . كانت هانم أمية لا تقرأ ولا تكتب ولكنها ـ مثل كثيرات غيرها ـ كانت تصغى إلى الراديو طوال اليوم ، ولذلك كانت أدرى بالأخبار أكثر من زميلاتها فى المدينة . وكثيرا ما كنت أشعر أننى أمام أستاذ أخبار عامة حينما كنت أزور هانم التى كانت ملمة بأحداث خارج مصر .

ولقد كان لسيدات القرية اتخاذ قرارات عديدة من أجل صالح العائلة ، مثل بناء غرفة جديدة فى المنزل أو شراء حيوانات جديدة لتربيتها وبيعها . الأمور التى لم يكن الرجال خارج القرى يسمحون بها مطلقا . وكما يقول القول المأثور فى القرى : « الرجل بحر والمرأة جسر » . ولقد عملت نساء قرية ميت أبو الكوم « جمعية » فيما بينهن ، وهى عملية مالية تعاونية ، تدفع فيها كل امرأة مبلغا من المال ، وكل شهر تقبض إحدى السيدات كل المبلغ . وبهذه الطريقة أمكن لأية سيدة شديدة الفقر أن تحصل على مبلغ من المال يكفى أن تدفعه مهرا لابنها فى زواجه ، أو أن تشترى به أريكة جديدة أو بساطا للمنزل ، أو فستانا جديدا تبادر فتعرضه علينا ونحن مجتمعات بجوار الساقية .

وقد كان التعاون بين النسوة ممثلا فى شتى الصور . فقد كانت أكبرهن سنا ترعى أطفال الأخريات اللاتى يعملن فى الحقول . وإذا مرضت إحداهن أو وضعت طفلا ، فإن الأخريات يقدمن لها الطعام ، وينظفن لها المنزل . وعند وفاة الزوج أو طفل تتبادل النساء الدور فى تقديم الطعام للأرملة المنكوبة ، مدركات حاجتها فى مثل هذا الموقف إلى المال ، أو أن حالتها لا تسمح لها بالطهو .

وعندما فقدت أم محمد إبنها فى عملية حربية لم أكن قد زرت القرية منذ

فترة طويلة ، فذهبت لأعزيها ولم أجد مشقة كبيرة فى العثور على منزلها ، إذ تتبعت صراخ الحزن حتى البيت ، ولما دخلته وجدت ما لا يقل عن ستين امرأة كلهن متشحات بالسواد ، ويحطن بالأم الثكلى ويبكين معها كما لو كان الميت ابنهن . وعند دخولى صاحت إحدى السيدات : « إننى أذكره صبيا صغيرا ، وأراه الآن مرتديا زيه العسكرى قادما إلى القرية فى سيارة « جيب » كما لو كان أميرا » . وعلى الفور تنفجر السيدات فى الصراخ والعويل ، وتدق بعض السيدات صدورهن ، وتمزق أخريات ملابسهن . وعندما يهدأ البكاء قليلا ، تصيح إحدى السيدات منتحبة : « إنى أذكر يوم زفافه منذ خمسة أعوام مضت ، لقد كان فى أجمل مظهر ، وهو يرتدى جلبابه الأبيض وملفحته الحريرية ، كان يشبه الملائكة » . وهنا تنفجر النسوة فى صرخات الحزن والألم .

ولم اتمالك نفسى من البكاء إذ أحسست بآلام الأم مشاركة إياها ، فقد كان جو الفراق ملموسا جدا . وأحاطت سيدة أخرى بذراعى أم محمد وصاحت منتحبة : « لن نرى محمدا بعد الآن . لقد كان إبنا بارا وأذكره حين أعطاك أول مرتب له قائلا : خذى يا أمى . . . هذا أول مرتب لى أعطيه لك . فقد عانيت وقاسيت وضحيت من أجلى . . ولقد كنت شديدة متشددة معى لأنك أردت أن ترينى ضابطا . والآن فإنه من دواعى فخرى أن أشكرك » .

ولمدة ثلاثة أيام كانت النساء يحضرن للانتحاب مع أم محمد من الفجر إلى المساء ، حيث يعدن إلى منازلهن للنظر فى شئون عائلاتهن ، ولم تكن نساء القرية تتركن أختهن الحزينة لمدة دقيقة واحدة . وكان على ثلث السيدات إحضار طعام للجميع أول يوم ، والثلث الثانى ثانى يوم ، وهكذا ، والقهوة والشاى اللذان يقدمان للمعزين يجب أن يكونا بلا سكر فإن المناسبة ليست سعيدة ، إلا أن الطعام والشراب المقدمين لأم محمد يكون بهما سكر ، ولو أنها لا تأكل . وهنا تفرض السيدات على أم محمد بأن تأكل قطعة من الحمام ، أو تشرب جرعة من عصير الليمون . ولكن أم محمد تصرخ كثيرا وتقول « دعونى أموت . . هل هناك سعادة بدون ولدى الذى لن أراه أبدا ؟ » وهنا تأخذ جميع النسوة فى العويل

والنحيب مرة أخرى . ويصل الحزن إلى أوجه حينما يعود أحفاد أم محمد للبيت فى المساء ، وكانوا قد أرسلوا إلى منزل آخر أثناء النهار . وهنا يسمع القول : « انظروا كم هم صغار ، لقد أصبحوا أيتاما فى ميعة الصبا . . » .

وعند انتهاء الأيام الثلاثة يصبح الجميع - بما فيهن أم محمد - منهوكات القوى . وقد ساعد ترديد كل مفردات الحزن وعبارات التعزية ومواعظ الامام والقراء على تخفيف آلامها وأحزانها الشديدة . ولا يتركنها عادة حتى بعد الأيام الثلاثة ، إذ تبقى معها بعض صويحباتها وقريباتها وجاراتها . وحتى يوم الأربعين ، تجتمع النساء حول أم محمد بعد ظهر كل يوم خميس ، غير أن الانتحاب يكون حينئذ أهدأ حالا ، ويكون حزن أم محمد قد بدأ يقل تدريجيا . وفى القاهرة يعامل الموت على أساس شخصى نوعا ما ، أما فى القرية فيشترك الجميع فى كل شىء .

ولكل فرد فى القرية دوره المحدد ، حتى الأطفال ، الذين يعملون إلى جوار والديهم فى موسم حصاد الذرة والقطن والفواكه . وتسمع أغانى الحصاد مع نسيم الصباح : « ياللى زرعتو البرتقان يلا أجمعوه . . . » . وقبل قيام الثورة كان الأطفال من سن خمس أو ست سنوات يقضون الساعات الطوال يعملون فى الحقول فى القيظ الشديد ، بينما يمر بهم المشرفون المعينون من قبل الملاك الأثرياء ، وفى أياديهم العصى الطويلة لتنال من ظهور المتكاسلين أو من يلهون أو يتهاونون أو يلتمسون بعض الراحة !

ويقضى الأطفال النهار فى استئصال أعشاب محصول القطن ويجمعون بصفة خاصة لطع دودة القطن السوداء الكثيبة التى ينزعونها من النبات ويجمعونها فى جلابيبهم . ولست أدرى لماذا كانت هذه الديدان ترعبنى ؟ وحتى الآن لا أطيق أن أقترب من أية دودة من أى نوع ، ويمكننى أن أخمن إذا كانت هناك دودة داخل أية ثمرة فاكهة ، وإذا شككت فى ذلك فإننى أمتنع عن لمس الثمرة ، فإنه أهون على أن ألقى أسدا ولا أرى دودة .

والآن يذهب أطفال القرية إلى المدرسة لكنهم يستمرون فى أعمالهم اليومية أيضا ، كالمساعدة فى الحقول واقتياد الجاموس والأبقار إلى المراعى وإلى مياه النيل لاطفاء غلة القيظ . وكان أطفالى يقولون بحماس شديد : « يا أماه لقد أخذنا بقرتنا لتعوم مع زميلاتها من أبقار الأطفال الآخرين » . وكانوا يشتاقون دائما للمشاركة فى المسئوليات العامة ، الأمر الذى كان أنور حريصا على أن يتعلموه ، إذ كان دائما يقول : « لو كانت مصر كلها مثل قرية واحدة لأمكننا ـ معا ـ أن ننجز أى شىء » .

وكانت عائلتنا كلها تسافر سنويا إلى القرية فى شم النسيم ، وعلى الأقل لمدة أسبوعين من الصيف قبل ذهابنا إلى الاسكندرية ، ثم نذهب مرة أخرى لمناسبة عيد ميلاد أنور فى ٢٥ ديسمبر ، وكان يشدد القول : « يجب على الأطفال أن يتعرفوا على جذورهم » ، وذلك عندما كان الأولاد وهم فى سن المراهقة يفضلون حياة المدينة البراقة فى الاسكندرية . وكان يضيف قائلا : « إن القرية هى قلب مصر » . وكانت ميت أبو الكوم تعنى لأنور كل شىء طيب ودائم فى هذه الحياة ، فيما عدا الفقر القاسى . وقد كان دائما يحاول أن يصحح من هذه الأوضاع بالتبرع بكل المال الذى يحصل عليه من كتبه لميت أبو الكوم ، كذلك المال الذى حصل عليه من جائزة نوبل للسلام عقب توقيع اتفاقية كامب دافيد ومعاهدة السلام سنة ١٩٧٨ . وبسبب هذه الصلة الوثيقة بين زوجى وقريته فنحن نذهب إلى ميت أبو الكوم سنويا ـ أولادى وأنا ـ لنحيى ذكرى عيد ميلاده .

وعندما ذهبنا لأول مرة إلى ميت أبو الكوم مكثنا أنا وأنور فى منزل والده ، وهو بناء صغير من الطين يشبه باقى بيوت القرية ، ولكن زوجى تمكن بعد ذلك من شراء بضعة فدادين وشيد وسطها بيتا صغيرا من الطوب الأحمر ، وامكننا فيما بعد عمل إضافات عليه تدريجيا . وفى أول الأمر عشنا عيشة بسيطة جدا بلا سخان وبوتاجاز كالذى كان لدينا فى القاهرة . وكنا نغلى الماء فى أوان على « وابور الغاز البريموس » ونسكبها فى المغسل . أما الاضاءة فكانت بواسطة مصابيح الكيروسين ، وللتدفئة شتاء كنا نجلس حول مدفأة نحاسية ملآى بقطع الفحم

الملتهب . ولكى نوقد الفرن الطينى كنا نجمع الأخشاب وعيدان الذرة الجافة . وفيما بعد كان هناك سخان ماء وغسالة ملابس . ولكن أنور كان يصمم على الابقاء على الفرن المصنوع من الطين الذى حرص على إقامته هناك لصنع الخبز كما كان يحدث فى صباه الباكر .

ولقد زرعنا فى حديقتنا جميع أنواع الفواكه : البرتقال ، اليوسفى ، والنخل الخوخ ، البرقوق ، المانجو ، الجوافة ، والعنب . وكانت الأرض فى غاية الخصوبة ، حتى أننا نرى الشتلة الصغيرة تصبح شجرة فى وقت قصير . وزرعنا الخضروات أيضا : الخيار والخس والكوسة والطماطم التى كنا نضيف إليها الكزبرة والبقدونس . وكان لنا بعض حيواناتنا الخاصة : حمار يركبه الصغار وبقرة للحصول على اللبن . وكان « شرابى » مكلفا برعاية البيت والحديقة وهو من أبناء القرية ، وذلك أثناء تغيبنا عن المكان ، وما زال شرابى يعمل معنا حتى اليوم .

ولقد أحببت الطعام القروى البسيط وطريقة طهوه . فحالما نصل من القاهرة أرسل الأولاد ليجمعوا لنا الوقود حتى نأكل أرزا باللبن وهو عصيدة قروية لذيذة الطعم . ولقد تعلمت صنع الجبن الأبيض من لبن بقرتنا ، كذلك صنع الزبد بواسطة ضرب القشدة مع الملح بملعقة خشبية ولم أفلح أبدا فى حلب البقرة وأعتقد أن ثمة علاقة محبة يجب أن تقوم بين البقرة ومن يحلبها حتى ينزل اللبن ، الأمر الذى لم أتمكن من أدائه أبدا . لكننى نجحت فى عمل « المش » وهو جبن شديد الملوحة يشبه كثيرا الجبن الروكفور ، ويقوم الفلاحون بانضاجه فى جرار مع الفلفل الأخضر وقشر النارنج ، وذلك لعدة شهور . أما « النداغة » ـ وهى نوع من الحلوى ـ فكنا نصنعها من العسل الأسود ، وكنا نقوم بتخليل اللفت والجزر منقوعا فى الخل وعصير الليمون والبهارات .

لم يصدق أنور كيف أمكننى سرعة التأقلم مع (حياة) القرية ، وكيف أن السيدات قبلن مشاركتى بسرعة ، ولكن فى أية قرية تجد الناس مرحبين فى ود فطرى . ويمكن لأى غريب سائر فى شوارع ميت أبو الكوم أن يسمع كلمة « مرحب » من داخل المنازل ، وتتبعها دعوة لتناول (كوب) من الشاى . ومهما

كانت درجة الفقر فإن الفلاحين يقدمون الدعوة للمشاركة معهم فى أى شىء لديهم مع الزائر الغريب ، ويصابون بخيبة أمل كبرى إذا لم تلب دعوتهم .

وليس القرآن فقط هو الذى يحث على الضيافة للغرباء ولكن ـ كما هو الحال فى كل البلاد العربية ـ يمكن أن تكون تقاليد الصحراء من اطعام وايواء للمسافرين مسألة حياة أو موت . ففى العراق مثلا توجد استراحات قبلية لتقديم الطعام والمأوى لأى مسافر لمدة ثلاثة أيام بدون أية أسئلة . وعلى نطاق أصغر ، لم تكن ميت أبو الكوم مختلفة عن هذا .

وذات ليلة عندما عدت للمنزل فى الثامنة مساء سألنى أنور : « أين كنت ؟ » فأجبته بأنى تناولت طعام العشاء مع إحدى السيدات فى منزلها . فسألنى : « ماذا أكلت ؟ » وعلى وجهه علامات القلق . فأجبت : « لقد أكلت وجبة لذيذة : كوسة محشوة بالأرز ، وكانت تضعها بداخل صندوق خشبى « كنبة » . وقد مرت بنا سيدتان أخريان ودعتهما السيدة لكى تأكلا معنا » . ولما سألنى : « كيف حالك الآن ؟ » أجبته بأننى فى أحسن حال . وهنا تهلل وجهه بالفرح وقال : « من الآن لن أقلق عليك ، فلقد أخذت مناعة كافية لتحميك من أى شىء » .

وكان أنور على حق فى قلقه من المرض فقد كان متوسط العمر عندما كان طفلا حوالى ٣٣ سنة . ولذلك أشرفت بعناية على أولادى ، وكنت أهتم خصوصا بعيون أصدقائهم لأرى إذا كانت دامعة أو بها صديد ، وهو من علامات الرمد . ولأجيال مضت كانت أمراض العيون من أكبر مشاكل مصر الصحية ، وبعض مواطنى القرية كانوا مكفوفين . وقبل إنشاء العيادة فى ميت أبو الكوم كان القرويون يضعون الكحل فى عيون الأطفال ، وهو مسحوق أسود تستعمله النساء المصريات فى التزين ، وذلك منذ أيام الفراعنة . وربما كان الكحل ذا فائدة نوعا ما لكن أمراض العيون كانت متفشية فى كل مصر بسبب التراب والذباب الذى يحمل العدوى من شخص لآخر .

وكانت هناك الملاريا أيضا ، ينقلها البعوض المتكاثر فى المياه الراكدة .

وفيما بعد كان طلاب كلية الطب يردمون البرك الراكدة حيث يتكاثر البعوض . وكان هناك وباءان أو ثلاثة من مرض الكوليرا ، وبالطبع لم يكن بالشكل الوبائى السائد فى الهند . وفى معظم الأحيان كان هذا الوباء ينتقل الى مصر ممن يعودون اليها بعد اختلاطهم بسكان البلاد التى ينتشر فيها كالهنود أو الآسيويين . وكانت الحكومة تشعر بخطورة الكوليرا ، وفى الحال يعزل الحجر الصحى كل المنطقة التى ظهر فيها الوباء وترسل الأمصال والطعوم . وما زلنا معرضين لمرض شلل الأطفال والحصبة والأمراض المعدية والحميات التى تتفشى فى المناطق الحارة وفى ظروف غير صحية .

ومع ذلك فأخطر أمراض ميت أبو الكوم وكل القرى الزراعية هى البلهارسيا ، وهى طفيلى تحمله القواقع التى تعيش فى المياه الراكدة ، وبرك الرى والقنوات المتفرعة من النيل . وقبل ان تتولى الثورة إنشاء العيادات فى القرى كان ٧٠٪ من القرويين يعانون من البلهارسيا ، فلم تكن هناك قرية واحدة لم يكن لها اتصال مباشر بالماء ، فالنساء يغسلن ملابس العائلة والأطباق فيه . والأطفال يقفون فى الماء لغسل حيوانات العائلة وليرطبوا أجسامهم من حرارة الشمس المحرقة ، والرجال يخوضون فى الماء لتسليك المصارف وتحسين الرى .

ولم تكن هناك وسيلة لاجتناب طفيليات قواقع البلهارسيا التى كانت تعيش آلافا مؤلفة على حافة الماء ، شأنها شأن أصغر الديدان التى لا ترى إلا بالمجهر ، فهذه الطفيليات تدخل الى دماء الفلاحين وأطفالهم عن طريق الجلد ، وتسكن فى الكبد والطحال ، وفيما بعد قد تسبب السرطان . والأعراض الأولى التى كثيرا ما يجهلها الفلاحون عبارة عن ألم فى المفاصل وارتفاع طفيف فى درجة الحرارة وشعور بالارهاق ، وحينما يظهر الدم فى البول يتحقق المريض انه قد اصيب بالمرض وحينئذ يصبح الأمل ضعيفا فى الشفاء .

أما الآن فيمكن تشخيص المرض وعلاجه بسهولة بواسطة حقن تقتل الديدان ، ومن المؤسف أن السد العالى برغم منافعه الكثيرة للفلاح فقد تسبب فى صعوبة القضاء على البلهارسيا ، وذلك لأن النيل أصبح لا يجرى كما كان فى

الماضى حيث كان ينظف نفسه بنفسه . ولذلك ظلت العدوى مستمرة عن طريق هذه الديدان غير المرئية التى تتكاثر باستمرار فى الماء خاصة إذا ركد .

ومع أن الثورة أنشأت وحدات صحية جديدة فى الريف إلا أن كثيرا من الفلاحين ما زالوا يعتقدون فى الشفاء عن طريق الرقى والتعاويذ ، وليس عن طريق العلم . فهناك الشيخ أو الشيخة يعملان السحر ويدعيان القدرة على الشفاء وطرد الشياطين والرجم بالغيب وكشف الطالع . وفى ميت أبو الكوم كان الشيخ حسن - وهو من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة - يقوم بكل هذه الأعمال ، وكان الجميع يؤمنون بقوة وتأثير الحجاب الذى يصنعه ، وهو عبارة عن قطع صغيرة من الورق مكتوب عليها بعض التعاويذ الدينية ، تختار خصيصا لجميع أنواع المتاعب التى يعانى منها القرويون . فربما هناك زوجة غيور وترغب فى أن تزول محبة زوجها لضرتها ، أو امرأة أنجبت بنات وترغب فى أن يكون لها ولد . ومهما كان الطلب فإن أجر الشيخ عن كل حجاب كان عشرة قروش ، وبعدها يحدد المكان الذى يوضع فيه الحجاب حتى يضمن مفعوله : فمثلا يوضع فى الملابس الداخلية أو فى كيس حول الرقبة ، أو ربما يخاط فى ركن ملاءة السرير .

وقد يصف الشيخ طقوسا معينة لتزيد من أثر هذه الرقى والتعاويذ ، كأن يطلب بطة سوداء فى حالة العقم ، أما فى حالة الحمى فيأمر بأكل صدور الدجاج أو ورقة خضراء تؤكل لحظة غروب الشمس . ولم أكن أؤمن بقوة السحر ولكن أنور كان يؤمن بها فى صباه ، ولقد ظهرت بقعة بيضاء على ذراعه وكانت واضحة جدا بالمقارنة بلون جلده . ولما كان والده يعمل فى المستشفيات الحكومية ، فقد أخذه إلى أحسن الأطباء الذين فشلوا فى علاجه . وأخيرا أخذه إلى امرأة فى القرية تجيد أعمال الوشم ، فوضعت بعض الإبر حول البقعة وقالت لوالده إن البقعة سوف تتحول إلى اللون الأخضر ثم بعد ذلك تزول تماما . . . وقد كان .

ومع أنى لم أكن أؤمن بالسحر إلا أنى كنت أؤمن بالأعشاب الطبيعية التى استعملها ويستعملها المصريون فى طلب الشفاء ، خصوصا فى القرى . وعند مرض أولادى كنت أذهب بهم إلى الطبيب وأتبع تعليماته ، ولكن كنت ألجأ أيضا

إلى العلاج الطبيعى . فكنت أعطيهم مغلى الكمون والبابونج فى حالات المغص . أما فى الامساك فكنت أعطيهم الصبار وورق التفاح المر ، وأما أوراق الجوافة المغلية فكانت تفيد فى حالات السعال ، وفى حالات الارهاق نغلى الكركديه الذى يقوى دماءهم . وهذه العلاجات الطبيعية استعملت من جيل إلى جيل ، ولها فى كثير من الأحيان أثر أقوى من الكيماويات . وحتى الآن حينما أصاب بحروق من وهج الشمس أتذكر عمتى زوزو التى كانت تقول لوالدتى منذ سنوات عديدة بعد أن أكون قد أمضيت يوما كاملا على الشاطىء : « لا تستعملى كريم . . استعملى اللبن الزبادى » ، وكانت على حق ، إذ كان الزبادى يمتص الحرارة من جلد كتفى وسرعان ما يزول الالتهاب .

ولكن كانت هناك بعض الأشياء فى القرية لم أكن أقبلها ولم أستطع أن اعتاد عليها . فلم أسمح لأطفالى باللعب والاستحمام فى الماء خوفا من البلهارسيا ، وكنت أخشى النظر إلى الترع خوفا من الديدان مع علمى بأن هذه الطفيليات لا ترى بالعين . وتعد من هوايات الأطفال المصريين الشائعة تربية دودة القز فى علب ، فتتغذى على أوراق شجر التوت الخضراء ، وكم يتمتعون بمشاهدة الدودة تنسج شرنقة حول نفسها ثم تخرج بعد بضعة أسابيع على شكل فراشة . ولكنى كنت أمنع أطفالى من إحضار دودة القز إلى البيت ، فكانوا يشاهدونها فى بيوت أصدقائهم . كما منعت أطفالى من ممارسة لعبة ريفية مفضلة يصنعون فيها ساقية صغيرة من عيدان الذرة ، ويربطون إليها جعرانا يحاول فى جنون الفكاك من هذا الشرك ، ويطير فى دوائر عنيفة ، وهو بهذا يتسبب فى دوران الساقية اللعبة ، تماما كما يفعل الحمار أو الجاموس المغمض العينين فى ادارة الساقية الحقيقية .

وهناك بعض الاحتيال فى اتمام صفقة زواج ناجح للبنت ، وهذا ما علمته من السيدات بجوار الساقية . فلقد احتالت إحدى السيدات على عائلة فى عقد زواج إبنهم وابنتها التى كانت دميمة جدا ، وذلك بأن عرضت عليهم الابنة الصغرى التى كانت جميلة . وبعد اتمام الصفقة اختفت الجميلة وظهرت الدميمة . وفى حالة أخرى تم تسنين شابة بسن السادسة عشرة ـ وهو أدنى حد

للزواج ـ وذلك بارسال ابنة أكبر للطبيب لاستخراج شهادة تسنين ، ثم استبدلت بها الإبنة الصغرى التى تبلغ الرابعة عشرة فقط. وما زالت فتيات القرية يقبلن على الزواج بلا تردد فى غالب الأحيان . وعوضا عن عادة الأطفال الغربيين عندما تترك « سنّ » الطفل تحت الوسادة حتى تكافىء حورية الأسنان هذا الطفل ، فبنات القرية كانت لهن أمنية وحيدة : « خذى سنة الجاموسة وادينى سنة العروسة » ، وهى تقذف السن نحو قرص الشمس !

الزواج .. الزواج .. الزواج ..

بجوار الساقية يبدو أن الزواج هو محور حياة كل سيدة فى القرية . والزواج يعنى لأمهات الصبيان الراحة والضمان مدى الحياة ، لأن زوجات الأولاد يدخلن فى العائلة ليس فقط للمعيشة ، ولكن يأخذن على عواتقهن مهمة الطهو والتنظيف أيضا . والزواج يعنى لأمهات البنات ليس فقط نهاية الاعالة المادية ، ولكن أيضا تحقيق كل الأحلام التى كانت تداعب الأفكار نحو بناتهن . ولم يكن هناك بدائل أخرى لسيدات القرية ، والإبنة التى تبقى بدون زواج تشكل حرجا لكل العائلة . فالزواج دائما هو الحل الأفضل ، بغض النظر عن الثمن أو النتيجة !

وذات مساء صاحت سيدة متأوهة بجوار الساقية : « انظرن ماذا فعل بى زوجى بالأمس » . وكانت تستدر العطف جهارا على خدها المتورم ، ولكنها فى الحقيقة كانت فخورة لأن زوجها يهتم بها ويضربها . وتبدأ مباراة فى حديث النسوة المكشوف ـ الذى لا تجرؤ سيدات المدن على الجهر به ـ عن الأمور الخاصة التى تدور بينهن وبين أزواجهن . وربما يكون هذا الحديث صحيا ومفهوما فى مجتمع تخشى فيه المرأة من الطلاق . لكنى كنت دائما أحمر خجلا وحرجا ، ولم أستطع أن أشارك أحدا قط هذه الخصوصيات .. ولا حتى أمى التى كنت ملتصقة بها وقريبة منها . ولكن هكذا كان الحال فى القرية : الزواج فيها يعتبر شيئا عاما ، وأيام الزواج هى فى الحقيقة أمتع الاحتفالات .

ولقد حضرت مئات الأفراح فى ميت أبو الكوم ، وكانت التقاليد فيها جميعا

واحدة لا تتغير . فقد كنت أزاحم باقى نساء القرية فى بيت عائلة العروس لتقديم التحية للعروس صباح يوم عرسها .

وكان على كل عروس أن تبدو فى أجمل صورة لها ، وكانت قد اجتمعت حولها مساء اليوم السابق صويحباتها ليساعدنها فى أخذ الحمام ، وليجهزن ملابسها ومصاغها ، وليساعدن أيضا فى وضع الحناء فى راحتى يديها وكعبى قدميها . وكانت الحناء تستعمل فى مصر فى التجميل منذ أيام قدماء المصريين ، لونها جميل جميل وتدل على الطهارة . وفى بعض أرجاء العالم العربى تستعمل النساء هذه الصبغة البرتقالية الحمراء اللون أسبوعيا فى تجميل أيديهن وأقدامهن ، بينما كنت استعملها أنا شخصيا ، وكثيرات غيرى لتقوية الشعر .

وبالرغم من أن النساء فقط هن اللائى يزرن العروس قبل زفافها ، إلا أن الجميع ـ من أغنى ملاك الأرض إلى أفقر الفقراء ـ يجتمعون قبل مغيب الشمس لاحياء حفل انتقال العروس إلى بيتها الجديد . وهناك مثل ريفى قديم يقول : « تخرج المرأة فى حياتها مرتين : مرة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، والأخرى من بيت زوجها إلى القبر » . وتبلغ الاثارة قمتها عندما يسير موكب العرس فى شوارع ميت أبو الكوم الضيقة .

ويبدأ الموكب بقارعى الطبول تصاحبها الأيدى بالتصفيق المنتظم ، ويغنى الجميع أهازيج خاصة عن الزواج ، وتأتى كل فتيات القرية الصغيرات بما فيهن بناتى . ويلى ذلك استعراض جهاز العروس ، طاقم من أوان نحاسية جديدة لامعة ، وصندوق خشبى مدهون بلون براق ، وكل غرفة نومها : مرتبة جديدة وسرير ودولاب جديد وأريكة . وكل هذا يوضع فى سيارة نقل مكشوفة أو عربات تجرها الحمير ، وتعرض على الملأ حتى يراها الجميع . وأثناء طواف هذه العربات فى شوارع القرية تعلو أصوات الجميع بعبارات التهنئة ، ويزداد الهتاف بصورة عالية حينما يمر أفراد عائلة العروس حاملين الصوانى الكبيرة المحملة بالبط والأوز والخضروات والأرز والفول والخبز والحلويات . . وكل هذه الأشياء هى مكونات وليمة العرس . ولكن أعلى الهتافات على الاطلاق كانت تشق عنان

السماء حينما يبدو فى الشوارع موكب العروس والعريس معا .

وتتقدم هذا الموكب سيارة مكشوفة مغطاة بالزهور ، أوعربة يجرها حمار مزين بالزهور أيضا ، حيث تجلس العروس وبعض النسوة من أقاربها . وكثيرا ما يطلق الرجال الأعيرة النارية فى الهواء ابتهاجا بمرور موكب العروس ، أما النساء ـ وأنا معهن ـ فكن يطلقن الزغاريد وينثرن حفنات من الملح فى الهواء لطرد العين الشريرة . ويخرج العريس من بيت شبينه ويتبع العروس فى موكبها ، بعد أن يكون أيضا قد أخذ حمامه بمساعدة أصحابه ، ووضعوا له الحناء فى يديه ، وألبسوه عمامة وجلبابا مصنوعا من أجود أنواع القطن ، وأعطوه سيفا ليمسكه بيده ، ويحيط به أصدقاؤه فى دائرة حاملين الشموع والمشاعل ، ويسيرون معه حتى يصلوا إلى العروس التى تسبقه لتنتظره أمام منزل عائلته . وبينما ينهمك المأذون فى اتمام عقد الزواج بين العريس ووالد العروس تكون هى وصديقاتها منهمكات فى أداء طقس أخير من طقوس الزواج :

تجلس العروس على كرسى تحيط بها صديقاتها ، وفى حجرها القرآن الكريم . . فأل حسن لكى يحفظها المولى عز وجل . ولكى تضمن التوفيق فى المستقبل تضع العروس قدميها فى وعاء نحاسى كبير به ماء ساخن شتاء أو بارد صيفا بينما تضع صديقاتها أوراق الشجر الخضراء على رأسها ، ويلقين أوراقا أخرى فى الماء . ولكى تبدأ حياتها الجديدة بداية حلوة ، تضع صديقاتها السكر فى فمها . وعند توقيع العقد يحتفل القرويون طوال الليل حتى مطلع الفجر بدخول العروسين حياتهما الجديدة كزوج وزوجة .

ولا تقل عن مثل هذه الفرحة الغامرة فرحة ميلاد طفل فى القرية ، وهى فرحة يعبر عنها الوالدان الفخوران بتعليق الزينات الكهربائية على بيوتهم وعلى الأشجار . وبمناسبة « السبوع » ، يحضر الجميع هدايا للعائلة : بطة ، أوزة ، خروفا ، خبزا ، فطيرا مشلتتا ، ذلك الفطير الشهى المحشو بالقشدة والعسل ، والبعض يعطون نقودا . . وهى تعتبر فى هذه الحالة دينا ، يرد لمن أعطى حينما ينجب مولودا ، وبنفس القيمة .

ومن المعروف أن الأطفال هم أعظم عطية يمنحها الله للانسان ، ولذلك يخشى الآباء عليهم دائما من الحسد . وكانت الهدايا التى نقدمها أنا وأنور ، ويرحب بها من تعطى لهم ، عبارة عن أشياء تمنع فعل العين الشريرة ، مثلا نسخة من يد السيدة فاطمة بنت النبى عليه الصلاة والسلام ، أو قلادة ذهبية أو أسورة نقشت عليها سورة « يس » أو آية الكرسى . ولمزيد من الوقاية يقوم الوالدان عقب الولادة مباشرة ، بضفر خرزة زرقاء فى الجزء الأمامى من شعر الطفل ، حتى إذا ما أبدى أى شخص إعجابه بالطفل تقع عيناه أول ما تقعان على اللون الأزرق الذى يرد عنه العين .

ويبالغ بعض الآباء فى القرى فى اخفاء حقيقة الأم الحامل ، وذلك بعدم تجهيز أى شىء من مستلزمات الطفل القادم إلى الحياة أو إعداد ملابس له مقدما . . ولا يتم أى شىء من هذا كله إلا حين يولد الطفل بسلام . وحتى بعد ولادة الطفل قد يستمر بعض الوالدين فى عدم شراء أى شىء لطفلهم الجديد معتقدين أن قوة الحسد سوف تشتد إذا ما بدا الطفل سعيدا ورافلا فى ثياب جميلة ، بل عوضا عن ذلك يحاولون إخفاء سعادتهم وحظهم الطيب بأن يطلبوا من آخرين ملابس قديمة لطفلهم المسكين على سبيل الاستجداء !

وقد كانت هذه الخرافات فى عهد وصل فيه معدل وفيات الأطفال فى مصر إلى ٥٠٪ ، ولكن حتى بعد قيام الثورة حينما أصبح الجميع يتمتعون بالخدمات الصحية ، بقيت هذه الخرافات والطقوس كما هى لم تتغير . ولكى تتحاشى بعض الأمهات الحسد كن يلبسن أطفالهن الصغار الخرق البالية « الهلاهيل » . وكن يهملن حالة أطفالهن الصحية حتى يبلغوا الثالثة أو الرابعة من العمر . وحيث أن الولد - فى رأيهم - أفضل من البنت ، فهو لذلك أكثر عرضة للحسد ، ولذلك كان بعض الوالدين يلبسون الأولاد ملابس البنات خلال السنة الأولى .

وحتى يومنا هذا نتحرج من أن نقول للأم « ما أجمل طفلك » ، فإن هذا يكون نذيرا بكارثة . وعلى العكس فإن الأم تنتظر أن يقال لها : « ما أقبح هذا المخلوق الصغير » . وعند اختيار إسم الطفل يطلقون عليه عادة اسما يظنون أن

فيه حماية له من الحسد ، وكان أحد العمال فى منزل والدى يدعى « شحات » . وقد سألته مرة : « لماذا أطلق عليك والدك هذا الاسم المهين ؟ » فأجاب قائلا : « لأن كل طفل كانت تنجبه أمى كان يموت ، ولذلك تقرر ـ قبل مولدى ـ أن يسمونى (شحات) حتى لا يحسدنى أحد وأعيش . وقد حصل » .

وهذه الخرافات والطقوس ليست مقصورة فقط على الزواج والمواليد فى القرية ، فقد كانت هناك طقوس تقريبا لكل شىء : إعادة إدرار البقرة لبنا حينما يجف ضرعها ، ومحاولة تأكيد ميلاد ولد . والسيدة التى لم تكن تحمل كانت تأكل حفنة من طمى النيل طلبا للخصوبة . وإذا ولد طفل ميتا كانت الأم أحيانا تدفن المشيمة « الخلاص » تحت عتبة باب البيت أو داخل جدار ، معتقدة أن هذا سوف يساعد على ولادة أطفال أحياء فيما بعد .

وكان أحد الطقوس المفضلة لدى يحدث مرة كل أسبوع ، فعقب صلاة الجمعة كانت تنتشر رائحة البخور فى بيوت القرية ، فقد كان الفلاحون يحتفلون بيوم الجمعة بواسطة إحراق البخور فى أفرانهم أو على جمرات فحم متوهج فى إناء من الطين ، وذلك درءا للحسد . وكانت رائحة هذا الدخان النفاذة جميلة ، تماما مثل رائحة اللبان المر التى يعرفها العالم القديم . وهذا البخور يستخرج من شجرة المستكة ، وكثيرا ما كنت أشترك بنفسى فى هذا العمل وأنا سعيدة وأحمل المبخرة الطينية من غرفة إلى غرفة طالبة البركة لبيتنا . وفى بعض البيوت كان بعض الفلاحين يضيفون طقسا جديدا وذلك بالعبور فوق دخان البخور سبع مرات لكى يستجاب ما يطلبون .

وكان الفلاحون يهتمون كثيرا بالاحتيال على الجن معتقدين أن هذه الأرواح الشريرة قد تخرب حياتهم . فكانوا يدفنون قلامة الأظافر وقصاصة الشعر خوفا من أن تستعملها الجن فى الشر ، أو فى الحلول فى أجسادهم . وكان أكثر الناس أعتقادا فى هذه الخرافات يخلعون ملابسهم بعناية ليلا خوفا من دخول الجن فى الملابس المقلوبة . وحتى رداء السيدات الطويل وجلباب الرجال الذى يحف بالأرض عند المشى كانوا يظنون أنه يثنى الجن عن الأذى حينما يراقبونهم وهم

يمشون مقتفين آثارهم .

وكانت بعض هذه الخرافات تصيبنى بالاحباط حين أراها تمنع السيدات من المشاركة فى الحياة العصرية . ولن أنسى أبدا تلك السيدة الصغيرة التى قابلتها مصادفة ذات صباح على الطريق من ميت أبو الكوم إلى الاسكندرية . لقد انفجر اطاران من عجلتين من سيارتى ، وتركنى السائق وحيدة مع أوراقى وذهب لاحضار إطار جديد . ولما رأى مالك الأرض سيارتى المعطلة خف لنجدتى .

ولما تعرف على سألنى فى أدب : « هل لك أن تتفضلى بالانتظار فى منزلى مع زوجتى ؟ » فشكرته وقلت له : « إنه يوم جميل وأنا أفضل البقاء هنا » . ولكن هذا لم يثنه عن إظهار نواياه الطيبة فقال : « إذن سوف أرسل لك من يبقى معك » .

كانت نحيفة جدا ، وعندما اقتربت منى قادمة من الحقول ، بشعرها الملموم داخل منديل رأسها ، هالنى شحوب وجهها . ولما جلست إلى جوارى وأخذنا نتحادث رأيت بوضوح ، من بروز عظام خديها والبقع البيضاء المتناثرة على جلدها ، أنها مريضة بمرض خطير .

وبتلقائية المرأة الريفية سألتنى بسرعة عن اسمى وعما إذا كنت متزوجة وعندى أولاد . فقلت لها إن إسمى جيهان ، ولما عرفت اسم ابنى راحت تنادينى « أم جمال » . ثم قالت لى بحزن : « يا أم جمال إن الله باركك بإعطائك ولدا . أما أنا فليس لى ولد ، وزوجى أحضر زوجة ثانية . . صغيرة السن وفى صحة جيدة » . وهذا النبأ وحده كان كفيلا بتفسير مدى نحافتها ، فمن الطبيعى أن تصاب أية زوجة بقلق بالغ خوفا من دخول زوجة أخرى للبيت . والخوف الأكبر كان الطلاق .

وكانت هذه السيدة الصغيرة تشبه الموتى . وسألتها عما تأخذه من دواء من أجل صحتها ، وعما وصفه لها الطبيب . فقالت وهى تهز رأسها : « طبيب ؟ لا يقدر الطبيب أن يفعل لى شيئا يا أم جمال . إنه الروح الشرير الذى حل فى

جسدى فدمر صحتى وسلبنى كل فرصة لكى يكون لى ولد . » ثم قصت على قصة امتلاك الروح الشرير لها منذ أربع سنوات ، حينما طار أمامها ذات صباح طائران كبيران أسودان ، وفجأة عاد الطائران نحوها وأخذا ينظران اليها . ثم قالت : « وحالما التقت عيناى بعيونهما شعرت بأن الجن قد تقفزت من الحشائش وثبتت نفسها داخلى . وعلمت فورا ما حدث وذهبت فى تلك الليلة إلى الساحر . ولكن كل الأحجبة التى كتبها لى منذ ذلك الوقت لم ينفع واحد منها إطلاقا ، والآن لم يعد لدى نقود لأعطيها له . وفى القريب العاجل سوف لا أقوى على العمل لشدة ضعفى ، وسيطلقنى زوجى » .

فنظرت إليها بكل حزن وأنا متعاطفة معها ، وكنت موقنة أن أسباب آلامها ليست كما تخيلتها ، فقد رأيت حالات مشابهة من قبل وكان السبب هو الأنيميا وهى حالة يمكن علاجها ، وقلت لها بإلحاح : « أرجوك تعالى معى إلى الطبيب » . لكنها رفضت مصممة على أن مشكلتها ليست طبية ولكنها بسبب الأرواح . ولما رأيت السائق عائدا ، أدركت أنه لم يعد لدى وقت لهذه السيدة التى إذا لم أفلح توا فى إقناعها باللجوء إلى الطبيب فورا ، ففى المرة القادمة حينما أمر بهذا الطريق ستكون قد ماتت . لذلك قلت لها بسرعة : « إن كنت لا تريدين زيارة الطبيب فتعالى وجربى الساحر الذى أذهب أنا إليه ، فهو مشهور جدا فى مدينة القاهرة ويعمل أحجبة صغيرة جدا على هيئة كرات صغيرة ملونة . وهذه الكرات الصغيرة لن تلبسيها حول عنقك ولن تخيطيها فى ملابسك ، ولكنك سوف تبلعينها وتبقى فى جوفك حيث توجد الجن ، وقليل جدا من الجن هو الذى يستطيع أن يقاوم هذه الأحجبة ، ولكن معظمها يطرد نهائيا » .

ولما رأيتها تبدى إهتماما بما أقول أخذت أضيف إليه ـ وكلى أمل فى أن أكسب ثقتها ـ قائلة : « هذا الساحر غنى جدا ويرتدى ملابس بيضاء وهو يعمل فى غرفة كبيرة وهناك ينتظر الناس بالدور لكى يراهم ، ولقد علم آخرين قليلا من سحره ، وهؤلاء يرتدون أيضا الملابس البيضاء وهم يذهبون ويجيئون فى الغرفة لمساعدته » . فحملقت فى وجهى فى ذهول ، كما لو كنت أنا نفسى هذا الساحر

وقالت : « سأذهب إلى ساحرك هذا » .

وبعد أسبوع فى طريق عودتى إلى القاهرة أخذتها معى إلى طبيبى الخاص الذى كنت قد أسررت إليه بكل شيء عن مشكلتها . ثم بدأت فى ابتلاع الأحجبة التى وصفها الطبيب ، وعلى امتداد بضعة شهور كنت أصحبها أسبوعيا إلى القاهرة حتى أخذ لون وجهها يتحسن ، وبدأت البقع البيضاء تختفى تدريجيا . وحينما اصطحبتها إلى بيتها لآخر مرة صرحت لى بأن الساحر أخبرها أن صحتها أصبحت جيدة . ولم أرها بعد ذلك ، ولو أنى ظللت أبحث عنها فى الحقل الذى تعمل فيه . وفى اعتقادى أنها تقضى وقتها فى المنزل لترعى طفلها .

ولقد أصبت بإحباط من مستوى الفقر الذى يعيش فيه الكثيرون فى القرى ، ومن قلة الحيلة التى تشعر بها النساء ، وكانت تتردد فى أذنى كل طلبات المساعدة التى أتلقاها من سيدات ميت أبو الكوم والقرى المجاورة . « سيدتى : هل لديك فائض من المال ؟ إن زوجى مريض منذ ثلاثة شهور وحتى الآن لا يغادر الفراش » .

« سيدتى الله يخليك . . أريد عشرة جنيهات فقط . عندى ثلاث بنات ، ولكن ليس لى أولاد ولقد تركنى زوجى ليتزوج بأخرى » . . « سيدتى ماذا أفعل ؟ لقد لعب زوجى القمار بكل أمواله ، وهو يضربنى . وأريد أن آخذ أطفالى ونهرب منه . وفى الأسبوع الماضى باع ماكينة الخياطة ، وليس لى مورد لاعالة عائلتى . هل لك فى مساعدتى ؟ » وسألتها عن اسمها ، فأجابت بعينين منكسرتين : « نوال » ، فأعطيتها عشرة جنيهات مثلما كنت أعطى الأخريات ولكن طبعا لم أكن لأستطيع أن أعطى إلى الأبد ، لقد كان زوجى رئيسا لمجلس الأمة ، ولم يكن ملكا . وما الذى يمكن أن تفعله عشرة جنيهات أو حتى عشرون جنيها . إن هذا المبلغ لا يكفى فى الريف أكثر من أسبوعين ، وبعد ذلك يطلبن مزيدا من المال .

وكان لابد من أن نجد طريقة تجتمع فيها هؤلاء النسوة معا لجمع مبلغ كاف لاعالة عائلاتهن بدون الاعتماد على طغيان الأزواج . ففكرت فى المجهود التعاونى الذى سمعت عنه كثيرا حول الساقية فى ميت أبو الكوم . فإذا كان ممكنة

لدى سيدات القرية أن يتعاون فى حالة المرض أو الزواج أو الولادة ، فما الذى يمنع من تعاونهن فى إيجاد وتوفير مبلغ من المال لمعاونة بعضهن بعضا ؟ لقد نالت مصر استقلالها عن المحتل الأجنبى لكن المرأة المصرية القروية لم تحصل بعد على هذا الاستقلال . ألم يحن الوقت لهن أن يقمن بثورتهن الخاصة ؟ ولكن كيف ؟

وكانت طلبات هؤلاء السيدات للمال تداعب فكرى مرارا وتكرارا فقد شعرت بهذا الموضوع يطاردنى ، مما سبب لى قلة النوم أو صعوبته . وكزوجة أنور السادات الذى أنتخب رئيسا لمجلس الأمة كانت لى صلات ببعض الأشخاص ذوى النفوذ . ولكن ماذا يمكنتى عمله لأساعدهن ؟ إن قصة نوال وبيع زوجها ماكينة الخياطة على مائدة القمار أقلقتنى كثيرا ، فقد كانت تملك شيئا يمكنها من ورائه أن تدر دخلا ، وهو ماكينة خياطة ... ماكينة خياطة ...

- « أريد أن أقابل السيد المحافظ من فضلك » .

- « تسعدنى رؤيتك يا مدام سادات . هل من خدمة أؤديها ؟ »

- « أريد مبنى » . « مبنى ؟ » . « نعم أريد أن أبدأ مشروع تدريب المرأة على العمل ، وأريد أيضا بضع ماكينات خياطة » . « ماكينات خياطة ؟ » .

- « نعم أريد أن أبدأ جمعية تعاونية للخياطة حتى تتمكن النساء فى محافظتكم من العمل واعالة أنفسهن بأنفسهن » .

فحدق فى السيد محافظ المنوفية ، حيث تقع ميت أبو الكوم ، بنظرات الدهشة وقال : « سيدتى إن الدلتا مزدحمة جدا كما تعلمين تماما ، وكل المبانى التى كان يمتلكها كبار ملاك الأرض قد أخذتها الحكومة لمكاتبها » .

وقد كنت أنتظر هذا الرد فقلت له بإلحاح : « ربما يوجد مبنى واحد فى أى مكان . نحن لا نريد قصرا ، إنما نريد شيئا ما ذا أربعة جدران تمنع التراب والذباب » .

فأخذ المحافظ يفكر قليلا ثم قال : « يوجد قسم شرطة قديم بمدينة تلا ، ولكن جدرانه متشققة وهو فى طريقه إلى السقوط . ولكن ربما أمكن استعماله » ، فقلت له : « سآخذه » وسألته : « ماذا عن ماكينات الخياطة ؟ » فأجاب وقد بدا عليه الاعجاب بالفكرة : « ربما يوجد بعضها فى مخازن الحكومة ، وأذكر أن هناك مشروعا مشابها لم يتم » وكان المحافظ على حق .

لم يكن قسم الشرطة فى تلا (وهى مدينة أكبر قليلا من ميت أبو الكوم) إلا مبنى متواضعا مهجورا ، وهنا كان على أن أجد نساء يمكنهن العمل بأجر . ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة .

أخذت أجوب شوارع تلا المتربة الضيقة فى سيارتى . واستعرت من المحافظ مكبرا للصوت (ميكروفونا) ، وثبت المكبر على سقف سيارتى وأخذت أنادى قائلة : « أرجو من السيدات اللاتى يردن العمل التوجه إلى قسم الشرطة المهجور مساء غد . كل من تريد أن تعمل عليها أن تأتى ، تعالى إذا كنت غير متزوجة أو متزوجة أو أرملة أو مطلقة » ، وأخذت أصيح كما لو كنت خطيبة : « تعالى إذا كنت ماهرة فى صنعة ما ، أو إذا كنت على إستعداد للعمل الشاق والسريع لكى تربحى مالا لعائلتك . تعالى إلى قسم الشرطة غدا مساء خلال ساعة الزيارة » .

وطوال اليوم كان قلبى مضطربا وكنت قد سألت أنور عن رأيه فى الفكرة ، ولم يكن مشجعا ، ولكنه لم يكن مثبطا ، ولم يكن على يقين من أننى يمكننى السير قدما فى هذا المشروع . وحانت ساعة اللقاء المرتقب فى قسم الشرطة ولم أكن أنا نفسى واثقة من المشروع . كم عدد اللاتى سيحضرن ؟ هل سيأتى أحد على الاطلاق ؟ وصلت إلى تلا مبكرة ، ويا لبهجتى . . كان هناك عدد كبير ينتظر بدء الاجتماع . كان هناك رجال جالسون فى أحد جوانب الحجرة متشوقون ومترقبون : كيف يمكن للسيدات أن يوفرن مالا ؟ ومتشوقون أكثر أن يروا تلك السيدة التى كانت تنادى من سيارتها فى شوارع المدينة . وكانت السيدات جالسات فى الجانب الآخر من الحجرة فى لهفة وحيرة . وهنا بدأت الأسئلة ،

« كيف نوفر ماكينات الخياطة ؟ » فأجبت قائلة : « إن الحكومة سوف تشترى لنا كل شىء أولا ، وسوف نسدد ما علينا من أرباحنا » . « ومن سيرعى أولادنا أثناء العمل ؟ » فأجبت : « نحن بأنفسنا إذ سوف نجهز دارا للحضانة فى المبنى من أجل أطفالكم ، ولأطفال القرية الآخرين . ولن نعمل لساعات طويلة جدا ، ولذلك سوف يكون لديكن وقت كاف لاعداد الطعام لعائلاتكن » « ولمن سنبيع هذه الملابس ؟ . لن يتمكن أحد من أهالى القرية من شراء هذه الملابس » . فقلت : « سنأخذ الملابس للقاهرة ونبيعها هناك » . وهنا سادت همهمة فى جو الحجرة : « القاهرة ؟ » إن قليلات جدا منهن ذهبن إلى القاهرة . ولقد قلت لهن منبهة : « يجب أن تكون الملابس المصنوعة هنا على نفس مستوى الملابس المصنوعة فى المدينة ، وإذا وفقنا فى هذا ، فأنا أعلم أن هناك كثيرين سوف يشترون منتجاتنا » .

« وماذا سيحدث إذا كانت جودة ملابسنا أقل ؟ » فقلت : « فى هذه الحالة سوف نصنع المربى والمخلل أو أى شىء آخر يدر مالا ، وسوف نبدأ بإذن الله فى مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم . إحضرن إذا كنتن تردن حياة جديدة ، واحتراما من أزواجكن وفاجئن كل من يقول إنكن لستن بقادرات على كسب معيشتكن بأنفسكن » .

وكانت نوال فى مقدمة الحاضرات فى الأسبوع التالى ، ومعها خمس وعشرون إمرأة ممن يجدن الخياطة والتفصيل . وفى البداية عملنا « مرايل » بسيطة بينما الحاذقات منهن عملن أوشحة وملابس مطرزة يدويا .

ولما تم تدريب كل النساء انتقلنا إلى صنع ملابس عمل للرجال ، قمصان وبنطلونات ، ثم ملابس أطفال وقمصان نوم حريمى مطرزة . وكنت أقود سيارتى لمدة ساعتين يوميا من القاهرة لكى أشرف على النساء وأشجعهن ، ثم أقود السيارة ساعتين أخريين فى طريق العودة للقاهرة حتى أكون مع عائلتى .

وكنت أحتد أحيانا عليهن : « إن هذه الخياطة ليست مستقيمة .. انظرى

كيف أن هذا البرسل غير متناسق » . وسرعان ما تصبح الملابس كاملة ومتقنة . وأحيانا كن يسألننى فى اهتمام واضح « مالك يا مدام جيهان ؟ لماذا أنت صامتة ؟ هل فتر حبك لنا ؟ » .

وفى اليوم التالى علمت من صديقة لى فى القاهرة تمتلك مصنعا عن عقود أبرمتها مع الجيش والمصانع الكبرى لعمل أزياء موحدة وملابس عمل . وسألتنى هذه الصديقة « هل لك أن تبحثى إن كنت تقدرين أن توقعى عقودا محلية بالمنوفية عن ملابس من جمعية تلا التعاونية ؟ إننى سوف أعيرك « المقصدار » الخاص بى وهو بارع وذو خبرة ويمكنه أن يأخذ المقاسات ويقص ، وعلى سيدات تلا أن يقمن بعملية الخياطة » .

فشكرتها كثيرا وتحمست للفكرة . وإذا كانت جمعية تلا التعاونية سوف يكون لها المال الكافى لتمول نفسها ، فلماذا لا يكون ذلك من الآن ؟ وفى المرة التالية التى ذهبت فيها إلى تلا استدعيت مالك شركة لعمل الملابس وقلت له : « « يمكننا أن نفصل ملابس عمل ممتازة ورخيصة لعمالك ، وبسرعة . فلماذا ترسل طلباتك خارج المنوفية بينما نساء تلا قادرات على تسليمك محليا ما تحتاج إليه ؟ فاستدعى صاحب المصنع رئيس عماله وسأله : « هل نحن محتاجون إلى ملابس عمل ؟ » فأجاب رئيس العمال بالايجاب . وكانت الطلبية من نصيبنا ، وتهللت لذلك كثيرا . وكانت صديقتى فى القاهرة عند كلمتها ووعدها إذ أرسلت لى المقصدار الخاص بها ، وتوجه إلى مصنع الملابس وأخذ مقاسات جميع العمال ، ثم عاد إلى تلا لكى يقص القماش . وفى وقت قليل جدا انتهت النساء من خياطة كل الملابس : حوالى خمسة آلاف قميص وبنطلون ، وقمت بتسليمها إلى صاحب المصنع وأنا فى غاية الفخر والزهو .

واندفعت إلى مكتب صاحب المصنع وقلت له : « إن سيدات تلا صانعات ماهرات ، وسوف تسر بل تدهش حينما تشاهد نوعية ما صنعنه . « وهنا طرق طارق الباب ، كان رئيس عمال المصنع الذى قال : « هل تريدين أن ترى ملابس العمل ؟ » وهنا دخل تسعة عمال إلى المكتب : القصير منهم كانت الأكمام تتدلى

من يديه وتغطيهما . والطويل كان البنطلون يصل إلى قرب الركبة وكأنه « شورت » . فاصطبغ وجهى بحمرة الخجل وتمنيت أن تبتلعنى الأرض وقلت لصاحب المصنع : « هذه غلطتنا وأنا سآخذ هذه الملابس مرة أخرى إلى السيدات ، وأنا أطلب منك مهلة أسبوعين وبعدها أعيد لك الملابس فى الأحجام المناسبة » .

وكان غيظى من المقصدار شديدا وقلت له وأنا أود أن أقتله : « لقد أفسدت علينا كل شىء ، وأوهمتنا بأنك خبير ماهر وأنك ستعمل جنبا لجنب مع السيدات حتى تتأكد من عدم حدوث أية أخطاء . وإذا كنا غير مستعدات لتسليم هٰذه الملابس فلماذا لم تخبرنى بذلك ؟ » فرد على بهدوء مؤكدا : « لا تقلقى يا سيدتى . أريد منك عشرة أيام وسوف ترين . أننا نعرف ما نفعل تماما » .

وفى غاية الضيق عدت إلى القاهرة . وتساءلت : ما معنى أن أعمل بهذا الجهد مع سيدات تلا إذا كانت تلك هى النتيجة . فلقد أخذت الكثير من وقت عائلتى ، ولعله من الأفضل أن أبقى فى بيتى وأرعى أولادى . وسبب لى هذا الضيق أرقا فلم أستطع النوم وأنا أتقلب بين الصراع والشك : لماذا ظننت أننى قد أكون ذات نفع للسيدات ؟ إنى لم أفعل لهن أى شىء سوى أننى سببت لهن الحرج والاذلال . لقد كان المقصدار يبدو واثقا من نفسه . كيف يمكننى أن أعتمد عليه ، أوعلى نفسى مرة ثانية ؟

وبعد عشرة أيام عدت إلى المصنع بالمنوفية وسألت المقصدار : « هل الملابس جاهزة ؟ » فأجاب بالايجاب وقال : « تفضلى لتشاهدى » ولما تقابلت مع صاحب المصنع لم يكن لدى ذلك الشعور بالثقة والابتهاج الذى شعرت به فى اجتماعنا السابق ، وخفق قلبى بشدة حين سمعت طرقا على الباب . ودخل المشرف وقال : « هل تريدون أن تروا الثياب » . فهززت رأسى بالايجاب ، ولم أكن أتصور أننى أستطيع أن أحتمل صدمة أخرى ، وهنا دخلت مجموعة من العمال يرتدون ملابس جميلة جديدة متناسبة ومتناسقة . ولم أصدق عينى ، هل أنا فى حفل عرض أزياء ؟ لقد كانت الملابس كاملة ١٠٠٪ .

وقال صاحب المصنع : « ممتاز » ثم سألت المقصدار بعد ذلك : « كيف فعلت هذا ؟ هذه الملابس ممتازة » . فقال لى : « هذه الملابس ليست جديدة - أنا لم أفعل شيئا » . فازدادت حيرتى وقلت له : « بل هى جديدة ، فملابس المرة الماضية لم تكن متناسقة . فشرح لى المقصدار الموضوع كله وقال : « المرة الماضية نسيت أن أعطى المشرف رشوة ولذلك فقد تعمد أن يجعل القصار يلبسون ملابس طويلة والطوال ملابس قصيرة ! » .

وهنا توقف نفسى فى حلقى وتساءلت : « ماذا يقول الرجل ؟ » لم يخطر لى على بال أن أرشو المشرف . وبعد ذلك بأسابيع كنت أصارع المبادىء ، ووجدتنى ساذجة وبريئة . . زوجة مثالية . لقد عملت ما فى وسعى لسيدات تلا ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، وإذا كنت أنوى الاستمرار يجب على مواجهة الواقع فى تصريف الأعمال . وأنا واثقة أن الجميع لم يكونوا خربى الذمة مثل المشرف . ولكن كيف عرف ذلك ؟ على الأقل يجب أن أكون مستعدة ، وفعلا حدث ذلك مرة أخرى حينما طلبت طلبية هى مئات الياردات من الدانتيلا لتقطيعها وخياطتها على أطراف قمصان النوم ، ولكن الدانتيلا وصلت ناقصة ، فذهبت للسيدة التى قاست الدانتيلا ، وحملت لها هدايا من العطور والبن اليمنى الفاخر ، وفجأة أصبح مقياس الدانتيلا سليما كاملا . وببساطة إذا كانت هذه هى طريقة رجال الأعمال فلتكن . لقد كانت سيدات تلا فى حاجة للمال وللكرامة فى مهنتهن الجديدة .

وهكذا سعدت معهن ، فقد تمكنت هؤلاء السيدات أخيرا من إعالة أنفسهن وعائلاتهن ، وأصبح لدى نموذجا ملموسا وواضحا أضربه مثلا لبنات جنسى حتى لا يشعرن بعد بالتبعية والضعف . . وتغيرت معالم الحديث حول ساقية ميت أبو الكوم عما كانت عليه حينما صاحت فاطمة : « لست أدرى ماذا سيكون مصيرنا بعد أن هجرنى زوجى ؟ كيف لى أن أعول ستة أطفال ؟ » .

فحاولت السيدات الأخريات التخفيف عنها قائلات : « اصبرى . . فسيعود » ، ولكن هذا لم يكن ليطيب خاطر فاطمة . لقد قال « إن الأولاد سفهاء

يتزاحمون ويتدافعون بالأيادى » . ومع ذلك فلقد كانت تلك رغبته فى كثرة الانجاب » . فقلت لفاطمة مواسية : « إننى متعاطفة معك ولكن هذا قدرك ، وعوضا عن البكاء لم لا تفعلين شيئا تشغلين به نفسك ؟ تعالى للعمل فى تلا » فازدادت فاطمة بكاء وقالت : « لكنى لا أعرف الخياطة » . فقلت لها : « سوف ندربك » .

وعوضا عن انتظار عودة زوجها فى اليوم التالى جاءت معى إلى تلا وسرعان ما انشغلت فيما يعول أطفالها ، ولم يعد زوجها أبدا .

ولقد أخذ عمل النساء فى التحسن المطرد ، وهن يأخذن تدريبات وتصميمات جديدة كل يوم . وبعد مضى عام على حياكة الملابس كانت النساء على استعداد لأن يعرضن متنوعات كاملة من انتاجهن . وملأن ثلاثمائة صندوق من الملابس المتنوعة ، وقمنا أنا وخمس وعشرون سيدة أخرى وركبنا المينى باص للقاهرة لعرض هذه السلع فى صالة عرض بمساعدة متطوعات أخريات ساعدن فى إعداد بهو فندق شيراتون . . ولم تصدق سيدات تلا ، وكثيرات منهن لم يرين القاهرة فى حياتهن . وعندما شاهدن العمارات العالية المرتفعة ، صاحت إحداهن بلهفة : « هل ستقع هذه العمارات ؟ » ومع كل صيحة من آلات تنبيه السيارات كن يقفزن فى فزع وأمسكن بعضهن ببعض على إفريز الفندق المزدحم والملىء بالحركة ، إذ لم يرين أبدا هذا العدد من الناس يهرولون مسرعين ، أناس لم يعرفوهن طبعا من قبل . . ولكن ما حدث داخل الفندق أعجزهن تماما عن الكلام .

وبجوار معرضنا كان هناك عرض للخياطة الراقية . وبينما كانت نساء تلا متشحات بالسواد من هامة الرأس إلى أخمص القدم ، كانت عارضات الأزياء يجئن ويذهبن ويكدن يكن عاريات . وعندما عرضت إحداهن قميص نوم من الحرير بادرت معظم سيدات تلا بتغطية أعينهن . وسمعت إحداهن تصيح : « هناك رجل » ، وطبعا كان هناك مصمم الأزياء مع العارضات فى غرفتهن عندما كن يخلعن ملابسهن توطئة لارتداء زى العرض التالى . وطبعا كان هذا شيئا عاديا

لعارضات الأزياء ، أما بالنسبة للقرويات فكان هذا شيئا لم تره عين ولم تسمع به أذن من قبل . ولم أفعل شيئا معهن سوى أننى طلبت منهن تجهيز الملابس التى أحضرنها من تلا للبيع ، فقد كن مأخوذات مبهورات مما رأين فجأة فى القاهرة . وقد كن مأخوذات مبهورات بنفس القدر من نجاحهن . وعند عودتنا فى الأوتوبيسات إلى تلا فى تلك الليلة كنا قد بعنا كل ما عملناه ، وأخذت النساء نصف الأرباح ، أما النصف الآخر فقد خصصناه لتحسين حال الجمعية وشراء مزيد من ماكينات الخياطة .

ولكم أحببت روح المرأة القروية ، فلم أكن أشعر أبدا بالوحدة فى غياب أنور ، فحيثما ذهبت كانت النساء - اللاتى عرفن إسمى - تندفعن نحوى بالأحضان والقبلات ، فالعواطف فى القرية تطفو دائما على السطح ، ويبدى القرويون عواطف الحب والحزن بكل تلقائية ووضوح . وكأن لديهم حاسة توارد الخواطر فى حالة حدوث أى شىء فى القرية . ونتيجة لهذا الاحساس المرهف علموا أن هناك شيئا ما ذات يوم سنة ١٩٦٥ حينما كنت أقود سيارتى بسرعة فى قريتنا بدون أن أرد على تحياتهم .

صاحت إبنتى لبنى منتحبة فى ذلك اليوم عند عودتى فى ميعاد الغداء من تلا : « يا أمى لقد فقأ جمال عينه وأخذه أبى إلى المستشفى . جمال ؟ جمال . . لقد شعرت أنه سيغمى على وكل ما كنت أفكر فيه هو إبنى . . وقد وضع على عينه قطعة قماش مثل موشى ديان . واستمرت لبنى قائلة : « لقد كان يجرى خلف ذكر البط لانقاذه من الكلاب التى كانت تريد أن تأكله ، فسقط على السلك الشائك ، وكان مخضبا بالدم ، وأخذه أبى إلى المستشفى » .

كان لزاما على أن أذهب لأرى إبنى ، لكن أى مستشفى ؟ فتوجهت مباشرة إلى محافظ المنوفية . فلأذهب هناك لأنه بالتأكيد يعلم أى مستشفى اتجه إليها أنور ، وفى طريقى إلى المحافظ بسرعة شديدة كنت قد تركت النساء اللاتى يعملن فى جمعية تلا دون وداع ، وإذا بى أقابل سيارة أنور فى منتصف الطريق . ومن خلال النافذة رأيت إبنى والأربطة على عينه فصحت : « جمال . . جمال »

فأجاب أنور بسرعة : « إنه بخير ، وقد جرح فى وجهه تحت العين فتورمت وسال دمه فبدا الأمر كأن العين قد فقئت . ولقد عمل له الأطباء بعض الغرز فى الجرح وسوف يكون على ما يرام » . فصحت قائلة : « الحمد لله » وأخذت ابننا البالغ من العمر التاسعة إلى المنزل حتى يفيق فى سريره من المخدر .

« سالمة يا سلامة ، جمال رجع بالسلامة » كان صياح الهتاف والغناء عاليا . ولما نظرت من الشباك رأيت حافلتين من التى تحمل المواشى ، تقفان أمام باب منزلنا ، وبهما سيدات جمعية تلا . ثم تزاحمن داخل غرفة جمال وهن يغنين ويرقصن ويصفقن على إيقاع أغنية رجوع الجندى من الحرب : سالمة يا سلامة جمال رجع لنا بالسلامة .

كيف عرف الجميع أن جمال أصيب ؟ وكيف عرفوا أنه بخير ؟ وكما لو كان هناك تليفون خفى يربط جميع سكان القرية ، فقد علمت النساء بسرعة بأن شيئا ما قد حدث ، وأن كل شىء بخير الآن . وتدحرجت الدموع على خدى أولا لأن جمال على ما يرام وثانيا من فرط حبى لهؤلاء النسوة ، اللاتى احتفلن لمدة نصف ساعة فى غرفة نوم جمال ، ثم انصرفن ـ كما حضرن ـ بسرعة .

ولم يبق إلا ندبة صغيرة تحت عين جمال ، ولأبيه مثل هذه الندبة تماما وفى نفس المكان ، وكانت بسبب سقوطه عندما كان فى نفس عمر جمال . ولكن التعاطف والشعور الفياض اللذين تجليا بالنقاء وعلى الفطرة فى سلوك سيدات جمعية تلا جعلنى أشعر بالعجز عن الوفاء مهما فعلت وبذلت لمساعدتهن .

وبعد نجاح معرض مبيعات جمعية تلا الأول فى القاهرة ، بدأت أعمل بهمة أكبر ، وحضرت سيدات كثيرات لتشتركن فى ما سميناه فيما بعد :

« جمعية تلا للتنمية الاجتماعية » . .

وبينما كنا نمتلك فى البداية ٢٥ ماكينة خياطة أصبح لدينا ١٢٥ . وقامت وزارة الشئون الاجتماعية ببناء دار جديدة قبل سقوط مبنى قسم الشرطة القديم ، وأضفنا إلى الدار ورشة نجارة للرجال . وارتفع انتاجنا من ٦٠ قطعة ملابس عمل

فى اليوم إلى ٤٠٠٠ قطعة حينما افتتحنا ورشتين أخريين فى المنوفية وثالثة فى بنى سويف ورابعة فى الاسكندرية .

وما زالت نوال تعمل فى تلا . ولما رأيتها أخيرا كانت مثل باقى السيدات سريعة فى دراسة الموضات الجديدة من المجلات والكتالوجات . وهى الآن ترتدى فستانا أكمامه ملتصقة عند الكوع ، ثم يتفتح كالزهرة . ثم كانت تلبس سوارين ذهبيين ، وهى مليئة بالحيوية والعزم . وأخبرتنى بسعادة أن زوجها لم يعد يلعب القمار أو يضربها ، وأنه الآن يكن لها كل احترام . وكنت سعيدة جدا بنجاح مشروعى الأول . وسألت أنور عن رأيه يوم افتتاح فرع مصنع تلا فى ميت أبو الكوم ، فأجاب : « ممتاز ، ولم أكن أظن أن ذلك ممكن تحقيقه ، لكن حذار ! ليس الجميع مسرورين حينما يرون النساء خارج البيوت فى العمل . يجب عليهن ـ وعليك أيضا ـ أن تقمن بواجباتكن كزوجات » ، فضحكت وقلت له مداعبة : « سوف تظل قرويا طول عمرك يا أنور . لكن ثورتك لا يجب أن تكون للرجال فقط بل يجب أن يكون جزء منها للسيدات » ، فابتسم وقال : « حسنا : سوف أترك النساء لك ، وأتفرغ أنا لمشكلات البلاد » . فقلت له : « أنا موافقة وسوف تكون فخورا بنا » . ومع ذلك لم يدم فخرنا وسعادتنا طويلا حينما اتخذت الثورة مسارا مشئوما فيما بعد .



الفصل السابع

أوجاع مصر



همس لى أحد الاصدقاء فى قرية ميت أبو الكوم ذات يوم من صيف عام ١٩٦٦ قائلا : « يا سيدتى ، إن ما يحدث فى قرية كمشيش شىء همجى غير إنسانى . . واستمر الصديق قائلا إنه لايجوز أن ينقد الحكومة لزوجة رئيس مجلس الامة وأحد قادة الثورة ، ولكنه بالرغم عن ذلك فى غاية الألم مما شاهد . واستطرد الرجل فى ألم : « إننا نحب زوجك ونحب الثورة ، ولكن عامة الناس سوف يكرهون الثورة ، إذا رأوا مثل هذا المشهد . أنا نفسى لم أحب ابدا هذه العائلة الغنية ولكن إذا رأيت مشهدا كهذا ، فسوف أتعاطف معه أكثر من تعاطفى مع الثورة » .

وقامت حملة استمرت سنتين للقضاء على أعداء الثورة فى منتصف الستينات . ووسط تقارير فى عام ١٩٦٥ عن الاخوان المسلمين وأنهم يدبرون خطة ضد الحكومة ، تلقى عبد الحكيم عامر ، وزير الحربية آنذاك ، أوامر باستخدام البوليس الحربى للقبض على المتطرفين منهم . وقد تحرك الرئيس

عبد الناصر بعد ذلك بقليل ضد عائق من أكبر العوائق فى طريق الثورة وهم ملاك الاراضى . وكانت هناك شائعات بأن عدة مئات من العائلات الاقطاعية فى الريف لازالت تمتلك وتزرع مساحات كبيرة من الأراضى بصورة غير قانونية . وفى ربيع عام ١٩٦٦ قرر عبد الناصر تجريدهم من أملاكهم . وتكونت « لجنة تصفية الاقطاع » لمصادرة أملاك كل من جرؤ على مخالفة قوانين الاصلاح الزراعى ، وكما حدث مع الاخوان المسلمين ترأس عبد الحكيم عامر هذه اللجنة ليؤمن المبادىء الاشتراكية للحكومة .

ولم يكن هناك خطأ فى نوايا عبد الناصر ، ولكن الخطأ كان فى الطريقة التى تم بها التطبيق من جانب لجنة عبد الحكيم عامر ذات الأربعين عضوا . وقد بدأ كثير من زملاء عامر من ذوى النفوذ فى استغلال مناصبهم الجديدة لهدم أى إنسان قد لا يعجبهم متجاهلين أى نقد من الحكومة . ولم يكد يسلم أحد من الموجة الجديدة من الاتهام والاعتقال . وكل من كانت تثور حوله الشكوك بالانتماء إلى الاخوان أو حتى معرفة أحدهم كان يتم القبض عليه لاستجوابه ، وفى أحيان كثيرة يتعرض للتعذيب . وكانت ممتلكات السياسيين القدامى تصادر بإسم الدولة ، وكان الجيش يسيطر على القطاع المدنى ، وكان القبض يتم على كل من يجرؤ على انتقاد نقص المساكن أو الخدمات الهاتفية أو وسائل المواصلات ، إلى جانب آلاف تم اعتقالهم ولم يكونوا مذنبين إطلاقا .

وكان البوليس الحربى ينتظر إلى ساعات متأخرة من الليل لتفتيش المنازل بحثا عن المتهمين ، فعرف رجاله باسم « زوار الفجر » ، ولم يكن أحد يدرى أين سيبحثون فى المرة التالية . الجميع كانوا فى حالة خوف وقلق وعدم امان ، يتساءلون : هل يأتى زوار الفجر وهم نائمون ويأخذون رجال العائلة ، ولم يكن احد يعرف ما هى التهمة أو أين سيذهبون بالرجال ؟ وفى كثير من الأحيان لم يكن المقبوض عليهم أنفسهم يعرفون تهمتهم .

وقد حدث ذات يوم أن جاءت إلى بيتى فى شارع الجيزة صديقة مع اثنتين من شقيقات زوجها ، من بلدة كرداسة القريبة ، وطلبت أن يساعدهم زوجى فقد

حضر زوار الفجر إلى البلدة ، وداهموا البيت وقبضوا على أزواجهن وكانوا يبحثون عن اثنين من الاخوان الهاربين من السجن يعتقد أنهما مختبئان بالبلدة . . وقد ذهلت لأن السيدة ـ وتدعى كاميليا ـ وزوجها كانا من أصدقائنا المقربين الينا ، وينحدران من عائلة لها مكانتها . وقد كنت متأكدة أنهم لم يتآمروا على الحكومة أو الثورة . ولكن رجال البوليس الحربى قبضوا مؤخرا على جميع ركاب حافلة مواصلات « أوتوبيس » ، وهم يبحثون عن هذين الهاربين من الاخوان ، وبعد ذلك حاولوا انتزاع اعترافات من الركاب الأبرياء ، ودار الحديث بيننا ـ أنا وصديقتى ـ مرة أخرى ، فقلت لها : « إن أنور فى الحج مع عبد الناصر » ، فقالت لى : إننا سوف ننتظره هنا فى بيتك ، ولكننا لن نهدأ أو نستريح حتى يرجع أزواجنا .

وحين رجع أنور من الحج استمع إلى حديث هؤلاء السيدات وذهل مما سمع ، واتصل بوزير الحربية مستفسرا عن الموقف بالنسبة لأزواجهن ، ورد عليه عبد الحكيم عامر بأنه ليس عنده أى علم . واتصل بدوره بالسجن لكى يفرج عنهم ، وحينما حضر الرجال إلى منزلنا رأيت آثار التعذيب الوحشى الذى تمارسه الشرطة العسكرية .

إن المصريين شعب يتسم بالكرامة والكبرياء ، وهم يستطيعون تحمل الجوع والفقر والمرض وحتى الموت ، ولكن الشىء الذى لا يمكنهم تحمله هو المساس بكبريائهم ، فهم يهتمون اهتماما بالغا بسمعتهم وشرفهم وقد يتنازل أغنى مصرى عن كل ما يملك ليحمى إسم أسرته وشرفها من أى شائبة ، ولكن فى هذا الجو من القمع والارهاب فقد الكثير من المصريين كبرياءهم وكرامتهم .

ولم أكن أريد أن أصدق ما اسمعه وأراه لأن عامر كان زميلا وصديقا قديما لأنور ، وكانت أسرتانا تتزاوران كثيرا وخصوصا فى فصل الصيف فى الاسكندرية ، واصبحنا بعد ذلك أشد قربا ، وكان أولادى يعتبرون عامر فردا من العائلة ينادونه « عمهم » ويتسابقون إليه للبحث عن قطع الحلوى فى جيوبه ،

وكان يبدو من المستحيل بالنسبة لى أن أظن أن عبد الحكيم عامر أحد رجال الثورة مسؤول عما يحدث فى مصر الآن .

وفى نفس اليوم الذى أخبرنى فيه هذا الصديق بما يحدث من تصرفات لجنة تصفية الاقطاع ، رجعت إلى القاهرة لأجد عامر فى البيت مع أنور ، وسررت لوجوده لأقص عليه ما يحدث من تجاوزات . وقال عامر منفعلا : إن أحداً لم يأمر الجنود بمعاملة الأغنياء كالحيوانات ، وأن هذا لابد ان يكون ثأرا شخصيا بينهم . فقلت إذن أرجو أن تتنبهوا لما يحدث كيلا يفقد الناس تعاطفهم مع أهداف الثورة ، ويتعاطفوا مع من تهينونهم ، ثم يكرهوا الثورة لهذه التصرفات . ولكن هذه الأعمال البشعة استمرت لأن القليل من الناس كانوا يجرؤ ون على الشكوى .

وقد تزايد نفوذ أعضاء لجنة تصفية الاقطاع ، وبدأ هذا النفوذ يمتد إلى معارضيهم فى الحكومة والقضاء ، وكانت ثمة شائعات تقول إن كل عضو فى هذه اللجنة كان يكتب أسماء معارضيه فى كراسة سوداء وبالتالى تعرض كل من كتب إسمه فى هذه الكراسة للاعتقال أو مصادرة أملاكه .

وفى شهر مارس من عام ١٩٦٧ تزايد طغيان « زوار الفجر » . وكان الضباط فى كثير من الأحيان لا يعلمون عم يبحثون ، فيسألون أصحاب البيت بعد اقتحامه عما يمتلكون . وكانوا يدخلون إلى حجرات النوم حيث النساء فى حالة من الرعب يجردونهن من خواتمهن وأساورهن واضعين المصوغات فى جيوبهم مع ما يجدونه من مال . وكانت هناك أرتال من الأمهات والأطفال يسكنون الشوارع بعد ان طردوا من بيوتهم ، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن ينطق بكلمة واحدة أو يكتب فى الصحف عن هذه الأوضاع الرهيبة .

وكان معظم الشاكين الذين يصطفون على باب منزلى من الأغنياء وذوى النفوذ فى الماضى ، وكان بعضهم يطلبون مساعدتهم فى الافراج عن ممتلكاتهم بينما يطلب البعض الآخر زيادة معاشاتهم التى تم منحها لهم من الحكومة . ومن تعاليم ديننا السمح أن نساعد كل محتاج ، فكنت أتسلم الشكاوى وأعطيها لأنور ،

ولكن لم يكن فى مقدورى أكثر من ذلك . لم تكن هذه الشكاوى بالطبع محل نظر من لجنة تصفية الاقطاع ، لقد كنت مؤيدة للمبادىء والأهداف الاشتراكية للحكومة ، ولكن طريقة تطبيقها لم تكن بالطبع موفقة أو سليمة أو فى مصلحة الثورة .

وكنت فى منتهى الأسف لما يحدث ، فلم يكن من أهداف الثورة الاساءة إلى الأسر الكبيرة وإجبارهم على مغادرة البلاد . فكان من المفروض على لجنة تصفية الاقطاع جرد ممتلكات الأغنياء الثمينة لا الاستيلاء عليها . ولكن وحشية زوار الفجر ضد من يشتبه فى أنه معارض للنظام تعدت كل القيم التى آمنت بها ، فلا يصح تعذيب إنسان مهما كانت تهمته حتى تتم محاكمته أمام القانون ، فيحكم عليه بما يستحقه من عقوبة ، أما التعذيب فلا . وكانت كثيرات من زوجات المعتقلين يقبض عليهن ويؤخذن إلى السجن ويهددن بالضرب أمام أزواجهن لانتزاع اعترافاتهم ، إن القصص كانت مقززة والنتائج كانت ضد أى قيم اخلاقية .

وفى هذه الأثناء تم القبض على بضع مئات من الاقطاعيين . وتم تأميم ستين ألف فدان بمعرفة لجنة تصفية الاقطاع وقد تم انتزاع كثير من الممتلكات بتعسف ، الأمر الذى أتاح لبعض هذه الممتلكات فرصة الافراج عنها بعد ذلك عن طريق المحاكم أو طريق زوجى حين تولى السلطة فى مصر . لقد كانت حقبة قاسية فى تاريخ بلادنا ، ولم تتخلص البلاد من استفزاز لجنة تصفية الاقطاع إلا ببزوغ خطر إسرائيلى جديد ، فاضطرت الحكومة أن تحول أنظارها من الداخل إلى العدو على حدودنا الشرقية .

ثم جاء شهر مايو من عام ١٩٦٧ ، وكانت المواجهة بيننا وبين اسرائيل ضارية ، فلمدة ستة اشهر كانت الأعمال الحربية تتصاعد ، وفى نوفمبر الأسبق توغلت إسرائيل مسافة ٣٠ ميلا فى داخل الأردن ، ودمر الجنود الاسرائيليون ١٢٥ منزلا ومستشفى إحدى القرى ومدرستها ، وكانت اسرائيل تدعى أن القرية هى مركز لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وفى ذلك الحين قتل الاسرائيليون ١٧ وجرحوا ٥٤ ، مستخدمين الدبابات والعربات المصفحة لهدم خمسة آلاف بيت من بيوت

القرية . . . وكان واجبا على كل العرب آنذاك الذود عن ارضهم فقد أمر الرئيس نور الدين الأتاسى رئيس سوريا قواته بالانتقال من مراكز الدفاع إلى مراكز الهجوم ، والدخول إلى المعركة لتحرير الأراضى المغتصبة ، وذلك فى فبراير ١٩٦٧ قائلا إن على الجميع مواجهة الاختبار ودخول المعركة حتى النهاية .

وفى السابع من أبريل حدث صدام جوى بالقرب من دمشق مع الطائرات السورية ، وأسقطت القوات الاسرائيلية ست طائرات سورية من طراز ميج ، وقال رئيس وزراء اسرائيل آنذاك ليفى أشكول إن إسرائيل يجب أن تلقن سوريا درسا لا تنساه ، ومضيفاً أن سوريا هى نقطة تجمع الإرهابيين ، وسوف تختار اسرائيل الوقت والمكان والوسائل المناسبة لردع المعتدين .

ونظرا لما كان بين مصر وسوريا من إتفاقية دفاع مشترك ، فقد أخذت الحكومة المصرية هذا التهديد على محمل الجد . وفى شهر أبريل وكان أنور فى زيارة لموسكو ـ أبلغه أليكسى كوسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ذات يوم أن اسرائيل قد حشدت قواتها على الحدود السورية ، وقررت أن تضرب فى ظهر ذلك اليوم ، وأمر عبد الناصر وزير الحربية عبد الحكيم عامر بأن يحشد القوات المصرية على الحدود الاسرائيلية .

وفى هذه الفترة كان الرئيس السورى وملك الاردن على وجه الخصوص وإخواننا العرب عموما معتقدين أن عبد الناصر كان يشن حربا كلامية باردة ، وقالوا إن عبد الناصر يختبىء وراء قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ويهدد . وقد دفع القادة العرب عبد الناصر إلى اتخاذ إجراء بخصوص المضيق المصرى المعروف بمضيق تيران الذى كانت تشرف عليه قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، ويقع عند مدينة شرم الشيخ فى سيناء ، وهو المنفذ الوحيد لاسرائيل على البحر الأحمر .

فى هذه الاثناء كانت الدعاية الاسرائيلية تعمل بأقصى جهد لاقناع العالم أجمع بأن دولة إسرائيل الصغيرة التى تتكون من مليونى نسمة مهددة فى وسط وطن

عربى كبير يتكون من مائة مليون عدو عربى . وكان الاسرائيليون مهرة فى إقناع العالم بأنهم قلة من الأبرياء ، مع أنهم هم الذين حشدوا قواتهم على الحدود السورية . وكان الاسرائيليون يستغلون بيان أحمد الشقيرى حين تكونت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ الذى يعلن فيه أن العرب لن يستريحوا إلا إذا ألقيت إسرائيل فى البحر . وكان هذا البيان المختصر للشقيرى يكلفنا الكثير ، وكان الاسرائيليون يستغلونه فى كل مناسبة لاثبات أن العرب يدبرون مذبحة لهم . وكان المصريون يتميزون غيظا لمثل هذه الدعاية الزائفة ، فكيف نستطيع إلقاء إسرائيل فى البحر ووراءها التأييد الأمريكى الذى يعد أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة ؟

وفى ربيع عام ١٩٦٧ صعد الاسرائيليون حملاتهم الدعائية ضد العرب مدعين ان معظمنا فقراء وجهلة ومتخلفون وقالت جولدا مائير فى هذا الصدد إن العرب إذا وضعوا فى غربال وتم هزه فلن يبقى منهم أحد بداخله ، على غرار المثل الشعبى . وقالت أيضا وزيرة الخارجية الاسرائيلية إن نساء العرب يهتممن بالمظهر الكاذب ويشترين دائما الملابس وأدوات التجميل بدلا من صرف ما يمكن من نقود على تحسين المستوى .

وفى منتصف مايو كان كل يوم يقربنا من حالة الحرب مع اسرائيل ، ففى ١٤ ، ١٥ مايو أعلنت مصر وسوريا وإسرائيل حالة الطوارىء فى قواتها المسلحة ، وفى ١٨ مايو ـ استجابة لطلب من الزعماء العرب ـ طلب جمال عبد الناصر من السكرتير العام للأمم المتحدة ، يوثانت فى ذلك الوقت ، سحب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من الأراضى المصرية ، وقال إن خطة الأمم المتحدة بعد حرب ١٩٥٦ كانت وضع قوات حفظ السلام فى مصر واسرائيل . ولكن اسرائيل رفضت قبول هذا الوضع . فاضطر يوثانت إلى سحب القوات من المنطقة .

وأصبح عبد الناصر بين يوم وليلة بطلا اكبر فى أعين العرب ، فمرة أخرى خرج جنود أجانب من الارض المصرية دون اطلاق طلقة واحدة ، وحول

عبد الناصر هزيمة مصر ١٩٥٦ إلى نصر . ولكن كلنا فى مصر كان يدرك تماما أن خروج قوات حفظ السلام من مصر معناه حرب جديدة مع إسرائيل . وقرر عبد الناصر إرسال قوات مصرية إلى شرم الشيخ وإعادة السيطرة على مضيق تيران الحيوى لأول مرة منذ أحد عشر عاما . ولم يغلق عبد الناصر المضيق أملا فى أن يأتى التهديد بمفاوضات مع اسرائيل ، ولكن إسرائيل رفضت المفاوضة وتزايدت بذلك أخطار الحرب ، وسأل عبد الناصر بعد ذلك المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة عما إذا كان الجيش مستعدا لخوض معركة ، فأجابه عامر بأن كل شىء على أتم استعداد . وبناء على ذلك أغلق عبد الناصر المضيق فى الثانى والعشرين من مايو . وكان لزاما على إسرائيل إنقاذ سمعتها أمام العالم ، وقالت فى بيان لها إنها لن تقف مكتوفة الأيدى . وصدر عدد صحيفة الأهرام يوم ٢٦ مايو معلنا أن على اسرائيل أن تبدأ الحرب حتى تتم إبادتها . وبعد يومين أعلن عبد الناصر للصحافة العالمية أنه إذا هجمت إسرائيل فسوف يحارب دفاعا عن شرف العرب ، وأضاف أن الأمم المتحدة منحازة إلى الجانب الاسرائيلى ١٠٠٪ ، وتساءل أمام مراسلى صحف النيويورك تايمز والتايمز البريطانية ولوموند الفرنسية وسائر صحف الغرب قائلا ان القوى الغربية تدافع عن حق إسرائيل فقط فأين حقوق العرب والفلسطينين على ارضهم ؟

وبعد تزايد الشعور بالكرامة فى مصر وكل الشرق الأوسط جلس كل المصريين سواء فى البيوت أو على المقاهى حول أجهزة الراديو ليسمعوا أى اخبار عن بداية المعركة . وكانت ثقتنا عالية وأخذ الغناء الوطنى عما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة يتردد على كل لسان . . . المصريون يتبرعون للمجهود الحربى والجيش ، وككثير من السيدات المصريات تبرعت بخاتم زواجى وتبرعت بناتى بأساورهن .

وكان أنور يذهب من الفجر حتى منتصف الليل فى اجتماعات مع أعضاء الحكومة ، بينما كنت أظل وحيدة فى البيت خائفة على أولادى ، وكنت أسأله كلما لمحته وهو يبدل زيه العسكرى ويخرج مرة أخرى عن الضربة وهل ستهاجمنا

إسرائيل ؟ وكان يجيب بأن أى شىء جائز حدوثه وكنت متأكدة من أن الحرب آتية ، فقررت أن أضع طاقتى فى موضعها الصحيح غير مدركة أن قرارى هذا سوف يغير مجرى حياتى كلها .

وبدأت أتصل بسيدات كن يأتين إلى مائدتنا ، ورئيسات منظمات المرأة وزوجات السفراء العرب ، وأى سيدة أعرفها ، واقترحت أن نذهب جميعا إلى مستشفى قصر العينى للتبرع بالدم ، ليتسنى إنقاذ الجرحى ، ولنلفت نظر الصحافة إلى ما نفعل حتى إذا ما عرف عامة الناس فعلوا مثلما نفعل ، وبالفعل تم ذلك . ذهبت بعدها إلى جمعية الهلال الأحمر وطلبت الانضمام إليها ، وقلت إننى لم أستطع الانضمام فى سنة ٥٦ لأننى كنت أحمل مولودا ولكنى الآن مستعدة . واقترحت أن نستعد بالقطن وأدوات تضميد الجروح منذ الآن بدلا من الانتظار . وكان شعورى بالمسئولية يملأ كيانى فرجوت السيدات هناك أن يتصلن بالصديقات والأقارب للحضور إلى أول اجتماع لنا فى جمعية الهلال الأحمر . وهكذا أخذت كل سيدة تتصل بأخرى ، وبسرعة تكون جيش آخر من المتطوعات ، وبدأت فى تفصيل ملابس للمستشفيات وللجرحى الذين سيحتاجون إليها . وحين انتهى المخزون خرجنا لشراء أقمشة أخرى وبدأنا فى تغليف لفافات تحوى كل منها قطعة صابون وأمواس حلاقة وزجاجة عطر وبيجامات ومصحفا للجنود المسلمين أو إنجيلا للأقباط ، وتم توزيعها على المستشفيات لتكون جاهزة . وأخذنا فى سؤال إدارات المستشفيات المختلفة عما ينقصها حتى نستكملها لها . وبدأنا نأتى بهذه الأشياء من بيوتنا ، وبعد ذلك عن طريق التبرعات . وكنت طوال الوقت فى دهشة من أمرى لأنى لم آخذ الإذن من زوجى أو حتى آخذ رأيه فيما أفعله لأنه كان هو أيضا مشغولا ، ولكن لم يكن أمامى وقت للانتظار ، وامتلأت نفسى بالثقة حينما وجدت سيدات كثيرات على استعداد للمساهمة ، وكثيرات منهن لم يعملن خارج بيوتهن من قبل . وكان من المشجع أن أرى كيف أبدت المستشفيات استعدادا لقبول المساعدة من هذا العدد الكبير من سيدات الطبقة المتوسطة المصرية .

فى هذه الأثناء كان الدبلوماسيون فى جميع أنحاء العالم يحاولون حل الأزمة بالوسائل السلمية ، وبالرغم من ذلك كان الضغط على مصر أشد من الضغط على اسرائيل . وحذر الاتحاد السوفيتي عبد الناصر من تصاعد صراع عسكرى . وكذلك الولايات المتحدة كانت تضغط عليه لتجنب أى صراع مسلح مع إسرائيل . وقد كانت المفاوضات هى هدف عبد الناصر منذ البداية ، فقد شعر بارتياح حينما صدر بيان من الخارجية الأمريكية فى الثالث من يونيو يعلن أن إسرائيل تحاول المضى فى القنوات الدبلوماسية لحل الأزمة . وقد جاء بيان فى نفس اليوم من وزير الدفاع الاسرائيلى فى القدس ، حينما وجه اليه سؤال حول الأزمة ، قال فيه إن الوقت متأخر على الصراع العسكرى ، ومبكر على الوصول إلى حل . وكان ذلك مجرد كذب وتمويه .

فبعد ذلك بيومين فقط فى الخامس من يونيو كانت المقاتلات الاسرائيلية تخترق أجواء القاهرة وتهز البيت إلى درجة تحطم معها الزجاج ، وقلت فى نفسى إننا لابد أن نرد على المعتدين الآن ، ودخلت على أنور وهو يرتدى زيه ، وقلت له « إن الحرب لابد أنها بدأت » ، ورد على بابتسامة هادئة قائلا : « يبدو ذلك » ، وأضاف « إن قواتنا ستلقن الاسرائيليين درسا لن ينسوه » . فقلت له : « يجب أن أذهب لأحضر الاطفال من المدرسة » ولكنه طمأننى بأنهم فى أمان هناك ، ولكننى أردت أن أحضرهم إلى البيت مع أمى وأختى لأننى أعرف أنى إذا ذهبت إلى الهلال الأحمر فلن أستطيع التركيز على أى شىء هناك إلا وأنا مطمئنة عليهم ، وخرجت أسأل عن السائق فعلمت أنه فى مهمة فقدت السيارة بنفسى .

كان الطريق إلى الزمالك مزدحما والطرق مغلقة بالأوتوبيسات العامة والمارة ، لأن آباء كثيرين كانوا يحاولون إحضار أبنائهم من المدارس إلى أمان البيوت ، ولم أستطع حتى الوصول إلى قرب المدرسة . وانطلقت صفارات الانذار وصوت الطائرات والصواريخ فوق القاهرة ، ومع كل هذه الأحداث كنا فخورين بأن طائراتنا تتصدى للطائرات الاسرائيلية وتقاتلها .

وأدرت راديو السيارة بصوت عال حتى يتسنى لى وسط كل هذه الضوضاء أن

أسمع المذيع وهو يتكلم وكان برنامج صوت العرب وجاء صوت المذيع أحمد سعيد يجلجل قائلا « إن الطيران المصرى الجسور قد اسقط ١١٥ طائرة من طائرات العدو » وكان الناس يرقصون من الفرح فى الشوارع غير عابئين بصفارات الانذار التى أخذت تنطلق فى كل مكان .

وبعد أن أخذت أولادى من المدرسة وأوصلتهم إلى بيت أختى ، اتجهت فورا إلى الهلال الأحمر ، ووجدت هناك المتطوعات الثلاثمائة فقلت بروح عالية أحييهم إن الحرب قد بدأت ونحن على استعداد لها . وبعد ذلك توليت تقسيمهن إلى مجموعات لكل مجموعة رئيسة ، ووجهت كل مجموعة إلى مستشفى من المستشفيات العسكرية لانتظار وصول الجرحى ، وفى الطريق كنا لازلنا نسمع صوت الدفاعات الجوية المصرية ولكن لم يصب القاهرة شيء . وحين وصلت إلى البيت كنت منهكة القوى واستمرت الأخبار من الراديو على أحسن حال .

وسألت أطفالى عن والدهم لأشاركه فرحة النصر فأجابتنى إبنتى لبنى أنه يجلس فى الشرفة فى غرفته . وانطلقت إليه قائلة : « إن لدى أخبارا ممتازة فكل المتطوعات فى المستشفيات على استعداد لاستقبال الجرحى » ، ولكنه لم يجب . وقلت مرة أخرى : « لن نضيع دقيقة واحدة يا أنور » ولكنه لم يرد أيضا ، وظننت فى البداية أنه ربما يشعر بآلام القلب مرة أخرى ، ولكنه قال لى : « إن ما يشعر به أسوأ بكثير » . ولما استدار ناحيتى كانت المرة الأولى التى أرى فيها وجهه بهذا الحزن وقال : « لقد خسرنا الحرب » ، وقلت غير مصدقة : « أن الناس يرقصون فى الشوارع ، والبيانات من الاذاعة تؤكد أننا منتصرون ، وحتى لقد حضر أناس من الريف للتعبير عن سرورهم » ، ولكنه ظل ينظر إلى وقال : « إنه عاد لتوه من مقابلة عبد الناصر وعامر ، وأن كل الطائرات المصرية قد ضربت ، وأن الاسرائيليين قد احتلوا مدينة العريش ، وأن الجنود المصريين ينسحبون إلى الوراء » ولم أستطع أن أصدق أنه فى خلال الساعات التى خرجت فيها من بيتى لاحضار أولادى من مدارسهم ثم رجعت تكون الحرب قد انتهت ، وتكون الطائرات الاسرائيلية قد هزمت مصر . لقد كانت طائرة عامر فى الجو لتفقد

المطارات ، وقد صدرت أوامر إلى قواعد الصواريخ المضادة للطائرات بعدم إطلاق أى صاروخ إلى أن تهبط طائرة القائد العام ، وإلى أن هبطت طائرة عامر كان الاسرائيليون قد دمروا كل القوات الجوية المصرية على الأرض وكل المهابط فى طريق الاسكندرية بحيث لا تستطيع طائرة واحدة أن تنطلق لمدة اسابيع . وفى نفس الوقت تقدمت القوات البرية الاسرائيلية إلى حدود سيناء . وكان وضعنا محزنا . . . فمعظم قواتنا كانت لا تزال فى اليمن ، والوحدات الموجودة فى سيناء لم تكن لديها الفرصة حتى للرد على الضربات . وحتى الآن ـ وأنا أقف غير قادرة على الحركة ـ كنت أسمع صوت الجماهير تغنى فى الشوارع : « حنحارب ، حنحارب ، كل الناس حتحارب » .

وشعرت فى نفسى بالقوة لأسأل على الرغم من الصدمة عما حدث من خطأ وقال : « إن الاسرائيليين أخذونا على حين غرة وإن جنودنا فى سيناء دون مظلة جوية وسوف يذبحون » . ولكننى اعترضت قائلة : « ولكن ماذا عن الاذاعة ؟ » فقال : « إنها ليست أكثر من دعاية » فإن عبد الناصر لا يريد أن يثبط عزيمة الشعب ، وتسمرت حيث أنا فى مكانى من الشرفة أحاول أن أفهم ما قاله ، ولكنه استدار ناحية الحديقة متمتما لنفسه « انتهى الامر » .

وبدأت أفهم وأنا اعد طعام العشاء لأطفالى ـ أن القنابل التى كنت أسمعها فى الصباح لم نكن نحن الذين نطلقها ، ولكنها الطائرات الاسرائيلية هى التى كانت تطلقها على مطار فى غرب القاهرة .

واستمرت الطائرات الاسرائيلية تخترق سماء القاهرة لمدة أربعة ايام ، وكانت تلقى قنابلها فى بعض الأحيان ولكنها فى معظم الاحيان كانت تخترق حاجز الصوت على ارتفاع منخفض محطمة بذلك زجاج المنازل ، والكل يجلس فى الظلام ولا يعرف ماذا يتوقع .

واستخداما للتكتيكات الاسرائيلية القديمة ، فقد شنوا حملات دعائية لزيادة الخوف ودسوا جواسيسهم فى جميع أنحاء القاهرة ليشيعوا أن اسرائيل سوف

تضرب ضاحية مصر الجديدة بالقنابل غدا ، وضاحية المعادى يوم الجمعة وأخذ أهل القاهرة ينتقلون من ضاحية إلى أخرى مع أطفالهم بناء على هذه التهديدات التى لم تنفذ إلا نادرا . وكان الاسرائيليون يعرفون أنهم إذا ضربوا القاهرة فلابد أن نضرب نحن تل أبيب ، ولكن الرعب المستمر الذى كان يحدث هو إختراق حاجز الصوت المتكرر ، مما كان يعطى المصريين إحساسا بأنهم يضربون باستمرار . وكانت ابنتى الصغيرة جيهان تصرخ كلما سمعت صوت طائرة ، مما جعلنى أرسل الأطفال جميعا إلى قريتنا فى ميت أبو الكوم ، فهناك ستكون أعصابهم أهدأ وأعصابى أنا أيضا لأستطيع متابعة عملى فى المستشفيات .

وفى المستشفى كانت المتطوعات لازلن مبهورات بالبيانات العسكرية ويعلن لى أننا ننتصر ، وكنت بالطبع أبتسم وقلبى يعتصر بالألم داخلى ، وكانت الحكومة مستمرة فى بياناتها فى الراديو .

وحين بدأت الحقيقة تتضح فى الاذاعات العالمية ، صوت أمريكا ، وهيئة الاذاعة البريطانية ، أصيبت مصر كلها بصدمة عنيفة ، وتحول الشعور بالبهجة إلى شعور يشبه الأزمة النفسية . وبدأ أهالى الجرحى يقولون لى إنهم لن يثقوا فى الحكومة مرة أخرى بعد ذلك . وقال لى أحد الجرحى إن كتيبته وصلت إلى سيناء قبل الهجوم باثنتى عشرة ساعة فقط ، وتم الهجوم فى الفجر بدون أى نوع من الانذار ، ولم تكن أسلحتنا جاهزة ، ولا حتى أجهزة اللاسلكى ، والجنود ضربوا حيث يقفون ، وتوجد أعداد أخرى منهم كانت معنوياتهم فى الحضيض من سوء الخطط العسكرية ، وقال لى جندى فقد ذراعه فى الغارات إنه كان على أتم استعداد للتضحية بحياته فى المعركة ، ولكن لم تكن هناك معركة وقد تم ضربنا فى أثناء إنسحابنا .

وفى اليوم الثامن من شهر يونيو انطلقت صفارات الانذار مرة أخرى بينما كنا أنا وصديقة لى فى الطريق إلى منزلنا عائدتين من المستشفى ، فاحتمينا بسرعة بالسواتر فى بدروم منزلها وقضينا الليلة بطولها فى ظلام دامس ، بينما كنا نسمع أزيز الطائرات الاسرائيلية والأرض تهتز من تحت أرجلنا . وبدأت أفكر هل

سأموت هنا وحدى بعيدا عن أبنائى الذين كانوا فى ميت أبو الكوم ، وزوجى الذى كان مع عبد الناصر .

ولم أكن خائفة من الظلام ، ولكن يوجد آخرون خائفون ، أطفال يصرخون ، وكان الجو العام قاتما وكأننا نشاهد فيلما حربيا نحن أبطاله ، وبالرغم من ذلك كان الراديو يزعم أننا ننتصر ، وكان هذا أكثر مما يستطيع العقل أن يتحمله .

وأخيرا أدرك عبد الناصر أنه لن يقدر على حجب الحقيقة عن الشعب أكثر من ذلك ، وفى اليوم التالى أذاع أحمد سعيد فى راديو القاهرة أن الحرب توقفت ، وأن عبد الناصر سوف يذيع كلمة للأمة فى المساء . وفى الساعة السابعة من اليوم التاسع من يونيو ظهر عبد الناصر فى التليفزيون ووجهه شديد الاعياء يقول إن مصر قد تعرضت لنكبة ، وأنه المسئول عن هذا العار . وكانت فى صوته حشرجة ، وقد أجهشت بالبكاء حين رأيت الرجل وسمعت صوته بينما كنت فى المستشفى ، فلم أكن أتحمل أن أرى رئيسنا بهذه الحالة ، هذا الرجل القوى الشجاع قد انكسر الآن ، وقد كان دائما فخورا ، ولكن ما قاله بعد ذلك كان ممزقا للجميع : « لقد قررت التنحى عن جميع مناصبى الرسمية وكل دور سياسى كنت أشغله وأعود إلى الشعب لأقوم بواجبى كأى مواطن عادى » .

وأصابنى نوع من الذهول وقلت لنفسى عبد الناصر يستقيل . . كيف ؟ لا يمكنه ذلك ، إنه قائدنا ونحن فى حاجة إليه رغم كل ما حدث . لقد هزمنا ، نعم ولكننا نحتاجه ليقودنا ثانية إلى الاصلاح ، ولن نستطيع الوصول بدونه . . . وشعرت برعب مفاجىء كما شعر الجميع بهذا الشعور .

وبدأت أصوات الشعب ترتفع فى الشوارع قبل أن ينهى الرجل كلمته : « ناصر . . لا نريد إلا ناصر » . ومن شرفة المستشفى كنت أرى المئات بل الآلاف يخرجون إلى الشوارع بعضهم فى ملابس النوم يجرون فى إتجاه مبنى الاذاعة والتلفزيون وكأنهم يتصورون أنهم يقدرون على وقف الارسال وصمت الرئيس وكانوا جميعا يصرخون « ناصر ، ناصر » .

وجريت نحو التليفون لأكلم زوجى فى مكتبه ، مطالبة إياه بألا يتركه يفعل شيئا كهذا وقلت « اننا فى حاجة اليه لاخراجنا من هذه الهزيمة والاعداد للانتقام » . ورجوته أن يعمل على إقناع اعضاء مجلس الأمة بعدم قبول الاستقالة . ورد على يهدئنى قائلا : « إن اعضاء المجلس قد قرروا عدم قبول الاستقالة بالفعل وتم التصويت على ذلك » ، ولكننى قلت لنفسى متسائلة : « هل فى استطاعتهم منعه من التنحى ؟ »

وخلال سبع عشرة ساعة بعد ذلك استمرت المظاهرات ، متناسية كل اللوم عن الهزيمة وكأن الجميع ينادون:- « يا ناصر يا ناصر نحن معك ، لن نقبل الهزيمة » .

وتجمع حوالى نصف مليون من الشعب حول بيته فى منشية البكرى طوال الليل ، بينما بقيت فى المستشفى أقول للمتطوعات إننا يجب أن نظهر مساندتنا للرئيس ، وكتبنا لافتات واتفقنا على مظاهرة فى اليوم التالى . واتفقنا على أماكن للقاء فى الصباح ، وقدت خمسمائة سيدة فى زى الممرضات من كوبرى الجلاء وكوبرى التحرير فى اتجاه مجلس الأمة ونحن نقول : « إبق يا ناصر ، إبق يا ناصر » وتجمع معنا آلاف المواطنين يقولون « لا تتركنا ، نحن فى حاجة إليك » . وكان المواطنون فى كل اتجاه ووقفت الشرطة عاجزة تماما عن تنظيم الحركة .

وفى هذه الأثناء استطعنا لمدة ساعات قصيرة نسيان الهزيمة ، ووجدت نفسى أهتف وشعور الألم يتحول إلى هدف كبير « إبق معنا يا ناصر » ناديت بأعلى صوتى ونحن فى طريقنا إلى مجلس الأمة . وفقد أحد الرجال وعيه ولفت نظرى إليه أحد المتظاهرين ـ وهو ينظر إلى ثوبى الأبيض ـ لأساعده ، وباستخدام الاسعاف الخاص بالصدمة العصبية صفعته على وجهه ، ونجحت فى أن يستعيد الرجل وعيه .

وحين وصلنا إلى أول شارع قصر العينى من ناحية ميدان التحرير قابلنا رجال

١

الشرطة بخراطيم الاطفاء ، وكان لابد أن يتخذ إجراء لأن المظاهرة كانت كبيرة جدا ، وخافت الشرطة أن تنقلب إلى شغب ، وكانت المياه قوية فى اندفاعها ووقعت على الأرض من شدتها وغطاء رأس إحدى زميلاتى إلى جوارى ، وأخذنا نضحك بصوت عال ونحن نحاول البحث عن غطاء رأسها . وحين وصلت إلى منزلى جلست مبللة فى المطبخ أستمع إلى الأخبار من خلال الراديو . وبعد قليل سمعت ما كنت اتمناه ، وهو عدول عبد الناصر عن الاستقالة ، وشكره للشعب على مساندته ، وسمعت فى الخارج صوت الجماهير المبتهجة .

وبدأت الحقيقة الأليمة تتضح حين بدأنا ندرك ما حدث ، فقد سيطر الاسرائيليون على مدينة القدس بأكملها ، وقد شرد أهلها وأصبحوا لاجئين ، وبدأت وزيرة الخارجية الاسرائيلية جولدا مائير تزعم بأنه لا يوجد ما يسمى شعب فلسطين . لكن كيف واتتها هذه القسوة وهذه الفظاظة ، فتنكر فى تحد وصفاقة وجود شعب بأكمله ، وكيف يتصور الاسرائيليون أنهم كسبوا وطنا بإنكار حق شعب عاش هناك آلاف السنين ؟ وكما اضطهد الأوربيون اليهود ، يضطهد اليهود الفلسطينيين الآن .

وساد الشعب فى جميع أنحاء مصر شعور بالاذلال ، وتساءلوا كيف يحدث ما حدث ، لقد انهزمنا من اسرائيل ثلاث مرات متتالية ، ولكن هذه الهزيمة كانت افدح الهزائم على الاطلاق . . وإذا كانت الهزيمة من جيوش بريطانيا وفرنسا واسرائيل معا محتملة ، فلم يكن لنا عذر هذه المرة ، وكان الكل يرجحون النصر ، لهذا كان وقع الهزيمة علينا جميعا كوقع الصاعقة - كان من المستحيل تقبلها ! .

وبدأ الجميع يلقون اللوم على الجميع ، بدءا من قيادة عبد الناصر إلى خطط وزير الحربية عامر ، إلى سائر قواد الجيش الذين خذلوا قواتهم ، وحتى الجنود أصابهم اللوم أيضا لانسحابهم رغم أنهم نفذوا الأمر ، ولم تسلم من اللوم الأسلحة الروسية لأنها غير متقدمة كالأسلحة الامريكية التى كانت فى حوزة الاسرائيليين . . وصرخ المواطنون فى كل من يرتدى زيا عسكريا : « لماذا لم

تنتصروا ؟ » وفى وقت من الأوقات كان الضباط يتجنبون ارتداء زيهم العسكرى ، وحتى السيارات العسكرية لم تجرؤ على السير فى المدن لأن الضباط كانوا يشعرون بنوع من الأمان وهم يقودون السيارات المدنية ، لقد فقدنا شرفنا وكرامتنا وكان كل واحد منا ممزقا من الداخل .

لقد تركت الحرب مصر فى حالة إقتصادية متردية ، فقد فقدنا مصدرين من أهم مصادرنا الاقتصادية : أولهما قناة السويس والثانى آبار البترول فى سيناء . وكان طبيعيا أن تنخفض السياحة لأدنى مستوى . وتضامنا معنا قررت السعودية والكويت وليبيا منح مصر ٩٥ مليون جنيه استرلينى سنويا ، ولكن ربع هذه المنحة أنفق فى شراء أسلحة جديدة على مدى السنوات الثلاث التالية . ومن أعماق شعورنا الدينى بدأنا نعتقد أن اليهود قد انتصروا بشعورهم الدينى العميق ، بينما خسرنا نحن الحرب لبعدنا عن الايمان ، وبناء على ذلك تزايد الانفاق على مساجدنا ٦٠٠٪ ، وامتلأت المساجد فى ايام الجمع وكذلك الكنائس فى أيام الأحاد عما كانت عليه منذ سنوات ، وبدأ الرجال يرتدون الجلاليب والنساء يظهرن بالحجاب ، ولعدة شهور بدأ الأقباط يرون السيدة مريم العذراء فوق كنيسة معينة ، وكأنها توجه إليهم رسالة بأنها تعرف أنهم لا يستطيعون أن يروها فى القدس ولذلك حضرت إليهم هى إلى القاهرة . وظهرت هذه الأخبار على الصفحة الأولى فى صحيفة الأهرام ، اعرق صحف القاهرة .

وأخذ شعور الاحباط يتزايد ، ورمى الشعب المصرى القنابل على المكتبة الأمريكية فى القاهرة ، وذلك لأنه أدرك أن الأمريكيين لم يزودوا إسرائيل بالأسلحة فقط ، بل وإلى جانب ذلك بتقارير مخابراتهم عن الجيش المصرى . . ومن المعروف أن الاسرائيليين تعرفوا على شفرات الجيش المصرى بالمساعدة الأمريكية ، وتم التعرف على الأكمنة التى كان الجيش المصرى قد نصبها لهم بمساعدة أمريكية ايضا .

وعلى امتداد الأسابيع التالية أصبحت جروح مصر والجنود المصريين جروحى ، وكان أنور أيضا يتألم بشدة كمسئول فى الحكومة ، أحس أنه مسئول

ضمنا عن هزيمتنا ، على الرغم من انه لم يشترك فى أى قرار عسكرى . وبالنسبة لى فقد حاربت شعورى بالاحباط بالعمل المستمر فى المستشفيات ، ولكن رد الفعل بالنسبة لأنور كان مختلفا ـ يجلس صامتا فى شرفة حجرته بالساعات لا يتكلم مع أحد ، ولا يأكل إلا نادرا ، وكنت أسأل الطاهى كلما رجعت من المستشفى ، عما إذا كان قد ترك المنزل أم لا ؟ وكانت الاجابة دائما بالنفى . وكنت أعرف عنه عادة الجلوس وحده يفكر كلما كانت لديه مشكلة وكنت أعلم جيدا حينما أراه فى هذه الحالة عجزى عن أن أفعل شيئا إلا أن أوفر الهدوء فى البيت ، وأمنع قدر الامكان ضوضاء الاطفال التى تثيره . فالحالة التى انتابته بعد الهزيمة كانت أعمق من أى شىء رأيته من قبل ، فقد جلس لمدة ثلاثة أسابيع على كرسيه بدون حراك وبدون التحدث لانسان حتى فى التليفون .

وقلت له ذات مساء « لماذا لا تذهب إلى قيادة الجيش ؟ » وأجابنى بكلمة واحدة : « لماذا ؟ » .

وحاولت أن أقول له فى مساء آخر أن الجنود فى المستشفى فى حاجة إلى مقابلة أحد القادة ، فهل تأتى معى لزيارتهم ؟ ولكن الهزيمة كانت أكبر مما يحتمل أى قائد عسكرى ، وجلس زوجى يحملق فى الحديقة ، كما كان الحال مع عبد الناصر الذى كان ممزقا بالمأساة .

وفى المستشفى ظل الجرحى يصلون بواسطة العربات العسكرية ، معظمهم بالطبع قد أحرقوا من قنابل النابالم ، بينما كانوا يجرون لانقاذ أنفسهم فى سيناء . وكثير منهم فقدوا الأذرع أو الأرجل ، بينما فقد آخرون بصرهم ، وانهار فريق منهم نفسيا من هول ما رأوا ، ولم تكن هناك أسرة فى مصر إلا فقدت زوجا أو إبنا أو حفيدا ، وعدد من أبناء عمومتى وأبناء عمومة أنور كانوا جرحى فى حالة يرثى لها .

وكنت أتساءل من أين جاءتنى هذه الطاقة والشجاعة أنا وزميلاتى المتطوعات لنواجه كل هؤلاء الرجال المصابين ؟ وكنت أقول إنه من الممكن ـ من

خبراتنا كأمهات ـ أن تقودنا غرائزنا فى الوقت المناسب ، وكان أهالى الجرحى يسموننى أحيانا « أم الشهداء » . . وفى مستشفى الأمراض النفسية العسكرية ، صاح بى أحد الجنود ذات يوم « لا أرى يا أمى » ونظر إلى الطبيب الذى كان يرافقنى فى جولتى ، وكأنه يريد أن يخبرنى أن فقدان البصر فى هذه الحالة ليس بسبب عضوى ولكن العين تأثرت بصدمة نفسية ، فهو يستطيع أن يرى كل شىء ولكنه يرفض ما يراه . . وكان هذا حال كثيرين غيره . وجلست إلى جانبه لمدة ساعتين نتحدث عن أسرته التى كانت فى انتظار عودته إلى بيته ، وقد كنت يوميا أتحدث إليه إلى أن قال لى ذات يوم « إنى أراك فى زى أبيض » وكذلك كان بعض الجنود الآخرين فى نفس الحالة ، فمثلا واحد منهم كان يزعم أنه الرسول (ص) والبعض الآخر كانوا يصرخون وكأنهم يسمعون أزيز الطائرات ، أما الباقون فيحملقون فى لا شىء بذهول .

وأخذت أبحث عن كلمات مناسبة لأضعها كبلسم على جروح الجنود ، ولكن الكثيرين منهم حملوا الحكومة كل اللوم لما لاقوه من عذاب ، وكان هذا بالطبع شديد الوقع على كزوجة رجل من رجال الحكومة . فقد قال لى ضابط شاب كان قد فقد ساقه إنه لم يفقد ساقه فى المعركة ولكنه فقدها بسبب سوء قيادة الجيش المصرى وتخطيطه . وسألته قائلة : « لماذا لم تدرس لتتخرج كشاعر بدلا من تخرجك فى كلية عسكرية ؟ فخوض حرب فيها احتمالات النصر والهزيمة ، وفقدان ساقك هو قدرك وليس خطأ من القواد ، فلسنا أول دولة تهزم » . وبينما كنت أتحدث إلى الضابط الشاب ، خرج آخر من غرفة العمليات ، وكان على كرسى متحرك ، ولم يكن فى العنبر سواى . وبدأ فى القىء ، وبحركة تلقائية اندفعت نحوه ، وغسلت له فمه من حوض فى العنبر ، وبعد أن استراح ، قال لى مستأذنا إنه سيطلق إسم جيهان على إبنته الأولى ، وأجبت على الفور إن ذلك يسعدنى .

وحين وصلت إلى البيت ، كنت مازلت محجمة عن التحدث إلى أنور بسبب حالته النفسية . إلى أن ذهبت فى يوم من الأيام إلى مستشفى المعادى

العسكرى لزيارة اللواء كمال حسن على الذى أصبح فيما بعد رئيس وزراء مصر . وبينما نحن فى إحدى الغرف ، وبعد أن خلت الغرفة وجدته يقول لى إنه يريد أن يتحدث مع زوجى حديثا شخصيا ، لأن هناك بعض الحقائق عن الحرب . يريد أن يقولها له شخصيا :

وفى المساء أبلغت زوجى الرسالة ، ولأول مرة منذ ثلاثة أسابيع بدا عليه الاهتمام . وفى اليوم التالى ذهب إلى مستشفى المعادى وقابل اللواء كمال حسن على ثم ذهب مباشرة إلى عبد الناصر ، ولم يخبرنى بشىء عما دار بينهما من حديث ولكننى كنت سعيدة لأن هذه كانت أول مرة يبدى فيها زوجى اهتماما بشىء ، كأن هذا سببا لعودته إلى الحياة .

ولمدة خمسة أشهر بعد ذلك كنت أخرج من بيتى فى الفجر ولا أعود إلا فى ساعة متأخرة من الليل . . . كنت بعد زيارة الجرحى أتحدث مع مديرى المستشفيات لمعرفة ما يحتاجون إليه ، ثم أذهب إلى جمعية الهلال الأحمر لمقابلة رئيسة كل مجموعة من المتطوعات . ومن أجل توفير احتياجات المستشفيات كونا شبكة دولية من زوجات سفرائنا فى الخارج . وحينما أبلغونى فى مستشفى مصر الجديدة العسكرى أنهم فى حاجة إلى أجهزة خاصة لعلاج الحروق فى أطراف الجنود ، بدلا من بترها ، اتصلت مباشرة بزوجة سفيرنا فى لندن ، وبالفعل أرسلت الأجهزة فى الحال وبذلك تم إنقاذ الكثيرين .

وفى شهر يوليو حينما سافرت مع أعضاء جمعية الهلال الأحمر كانت هناك بعض الحالات الميئوس منها ، وفى كل يوم كان هناك جنود يصلون منهكين من الصحراء إلى الضفة الشرقية من القناة من جراء الانسحاب غير المنظم للجيش . وبالرغم من وقف إطلاق النار ، كانت هناك معارك متقطعة على القنال وكانت زوارقنا الصغيرة لا تستطيع نقل الجرحى إلا بعد غروب الشمس ، وكانت هذه الزوارق كثيرا ما تقل متطوعات يحملن علامة الهلال الأحمر ، بالرغم من أن الجنود الاسرائيليين كانوا يضايقون المتطوعات . وفى ذات مرة همست إحدى المتطوعات « يا كلب » حين رماها أحد الاسرائيليين بليمونة فى كتفها ، وظنت أنها

أصيبت بطلق نارى ولم تستطع بعد ذلك أن تهدأ ، فظلت تردد « يا كلب » لمدة نصف الساعة التالية !

ولم يكن بعض الجنود فقط هم الذين يهربون من منطقة القناة ، ولكن كان هناك أيضا مدنيون من الاسماعيلية وبورسعيد والقنطرة والسويس ، وكان الاسرائيليون قد هاجموا هذه المدن فى أول الحرب . وبالرغم من وقف إطلاق النار استمروا فى ضربها من الضفة الشرقية ، وبدأ آلاف من اللاجئين من بينهم كثير من الجرحى يتوافدون إلى مقر الهلال الأحمر فى الاسماعيلية ، وأخذنا فى توزيعهم على بيوت بسيطة جدا فى الصحراء كانت مخصصة من قبل للعمال فى مشروع لاستصلاح الاراضى . حتى إذا ما امتلأت هذه الغرف بدأنا فى إقامة خيام فى ساحات المساجد والمدارس فى كل المحافظات المجاورة لمنطقة القنال . وكان المنظر مؤلما . . أن نرى كل هذه العائلات وهم يحملون أطفالهم ويعرفون أن كل ما يمتلكون قد تم تدميره .

وأهالى القناة هم الذين عانوا فى الواقع اشد المعاناة من بين كل الشعب المصرى . وكان أنور يحاول تعويضهم فى عام ١٩٧٥ حينما فتح القناة مرة أخرى وجعل بورسعيد مدينة حرة ، وفى وسط مدينة السويس تركت دبابة أمريكية استولى عليها الجيش المصرى لتكون نصبا تذكاريا .

وكنت أريد أن أعبر القناة لأساعد فى نقل الجرحى ، ولكننى اقتنعت حينما قالت لى القيادة العسكرية فى الاسماعيلية إن خطر القبض هناك سيكون فادحا . واكتفيت بالانتظار على الضفة الغربية لتحية جنودنا . وبالرغم من وجودى هناك لفترة ليست بالقصيرة لم أستطع التعود على الحالات البشعة لكثير منهم ، كانت أرجلهم متورمة وأقدامهم مشققة تنزف دما من السير فى حر الصحراء نهارا وبردها ليلا ، كان الكثيرون منهم لم يذوقوا قطرة ماء لفترة طويلة ، فكانت ألسنتهم سوداء ومنتفخة ، وكانوا ينطقون بصعوبة ، وكانوا يرددون « أماه ، أماه » وأنا أغسل أرجلهم وأقدامهم وأعطيهم بعض العصير ، وكنت أطلب إليهم فى هذه الأثناء ألا يحاولوا التحدث وأن يوفروا قوتهم حتى يتماثلوا للشفاء . وكان الجرحى يرسلون

إلى المستشفيات والذين تعرضوا لجو الصحراء الرهيب يرسلون إلى حجرات الطوارىء .

وفى عنابر الحروق المزدحمة ، كان الهواء ثقيلا برائحة اللحم المحروق مثل رائحة اللحم المتفحم ، ولم أكن أستطيع التغلب على مشاعرى إلا بالتركيز كلية فى وجوههم وأنا أحاول جاهدة التهوين عليهم ، وكنت أقول لكل واحد منهم إنه بطل من أبطال مصر ، وأجلس فى بعض الاحيان إلى جانبه ساعات إلى أن ينام قائلة له إنه اكثر حظا منى ، لأنه سوف يحمل جرحا يدل على شرفه . وكان بعضهم يموت أمامى ، وكنت أردد الآية الكريمة « ياأيتها النفس المطمئنة ، إرجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (صدق الله العظيم) .

ولم يحدث فى خلال هذه الفترة أن فقدت تماسكى إلا مرة واحدة فقط ، فقد كنت أتجول مع السيدات المتطوعات فى دورة روتينية ، وبدأت أغسل أرجل جندى شاب ، ثم صببت له بعض العصير ، وهو يقول : « الله يخليك يا أمى » وبينما كنت أقرب الكوب من فمه توقفت فجأة لا أستطيع حراكا ، فقد كانت شفته وأنفه مجروحين جرحا غائرا ، وكانت الديدان تزحف فى الجرح . وحاولت ألا أنظر إلى الجرح لكى أستطيع رفع الكوب إلى فمه ، ولكننى لم أستطع وشعرت بأننى على وشك أن أفقد الوعى . وأخيرا تغلبت على شعورى وسألته أن ينتظر لحظة ، وعدوت إلى حجرة مجاورة ، وقالت لى إحدى المتطوعات وهى السيدة عقيلة السماع « ماذا حدث ، انك تبدين شاحبة ؟ هل أنت بخير ؟ » وبعد أن استعدت قدرتى على الكلام قصصت عليها ما رأيت ، فسألتنى ألا أشغل نفسى ، وستأخذ هى على عاتقها تنظيف الجرح . وسألها الجندى عنى ، فأخبرته أننى متعبة جدا وأننى شعرت بأنى سوف أفقد الوعى ، وأننى لم أرد أن يرانى متعبة ، وأننى أستريح الآن ، وطلب الجندى الشاب من السيدة عقيلة أن تبلغنى شكره .

وحاول الاسرائيليون أن يبذلوا قصارى جهدهم فى تخويف جنودنا ، فكانوا يقولون لهم مثلا إنهم سوف يصلون إلى حرم أنور السادات على الضفة الغربية من

القناة ، وكان الجنود لا يصدقون فلم تذهب زوجة أحد من اعضاء الحكومة إلى الجبهة من قبل ، وحين كان جنودنا يصلون كانوا يصرخون وهم يرتعدون إن اسرائيل تعرف كل شيء . . وكنت فى هذه الأثناء أحاول طمأنتهم ، وأقول لهم أنهم الآن فى أمان وأنه يتحتم عليهم أن يجددوا قوتهم للتماثل للشفاء .

إن أى إنسان يرى ما رأيته لا يمكن إلا أن يؤمن بالسلام . . لقد أيقنت فى صيف ١٩٦٧ ـ وأنا أرى كل هؤلاء الجرحى ـ أن الحرية لا يمكن بأى صورة من الصور أن يكون سبيلها هذا الصراع الدموى ، لأن الثمن سيكون فادحا .

وكنت دائمة السفر بين القاهرة ومنطقة القناة وقريتنا طوال الصيف والخريف من هذا العام . وحين تأكدت من أن الهجمات على القاهرة قد توقفت أحضرت أطفالى إلى منزلنا فى القاهرة . وبالرغم من أننى لم أقض معهم إلا أوقاتا قليلة ، الا أننى كنت مطمئنة عليهم ، فقد كانوا فى رعاية خالتهم ويقضون الوقت مع أبنائها . وكانوا كثيرا ما يأتون إلى فى المستشفى لقراءة الشعر للجنود وكتابة الخطابات نيابة عنهم . وفى هذه الأثناء بدأ أنور يفقد صبره معى ، ولو أنه كان موافقا تماما على ما أقوم به ، ولكنه أولا وأخيرا رجل شرقى .

وبدأ يقول لى مرارا إننى أهمل بيتى وزوجى وأولادى ، وأنهم ما زالوا صغارا ومحتاجين إلى الرعاية وأنه يتحتم على أن أكون فى البيت فى الساعة الثانية ظهرا لأستطيع أن أهتم بشؤونهم المدرسية ، واستمر يقول إننى حرة فى أن أذهب إلى المستشفيات حتى فى الخامسة صباحا ، ولكن يجب أن أعود فى الثانية بعد الظهر دائما . وقلت له إن البلاد تعانى من هزيمة ، ويوجد الآن آلاف الجرحى فى المستشفيات وهناك متطوعات يساعدن فى الرعاية ، وهم يحتاجون إلى ، ولكن كان يقول بدوره إنه يحتاج إلى أيضا ، وإنه رجل يريد أن تكون زوجته فى البيت فى الثانية بعد الظهر .

وكانت المناقشات دائما تدور حول نفس الموضوع وحاولت أن أقنعه بأننى لا أستطيع مثلا أن أكون فى حديث مع أحد الجرحى وأقول له « آسفة ، إن زوجى

يريدنى فى البيت الآن » . ولكنه ظل مصرا . وكنت أتسلل إلى البيت ليلا عند عودتى حتى لا يشعر بى ، ولكنه كان كثيرا ما ينتبه إلى . وحين كان ينظر إلى بصرامة ، ثم ينظر بعد ذلك إلى ساعته كنت أقول له إننى لم أكن فى ملهى ليلى وأنه يعرف بالضبط أين كنت .

وحين كنت أسافر إلى بورسعيد أو إلى الاسماعيلية كنت نادرا ما أتحدث معه بالتليفون لتجنب مناقشته ، وكنت أحاول تجنب أى مناقشة فى الصباح ، لأننى كنت أكره الشجار . وكان يردد دائما « كونى هنا فى الثانية » وكنت أرد بدورى : « حاضر . . . سوف أحاول » .

وكنت أتفهم موقف أنور تماما ، وبالطبع لايوجد رجل فى مصر ولا فى أى مكان آخر فى العالم يريد أن يأتى إلى بيته بعد يوم عمل ، فلا يجد زوجته فى انتظاره بابتسامة ، ولا يجد طعامه جاهزا ، والبيت فى نظام وأولاده مهندمين وواجباتهم المدرسية منتهية ان معظم الرجال ـ فى الواقع ـ يعتبرون زوجاتهم مثل عقول إلكترونية مطلوب منهن دائما أن يكن سعيدات ومبتسمات ، ولم يكن أنور مختلفا عن هذه الغالبية من الرجال !

ولكن شيئا فشيئا بدأت معارضته تفتر ، وكان عليه أن يقبل استقلاليتى ، وقد أدركت وقتها أنى وجدت الشىء الذى سوف يملأ على حياتى ، وهو العناية بالمرضى ، ومساعدة من لا يستطيع مساعدة نفسه ، والعمل من أجل السلام ، ورفع شأن المرأة ، تلك كانت أهدافى التى أصبحت أسهل على بعد أن أنتخب أنور رئيسا للجمهورية ، فقد كان وقته ووقتى أيضا ملؤهما المسئولية إلى درجة لم يعد يهم معها من كان فى المنزل ومن لم يكن ، ولكن لاشك فى أن حياتنا الطبيعية معا كانت صعبة فى بعض الأحيان بعد حرب يونيو ١٩٦٧ .

وكانت هناك شائعات أن وزير الحربية ، عبد الحكيم عامر ، الذى كان يعتبر أعز صديق لعبد الناصر ، ينوى القيام بعصيان مسلح ، وكان عامر هو الذى أكد لعبد الناصر أن مصر على إستعداد تام للقتال . وفى الأزمة الوزارية التى أعقبت

الهزيمة ، حينما عرض على مجلس الوزراء الاستقالة الجماعية ، كان عامر فقط هو الذى رفض أن يستقيل بينما يظل عبد الناصر فى منصبه ، فقد كان يشعر أنه توأم لعبد الناصر وأن مصيرهما مرتبط أحدهما بالآخر ، واضطر عبد الناصر بعد ذلك إلى عزله وتعيين وزير جديد للحربية هو الفريق محمد فوزى .

ولكى يستعيد عامر مركزه فى الجيش مرة أخرى بدأ وأصدقاؤه من العسكريين يخزنون الأسلحة فى بيته ، واتسعت هوة عدم الثقة بين الرجلين ، وخشى عبد الناصر أن يستغل عامر شعبيته بين ضباط الجيش فيجبر الجيش عبد الناصر أن يعيده إلى منصبه مرة أخرى ، أو يسيطر على الحكم .

وعند عودتى من إحدى جولاتى فى المستشفيات فوجئت بعامر يجلس مع أنور فى الشرفة ويشكو له مندهشا من الطريقة التى يعامله بها عبد الناصر ، وكيف كانا كالاخوة طوال طريق الحياة ، وبدأت ألاحظ مدى الألم الذى يبدو على وجهه .

وقاطعت الحديث قائلة بلطف محاولة تهدئته : إن هذا وقت عصيب تمر به مصر ، وليس وقت تحد بينكما . كنت أحدثه كأخت ، وواصلت حديثى قائلة إن أفضل وضع الآن هو أن يذهب وعائلته إلى بلدته ، ويستجم . وبعد أن يمر بعض الوقت فلا شك أنه سوف يستطيع التفاهم مع صديقه القديم ، ولكن إذا ظل يضغط عليه فلن يكون هذا فى صالحه . ولكنه ظل يفكر دون أن يسمعنى قائلا : « لم تكن الهزيمة مسئوليتى وحدى ونحن جميعا مسئولون عنها » .

ورددت عليه مرة أخرى : « إن هذا ليس مهما الآن ، » واستأنفت الحديث « بأن الشعور العام بأنه قائد للجيش يجعل الهزيمة مسئوليته وحده » ، وقلت له : « إذا حدث خطأ فى جمعية الهلال الأحمر فسوف يلقى باللوم على أنا وليس على أية عضوة أخرى » . ولكنه ظل غير مقتنع وهز رأسه ولم يرد .

وبعد ذلك بأسبوعين تم القبض عليه وحددت إقامته . وفى الرابع عشر من

سبتمبر ، أى بعد ذلك بثلاثة أسابيع انتحر المشير عبد الحكيم عامر بابتلاع كبسولة من السيانيد .

وبكيت وأنا أقف وحدى إلى جوار قبر عامر فى قريته « اسطال » وأقرأ الفاتحة على روحه . وقد شعرت بحزن عميق لأن عبد الناصر طلب من أعضاء مجلس الثورة ألا يحضروا جنازة زميلهم القديم نظرا لتهديده لنظام الحكم . ولكنى تركت بيتى فى الاسكندرية وذهبت مباشرة إلى قريته لأقدم عزائى إلى عائلته ، ولكنى اكتشفت أنهم غادروها إلى القاهرة ، وذهبت بدورى إليهم فى منزلهم فى الجيزة لتقديم عزائى . ولكن لم يرحب بى أحد ، فقد صرخت بناته بمجرد أن رأيننى : « إنه لم ينتحر . . . إن الحكومة هى التى قتلته » ولكنى لم أذهب إلى هناك كممثلة للنظام ولكن كصديقة ، وفى حديقة المنزل قابلنى أحد أبنائه وكان ضابطا فى الجيش وصرخ قائلا : « لماذا . . لماذا ؟ » ولم أكن أقدر بالطبع أن أشرح له كيف تحول والده إلى رجل غير واقعى . وأخيرا إلى عدو لمن كان أخلص أصدقائه . وإذا كان عامر قد شعر بمهانة الهزيمة فقد كان لابد أن ينتحر فى الخامس من يونيو ، وكان الكل سيفهم عندئذ أن كبرياءه لم يتحمل هزيمة مصر ، وكانت حادثة الانتحار وقتها سوف تكون مأساوية ، أما الآن فهى مثيرة للشفقة .

أما فى القاهرة فكان عبد الناصر يتقبل هذه الاخبار بمنتهى المرارة . فعدم إخلاص صديقه وأخبار موت هذا الصديق وهزيمتنا كانت قد أنهكته . وارتفعت نسبة مرض السكر فى دمه . وكان يأتى إلى منزلنا للجلوس مع أنور ، وكان يزداد ألمى كلما نظرت إليه ، كان جسده منحنيا كأنما يحمل جبالا من الحزن وأصيب بحساسية حتى أنه كان يتعذب كلما لمست الملابس جسده ، وكنت أتساءل إلى متى سوف يحتمل ناصر ؟

وكان المصريون ما زالوا يحاربون ، ومدننا فى القناة والصعيد تتعرض لغارات جوية إسرائيلية ، فكانت حالة من اللا حرب واللا سلم ، واستمرت المناوشات على ضفتى القناة إلى عام ١٩٦٩ حينما تصاعدت هذه المناوشات إلى

ما يسمى « حرب الاستنزاف » ، وبدأ الاسرائيليون يضربون المصانع والأهداف المدنية فضلا عن الاهداف العسكرية .

وكان الضغط على عبد الناصر رهيبا ففاجأته نوبة قلبية فى سبتمبر ١٩٦٩ وقيل للشعب آنذاك إنها مجرد انفلونزا . وبدأ عبد الناصر يحس أن أجله يقترب وهو يواجه خيانة تلو أخرى . ولجأ إلى صديقه الحقيقى الوحيد فى العشرين من ديسمبر ، فبينما كان عبد الناصر يستعد للذهاب إلى مؤتمر قمة فى المغرب طلب من أنور أن يحضر مصحفا وجعله يحلف اليمين ليكون نائبا لرئيس الجمهورية .

واستمرت حرب الاستنزاف ، وكان المنظر فى مدن القناة مهجورا ، لا حياة ولا بشر ، ولا يوجد مبنى واحد يقف سليما فى مدينة الاسماعيلية على الشاطىء الغربى من القناة . كان أى انسان يرى هذا المنظر لا يستطيع التحكم فى دموعه ، مبان مهدمة ودواليب معلقة فيها بعض الملابس وأسرة محترقة ، وأخذت أتساءل : ترى كم من الأحلام ضاعت هنا ؟ وكم من البشر قتلوا ؟ وأجهشت بالبكاء ، كانت الشوارع خالية وكل السكان قد انتقلوا إلى مستعمرات فى الصحراء .

وكانت الطائرة الاسرائيلية تضرب الأهداف الصناعية فى مصر كلها من شمالها إلى اسوان فى الجنوب ، وبالرغم من أن السد العالى كان محصنا تحصينا قويا كان الكل خائفا من أن تهدمه الطائرات الاسرائيلية وتغرق بذلك كل مصر بمنسوب مائى إرتفاعه عشرة أمتار ، وكنت أشاهد معركة بين طائرات مصرية وإسرائيلية من شرفة منزلى ذات يوم وصرخ فى الحرس أن أدخل ، ولكننى ظللت واقفة ، لا يستطيع أحد أن يتصور أن مصر خسرت أربعة آلاف مهندس فى هذه الحرب غير المعلنة .

وفى يناير عام ١٩٧٠ انطلقت صفارات الانذار فى القاهرة وألقيت أول قنبلة على القاهرة ، فمات سبعون عاملا فى إحدى الضواحى ، وبعد ذلك ألقيت قنبلة أخرى على مدرسة بحر البقر بالقرب من بلبيس فى محافظة الشرقية وبدأت موجة جديدة من الغضب تجتاح البلاد .

هل كان الاسرائيليون يقصدون فعلا ضرب هؤلاء الأطفال ؟ ولم أستطع أن أصدق بالرغم من أن هناك عدد كبيرا من المصريين كانوا يصدقون ذلك ، ومن خلال دموعى تنقلت بين المستشفيات غير قادرة على أن أجد كلمات أهدىء بها من روع أطفال فقدوا أرجلهم وأذرعهم ايضا ، ومهما كان تشوه مصابى الحرب فهم - على الأقل - يعلمون أن واجبهم هو الذود عن بلادهم . . ولكن ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء ؟ ولمدة أسابيع بعد ذلك كان من الصعب على وعلى العاملين فى المستشفى سماع صرخات الألم والخوف ولكن كان علينا ضبط أنفسنا لتهدئة هؤلاء الأطفال التعساء .

وكان من الضرورى أن يتدخل أحد ويوقف تلك المذبحة ، فصدر القرار ٢٤٢ للأمم المتحدة فى عام ١٩٦٧ ، وكان ينص على إنسحاب إسرائيل إلى حدودها قبل الحرب بشرط الاعتراف بها من قبل الدول العربية . وقد قبلت بالفعل إسرائيل ومصر ، ولكن إسرائيل لم تنفذ مدعية أن القرار لم يقل صراحة « كل الأراضى العربية » ، واستمروا فى جدال عقيم ليستمر احتلالهم سيناء .

وفى مايو من عام ١٩٧٠ حاول أكبر حلفاء إسرائيل حل المشلكة ، فأعلن نائب الرئيس وليم روجرز مبادرته التى تنص على وقف إطلاق النار لمدة تسعين يوما ووساطة الأمم المتحدة فى حل المشكلة الفلسطينية . وقبلها عبد الناصر ولكن اسرائيل رفضت الخطة ، فإلى متى سنستمر فى التضحية قبل أن تقبل إسرائيل التفاوض ؟ وكان الفلسطينيون غاضبين من مصر ، وكانوا يحسون أن عبد الناصر قد تخلى عن قضيتهم ، وقرروا أن يقوموا بأعمال الشغب ضد أى إنسان يعتبرونه عدوهم ، وتدهور الوضع بسرعة فى الأردن وأعلن الفلسطينيون عصيانا ضد النظام هناك وبدأ التحلل يدب فى الوحدة العربية .

وبعد شهرين من هذا التاريخ طالب عبد الناصر بعقد مؤتمر فى القاهرة لمحاولة تهدئة الوضع المتوتر على الأقل فى الاردن ، وإنقاذ الوحدة العربية . ولمدة أربعة أيام منهكة للقوة عقدت اجتماعات فى فندق الهيلتون امتد بعضها على

مدى الأربع والعشرين ساعة . بحضور كل الملوك والرؤساء العرب وياسر عرفات أيضا رئيس منظمة التحرير ومعمر القذافى قائد ثورة ليبيا الوليدة .

ولقد التقيت بالقذافى قبل انعقاد مؤتمر القمة فى عشاء دعا إليه عبد الناصر ، وكان كل ما أسفت عليه ان هذه المقابلة كادت تكلفنى صداقة عبد الناصر شخصيا . بدأ اللقاء حينما التقيت بزوجة القذافى وهى تقول لعبد الناصر أن زوجها قد أصدر أوامره بالقبض على عمها ، ومن أجل أن يكون عبد الناصر على مستوى دبلوماسى رفيع استدار للقذافى وسأله عن السبب وقال له إنه يجب عليه أن يأمر باطلاق سراحه ، وقد وافق كل المدعوين على ذلك . ولكن وجه القذافى تصلب وأجاب قائلا إنه قبض على الرجل لعدائه للثورة . وسكت الجميع بينما كسرت أنا الصمت قائلة بأن القذافى على حق وأن من الطبيعى أن يكون لكل ثورة أعداء وخصوصا فى مراحلها الأولى ، ويجب أن تقى الثورة نفسها ممن يحاولون إسقاطها .

وساد صمت رهيب ، فقليل من الناس من كان يجرؤ على معارضة عبد الناصر ، وبخاصة إذا كانت المعارضة من سيدة ، وتجنبت النظر إلى أنور ، ولكن من زاوية عينى كنت أراه يرمقنى . أما عبد الناصر فكان يبدو عليه الانزعاج ، ورد عبد الناصر مخاطبا القذافى أنه يجب ألا يوافق على رأيى ، لأن امى انجليزية ، وشعرت بلدغة مفاجئة ، فأجبته بأن جواد حسنى وهو واحد من أبرز مناضلينا فى القناة ، كانت أمه ايضا إنجليزية ، ولكن حينما جاء الجنود الانجليز وقف منهم موقفا وطنيا وقاتلهم ، قلت ذلك وعبد الناصر فى دهشة ، وواصلت حديثى قائلة إنه حين قبض الانجليز على جواد حسنى عذبوه ومنعوا عنه الماء . وكان يعرف أنهم سوف يرحمونه إذا عرفوا أنه ينحدر من أم انجليزية ، ولكنه لم يخبرهم ولقد عاش هذا البطل ومات بطلا مصريا ، وكان مصرعه على أنياب مجموعة من الكلاب أطلقها الانجليز عليه ، ومرة أخرى ساد صمت كسره أحد الحاضرين بالانتقال إلى موضوع آخر .

ولامنى أنور فى طريقنا إلى البيت ، ولكنى سألته إن كان يقبل أن يسب أحد

أهله ، فابتسم قائلا : إنك على حق وإنه من الصعب على الآخرين أن يعتادوا على طريقتنا فى التفكير ، واستمر يقول ضاحكا إن عبد الناصر قال له فيما بعد إننى أثبت أننى مصرية أصيلة لأخذى بثأرى فى الحال .

وفى يوم انتهاء المؤتمر استيقظت منزعجة وأسرعت إلى أنور فى حجرته أقول له إننى قد رأيت حلما غاية فى السوء ، ولما سألنى عنه قلت له إن شيئا أصاب عبد الناصر ، وطمأننى قائلا إن حالة عبد الناصر أحسن وسيرحل الضيوف ، وبعد ذلك ستكون عنده فرصة للراحة ، وقصصت عليه ما رأيته : كنت كأنى فى شرفة منزل والدى فى الروضة ورأيت كثيرا من الناس يبكون ، وكان من بينهم الرئيس السودانى جعفر نميرى والقذافى ، وسألنى أنور محاولا تهدئتى لماذا كانوا يبكون ؟ فقلت : « إن القذافى كان يقول « هذا شىء لا يمكن تصديقه ، ماذا حدث لعبد الناصر ؟ » ورد على أنور متثائبا : « إن عبد الناصر بخير » . . وعلا رنين التليفون ، وكان المتحدث عبد الناصر ، وحمدت الله فى سرى ، وقال لى « إنه سوف يحضر لتناول طعام العشاء مع أنور » ورددت مرحبة به . وكنت سعيدة لأنه سيأتى فقد كان يحب أطفالنا وهم يبادلونه الحب ، وخصوصا ابنتى الصغيرة « جيهان » .

وذهبت إلى المطبخ لأشرف على إعداد الطعام وأخبر الطاهى بأن الرئيس سوف يتناول طعام العشاء عندنا ، واقترحت عليه طعاما بسيطا من « الكباب » ، وورق العنب وسلاطة . ولكننى ظللت أفكر أن الرئيس بخير ، وسوف أراه خلال بضع ساعات ، إذن ما هى المشكلة ؟ وفكرت أننى يجب أن أستريح لأكون مستعدة بعد الظهر للاشراف على ترتيبات المائدة . . وبالرغم من ذلك فقد بدأت حالتى تسوء ، وبعد الغداء كنت أشعر بالارهاق . وقررت أن أكتب كلمة لأنور ليجدها حين يعود بعد الظهر وأخلدت للنوم .

وفى الساعة السادسة علا رنين التليفون وقال لى المتكلم : « أرجو ابلاغ أنور السادات بالتوجه إلى بيت الرئيس » وبدت لى المسألة غريبة ، ولكن أنور لم يلق بالا للأمر وقال : « من الممكن أن يكون قد غير رأيه ، وقرر أن يستريح » .

وبدا لى الكلام معقولا فقد كان عبد الناصر قد ودع الرؤساء العرب كلا على طائرته الخاصة ، وقال لى أنور « إنه سوف يتصل بى فى حالة عودة عبد الناصر معه لتناول العشاء فى بيتنا » . ولكنه إتصل بى وطلب إلى أن أذهب إلى بيت عبد الناصر . وكان هذا على غير العادة ففى القاهرة لم نذهب معا إلى بيت عبد الناصر إلا إذا كان عشاء رسميا أو حفل استقبال . وفى غير هذه المناسبات كنت أذهب وحدى للزيارة ، أو كان أنور يذهب وحده لمقابلة عبد الناصر . أما فى الاسكندرية فكنا نلتقى معا فى أجازات الصيف .

وكانت نظرة السائق إلى فى مرآة السيارة هى التى جاءت بأول ارتعاشة إلى جسدى ، لم يكن هو سائق السيارة العادى ولكنه كان نفس السائق الذى قاد السيارة منذ ثلاث سنوات ليوصلنى لكى ألقى آخر نظرة على جثمان أبى قبل أن يتم دفنه ، وفى هذه اللحظة أيقنت أن أحدا قد توفى فى منزل عبد الناصر .

وفى الطريق طلبت إلى السائق أن يدير الراديو لأحاول أن أهرب من أفكارى ، وعلى الفور سمعت صوت (نجاة الصغيرة) تغنى اغنيتها « للمغتربين فى خارج مصر » وكانت هذه الأغنية كأنها لأحد يرحل عن مصر ، فطلبت إلى السائق أن يغلق الراديو ونظر إلى ولكننى نظرت من نافذة السيارة .

وبمجرد أن دخلت إلى بيت عبد الناصر بدّا الكابوس واضحا ، فقد رأيت وزير الداخلية جالسا على السلم ورأسه بين يديه ، وسألت عن السبب ، ولكنه لم يجب ، فخرجت إلى الحديقة لأجد أحد مساعدى الرئيس وسألت أحد الخدم إن كان مكروه أصاب الرئيس ولكنه لم يجب ، وواصلت الحديث بلطف أسأل عنه وعن السيدة حرمه ورد بأنها فى حجرة نومها ، وأن الطبيب أعطاها مسكنا وبينما أصعد السلم قابلت الابن الأكبر (خالد) وسألته عن إمكانية أن أرى والدته ولكنه أجاب بالنفى وقال إن الأطباء أعطوها منوما .

ونظرت إلى ثوبى لأجده أزرق فاتحا وقلت لنفسى إن ثوبى غير مناسب لما يمكن أن يكون قد حدث ، وقررت أن أرجع إلى البيت وأبدله . وفى الطريق إلى

المنزل بدأت أشعر بالرعب ، وأفكر أنه لا يمكن أن تكون حرم عبد الناصر هى التى توفيت ، لأننى رأيت خالدا وقال لى إن الأطباء أعطوها منوما . فلابد إذن أن يكون عبد الناصر ، ولكن هذا غير معقول ، فكيف نستطيع الحياة بدونه ؟ . وأحسست بالفزع وكأنه لا يوجد زعيم فى البلاد بل فى العالم أجمع يستطيع أن يأخذ مكانه ولا أحد غيره يبدو قادرا على قيادة مصر ، فهو القائد الوحيد الذى قادنا منذ ثمانية عشر عاما . ولم أقدر على التحكم فى دموعى ، وسألنى السائق عما حدث فرددت بأنى لا أعلم ، وراح السائق يكرر سؤاله ، وأرد أنا عليه « لا أعلم فلم يخبرنى أحد بشىء» ورجوته أن يكف عن السؤال .

ولما وصلت إلى بيتى أدرت جهاز التليفزيون ولكنه لم يعلن شيئا ، وكان يذيع تسجيلات توديعه للرؤساء العرب فى نفس اليوم وهو يقبل أمير دولة الكويت . وكان يبدو عليه الاعياء الشديد وقلبت القنوات ولم تكن هناك أى إشارة وأدرت الراديو ولم يكن هناك شىء .

وتساءل الأطفال عن سبب بكائى وعما إذا كان مكروه قد أصاب أباهم ، وأخذت أطمئنهم . وصعدت بعد ذلك إلى الطابق العلوى لأبحث عن ثوب أسود ، لأن كل ثيابى الصيفية كانت ملونة .

وارتفع رنين التليفون وكانت زوجة عضو فى مجلس الأمة وصديقة لى وسألتنى عما حدث لعبد الناصر ، وأجبتها بأنى لا أعرف شيئا ، وكنا نبكى نحن الاثنتين وأبلغتنى أنها ستأتى لتكون معى ، فقد سمعت أن الكل يقول إن عبد الناصر قد مات . ولكن كيف عرفوا ؟ إن الخبر انتشر كما ينتشر الحريق وكان المواطنون يتجمعون فى الشوارع ومعهم الأخبار .

وبلغ الشعور مداه حينما أوقف التلفزيون برامجه فى الساعة السابعة ، وبدأ يذيع القرآن . وفى الساعة الثامنة ظهر أنور السادات ، وتأكد الجميع من منظر وجهه ، لم يكن يبكى فقد كان حزنه أعمق من ذلك . وقال أنور : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

وقال «.أنعى إليكم أشجع وأنبل رجل ، لقد مات الرئيس جمال عبد الناصر بعد فترة مرض قصيرة عجز الطب الحديث عن معالجتها » .

ورحت مع أفكارى . . أيعقل أن يموت عبد الناصر وهو لما يزل فى الثانية والخمسين ، لقد كان هذا بالنسبة لى مفاجأة تبدو مستحيلة وكذلك كان لمعظم المصريين . ولكن القريبين من عبد الناصر كانوا يعرفون تمام المعرفة أنه ضحية أخرى من ضحايا الحرب . فقد تحطمت صحته بعد حرب ١٩٦٧ ، وجردته الهزيمة من قوته فكان يتحرك ويتكلم ولكن علامات الموت كانت تبدو على وجهه الشاحب .

وكان أنور يقول لى بعد ذلك إن الرجل لم يمت فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ولكنه مات فى صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ .

وتجمع أكثر من خمسة ملايين مصرى يوم الخميس « أول أكتوبر ١٩٧٠ » ليودعوا جثمان عبد الناصر ، لقد كان كثير من زعماء العالم يريدون حضور جنازته لذا تغاضينا عن عاداتنا التى تقضى بدفن الموتى فى يوم موتهم انتظارا لقدوم الزعماء ، وكانت جنازة مهيبة ، كانت أكبر جنازة شهدها العالم . وكأنه « حلمى » كان يمر أمام عينى من جديد . وكان الرئيس نميرى يبكى والقذافى يصيح من على سلم الطائرة « غير معقول » . . وهو يبكى أيضا .

ولم أر أنور فقد كان مشغولا فى مقابلة الملوك والرؤساء ، ولتنظيم الأمور لم يأت إلى المنزل ولكنه ظل فى قصر القبة حيث يرقد الجثمان . وفى يوم الجنازة فقد أنور الوعى ونقل إلى مجلس قيادة الثورة ليسترد وعيه ، ولما استيقظ بعد ذلك بخمس ساعات كان مذعورا لأنه علم أن الجثمان قد تلقفته أيدى المشيعين .

وبعد أن تم تشييع الجنازة بقيت مع زوجة عبد الناصر أنا وسائر زوجات أعضاء الحكومة خلال الأيام السبعة المفروض تقبل العزاء خلالها . وكان مجهودا شاقا عليها وهى تتقبل عزاء الآلاف ، وكنت أحدثها أحيانا بأنها إرادة الله . وذهلت حينما همست سيدة من المعزيات فى أذنى بكلمة « مبروك . تهنئتى القلبية »

ونظرت إليها غير مصدقة عدم إحساسها . فلم أكن أريد أن أصبح زوجة لرئيس الجمهورية . لم أكن أريد تحمل هذه المسئولية ، لم أكن أريد أن أفقد حياتى الخاصة التى سوف يكون ثمنها أكثر مما فقدت . وكان أنور من جهة أخرى فى حالة يأس واكتئاب طوال الأيام التى تلت وفاة عبد الناصر ، فلم يخطر فى ذهنه أن يكون رئيسا لمصر ، لقد كان يرحب بالمسئولية فى خدمة بلاده مع الرئيس الذى كان يحبه . . عبد الناصر .

وبالرغم من أنه لن ينتخب رئيسا إلا بعد شهر ، لكن المسئولية أصبحت مسئوليته رسميا . ومن الآن سوف يكون الضغط رهيبا عليه لأننا مهزومون فى حرب . أراضينا محتلة ، ومن جهة أخرى كان المتوفر من المال قليلا ، فكنا نجد صعوبة فى دفع مرتبات الجيش على الجبهة ، ومرتبات موظفينا المدنيين بالاضافة إلى أن السجن مملوء بالمعتقلين السياسيين الذين كان أكثرهم من الاخوان المسلمين . والقوة الخارجية الوحيدة التى كان لنا صلة بها آنذاك هى الاتحاد السوفيتى وهو نظام كان أنور لا يثق فيه .

وكان لى فى أنور ثقة عظيمة ، ربما أكثر من أى رئيس يخلف عبد الناصر ، وكنت أعرف بينى وبين نفسى أنه أقدر وأشجع رجل للمهمة . إن إيمانه بالله جعل منه إنسانا قويا جدا ، وكنت واثقة أن الله سيكون معه دائما . ولكننى بالرغم من ذلك كنت خائفة ، فكل الذين استطاعوا أن يثيروا شكوك عبد الناصر لينال من أعدائه سوف يكونون وزراء فى حكومة أنور .

وكنت أعلم تمام العلم أنهم سوف يعارضون أنور ويثيرون له المتاعب ، ومن أجل هذا سيكون على أنور مواجهة مشاكل مصر بمفرده ، فسيكون حوله رجال غير أوفياء له وسيحاولون النيل منه . عرفت ذلك مباشرة من لحظة أن مات عبد الناصر وأصبح زوجى رئيسا لمصر .



الفصل الثامن

الخيانة والغدر



كنت أقف فى حديقتنا بالجيزة وكان كل ما حولى وهجا برتقاليا مخيفا يتذبذب من خلال زهر المنجوليا وشجرة الأرز التى ترتفع أعلى من منزلنا . ما هذا الضوء المشئوم ؟ ونظرت إلى منزلنا . إن النيران مشتعلة فيه ، وكنت أرى ألسنة النيران فى داخل البيت وهى تتلوى وتتوهج وتندفع إلى الخارج من جميع النوافذ ، وحاولت أن أجرى نحو البيت لأنقذ أبنائى وزوجى وأمى ولكننى لم أستطيع أن أتحرك . كنت أريد أن أصرخ وأن أطلب النجدة ولكن صوتى لايخرج . شعرت بالعجز ووقفت فى مكانى أراقب الدخان وهو يندفع متجها إلى نهر النيل ولكن الدخان لم يكن أسود بل كان لونه أبيض . إذن لا يزال هناك أمل وقلت « يارب ساعدنا . . يارب ساعد مصر » .

وكان يجب أن أخبر أنور ، فأسرعت إلى حجرة نومه لأخبره بهذا الحلم وقلت له بانفعال « إن المؤامرة ضدك لن تنجح ، إن أعداءك سيحاولون قتلك ، والاستيلاء على الحكم ، ولكنهم لن يستطيعوا النيل منك . إنى أعتقد هذا لأن

الدخان الذى خرج من النيران التى أشعلوها كان أبيض ، وليس أسود ، إن مصر ستنتصر وأنت أيضا » .

وابتسم زوجى ولكنه لم يقل أى شىء . وأنا أعرف أنه لا يصدق أحلامى حتى إذا كنت أنا أصدقها . ولكن الحلم الذى رأيته عن نهاية عبد الناصر قد تحقق . فهل سيصدق هذا الحلم أيضا ؟ وشعرت بالراحة من هذه الفكرة ، ولكن الخطر على أنور كان كبيرا وكنت لا أزال خائفة .

كان أنور يحارب معارضة عنيدة : كانت رؤيته عن مصر تختلف إختلافا كبيرا عن رؤية عبد الناصر الذى كان الكثيرون فى مصر يدينون له بكل قوة . وبعكس عبد الناصر كان أنور يريد تخفيف حدة الرقابة وتشجيع الحوار السياسى . وبعكس عبد الناصر كان أنور يريد أن يفتح مصر على أسواق الغرب المجزية . وبعكس الناصريين لم يرغب أنور فى الاستمرار فى حرب الاستنزاف ضد الاسرائليين ، ولكن موقف زوجى كرئيس للجمهورية كان حرجا جدا ، إذ كان البعض يرى أنه لا يجب أن يكون رئيسا .

كان جميع أعضاء الحكومة التى ورثها عن عبد الناصر تقريبا ضده : على صبرى رئيس الوزراء ، وشعراوى جمعة وزير الداخلية ، وسامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية ، ومحمد فوزى وزير الدفاع ، ومحمد فائق وزير الاعلام ، بالاضافة إلى أمين هويدى مدير المخابرات العامة . فقد استطاع هؤلاء الرجال على مر السنين ـ وكان بعضهم أعضاء تلك اللجنة المختصة لتصفية الاقطاع ـ أن يجمعوا السلطة والنفوذ فاعتقلوا معارضيهم أو هددوهم ، وراقبوا التليفونات وسجلوا آراء الآلاف من المصريين . وفى حكم عبد الناصر ازداد سلطان هذه المجموعة ، وكونوا مركز قوة تكاد السيطرة عليه تكون غير ممكنة . وفى حكم السادات لم يكن عندهم أية نية للتنازل عن سلطتهم .

ومنذ بداية رئاسة زوجى كانت أعماله تغضب هذه المراكز . وبدلا من تكوين لجان تستولى على الأملاك والثروات بطريقة تعسفية ، قام أنور بعد شهرين فقط من بدء حكمه بالغاء قوانين الحراسة التى أخضعت الأملاك الخاصة لسيطرة

الحكومة ، وبدلا من مراقبة التليفونات وإعداد قوائم سوداء كما كان وزراء عبد الناصر يفعلون ، جعل أنور مراقبة التليفونات بدون أمر من المحكمة أمرا غير قانونى ، كان أنور يؤمن بحق المواطن فى خصوصياته لدرجة أنه رفض أن يقرأ أكوام الأحاديث التليفونية المسجلة والمتبادلة بين مصريين كانوا موضع الشك .

كانت كل خطوة من هذه الخطوات على طريق الديمقراطية تقابل بالهجوم من جانب حكومة أنور . لقد كان عبد الناصر قريبا جدا من الاتحاد السوفيتى وكذلك أصبح الموالون له ، وفى الوقت الذى كانت أوروبا وأمريكا يعبران فيه عن تفاؤلهما حيال ما أطلقا عليه اسم « ربيع القاهرة » . كان أعداء زوجى يكرسون دعايتهم لنقد كل حركة من تحركاته . وقالوا لأعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى « إن السادات ومؤيديه يمثلون القوى الرجعية ، إن الرجعيين بدأوا فى التجمع حتى يلغوا مكاسب العمال والفلاحيين . وكان هناك همس بين الأعضاء الثمانية فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ، الحزب الوحيد فى بلادنا ، ومن مؤيدى الاتحاد السوفيتى لدرجة أن أنور كان يطلق على اللجنه إسم « البوليتبيورو » ولم يحاول هذا « البوليتبيورو » أن يخفى مواقفه ، فهاجموا زوجى أمام كل من كان على استعداد لأن ينصت لهم . وحتى الصحف بدأت تردد انتقاداتهم لسياسة زوجى . وبعد أن عاد ممثل الولايات المتحدة فى جنازة عبد الناصر قدم تقريرا إلى الرئيس نيكسون تنبأ فيه بأن « السادات لن يستمر أكثر من ستة أسابيع » . وكان السوفييت يوافقون على هذا الرأى ، ولكن ما كان يغضب أعضاء الحكومة المعارضين لأنور كان يرضى الشعب ، وكان المصريون يهللون للحريات الجديدة التى يتمتعون بها وخاصة إلغاء القرار الذى كان يمنع المصريين من السفر إلى الخارج ، فلم يعد من الضرورى أن يملأ المواطن استمارة ويضع عليها طوابع حكومية ومقابلات شخصية مع المسئولين . . كل هذه الاجراءات للحصول على تأشيرة الخروج . وبدا بعض المصريين الذين هربوا من مصر يعودون إليها ، وكانت العزلة التى عاشتها مصر قد بدأت تزول . وبدأت حملة الناصريين للاطاحة بزوجى .

وقالت لى إحدى صديقاتى بعد تولية زوجى « إن وزير الداخلية كان يتحدث بطريقة جافة عن زوجك فى عشاء حضرته أمس » ، وقالت أخرى « سمعت من سامى شرف أن زوجك ضعيف وأنه لا ينال احترام أى من الوزراء » . وكان هؤلاء الذين يعرفون رقم تليفوننا يتصلون بى لينقلوا إلى الشائعات المختلفة . أما الذين لم يعرفوا الرقم فقد بدأوا يفدون إلى بيتنا ، كان المصريون المخلصون وبعضهم لم أقابلهم فى حياتى يعرضون أنفسهم للخطر ، ويحضرون فى الخفاء ليقابلونى فى منزلنا فى أية ساعة من ساعات النهار والليل ليخبرونى عن تهديد جديد أو استهزاء بأنور ، وكنت أقابلهم جميعا بغض النظر عن الوقت . كان خطر حدوث انقلاب يتزايد وكنت أريد أن أعرف بالضبط ما كان يدور وراء ظهر زوجى .

وبدأت الشائعات تتزايد بعد أن أعلن أنور فى مجلس الشعب عن مبادرة سلام جديدة ، وكان ذلك بعد أربعة شهور من توليه السلطة . وأعلن أنور أنه على استعداد لاعادة فتح قناة السويس لو وافقت إسرائيل على الانسحاب من سيناء . كما أعلن أيضا عن خطته لمد وقف اطلاق النار الذى اقترحه مشروع روجرز من ثلاثة شهور إلى ستة شهور ، وأن يعيد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة .

وما كان مذهلا حقا هو اقتراحه بالتوقيع على إتفاقية سلام مع إسرائيل عن طريق وساطة الأمم المتحدة . وعلى امتداد الواحد والعشرين عاما من الوجود الاسرائيلى لم يحاول أى زعيم عربى أن يأخذ مثل هذه المبادرة . وحين شعر أعداء أنور بالرعب من هذا الاقتراح ، بدأوا فى مضاعفة جهودهم للتشكيك فيه . وكانت سياسات أنور تنال تأييدا شعبيا مما يشكل خطرا عليهم . كما كان ابتعاده عن الاتحاد السوفيتى وتقاربه مع الغرب والديمقراطية يشكل اتجاها يرغبون فى تحطيمه .

وكنت أخبر أنور كل ليلة عن هذه الشائعات ، وعن محاولات تشويه صورته كما أسمعها . وفى شهر أبريل ، بعد ستة شهور من توليه الحكم ، كاد أعداؤه ينجحون حول « مراكز الشائعات » التى نظموها ، مدعين أن فى استطاعتهم

اختلاق قصة معادية للسادات فى القاهرة ثم نشرها فى جميع انحاء البلاد لكى تعود نفس القصة إلى القاهرة بعد ساعة واحدة. وكانت المحادثات التليفونية الشخصية التى أتحدثها من تليفوننا الخاص تأتينى فى صورة تقارير مما يؤكد أن بيتنا ـ مقر رئيس الجمهورية ـ به أجهزة تصنت ، وكان الأصدقاء المخلصون لأنور يتساءلون : « لماذا يترك زوجك السلطة فى أيدى اعدائه ؟ لماذا يسمح لوزرائه أن يقنعوا الشعب بأنه مجرد رئيس رمزى مثل ملكة انجلترا وأنهم هم الحكام الحقيقيون لمصر ؟ » وكنت أجيبهم « إنه ينتظر الوقت المناسب » . ولكنى شخصيا كنت قد بدأت أفقد صبرى مع أنور .

وفى إحدى الليالى فى أبريل سألته « أنور ، ماذا تنتظر ، هل تنتظر حتى يعتقلوك ويضعوك فى السجن أو يقتلوك ؟ إنى كزوجتك أشعر بالقلق على حياتك ، ولكنى أيضا قلقة على مصر . وإذا استولى الشيوعيون على البلاد سيغلقونها مرة أخرى . إنك تقود مصر نحو الديمقراطية ونحو السلام ، وحسنت العلاقات مع كثير من الدول الأخرى ، ولكنهم سيقلبون كل هذه الأوضاع » ، وحاولت أن أحتفظ بهدوئى وأن أتحدث بهدوء ، ولكنى فشلت وقلت له بصوت أجش : « إنك فى سباق مع أعدائك ، والفائز هو الأسرع فى التخلص من الآخرين . إنهم جميعا ضدك ولديهم قوة تحريك الجماهير . ما الذى تنتظره يا أنور ، أخبرنى » . . وكنت أبكى خوفا عليه .

وابتسم أنور وقال بلطف وهو يشير إلى السماء « حسنا يا جيهان ، إنك نسيت شيئا هاما جدا ، إن الله معى » .

وأجبت : « نعم ، أنا متأكدة أن الله معك ، ولكن الله لا يساعد أولئك الذين لا يساعدون أنفسهم ، لعل الله لا يرضى عن سكوتك . والله يقول لعباده اعملوا وسأكون معكم . لا يكفى يا أنور أن تقول إن الله معى » .

ولكن أنور استمر فى الابتسام وقال : « إنى لا أقول هذا ياجيهان طبعا ، إنى آخذ الخطوات اللازمة ولكن فى هدوء ، إن صبرى لا ينفد مثلك ، كما أنى

لا أهتم بكلمات التهديد الجوفاء . وحين يأزف الوقت سترين أنى سأكون محظوظا » . وسألته ـ وأنا أريد أن أطمئن بأن لديه خطة « كيف يمكننى المساعدة ؟ » .

فقال : اطلبى من هؤلاء الذين يوصلون اليك هذه الشائعات أن يكتبوها ويوقعوا عليها ويسلموها لى .

وشعرت بالراحة ، معتقدة أنه يخبرنى بطريقة غير مباشرة بخطته للقبض على هؤلاء المتآمرين ، ولاستعمال التقارير التى تحتوى على أكاذيبهم كدليل ضدهم . وفى اليوم التالى سألت سيدة عضوا فى مجلس الشعب بأن تكتب ما أخبرتنى به وتوقعه . . وكتبت بكل أمانة : « إن الوزراء الذين تحدثوا فى الاتحاد الاشتراكى أعلنوا أن قيادتنا ضعيفة ، وأنهم لا يثقون فى القيادة ، وأن سياسات مصر فى الفترة الأخيرة ضد كل ما كان عبد الناصر يمثله » .

وحين أعطيت أنور التقرير قال « هذا حسن ، سأعرض هذا التقرير على وزير الداخلية » .

وزير الداخلية ؟ زعيم المعارضين ؟ وصرخت من الصدمة قائلة : « أنور ، كيف تفعل هذا ؟ إنك بذلك تضع فى فم الأسد تلك السيدة الطيبة التى ساعدتنا باعطائنا هذه المعلومات » .

ولكن أنور كان حازما وقال : « إنى أعرف ما أفعله » .

كنت أعرف أن زوجى صاحب مبادئ ، ولكن لماذا يحرج الرجال والنساء الذين يحاولون مساعدتنا ، باطلاع العدو على هذه المعلومات .

وفهمت أخيرا استراتيجيته ، فأنور باطلاعه الوزراء المعادين له على هذه التقارير الخطيرة يريد أن يخبرهم أنه يعرف نواياهم ، وأن يبين لهم أنه واثق من نفسه ، فهو يعرف ـ وهم أيضا يعرفون ـ أنه كرئيس للجمهورية يتمتع بالسلطة العليا ، وأن فى إستطاعته اعتقالهم فى أى وقت يختاره هو . ولكن لنفرض أنه أصدر مثل هذه الأوامر ، هل سيكون ولاء الجيش لأنور أم لعدوه وزير الدفاع ؟

وفى صباح أحد الأيام قالت لى إحدى جاراتى « إن الضابط الذى أرسله زوجك إلى بيتنا أمس كان لطيفا جدا » ضابط ؟ أى ضابط ؟ فقالت « لقد جاء ومعه وزير الداخلية وسأل إن كان يستطيع مراقبة منزلك من طابقنا العلوى » . وقد قالوا : « إنهم يريدون الوصول إلى أحسن الوسائل للدفاع عن منزلكم ضد أية محاولة للاعتداء على زوجك » .

وعبرت لها عن شكرى فهى تعتقد أنها قدمت لنا خدمة جليلة ، ولكنى شككت فى أن الحقيقة كانت شيئا مختلفا تمام الاختلاف . إنهم يبحثون عن أحسن الوسائل للهجوم حين يأتون لاعتقال أنور .

لم أشعر بمثل هذه الوحشة من قبل . لم يكن معنا أى انسان نتوجه إليه . ولا حتى نتحدث معه . وانتقلت إلى حجرة أنور فى الليل وشعرت أنى أكثر أمانا بجواره وبجوار المسدس الذى يضعه دائما بجانبه . وقلت له « أغلق الباب بالمفتاح » فسأل « لماذا ؟ إننا لم نفعل هذا من قبل » فرجوته قائلة « ولكن يجب أن نفعل هذا الآن » .

ونظر إلى بطريقة ساخرة أثارت غضبى ، فاندفعت قائلة « على الأقل حين يأتون للقبض عليك فى منتصف الليل لن يستطيعوا الدخول إلى حجرة النوم مباشرة ، وبذلك يكون لديك الوقت الكافى لتصحو وتعد مسدسك . وبذلك يمكن قتل إثنين أو ثلاثة منهم قبل أن يقتلوك » .

فقال أنور « يا جيهان ، إن خيالك سيقتلنا جميعا » ، ولكنه لم يقل شيئا حين قمت وأغلقت الباب بالمفتاح .

كان الناصريون يأخذون منى موقفا معاديا أيضا ، فمنذ البداية كانوا ينتقدوننى ، بل وحتى يقومون ضدى بأعمال تخريبية ، وذلك بسبب الدور الاجتماعى العام الذى أخترت أن أقوم به . وحين جلست مع السيدة حرم الرئيس عبد الناصر فى عزاء زوجها ، كنت أتصارع نفسيا مع الاختيارات التى أمامى ، فكزوجة رئيس الجمهورية الجديد ، هل سأسير على خطى حرم الرئيس

عبد الناصر التقليدية ، فأبقى دائما فى البيت وأعرف كزوجة وأم طيبة مؤدية الحد الأدنى من الالتزامات الاجتماعية ؟ أم هل سأستمر فى خدمة الشعب ؟

كنت أعرف أن أى شىء أفعله سيكون موضع خلاف ، إذ لم يسبق لزوجة زعيم فى بلدنا أن عملت خارج البيت ، بينما نجد النساء فى مصر القديمة كن ينلن الاحترام الكبير بصفتهن قادة ، فالملكة حتشبسوت أرسلت حملات حربية أقامت سلطان مصر على الصومال وجيبوتى ، وكدليل على قوتها أمرت (بنقش) صورها على قبرها الكبير فى الاقصر ، ولها لحية كالرجال ، ولم تأخذ المرأة المصرية مكانا متخلفا إلا فى العصور الحديثة ، ومعظمهن قبلن هذا الوضع .

ولكنى لا أستطيع ولا أنوى أن أتنازل عن العمل الاجتماعى الذى بدأته ، كنت أشعر أن الله قد أعطانى القوة لمساعدة الآخرين والقدرة على تفهم مشاكلهم والعمل معهم . وكزوجة لرئيس الجمهورية الجديد أستطيع أن أكون الصلة بينه وبين الجمهور ، مشاركة لهم معاناتهم ودارسة لمشاكلهم . وكنت أعرف أن البعض سينتقد عملى وأن الهجوم سيوجه إلى أنور أيضا لأنه سمح لى بالظهور فى المجتمع . وقد صممت على أن أتجاهل هؤلاء الذين يعارضون دورى ، وأما كيف استعمل هذه العطية التى منحنى الله إياها فهو أمر متروك لى .

وقد بدأت فى الحال مواجهة هؤلاء الذين يتشبثون بالعادات القديمة . فبعد ترشيح أنور رئيسا أقيم حفل استقبال فى قصر عابدين للسفراء الأجانب . وكان هذا تقليدا متبعا ، ولكن الرسالة التى وجهها أنور لم تكن كذلك ، فقد قال أنور للدبلوماسيين « قولوا لرؤسائكم إن مصر تريد السلام ولكننا لن نقبل أن تكون اراضينا محتلة » .

ولكى يبين أنور للعالم أن إدارته ستكون مختلفة عن غيرها ، فإنه قام بعمل لم يسبق له مثيل ، فعندما دخلت مع زوجى إلى حفل الاستقبال طلب منى أن أسير بجانبه وليس على بعد خمس خطوات بعده كما كانت حرم الرئيس عبد الناصر تفعل دائما . وزيادة على ذلك فعندما وقف طابور الاستقبال جعلنى أنور قبله بحيث يصافحنى الضيوف قبل أن يصافحوه ، وحتى أنا ذهلت لأنه لم يحدث أن

زعيما عربيا أبدى مثل هذا الاحترام لسيدة من قبل ولكن أنور أراد للعالم أن يعرف أن مصر ستكون من الآن تحت قيادة جديدة وحديثة . ولم تتوقف أضواء التصوير عن تسجيل هذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل . وبدأ رد الفعل .

وهمست حرم وزير الداخلية الى « لا تخدمى الضيوف بنفسك » ـ وكنت أقدم طبقا إلى دبلوماسى أجنبى ـ « أنت زوجة رئيس الجمهورية » . وكانت تعتقد أن عملا كهذا يقلل من مركزى ، بينما شعرت بالعكس وبأنى مؤمنة برسالتنا الجديدة حول المساواة . وقلت لها وأنا أبتسم لها بينما مضيت فى مساعدة الضيوف الأجانب « وماذا يضيرنى من أن أكون مهذبة ؟ إنى أريد أن أبدأ هنا بما سأفعله مع ضيوفى فى بيتى . وإذا رأى ضيوفنا الأجانب هذا السلوك المهذب منى فإنهم بدورهم سيحترموننى » . ومرة أخرى عادت الأضواء فى أنحاء الغرفة .

وجاءت المواجهة فى اليوم التالى ، فقد كان من النادر نشر صور زوجات الملك فاروق ، كما كان من النادر نشر صورة لحرم الرئيس عبد الناصر ، والمفروض ألا تنشر صور لى أيضا . وأظهرت الصور التى نشرت فى اليوم التالى زوجات السفراء وأزواجهم وزوجى يقف ليستقبل الضيوف ويدى بجواره فقط ، وقد أثارت هذه الصورة غضبا فى نفسى . فلن يخيب ظنهم ، وفى الحال اتصلت تليفونيا بسكرتير زوجى فوزى عبد الحافظ وقلت له « اطلب وزير شئون رئاسة الجمهورية واسأله لماذا حذفنى من الصور . . أخبره أنه يجب أن يشعر بالفخر من نشر صورة حرم رئيس الجمهورية فى الصحف وأن لا يزيل صورتى مرة أخرى إلا بإذن منى » .

وأجاب فوزى فى تردد « حسنا يا سيدتى » كان يجب أن أعرف من نبرات صوته أنه يريدنى أن أهدأ ، ولن يوصل مثل هذه الرسالة .

وبعد مرور ساعة كنت أستقبل الضيوف فى الدور الأسفل بمنزلنا حين اتصل بى فوزى قائلا : « إن وزير شئون رئاسة الجمهورية فى طريقه إليك يا سيدتى » .

وسألته : هل نقلت إليه الرسالة ؟

فأجاب : لا

وضغطت عليه قائلة : « أقسم . . هل أخبرته ؟

فاجاب : أقسم إنى لم أفعل .

فقلت : إذن ما تقوله لى الآن أسوأ بكثير .

فسأل فوزى : لماذا ؟

فقلت : هذا معناه أن تليفوناتنا مراقبة . كيف يعرف إذن ما أساءنى دون أن تخبره ؟

كان تفسير الوزير لعدم نشر صورتى مضحكا بقدر ما كان الوضع منذرا .

وقال سامى شرف حين وصل إلى المنزل : إنى آسف يا سيدتى لعدم نشر صورتك . فقد كنت أفكر فى قواتنا الذين يقاسون فى الصحراء على الجبهة منذ أربع سنوات ، ماذا يقولون حين يشاهدون صورتك ؟

فسألته : وما هو الخطأ فى مشاهدة حرم رئيس الجمهورية ؟

وقال سامى شرف دون أن ينجح فى إقناعى : سيعتقد الجنود أنهم بينما يعانون من أجل وطنهم يقيم زعماؤهم الحفلات فى القاهرة .

وأجبته : حفلات ؟ أى نوع من الحفلات ؟ كنا نقوم بواجب استقبال السفراء ولم نكن نرقص أو نستقبل أصدقاءنا . إن هذا جزء من عملنا .

واستمر قائلا : لم أرغب فى جرح شعور قواتنا .

وقلت له فى حدة : ليس فى هذا جرح لشعور أحد . . أتعتقد أن من الضرورى أن أقبع فى البيت وأضع حجابا حتى لا يرانى أى رجل ؟

فقال : إنى آسف يا سيدتى وإنى متأكد أن المجلات ستنشر صورتك .

فسألته : ولماذا يكون نشر الصورة فى المجلة ممكنا وليس فى الجرائد ؟ ولم يستطع المسكين أن يجد لذلك تفسيرا . .

وتبع ذلك حادث آخر ، فقد كانت حكمت أبو زيد وزير الشئون الاجتماعية ، وهى المرأة الوحيدة فى الوزارة ، قد دعتنى إلى حفل استقبال لأول

إمرأة فضاء ، وكان عشاء جميلا ولكن ما قالته حين اتصلت بى بعد أيام قليلة أثار القشعريرة فى جسدى ، قالت إنها أرسلت إلى برقية تسأل فيها إن كان لدى رسالة تتولى هى نقلها إلى تجمع نسائى فى الخرطوم ؟ برقية ، إنى لم أتلق برقيتها هذه وسرعان ما اكتشفت أن وزير شئون رئاسة الجمهورية أخفى البرقية ليمنعنى من أن أبدى نشاطى فى المجتمع أوحتى المشاركة فى إرسال رسالة للمرأة السودانية والتقرب منها .

وشعرت بغضب شديد وأرسلت فى الحال فى طلب الوزير سامى شرف الذى إدعى أنه لم يتلق تلك البرقية ، ولم يجد الوزير البرقية ويرسلها إلى مكتبى إلا بعد ما شاهد ما أنا عليه من تصميم . لقد صار من الواضح أن على ـ مثل أنور ـ أن أحارب أعداء فى الحكومة تتزايد سلطتهم يوما بعد يوم ، كان رأى الناصريين أن الزوجة الصالحة تبقى فى بيتها ولا يكون لها أى نشاط .

ولكنى لم أوافق على ذلك ، لقد تعود الرجال المصريون لأجيال طويلة أن يعاملوا المرأة كجزء من ممتلكاتهم ، كانسان آلى مهمته أن يطيع ولا يرى ، ولم يكن هناك أى أساس لهذه المعاملة .

لا يوجد أى شىء فى ديننا يفرض خضوع المرأة الكامل ولا يوجد فى أية سورة فى القرآن ما يفرض على المرأة البقاء فى عقر بيتها وعدم المشاركة فى الحياة العامة ، إن القرآن يسوى بين الرجل والمرأة فى الحياة والموت ، فى الثواب والعقاب ، فى جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، فى العمل للدنيا والعمل للآخرة .

لا يوجد أى نص فى كتابنا المقدس أو فى تعاليم سيدنا محمد ما ينقص من مكانة المرأة المسلمة . إنها تقاليد قرون طويلة من سيادة الرجل فى العالم العربى . وقد أصبح الخضوع لسيطرة الرجل عادة لأجيال من النساء المسلمات ، والعادات يمكن أن تنتصر دون أن يكون لها أساس سليم . فأين نبدأ إذن ، فى أسيوط . هذه هى المدينة التى يجب أن أذهب إليها . وكنت أعرف أنه لكى أواجه

المعارضة الرسمية لنشاطى سأحتاج إلى تأييد أكثر المتدينين منهم . وأسيوط مشهورة بوجود أكثر المتطرفين فيها سواء من المسلمين أو الأقباط ، وبظهور الملابس الاسلامية : الحجاب للمرأة والجلباب للرجل . وكان المتدينون فى أسيوط ـ مثل نظرائهم فى جميع أنحاء العالم ـ من أشد الناس مقاومة لأى تغيير ، وإذا استطعت أن أكسب تأييد عدد من شيوخ أسيوط ، والجماعات الاسلامية فى الجامعة والأقباط فانى أكون قد كسبت نصف المعركة .

ولم أعد كلمة رسمية مكتوبة أو حتى بعض نقاط المحاضرة . كنت أريد أن أدافع عن قضيتى من قلبى أمام هذا الجمهور المتشدد ، ولكن لابد أن أعترف أن عزيمتى قد أحبطت حين وجدت أن معظم الجمهور من الرجال . وقلت : « لقد جئت إلى أسيوط لأنكم من أكثر الناس محافظة . . إنى أعترف . . . . » .

وذهبت من أسيوط مباشرة إلى الجبهة فى السويس لكى أرى بنفسى ماذا سيكون رد الفعل لزوجة رئيس الجمهورية التى تريد أن تساهم فى العمل الاجتماعى لأول مرة فى مصر ، وماذا سيكون وقع هذا على القوات المسلحة ، وهى عنصر هام فى الدور الذى أريد أن أقوم به فى مصر . وذكرتهم أن تاريخ الاسلام ملىء بنماذج نسائية مشهورة بقوتها وشجاعتها . فمثلا نسيبة بنت كعب الأنصارية حملت السيف وشاركت فى الغزوات الاسلامية ضد المشركين ، وقضت على رجل كان على وشك قتل الرسول ، كما حاربت أم مسلمة أخرى إلى جوار الرسول وذهبت إلى القتال وهى حامل . وقامت السيدة عائشة زوجة الرسول بركوب جملها والدخول فى المعركة ولم يوجه إليها أى نقد . كان الرسول قد رأى فى عائشة مثلا يحتذى وقال للمسلمين « خذوا نصف دينكم عنها » .

وأخبرتهم أيضا أن هذه النماذج ليست وقفا على الماضى وحده ، وذكرتهم بالبطلة الجزائرية جميلة بوحريد ، التى قامت مثل غيرها من النساء الجزائريات بتهريب القنابل والأسلحة للثورة الجزائرية التى كانت تناضل ضد فرنسا . وقد اعتقلت جميلة وتعرضت للتعذيب من الفرنسيين ، ولكنها رفضت الافصاح عن هوية الفدائيين الآخرين . وقلت لأبنائنا فى القوات المسلحة « ومثل الجزائريين ،

نحن نكون أسرة واحدة فى مواجهة الأخطار . إن واجبنا كزوجات وأمهات أن نعرفكم أننا مقدرون لما تجاهدون من أجله ، وأنكم تتحملون المشاق فى هذه الصحراء من أجل مصر » . لقد كان رد فعل الجنود مشجعا تماما ، كما حدث فى أسيوط وقالوا فى صوت واحد « الله معك » . وعدت إلى القاهرة وقلبى عامر بالثقة .

وكنت أعرف أين سأواجه المعارضة للدور الجديد الذى أحاول أن أخلقه للمرأة ، وسرعان ما اكتشفت مدى جرأته ، وبمجرد أن عدت من الجبهة نظم الطلاب المتطرفون فى جامعة القاهرة مظاهرة ضدى ، واتهمونى بأن ظهورى أمام عدد كبير من الجنود عمل مخجل ، وجعلوا يكررون « حكم ديان ولا حكم جيهان » . ولم أصدق أذنى : هل حقا يفضل هؤلاء الطلبة وزير الدفاع الاسرائيلى موشى ديان لأنه رجل ؟ لقد صدمت حقا ، ولكن منذ البداية كنت أعرف أنه لابد أن أتعلم كيف أتقبل النقد إذا أردت أن أحقق شيئا جديدا لم يحدث من قبل ، وهو أن تشارك زوجة الرئيس فى العمل الاجتماعى بهذا القدر .

وبدأت زوجات الرجال الذين حبسوا فى عهد عبد الناصر يفدن إلى بيتى كل يوم ، ومعهن تظلمات يطلبن فيها الافراج عن أزواجهن ، وكنت أقابل كل واحدة منهن ، وبدأت حملات النقد توجه إلى من جانب الناصريين الذين كانوا وراء حبس هؤلاء الرجال ، وقالوا إن حرم الرئيس تضيع وقتها مع من لا يستحقون ، ولكنى لم أهتم بذلك ، وقلت لفوزى عبد الحافظ سكرتير زوجى : « قل لهؤلاء الذين يكررون هذا النقد إنى هنا لكى أقابل كل من له حاجة ولم أنقطع عن مقابلة هؤلاء الزوجات ، وكنت أسلم تظلماتى إلى مكتب أنور لكى تعرض عليه ، وقد أطلق فيما بعد سراح هؤلاء المسجونين مع ألوف غيرهم ، حين بدأ زوجى يضع لمصر تدريجيا مبادىء الديمقراطية .

واستطعت بطريقة ما أن أداوم على زيارة زوجات الوزراء المعارضين لنا ، متظاهرة طول الوقت أنى لا أعرف أى شىء من نوايا أزواجهن للتخلص من أنور ، وبينما كنا نتبادل الحديث حول أولادنا وكأنما لا يوجد شىء آخر فى أذهاننا كنت

أنصت لأى دليل أو أى زلة لسان تزيح الستار عن مؤامرات أزواجهن . كنت أقاسى من صراع فى داخلى وأنا أتناول المشروبات المثلجة ، وأتحدث مع هؤلاء السيدات اللاتى عرفتهن كصديقات طول هذا الوقت - يا ترى هل يعرفن الخطط المخيفة التى يدبرها أزواجهن ؟ ووجدت راحة فى أحد الامثال المفضلة إلا وهو « من حفر حفرة لأخيه سقط فيها » .

وفى أول مايو بدأت الأزمة فى الظهور على السطح ، فبسبب علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى ، كان هذا اليوم - عيد العمال - يحتفل به جميع عمال مصر ، وكان على أنور أن يلقى خطابا بتلك المناسبة ، وكذلك وزير العمل والمحافظ ورؤساء نقابات العمال ، وكانت مصر كلها تشاهد ما يحدث على شاشة التليفزيون ، وأنا أيضا ، ولكن ما شاهدناه كان شيئا مريعا .

ففى كل مرة يصفق الجمهور لأحد المتحدثين كان الرجال الذين يحتلون المقاعد الأمامية يرفعون صورا كبيرة لجمال عبد الناصر ، وكانت الفكرة هى أن يقولوا للملايين الذين يشاهدون التليفزيون أن السادات لا يعد شيئا بجوار عبد الناصر ، لا تأبهوا لما يقوله لكم ، ولا تنصتوا إلا لهؤلاء الذين بقوا أوفياء لقائدنا العظيم . لم أستطع أن أصدق ما أرى ، لقد امتلأت الصفوف الستة الأولى برجال اختارهم الوزراء ضد زوجى .

شعرت بشبه رعب ورأيت أن المؤامرة أصبحت علنية الآن ، ومنظمة أيضا ، لأن صور عبد الناصر رفعت فى وقت واحد . لقد عرف الشعب المصرى الآن أن وزراء السادات يقفون ضده . هل هذا يعنى أن أنور قد قضى عليه ؟ أم هل هم الذين قضى عليهم ؟ وحين وصل أنور إلى البيت أسرعت اليه وصحت : « هل رأيت ما يفعلون ؟ » فقال لى بكل هدوء : « نعم يا جيهان » . وفى اليوم التالى أقال على صبرى ، وهو واحد من نائبى رئيس الجمهورية والداعية الأول للاتحاد السوفيتى . وهكذا بدأ السباق . وكنت حين أستيقظ كل صباح فى حجرتنا المغلقة ، أشعر بالدهشة لأن أنور لا يزال حيا . وكنت كل يوم أقول لحراسه : « اهتموا بالرئيس وكونوا حذرين » . ولم ينقطع الناس عن الحضور إلى منزلنا ليل

نهار ومعهم آخر الشائعات المنتشرة . وكانت أسوأ رسالة هى تلك التى أحضرها « محمد حسنين هيكل » رئيس تحرير الاهرام قال : « يا سيدتى أقسمى ألا تكررى لأحد ما سأقوله لك الآن . إن الرئيس يبدو هادئا لدرجة أنى لا أعتقد أنه يعرف ، ويجب ألا يذهب زوجك إلى مبنى التليفزيون ، فهناك أوامر بتطويق المبنى خوفا من أن يقرر الرئيس إذاعة تفصيلات المؤامرة التى تحاك ضده على الشعب . وهناك أوامر بالقبض عليه إذا حاول ذلك ـ أى دخول المبنى » .

وأسرعت إلى فوزى عبد الحافظ ، وكان مسئولا عن أمن أنور وقلت له : « لا تدع زوجى يذهب إلى مبنى التليفزيون . لا أستطيع أن أذكر لك السبب أو كيف عرفت ذلك ، ولكن سيواجهه خطر كبير إذا ذهب هناك » . وقال فوزى وقد تجهم وجهه : « حسنا يا سيدتى » .

وبعد عدة أيام أعلن أنور أنه سيزور يوم ١٣ مايو مديرية التحرير ، حيث توجد تجربة أولية لاستصلاح الأراضى ، ورجوته قائلة : « أرجوك يا أنور أرجوك ألغ هذه الرحلة إذ ينتابنى إحساس بأن شيئا فظيعا سيحدث فى التحرير ، ربما يعدون لك كمينا ويقتلونك » . ولا أدرى إن كان أنور قد صدق إحساسى هذا ، ولكن المهم أنه ألغى الزيارة ، وقال لى : « لدى مشاكل عديدة هنا فلا داعى لأن أذهب الآن » .

كاد رأسى ينفجر ، فالأخطار حولنا من كل جانب ، وأنور يأخذ الأمور بهدوء شديد ـ إنه لا يزال يرفض التحرك ضد أعدائه ، برغم إحساسى وبرغم التحذير المفتوح الذى يتلقاه ، كان أنور يشعر بأنه لا توجد لديه أدلة ملموسة للمحاكمة .

رجوته أن يكون حذرا . ولكنه استمر فى هدوئه وقال : « هذه دولة القانون ، ولن ألجأ إلى العمليات البوليسية القديمة ، مثل الاعتقال إلا إذا كانت فى يدى أدلة اتهام صريحة » .

وجاءت الأدلة يوم ١١ مايو . فقد دخل فوزى إلى الصالون الذى كنت فيه مع أختى وزوجها وهو عضو فى مجلس الأمة ، وكان ذلك قبل العشاء وقال لى :

« يا سيدتى يجب أن أتحدث اليك فى الحال » . وخرجت إلى الصالة . وقال فوزى بهدوء : « هناك ضابط شرطة يدين بالولاء لزوجك وقد أحضر شريط التسجيل هذا ، وهو حديث بين فريد عبد الكريم ومحمود السعدنى ، وهو يزيح الستار عن مؤامرة للاطاحة بالنظام وقتل الرئيس » ، فقلت « الله يكرمه . ولكن علينا أن نتحرك ، فقد يكون هناك جواسيس بين العاملين هنا . علينا أن ننتظر حتى تخرج أختى وزوجها بعد تناول العشاء ، ثم ننصت الى الشريط » .

وجلست فى ألم طوال المساء أتناقش مع أختى وزوجها فى الموقف السياسى دون أن أذكر شيئا عن الشريط . وقد انضم الينا أنور بعد ذلك ولم يكن يعرف شيئا . كم كنت متلهفة على عودة أختى لبيتها ، لكى نستمع إلى الشريط لأهميته . ولم يخرج الضيوف إلا قبل منتصف الليل بقليل . وأخبرت أنور بما حدث . وصعدنا معا إلى الشرفة فى الطابق الثالث ، حيث أحضر فوزى عبد الحافظ الشريط . وكانت الحلقة أكبر من جهاز التسجيل الموجود وقلت لأنور : « عندنا جهاز أكبر فى البدروم . . سأذهب واحضره » ونزلت بهدوء إلى البدروم فى المنزل وأخذت أبحث وأنا أتصبب عرقا ، وأخيرا عدت ومعى الجهاز المطلوب .

وارتعدت حين امتلأ الجو بالكلمات القاسية . إن هؤلاء الشياطين يخططون لقتل زوجى ، زعيم حزبهم ورئيس بلدهم . وارتعدت حين سمعت فريد عبد الكريم رئيس الاتحاد الاشتراكى فى الجيزة يقول للصحفى وعضو الحزب محمود السعدنى عن نية أنور زيارة مديرية التحرير : « سنتخلص منه حين يذهب إلى مشروع الاستصلاح » . . وتسمرت فقد كان إحساسى صادقا واستمر التسجيل الذى يثبت الجريمة : « وما الذى يحدث إذا ذهب الى مبنى التليفزيون ليوجه خطابا إلى الشعب ؟ هل هناك ترتيبات لهذا الاحتمال ؟ ، وجاء الرد : « طبعا ، إن حراسنا سيمنعونه من الدخول ، وسيقبضون عليه فى الحال » .

ولهثت مرة أخرى وقلت لفوزى : « هذا بالضبط ما قاله لى « هيكل » ، وأوقف أنور الجهاز وسألنى غير مصدق ، وقد كسا الغضب وجهه : « هيكل قال

لك هذا ؟ هل كنت تعرفين هذا من قبل ولم تخبريني ؟ » .

فاعترفت قائلة : « نعم » .

وسألنى أنور بصوت مرتفع : « لماذا يا جيهان لماذا ؟ » فقلت : « لأن هيكل جعلنى أقسم ألا أكرر ما قاله لأى إنسان » . وقلت لفوزى أن يبعدك عن مبنى التليفزيون ، لأنى كنت أعرف أنك ستمنع من الدخول . »

فصرخ أنور : « ومن الذى يجرؤ على هذا ؟ إن الاستيلاء على مركز الاتصالات القومى ومنع الرئيس من توجيه خطاب إلى الشعب ما هو إلا مؤامرة حقيقية . إن الكلام شيء . ولكن هذا العمل شيء آخر . يجب أن أتحدث إلى هيكل فى الحال » .

لم نستطيع أن نتصل به تليفونيا ، فقد كان تليفونه وأيضا تليفوننا مراقبا ، وكان الوقت الواحدة صباحا ، ولكن هيكل يسكن بالقرب منا .

وفى صبيحة اليوم التالى أيقظت ابنتنا ذات الثلاثة عشر عاما وقلت لها : « أسرعى يا نهى وأخبرى هيكل أن أباك يريده فى الحال . وسرعان ما عادت نهى مع هيكل » .

وسأل أنور هيكل : « محمد ، لقد أخبرت جيهان عن مؤامرة بمبنى التليفزيون . لماذا لم تخبرنى ؟ » وكان رد هيكل مترددا وكأنه لا يريد أن يضع مصيره فى أى الجانبين : « كنت أريدك فقط أن تكون أكثر حذرا » .

وكان الشريط يحتوى على كل الأدلة التى يحتاج إليها لاثبات محاولة إنقلاب ، وصار من الواضح الآن من ضدنا ومن معنا .

وفى اليوم التالى ١٢ مايو أعد أنور العدة لمقابلة بالجيش وكان أنور متأكدا من ولائه ، وأنه محبوب منهم أكثر من وزير الدفاع محمد فوزى ، الذى كان من قواد المؤامرة . وكان أنور يعرف أيضا أن هذا الاجتماع يعد مواجهة دقيقة ، فسيكون هناك محمد فوزى وزير الدفاع ، وسيعرف الجميع أن من يملك ولاء

الجيش يسيطر على مصر .

وقال أنور بتأكيد فى الاجتماع ، مواجها تحديات أعدائه السياسيين : « لن أسمح بتكوين مراكز قوى أو ببدء أى صراع حول السلطة ، إنى سأقدم أى شخص تسول له نفسه العمل ضد مصالح مصر إلى المحاكمة » .

وارتعدت وأنا أشاهد على شاشة التليفزيون وجه وزير الدفاع المتحجر الذى كان يجلس بجوار زوجى ، كان التوتر رهيبا ، ما هو رد فعل الجيش ؟

وبدأ الضباط فى الهتاف « يحيا السادات » وكان تأييدهم لأنور ساحقا . لم يقدر أحد مدى تعب الضباط من دولة البوليس أيام عبد الناصر .

والآن عرف الجميع أن الازمة قد وصلت إلى نقطة الغليان ، وفى اليوم التالى ، ١٣ مايو أقال أنور وزير الداخلية شعراوى جمعة ، وكان أيضا من قادة المؤامرة . كما أستدعى اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى ، وكانت مهمته الوحيدة هى حماية الرئيس وكان يتلقى تعليماته من الرئيس مباشرة ، لا من مجلس الوزراء . وكان ولاء الحرس الجمهورى من الأمور الحساسة خاصة أن المواجهة أصبحت وشيكة الحدوث . وبرغم أن أنور كان يعرف أن الليثى ناصف رجل مبادىء ، يضع ثقته فى الله ، إلا أنه كان يعلم أيضا أنه خدم عبد الناصر بكل ولاء ، وانه عمل لسنوات عديدة مع جميع الوزراء المتورطين فى المؤامرة . لم يكونوا زملاء له فقط بل كانوا أصدقاء مقربين .

كنت جالسة فى شرفة حجرة المكتب حيث سمعت زوجى يتكلم مع الليثى .

وسأله أنور : « ليثى ، إذا طلبت منك إلقاء القبض على الوزراء فهل تستطيع أن تفعل هذا ؟ »

فأجاب الليثى ناصف بلا أدنى تردد « نعم يا سيادة الرئيس ، إن واجبى هو أن أفعل أى شىء تطلبه منى » .

وسأله أنور : « هل لديك ما يكفى من قوات ومن معدات حربية لتلقى القبض على كل منهم فى بيته ؟ »

وأجاب القائد « إنى مستعد » ، ولكن هل كان حقا مستعدا ؟ كان أنور وأنا نعلم أن ناصف لابد أن يشعر بالتمزق ، وعلى الرغم من أنه قد يعلم أن الوزراء مخطئون ، إلا أنهم جميعا أصدقاؤه منذ أمد طويل.

وحذره أنور قائلا « لا تخبر أحدا بهذا الحديث »

وقال ناصف « بالتأكيد لن أفعل هذا يا سيدى الرئيس » .

وقام المتآمرون بتحركاتهم فى تلك الليلة ، وكنت أشاهد أنا وأنور أخبار العاشرة ، وهى آخر برنامج فى ذلك اليوم ، حين سمعنا طرقا على الباب . كان الطارق هو أشرف مروان زوج ابنة الرئيس عبد الناصر ، وكان يعمل فى مكتب سامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية . ورحبنا بأشرف إذ كان من أصدقائنا الشخصيين ، ولكن ما جاء به كان الورقة الأخيرة فى الانقلاب المبيت ، وهى إستقالة رئيس مجلس الشعب ووزير الدفاع ووزير الاعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية ، بالاضافة إلى استقالات عدد كبير من اللجنة المركزية واللجنة التنفيذية العليا ، وقال أشرف بشىء من الخجل : « إن الاستقالات ستذاع فى التليفزيون بعد بضع دقائق » .

وأخيرا جاء وقت الحقيقة . وكان الوزراء يعتقدون أنهم بتقديم استقالاتهم الجماعية سيخلقون أزمة دستورية يضطر حيالها أنور الى أن يقدم إستقالته أيضا كرئيس للجمهورية . وبعد التخلص منه بهذه الطريقة يعودون هم إلى مناصبهم ويتولون حكم البلاد . لقد كان توقيتهم محسوبا ، فقد خططوا لاستعمال اللحظات الاخيرة فى إذاعة التليفزيون ، حتى لا يستطيع أنور أن يرد على استقالاتهم فى الحال ، أو أن يشرح الأوضاع للشعب .

ونظر أنور إلى أشرف وهز رأسه كأنه غير مصدق .

وكان المذيع يقول « لقد وصلتنا نشرة أخبار الآن ، لقد قدم وزير الاعلام

استقالته ، وقدم وزير الدفاع استقالته وقدم وزير . . . . إلى آخر قائمة المتآمرين .

وسألت الشاب الواقف أمامنا فى حرج : « أشرف ، لماذا لم تخبرنا بذلك من قبل حتى كان زوجى يعد رده على ذلك ؟ »

فقال : « لم يدعنى الوزراء أترك مكتبى » .

وقد يكون ما قاله أشرف حقيقيا ، فهو لم يكن إلا موظفا عليه أن يطيع أوامر رؤسائه .

لقد استخف المتآمرون بأنور . وبرغم أن توقيت استقالاتهم الجماعية كان ذكيا إلا أن بقية استراتيجيتهم كانت على درجة من الغباء ، وسرح أنور وهو يشاهد التليفزيون وقال : « لقد سهلوا الأمر كثيرا بالنسبة لى . لقد أعلنوا استقالاتهم ، ولكنهم لم يعلنوا استقالتى لقد وفروا على مهمتى وقاموا بالعمل بدلا منى » .

وحملق فى شاشة التليفزيون وقال : « بصفتى رئيس جمهورية مصر العربية إنى أقبل استقالاتكم . والآن أنتم مقبوض عليكم » .

واستدعى اللواء ناصف الذى كان مستعدا لمثل هذا الموقف وقال له : « لقد جاء الوقت ، حدد إقامة جميع الوزراء وغيرهم من المتآمرين الحكوميين فى الحال ، واقطع جميع وسائل الاتصال ببيوتهم » .

ونفذ قائد الحرس الأوامر وأرسل حرسه فى الحال لمحاصرة منازلهم .

أكانت المؤامرة ضدنا على وشك الانتهاء ، أم كان التآمر لا يزال قائما ؟

وفى منتصف الليل اتصل بى فوزى عبد الحافظ تليفونيا فقال : « سيدتى هناك دبابات تتحرك تجاه منزلكم . هل أمر الرئيس بأن تأتى إلى المنزل لحمايته ؟ » .

وأسرعت إلى الحمام حيث كان أنور يحلق ذقنه استعدادا للخروج عند

الفجر ، وسألته « هل أعطيت الأوامر لكى تأتى الدبابات إلى هنا » فأجاب : « إنى لم أعط مثل هذه الأوامر » .

وأسرعت إلى التليفون وقد بدأ الخوف ينتابنى وقلت له « لا يافوزى » .

دبابات من هذه ؟ من الذى أعطى الأوامر ؟ هل استطاع وزير الدفاع أن يؤلب الجيش ضدنا ، وإلا فلماذا تأتى الدبابات إلى بيتنا إلا للهجوم واعتقال أنور ؟ كان على أن أبعد الأطفال عن الخطر الذى يزمجر نحونا فى الشوارع المظلمة . وأسرعت لأتحدث إلى كبرى بناتى لبنى . وأخذت نفسا عميقا قبل ذهابى اليها لكى لا أبدو خائفة . لقد أخفيت عن أولادى بقدر المستطاع تفصيلات المؤامرة ضد أبيهم إذ لم أكن أريد اخافتهم . فقد كانوا فى سن صغيرة ، فلبنى فى السادسة عشرة ، وجمال فى الرابعة عشرة ، ونهى فى الثالثة عشرة وجيهان الصغيرة فى سنتها العاشرة ، ولكنهم مثل بقية الأطفال كانوا يعرفون أكثر مما يعتقده آباؤهم .

وقلت بلطف : « لبنى هناك اضطرابات كثيرة هنا ، والناس يدخلون ويخرجون طول الليل والنهار . لماذا لاتصحبين اخاك واختيك إلى منزل خالتك حيث ستكونون مرتاحين » .

ونظرت لبنى إلى عينى وسألت : « هل تريدين إبعادنا لأن هنا خطراً ؟ » .

ولكن لبنى كانت متقدمة عنى كثيرا وقالت : « إنك تفكرين أن أسوأ ما قد يحدث هو أن يتعرض بيتنا للهجوم وأننا سنقتل جميعا ، أما بالنسبة إلى فإن أسوأ ما قد يحدث أن نبعد من هنا وأن تقتلا أنت وأبى . لقد تناقشنا أنا وأخوتى فى الأمر وقررنا أننا لا نريد أن نعيش بدونكما ، حتى وإن كنا على وشك أن نقتل ؛ وحتى إن قتلنا فعلى الأقل سنكون معا جميعا » وتوجهت إلى حجرة جمال ووجدت سريره خاليا وسألت لبنى « أين جمال » ؟ .

فأجابت لبنى « إنه فى الخارج ومعه بندقية » . وكانت دهشتى كبيرة واستمرت لبنى « إنه يقوم بدورية حراسة فى الحديقة منذ عدة ليال ، وذلك للدفاع

عن البيت ، مصمما أنه يستطيع أن يحمى أباه إذا جاء الأعداء » .

وأسرعت إلى الباب الخارجى لأجد « جمال » جالسا على الدرج ، وقد وضع على ركبته البندقية التى كان يستعملها فى صيد الطيور مع أبيه .

وقلت له وأنا احيطه بذراعى : « إن أباك سيفخر بك وبشجاعتك هذه ، ولكن ليس فى استطاعتك عمل أى شىء لحمايته بهذه البندقية . والآن عد إلى سريرك » .

ولكنه رفض وقال : « إنى أعرف أن البندقية ليست قوية ، ولكن فى هذا الظلام لن يعرف الأعداء ذلك . على الأقل سأستطيع أن أحذر أبى وأن أوفر له الوقت للاستعداد . وإذا رأيت غريبا يدخل من الباب سأطلق عليه النار ، وهذا سيحدث صوتا مرتفعا ، ثم سأجرى إلى أبى وأخبره أنهم قادمون قبل أن يصلوا اليه » .

وتحطم قلبى لهذا الفتى الصغير ، وهو جالس بكل شجاعة فى الظلام يحمل بندقية صيد الطيور . وحتى فى سن الرابعة عشرة كان يشعر أن واجبه هو حماية أبيه ، وأن يقدم حياته فداءه . يا لهذا العبء الثقيل الذى أورثناه لأبنائنا . وبرغم أننى حاولت منذ ولادة ابنائى أن أحميهم من قسوة المصير إلا أننى لم استطع إن الله أمر بهذه التضحية لهم مثل ما أمر بها لى ولأنور . ومن ثم ففى مساء ١٥ مايو ١٩٧١ تركت جمال على درج بيتنا وهو يحمل بندقيته ، وتركت بقية البنات فى حجراتهن . وإذا كانت الدبابات ستأتى لتصيبنا بضرر ، فمن الأحسن أن نواجه النتائج معا . وعدت إلى حجرتى وأنا أدعو الله أن يساعدنا .

ودق جرس التليفون ، وكان المتحدث الليثى ناصف ليقول لزوجى : « لا تقلق ، لقد أمرت الدبابات بالتوجه إلى منزلكم لحمايتكم ، إذا وقعت أية مشاكل ، ولكن كل شىء على ما يرام ، لقد تم إعتقال جميع المتآمرين وانتهت العملية » .

وعدت لأحضر جمال إلى داخل البيت ، ولأخبر لبنى بما حدث . وفى

الصباح سيذهب أنور إلى مبنى الاذاعة ليخبر الشعب أن الانقلاب قد فشل ، وأن المسئولين معتقلون وأن الحريات التى وعد بها مصر فى أمان .

وبعد هذا الليل المتوتر جاء صبح سعيد . وحين تحدث أنور من قلبه فى الراديو والتليفزيون خرج ألوف من الناس إلى الشوارع ينصتون له « إنى اقول لكم جميعا إنى « سأفرم » أية قوة ستعمل ضد بلدى ، وأى تهديد للحريات الجديدة التى أمنحها لكم » . هكذا تحدث بعاطفة جياشة ، وجن جنون الشعب من الفرحة وجعلوا يكررون الكلمة التى أصبحت مرتبطة باسم زوجى أثناء ما سمى بعد ذلك « ثورة التصحيح » . وكانوا ينشدون فى الشوارع جملة « أفرم يا سادات أفرم » . وسرعان ما رأينا ملصقات مرسومة باليد مع الجماهير ورسوما كاريكاتورية للوزراء الذين سقطوا فى المفرمة ، وهم يخرجون منها كاللحم المفروم . وهتفت الجماهير « نحن وراءك يا سادات » ، « نحن معك يا سادات » .

كانت الروح الجديدة مصرية ، وخلال الشهور القليلة التالية أمر أنور باغلاق جميع معسكرات الاعتقال الكريهة ، ومنع الاعتقالات التعسفية ، وأمر باطلاق سراح الآلاف من المسجونين السياسيين بما فى ذلك أعضاء الاخوان المسلمين ، ولأول مرة منذ عشرين عاما ، انتهت الرقابة . وكان أنور يحث الناس الذين كان الخوف يخنقهم ويقول : « تكلموا تكلموا » . وفى خطوة شعبية كبيرة أمر باحراق جميع الأشرطة المسجلة عليها أحاديث خاصة ، والتى تم تسجيلها أيام عبد الناصر . وكانت محفوظة فى وزارة الداخلية بإدارة المباحث .

واقيمت محاكمة للمتآمرين وحكم عليهم جميعا بالسجن المؤبد ، وكان الحدث الحزين الوحيد يخص اللواء ناصف قائد الحرس الجمهورى ، لقد قام بواجبه خير قيام فأرسل رجاله فى الحال حين طلب منه أنور اعتقال الوزراء المشتركين فى المؤامرة ، وكان واقعا تحت ضغط عصبى ونفسى وكان يتمزق بين واجبه وصداقته لهؤلاء وملأ الحزن قلبه ، وبعد فشل الانقلاب أصابته حالة من الاكتئاب العميق نتيجة للتعب الشديد الذى مر به طيلة حياته وأرسل إلى لندن للعلاج ، وهناك سقط من شرفة فى الدور الخامس ولقى حتفه .

واعتقد الجميع فى مصر أنه انتحر لعدم استطاعته التوفيق بين واجبه تجاه الرئيس وولائه لعبد الناصر ومريديه . ولكنى أعتقد أن الأدوية التى كان يتناولها ضد الاكتئاب إما أنها أضعفته وإما أنه سقط قضاء وقدرا . أو ربما تكون قد أثرت فيه لدرجة أنه قفز من الشرفة دون أن يشعر بما يفعله . لقد حزن زوجى حزنا شديدا عليه لأنه كان رجلا يتميز بالشجاعة والمبادىء .

وبعون الله عبر أنور الأزمة الأولى فى رئاسته . والآن أصبحت امامه الفرصة سانحة ليحيط نفسه بهؤلاء الذين يعملون معه وليس ضده . وحمدا لله أن أنور قد نجا ، وأن مصر قد نجت . ويستطيع زوجى الآن أن يستمر فى تحقيق ما كان يريده لبلادنا . ولكن كان على أولا أن أفى بوعدى لله خلال تلك الشهور السبعة المروعة . لقد صليت إلى الله وقلت : « أستأذنك ياإلهى ، إذا أنقذت مصر وزوجى ، فى أن أصوم شهرا كاملا تعبيرا عن عرفانى ، وسأذهب إلى بيتك الحرام لأعتمر » وقد استجاب الله لدعواتى ، وجاء الآن دورى لأفى بعهدى . وبعد أسبوعين من نجاح ثورة التصحيح سافرت الى مكة .



زوجى فى المنصة يتوسط نائب الرئيس ووزير الدفاع ، وينتظر قدره .

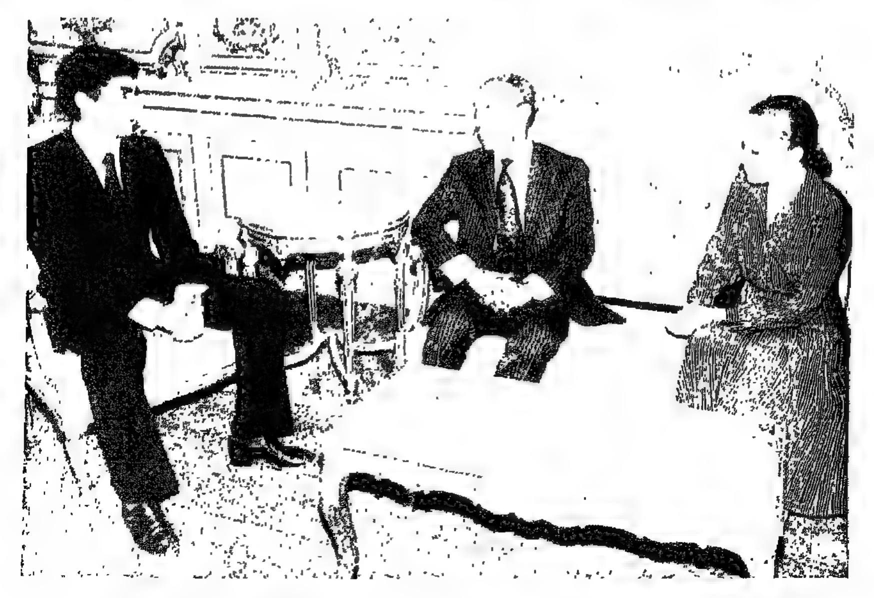


أخذت هذه الصورة يوم الاحتفال بـ ٦ أكتوبر ١٩٨١م

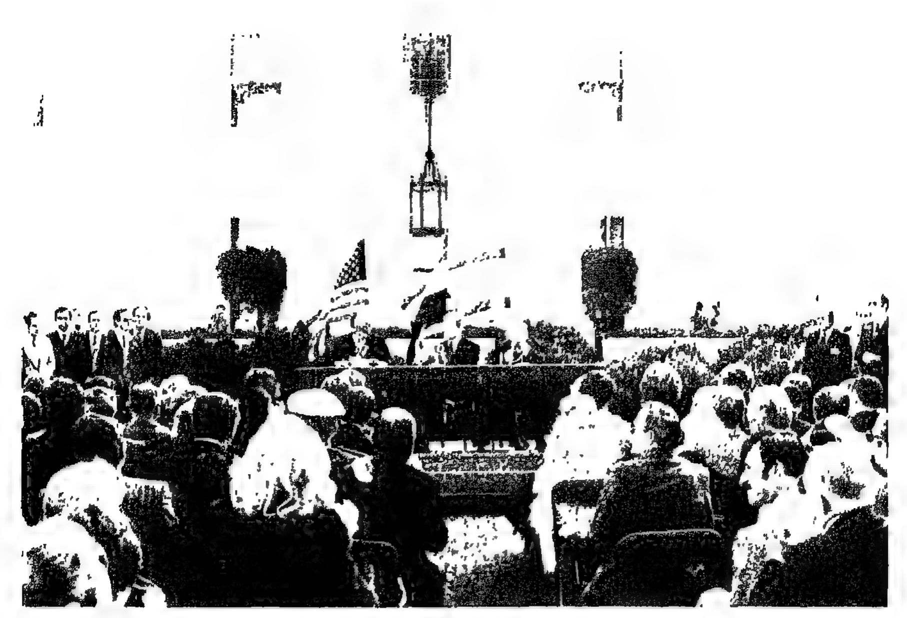
التقط بعضهم هذه الصورة لى مع شريف قبيل الاستعراض .



مع السيدة نانسى ريجان التى أصبحت من أفضل صديقاتى فى واشنطن .



كان يذهب دائما حيث ابن الشاه ووالدته عقب وفاة شاه إيران فى مصر .



جهة اليمين فى الصف الأول جلسنا معا : أنا ومسز كارتر ومسز بيجين ، وذلك عند توقيع اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٩ .



. . أن السلام مع إسرائيل ، وترحيبنا بالشاه المخلوع وزوجته أغضبا الأقلية الدينية من الأصوليين فى مصر .

مع شريف . . . حفيدى . !

. . مع جمال ودينا عند ولادة إبنتهما ياسمين !



قبيل رحلة أنور إلى القدس ، جمعتنا هذه الصورة فى الاسماعيلية ، وكان التوتر يسيطر على أعصابنا تماما ، رغم الابتسامات البادية !

عقدت صداقات عدة أثناء رحلاتى مع زوجى إلى الخارج ، ومن صديقاتى الملكة اليزابيث التى دعت أسرتى كلها للغداء بقصر باكنجهام .



. . . ومنهن السيدة روزالين كارتر التى قاسمتنى كثيرا من الهموم أثناء عملية السلام . .





زارتنى فى القاهرة الصديقة العزيزة المغفور لها الملكة عاليه ملكة الأردن



. . . كذلك زارتنى فى القاهرة السيدة صفية القذافى فى أول رحلة لها خارج ليبيا .



وفى عام ١٩٧٤ انعقد فى القاهرة المؤتمر الأول للمرأة العربية والأفريقية ، وحضره مائتا سيدة من ثلاثين دولة .

فى سن الواحدة والأربعين سجلت نفسى طالبة بجامعة القاهرة . . وفى غضون ست سنوات
تقدمت لنيل الماجستير فى الأدب العربى .



أثناء مناقشة رسالتى للماجستير . . جلست إلى يسارى بالترتيب : نانا صغرى بناتى ، ثم دينا
زوجة إبنى جمال ، فلبنى ، ثم نها ، كما شاهدنى آلاف المصريين فى التليفزيون .



بعد حرب ١٩٧٣ ، اصطحبت السيدات اللاتى تطوعن للخدمة بالمستشفيات إلى مكة بالأراضى الحجازية لنقدم الشكر لله .



بعدها سافرت إلى منطقة القناة لأشكر جنودنا المرابطين هناك .



الفصل التاسع

دم ابراهيم



على متن الطائرة المتوجهة إلى مكة ، وفى غرفتى بالفندق الذى أقمت به هناك ، كنت أردد « التلبية » بالعمرة « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . فى كل سنة يلتقى الملايين من المسلمين فى مكة ، حيث يأتون اليها بالطائرات والبواخر والسيارات فى الوقت الذى لا يزال فيه بعضهم يمتطون الأبل لعبور الصحراء . ومكة هى البلد الحرام ، والمكان المقدس الذى له المنزلة الدينية العظمى فى الاسلام ، لا يسمح بدخولها إلا للمسلمين ويحرم ذلك على غيرهم . وعندما يقوم المسلمون بتأدية فريضة الحج ، فى شهر ذى الحجة ، باعتبارها أحد أركان الاسلام الخمسة ، يتجمع فى المدينة المقدسة ما يقارب المليونين من الحجاج مما يجعل موسم الحج أكبر تجمع دولى فى العالم .

لم أذهب إلى مكة لتأدية فريضة الحج بل لأداء العمرة التى يجوز القيام بها فى أى وقت من السنة . لقد سبق لى أداء العمرة قبل عدة سنوات ، حيث ذهبت اليها وعدت

منها جوا فى ليلة واحدة بينما كان أنور فى إجتماع مع الملك فيصل بالرياض . وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ذهبت مصطحبة معى مجموعة تتألف من سبعين متطوعا كتقدير لهم على ما قدموه من عطاء . وذهبت مرة أخرى لأدائها بعد الوعكة الصحية التى أصابتنى فى عام ١٩٨٤ مصطحبة معى أولادى ومجموعة من الصديقات . ولكن هذه العمرة التى قمت بها بعد زوال خطر ربيع عام ١٩٧١ كان لها معنى خاص بالنسبة لى ، حيث أن الله استجاب لدعائى ، وحفظ حياة زوجى .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » . تناولت القرآن الذى احتفظ به دائما فى حقيبتى وبدأت بقراءة سورة الحج « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . . فى تلك اللحظات بدأت اطرد الافكار المتعلقة بحياتى ومشاكلى واخذت فى التركيز على الافكار المتعلقة بالحب والسلام . المشاكل الدنيوية يجب ألا تصاحبنا إلى الحج وكذلك العداء والنزاع اللذان قاسيت منهما فى الشهور القليلة الماضية . لقد كنت فى مكة ، كغيرى من الحجاج والمعتمرين ، من أجل التقرب إلى الله والتفكير فى وحدانيته ولاكتساب القوة على عبادته وتثبيت الايمان به .

لقد بدأت بالقيام بشعائر العمرة قبل مغادرتى لمصر حيث بدأت بالاحرام وهى حالة الطهارة . فقمت بازالة الماكياج والزينة واخذت حماما ليطهرنى وأنا متوجهة إلى بيت الله الحرام . ثم قمت بارتداء زى الحج الأبيض الطويل ووضعت على رأسى شالا أبيض لأغطى به شعرى . وبعد ذلك صليت ركعتين ثم نويت أداء العمرة وسألت الله أن ييسرها لى ويتقبلها منى .

فى مكة ، رأيت الكثير من الناس فى الشوارع يرتدون ملابس الاحرام ويشقون طريقهم عبر الأسواق التى تباع فيها المصاحف من جميع الأحجام . ورأيت التاكسيات والسيارات والأتوبيسات التى تقوم على مدار أربع وعشرين ساعة وعلى مدار العام بنقل المسلمين الى المسجد الحرام .

التقيت خارج المسجد الحرام بالمطوف ، وهو الدليل الرسمى الذى يقودنا عند آدائنا لشعائر العمرة . وعندما صعدنا السلم الرخامى الواسع للمسجد الحرام ، قمنا بترك

احذيتنا فى المدخل وكان جميع الحجاج من حولى يكبرون ويهللون . ويصفتى زوجة رئيس مصر كانت بصحبتى سكرتيرتى الخاصة ومجموعة من حراس الأمن . ولكن بالرغم من ذلك فقد جرفنى الحشد الكبير . وبدأت بالتكبير والتهليل وبالدعاء مع الداعين . وعندما وصلنا إلى الحرم الشريف بدأت أنا وجميع الحجاج بالدعاء « اللهم انت السلام ، ومنك السلام ، فأحينا ربنا بالسلام » .

لقد كان منظر الحرم فى غاية الروعة . فهناك سبع بوابات رئيسية تؤدى إلى ساحة واسعة مستطيلة تتسع لأكثر من مليون شخص وتحيط بها من جميع الجوانب اقواس واعمدة رخامية بيضاء تحمل طابقين . وهناك سبع مآذن مستديرة عالية وسقف مسطح فوق الأعمدة

منذ آلاف السنين حتى قبل ظهور الاسلام كان الحرم الشريف مكانا للتعبد وملجأ للأمن والسلام . ولا يزال كذلك حيث يخيم عليه الهدوء والسكينة ، حتى ليقال أن الطيور التى تطير فوق مكة تتجنب التحليق فوقه كى لا تسبب ازعاجا لذلك الشعور الروحى المطمئن . أن الاصوات الوحيدة التى تسمع من حين الى حين هى اصوات بكاء وضحكات الاطفال الذين لم تجد امهاتهم أحدا لتتركهم فى رعايته . ولكن هذه الأصوات محببة لى فهى أصوات الحياة .

لم اشعر بقوة الايمان وعمقه فى أى مكان آخر كما شعرت بهما هنا ، فالصلاة مع الآخرين جعلتنى أشعر بالخشوع والنشوة فى نفس الوقت . الجميع أمام الله سواء لا فرق بينهم لا بسبب أصلهم ولا طبقتهم الاجتماعية ، ولا فرق بين الرجال والنساء . فى الحرم لا يجوز للنساء تغطية وجوههن بالحجاب ولا يجوز لبس القفاز . وفى أعماق هذه الروح الحقيقية للاسلام يقوم الباكستانيون الذين ينسجون السجاد بالسجود جنبا إلى جنب مع مديرى البترول فى البحرين ، والمهندسين والمعماريين من مصر وعمال المصانع فى الاتحاد السوفيتى . ربات البيوت من افغانستان يصلين بجانب المدرسات من سرى لانكا والطبيبات من ايران ، وزوجات السلاطين والامراء العرب . وهناك معتمرون أيضا من الولايات المتحدة الامريكية ومن أوربا ، فقد شاهدت فى إحدى المرات التى قمت فيها

بأداء العمرة الملاكم العالمى محمد على كلاى حيث كان فى طريقه خارج الحرم فى الوقت الذى كنت فى طريقى لدخوله .

ان رؤيتى للكعبة وقربى من المكان الذى يربط المسلمين بعضهم الى بعض فى جميع أنحاء العالم خلقت فى نفسى شعورا عظيما لا يوصف . . . الكسوة المشهورة تغطى البناء كله . وهى عبارة عن قطعة سوداء من الحرير الناعم مطرزة بآيات قرآنية من الذهب . وعندما كنت فى مقتبل العمر كانت الكسوة تطرز وتنسج فى القاهرة . وكان اليوم الذى تحمل فيه على قافلة من الجمال متوجهة إلى مكة عطلة قومية فى مصر . أما فى هذه الأيام فإن السعوديين يقومون بنسج الكسوة فى مصانعهم وهى لا تقل جمالا عما كانت عليه من قبل .

طفنا بالكعبة سبعة أشواط بحيث تكون هى على جانبنا الأيسر ويبدأ الطواف من عند الحجر الأسود وكلما مررنا به هتفنا « الله اكبر » . لقد طفت بحذر حتى اتجنب الاصطدام بمن حولى أو الذين يحملون على المحفات من كبار السن والمرضى ، ويطاف بهم حول الكعبة لعدم قدرتهم على الطواف . وكلما اجتزنا الركن الجنوبى للكعبة كنا نكرر الدعاء الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » . وكان المئات يهرعون إلى لمس الحجر الأسود وتقبيله كلما مروا به كما فعل الرسول الكريم ، كذلك فعلت كلما مررنا بالركن الذى يقع فيه الحجر فى الكعبة .

الحجاج المحظوظون هم الذين توجه إليهم الدعوة من حكومة المملكة السعودية للصلاة داخل الكعبة نفسها . وقد حصل لى شرف ذلك مرتين ، حيث صعدت على سلم متحرك متصل ببناء الكعبة ، وذلك للدخول من خلال الباب الذى كتب عليه بالذهب آيات من القرآن الكريم . وعندما وقفت داخلها فى مكان يرتفع عن الطائفين حولها فى ملابسهم البيضاء ، خيل إلى أن الكعبة هى الشمس التى تدور حولها الأرض وأنها مركز العالم . لقد شعرت وأنا أشاهد الحجاج يطوفون كالملائكة حولها بأن الدين هو ركيزة حياتنا .

الشعور داخل الكعبة هو أعظم شعور روحى يحس به إنسان ، لقد شعرت بأننى محظوظة وأنا فى أقدس مكان يحلم به أى مسلم .

قمت بالصلاة فى الأركان الأربعة داخل الكعبة وسألت الله أن يساعد زوجى فى إسترجاع الأرض التى سلبتها إسرائيل منا ، ودعوت الله أن أكون بجانبه فى سعيه من أجل السلام ، ودعوت الله أن يمنح عائلتى والاصدقاء الصحة والعافية . لقد شعرت بأن الله قريب منى . داخل الكعبة لا شىء فيه ، وكأنه يذكرنا بما قام به الرسول فى عام ٦٣٠ م ومعه جيشه المكون من عشرة آلاف مؤمن بطرد الكفار من مكة وتحطيم أصنامهم التى كانت بداخل الكعبة وحولها ، وأعاد نشر الايمان بالله الواحد إله ابراهيم الذى أقام بناء الكعبة هو وابنه إسماعيل . منذ ذلك اليوم قام الرسول بتحريم دخول مكة على غير المسلمين وكلف المسلمين القادرين بأداء الحج مرة على الأقل فى حياتهم .

بعد الانتهاء من الطواف أدينا ركعتين فى مقام ابراهيم . . . السجود لله جعلنا نتذكر بأن الطواف ليس تعبداً للكعبة بل لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الخالد الباقى الذى لا يستحق أحد غيره العبادة . بعد ذلك غادرنا الحرم وتحركنا لنقوم بالشعائر الأخرى عند بئر زمزم والسعى بين الصفا والمروة .

فى هذا المكان الذى تقع فيه مكة ترك سيدنا ابراهيم زوجته المصرية هاجر وابنه الأكبر إسماعيل وعاد الى زوجته سارة وإبنه إسحاق فى فلسطين . لقد قام أبناء إسحاق فى فلسطين بالدعوة إلى الديانتين اليهودية والمسيحية بينما قام أبناء إسماعيل فى الجزيرة العربية بالدعوة إلى الدين الاسلامى الحنيف . ولما كان إسحاق وإسماعيل من أبناء إبراهيم فإننا نطلق على ساره اسم أم اليهود والمسيحيين ، ونطلق على هاجر اسم أم المسلمين . ونحن جميعا مسلمين ومسيحيين ويهودا أبناء عمومة نجتمع عند أبينا الأكبر إبراهيم أبى الأنبياء عليه وعليهم السلام .

ويستطيع الحجاج أن يشربوا من بئر زمزم فى أى وقت بعد اتمامهم للشعائر فى الحرم ، ولكننى وبعض الحجاج قمنا أولا بالسعى . لقد اتبعنا مطوفنا سبع مرات ذهابا وايابا بين الصفا والمروة ونحن نقرأ القرآن وندعو الله ونهتف « الله أكبر » . وهناك علامات

على طريق السعى تدل الرجال متى يركضون ومتى يمشون ، أما النساء فلا يطلب منهن سوى المشى .

إن ظروف السعى التى نمر بها الآن أسهل بكثير من الظروف التى مرت بها هاجر . فالطريق المرصوف الآن بالرخام مكيف بالهواء البارد ، وقد ترك ممر بين الاتجاهين للذين يحملون على المحفات وللدراجات التى تحمل العجزة عن السعى . ولكن بالرغم من ذلك فإن الدرس المستفاد من ذلك ، والذى يحمل فى طياته معنى الصبر والاصرار ، لا يزال قويا . وقمنا بطلب الرحمة من الله كما فعلت هاجر وبالانتعاش من ماء زمزم بعد ذلك ، وهى مغطاة الآن بسقف رخامى جميل وبها عشرات من « الحنفيات » يسرت كثيرا سبيل الارتواء من مائها .

عندما تجمعنا حول بئر زمزم قمنا بالدعاء والتكبير ، وشربنا عدة جرعات من مياهها المقدسة وأخذنا نرش منها على أجسادنا وعلى ملابسنا . وقد قام كثير من المعتمرين بملء أوعية من مياهها ليأخذوها معهم إلى ديارهم حيث أن هناك حديثا عن النبى عليه السلام بأن « ماء زمزم لما شرب له » . بعد ذلك قمنا بقص بعض شعرنا إيذانا بانتهاء الشعائر .

لقد تمت العمرة . ولكن وقتها كان قصيرا حيث استغرقت عدة ساعات بدلا من الأيام الأربعة أو الخمسة التى يستغرقها الحج . ولكن الشعور الروحى هو نفس الشعور .

يطلق السعوديون على المليونى حاج الذين يأتون الى مكة كل سنة لتأدية فريضة الحج « ضيوف الرحمن » حيث يجب أن يكونوا فى مكة فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة ، وقد أقامت العائلة المالكة السعودية ممرا جويا خاصا فى مطار جدة التى تبعد عن البحر الأحمر بمسافة خمسين ميلا للترحيب بالحجاج ، هذا الممر الذى يعتبر اكبر مكان مقفل فى العالم يوفر الخدمات المتنوعة واللازمة للحجاج مثل تأجير الخيام ، المرشدين ، المترجمين ، الطعام ، المواصلات ، ملابس الحجاج الخاصة . ومستشفى للكبار والمرضى .

إن الشعب والحكومة فى المملكة العربية السعودية مهتمون بالخدمات الضرورية للحجاج باعتبارها التزامات أمام ربهم ودينهم وأمتهم الاسلامية .

فى موسم الحج ، يقوم الحجاج بتأدية نفس الشعائر التى قمت بها خلال تأديتى للعمرة ، وهى الصلاة فى المسجد الحرام ، والطواف حول الكعبة سبع مرات والسعى بين الصفا والمروة . وفى اليوم الثانى من أيام الحج الموافق الثامن من شهر ذى الحجة يتوجه الحجاج إلى منى التى تقع على بعد ستة أميال فى شمال مكة للمبيت هناك حيث يذهبون إليها مشيا أو راكبين سيارات . ومنى هى المكان الذى أمر الله سيدنا إبراهيم بأن يذبح فيه ابنه إسماعيل فيه . ويواصل الحجاج المسيرة شمالا فى صباح اليوم التالى لمسافة خمسة أميال أخرى متوجهين إلى عرفات وهو المكان الذى التقى فيه آدم وحواء بعد ضياعهما فى أعقاب هبوطهما من الجنة . وهو نفس المكان الذى قام فيه سيدنا محمد بالقاء خطبة الوداع قبل وفاته بأربعة شهور فى عام ٦٣٢م .

لقد جاء معنى الرسالة الاخيرة التى قام سيدنا محمد بابلاغها واضحا للملايين من الحجاج الذين يتوجهون الى عرفات فى التاسع من ذى الحجة فى كل سنة ، لقد جاءت الرسالة لتؤكد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن جميع المسلمين أخوة ، وأن هناك يوما للحساب تجزى كل نفس فيه بما فعلت ، وعلى المسلم أن يكون مستعدا لهذا اليوم بأن يقوم بما أمره الله القيام به ، وأن ينتهى عما نهاه الله عنه . ويعتبر يوم الوقوف على عرفات من أهم أيام الحج حيث يغفر الله ذنوب الحجاج وكأنهم ولدوا من جديد . وعلى جميع الحجاج أن يكونوا فى عرفات قبل الظهر حيث أن من لا يقف وقفة عرفات فان حجه باطل . يقف الحجاج فى عرفات إلى ما بعد غروب الشمس بقليل ، وقد كشفوا رؤوسهم حتى فى أيام الصيف التى تصل فيها الحرارة عادة إلى ١٢٠ درجة فهرنهيت ويمضون وقتهم فى التلبية والصلاة وقراءة القرآن . ويسمح باستعمال المظلات طلبا للظل ولحماية رؤوسهم من الحرارة الشديدة ، ولكن هذه المعاناة شهادة على ايمانهم . وبعد الغروب يتجه الحجاج الى المزدلفة وهى سهل فسيح بين الجبال يقع بين منى وعرفات حيث يستريحون ويصلون ويجمعون أحجاراً صغيرة استعدادا للقيام بشعائر الأيام التالية .

فى صبيحة اليوم التالى يبدأ الحجاج برجم ابليس . حيث يرمى كل حاج سبعة أحجار على رمز ابليس الذى يقع فى الطريق الى منى وهم يهتفون « باسم الله . الله أكبر . رجما للشيطان وحزبه » . لقد قام سيدنا ابراهيم بطرد الشيطان عندما حاول أن يقنعه بمخالفة أمر الله ويثنيه عن التضحية بابنه اسماعيل . لهذا فان مغزى الرجم هو أن كل حجر يحرر الحاج من الهموم والافكار السيئة والاغراءات الآثمة .

يتوجه الحجاج بعد ذلك الى منى للاحتفال بعيد الاضحى المبارك حيث يقوم الحجاج بآخر الشعائر بأن يذبحوا أكثر من مليون خروف وجمل وذلك فى ذكرى استعداد سيدنا ابراهيم للتضحية بابنه اسماعيل ورحمة الله فى فدائه بذبح كبش بدلا منه . ويشارك المسلمون فى جميع أنحاء العالم باحتفال الحج وذلك لمدة اربعة ايام حيث يقومون باغلاق محلاتهم التجارية وشراء الملابس الجديدة لاطفالهم والقيام بالاجازات والتنزه فى المتنزهات أوفى الريف . وكل عائلة لديها القدرة المالية على شراء خروف تقوم بالتضحية مثل الحجاج فى منى وهم بذلك يتذكرون الدروس المستمدة من الحج : التضحية ، والطاعة ، والرحمة ، والايمان .

وخلال اليومين التاليين يقوم الحجاج بالطواف مرة أخرى حول الكعبة . ويرمى الجمرات فى منى ، ويتحللون من إحرامهم ، فيقصون شيئا من شعرهم ، ويستبدلون بملابس الحج البيضاء ملابسهم العادية الملونة ، إيذانا بانتهاء الحج ، ثم يبدأون رحلة العودة إلى بلادهم . أما الذين يموتون فى أثناء رحلة حجهم فان جزاءهم الجنة ، ويكون هذا من دواعى الغبطة والسرور ، وليس من دواعى الحزن .

إن الرحلة الى مكة فى ايامنا هذه تعتبر اكثر أمانا عما كانت عليه قبل عصر الطيران ، حيث كان الحجاج يعانون من الرحلة عبر الصحراء ولكن بالنسبة لكثير منهم فان الحج هو الحلم الكبير الذى يعيشون عليه طيلة حياتهم وعندما يعودون الى ديارهم ، وكل منهم يحمل لقب « حاج » ، يقابلون بالفرحة والاحترام العظيم ، وفى المناطق الريفية بمصر تحتفل القرية جميعا برجوع من يؤدى فريضة الحج منها ، ويقوم أهل القرية بتعليق الفوانيس الملونة البراقة فى الشوارع ويرتدون احسن ما عندهم من ثياب وكأنهم ذاهبون إلى حفل زفاف ، وبفخر عظيم يقوم الحاج بتزيين باب داره بالأضواء الكهربائية

ويرسم قصة حجه على الجهة الخارجية لبيته وباستقبال الزوار الذين يقدمون له الأمانى بحج مبرور ، ويتمتع الحاج طيلة حياته بالحق فى استخدام لقبه هذا قبل اسمه الأول ، وقمة الاحترام حين يذكر الجميع بأنه قد قام بأداء الركن الخامس من أركان الاسلام وانه بهذا قد نال رضا الله .

عند رجوعى الى القاهرة بعد تأدية العمرة بدأت أشعر بالراحة والهدوء ولكن فى الوقت نفسه كان أنور يزداد ضيقا ، فالاقتصاد المصرى على وشك الافلاس ، ولايزال الاسرائيليون يحتلون أرضنا ، وكان سقوط الشهداء من الجنود المصريين ومن مقاتلى معارك التحرير مستمرا فى الاشتباكات المتقطعة على طول قناة السويس ، كانت نوافذ المنازل واضواء جميع السيارات لاتزال مطلية باللون الازرق الغامق لحجب الأنوار خلال الغارات الجوية . وفى القاهرة كانت أكياس الرمل لاتزال موجودة امام المبانى والملصقات كما هى على نوافذ المتاحف والمحلات التجارية للتخفيف من الاضرار التى قد تنتج عن القصف ، لقد كانت الظروف قاسية فى تلك الفترة التى اطلق عليها المؤرخون « حالة اللا حرب واللا سلم » كلنا كرهناها وأردنا أن تنتهى وخصوصا أنور .

لقد أعلن أن عام ١٩٧١ سوف يكون سنة حاسمة فقد أكد فى أكثر من مرة بأنه سيقوم فى هذه السنة بإعادة الكرامة لمصر وباسترجاع ارضنا . . لقد أعلن زوجى مرارا وتكرارا بأن مصر سوف تستأنف الحرب مع إسرائيل اذا اضطررنا لذلك واننا سوف نحقق النصر فى هذه المرة . قالها مرات حتى بدا الناس عاجزين عن تصديقه وبدأوا يفكرون أن ذلك مجرد تهديد أجوف ، ولكننى كنت أعلم جيدا بأنه يعنى ما يقول ، فقد كان من النادر أن يمر يوم واحد دون أن يجتمع مع مستشاريه العسكريين . لقد كان يشاهد فى كل ليلة على شاشة سينمائية وضعها فى الطابق السفلى أفلاما عن الحرب السابقة . لقد كان الروس هم الحاجز الوحيد الذى كان يحول دون توصل أنور إلى وضع يستطيع به استعادة شرفنا وكرامتنا .

لقد كان أنور يقول دائما إن الشكوك السوفيتية فى مصر وعدم الوفاء بوعودهم لنا ساعد على انهيار صحة عبد الناصر والآن يقوم الروس باتباع سياسة نحو مصر تجعل زوجى متوتر الأعصاب ، لقد كانت الاولوية العظمى لأنور ، بعد تسلمه منصب الرئاسة ،

هى إعادة بناء جيشنا وزيادة قوتنا العسكرية ، وبعد تردد كبير قام بتوقيع معاهدة صداقة مع السوفيت فى عام ١٩٧١ حيث توقع أن يقوم السوفييت بعد ذلك بالوفاء بالتزاماتهم بتقديم الأسلحة والصواريخ الى مصر ، ولكن بالرغم من المعاهدة فان الاسلحة التى طلبها أنور لم تصل . لقد قام بالسفر إلى موسكو فى عام ١٩٧١ وفى عام ١٩٧٢ ولكنه كان يعود دائما خائبا ، لقد كان يتمتم بأن السلاح الاسرائيلى الذى تصدره امريكا لها متقدم عشرين مرة عن سلاحنا « الروسى » ومع ذلك لايزال الروس يرفضون مساعدتنا على أن نخطو خطوة واحدة الى الامام ولم أذهب معه للاتحاد السوفيتى ولو لمرة واحدة فقد كانت رحلاته قصيرة جدا .

وفى ربيع عام ١٩٧٢ بدأ أنور يفقد صبره مع السوفييت ، فقد وعده ليونيد بريجينيف بارسال شحنة من الاسلحة كان من المفروض أن تصل قبل الانتخابات الامريكية فى شهر نوفمبر، لقد كان التوقيت فى غاية الاهمية لأن أنور كان يريد أن يطمئن على الاستعداد العسكرى المصرى ضد اسرائيل فى حالة تردد الرئيس الجديد للولايات المتحدة الامريكية فى اجراء محادثات للتسوية فى الشرق الاوسط ولكن بينما كان أنور فى إنتظار صفقة الاسلحة طيلة الربيع عقد لقاء قمة بين بريجينيف والرئيس الامريكى الجديد نيكسون وفى شهر مايو اعلنت القوتان العظميان عن قيام سياسة جديدة عرفت بالوفاق ،، ونتيجة لذلك قام بريجينيف بتأجيل ارسال الاسلحة السوفيتية التى وعد بارسالها الى مصر وذلك خشية أن يبتعد عن نيكسون وأن تفسد روح السياسة الجديدة . .

فى القاهرة أصبح أنور كثير الصمت وشرود الذهن وكان يجلس بمفرده للتفكير فى حديقة استراحة القناطر ، وهى بيت حكومى يقع بعيدا عن التجمعات وضوضاء المدينة ، لم اسأله ماذا ينوى أن يفعل ؟ لأن ذلك عمله ولا يحق لى التدخل فيه ولكنى قمت بتوفير جو هادىء ومريح له بعد أن ارسلت اولادى الى بيتنا فى الجيزة ، وفى بداية الصيف كان يجلس يوميا فى الحديقة ولم تكن قد وصلت حتى ذلك الوقت الاسلحة السوفيتية ، وفى شهر يوليو ، وبعد مرور شهرين علي اعلان سياسة الوفاق وقبل ثلاثة شهور فقط من الانتخابات فى الولايات المتحدة ، تسلم أنور رسالة جديدة من الروس يعلمونه فيها بأنه

ليست هناك ضرورة لتسليح مصر لأنها سوف تكون عاجزة عن تحقيق نصر ضد اسرائيل فى جميع الظروف . .

لم أر أنور غاضبا الا نادرا ، ولكن فى بيتنا الصيفى فى المعمورة كان وجهه محتقنا من الغضب وهو يخاطبنى ويقول « يجب ان ألقى خطبة للشعب » وانصرف متوجها الى محطة التليفزيون وقال لى وهو يغادر المنزل « إننى سوف اقوم بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر » .

لقد صعقت عند سماعى هذا القرار . فهناك ما يزيد على خمسة عشر ألف خبير سوفيتى يعيشون ويعملون فى مصر . اذا قام أنور باغضاب الروس وأمرهم بمغادرة البلاد فان الدولة الشيوعية العظمى قد تقوم بالقضاء على حكومة زوجى . كما أن هذه الخطوة قد تزيد من توتر العلاقات مع الولايات المتحدة . فقد شعرت بأن قرار الطرد سوف يدفع امريكا لتقديم مزيد من الضغوط على مصر لصالح اسرائيل .

وسألته بسرعة : « أنور هل أنت متأكد من حكمة القرار ؟ ماذا سيفعل الروس لك ؟ وما هو الموقف بالنسبة لأمريكا ؟ » ولكنه ذهب دون أن يجيب . وكنت كلما فكرت فى هذا القرار ازددت إقتناعا بأنه الصواب ولو أنه صعب .

ما فائدة حليف لم يقف بجانبك ؟ وكلما اتجهت إليه طالبا المساعدة خيب آمالك ورفض طلبك ؟ كلما أمر بظروف قاسية فإننى أشعر بالحاجة الى أصدقائى ولكن إذا لم يقوموا بمساندتى فإننى سأحتاج إليهم بعد ذلك . ونفس الحال مع الروس الذين كانوا ينقضون الوعد بعد الآخر ، وبالتأكيد لم يكونوا إلى جانبنا ، فى هذا الوقت العصيب من حالة اللا حرب واللا سلم مع اسرائيل .

وأنا أستمع إلى تصريح أنور على شاشة التليفزيون . سمعت أول أصوات البهجة فى الشارع المجاور لمنزلنا ، حيث بدأ الناس بالرقص والغناء ، وأينما كنت أذهب بسيارتى فى الأيام القليلة التالية كان الناس يحيطون بها ملوحين باشارات النصر . لم يكن أحد فى مصر يحب الروس لذلك كان قرار أنور بمعارضة الروس قرارا سياسيا ناجحا

فقد كان شعب مصر يمقتهم ولا يحبهم . وكان آلاف الروس فى مصر منعزلين وبخلاء مما أدى إلى إنعدام شعبيتهم .

لم يختلط الروس بالمصريين لتناول وجبة طعام أو شراب بل انطووا دائما على أنفسهم ، فباستثناء السفير السوفيتى وزوجته فإننى لم أقابل أى شخص روسى فى القاهرة ولا حتى فى الاسكندرية التى كان يقيم بها عدد كبير من الجالية السوفيتية . إن الصداقة والكرم يمثلان دعائم قوية فى عاداتنا وتقاليدنا وديننا ، ولكن الروس لم يهتموا بذلك ابدا . لم يهتموا بحضارتنا ولم يشاركوا فى احتفالاتنا ولم يدعونا إلى بيوتهم .

ولم يكونوا حتى ضحوكين فالمصريون يحبون الابتسامة المشرقة فى الشوارع وفى الأسواق ولكن الاكتئاب كان يعلو وجوه الروس دائما لقد كان اصحاب المحلات يكرهونهم . فالروس هم الوحيدون بين الاجانب الذين كانوا يعيشون فى مصر فى حب مفقود . لقد كانوا يرفضون إعطاء قرش واحد كربح للشعب الذى يعانى الفقر الشديد وكلما أرادوا شراء شىء مما نجيد صناعته مثل أعمالنا النحاسية والمفروشات كانوا يقومون دائما بالبحث عن الاشياء الرخيصة . هذا كله باستثناء الذهب ، فقد كانوا دائما يتلهفون لشراء ذهبنا . لأن اسعار الذهب فى مصر كانت أرخص بكثير عما كان فى الاتحاد السوفيتى . لقد قاموا بشراء الكثير من الاساور والقلادات والقطع الذهبية حتى أن المصريين كانوا يقولون أن الروس اشتروا الاسنان الذهبية .

لهذا فإنه لم يكن من المستغرب تلك الفرحة التى عمت الشعب بعد أن قام أنور باخراج الروس ، فقد طلب احد سائقى التاكسى من احدى صديقاتى بعد أن طلبت منه توصيلها إلى منزلها بأن تخبر الرئيس بأنه بطلنا لأنه قام بطرد الروس ، ولما قالت له إن الروس لا يحتلوننا فلماذا تكرههم الى هذا الحد؟ قال « سيدتى ، إنهم يقومون بالمساومة دائما لتخفيض الثمن فى الاسواق والمطاعم وحتى فى سيارات الأجرة . إن الشيوعيين يبحثون دائما عن الأرخص وينعدم لديهم السخاء . . » .

وهكذا غادر الروس مصر فى شهر يوليو عام ١٩٧٢ ، حيث تركوا أنور فى الوضع الذى كان يتمناه غير تابع لأى جهة . لقد قال لى إن تزويدنا بالخبراء الروس فى الحرب

التى كان يستعد لها سوف يدفع السوفيت فى حالة انتصارنا على اسرائيل إلى الادعاء بأنهم هم المنتصرون لقد أراد أنور أن يخبر العالم بأن المصريين قادرون على تولى أمورهم بأنفسهم ، بالاضافة إلى هذا كله فان طرد الروس كان بمثابة مناورة للتغطية حيث بدت القوى العظمى وإسرائيل تقنع بأن أنور قد تخلى عن خطته فى محاربة أسرائيل لاستعادة أرضنا .

لم يكد أنور يفرغ من التخلص من المضايقات السوفيتية حتى ظهرت مضايقات جديدة كان سببها العقيد الليبى معمر القذافى . .

لقد صدرت أول إساءة للقذافى من خلال مؤتمر القمة العربى الذى دعا عبد الناصر إلى انعقاده فى عام ١٩٧٠ ، حيث وصف القذافى الملك حسين عاهل الاردن بأنه مجنون يجب وضعه فى مصحة ، وبعد أن أصبح أنور رئيسا لمصر بفترة قصيرة عقد لقاء آخر إدعى فيه القذافى بأنه يريد وحدة بين ليبيا ومصر وسوريا والسودان ثم قام بانكار دعوته بعد أربع وعشرين ساعة فقط ، ثم كرر مرة أخرى أنه يريد أن تدخل مصر وليبيا فى وحدة بحيث تصبحان بلدا واحد ، دون أن يضع رغبة أنور والشعب المصرى فى إعتباره .

قام القذافى فى شهر اغسطس عام ١٩٧٢ ، ودون اتصال بنا أوحصول على موافقتنا ، بإعلان نيته على قيام جمهورية مصرية ليبية جديدة بحيث يكون أنور رئيسا للدولة الجديدة ، بينما يتولى هو منصب نائب الرئيس ومنصب القائد العام للقوات المسلحة المشتركة . وعندما سمع أنور بهذه الخطة لم يملك إلا الضحك ، لأنه لن يسمح للقذافى بالتحكم فى الجيش المصرى . كيف سمح القذافى لنفسه باعلان اتحاد كهذا دون الحصول على موافقة مصرية .

التقى أنور لأول مرة بعد الثورة الليبية مباشرة فى عام ١٩٦٩ بالقذافى وكان القذافى عندئذ شابا مندفعا يريد الخير لبلاده . وكان يسأل أنور نصائحه وفى المقابل كان أنور يحترم المثالية فى هذا الشاب القائد الذى قام بالثورة الليبية على نمط ثورة الضباط الأحرار فى مصر .

لقد كان أنور يعتبر القذافى كابنه وكان يدعوه دائماً إلى زيارتنا فى منزلنا فى القاهرة وفى ميت أبو الكوم . وفى السنة الاولى من رئاسة زوجى كان القذافى يقول له دائما « إنك بمثابة أب لى ، فاذا ارتكبت اخطاء فانصحنى » .

بعد عدة شهور من طرح خطة الوحدة . قام القذافى مرة أخرى بتصرف غير مسئول ولكن بطريقة أكثر خطورة فبناء على طلب القذافى بزيادة الحماية البحرية وتكريما له ، وافق أنور على إعارة غواصتين الى ليبيا يديرهما مصريون . وكادت أول أوامر من القذافى للقطع البحرية المصرية أن تقترب بالعالم من الدمار فقد قام بتوجيه تعليمات الى قبطانى الغواصتين قائلا : « تسللوا إلى المياه الدولية فى البحر الأبيض المتوسط وقوموا باغراق الباخرة البريطانية « الملكة اليزابيث رقم (٢) » قبل وصولها إلى إسرائيل » . إن إغراق السفينة عمل جنونى فقد كانت مكتظة بالسياح البريطانيين والامريكيين فى طريقها إلى إسرائيل .

وقد اكتشفت خطة القذافى هذه عندما قام قبطان احدى الغواصتين بارسال إشارة لقيادتنا البحرية فى الاسكندرية يخبرهم عن الامر الذى تلقاه ، وقامت القيادة بدورها بابلاغ أنور بما حدث . لم يستطع أنور أن يتصل بالقذافى شخصيا ليجعله يقوم بالغاء اوامره ، فقد كان القائد الليبى قد ذهب وكعادته ليستريح فى إحدى الخيام فى الصحراء ولينتظر حدوث أى أزمة دولية ، مما دفع أنور ليقوم بنفسه باصدار أوامر للغواصتين بالعودة الفورية إلى قاعدتنا فى الاسكندرية .

لم أر زوجى يشعر براحة أكثر مما شعر به عندما تسلم رسالة تفيد بأن الغواصتين قد عادتا بأمان إلى مصر . لقد قال أنور « إن القذافى له عقلية متهورة والمشكلة هى ان اللعب التى يلعب بها أسلحة حقيقية » .

إن الرجل الرشيد الحكيم يجب أن يضع فى إعتباره الآثار والنتائج التى تترتب على اغراق السفينة « الملكة اليزابيث » . فلن تدمر غواصاتنا وتغرق بواسطة الاسطول السادس الامريكى فحسب ولكن الرأى العام العالمى لن يسامح العرب على قتل الرجال والنساء والاطفال الابرياء الذين ليس لهم علاقة بالنزاع العربى الاسرائيلى .

لقد كان هذا النزاع يسيطر على عقل أنور خلال هذه الفترة من عام ١٩٧٣ . إننى لم اعلم بذلك والقذافى لم يعلم بذلك ، والامريكيون والروس والاسرائيليون لم يعلموا بذلك ايضا . ولكن الحقيقة أن أنور كان على وشك شن الحرب : « جيهان . جهزى لى حقيبتى لأننى سوف أقضى ليلة الغد خارج البيت وتأكدى من حزم ملابسى العسكرية » .

- هل أنت خارج البلاد ؟
- لا
- هل أنت ذاهب لزيارة الجبهة العسكرية فى منطقة القنال مرة أخرى ؟
- ربما
- إذن فإنه يكفى زى عسكرى واحد
- لا . أحزميها كلها . ربما أضطر للبقاء أكثر من ليلة خارج البيت ، وفى حالة حدوث أمر طارىء فانه يمكنك أن تجدينى فى قيادة الجيش بقصر الطاهرة . . .

« قصر الطاهرة ؟ » « قيادة الجيش ؟ » . لم أتفوه ببنت شفه . لقد كان صوت أنور هادئا ، ونظراته مهمومة وهى التى كنت أعرفها جيدا واحترمها جدا .

كنا نمشى معا فى حديقة بيتنا فى الجيزة فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣ الموافق التاسع من شهر رمضان المبارك ، وأدركت أن هذه اللحظة غير مناسبة لممازحته أو الاستمرار فى توجيه الاسئلة اليه . اذا كان يرغب فى إعلامى عن أى سبب لانتقاله الى مركز القيادة العسكرية فانه سوف يفعل ذلك . فليس عندى - إذن - أى مبرر للاستفسار . على كل حال كاد قلبى يحدثنى بأن أنور على وشك شن حرب على إسرائيل .

لقد لاحظت بعض العلامات فى الشهور الأخيرة . فقد ازدادت اجتماعات أنور مع وزير الدفاع وكانت زياراته للجبهة دائمة وغير عادية . وبدأ يغرق فى التفكير لفترة اطول وأطول . وفى شهر أغسطس أطلعتنى سيدة على رسالة تسلمتها من زوجها فى جبهة قناة السويس . وقالت لى بتلهف « لقد كتب لى ليوصينى بأن أعتنى بالأولاد جيدا . أليس معنى ذلك أننا على وشك الذهاب للحرب » وهدأت من روعها وقلت لها « ربما كان

لقد أخبرت أنور بشأن هذه الرسالة فقال « إشاعات ، إشاعات . رسالة واحدة من زوج على الجبهة إلى زوجته لا تعنى أن مصر على حافة الحرب » .

ولكننى بدأت تدريجيا أتأكد من ذهابنا إلى الحرب فقد حدث أن ترامى إلى سمعى فى ظهر يوم من شهر سبتمبر جزء من حديث دار بين أنور ووزير الدفاع قال فيه أنور لأحمد إسماعيل وهو يصحبه إلى خارج مبنى المنزل « أريد أن يسجل كل هذا على فيلم ليكون تاريخيا » . بدأت أحدث نفسى « ما الشىء الذى يريده أن يسجل ؟ لابد ان يكون هجوما عسكريا » . وقد واسيت نفسى بأننا فى هذه المرة على الأقل سوف نكون مستعدين . وكان الاتحاد السوفيتى قد قام فى النهاية بالرغم من طرد الخبراء السوفييت بارسال جزء من الاسلحة التى كان أنور فى إنتظارها .

لقد كنت خائفة وكان الجميع كذلك أيضا . لقد قاسيت انا وأبناء جيلى ثلاث مرات من ويلات الحرب . كنا فيها ننتظر سقوط القنابل ،ونستمع لضجيج الموت الذى يحلق فوق رؤ وسنا . ونرى انهيار شبابنا ودمار مدننا . لقد تعرضنا للهوان من الاسرائيليين وحلفائهم فى كل حرب من هذه الحروب الثلاث : حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ـ وحرب السويس عام ١٩٥٦ ـ وحرب يونيو عام ١٩٦٧ . لقد عملت الهزائم المتتالية التى لحقت بنا فى هذه الحروب على تحطيمنا معنويا وعلى فقداننا لثقتنا بأنفسنا حيث بدا للجميع أنه لا يمكن هزيمة اسرائيل .

لقد تعلمنا أن نكره الاسرائيليين منذ صغرنا وجعلتنا التجارب نخشاهم . فى المدارس يقوم الاطفال بدلا من رسم الورود برسم الصواريخ والدبابات والطائرات . لقد أيقنوا بأن اسرائيل مصممة على التوسع خارج حدودها وانها تهدف الى امتلاك الارض الواقعه بين النيل والفرات وانهم الآن يحتلون كل فلسطين وسيناء وأراضى سورية وأردنية فهل تكون مصر هى هدفهم القادم ؟ كانت لافتات الرفض التى الصقت على اسوار المبانى تنادى بتحرير فلسطين . . بتحرير سيناء . ولكننا كنا نشعر بعدم الامان . لقد كنا نعلم أن الاسرائيليين بفضل معداتهم العسكرية الامريكية ، يتفوقون علينا عسكريا . وكيف لا نشعر بالخوف ؟ فالاسرائيليون متقدمون فى جميع المجالات ، وهم اذكياء وهم لا يرحمون ولا يمكن التعرض لهم . هذه الاسطورة حول الاسرائيليين التقت مع الحقيقة

وهى أن معظم المصريين بما فيهم أنا لم يسبق لنا أن رأينا اسرائيليا واحدا ، فكيف نكون على اقتناع بأننا سوف نهزمهم ؟ .

وبينما كنا نتمشى أنا وزوجى فى الحديقة فى يوم الخامس من أكتوبر قلت له : « أنور أننى أعلم بأنك تبذل أقصى جهدك من أجل إستعادة أرضنا ، فاذا ذهبت مصر إلى الحرب وفشلت فلن يدينك أحد . أن جميع قادة العالم سوف يفهمون حقنا فى أرضنا وسوف يقدرون محاولتك » . لقد بدأت أبحث عن كلمات أقولها لزوجى حتى أشعره بأننى أؤيده بالرغم من الهزيمة العسكرية التى كنت اشعر بأنها حتمية . قلت له : « أننا نعيش مرة واحدة ونموت مرة واحدة ، فلنواجه مصيرنا بشجاعة فلا حياة بدون كرامة . إنه من الافضل عمل شىء حتى ولو لم تنجح من هذا الاستمرار فى قبول عار الاحتلال الاسرائيلى » .

توقف أنور فجأة واستدار نحوى وقال : « أننى على يقين بأننى سوف انتصر » . لقد صعقت عند سماعى ذلك . لقد كنت أحاول تشجيعه ولكنى تبينت أنه لايحتاج اليه . كيف يمكن لأنور بأن يكون متأكدا وواثقا ؟ ولكننى ادركت أن هذه الثقه قد جاءت من الله سبحانه وتعالى . فى تلك اللحظه بدأت أقتنع أنا أيضا ، لأننى أعرف أن الله سوف يكون الى جانبه .

فى صباح اليوم التالى ، السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان ، وبعد انتهائى من حزم حقيبته سألته فى محاولة لمعرفة موعد اعلان الحرب : « هل أدع الاولاد يذهبون إلى المدرسة اليوم ؟ » .

فأجاب : بالطبع ولم لا ؟

قمت باحتضانه أمام الباب الخاص وأنا لا أدرى أيكون هذا اخر وداع ؟

وحتى اجعله لايحس بشعورى بالتشاؤم قلت له : سيخرج الاولاد من المدرسة فى الساعة الواحدة ظهرا فهل سيكون ذلك مناسبا ؟ . فقال : دعيهم يذهبون إلى المدرسة بصورة طبيعية .

وعندما ركب سيارته أشرت إليه بالتحية وقلت « ربنا يبارك فيك ويكون إلى

جانبك » . الساعة الواحدة . لقد شعرت من أنور بأن الحرب لن تبدأ قبل الساعة الواحدة ظهرا ولذلك قمت بالغاء مواعيدى المدرجة بعد تلك الساعة ، لأننى اردت أن أكون على انفراد خلال المقابلات الصباحية حتى أننى لم اسمع كلمة واحدة فى موعدى الأخير مع « نهلة » زوجة الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب . وعندما غادرت المنزل أسرعت بصعود السلم متجهة نحو قاعة الجلوس .

وحالما وصلت نهى الى البيت سألتها : « هل سمعت الاخبار ؟ » .

اجابت نهى باستغراب شديد : « أى أخبار ؟ » .

أجبت بطريقة كأنى ألوم نفسى على زلة لسانى : « لا ، لاشىء »

ادرت الراديو فى غرفة نومى فى الطابق الثانى ولكننى لم اسمع سوى المسلسلات . لقد نحيت جانبا تفكيرى فى التنبيه على رؤساء الجمعيات النسائيه فى الهلال الأحمر ليبدأوا فى الاستعداد لاستقبال الجرحى ، لأن التحركات المفاجئة فى مستشفياتنا سوف تكون اشارة واضحة للجواسيس الاسرائيليين الذين يعيشون بيننا دائما ، وأنور حريص على سرية الموضوع حتى أننى لم أشرك بناتى فى افكارى ، ولكنهن شعرن انه ليس طبيعيا جلوسى وانا اضع الراديو على اذنى ومضين يسألننى : « بماذا أنت مهتمة يا أمى » ولكنى لم أجب .

وفجأة وبعد الساعة الواحدة والنصف ظهرا قام قسم الاخبار بقطع البرامج العادية واصدر البيان الذى كنت انتظر سماعه « انتباه » : لقد قامت قوات العدو بشن هجوم ضد قواتنا فى منطقة خليج السويس : وقواتنا مشتبكة الآن لرد المعتدين » لقد شككت فورا فى أن البيان ادعاء ليعطينا العذر فى البدء فى هجومنا . وكنت على حق . فقد جاء بعد ذلك بقليل بيان آخر يقول « يقوم السلاح الجوى المصرى بضرب المواقع الاسرائيلية فى سيناء ، وتقوم قواتنا بعبور قناة السويس » . إن الحرب التى اطلقنا عليها « حرب أكتوبر » ، والتى اطلق عليها الاسرائيليون « حرب يوم الغفران » قد بدأت . .

لقد شحنت عزيمتى وقمت بانذار رؤساء الجمعيات النسائية فى الهلال الاحمر . وطلبت إلى الشعب التبرع بالأغطية والمواد الطبية لجنودنا . لقد كان الامر الذى لا يصدق يحدث الآن بالفعل ، حيث يقوم جنودنا المصريون بالقضاء على المقاومة

الاسرائيلية على طول خط بارليف الذى يبلغ ١١٠ أميال وارتفاعه ٤٧ قدما وبلغت تكاليفه ٢٣٨ مليون ، دولار وهو خط الدفاع الاسرائيلى الذى قال لنا الروس عنه بأنه لا يمكن تدميره إلا بقنبلة نووية .

لقد كان جنودنا يصرخون « الله اكبر » وهم يعبرون القناة خلال « عملية بدر » . لقد اختار أنور اسم « بدر » ليطلق على العملية السرية للعبور العسكرى وذلك حتى يبعث الشجاعة فى قواتنا لأنها تذكرهم بغزوة بدر البطولية التى قام بها المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ضد اعدائهم من كفار مكة فى شهر رمضان أيضا من سنة ٦٢٤م حيث قام ثلاثمائه مسلم ومعهم الف من الملائكة ارسلهم الله لهم بالتغلب على ما يقارب الالف من المشركين المدججين بالسلاح . وقواتنا الآن تقوم بعمل المستحيل مرة أخرى . .

لقد قام سلاحنا الجوى بقصف ٩٠٪ من الأهداف الاسرائيلية خلال عشرين دقيقة وقامت مدافعنا الميدانية بقصف اهداف اسرائيلية اخرى على طول الحاجز الترابى من خط بارليف . لقد قامت وحداتنا المتلهفة للانتقام من هزيمة سيناء عام ١٩٦٧ بعبور القناة بواسطة قوارب من المطاط ، وذلك قبل الموعد المحدد لذلك ، ثم قاموا فورا بالوصول الى خط بارليف حيث أقاموا سلالم من الحبال لتتمكن باقى القوات من اللحاق بهم بسرعة وقاموا بسد الأنابيب التى أقامها الاسرائيليون لقذف النابالم بالاسمنت ، وصعق العالم عندما قام سلاح المهندسين المصرى بفتح فجوات فى رمال خط بارليف بواسطة مضخات مائية ذات قوة عالية ثم اقاموا الجسور المتحركة لتتمكن دباباتنا من العبور .

خلال الساعات الست الأولى فقد الاسرائيليون توازنهم ، وكان عنصر المفاجأة تاما ، فقد قمنا بعملية خداع لهم حيث نشرنا مقالات فى صحفنا تقول بأن القادة العسكريين يستعدون للذهاب الى مكة لاداء العمرة ، وجعلنا الجنود المصريين فى ضفة القناة الغربية يتظاهرون بانهم يستريحون ويمصون قصب السكر وكأنهم فى اجازه ، وذلك كله تحت نظر وسمع الاسرائيليين وخلال اربع وعشرين ساعة كانت المقاومة الاسرائيلية قد تحطمت ، وتحطمت معها اسطورة الجندى الاسرائيلى الذى لايقهر ، فى الوقت الذى كانت فيه قدرة مصر ترتفع عالية فى عيون العالم . .

كنت اسمع حشود الناس خارج بيتنا يصيحون : عبرنا . . عبرنا . . الله مع السادات . وعندما بدأ الجرحى من جنودنا يصلون إلى المستشفيات ، لاحظنا تغيرا كبيرا فى نفسيات الجنود فى هذه الحرب عما كانت عليه فى حرب ١٩٦٧ فقد كانت حالات الأمراض النفسية أقل بكثير ، لقد كنا نبذل الجهد الكبير لاقناع الجرحى بالبقاء فى المستشفيات حتى تتحسن صحتهم ليسمح لهم بالعودة الى جبهة القتال ، وكان الكثير من الجنود يرفضون خلع ازيائهم العسكرية الملطخة بالدماء وارتداء بيجامات المستشفى النظيفة ، وقد صمم جندى مصاب بجراح بالغة على العودة للقتال حتى انه قام باضراب عن الطعام احتجاجا على عدم السماح له بذلك مما اضطر أطباءه أن يطلبوا منى القيام برؤيته . .

قلت له : عندما ستشفى باذن الله فانك تستطيع العودة إلى الجبهة . ولكن ما الفائدة من عودتك الآن ؟ نحن فى حاجة لان يكون جنودنا أقوياء وليسوا ضعفاء . ووضعت ملعقة أرز فى فمه فأكل لأول مرة بعد خمسة أيام .

وفى زيارة للمستشفى دخلت فى غرفة الانعاش عندما بدأ جندى شاب يستعيد وعيه ، وهمس لى : « أمى ، هل تعلمين بأننى كنت أول من رفع علمنا على ضفة القناة الشرقية ؟ » ، وبضعف تناول يدى وقبلها . وبحركة لا شعورية ودون تفكير قبلت يده وقلت له : « يدك التى يجب أن تقبل وليست يدى . انت الذى قمت باعادة العلم الى مكانه الصحيح على أرضنا » . وبدأت عيناى تذرفان الدموع .

وفى اليوم التالى نشرت احدى الصحف صورة زيارتى لهذا الجندى ، وذلك دون الاشارة إلى إننى قبلت يده ، حيث أن تصرفا كهذا لايعتبر لائقا بزوجة رئيس الجمهورية . ولكنى لم اكترث ، فهذا الرجل وآلاف مثله هم ابطال مصر .

كان جنودنا يقاتلون بشجاعة وذكاء كبيرين وأمرهم قادتهم بأن يقوموا بصنع قراراتهم بأنفسهم فى ساحة القتال . فعندما قام أنور قبل الحرب بزيارة القوات المسلحة قال لهم : « لاتخافوا من الوقوع فى الاخطاء ، وببساطة ، قاتلوا بجميع قوتكم وموتوا بشرف اذا كان لابد من ذلك اننى سوف اقوم بتحمل اى خطأ يرتكب » وهكذا حارب جنودنا

بتفوق عظيم . خلال حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، اطلق على اسم « ام الشهيد » . اما فى هذه الحرب فقد منحت لقبا جديدا وهو « أم الابطال » .

لقد قام الاسرائيليون بعمل كل شىء من اجل دفع جنودنا الى فقدان الثقة بأنفسهم فقد أذاع راديو اسرائيل الناطق باللغة العربية تهديدا موجها إلى جنودنا على طول القناة : « سوف نقلب ايامكم الى ليل ، ونريكم النجوم فى عز الظهر ، سوف نقوم بوضع وجوهكم وانوفكم فى الوحل ، ونحطم عظامكم » .

فى هذه المرة لم يكن هناك اى تأثير للشائعات الاسرائيلية على احد ، لقد كان كثير من جنودنا على إقتناع تام بأن الله يقف إلى جانبهم فى الجهاد ضد اسرائيل . وقامت الحركات الاسلامية فى القاهرة بتوزيع منشورات تؤكد أن الملائكة تقاتل وللمرة الثانية الى جانب المسلمين فى عملية بدر . مما أدى إلى ازدياد ظهور هذه الحركات التى كانت قد بدأت بعد هزيمتنا فى عام ١٩٦٧ .

لعدة أيام ، شعرت كأننى اطير من الفرحة ، وكنت اشتغل ليلا ونهارا دون أن اشعر بالتعب : فالنشوة جعلتنى اشعر بالنشاط الدائم . وكذلك كان أنور فى قصر الطاهرة فى قمة انفعاله . وكنت قد قمت بالانتقال إلى هناك لأكون بجانبه . الصدمة الاولى التى عكرت صفوى جاءت حين أخبرنى طيار جريح من الطيارين الذين قاموا بأول طلعة ضد إسرائيل بأن طائرة الميراج التى كان يقودها عاطف ، شقيق أنور والبالغ من العمر ستا وعشرين سنه قد اسقطت واحترقت بعد خمس دقائق فقط من ابتداء الهجوم . ذهلت للخبر ، فمن الذى يستطيع أن ينجو من حادث كهذا ؟ وأدركت الحقيقه على الفور وهى أن عاطف قد استشهد .

لم اخبر أنور بذلك فورا ، فلم اجرؤ على ذلك ، وكذلك فعل حسنى مبارك قائد القوات الجوية . لم يكن هناك أحد يود تحطيم روح زوجى المعنوية ، أو يسبب الضيق له وهو يعمل ليل نهار . عاطف مفقود . وبعد ذلك بيومين قلت له إنهم يقومون بالتحرى عنه فى جميع المستشفيات . لقد أخبرت أنور شيئا فشيئا بالحدث الأليم ، لقد كانا على صلة دائمة كان عاطف يقوم بقضاء عدة أسابيع فى زيارتنا كل سنة وفى معظم الأحيان

كان يشاركنا فى احتفالاتنا الدينية ، وكان أنور مثالا وقدوة لعاطف . وكان فارق السن بينهما كبيرا ، فقد كان أنور يكبر عاطف بسبع وعشرين سنة ، مما جعل أنور يرى فيه ابنا له وليس أخا ، واخيرا وبعد مرور ثمانية أيام على بدء الهجوم واجهت أنور بالحقيقة المرة واخبرته بأن أخاه قد استشهد .

صعق أنور عند سماعه الخبر ووقف أمامى يهز رأسه لمدة دقيقة كاملة قائلا : « لقد شعرت بذلك ، لقد شعرت بذلك » ، ورأيت الدموع تملأ عينيه وذلك للمرة الثانية فى حياتى ، لقد بكى أنور مرة واحدة من قبل عندما ماتت أمه بين ذراعيه ، أما الآن فقد حاول تجميع شتات نفسه قائلا : « إن جميع الذين قتلوا فى سبيل وطننا ، وضحوا بأنفسهم هم أبنائى ومنهم أخى » وبحزنه الشديد ، عاد فورا الى العمل . محاولا أن لا تكون حسرته الشخصية أكثر من حسرة الآخرين الذين فقدوا أحدا من أسرتهم . .

بالرغم من الدعوة التى وجهتها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لوقف اطلاق النار ، الا أن قواتنا كانت تقوم بالضغط فى سيناء . وفى ذلك الوقت كنت أعمل بالمستشفيات طيلة النهار ، وفى أثناء الليل كنت أجلس فى غرف النوم أرد على المكالمات التليفونية الأجنبية وأعطى التليفون لأنور . . إحدى هذه المكالمات كانت من وزير الخارجية البريطانى فى الساعة الخامسة صباحا . ولكن أنور رفض قبول وقف اطلاق النار حتى تقوم اسرائيل بالانسحاب من جميع الأراضى العربية المحتلة .

كنا لأول مرة نتصرف من موقع القوة . فى الأيام الثلاثة الاولى من الحرب قامت طائراتنا بتدمير ثلث الطائرات الاسرائيلية على الجبهة المصرية ، وفى الشمال قامت سوريا التى انضمت إلى مصر فى الهجوم على إسرائيل بتدمير الكثير من القوة الجوية الاسرائيلية . وفى اليوم الرابع من الحرب قامت القوات المصرية بتدمير أكثر من مائة وعشرين دبابة فى أهم لواء مسلح اسرائيلى . لقد حدث المستحيل فالطريق الى تل ابيب إذا أردنا السفر إليها مفتوحة لمصر على مصراعيها . أما فى اسرائيل ، فقد انهار وزير الدفاع وبكى أمام رجال الاعلام الأجانب .

وفجأة . . تحولت الاخبار الى أخبار سيئة . كانت اسرائيل ترجو الولايات المتحدة

« من فضلكم أنقذونا » . وعندما قامت وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) بإصدار تقرير يؤكد أن إسرائيل تخسر الحرب ، كانت نتيجة هذا التقرير فورية . فقد لاحظنا أن عدد الضحايا فى المستشفيات على طول الجبهة قد ارتفع ، وبأن طبيعة الاصابات قد تغيرت بطريقة لم نر لها مثيلا من قبل . وقام بعض أطبائنا بتناول الحبوب المسهرة حتى يستطيعوا ملاحقة التدفق الجديد من الجرحى ، بينما قمت أنا وبعض المتطوعات بطرد النوم من رؤوسنا . ومن خلال الراديو سمعنا ما كنا نخشى سماعه . السفن والطائرات الامريكية تقوم بتوصيل مساعدات عسكرية للاسرائيليين فى مدينة العريش فى سيناء ، وبدأت التكنولوجيا الامريكية الحديثة ، بما فيها من قنابل (كلستر) الجديدة ، تستخدم ضد قواتنا .

كيف كان لنا أن نداقع عن أنفسنا ؟ لقد كانت شحنات الاسلحه الامريكيه لاسرائيل كما تبين فى وقت لاحق أكبر من الجسر الجوى الشهير الذى اقامه الحلفاء الى برلين بعد الحرب العالمية الثانية . حيث قدم الامريكيون للاسرائيليين اسلحة تزيد قميتها على ٢,٢ مليار دولار أمريكى .

كل دبابة اسرائيلية دمرها جيشنا ، عوضت على الفور بواحدة اخرى بدلا منها . بعض الدبابات التى استولينا عليها كانت جديدة . وقراءة عدادها لا تزيد على (١٢٠) كيلو متر وهى المسافة من العريش الى القناة . وانتشرت شائعات فى مستشفياتنا بأن الولايات المتحدة تقوم بارسال أسلحة أكثر تطوراً لتستخدم بواسطة متطوعين من يهود أمريكا . وبعد فترة قصيرة دمرت لنا قاعدتان للصواريخ حيث لم نكن على استعداد لمواجهة هذه الاسلحة الجديدة غير المألوفة لنا . وبازدياد حدة الحرب ، هب اصدقاؤنا وحلفاؤنا لمساعدتنا . فقد أرسل الرئيس اليوغسلافى « تيتو » إلينا مائة وأربعين دبابة وأرسل الرئيس الجزائرى « هوارى بومدين » مائة وخمسين دبابة . وارسل الامبراطور « محمد رضا بهلوى » شاه إيران ناقلات تحمل خمسمائة ألف طن من البترول . وقامت بعض الدول العربية الاخرى بقيادة الملك السعودى « فيصل » باعلان حرب من نوع مختلف ، حيث قامت احدى عشرة دولة عربية بفرض مقاطعة على تصدير البترول للولايات المتحدة عقابا لها على تأيدها الأعمى لاسرائيل مما أدى الى نقص فى البنزين

فى جميع أنحاء الولايات المتحدة ، وارتفع سعر الوقود ارتفاعا عاليا .

أما فى ليبيا فإن تصرف العقيد « معمر القذافى » كان غاية فى السوء . فبدلا من مساعدة مصر قام بجميع المحاولات للافساد علينا ، فقد تعهد لأنور قبل الحرب بتقديم قطع غيار لطائراتنا الميراج التى كان يبلغ عددها خمسا وعشرين طائرة ، وتقديم أربعة ملايين طن من البترول لتعوض خسارتنا من حقول البترول المصرية التى قرر أنور اغلاقها من أجل سلامتها ، كما تعهد بالسماح باستخدام ميناء طبرق فى حالة تدمير ميناء الاسكندرية . أما بالنسبة للاسكندرية فإنها لم تمس . ولكن كما قال أنور بعد ذلك فان قطع الغيار والبترول لم تصل أبدا .

حتى نجاحنا المبكر فى الحرب لم ينل رضا القذافى . فقد غضب لأن أنور لم يخبره عن الموعد المحدد لقيام الحرب وقامت الاذاعة الليبية بعد عبور القوات المصرية للقناة بيومين بترديد أنه لا فرصة لنا فى النصر : « الجنود المصريون جبناء تعودوا على الهزائم ، وسوف تهزمهم اسرائيل للمرة الرابعة » .

وتصاعدت التهجمات الليبية عندما نجح الاسرائيليون فى اليوم العاشر من الحرب التى استمرت ثمانية عشر يوما فى فتح ثغرة فى خطوطنا فى منطقة الدفرسوار سمحت لبعض القوات الاسرائيلية بالدخول الى الضفة الغربية للقناة ، كانت مصر فى حاجة للدعم من جيرانها العرب أكثر من أى وقت آخر ، ولكن ليبيا لم تقدم سوى الاهانات وفى وقت لاحق قال لى قائد قواتنا فى الدفرسوار احمد بدوى : « عندما سمعت الارسال الاذاعى ، اعتقدت أن الاشاعات آتيه من إسرائيل ، ولكن عندما ادركت بأنها من ليبيا فإنى اعترف بأننى بكيت ، كيف يمكن لاخواننا اتخاذ موقف معاد لنا ؟ »

مع ازدياد الدعم الامريكى لاسرائيل لم يتبق لأنور إلا خيار واحد ، ففى التاسع عشر من اكتوبر أعلن قبوله لوقف اطلاق النار ، وأرسل برقية للرئيس السورى حافظ الأسد يقول فيها : « أننى قد قبلت وقلبى ينزف الما ـ الدعوة لوقف اطلاق النار . اننى على استعداد لمحاربة اسرائيل مهما طال الأمد ، ولكننى لا أستطيع مواجهة الولايات المتحدة الامريكية . أننى لن اسمح لقواتى المسلحة بأن تدمر مرة أخرى . » ولكن الاسرائيليين

لم يحترموا وقف اطلاق النار ، بل على العكس قاموا بشن هجوم جديد بعد ساعتين من الموعد المقرر لذلك . ورد أنور على ذلك بحذر شديد ليتلافى تدخل الامريكيين مرة اخرى .

لقد بدا حزيناً وهو يرى أحلامه باستعادة سيناء تذهب بعيدا أو تضمحل وعند موعد الافطار فى رمضان كنت أرجوه كل ليلة أن يأكل شيئا ، ولكنه كان يكتفى بهز رأسه بأنه ليست لديه شهية للأكل ، لقد تألمت لألمه فهذا الرجل الذى ينام عادة ثمانى ساعات أوتسعا يعمل الآن لمدة ثمانى عشرة ساعة أوعشرين ساعة يوميا . . حتى عندما احضرت له طبقا من الحساء رفض تناوله . لقد كان يعيش على عصير الفواكه فقط . لقد قلقت عليه فى صمت وأنا أراه يفقد صحته ويزداد لونه شحوبا وانهار وقف اطلاق النار وكانت القوات المصرية تشتبك مع القوات الاسرائيلية فى الضفة الغربية من القناة .

الامريكيون هم الذين قاموا بتصعيد الحرب وهم القادرون على وضع حد لها . وفى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر جاء إلى القاهرة هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكى لمقابلة أنور وذلك للمرة الثانية خلال اربعة اسابيع . وفى زيارته الثانية هذه أحضر معه ورقة عمل من الحكومة الأمريكية ، لقد علمت وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) من خلال التصوير الجوى أن المدفعية والدبابات المصرية تطوق القوات الاسرائيلية الموجودة فى غرب القناة . كما انهم كانوا يعلمون بأن أنور كان يجهز لتصفيتهم . وقام كيسنجر بانذار أنور بأنه اذا قام بذلك فان الولايات المتحدة سوف تضطر إلى أن تهاجم مصر . فالسياسة العالمية للولايات المتحدة الامريكية لا يمكن أن تسمح بأى احتمال لانهزام الاسلحة الامريكية بواسطة الاسلحة الروسية للمرة الثانية ، وأن القوات الأمريكية فى جميع أنحاء العالم قد وضعت على أهبة الاستعداد .

وفى شهر يناير ١٩٧٤ تم التوقيع على الاتفاقية الاولى لفض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية ولعبت الولايات المتحدة دور الوسيط بيننا وبين اسرائيل . بحيث تقوم مصر باستعادة الضفة الشرقية لقناة السويس بينما تنسحب اسرائيل من ضفتها الغربية ، وبصعوبة بالغة انتهت حرب اخرى بعد ان تركت آلافا من الجرحى والقتلى المصريين لقد كان عدد ضحايانا أكثر من الاسرائيليين بخمس مرات . .

ألا يمكن وضع حد لهذا العذاب ؟ كان هناك كثير من الأسرى الاسرائيليين يرقدون جرحى فى مستشفياتنا لم يكن صراخهم من الألم يختلف عن صراخ أمثالهم من الجرحى المصريين لقد بكى عليهم آباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم بكاء العائلات المصرية على ضحايانا . كم هو شيء محزن لنا جميعا .

بعد عدة أيام من وقف اطلاق النار الاول تلقيت رسالة من السيدة روث ليز وهى أم اسرائيلية قتل إبنها فى المعركة تقول فيها :

« سيدتى :

إننى أمد يدى من وراء معسكرات القتال لأسألك ان تقومى بتوحيد جميع النساء اللاتى مثلك ومثلى - يرغبن فى وضع حد للتصرفات العدائية ، ولتكوين اتحاد يكون على استعداد للتعاون مع النساء فى اسرائيل نحن النساء اذا اتحدنا فاننا سنشكل قوة عظيمة . لا تترددى فكل يوم يحسب . وكل يوم يأتى تأتى معه ضحايا جديدة وليست بضرورية . . . »

لقد وافقت على ما قالته تماما . ما الفرق الذى يؤدى إليه اختلاف قوميتنا أو ديننا ؟ إن آلامنا فى الحرب واحدة .

اجبت على رسالة السيدة روث ليز برسالة نشرت فى الاعلام الاسرائيلى تقول :
« أننى أتمنى أن تحذف كلمة « حرب » من قاموس العلاقات الانسانية .

إننى أؤمن بشدة بأن الأمهات والزوجات ، والبنات والاخوات من الممكن أن يلعبن دورا هاما فى حماية الانسانية من ويلات الحرب وأخطارها ودمارها . ان شعور الامومة يضطرنا لأن نبنى حياة عائلية سعيدة وأن ننشىء أطفالنا ليكبروا فى ظروف تقوم على الحب والعطف والسلام - إن الأجيال القادمة لها الحق فى أن تامل فى مستقبل مزدهر تقوم فيه بحشد طاقاتهم الابداعية من أجل حياة أفضل .

إننى أتمنى أن يقوم قادة اسرائيل بتوجيه جهودهم نحو السلام ، فالقوة لا تستطيع حل المشاكل الانسانية . هذا هو ايمانى العميق وهذا هو نداء زوجى إنه حتم علينا أن نعرف ان الحب والصداقة أفضل من العداء والخصام .

إننى لأؤيد دعوتك للصداقة والحب وأتمنى أن تقوم جميع النساء بتكريس وقتهن من أجل العمل الشاق والبناء من أجل فهم السلام » .

وبعد مرور سبع سنوات قام زوجى بتلبية نداء السلام بأن دفع روحه ثمنا له . . .



الفصل العاشر

مكتب السيدة الأولى



« أنور ، أرجوك ، يجب أن تقوم بالاشارة إلى برنامج تنظيم الأسرة فى خطبك ، على الأقل قم بذكرها فقط » .

« أنور ، هل تسمح بأن تقوم بمقابلة سريعة اليوم مع خبراء السرطان الأجانب الموجودين حاليا هنا لحضور المؤتمر ؟ أننى أعدك بأن كل ما تحتاج لقوله هو مرحبا » .

« أنور ، أننى آسفة لعدم استطاعتى حضور العشاء الليلة مع الأسرة ، فقد حضر اليوم وفد من السودان وآخر من لبنان للقيام بزيارة جمعية الوفاء والأمل ، ويتعين علىّ أن أكون هناك . . »

بعد حرب أكتوبر ، كنت دائما مشغولة منذ الفجر وحتى بعد الغروب . فقد كان هناك دائما مشاريع جديدة يجب البدء فى تنفيذها ، ومشاريع قائمة يجب تطويرها ، وأفكار ومواضيع أخرى توليت مسئوليتها . بعد هزيمتنا للاسرائيليين

تعين علينا اصلاح الأمور ضمن نطاق حدودنا . حيث أصبح من الممكن أن نحول انتباهنا نحو حل المشاكل الداخلية التى استمرت تثقل كاهل مصر .

إن أنور ، بصفته رئيسا ، يستطيع أن يقود مصر من أجل تغيير اجتماعى ، فالمصريون كانوا دائما مخلصين لقادتهم ، سواء كان لقبه خليفة ، أو سلطاناً أو ملكا أو رئيسا كما هو الحال مؤخرا . قناعات قادتنا وسلوكهم تنعكس دائما على منهاجنا إذا كان القائد ضعيفا فان الشعب يشعر بأن لا قوة له ، وإذا كان قويا ومبتدعا ، كما كان أنور ، فان الشعب يشعر بالقوة والشجاعة . وبعد حرب أكتوبر أصبح الوقت مناسبا لإحداث تغيير اجتماعى .

لم يتمتع أنور بشعبية فى حياته أكثر من الشعبية التى تمتع بها بعد حرب أكتوبر فحيثما ذهب فى ربوع مصر يقوم الناس بالتعبير عن تقديرهم له بصوت واحد ويهتفون وهم يتدفقون لمقابلة سيارة الرئاسة وهى تعبر الشوارع « عاش بطل العبور » . أما رد الفعل لدى الفلاحين فقد كان أكثر تعاطفا وإثارة ، فقد كانوا يكافحون من أجل أن يجتازوا حرس أنور ليلمسوه وليحتضنوه وليحملوه على أكتافهم ويهتفوا : « بالروح ، بالدم نفديك يا سادات » . لم يكن هناك شك فى أن مواطنيه قد أحبوه حبا عميقا . ولكن المشاكل التى كانت تواجهه كانت معقدة وصعبة للغاية .

لقد مر عشرون عاما على قيام الثورة ولكن الحكومة لم تكن قد حققت كل أهدافها . ففى المناطق الريفية ، حيث يقطن هناك أكثر من نصف السكان ، لا يزال معظم المزارعين يستعملون المحراث اليدوى الذى كان مستعملا فى زمن الفراعنة ، بينما تقوم الجواميس المعصبة الأعين بإدارة السواقى بدلا من استخدام الماكينات ، وبالرغم من أن التعليم الزامى للأطفال ، الا أن الأمية بين البالغين ما زالت منتشرة بنسبة عالية : ٤٣٪ . بالنسبة للرجال ، و٦٠٪ للنساء ، وشعبنا لا يزال فقيرا حيث كان معدل الدخل السنوى مئة وعشرين دولارا فقط . وفى المدن ، كان هناك المئات من المحامين والمهندسين وغيرهم من خريجى

الجامعات يجلسون دون عمل فى الوظائف التى عينتهم الحكومة بها . لقد كانوا يعينون فى مكاتب مكتظة بالموظفين ولم يكن هناك حاجة لأكثر من نصفهم .

لقد أدرك أنور بأن هناك حاجة ماسة لمعالجة الوضع . وكان على أهبة الاستعداد للدخول بقوة فى مشاكلنا الاقتصادية كما فعل فى مشاكلنا العسكرية . فقد قام فى عام ١٩٧٤ بالابتعاد الجذرى عن سياسات عبد الناصر الانعزالية بأن أعلن سياسة اقتصادية جديدة عرفت بسياسة الانفتاح . نتيجة لهذه السياسة بدأت حركة السياحة من الغرب وأوروبا فى الازدهار ، والأمر الأكثر أهمية هو ازدياد عدد الوظائف الشاغرة أمام السكان . فقد فتحت مصر ، ولأول مرة ، أبوابها للمستثمرين الأجانب الذين ساهموا مع رجال الأعمال المصريين بأعمال مشتركة كبناء المصانع الجديدة ، والبنوك والفنادق الفخمة . وكان المصريون أيضا يقومون بانتاج التحف والغسالات وأجهزة التلفزيون والاستريو كذلك الصناعات الحربية وغيرها . وحتى سيارات فيات الايطالية أصبحت تصنع فى مصر وبأيد مصرية . وانتشرت الصناعات الثقيلة كالألومينيوم والبترول والكيماويات فى جميع أنحاء البلاد .

وبعكس ناصر ، فقد قام أنور يحث المصريين على البحث عن وظائف فى الخارج ، حيث قام الآلاف ، والذين لم يسبق لهم مغادرة مصر من قبل ، بالذهاب إلى بلاد أقل تطورا من بلادنا ليعملوا هناك كمحاسبين وأطباء ، ومحامين وفنيين . وقامت وزارتنا للتعليم فى سنة ١٩٧٤ وحدها باعارة ما يقرب من ثلاثين ألف مدرس مصرى ليقوموا بالتدريس فى مدارس الدول العربية والأفريقية ، وقد رحب اخصائيونا بفرص العمل السانحة خارج مصر وكذلك بالرواتب المرتفعة . واستفاد اقتصادنا كثيرا من الأموال التى أرسلها المغتربون إلى عائلاتهم فى مصر ، والتى بلغت ما يقارب مليار دولار أمريكى سنويا .

وبعد حرب أكتوبر انغمست بالعمل فى مجال الخدمات الاجتماعية ، وتدريجيا أصبحت رئيسة لثلاثين منظمة وجمعية خيرية . لقد ترأست الهلال الأحمر المصرى وجمعية بنك الدم المصرى وكنت رئيسة شرف للمجلس الأعلى

لتنظيم الأسرة . كما أننى ترأست الجمعية المصرية لمرضى السرطان . والجمعية المصرية للمحافظة على الآثار والمجمع العلمى لخدمة البيئة ، وجمعية الخدمات الجامعية والتعليم العالى للطلاب . لقد كنت أقول لزوجى دائما . . أنور أنه ليس من المنطقى توفير ثقافة جامعية مجانية إذا كان الطلاب غير قادرين على شراء الكتب أو حتى الملابس التى يحتاجونها لارتدائها بالجامعة .

أحيانا كان ينفد صبر زوجى من تطلعاتى ومن إلحاحى المستمر لكى يؤيد تنظيم الأسرة رسميا وأن يعجل فى التشريعات القانونية المتعلقة بحقوق المرأة . لقد كان يقول لى : « جيهان ، الصبر جميل » . . وكان يقول لى : « أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام فكيف تتوقعين حتى أن أقوم بتغييرها فى يوم واحد ؟ الصبر جميل » .

فى غرفة نومى تناثرت أوراق البحوث والعروض لمشاريع جديدة . وامتلأت سيارتى بالدوسيهات والملفات . لقد قمت بتحويل إحدى الغرف فى منزل الجيزة إلى مكتب ، وقمت بتعيين ثلاثة موظفين فيه . وقمت أيضا بتعيين سكرتير صحفى لأن جهودى على الساحة العامة بدأت تستقطب الاعلام العالمى . لقد كنت قلقة فى بادىء الأمر من اهتمامهم هذا لأننى أعلم بأن ذلك سوف يدفع التقليديين فى مصر لانتقادى . ولقد كان محرجا أيضا أن تقوم الصحف والمجلات الأجنبية بالتركيز على شخصى أكثر من التركيز على المشروعات التى كنت أساهم فيها ولكن كانت كلما ازدادت الدعاية عن المشاريع الجديدة أو المشاريع التى تحت التنفيذ ، ازداد تدفق الأموال والتبرعات لتمويلها . وهكذا أصبح من الممكن تحقيق كثير مما كان يبدو مستحيلا .

وفى عام ١٩٧٢ كنت قد قمت بانشاء مركز للعناية بالمعوقين . واستلهمت القيام بهذا المشروع من خلال رؤيتى لكثير من المحاربين والعجزة خلال عملى معهم فى حرب حزيران/ ١٩٦٧ م. بعد الحرب كان الرجال الجالسون فى المقاعد المتحركة والمتوكئون على عكازات ينادوننى ويسألوننى « أمنا . . أمنا ما الذى سنفعله ؟ » وينتشرون حول سيارتى كلما زرت المستشفى العسكرى ليقولوا

لى : « لقد طلب منا الأطباء مغادرة المستشفى والعودة إلى قرانا . ولكن ليس هناك شيء نفعله ، وسوف نكون عبئا على عائلاتنا » . لقد ظلت شكوى هؤلاء الرجال تلاحقنى لمدة أربع سنوات . لقد شفى بعضهم تماما ، ولكنهم ليسوا متدربين على حرفة معينة يعيشون من ورائها . لقد أجبر بعض هؤلاء الجنود على العيش بدون كرامة يعتمدون على المساعدات المقدمة اليهم من عائلاتهم أو على بعض النقود التى كانوا يكسبونها من بيع السجائر والاقلام وذلك لأن معاشات تقاعدهم كانت قليلة جدا .

أننى لم أرد أن تكون مصر كغيرها من البلاد التى تقوم بالترحيب بعودة جنودها من المعركة كأبطال ثم يرمونهم فى عالم النسيان ، لقد قام رجالنا بخدمة مصر وبالمقابل يجب علينا أن نقوم بخدمتهم . بعد مناقشة الاحتياجات اللازمة مع مدير المستشفى العسكرى ، قررت انشاء مركز تدريب يساعد المحاربين القدامى المصابين بعجز على العودة إلى المجتمع كأعضاء منتجين بدلا من الاعتماد على المساعدات . وقام محافظ القاهرة باعطائى قطعة أرض غير مستصلحة فى الصحراء بالقرب من القاهرة ، وقامت وزارة الشئون الاجتماعية بتقديم بعض المال لبناء مساكن للاقامة وورش للعمل وعيادات ومستوصفات صحية أعدت خصيصاً للمعوقين . وقد أطلقت على المركز إسم « مدينة الوفاء والأمل » . الوفاء تعبر عن اعتراف بلدنا بالدين للمعوقين ، والأمل تعبر عن أملنا فى مستقبل أفضل للمعوقين .

ونتيجة للشعور الايجابى تجاه زوجى وتجاه مصر بعد انتصارنا على اسرائيل بدأت أموال العرب تصب فى المركز ، من المملكة العربية السعودية ، قطر ، أبو ظبى ، والدول الخليجية الغنية الجديدة . وأخيرا أدركت حلمى بمد الوفاء والأمل لتشمل إلى جانب المحاربين القدامى المعوقين المدنيين ، لقد كان الرد على طلبى بتقديم المساعدات مدهشا . فقد تبرع رجل سعودى بمبلغ مائة وعشرين ألف جنيه مصرى للوفاء والأمل ، ووعد بمبلغ مماثل يدفع من تركته بعد وفاته ، لم أصدق بأن هناك كرما كهذا . وعندما سمعت بأنه موجود فى القاهرة ،

أرسلت فى طلبه معتقدة بأنه رجل عجوز وعلى حافة الموت ، ولكن فوجئت بشاب يقف أمامى اسمه صالح كامل .

قال لى : « اننى أؤيد تماما ما تحاولين القيام به ، كما أننى أشعر أيضا بأننى مدين للبلد التى حصلت منها على ثقافة جيدة » ، وهو لا يزال حتى يومنا هذا يتبرع بمبلغ عشرة آلاف جنيه مصرى سنويا .

وكانت التبرعات للوفاء والأمل تأتى أيضا من ايطاليا ، انجلترا ، فرنسا ، وحتى من الولايات المتحدة . فقد قال لى وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر بأدب فى يوم من الأيام خلال زيارة له بعد حرب أكتوبر « لقد علمت بأنك منغمسة فى مشروع يهدف للعناية بالجرحى » .

فقلت له : « أجل دكتور كيسنجر ، فاننى أحاول تجميع الأموال من الجميع ، والفضل يرجع فى ذلك للشعب الأمريكى » .

وسأل باستغراب شديد : « الشعب الأمريكى ؟ » .

وابتسمت وقلت : « ربما كنا نقاتل الاسرائيليين ، ولكن معداتهم العسكرية جاءت من الولايات المتحدة ، إن أموال الضرائب التى دفعها الشعب الأمريكى لحكومته هى السبب فى فقدان جنودنا لأذرعهم وأرجلهم مما دعانا للقيام بالعناية بهم » .

وضحك بعد أن شعر أنه قد وقع فى حرج شديد ، وقال : « حسنا ، فانه يجب علينا إذن أن نقوم بمساعدتك » ، وقامت الحكومة الأمريكية بالمساهمة بمبلغ ستة ملايين جنيه مصرى .

لقد قمنا بتجميع مبلغ عشرة ملايين جنيه للوفاء والأمل ، وهو المشروع الذى أفتخر به كثيرا . لقد قمنا بتوسيع المصحات الأصلية لتشمل اسكانا خاصا ، بنايات للمكاتب ، مستشفى ، مدرسة للأطفال المعوقين . وصممنا مصنعا وجهزناه بالمعدات اللازمة لصناعة الأعضاء الصناعية ، وكان متطورا جدا إلى الحد الذى جعل الأطباء من أفريقيا والعالم العربى يأتون الينا لدراسة نظرياتنا

وليتدربوا على معالجة الأشخاص المقطوعة أرجلهم أو أيديهم . وبدأت معظم الدول العربية ترسل المعوقين لنا لنقوم بالاعتناء بهم وتدريبهم على المهارات المختلفة .

وبعد ذلك بمدة قصيرة قمنا بتجهيز مركز تدريب فى الوفاء والأمل للمتخلفين عقليا وبدأنا نستقبل ذوى العاهات العقلية من عمان ، ولبنان والأردن والسودان . وقد سلم المرضى ، الذين بقوا معنا ، وظائف فى المكاتب والمحلات والمطاعم الموجودة فى هذه المدينة التى صممت خصيصا للاحتفاظ بكرامتهم .

أينما كنت أسافر مع أنور فى زيارات رسمية ، كنت أطلب اصطحابى لرؤ ية احدث المعدات الخاصة بالمعوقين المستخدمة فى المستشفيات ، ولرؤ ية مدى التقدم الذى طرأ فى مجال العناية بالأطفال غير الطبيعيين وللقيام بجولة فى رياض الأطفال والمدارس . وكان من الممكن الذهاب أو زيارة بعض المتاحف ، ولكننى لم أفعل ذلك الا نادرا . فقد كان هناك الشىء الكثير نحن بحاجة لأن نتعلمه من أجل مساعدة شعب مصر .

فى روما ، رأيت الطريقة التى يقوم بها الايطاليون للمحافظة على آثارهم التاريخية حيث يقومون بتجديدها وبإنارتها فى الليل بطريقة مدهشة ، بالطريق مثلا الذى يقع بين السور الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبين فم الخليج فى القاهرة كنا نرى المنطقة مكتظة بالسيارات المهجورة وأكوام القمامة . فلماذا يقوم السائحون بزيارتها إذا كانوا سيشاهدون السيارات التى يعلوها الصدأ فقط ؟ لهذا ومثله كثير قمت بتأسيس جمعية المحافظة على الآثار ، وقمت بصفتى رئيستها ، بشن حملة لتنظيف وإنارة بعض أعظم كنوز ماضينا بما فيها الكنيسة المعلقة والتى بنيت فى القاهرة القبطية فى القرن الرابع الميلادى ، وجامع ابن طولون الذى عمره ألف سنة ، ويعتبره الكثيرون من أروع نماذج الفن الاسلامى فى العالم ، لم نكن فى مصر على معرفة بأحدث الوسائل للمحافظة والتجديد ، ولهذا فقد دعوت الخبراء فى هذا المجال من جميع أنحاء العالم لحضور مؤتمر فى القاهرة . وقام الكثيرون منهم بتقديم النصائح القيمة .

دعوت خبراء أيضا من بين الذين قابلتهم فى جمعية السرطان الأمريكية فى نيويورك . لقد كان أطباؤنا وعلماؤنا فى البحوث مشهورين على مستوى العالم بانجازهم فى مجال السرطان فقد كانت مصر عضوا فى جمعية السرطان الدولية . ولكن كثيراً من المصريين كانوا يفتقرون إلى الوعى حول السرطان أو حول خطوات الوقاية التى من الممكن أن يتخذوها ليتجنبوا الاصابة بهذا المرض اللعين . فقمنا بشن حملة مكثفة فى جميع أنحاء مصر وذلك بعقد المؤتمرات وبتقديم المعلومات حول الوقاية من مرض السرطان عن طريق الدعاية والاعلان فى التليفزيون والصحف . لقد وضحنا بأنه يجب على النساء فى سن معين أن يقمن بفحص لصدورهن سنويا ، لأن سرطان الثدى يمكن الشفاء منه إذا اكتشف مبكرا ، كما أنه من الممكن تخفيف خطر الاصابة بسرطان الرئة إذا أقلع المصريون عن احدى عاداتهم المحببة وهى التدخين .

وفى احد الاعلانات التلفزيونية قلت : « لا تكن ضعيفا ، وقدم خدمة لوطنك بالاقلاع عن التدخين ، أن النقود التى تنفقها على السجائر تختفى فى الهواء مع الدخان وتكون صحتك قد اتلفت . لقد أخبرنى طبيب جراح بأنه رأى بأم عينيه الرئات السوداء لمن يقومون بالتدخين ، والرئات الوردية السليمة لغير المدخنين » . وشعرت بجدية خطر التدخين ، فقد كان زوج ابنتى مدخنا . وكان أنور يدخن إلى أن أصيب بنوبة قلبية ، ومنذ ذلك الوقت اقتصر على تدخين البايب . وكم رجوته : « من فضلك يا أنور أرجوك ، أقلع عن تدخين البايب على الأقل خلال الحملة ضد التدخين ؟ كيف لى أن أقنع الملايين إذا كنت لا استطيع اقناع زوجى أولا ؟ » .

ولكن أنور وبعناد قام بإشعال البايب وقال : « جيهان ، أننى أمضى ساعات طويلة فى الاجتماعات والمقابلات مكرسا حياتى للشعب . أننى لا استطيع الترفيه عن نفسى بالذهاب لتناول العشاء خارج البيت أو أن أقوم بالتمشى بدون الحراس . أن تدخينى للبايب احد دواعى سرورى القليلة التى أملكها ولن أقلع عنها حتى من أجلك » . واستمر فى التدخين .

من أجل العناية بهؤلاء الذين يقتربون من نهاية الصراع مع السرطان قمنا بانشاء شبكة من الملاجىء الخاصة على نمط تلك التى رأيتها فى أوروبا . وهى عبارة عن أماكن اقامة للمرضى الذين لا أمل لهم فى الشفاء ، ليتمكنوا من قضاء اسابيعهم الأخيرة فى جو مناسب . أول هذه الملاجىء اقيم فى الطابق السفلى لأحد الجوامع . لقد كان باستطاعة هؤلاء المرضى المشرفين على الموت سماع القرآن الكريم وهو يقرأ بصوت عال فيتوفر لهم أقصى قدر من الهدوء النفسى .

كنت كلما ازدادت سفرياتى حصلت على مزيد من الأفكار لتحسين حياة الناس فى مصر . لقد كانت هذه الأفكار بمثابة احلام بالنسبة لى ولهذا فقد كنت أعلم بأنه لا يمكن تحقيقها جميعا بالرغم من تحقيق معظمها . فعلى سبيل المثال ، لم يكن هناك مساكن جامعية تكفى لسكن طلاب الجامعات ، ولا يملك البعض منهم القدرة المادية لاستئجار بيت خاص أو غرفة على سطح منزل . أن مستقبل مصر يعتمد على شبابها ، لهذا فقد تعين علينا أن نقوم بكل شىء يجعل تحصيلهم للعلم ممكنا . بعد تأسيس جمعية رعاية الطلبة الجامعيين والتعليم العالى ، عقدت اجتماعا مع وزراء التعليم والشئون الاجتماعية بالإضافة إلى مديرى جامعاتنا ، حيث وافق الجميع على توفير اسكان للطلبة وجعل مستوى الأسعار فى متناول الجميع . وقد جمعت الأموال والتبرعات الخاصة وأرباح حفلات البيع التى أقامها الطلاب أنفسهم ، وذلك لبناء اسكان للطلاب فى جامعات القاهرة وأسيوط والزقازيق وطنطا والاسكندرية . بحيث يدفع الطالب خمسة جنيهات مصرية شهريا فقط . وقد أصبح ايجاد خدمات سكنية لطلابنا مشروعا حيويا لدى الناس ، وقام الكثير منهم بالتبرع بصفة دائمة تشجيعا منهم للعلم .

تدفقت التبرعات والخبرات لمصر أيضا من الخارج ، فعلى سبيل المثال وفى زيارة قمت بها لكل من ألمانيا والنمسا طلبت رؤية قرى الأطفال الأيتام المشهورة والتى أسسها « جامينير » . وكنت قد أحضرت معى بعض الهدايا للأطفال تتألف من لعب صغيرة من الجمال وطواق كالتى يلبسها الكثيرون فى مصر

العليا . ولكن هدية الحب والأمل التى أعطانى إياها الأطفال فى قراهم كانت أعظم بكثير . ايتامنا فى مصر يعتنى بهم ولكنهم لا يتمتعون بنفس حرارة الجو العائلى الذى يتمتع به هؤلاء الأيتام . فالأطفال فى هذه القرى يعيشون جميعا فى بيوت صغيرة مع أم ، وكأنهم فى عائلة عادية . والأم ، التى تكون مدربة تدريباً خاصاً ، تعاملهم كأنهم ابناؤها الحقيقيون ، فهى تقوم بتهذيبهم وتدريبهم وتجهيز وجبات طعامهم ، وحبهم والعطف عليهم . . وعندما حان موعد انصرافى قلت للسيد/ جامينير : « أن هؤلاء الأطفال محظوظون فليس عندنا شىء كهذا فى مصر » .

وبعد عودتى إلى القاهرة بثلاثة أيام اتصل بى السيد/ جامينير هاتفيا وسألنى : « هل ترغبين فى اقامة قرية SOS للايتام فى مصر ؟ » .

انتعشت آمالى بقدر ما خارت عزيمتى . فأنا لا استطيع زيادة عبء آخر على وزارة الشئون الاجتماعية بطلب مزيد من المال حيث أننى كنت قد تقدمت لهم بطلب للمساهمة فى مشروعات المعوقين واسكان الطلاب ، وجمعيات تنمية المجتمع فى القرى . قلت : « سيد/ جامينير ، أننى اتمنى اقامة قرية S.O.S. ولكن الظروف غير ملائمة للانفاق على مشروع جديد فى الوقت الحالى » .

وساد الصمت ثم قال : « حسنا ، إذا كنت جادة فى اهتمامك بقرية S.O.S. كما كنت خلال زيارتك لنا . فاننا سوف نقوم ببناء قرية مماثلة تماما فى مصر » .

لم أصدق أذنى عند سماع ذلك وسألت بتلهف : « هل ستقوم بتغطية جميع النفقات ؟ » .

فأجاب : « أجل ، ولكن بشرطين ، الأول هو أن تقومى بتقديم الأرض والثانى هو أن توافقى على أنّ تكونى رئيسة القرية » .

وخطر فى ذهنى بأن وزارة الشئون الاجتماعية سوف تخصص بسرور قطعة من الأرض وبمبلغ رمزى لأى شخص يحمل معه مشروعا قيما . كما أنه لا يزال

هناك بعض الأرض الفضاء فى مدينة الوفاء والأمل . وبالطبع فاننى أوافق على أن أكون رئيسة للقرية . وسألته : « ومتى نستطيع أن نبدأ ؟ » .

وكنت استطيع الاحساس بابتسامته من خلال التليفون وهو يقول :

« سوف أكون بطرفكم بعد يومين » .

افتتح أنور أول قرية أطفال S.O.S. بنيناها لتتسع لثلاثمائة طفل فى القاهرة ثم قمنا ببناء قريتين أخريين الأولى فى الاسكندرية وتتسع لمائة وعشرين طفلا والثانية فى طنطا وتتسع لسبعين طفلا . وللدعاية قمنا بالاعلان فى الصحف عن حاجتنا لنساء تزيد أعمارهن عن ثلاثين عاما . ثم قمنا باختيار وتدريب نساء مسلمات ليكن أمهات للأطفال المسلمين . ونساء مسيحيات للأطفال المسيحيين وذلك حتى يربوا الطرفين كلا فى ظلال دينه . بدأت كل أم ومعها أربعة أطفال فى بيتها بالقرية ، ثم ارتفع عدد الأطفال ليصل إلى تسعة كحد أعلى . وعندما كانت الأم تغادر فى أجازة أو لرؤية أطفالها الحقيقيين ، كان يحل محلها « الخالة » والتى قمنا بتدريبها لهذا العمل أيضا . ومن أجل مراقبة الأمهات والخالات ، قمنا بتعيين رجل لكل قرية ليكون بمثابة الأب . وكانت مسئوليته الاشراف على مالية القرية والتأكد من أن جميع الأمهات يحتفظن ببيوتهن نظيفة ، ونقل الأطفال إلى المستشفى فى حالة المرض أو الحوادث ، والتأكد من ذهابهم إلى المدارس الحكومية خارج القرية مع أطفال الجيران فى المنطقة . وفى الصيف نقوم بأخذ الأطفال إلى شاطىء البحر فى مرسى مطروح ، أو الاسماعيلية ، أو إلى معسكر قمنا باعداده فى أبو قير وهى منطقة ليست ببعيدة عن منزلنا فى المعمورة ، ونقوم أيضا فى رأس كل سنة بأخذ مجموعات من الأيتام للاحتفال فى الفنادق الكبيرة فى القاهرة كالمينا هاوس ، والهيلتون ، والشيراتون .

ولدعم الأطفال بعد أن يبلغوا سنا معينة تؤهلهم لمغادرة القرية ، بدأنا بتنفيذ برنامج الكفالة . فى كل شهر كنت أنا وأولادى والكثير من العائلات الأخرى فى مصر والخارج ، ندفع عشرة جنيهات إلى حساب الأيتام حتى يتمكن كل منهم من استخدام نصيبه من هذا الرصيد ليبدأ حياته خارج القرية . وفى ظل هذه الرعاية

بدأ الأطفال يعودون إلى طبيعتهم المرحة . فبعد أن كان الحزن يعلو نظراتهم ووجوههم وابتساماتهم مصطنعة ، أصبحوا من خلال الجو العائلى فى قرية الأطفال S.O.S. يتمتعون بصوت ظاهر مقترن بالانفعال والسعادة .

بينما كنت أقوم بجميع هذه المشروعات ، بدأت أيضا بشن حملة قوية - بالرغم من المعارضة - من أجل حقوق النساء . نتيجة لما قدمناه للجرحى فى الحربين الأخيرتين . بدأت النساء فى جميع أنحاء مصر يلاقين نوعا من التقدير والاحترام وذلك بعد أن اعترف المجتمع بهن فى النهاية كشريكات للرجال فى كفاحنا الوطنى . وقد كان الوقت مناسبا لتكملة ما بدأت به الثورة . فقد حصلنا فى عام ١٩٥٢ على حق التصويت ، وحق المساواة فى التحصيل العلمى ، والفرص فى العمل جنبا إلى جنب مع الرجال فى الحكومة وفى الصناعة وفى جميع المجالات الأخرى . بالرغم من ذلك كانت النساء يعانين من التفرقة فى الحياة الخاصة والتقليل من قيمتهن فى القطاعات العامة .

ولإيمانى القوى بتعليم النساء فقد أصبحت طالبة فى جامعة القاهرة عندما كان عمرى واحدا وأربعين سنة ، لقد أحببت موضوع دراستى وهو الأدب العربى ، بالرغم من الدراسة المكثفة التى تطلبها الموضوع فى القواعد واللغة والمصطلحات القديمة التى استعملت فى الشعر قبل الإسلام وتاريخ عصر كل من الأمويين والعباسيين .

وعندما كنا نجلس لمشاهدة فيلم بعد العشاء كنت كثيرا ما أتسلل للدراسة لأنى كنت أرغب فى الحصول على تقدير عال . وكان زوجى يقول لى : « أنك مشغولة جدا » . وليس من المستغرب أنه كان يشعر بنفس الشعور عندما كنت أركب السيارة برفقته ثم أضع سماعات الأذن حول رأسى لأستمع إلى محاضرات أساتذتى فكان أنور يقول لى : « لا يمكنك الجمع بين دراسة الأدب العربى وبين جميع التزاماتك الأخرى . قومى بالتغيير إلى موضوع أسهل كالتاريخ الذى يكسبك معرفة ولا يحتاج إلا لقراءته » .

ولكننى تمسكت بدراسة الأدب العربى . وكنت دائما أدعو الله قبل الامتحان قائلة : « ارجوك يا الله ، أننى قد بدأت بدراسة هذا الموضوع ولا يمكننى التخلى عنه أرجوك ساعدنى إلى أن أتخرج » .

كنت أتمنى كثيرا لو استطيع الانخراط مع باقى الطلاب فى الجامعة . ولكن بالطبع فان ذلك كان مستحيلا . فقد كان الأساتذة وزملائى الطلاب يتوقعون منى أن أكون بارعة فى جميع امتحاناتى وأوراقى . لقد كان معى فى الجامعة وفى نفس الوقت ثلاثة من أبنائى ، لبنى وجمال ونهى ، وكانوا أيضا ينافسوننى ويتوقعون منى الكثير . وكانوا يسألوننى باستمرار وهم يعملون من أجل التفوق على : « ما هى الدرجة التى حصلت عليها فى امتحانك ؟ » . قبل الامتحان كنت أصحو من النوم فى الساعة الثالثة صباحا لأستعد . فقد شعرت بأنه يجب على أن أكون مثالا وقدوة للجميع بما فيهم أبنائى ، إذا لم أقم بالعمل أفضل منهم فإنهم لن يحترموننى ولن يطيعوننى .

كانت معنوياتى تتحطم فى بعض الأحيان . ولكن كنت أذكر نفسى بإصرار بمشرفتى الجامعية وأستاذتى الدكتورة سهير القلماوى . لقد كانت إحدى النساء الأوليات اللاتى حصلن على شهادة الماجستير . وكان هذا الإنجاز محلا للخلاف وخطرا قام من أجله عدد كبير من الرجال فى عام ١٩٣٧ بالتجمع لمنعها من دخول قاعة الامتحانات ، وبدأ الطلبة بالصراخ فيها عندما شقت طريقها بينهم ثم قاموا بقذف الحجارة من خلال نافذة الغرفة التى تمتحن بها . وفى النهاية اجبروا لجنتها من الأساتذة على نقلها إلى مكان آخر لتأدية امتحانها الشفوى .

وللتأكد من مقدرة امرأة على استيعاب هذه المادة الصعبة قام الأساتذة بالتشدد فى امتحانها فى الموضوع الذى تدرسه وهو أدب الخوارج واستمر الامتحان لمدة ست ساعات مع أنه فى العادة لا يزيد عن ثلاث ساعات ، وكان من بين ممتحنيها مشرفها العلمى الدكتور طه حسين ، أشهر فقهاء مصر فى الأدب العربى ، فقد حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون فى فرنسا ثم

أصبح بعد ذلك عميدا لكلية الآداب ثم وزيراً للتعليم . لقد كان ذكاء سهير القلماوى فى الامتحان لا يقارن ، حيث استمرت فى الدراسة حتى حصلت على شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، وأصبحت أستاذة فى الجامعة . فإذا كان فى استطاعة سهير أن تتغلب على التحديات التى واجهتها ، فقد أقنعت نفسى بأنى أستطيع ذلك أيضا .

تخرجت فى عام ١٩٧٨ ثم استمررت فى الدراسة للحصول على شهادة الماجستير . قمت وبخوف شديد بالموافقة على بث جلسة الامتحان الشفوى التى استمرت ثلاث ساعات على التلفزيون بثا حيا . لقد اكتسبت الثقة عندما كنت أتذكر المعاناة التى مرت بها الدكتورة القلماوى . وكنت فخورة جدا بعد انتهائى من الامتحانات عندما دعيت لألقى أربع محاضرات أسبوعيا فى الجامعة وبالبقاء هناك من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه .

لقد كنت منفعلة بسبب تقديمى للامتحان على شاشة التلفزيون لكننى كنت مستعدة للقيام بأى شيء يكون ضروريا لتشجيع النساء على تعليم أنفسهن . وإلى جانب ذلك فقد أردت أن يعلم الناس بأننى قد حصلت على شهادتى بتعبى واجتهادى ، ولم تقدم لى على طبق من الفضة لأننى زوجة الرئيس . وقد كان هناك الكثيرون أيضا على استعداد لانتقاد أى امرأة حاولت أن ترتقى بنفسها بالتحصيل العلمى وطرح أساليب الخنوع والتبعية البائدة خلف ظهرها .

بعض النساء قمن بانتهاز الفرصة التى منحتها لهن الثورة . لهذا فقد قمت فى عام ١٩٧٤ بمحاولة أظهار دور المرأة السياسى بأن قررت ترشيح نفسى للانتخابات . لم أرشح نفسى للبرلمان ولكن للحصول على مقعد فى المجلس الشعبى فى المنوفية يضم ممثلى ثلاثمائة قرية وقرية بما فيهم ميت أبو الكوم وتلا . لم أرشح نفسى كعضوة حزب ولكن مستقلة لأننى لم أكن مهتمة بالحصول على عمل فى السياسة أو على مركز سلطة ولكننى أردت أن أفسح المجال لباقى النساء للمساهمة فى سياسة الريف .

عندما اخبرت أنور عن قرارى بترشيح نفسى مباشرة بعد حرب أكتوبر قال « ما شاء الله ، سواء رشحت نفسك أم لا فانه أمر يخصك ، ولكن تذكرى يا جيهان أنك كلما عملت خارج البيت زادت الانتقادات الموجهة ضدك . أنك تتخذين خطوة كبيرة . هناك قلة من النساء خدمن فى مجالس الشعب . وكانت هناك امرأة واحدة فى مجلس المنوفية . . » .

قلت له : هذا هو السبب فى التجاهل التام لاهتمامات النساء فى المناطق الريفية . فى القاهرة يتساوى عدد الطالبات فى الجامعة تقريبا مع عدد الطلاب . ولكن فى ميت أبو الكوم معظم النساء هناك لا يستطعن القراءة . أننى أرى فى القاهرة نساء مرتديات الثياب العملية والمريحة ويذهبن لممارسة عملهن كطبيبات ومحاميات . أما فى ميت أبو الكوم فالنساء يرتدين الملابس الواسعة الطويلة ويذهبن إلى العمل فى الحقول دون أن يتقاضين أجورا أو معاشات فى المناطق الريفية . النساء لا يقمن حتى بإرسال بناتهن إلى المدارس حيث يرين ألا مستقبل لهن الا باتباع طريقة حياتهن وحياة جداتهن قبل ذلك . فى القاهرة فان هناك ثمانى نساء فى البرلمان ، وقمت أنت بنفسك بتعيين عائشة راتب لتكون وزيرة للشئون الاجتماعية . ولكن ماذا عن النساء فى المناطق الريفية ليس هناك امرأة واحدة قامت بدور فعال ونشط فى السياسة » .

قال أنور : « جيهان ، انك لا تحتاجين لإلقاء خطاب أمامى . إذا كنت ترغبين فى ترشيح نفسك فافعلى ذلك ولنر إذا كان الرجال سيقومون بالتصويت لك » .

ولكننى ذكرته قائلة : « أنور انك نسيت شيئا هاما وهو أصوات النساء » .

ولكن السؤال هو : « هل تقوم النساء الريفيات بالتصويت ؟ فهن لا يهتممن بالسياسة ولا يعتبرن أنفسهن جزءا هاما من التقدم الديمقراطى . فهن لازلن يتحدثن فى لقاءاتهن حول السواقى فى ميت أبو الكوم عن أزواجهن الرجال وابنائهن وأولاد القرية الذين سوف يقومون بالتزوج من بناتهن . إلى جانب ذلك

وعلى العكس من الرجال الذين يلزمون بالتصويت تبعا لقانون الانتخابات ، فان التصويت بالنسبة للنساء أمر اختيارى .

لقد قام القانون الذى أعده رجال الثورة فى عام ١٩٦٢ بالإعلان بأنه « يجب معاملة المرأة معاملة مساوية للرجال ، وعليها أن تتحرر من القيود حتى تستطيع التحرك بحرية » . ولكن معظم النساء القرويات فى عام ١٩٧٤ كن لا يستطعن قراءة قوائم الانتخابات . ولذلك يجب أن يرمز للمرشحين برموز كالشمس والأسد وشجرة نخيل بدلا من ذكرهم بأسمائهم . كثير من النساء لا يستطعن حتى كتابة أسمائهن حيث يقمن بالبصم بواسطة الأصابع بدلا من التوقيع على الوثائق الرسمية . هذا كله يحتاج إلى تغيير . فمن أجل تحقيق الديمقراطية فى مصر فإنه يجب على النساء أن يتعلمن لكى يشاركن فى العمل من أجل الوطن ، وللمساعدة فى صياغة القرارات بدلا من قبولها فقط . لقد كنت على يقين بأنه عندما تسنح الفرصة أمام النساء القرويات فإنهن سيبادرن بانتهازها .

كنت أظهر مرة فى الأسبوع مع الفلاحين فى ميت أبو الكوم . وذهبت إلى تلا والقرى المجاورة الأخرى طالبة مساعدة نسائها . وكنت أهتف فى التجمعات النسائية حول آبار المياه والسواقى ، والمضخات فى القرية : « أيها النساء استمعن إلى ، لقد قمتن بتقديرى بسبب الأعمال التى قمت بها خلال الحروب ، ولكننى الآن لا أريد التحدث عن الماضى بل عن المستقبل . إننى أريد الحديث عن دور المرأة فى المجتمع » . وبدأ الرجال بالانضمام إلى حشود النساء كنوع من الفضول لرؤ ية زوجة رئيسهم ولرؤ ية ظاهرة امرأة تتكلم بقوة فى مكان عام .

لقد كنت معروفة فى المحافظة ، وكانت صيحات الترحيب تقابلنى فى كل مكان : « أهلا وسهلا بأم الابطال تفضلى لتناول كوب من الشاى . . لقد نورت بيوتنا يا أم جمال ، قومى بزيارتنا دائما . . لقد اشتقنا اليك » .

ربما لم تكن لدى الخبرة الفنية كالمهندسين والمزارعين والمدرسين والمحامين الذين كانوا يكونون أعضاء المجلس البالغ عددهم ستة وثلاثين

عضوا ، ولكن يتحتم على أن أعترف بأن حملتى الانتخابية كانت فى غاية السهولة . فقد كانت فرصتى عظيمة باعتبارى زوجة لرئيس محبوب . لم يفكر القرويون فقط بأننى استطيع أن أقدم لهم أكثر مما يقدمه أعضاء المجلس الآخرون . ولكنهم فكروا أيضا فى حصولى على موافقة أنور ، وبأنه إذا كان قد سمح لزوجته بترشيح نفسها فلابد أنه يعتقد بأنها كفؤ كذلك .

ازداد تقبل الناس لفكرة مساهمة النساء فى السياسة الريفية عندما قررت امرأة أخرى اسمها سعاد النجار ترشيح نفسها لأحد المقاعد الشاغرة فى المجلس .. كانت سعاد امرأة محترمة جدا فى المنوفية ، حيث أنها قامت بأول مشروع للمرأة فى المنطقة ، بأن أسست برنامجا لحضانة البنات ومشغلا لتدريب الفتيات على الخياطة . وبوصفها امرأة ثرية قامت على مدى السنين بالتبرع بالأموال والأراضى للنشاطات الاجتماعية ، باذلة وقتها وطاقتها فى خدمة الوطن . لم يكن هنا مجال للشك بأنها دخلت هذه الساحة الجديدة وهى تفتقر مثلى تماما إلى الخبرة الفنية . فبعكس أعضاء المجلس الآخرين قمنا باكتساب خبرتنا من العمل مع الجماهير .

أصطفت النساء من قرية ميت أبو الكوم ، فى يوم الانتخابات من شهر سبتمبر ١٩٧٤ ، فى المدرسة للإدلاء بأصواتهن . وأن يكون لهن حرية الاختيار فى التصويت لامرأة . وقد أصبحت عادة فى القرية بعد ذلك أن يحضرن إلى بيتى لأظهار تأييدهن . فى كل مرة كان يظهر فيها اسم أنور فى قائمة الانتخابات فى منطقة المنوفية ، كان رجال ونساء القرية يتجمعون يوم الانتخابات فى حديقتنا الأمامية للعزف على الربابة والغناء له . وكانت النساء تدق على الطبول بينما يقوم الرجال واحدا بعد الآخر بإلقاء أناشيد عن انجازات زوجى الذى كانوا ينادونه بابن الحى . وكانوا يهتفون : « يا سادات سير سير احنا وراك فى التعمير » . ويستمر الاحتفال حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما يقوم الرجال للرقص وهم يهتفون . ولا تنصرف الحشود إلى منازلهم حتى بعد أن يقوم أنور بدعوة الرجال إلى الداخل لتناول الشاى ، وبعد أن أقوم باستقبال النساء فى غرفة أخرى .

وامتلأت الحديقة الأمامية بالسيدات والرجال أيضا يوم انتخابى يغنون ويرقصون ، ولكن فى هذه المرة كان هناك نساء أكثر من أى وقت مضى . وقد علمت بعد ذلك أن النساء جئن من جميع أنحاء المنطقة ليتولين مرحلة جديدة فى المساهمة بالانتخابات . وقامت نسوة ميت أبو الكوم بالغناء . قائلات : « انظر انظر ها هى أم الأبطال قادمة » . . وعندما أعلن فى وقت لاحق بأننى وسعاد قد فزنا فى الانتخابات وأصبحنا من أعضاء المجلس ، قاموا بنقل أغانيهم إلى شبين الكوم ، عاصمة محافظة المنوفية ، حيث أحاطوا بمبنى المجلس الشعبى واستمروا بالاحتفال . لقد خدمت فى المجلس الشعبى فى المنوفية لمدة أربع سنوات وتبرعت بمرتبى الشهرى إلى جمعية تلا للتنمية الاجتماعية . وبعد إعادة انتخابى فى عام ١٩٧٨ خدمت ثلاث سنوات أخرى كأول امرأة رئيسة لمجلس شعبى فى مصر . وبعد موت أنور فى عام ١٩٨١ قمت بالاستقالة لأننى كنت فى حالة حزن لا تؤهلنى لتحمل المسئولية . وقد تأثرت كثيرا عندما علمت بأن أعضاء المجلس قد صوتوا على قرار شرفنى بأن يترك مركزى كرئيسة للمجلس شاغرا طيلة السنة المتبقية من فترتى . وقد قمنا معا فى المجلس بتحقيق نتائج عظيمة .

عندما انتخبت فى البداية وجدت العمل فى المجلس مملا لأننى مهما كنت أقول ومهما كان كلامى مغضبا ، فلم يجرؤ أحد من الرجال على أن يتحدانى . وكان كل منهم يقول باحترام : « إننى أوافق السيدة حرم الرئيس ، إنها على حق تماما » . وقد أثار ذلك غضبى مرارا عديدة وكنت أرد عليهم قائلة : « إننى لست هنا بصفتى زوجة الرئيس وإنما بصفتى عضوا فى هذا المجلس . لا تعاملونى بطريقة خاصة ومختلفة ، لأن ذلك فى حقيقته ليس المطلوب ، إنه يثبت أنكم لا تأخذون الأمور بجدية » . وأخيرا وفى صباح أحد الأيام بعد انتخابى بشهر واحد ، طرق أحد أعضاء المجلس بقبضته على الطاولة صارخا : « ايتها السيدة أنك على خطأ » . وابتسمت له وأدركت أنه من الآن فإننا نستطيع البدء فى العمل معا .

بدأت بعض لقاءات المجلس الشعبى تصبح عاصفة حقيقية ، وخصوصا

بعد أن قام زوجى بتوسيع رقعة الحرية والديمقراطية فى مصر وإنشاء ثلاثة أحزاب فى عام ١٩٧٦ . وفى خلال رئاستى للمجلس الشعبى ، قامت إحدى فرق التليفزيون الأمريكى بتسجيل أحد اجتماعاتنا بينما كان أحد أعضاء المجلس من حزب العمل المعارض يصرخ بى . وكان الموضوع يتعلق ببعض الأموال التى خصصت فى الميزانية لبناء وتوسيع الطرق الرئيسية فى المنطقة . وقد وافق الجميع على أن تنفق الأموال على هذه الطرق ، ولكن منتقدى قام باتهامى بأننى قررت المبلغ دون اتباع الوسائل الديمقراطية فى المجلس . وقال بصوت عال غاضب : « كيف توافقين على تخصيص ثمانمائة ألف جنيه (٨٠٠,٠٠٠ جنيه) لرصف طريق الشهداء ـ منوف ؟ إنك لا تملكين الحق فى اتخاذ قرار كهذا قبل أن نناقشه جميعا » .

وبدأ أعضاء المجلس يتمتمون فيما بينهم معربين عن عدم ارتياحهم لهذا الرجل الذى يفتقر إلى اللباقة ، وخصوصا أمام آلات التصوير التليفزيونية الأجنبية ولكن لم يثر غضبى وقلت له : « إنك على حق ، أرجوك أن تتابع إبداء رأيك » . واستمر صراخ الرجل ، وأخيرا صاح أحد أعضاء المجلس بالرجل الذى كان يتحدانى : « يجب أن تخجل من نفسك ، إن السيدة جيهان السادات كانت متسامحة معك بأن تركتك تتكلم بهذه الطريقة » . ولكننى أنبته على مقاطعته « دعه يتكلم » .

بعد الانتهاء من الاجتماع صعد الرجل إلى المنصة وقال لى : « هذه هى الديمقراطية الحقيقية ، شكرا لك لأنك أعطيتنى الفرصة لأشرح موقفى » .

وكان للحوار الفضل فيما قمنا به من الانجازات فى المحافظة فقد بنينا جسرا بين الضفة الغربية والشرقية لشبين الكوم كانت تكاليفه مليونى جنيه ، وانفقنا مليونين وخمس المليون على بناء طرق جديدة ورصف الطرق القديمة ، وعلى مد الكهرباء إلى جميع قرى المحافظة التى كانت محرومة منها . ومن أجل تحسين صحة الناس قمنا ببناء مستشفيات جديدة . وقمنا بتركيب مضخات جديدة للحصول على المياه النقية ، وأنابيب جديدة لتوصيلها . ومن أجل تشجيع

الصناعة القومية والوطنية قمنا بتخصيص أرض صحراوية لبناء ثلاثة مصانع ، اثنان منها لغزل القطن والثالث لنسيجه . ومن أجل تشجيع التعليم قمنا بتوسيع جامعة المنوفية وفتحنا عدة فروع لها فى المنطقة ، وكانت تمنح شهادات فى الزراعة والتقنية (التكنولوجيا) ، والثقافة والعلوم ، وفى سنة ١٩٧٩ كانت الجامعة تضم ثلاثة عشر ألف طالب وطالبة ، وكان هناك خطة لفتح كلية للطب وأخرى للتجارة .

ولما كان معظم المنوفيين يهتمون بالزراعة فقد امتلأ مكتبى بمشاريع للبيض ولمزارع الدواجن ولأعلاف الأبقار ، وحتى مصانع لمزارع السمك . واجرينا بعض التجارب لزيادة انتاج المحاصيل ، وزراعة الطماطم والفاصوليا وبعض الحبوب وذلك بزراعتها على أسلاك بدلا من زراعتها فى الأرض ، واجرينا اختبارا للحفاظ على الفائض من الطماطم والفواكه الأخرى والخضروات بأن وضعناها فى أفران تعمل بالسولار وذلك لتجفيفها من السوائل . كانت عملية تجفيف الطماطم بواسطة الشمس ناجحة جدا . حيث يمكن الاحتفاظ بها لمدة طويلة وذلك دون أن تفقد فيتاميناتها . وبهذا لم تعد النساء مضطرات إلى الذهاب إلى السوق كل يومين لبيع هذه الطماطم .

وبعكس المناطق الأخرى ، فاننا لم نتكتم أمر هذه التجارب ولكننا قمنا باعداد نسخ من الخطة ونتائجها وأرسلناها كاقتراحات للمجالس الأخرى . ولأول مرة ، قام اعضاء المجلس بالسفر لمقابلة أعضاء المجالس فى المناطق الأخرى لتبادل الأفكار والمعلومات . والملاحظ أنهم فى كل محافظة كانوا يتصرفون كأنها اقطاعيات منفصلة أى لم يكن هناك تبادل للزيارات مع أن هناك الكثير ليعرفه بعضهم من بعض .

كنت أينما ذهبت أستخدم مركزى فى المجلس لأثير مواضيع مشاكل المرأة : حاجتنا إلى الرقى بوضع النساء من خلال التعليم والعمل ، وحاجتها للحصول على استقلال مادى . وعندما تسلمت منصبى كان هناك نقص فى المواصلات العامة فى منطقة المنوفية . وكان هذا النقص يحد من قدرة الفلاحين على بيع منتجاتهم فى الأسواق الكبيرة المجاورة وكانت النساء القرويات يتضررن

من أجبارهن على بيع جبنهن وبيضهن فى السوق المحلى . لهذا فقد أعد مجلسنا خطوطا للاتوبيسات (الحافلات) حتى يتمكن الفلاحون بما فيهم النساء من عرض بضائعهم فى أسواق أكبر وأكثر رواجا بالاضافة إلى تسهيل المواصلات لسكان المحافظة .

كما أننى تعاونت مع د. عائشة راتب وزيرة الشئون الاجتماعية فى حل المشاكل التى تعانى منها المرأة فى المناطق الريفية . ففى عام ١٩٧٤ كان هناك مائة وأربعون مركز رعاية موزعة فى المناطق الزراعية . وكان هذا النقص يؤدى إلى الحد من تمكين الأمهات من العمل . ومن أجل اتاحة المجال للعمل امام مزيد من النساء وضعت وزارة الشئون الاجتماعية برنامجا على مستوى شامل لزيادة مراكز الرعاية فى مصر . وفرضت على كل منطقة تخصيص نسبة من ميزانيتها لبناء دور للحضانة . لقد قمت بدعم وتأييد برنامج الوزارة حيث كنت أقوم بجولة أسبوعية مع د . عائشة فى المحافظات لزيارة المراكز الجديدة . وفى عام ١٩٨١ بلغ عدد مراكز الرعاية فى جميع أنحاء مصر ألفا وستمائة مركز .

أما المشكلة الكبرى التى تجاوزت سائر المشاكل فهى الانفجار السكانى . وكان واضحا للعيان أن جميع انجازاتنا فى مجالات الخدمات والتطوير الاجتماعى تذهب هباء ما لم ننجح فى خفض معدل الانجاب . وكنا نعاين بالحسرة انعكاس التضخم السكانى بالوبال على كل مجال ، وأقرب هذه المجالات وقتها جامعة القاهرة التى كانت تضم فى ذلك الحين خمسة وثمانين ألف طالب . وفى بعض المحاضرات كانت القاعة الواحدة تزدحم بما يزيد عن ألف طالب ، وأصبح عاديا ومألوفا أن ترى بعض الطلبة وقوفا فى الأركان والبعض الآخر يقتعدون الأرض أو أعتاب النوافذ . وعندما دخلت أول محاضرة لى فى الجامعة ، أخلى لى صف كامل على سبيل التحية ، وقد رفضت بالطبع هذه الضيافة الكريمة مع تقديرى الكامل لرفاقى فى طلب العلم ، ولكننى شعرت فى ضوء أزمة المقاعد أن هذه اللفتة الرقيقة تنطوى على تأنيب شديد لتقصيرى فى حل مشكلة المشاكل التى تلتهم كل جهودنا التقدمية .

وليست الحالة العامة أفضل فى باقى المرافق الأخرى ، فالأوتوبيسات مزدحمة الى الحد الذى يضطر الركاب للتعلق بالنوافذ والمداخل . والشوارع مكتظة بالمارة ، وأصبح عاديا ان يختنق المرور اختناقا تاما لمدة ثلاث إلى أربع ساعات . ويبدو كل هذا منطقيا إذا علمنا أن القاهرة التى خططت لتستوعب ثلاثة ملايين نسمة أصبحت تضم الآن أكثر من اثنى عشر مليونا . . اما الخدمات فقد تدهورت تحت ضغط هذه الأعداد الضخمة من السكان ، فالمجارى طافحة دائما ، والتليفونات إما معطلة أو مشغولة دائما ، والاتصالات على كافة أنواعها إما بطيئة أو مقطوعة تماما .

وقد أدت الهجرة من القرى إلى ازدياد المشاكل التى تعانى منها القاهرة فالفلاحون وهم يبحثون عن حياة أفضل لهم ولعائلاتهم ، يتدفقون على محطة رمسيس للسكك الحديدية بانتظام وهكذا يزداد عدد السكان الذين يعيشون فى المدينة بنسبة واحد فى المائة (١٪) كل تسعين ثانية . ولا يجد الكثير من هؤلاء القادمين مكانا للعيش فيه فيقومون ببناء العشش على أسطح المنازل وعلى جوانب الطرق وانتقل أكثر من نصف مليون شخص للاقامة بمنطقة المقابر حيث أقاموا أحياء كاملة بها محلات تجارية ومقاه بين القبور . كما أن نقص المساكن يؤثر على عائلات الطبقة المتوسطة أيضا حيث يقوم الكثيرون منهم بتأجيل زواجهم أو الغائه لعدم عثورهم على شقق يستطيعون أن يبدأوا بها حياتهم الجديدة .

كما أن الطعام بدأ ينفد من البلد . لقد تمتعت مصر خلال الستينات بفائض زراعى ، وكانت تصدر القمح والفواكه والخضر إلى جميع أنحاء العالم . أما الآن فلم نعد نملك ما نكفى به أنفسنا واضطررنا إلى استيراد كميات ضخمة من الدقيق والأرز من الخارج . ومع زيادة الهجرة من الريف إلى المدن بدأت مشاكلنا الزراعية فى الازدياد وتسوء يوما بعد يوم . وبسبب النقص فى الأيدى العاملة فى المناطق الريفية وجد بعض المزارعين أنهم يكسبون مالا أكثر عند بيعهم لأراضيهم الخصبة لاقامة مصانع للطوب فيها بدلا من زرع المحاصيل . كما أن الأرض الزراعية بدأت تنقص أكثر فأكثر نتيجة لنمو القاهرة وذلك حتى تتسع لآلاف السكان الجدد .

ولكن أنور ، الذى جاء من عائلة تتألف من سبعة عشر فردا ، قاوم تطبيق الحد من النسل . وكنت أذكره قائلة : « أنور ، كل أسبوع تقوم بتأجيله يولد فيه خمسة وعشرون ألف مصرى آخر » . وكان يجيبنى قائلا : « جيهان إن موضوع تنظيم الأسرة ليس بالأمر البسيط . فالكثيرون يعتقدون بأنه أمر يتعارض مع الاسلام » .

وكنت أقول مرة بعد مرة فى ضيق شديد : « ولكنك تعلم يا أنور كما أعلم أنا بأنه لا يتعارض . . فالمؤتمرات الاسلامية فى مختلف أرجاء العالم قد سمحت بتحديد النسل ما لم يكن عن طريق الاجهاض ، وقد سمحوا حتى بالاجهاض إذا كان الحمل يشكل خطرا على حياة الأم » .

وكان أنور يرد مرة بعد مرة قائلا : « أننى أعلم ذلك يا جيهان ، ولكن يتعين على أن أتمشى مع المحافظين من رجال الدين الذين لا يوافقون على ذلك » .

وينتهى نقاشنا مرة بعد أخرى دون التوصل إلى حل . والتعداد السكانى فى مصر يزداد بسرعة لم يسبق لها مثيل .

كان المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة يبذل أقصى جهده ، ولكن الكثير من القرويين حيث هناك أعلى نسبة ولادة ، كانوا لا يثقون فى طرق تحديد النسل جميعا . فقد كانوا على درجة كبيرة من الجهل وعدم الفهم لأبعاد المشكلة . . . قالت لى احدى القرويات بسذاجة : « أننى أعطى زوجى كل يوم من الحبوب التى اخذتها من مركز تنظيم الأسرة ولكن وبالرغم من ذلك فاننى حامل » . واشتكت بعض النساء أن جرعات الحد من النسل التى قدمت لهن من العيادة تسبب لهن الضعف والاعياء . وكنت أقول لهن « أنها ليست الجرعات التى تتسبب فى اعيائكن ولكنه الحمل الذى يشعركن بالضعف والاعياء » . وكنت أؤكد لهن بأننى وبناتى المتزوجات نستعمل هذه الحبوب .

لم تر المرأة القروية فائدة فى تحديد حجم العائلة ، فالمزيد من الأطفال يعنى مزيدا من القوة العاملة المجانية فى الحقول . وكلما ازداد حجم العائلة

ازدادت قيمة المرأة ومركزها فى القرية . فالأبناء ليسوا تأمينا للآباء عند شيخوختهم فقط ولكنهم تأمين للحياة الزوجية أيضا . فالنساء يعلمن بأن مزيدا من الأبناء يجعل الزوج أقل جرأة على الطلاق أو الزواج من امرأة ثانية . فالأب لستة أو ثمانية أو عشرة أبناء من زوجته الأولى يكون أقل جاذبية لامرأة أخرى من أب لاثنين أو ثلاثة أبناء . لا عجب بأن الدعوة إلى تنظيم الأسرة لم تجد آذانا مصغية وخصوصا فى المناطق الريفية حيث هبط معدل الزيادة السكانية خلال حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ثم عاد إلى الارتفاع مرة أخرى .

كان علينا أن نطوق بذكاء المقاومة لتنظيم الأسرة . فقلت لمجلس تنظيم الأسرة : « لقد اخبرتنى امرأة بعد أخرى بأنها تشعر بالخجل الشديد من التفكير فى الذهاب إلى رؤية طبيب رجل فى موضوع كهذا ، دعونا ندرب بعض النساء على طرق تحديد النسل وإرسالهن بعد ذلك إلى القرى » .

توجهنا أولا إلى الرائدات الريفيات ، وهى وحدة تتألف من الفتيات أوجدها ناصر من أجل نشر الأفكار الاشتراكية للثورة فى القرى . لقد ساعدت الرائدات فى نشر رسالة الحد من النسل ، ولكن أعظم رسلنا هن الدايات .

قبل وصول العيادات الطبية إلى المناطق الريفية ، كانت الدايات يقمن بالاشراف على الولادة وهن اللواتى يقمن بختان البنات وذلك قبل أن تمنع هذه الممارسة القاسية . وكانت الدايات تقمن أيضا بتكحيل الأطفال ، وبغسل أفواههم بالزبدة بعد ثلاثة أيام من الميلاد للحيلولة دون اختناقهم . فى عام ١٩٧٤ اقترح الدكتور ممدوح جبر وزير الصحة ورئيس مجلس تنظيم الأسرة الأعلى ، البدء فى برنامج لتدريب الدايات على وسائل وقف الاخصاب الحديثة . وأشار إلى أنه مهما دربنا اطباء وممرضات لارسالهم إلى المناطق الريفية لن يستطيعوا عمل شىء ايجابى الا إذا كان لهم اتصال مع الناس . وأقترح أن تقوم الدايات بهذا الاتصال ، لأن لهن القدرة أكثر من غيرهن على اجراء حوار صريح مع النساء وتشجيعهن للاستفسار دون خجل .

ولأول مرة قمنا أيضا بخلق دافع للنساء ليحددن حجم عائلاتهن ، حيث قمنا بتجهيز مشاغل تدريب فى مراكز تنظيم الأسرة ، لتعليم النساء صنع المربى والمخللات لبيعها ، ولتعليمهن الخياطة والنسيج والغزل وقد لاحظت فى جمعية تلا للتنمية الاجتماعية بأن هناك قلة من النساء انجبن أكثر من أربعة أطفال ، لانهن أدركن بأنه لا يمكن كسب المال والاستمرار فى انجاب طفل بعد آخر فى نفس الوقت . فاذا قمنا بتدريب مزيد من النساء على العمل ، سوف يستمعن لرسالتنا المتعلقة بتنظيم الأسرة التى كان الأطباء والممرضات ينقلونها لهم خلال برامج العمل مرة أومرتين أسبوعيا .

وقد اعدت غرفة خاصة فى العيادات الجديدة فى القرى ، واعطيت محاضرات فيها عن تحديد النسل للنساء اللواتى يفدن اليها للمعالجة من الأمراض التى تصيبهن أوتصيب أطفالهن . وحتى نستدرج أكبر عدد ممكن من النساء لحضور المحاضرات كنا نعطيهن دقيقا وزيتا مجانيا ، ونحاول أعطاءهن حبوب منع الحمل قبل مغادرتهن .

كان يبدو برنامجنا لتحديد النسل بأنه لا يزال يتركز على جهة واحدة فقط .

لهذا فقد اقترحت على المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة قائلة : « لماذا نقوم فقط بالتركيز على النساء ؟ يجب أن يكون لدينا برنامج آخر للرجال أيضا » . فالرجال هم الذين يمتلكون السلطة النهائية فى قرارات العائلة ، ويقومون عادة بترك زوجاتهم إذا لم يقمن بالانجاب ، وهم الذين يقومون أيضا بحماية الاعتقاد السائد بتفوق الذكور . من هنا فانه يتحتم علينا أن نقوم بتغيير اعتقادهم فى أن مزيدا من الأطفال يوفر لهم حياة أفضل . حيث قام أعضاء من المجلس والمتخصصون بالقاء المحاضرات فى مراكز تجنيد الشرطة والجيش فى أنحاء البلاد ، وفى المدارس الليلية التى كانت تعقد لمحو الأمية ، قائلين : « فكروا كيف أن رواتبكم سوف تكون أكثر كفاية لكم إذا قمتم بالانفاق على طفلين بدلا من أربعة أطفال ، وكيف أن صحة زوجاتكم سوف تكون أفضل مما يجعلها تستطيع العمل من أجل حياة أفضل لعائلاتكم » .

لم نعرض وسائل تحديد النسل على المجندين لأنها كانت مسئولية القوات المسلحة أما الفلاحين غير المثقفين فقد حاولنا تثقيفهم حول امكانيات حياة أفضل بتقليل عدد الأبناء الذين ينفقون عليهم . وتابعت الضغط على ذلك الرجل القروى الذى كان يلعب الدور الهام فى أبطاء النمو السكانى فى مصر ، وهو زوجى الحبيب .

قلت لأنور ، لقد قام شيخ الأزهر علنا بالموافقة على تحديد النسل . كما أن وزير الأوقاف قد وافق عليه أيضا . لماذا لا تقوم بعمل الشىء نفسه ؟ » .

ولكننى مهما حاولت أن أقنع أنور ، كان يقول لى : « جيهان ، أن عندى أولويات كثيرة ، على أن أقوم باطعام الشعب وايجاد المساكن للناس . يجب أن أجد حلا لهذه المشاكل أولا » .

ولكننى رفضت أن أفقد حماسى بسبب عناده ، مرددة اليه دائما بأن التعداد السكانى فى مصر قد تضاعف ثلاث مرات فى الفترة ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٧٠ وبأنه خلال الخمسة وعشرين سنة القادمة سوف يزداد التعداد السكانى لمصر بمقدار ثلاثين مليونا وواصلت الحاحى بالاصرار الهادىء قائلة له : « أنور ، ان الحل هو تنظيم الأسرة ، فان لم يكن هناك الكثير من الناس فانه لن تكون هناك مشكلة إطعامهم وإسكانهم » .

كنا نتجادل حول هذا الموضوع فى حياتنا الخاصة بدون توقف . ولكننا تجادلنا فى إحدى المرات علنا أثناء تصوير البرنامج التلفزيونى الأمريكى « ٦٠ دقيقة » وذلك فى عام ١٩٧٧ ، عندما سأله المذيع مورلى سافر قائلا : « سيادة الرئيس ، هل تعتقد بأن زوجتك على حق باهتمامها بتنظيم الأسرة ؟ » .

شاهدت وجه أنور يحمر من الغضب وقال : « تنظيم الأسرة وتنظيم الأسرة ، ماذا بوسعى القيام به من أجل تنظيم الأسرة هذا وهناك القرويون الذين يعتقدون بأن ذلك يتعارض مع الدين ؟ بعض الفلاسفة ومنهم زوجتى يقومون بالالحاح على يوميا ، تنظيم الأسرة ، تنظيم الأسرة . الانفجار قادم فى طريقه ، أجل . إننى

أعلم هذا ، ولكن ما الذى سأفعله ؟ فانه لا يمكن تحقيق ذلك عن طريق القانون إطلاقا » .

وسألت بسرعة : « ولماذا لا يصدر قانون بذلك ؟ » وقلت وأنا استمد قولى من جهود الزعيمة الهندية أنديرا غاندى حول ضبط التعداد السكانى فى الهند » يجب أن يكون هناك قانون ، أى انسان يقوم بإنجاب أكثر من ثلاثة أطفال يجب أن يقوم بدفع غرامة » .

كنت أعلم بالطبع بأن هذا أمر غير منطقى ، ولكننى كنت اتمنى أن يكون هناك قانون كهذا . اجتمعت مع فريق أجنبى فى مجال تنظيم الأسرة ، حيث اخبرونى بأن القانون يلزم العائلات فى الصين بعدم انجاب أكثر من طفل واحد ولكن ما يمكن حدوثه فى الصين الدكتاتورية لا يمكن حدوثه فى مصر الديمقراطية حيث يملك الناس الحق فى أن يقولوا لا . وقد قام مجلس تنظيم الأسرة بطرح فكرة تقضى بفرض غرامة مالية على العائلات التى تنجب أكثر من ثلاثة أطفال ، ولكن تقرر بأن ذلك سيكون غير بناء . . ورد وزير التربية والتعليم على هذه الفكرة قائلا : تهربا من دفع الغرامة فان العائلة لن تقوم بإرسال الطفل إلى المدرسة مما يؤدى إلى زيادة الأمية والجهل . إن الثقافة هى الجواب لهذه المشكلة » .

ولكن الضغط السكانى كان بمثابة عثرة فى طريقنا ، وكان الدائنون الأجانب على علم بذلك ففى الاجتماع الذى عقد فى باريس عام ١٩٧٨ ، أشار التحالف الغربى الأوروبى المعروف باسم نادى باريس إلى الزيادة السكانية فى مصر بأنها موضوع أهم من موضوع ديوننا الخارجية ـ وصرحوا بأن الدعم الأجنبى لمصر سوف يتوقف ما لم تقم الحكومة بمحاولة جدية للتحكم فى معدل زيادة السكان .

كان على أنور أن يفعل شيئا ـ وقد فعل أخيرا بعد أن حضر إلى بيتنا فريق أمريكى لتنظيم الأسرة ليعرض علينا دراسة قامت باعدادها الوكالة الدولية للتطور . وبعد أن شاهدنا الشريحة تلو الآخرى على شاشتنا تشرح حسابات الانفجار السكانى الذى يهدد مصر ، وبدأت علامات الصدمة تظهر على وجه أنور ، فهو

لا يمكنه إنكار أو تجنب ما الذى سوف يحدث لبلدنا إذا لم تضع حكومته انتباهها الكامل للتحكم فى التعداد السكانى فى مصر . لقد كانت الحسابات مخيفة ولكننى كنت قد شعرت بالسرور لأن أنور رأى بعينه الإحصائيات المخيفة وأنه سيقوم أخيرا بالتصدى بشكل واسع لهذه المشكلة .

فى الخطاب الذى ألقاه فى أكتوبر ١٩٧٨ بمناسبة الاحتفال باليوم الوطنى لقناة السويس قال أنور : « أن مشاكلنا الأساسية متصلة ببعضها البعض » ثم قال : « الطعام الأمن الملابس الاسكان الأسعار الأجور كلها تحتاج إلى سياسة موحدة تعكس التغير إلى اقتصاد مستقر وعلى أى حال فإن أى تخطيط محكم لا يستطيع أن يغفل الأعباء التى تعرقل مسيرة الجماهير معنويا واقتصاديا كمحو الأمية والتضخم السكانى . ومن اجل كل عائلة فى مصر ، ومن أجل العائلة المصرية الكبرى يجب علينا أن نكبح جماح الانفجار السكانى » .

وأخيرا قام أنور بالكلام علنا كما أنه قام بالفعل أيضا . لقد كان مسموحا للعائلات من جميع الاحجام بشراء الاطعمة الغالية التى تدعمها الحكومة . أما الآن فقد حددت حصة الأطعمة للعائلات التى لا يزيد عدد افرادها عن خمسة أشخاص . أما العائلات الكبيرة فتلتزم بشراء مزيد من المواد الغذائية بسعر السوق .

وقامت حملة كبيرة على مستوى الوطن لاقناع الناس بالاكتفاء بعدد قليل من الأطفال . وظهرت الملصقات فى مراكز النيل فى كل محافظة تظهر عائلة سعيدة بطفلين فقط تعيش فى منزل جميل يحيط به الدجاج والبط . وذلك إلى جانب عائلة تعيسة يكتظ بها بيت صغير دون دواجن على الإطلاق . ودعيت أحياء بكاملها للمركز لحضور محاضرات حول تحديد النسل . وتولى المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة القيام بمسابقات لمن يقدم أحسن نص لتنظيم الأسرة . كما قام المجلس بشراء الاغانى حول صحة العائلة من الفلاحين والتى ليس لها سوى طفلين ، وحول عدم سلامة العائلة التى بها تسعة أطفال .

وكان هناك فيلم قصير يعرض ثلاث أو أربع مرات يوميا تحت عنوان :

« انظر حولك » حيث دعم هذا الفيلم الدعوة الى تنظيم الأسرة . وشاهد الملايين هذا الفيلم وهو لأب استمرت عائلته بالازدياد إلى أن أصبح يصرخ ويبكى من الفجر.بينما يبتسم أب آخر له طفلان فقط . ونتيجة لذلك بدأت ألاحظ تدريجيا أن معدل زيادة السكان فى مصر بدأ ينقص .

لقد عمل « معاش السادات الذى بدأه أنور فى عام (١٩٧٦) بمثابة دافع فى غاية الأهمية لتحديد النسل . ووفقا لهذا البرنامج منح الاشخاص الذين يتعدى عمرهم ستين عاما معاشا شهريا صغيرا من الحكومة حيث اتاح ذلك ولأول مرة للاشخاص المسنين أن يعيشوا حياتهم مستقلين عن دعم ابنائهم لهم . وقد طبق هذا البرنامج فى المناطق الريفية بالتدريج ، محافظة بعد محافظة . وكان زوجى يحلم بيوم تطبق خطة هذا المعاش على جميع أنحاء الوطن . وكان أنور يذهب بنفسه فى كل مرة يبدأ فيها توزيع المعاش فى منطقة جديدة ، حيث كان يقوم بإعطاء النقود إلى المسنين بعد أن يشكرهم على ما قدموه لبلادهم .

وكنت أذهب عادة ليس لأننى فخورة فقط بأن المسنين سوف يقضون بقية حياتهم بكرامة ، ولكن لأن هذا الدخل المضمون من الحكومة يثبت أنه ليس من المحتم على الأزواج والزوجات إنجاب العديد من الأبناء للاعتناء بهم عند شيخوختهم .

بالنظر إلى الوراء ، فإننى لا أعرف كيف تحملت حياتى . كنت أنهض فى الساعة الخامسة من كل صباح . أتوضأ وأصلى ثم اتناول قدحا من القهوة كان بمثابة فطور لى . ثم اقرأ الصحف وابدأ باعداد محاضراتى فى الجامعة ثم أقوم بدراسة مشاريع المجلس والجمعيات الخيرية . ومن الساعة الثامنة وحتى التاسعة كنتُ أقوم بالتمارين الرياضية سواء كان ذلك بالمشى لمسافة ثلاثة أميال أو بلعب التنس أو الاسكواش . وبعد الساعة التاسعة كنت أقوم بايقاظ زوجى حيث افتح شبابيك غرفة نومه واحضر له قدحا من الشاى والصحف وادير جهاز الراديو . بعد ذلك أكون مستعدة للبدء فى جدولى الرسمى لذلك اليوم حيث كنت أقوم بتخصيص عشرة أيام من الشهر لجمعياتى ويوما واحدا كل أسبوعين لاجتماع

المجلس ويوما ونصف اليوم لاستقبال الدبلوماسيين ومقابلة بعض الشخصيات المهمة الأخرى . قبل حصولى على شهادتى الجامعية كنت أقوم باعداد المحاضرات وحضورها فى خمسة أيام من الأسبوع . وخلال ذلك كنت أعقد اجتماعات تخص مشاريعى الأخرى .

كنت أنام لمدة ست ساعات يوميا على الأكثر . وعندما كنت أسأل عن الشىء الذى اتمناه وأحلم به ، كنت أرغب بأن أجيب دائما : « أن أنام لمدة سبع ساعات » . وكم كنت أضحك عندما كان الصحفيون يصرحون بعد ملاحقتى ليوم واحد ، بأنهم يحتاجون إلى أسبوع راحة .

كنت استمر فى الانطلاق دون أن أفطن إلى الإرهاق والتعب ، حتى أذهب إلى بيتى أثناء الليل . عندئذ كنت أبدأ بالشعور بالآلام تتسرب إلى قدمى ورجلى وكان ألما شديدا يعجز الأسبرين عن إزالته .

وأخيرا ، ارتحت إلى مرهم كنت أدهن أرجلى به بعد وضعها فى الماء الساخن لمدة عشر دقائق . وأثناء نومى كان الألم يزول وفى الصباح كنت أبدأ من جديد ، هذا إذا لم أصب بالصداع فصداعى يزداد حدة ولكن وبالرغم من ذلك لا استطيع تغيير لحظة واحدة من الجدول فعلى سبيل المثال ، فاننى خلال العشرة أيام المخصصة من الشهر للاجتماع باعضاء مجالس الجمعيات ، كنت أعقد اجتماعا فى الصباح واجتماعين بعد الظهر ، لقد كان من المستحيل أن اتغيب حتى عن حضور اجتماع واحد ، لأنه سوف يمر شهر كامل دون الاجتماع ثانية ، ويكون الألم احيانا شديدا حتى أننى لا استطيع رؤية المتحدث بوضوح أو متابعته متابعة كاملة لما يقول وكنت اعترف قائلة : « ربما أكون متعبة قليلا » .

ولكن الجميع كان يشعر بالتعب فقد كرس جيش المتطوعين معى ساعات عمل طويلة فى المستشفيات والمدارس ومراكز الأسرة وفى كل مكان تدعو اليه الحاجة . لقد قاموا بتشجيعى كما قمت بتشجيعهم . فبدون مساعدتهم وتطوعهم لم أكن استطيع عمل شىء ، لقد كنا نسعى لتحقيق الكثير من الإنجازات لشعب مصر .

بدأت اتعجب من النشاطات والبرامج التى تقوم بها زوجات القياديين الآخرين فى منطقتنا للمساعدة فى حل المشاكل التى تواجه أوطانهم . ما هى الحلول التى اكتشفناها فى مصر ولا يعلمون عنها شيئا ؟ وما الذى يمكن أن نتعلمه منهم ؟ إن من السخافة أن نعيش فى عزلة بعضنا عن بعض فى الوقت الذى نستطيع فيه المشاركة فى المعلومات ومساعدة بعضنا البعض . لقد اجتمع الرجال فى مؤتمر دولى فلماذا لا تقوم النساء بشىء كهذا .

فى عام ١٩٧٤ دعوت إلى مؤتمر عقد فى القاهرة للنساء الافريقيات والعربيات . وقامت عضوات مجلس الشعب بدعوة مثيلاتهن فى البلاد العربية والأفريقية والنساء ذوات النشاط فى البرامج الاجتماعية . وقمت شخصيا باصدار دعوات إلى زوجات القياديين الأفارقة والعرب . وبلغ عدد جميع المدعوات ما يزيد على مائتى مدعوة من ثلاثين دولة . وقد كان ذلك أول اجتماع من نوعه يعقد فى القاهرة . وكان كثير من المدعوات يغادرن دولهن لأول مرة . لقد كان ردهن رائعا ومطمئنا حيث جاءت الوفود من كينيا ، أثيوبيا ، أوغندا ، ساحل العاج ، بوروندى ، توجو ، تشاد ، نيجيريا ، وزائير ، كما جاءت وفود أيضا من موريتانيا ، المغرب ، الجزائر ، اليمن ، قطر ، الكويت البحرين ، عمان ، لبنان ، سوريا ، العراق . وقد قبلت دعواتى كل من السيدة أحمدو اهاديجو زوجة قائد الكاميرون وزوجة تراورى من مالى وزوجة جوليوس نيريرى من تنزانيا وأغلب زوجات الرؤساء الأفارقة وزوجات قادة كل من تونس والصومال . أما الملكة « عاليه » زوجة الملك حسين ملك الأردن فقد كان لها عذر واضح كيلا تحضر ، حيث قامت بوضع طفلها الثانى قبل أسبوعين من المؤتمر . وعلى الرغم من ذلك ، لم تشأ أن تفوت عليها فرصة اجتماع نسائى كهذا .

وبكل فخر واعتزاز قمت بتعريف النساء بمصر بأن اصطحبتهم لرؤية مشروعنا للمعوقين فى الوفاء والأمل ولزيارة قرى .S.O.S للايتام . لقد اخذتهن إلى المتحف المصرى فى القاهرة ثم إلى مشاهدة الآثار فى الصعيد برحلة فى المركب عبر النيل كما قمنا بزيارة لمصانعنا الجديدة حيث تعمل النساء جنبا إلى

جنب مع الرجال . وأخذتهن إلى زيارة خط بارليف فى سيناء حتى يستطعن ادراك فخرنا بانتصارنا . لقد اردتهن أن يرين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ولأريهن أن مصر جزء من أفريقيا وجزء من الشرق الأوسط حتى يزداد التفاهم بين دولنا المختلفة . وبالطبع قمنا بتبادل المعلومات .

سألتنى الملكة « عاليه » بلهفة لمعرفة التفاصيل : « ما هو برنامجك للمكفوفين كيف جمعت المال للوفاء ؟ ما هى المقاومة التى واجهتك فى مشروعاتك . وكنت على استعداد للمشاركة بما أعرف وفى المقابل تبادلت الآراء مع الملكة « عاليه » وباقى النساء .

وقام كل وفد بتقديم بحث عن دور المرأة فى بلاده وتبع ذلك حوار حيوى وبناء .

استتبت الصداقة بيننا جميعا ، خصوصا بينى وبين الملكة « عاليه » . وبعد المؤتمر قمنا بالتراسل وبالاتصال التليفونى فيما بيننا ، وعندما عادت إلى القاهرة بعد سنوات بصحبة زوجها الملك حسين فى زيارة رسمية ، أمضيت معها أوقاتا جميلة فى استراحة فندق كاتاراكت المطل على النيل فى أسوان . كانت لعالية شخصية المرأة العربية الحديثة ، نحيفة ورزينة . كما أنها كانت تحسن تقليد الآخرين . فى مساء أحد الأيام ضحكت كثيرا وهى تصف لى مأدبة طعام حضرتها برفقة أم السلطان قابوس . فقد قالت مقلدة أم السلطان وهى تتحسس ضلوعى : « يجب أن تتناولى المزيد من الطعام فأنت تبدين نحيفة وضعيفة ، كلى كلى حتى تكتسبين بعض الصحة » .

بعد شهرين من ذلك اللقاء لقيت عاليه حتفها ، حيث قتلت أثر تحطم الطائرة المروحية التى كانت تستقلها فى الصحراء . فى ذلك اليوم أصرت على الذهاب لتفقد احدى المستشفيات بالرغم من سوء الأحوال الجوية ، وسقطت طائرتها بعد أن عصفت بها رياح رملية مفاجئة . لقد صعقت لموت هذه الشابة الملأى بالنشاط والحياة ، وحزنت على زوجها وعلى طفليها الصغيرين . ثم توجهت على الفور إلى عمان لأقدم التعازى فى الفقيدة . كم هو سبب محزن

الذى جعلنى أقوم بأول زيارة لى للأردن . لقد رأيت ، وأنا فى طريقى إلى القصر للجلوس مع والدة الملك وبعض زوجات المسئولين وأفراد الأسرة ، محلات تجارية كثيرة معلقة على واجهاتها الأمامية صورة زفاف الملكة عاليه .

علم الملك حسين بوجودى فى الأردن ، فطلّب منى أن أذهب اليه لتقديم العزاء له بعد أن أنتهى من زيارتى لوالدة عاليه .. فى طريقى إلى القصر مررت بقبر عاليه حيث أمر الملك ببنائه لزوجته الشابة هناك ليتمكن من رؤ يته من خلال شرفة قصره . وقد اشتد حزنى وأنا أدخل القصر عندما رأيت رسما كبيرا للملكة عاليه على الحائط معلقا بجانب صورة للملك . وعندما رأيت الملك لم استطع تمالك نفسى وانخرطت فى البكاء . لقد بدا الملك حزينا وكأنه يعانى من المرض . اننى لم أستطع أن أجد الكلمات لأعبر بها عن التعازى لزوج تلك المرأة الشابة اللطيفة . ولأب طفلة ليس لها أم . قال الملك موجها كلامه لى : « أننى أعلم بأنها كانت تحبك ، وسوف نفتقدها جدا » .

قامت الملكة عاليه بعمل الكثير من أجل بلادها وكان من الممكن أن تقوم بتقديم المزيد . وهى كباقى زوجات القياديين الأفارقة والعرب . أصبحت أكثر تدخلا فى شئون بلادها الاجتماعية ..منذ اللحظة الأولى لانعقاد مؤتمر النساء العربيات الأفريقيات فى القاهرة نشأت هناك روح من التعاون والتأييد بيننا جميعا . وقد أدى خروج المرأة المصرية بعد الثورة إلى الحياة العامة والعملية ، إلى إثارة فضول عظيم وإلى زرع الوعى والثقة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . وأصبحت النساء المسلمات مستعدات ومتلهفات للتغيير والتطوير .



الفصل الحادى عشر

المرأة فى المجتمع الاسلامى



المرأة . . لقد أوقفت جميع طاقاتى ومشروعاتى على النهوض بالمرأة ، وكبح معدل المواليد ، واستئصال الأمية ، وتعليم الصغار والكبار أيضا ، وتوفير الرعاية الصحية ، والتغذية ، ورعاية الطفولة ، وخلق الوظائف ، ورفع مستوى المعيشة ، وحث المرأة على المشاركة فى الحياة بصورة أكبر . . المرأة . . أن فيها يكمن مستقبل العالم ، لأن المرأة فى كل مكان هى التى نقلت قيمها ومبادئها لأطفالها ، وهى التى أنشأت أبناءها على الرجولة وهى التى أعطت لبناتها النموذج الذى يقتدين به . . « ان اليد التى تهز المهد تحكم العالم » ـ كما يقال ـ لقد كانت المرأة قادرة على الكثير ، غير أنه لم يعد يسمح لها فى كثير من المجتمعات الاسلامية الا بعمل القليل . ويا لها من خسارة . كل ذلك بسبب الطريقة التى فسر بها الرجال الشريعة الاسلامية .

لقد ناقش العلماء ، دارسو الدين الاسلامى ، لعدة قرون معنى الشريعة وتطبيقها على المواقف المستجدة . فعندما أدخلت القهوة فى العالم الاسلامى فى

القرن الخامس عشر . مثلا ، التقى العلماء من جميع أنحاء العالم العربى لبحث ما إذا كان مسموحا للمسلمين بتناولها . وقال بعضهم ان القهوة مسكرة مثل الخمر ، وعلى هذا فهى محرمة قياسا على تحريم الخمر . ونجح آخرون فى مجادلتهم بأن القهوة ليست الا مشروبا منبها من شأنه أن يتيح للمؤمنين مزيدا من الوقت للصلاة . وتم التغاضى عن القهوة . . وبعد خمسمائة عام ، عندما وضعت كل دولة عربية قوانينها الخاصة بها وفقا لتفسيرها الذاتى للشريعة ، أقر العلماء فى شتى أنحاء العالم الاسلامى الاستماع إلى الاذاعة ، وذلك لأسباب مشابهة . فحيث أنه من الممكن اذاعة القرآن عبر الراديو إلى جمهور عريض من المستمعين أعلن العلماء أن الأداة مفيدة للاسلام وليست من عمل الشيطان ، كما زعم البعض فى البداية .

وحول قضايا المرأة ، كذلك انقسم علماء الدول المختلفة انقساما حادا . ففى السعودية حيث استخدم خبراء القانون تفسيرا أشد تحفظا للقانون الاسلامى ، لم يسمح للمرأة بقيادة السيارات ، أو العمل جنبا إلى جنب مع الرجل ، أو السفر وحدها دون « محرم » من أحد أقربائها الذكور ، وفى المؤتمر العام العالمى للمرأة التابع للأمم المتحدة الذى عقد فى المكسيك فى عام ١٩٧٥ حيث رأست وفد المرأة فى مصر ، كان وفد المرأة الممثل للسعودية جميعه من الرجال ، وكذلك كان أيضا الوفد السعودى للمؤتمر نفسه الذى عقد فى نيروبى فى عام ١٩٨٥ . لقد كان على المرأة السعودية أن تبدى التزاما متشددا بنظام أزياء مفرطة فى التحفظ ، وأى امرأة تظهر على الملأ دون أن تغطى رأسها وساقيها تتعرض لتعنيف جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وعندما شوهدت زوجة أحد المسئولين المصريين فى مكة أثناء الحج بدون غطاء الرأس ، عنفتها هذه الجماعة وضربتها على ساقيها بالعصى .

إن البنين والبنات لا يدرسون معا فى السعودية ، وإنما يدرسون هناك فى جامعات منفصلة . وعندما افتتحت أول جامعة للمرأة فى عام ١٩٧٣ ، لم يسمح بالتدريس فيها الا لمدرسات معظمهن من مصر . وعندما سمح لمدرسين

بالتدريس فيها ، ظلت المحافظة على فصل الجنسين قائمة بعدم السماح للمدرسين بالوجود فى نفس حجرات الدراسة التى تجلس فيها الطالبات فكان على الفتيات الاستماع إلى محاضرات أساتذتهن من خلال دوائر تليفزيونية مغلقة ، وتوجيه الأسئلة عبر خط تليفونى مباشر . . وكان المستحيل على الفتيات أن يتمكن من لقاء أساتذتهن ومناقشتهم وجها لوجه .

أما فى مصر ، فقد كانت قوانيننا تجاه المرأة أكثر اعتدالا ، مزيجا من القانون الوضعى والشريعة ، وهو ما أطلق عليه أنور الامتزاج بين العلم والايمان . فكان التعليم فى جامعاتنا مشتركا ، تشكل فيه المرأة أكثر من ثلث الهيئة الطلابية . وامتلأت مصانعنا بالعاملات يجلسن جنبا إلى جنب مع الرجال . وبقدوم عام ١٩٧٦ ، كان ثلاثون فى المائة من خريجى الطب والصيدلة والاسنان من الطالبات . . فرق شاسع عن الأيام الأولى للثورة ، عندما كان ٩١,٣ فى المائة من نساء مصر أميات . غير أننا مع تقدمنا هذا كله ، لا تزال بيننا من تشارك النساء الأكثر تعرضا للكبت فى الدول العربية .

وسواء أغطت المرأة نفسها داخل عباءات ثقيلة فى دول الخليج ، أم سارت مكشوفة الرأس كما تفعل الكثيرات منا فى القاهرة ، وسواء أقاتلت فى صفوف الجيش فى ليبيا أم قاتلت من أجل حقها فى قيادة سيارة فى السعودية ، فان رباطا واحدا يوحد بيننا جميعا . لقد أردنا جميعا أن نفك ، أن لم نكسر ، قيود الأقدمين التقليدية التى منعتنا من المساهمة بقدر ما نستطيع فى المجتمع . ان الرجال يحبون أن يرددوا دائما أن ديننا الاسلامى هو الذى طالب بالقيود المشددة على أنشطة المرأة . ولكنهم مخطئون . فالحرية والتقدم للمرأة هما فى الحقيقة من جوهر الاسلام .

ومنذ البداية كان الاسلام ثوريا بصورة ايجابية ازاء مكانة المرأة ، مصححا لكثير من مواقف الجاهلية التى تميز بين الرجل والمرأة . لقد حرم القرآن مثلا وأد البنات ، الذى كانت تمارسه بعض القبائل العربية واستمر إلى وقت قريب عند الصينيين . ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنا أعطى الاسلام أيضا للمرأة حق المساواة

فى التعليم ، وحق العمل وفتح أعمال خاصة بهن ، وحق الملكية الخاصة ، وحق التصرف بالشراء والبيع فى الممتلكات الخاصة بهن . ولقد مضت مئات من السنين قبل أن تحصل المرأة فى دول أوروبا الأكثر استنارة على نفس المزايا . وحتى بداية القرن العشرين لم تكن الزوجة الفرنسية لتستطيع أن تبيع أو تنقل ممتلكاتها دون موافقة مكتوبة من زوجها .

لقد أذهلنى دائما عمق سوء الفهم للمرأة فى الاسلام . وفى أوروبا والغرب ، ود الناس لو يسألوننى عما كانوا يرونه من تقاليد الزواج التى كانت تسمح للرجال باتخاذ أربع زوجات وللآباء بالتحكم المطلق فى زواج بناتهم . بيد أن معلومات هؤلاء لم تكن كاملة . نعم ، يحاول الآباء ترتيب زيجات صالحة لبناتهم . ولكن الاسلام يطلب بالنص الصريح موافقة المرأة قبل أن يتم هذا الزواج ، وهى ثورة على التقليد القبلى الذى كان موجودا قبل الاسلام والذى كان يجبر النساء على الزواج أوتوماتيكيا من أبناء عمومتهن أو من يختاره لهن آباؤهن دون أن يكون لهن رأى فى هذا الاختيار .

كما أن حق الرجل فى اتخاذ أربع زوجات ، رغم أنه يصدم البعض فى عصورنا الحديثة ، كان أيضا خطوة عظيمة للأمام فى حق المرأة منذ ألف وأربعمائة عام . فقبل الاسلام ، كان يمكن أن يتخذ الرجل أكثر من أربعين زوجة ، وكان يمكنه أن يعاملهن كما يشاء ويختار . أما القرآن فلم يتشدد فحسب فى تحديد عدد الزوجات اللائى يمكن للرجل أن يتخذهن ، بل زاد من حماية المرأة أيضا وذلك بتحميل الرجال الذين يمارسون تعدد الزوجات مسئولية معاملة جميع زوجاتهن بالتساوى والعدل بينهن . « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » ، كما تنص السورة الرابعة (النساء) من القرآن . وفى أنحاء العالم العربى ، كان اتخاذ أكثر من زوجة هو الاستثناء وليس هو القاعدة . ففى مصر ، لم يمارس تعدد الزوجات إلا ثلاثة فى المائة فقط من السكان . وفى تونس ، حرم التعدد منذ عام ١٩٦٣ ، بعد أن قرر العلماء هناك أنه من المستحيل معاملة أكثر من زوجة بالقسط والعدل .

بل ان تخصيص القرآن غير المتكافىء للميراث بين الابن والابنة ليس بالظلم كما يبدو ، فحقا للبنت أن ترث فقط نصف نصيب أخيها ، ولكن البنت بصرف النظر عما قد تصبح عليه من ثراء ، ليست مطالبة فى قوانين الاسلام بالمساعدة فى اعالة والديها أوحتى أطفالها . فما اكتسبته من مال أو ملكية عن طريق الميراث هو ملك لها بمفردها ، وعلاوة على ذلك فأخوتها ملزمون بأعالتها أن احتاجت للمال . أن قوانين الميراث فى الاسلام كما هى مفصلة فى القرآن ، قوانين متقدمة جدا فى الواقع ، فالبنت على الأقل لها نصيب ، ومنذ قرن فقط فى انجلترا ، كان الابن الأكبر هو الوحيد الذى يرث اسم عائلته وثروتها .

ومع ذلك . فقد استمرت فى أوروبا ودول أخرى فى الغرب تلك النظرة السطحية للمرأة المسلمة المحجبة والواقع عليها الظلم . وفى أول رحلة رسمية قمت بها للخارج بدون أنور فى عام ١٩٧٥ ، وكانت أول رحلة رسمية على الاطلاق تقوم بها بمفردها زوجة زعيم مسلم ، تجمع المئات لتحيتى فى المطار بألمانيا الغربية ، وأنا على يقين من أنهم كانوا مقتنعين بأنهم سيرون سيدة مسلمة مغطاة بالحجاب من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويحيط بها حراس من الرجال ، بيد أن ذلك ليس هو الاسلام ، ولقد أذهلنى أن يكون كثير من الناس فى حاجة إلى تعلم مكانة المرأة فى الاسلام .

وفى مصر ، لم نشن ـ لا أنا ولا الجمعيات النسائية ـ أى حملة من أجل تغييرات جذرية ، لمعرفتنا بأن المطالبة بكل شىء فى وقت واحد ، يمكن أن تؤدى إلى نتيجة عكسية ، وانما كنا نعمل ، بدلا من ذلك ، فى أناة وحذر من أجل كسب القليل من الحريات ، واحدة بعد الأخرى ، وبهدوء كنا نخلق فرصا جديدة ومعقولة للمرأة . وإذا كانت المعركة فى دول أوروبا الغربية من أجل حقوق المرأة خلال السبعينات قد أطلق عليها « ثورة المرأة » وأطلق على النساء المشاركات فيها « دعاة المساواة » فإننا فى مصر قاومنا مثل هذه التصنيفات ولم نكن مشتطين فى معركتنا على الاطلاق . لقد تحركنا بحذر ، يقينا بأننا لو نزعنا معارضة تحرير المرأة قطعة قطعة ، فإننا فى إلنهاية سنزيل الجدار كله .

ومع ذلك ، فقد كانت لكثير من الزعماء العرب مشاعر قاسية تجاه مكانة المرأة فى المجتمع ، مثلا فى ليبيا التزم الرئيس القذافى تفسيرا قاسيا للدور الملائم للمرأة فى الاسلام . « إن المطالبة بالمساواة بينهما (أى المرأة والرجل) فى أى عمل يلطخ جمالها وينتقص من أنوثتها هى مطالبة ظالمة وقاسية » ، هكذا ذكر الزعيم الليبى فى كتابه الأخضر « وهو البيان الذى يعرض فيه تفاصيل - نظريته الكونية الثالثة - للتاريخ والتطور الاجتماعى » ، ويقول : « ان التعليم الذى يؤدى إلى عمل غير ملائم لطبيعتها ينطوى أيضا على ظلم وقسوة » .

بالطبع ، أن للقذافى الحق فى أن تكون له آراؤه الخاصة مهما كانت متطرفة ، بيد أننى كنت أشعر بضيق متزايد من الطريقة التى كان يصدر بها حكمه على سلوك المرأة فى أنحاء العالم العربى ، وعلى أنا بصفة خاصة .

فى عام ١٩٧٢ قمت بزيارة لقواتنا على طول الجبهة فى بور سعيد وجزر البحر الأحمر . كانت حياة جنودنا قاسية حيث يعيشون داخل خنادق فى الصحراء وكانوا لا يرون عائلاتهم إلا كل بضعة شهور ، وكأم اردت أن تعرف قواتنا المسلحة أن جميع المصريين يقدرون التضحية التى يقدمونها من أجل بلدنا ، وأنهم ليسوا وحدهم أو أن أحدا قد نسيهم .

كان الطقس فظيعا عندما غادرت أرض السويس للسفر على متن « لنش عسكرى » إلى الجزر الساحلية عبر أمواج أثارتها ريح عاتية كانت اسوأ فى البر . وعندما نزلنا من « اللنش » فى جزيرة « شدوان » ردمتنا عاصفة رملية غاية فى الشراسة لدرجة أنها طمست أى رؤية وجعلت من بالغ الصعوبة على المرء أن يتنفس . ومن حسن حظى أننى كنت أرتدى « بدلة » ولذلك لم يلتهب جلدى من الرمال التى كانت تعصف عبر الصحراء . وطمأنت الجنود قائلة : « لا تقلقوا على ، كيف أنتم ؟ ، انما نحن نعيش فى راحة فى بيوتنا ومكاتبنا فى القاهرة ، بينما أنتم هنا تعيشون معرضين لعواصف رملية كهذه العاصفة ، وأنه لشرف لى أن أشاركم متاعبكم ليوم واحد ، وهذا لا يساوى شيئا بالمقارنة بالمتاعب التى لابد أن تواجهوها باستمرار » .

قيل لى فيما بعد أن رحلتى رفعت من الروح المعنوية لقواتنا على الجبهة . ولكن رحلتى للجبهة أثارت حنق الرجعيين فى ليبيا . فأعلنت أبواق الصحف ومحطات الاذاعة الليبية فى اليوم التالى : « أن زوجة الزعيم المصرى متقدمة أكثر من اللازم » و« أن زيارة القوات هى من مسئولية الرئيس وليست مسئوليتها . . وبدلا من أن تلتقى بالرجال كان عليها أن تقصر انشطتها على لقاءات مع النساء والأطفال » واستمر النقد من جانب ليبيا عدة أيام : « لماذا تدعو قرينة السادات إلى حقوق المرأة ؟ لقد حظيت المرأة بالفعل بكثير من الحقوق وهى راضية بذلك . أنها مثيرة للقلق » .

لقد بذلت أقصى محاولاتى لأفهم لماذا كان موقف القذافى هكذا ؟ لقد كان دائما معى غاية فى الرقة والأدب اينما تقابلنا ، وكان فيما يبدو يحترم كثيرا من انشطتى الاجتماعية مع الفقراء والمرضى والعاجزين ، ولكنه لم يستطع ابدا أن يستقبل عملى مع الرجال أو من أجل حقوق المرأة .

وأحيانا وصل به تحفظه إلى درجة شديدة ، لا سيما حول الزى المناسب للمرأة . ففى يوم حار من صيف ليبيا ، وكنت قد سافرت مع بناتى اليها فى عام ١٩٧٠ ، انتقد صغرى بناتى ، نانا ، لارتدائها فستانا شمسيا ، وقال لها : « لا يجب أن يكون ظهرك مكشوفا هكذا » وكانت نانا فى ذلك الوقت فى التاسعة فقط من عمرها . وكان هكذا متشددا فى موقفه من زوجته الثانية « صفية » التى التقى بها فى احدى مستشفيات طرابلس أثناء نقاهته من عملية استئصال عاجلة للزائدة الدودية . كانت صفية ممرضته فى المستشفى ، وتبادلا الحب ، وبعد خروجه من المستشفى تزوجا ، وكنت أفهم سر انجذابه لصفية ، فقد كانت ذكية ومفعمة بالحياة ، ومن جانبها فقد أحبته واطاعت كل رغباته .

قالت لى صفية أن أقاربها زينوها يوم زفافها بطلاء العين ، وأحمر الشفاه والبودرة ، ولكن عريسها أمعن النظر فيها وكأنها شخص غريب وقال لها فور الاحتفال : « اذهبى فاغسلى وجهك » وكان أمرا أسرعت بطاعته . وأمام اصراره لم تضع زينة على وجهها بعد ذلك أبدا ، اللهم إلا قليلا من الكحل حول عينيها ،

واستجابت لرغباته فى اللبس المحتشم بارتداء أزياء طويلة وتغطية رأسها ، رغم أنها كانت أحيانا تتحايل على ذلك بارتداء بنطلونات طويلة والقاء وشاح على رأسها .

وعلى الرغم من موقف زوجها تجاه المرأة ، كانت صفية تقدمية ، وذات مرة وكنت نزلت ضيفة عليها فى ليبيا دعتنى إلى لقاء على مأدبة غداء مع السيدة عنيزة زعيمة الحركة النسائية فى بنغازى . ولقد تأثرت جدا بالسيدة عنيزة ، تلك المرأة المتقدمة فى سنها وتفكيرها التى ظلت تحارب من أجل رفع السن القانونية لزواج البنات إلى ستة عشر عاما ، والتى شاركت بايجابية فى برامج خاصة بالمرأة ، ودربت الفتيات على استخدام ماكينات الخياطة وتعليمهن القراءة والكتابة ، وكانت صفية محاربة كذلك ، أرادت أن تتعلم ، وتنهض بنفسها وتقوم بالمزيد لمساعدة الشعب . وفى عام ١٩٧٢ دعوتها لزيارة القاهرة حتى اطلعها على البرامج الاجتماعية الخيرية المتنوعة واتحاداتنا النسائية فى مصر وجاءت مسافرة بمفردها لأول مرة . ووضع زوجها شرطا واحدا فقط : هو منع ظهور صورتها فى الصحف .

والتقيت بكثير من السيدات المهمات فى ليبيا ، وكانت من بينهن والدة القذافى ، السيدة أم معمر . كانت أم معمر بدوية انتقلت مع زوجها من الصحراء إلى طرابلس لتكون على مقربة من ابنها . ولم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكن كانت لها مهارات لم يحظ بها ابدا لا أنا ولا غيرى ممن تربين فى المدن . قامت أم معمر بكل شىء لنفسها ولأسرتها ، من تربية أولادها بأبسط الوسائل البدائية ، وزراعة وطحن القمح الذى كانت تصنع منه الخبز ، ورعاية أغنام وماعز الأسرة وصناعة الجبن واللبن الرائب من ألبانها ، لقد أعجبت بها وبمن هن مثلها اعجابا شديدا . كانت البدويات فى الربيع يقمن بغزل الصوف من الأغنام لنسج بطاطين لمواجهة برد الشتاء ، ويصنع ازيائهن . لم يدرسن على المستوى الرسمى بيد أنهن كن فى اكتفاء ذاتى تام ، وكانت ملكاتهن غاية فى القوة لا سيما حاسة السمع نتيجة للحياة لوقت طويل فى سكون الصحراء .

وكانت أم معمر أيضا ذات ذكاء حاد ، وكانت مثل كثير من الفلاحين وأهل الصحراء تعشق توجيه الأسئلة : « هل أنت مريضة ؟ الا يطعمك زوجك ؟ » هكذا كانت تهمس لى اهتماما منها بى لأننى كنت نحيلة . وكانت أيضا مفعمة بدفء مجاملات تلقائية ، وكثيراً ما كانت تقول لى : « انك جميلة جدا ، ولابد أن هذا يرجع لحب زوجك لك » .

ودائما كانت صفية كريمة الضيافة ، تأخذنى لأرى الآثار التى ترجع إلى العصر الرومانى ، وللمتاحف حيث شاهدت التماثيل اليونانية القديمة ، والأوانى الخزفية ، وأدوات الحفر والنقوش التى ترجع للمرحلة اليونانية . وفى طرابلس اقامت ذات مرة حفلا جميلا لى فى حديقة منزلها ، ودعت اليه زوجات قادة الثورة وزوجات الوزراء والدبلوماسيين الأجانب ، وقامت مجموعة من البدو بالغناء والرقص ، وقد لاحظت أنها كانت تعلق على جدران منزلها صورا لعبد الناصر ولأنور ولى ، مقطوعة من المجلات . وعندما عدت إلى القاهرة أرسلت صوراً مناسبة لها مصحوبة بتوقيعات الشكر .

وكانت لصفية خمسة أطفال كرست نفسها لهم . وقد انخلع قلبى لها عندما قصفت أمريكا ليبيا أثناء الغارات المناهضة للأرهاب فى عام ١٩٨٦ ، وقتلت ابنتها بالتبنى البالغة من العمر خمسة عشر شهرا ، وأصابت أصابة شديدة أصغر ابنائها . وعلى الرغم من الخلافات السياسية بين مصر وليبيا ، لم يكن من الممكن أن اتغاضى عن قصف المدنيين بالقنابل أو استخدام القوة لحل مشكلة سياسية ، بيد أنى حزنت بوجه خاص حين رأيت صفية على شاشة التليفزيون مفرطة فى حزنها وغضبها . وددت لو ذهبت لأكون معها فى هذا الوقت العصيب لولا أن العلاقات بين بلدينا كانت منقطعة منذ وقت طويل .

ولذلك أمكننى التكيف مع حملات نقد القذافى القاسية على انشطتى لمعرفتى بأنها لم تكن موجهة لى بصفة شخصية ولكن ذلك كان موقفه العام تجاه كل النساء ، وعودت نفسى كذلك على مفاجأته لنا بالطيران إلى مصر قبل اعلاننا مسبقا بميعاد وصوله ، فكانت تأتى أول اشارة عن وصوله من ضباط المراقبة

بالمطار الذين كانوا يبلغوننا تليفونيا حين تدخل طائرته المجال الجوى المصرى . وإذا كانت صفية معه ، كان على أن اترك كل شيء وأسرع مع أنور للمطار لتحيتها . . لم نعرف أبدا متى سيأتى القذافى ؟ أوحتى متى سيذهب ؟ وفى الاسكندرية ذات مرة ودعنا ـ أنور وأنا ـ بعد غداء غير رسمى فى منزلنا ، ولكن عندما ذهبنا بالسيارة بعد ذلك بساعة وجدنا سيارته فى مؤخرة الحديقة ، وكان القذافى يلعب دور الشرطى مع جمال وأحد أصدقائه فى الخيمة العسكرية التى اقامها جمال وصديقه .

وأثناء احدى رحلات القذافى الكثيرة لمصر من أجل تحريك فكرة اتحاد مصرى ـ ليبى ، خسرنى القذافى للأبد . لقد شرح له أنور مرارا وتكرارا أن مصر مجتمع ديمقراطى وأن عليه أن يطلب الموافقة الشعبية على وحدة رسمية بين بلدينا . وقال له أنور : « عندما تكون فى مصر فلك الحرية فى أن تذهب إلى أى مكان تشاء وتحضر أى اجتماع تشاء ، وانقل آراءك للشعب : هل يريد اندماجا مع ليبيا ؟ وعندئذ سوف انفذ رغباته » . وبروح الديمقراطية الجديدة وحرية التعبير عندنا دعوت القذافى خلال احدى زياراته للقاهرة فى عام ١٩٧٢ لالقاء كلمة أمام اتحاد المرأة بالقاهرة .

وكأعظم ما يكون الانتظار ، احتشدت ألف امرأة داخل قاعة الاستماع فى مقر حزبنا للاستماع إلى الزعيم الثورى الشاب لجارتنا ليبيا وهو يتحدث عن آماله للمرأة العربية . قال القذافى « أننى سوف احتاج إلى سبورة وبعض الطباشير » ، وعلى الفور هرع العاملون بالسكرتارية لتلبية رغبته . وقدم زوجى القذافى ، وخيم السكون بينما كان يمشى الهوينى إلى منتصف المسرح وبدأ فى الكتابة على السبورة ، وبدأت المهمة .

ولم اتمكن من رؤية ماذا كان يكتب ، لأننى لم أكن ارتدى نظارتى : « ما هذا ؟ ماذا كتب ؟ » بهذه الاستفسارات سألت حماة ابنتى ، سعاد مرعى التى كانت تجلس عن يسارى .

أحمر وجهها خجلا وقالت فى حرج : « لا استطيع أن أخبرك » .

وتلمست نظارتى فى ارتباك داخل حقيبة يدى ، بينما كانت صفية القذافى التى ظلت تتشبث بتماسكها ، مبتسمة من جراء الهمهمة ، وكانت تجلس إلى يمينى ، « آه ، يا إلهى » قلتها بلا تفكير عندما عثرت على نظارتى فى النهاية .

لقد كتب القذافى بحروف طباشيرية كبيرة على السبورة « العذرية ـ الحيض ـ الانجاب » .

وبدأ القذافى فى القاء ملاحظاته قائلا : « أنتن أيتها النساء ، تطالبن بالمساواة ، ولكنكن لن تقدرن على المساواة ، فالشاب يستطيع السفر لعمله فى الحقول والمصانع والبناء . ولكن الفتاة لا يمكن أن تسافر وحدها فى أمان وتظل فى حماية نفسها » . لم استطع تصديق أذنى ولا عينى لا أنا ولا السيدات الآخريات فى الحجرة اللاتى تحولت غمغمتهن حينئذ إلى تذمر عميق .

وواصل القذافى حديثه قائلا : « كيف يمكن للمرأة أن تتساوى مع الرجل وهى لا تستطيع العمل خلال الدورة الشهرية ، أو أثناء رضاعة صغارها ؟ » .

واستطرد قائلا : « من وجهة نظر الطبيعة ، لا يمكن أن تكون هناك مساواة بين الرجل والمرأة فى الشخصية أو المزاج ، أو فى القوة المعنوية أو الجنسية » واستمر القذافى متجاهلا أصوات الاحتجاج المرتفعة من جانب المستمعات فوصف دور المرأة فى المجتمع بأنه لا يختلف عن دور البقرة التى قدر لها الا تفعل أكثر من الحمل والولادة ورضاعة صغارها . وانفجر الاجتماع .

صاحت الدكتورة زينب السبكى قائلة : « سيدى الرئيس ، إننى طبيبة . أن شيئا مما كتبت أو قلت لا يمنعنى من العمل » . وأضافت : « أنا عندى أطفال وأنا رئيسة بنك الدم ، وأشارك فى الأنشطة الاجتماعية ولم اتغيب يوما أبدا عن عملى » .

الا أن القذافى ظل على تمسكه برأيه وقال : « أنا مصر على أننى على صواب . فهل تستطعن العمل طوال اليوم فى البناء أو حفر طريق أو حمل شحنات ثقيلة على ظهوركن ، بينما أنتن حائضات ؟ » .

وانفجرت الحاضرات فى صيحة عالية : « نعم . . نعم . . لو اتيحت لنا الفرصة » .

وعلى المسرح كان زوجى يحملق فى القذافى فى ذهول ، وفى مقاعد المتفرجات كانت المرأة تلو الأخرى تنحنى خجلا حتى قدميها .

قالت أمينة السعيد ، صحفيتنا اللامعة : « ربما نسيت يا سيادة الرئيس أنه فى عصر الرسول كانت المرأة تشارك فى حمل عبء الكفاح ، وكانت تقاتل جنبا إلى جنب مع الرجل ، فكيف تقول بعد قرون طويلة جدا أن المرأة لم تعد على قدم المساواة ؟ » .

فقال القذافى ، وصوته يرتفع : « أنا مصر على أننى على صواب » وأضاف موجها كلامه للمرأة : « هل يمكنك العمل طوال اليوم فى مصنع ، وتقفين أمام الافران مثل الرجل ؟ هل يمكنك تحمل الحرارة ؟ لا اعتقد ، فالسخونة ستفسد جمالك ، وهو ما سيكون فى غاية القسوة عليك . . إن هناك وظائف معينة للرجال ووظائف معينة للنساء » .

صاحت السيدات : « لا . . لا . . » .

فهمست إلى صفية قائلة : « لا داعى للقلق » وقد صارت لا حيلة لها إلا الاحساس بغضب النساء تجاه زوجها . وقلت : « دعى السيدات يعبرن عن أنفسهن » وربما طلبن من زوجك توضيحا لموقفه من المرأة » إلا أن الاجتماع لم يتحول إلا إلى عاصفة أشد .

وانتظرت أن ينهى زوجى الجلسة ، ولكنه لم يفعل . ومن نظرتى إلى وجهه ادركت أنه كان مستمتعا بهذه المواجهة ، تاركا القذافى يقول ما يشاء . والواقع أن زوجى كان يحاول أن يمنع نفسه من الانفجار فى الضحك ، وهو الضحك الذى انفجر فيه فى النهاية ونحن فى طريقنا معا إلى الاستراحة عقب الاجتماع .

وقال وهو يضحك حتى ملأت الدموع عينيه : « ه يا جيهان لو رأيت وجوه

السيدات . ولو كنت أنا القذافى لكان أحرى بى أن أواجه جيش اسرائيل بأكمله بدلا من هذا الموقف » .

وأغفينا قليلا بعد الغداء ، وأثناءها اتصل أحد مساعدى أنور بالتليفون ليقول ان القذافى فى طريقه لزيارتنا . وارتديت ملابسى على عجل ونزلت قبل أنور لأجد القذافى فى ثورة غضب ومعه اثنان من رفاقه الثوريين وهما عبد السلام جلود وعمر المحيشى .

وقال لى القذافى فى غضب : « لا أحب أن أقول لك هذا يا أخت جيهان ، ولكن بعض أولئك السيدات لسن على مستوى طيب » .

وسألت الرجل الذى استشاط غضبا : « مثل من يا أخ معمر ؟ » فرد قائلا : « أمينة السعيد ، هل تعرفين أنها تدخن ؟ » قالها فى سخرية كما لو كان تدخين سيجارة ينطوى على أثم . فقلت له : « ولم لا ؟ إنه اختيارها » .

فقال : « حسنا ، هناك ما هو أكثر من ذلك ، وأنا أكره أن أقوله » .

فسألته : وماهو يا أخ معمر ؟

وبعد وقفة قال فى صوت عميق : « لقد سمعت أنها تشرب البيرة » .

التزمت الثبات وقلت للقذافى : « وهكذا يفعل الثوريون من حولك ، إنها مسألة شخصية بينهم وبين الله » .

فحملق القذافى . .

وقلت له بينما كان أنور فى طريقه إلى داخل الحجرة « أنا آسفة إذا كانت السيدات فى الاجتماع قد سببن لك ضيقا » وقلت ؛ « ولكن من الصعب على المرأة أن تجلس فى هدوء وأنت تقارنها بالبقر ، حتى البقرة كان لابد أن يسيئها وصفك لها وأن ترفضه . لأن لها أعمالا أخرى فى الحياة أكثر من مجرد رضاعة صغيرها » .

ولكن القذافى لم يغير أبدا من تفكيره ، وأصبحت أزداد قلقا من سلوكه .

على الرغم من سلوك القذافى نحو المرأة ، فإن صاحبات النشاط النسائى فى ليبيا ظللن على كفاحهن الشجاع من أجل حقوقهن ، وكذلك فعلت المرأة فى بقية أرجاء العالم الإسلامى ، حيث حققت مزيدا من المكاسب فى سعيها نحو الحرية ، وعلى الرغم من أن كفاحنا لم يكن كالكفاح الذى كان يجرى فى الغرب ، وإن مطالبنا لم تواجه نفس الظروف ، إلا أن ثمة تقدما عظيما كان قد تحقق ، وكان ثمة شعور بالفخر يجتاح المرأة فى الشرق الأوسط .

سألتنا فرح ديبا زوجة شاه إيران : « كيف تقنعون الفلاحين بإرسال بناتهم للمدارس ؟ » وذلك بمجرد وصولنا أنا وأنور إلى طهران فى يونيو عام ١٩٧٦ وأضافت : « كيف تجذبون المرأة إلى برامجكم المهنية ؟ » .

لقد ذهبت فى صحبة أنور فى جولة من الزيارات الرسمية إلى إيران والسعودية والإمارات العربية ، وفى كل مكان نذهب إليه كان يسرنى للغاية أن أرى النمو فى وعى المرأة ، وفى طهران كانت أسئلة فرح ، تماما كأسئلة الملكة عاليه ، لا تتوقف ولم أكَلّ أبدا من الرد عليها .

وخلال الأيام الأربعة التى قضيناها أنور وأنا ضيوفا على الشاه نما بينى وبين فرح احترام وفهم متبادلان . ولقد هزتنا درجة الشبه بين تاريخ المرأة فى بلدينا ، وأننا لا نزال نواجه جما من نفس التحديات . وقالت لى فرح أنه فى الأعوام الأولى بعد سنة ١٩٠٠ ، تظاهرت النساء الإيرانيات ضد القوات الروسية والبريطانية فى إيران بنفس الطريقة التى تظاهرت بها هدى شعراوى وزميلاتها فى مصر ، ومثل هدى شعراوى وزميلاتها بدأت هؤلاء النساء فى تعليم الفتيات فى بلادهن بعد ذلك بقليل ، وبيع حليهن لإنشاء أول مدرسة إيرانية للبنات . ومثلى ومثل كثير من النساء اللاتى عرفتهن فى القاهرة ، حاولت فرح ومجموعة من النساء كن على درجة عالية من الحماسة مواصلة هذا التقليد ، بتحويل المنازل القديمة إلى دور حضانة ، وفتح مدارس ومراكز لتعليم المرأة الحرف والقراءة والكتابة .

وأخذتنى فرح أيضا لمشاهدة أحدث مستشفيات ومدارس ودور حضانة فى طهران ، ولقد ترك ما شاهدته انطباعا شديدا بإخلاصها لقضية التعليم . وفى أحد

المعاهد التعليمية عرض على فيلم يصور جهود فرح فى تعليم القبائل البدوية المنعزلة داخل الصحراء التى كانت لا تزال تحيا حياة التنقل كما كانت من قبل . لقد تأثرت بإخلاص فرح وأنا أرى شحنات الكتب المدرسية فى شاحنة فى طهران لتبدأ رحلتها أولا على طرق سريعة معبدة ثم عبر طرق أكثر بدائية وفي النهاية إلى داخل الصحراء حيث ينتهى طريق سير السيارات ، فتحمل الكتب على ظهور الخيل لاستكمال الرحلة إلى المدرسين الذين كانوا يجوبون مخيمات البدو .

كان هذا شأن كل لقاء لى مع فرح ، وكانت الشهبانو قد زارت مصر مع زوجها بعد أن بدأ أنور - بعد توليه رئاسة الجمهورية بقليل - فى إعادة العلاقات الطبيعية مع إيران ، ولكن الشاه وزوجى كانا يعرفان بعضهما منذ أعوام عندما كانا ضابطين وتخرجا بنفس الرتبة من الكلية الحربية ، وكان أنور يحب تذكير الشاه بأول مرة رآه فيها وذلك أثناء عرض عسكرى فى القاهرة فى عام ١٩٣٨ ، للاحتفال بزواج الشاه من شقيقة الملك فاروق ، وكان أنور يذكر الشاه بذلك ويقول ضاحكا : « لقد كنت تجلس فى منصة مرتفعة وأنا كنت أمر أمامك أثناء العرض » ، ويقول له : « كانت المسافة بيننا صغيرة جدا ولكنها فى الحقيقة كانت كبيرة لأنك كنت وريث العرش ، وأنا كنت ضابطا صغيرا جئت من قرية لم تسمع عنها أبدا » .

وبعد ثلاثين عاما التقى أنور مرة أخرى مع الشاه فى مؤتمر القمة الإسلامى فى الرباط حيث بدأت علاقتهما بمشاجرة ، فبعد إحراق المسجد الأقصى على يد سائح مخبول فى عام ١٩٦٩ ، أرسل عبد الناصر أنور ممثلا لمصر للتباحث مع زعماء الدول الإسلامية فى الخطوات التى يجب اتخاذها لحماية الأماكن المقدسة الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلى ، ووجد زوجى أن مقترحات الشاه حول هذا الموضوع ضعيفة وأبلغ الزعماء بذلك باللغة العربية ، ورد الشاه على ذلك بغضب وأدرك أنور أن ملاحظاته كانت أشد إثارة لأنها حرفت عند ترجمتها إلى اللغة الفارسية كى يفهمها الشاه ، فخطب فى أعضاء القمة باللغة الفارسية ، وابتسم الشاه الذى كان معروفا بأنه لا يضحك ولا حتى يبتسم إلا فى القليل النادر . .

ابتسم ابتسامة بالغة لتحية أنور ، ووضعت بذور صداقة عمر ، وكان أنور مغرما بأن يقول للشاه أنه « ما محبة إلا بعد عداوة » مستشهدا بأحد أمثالنا العربية ، وعلى الرغم من أن خلفياتهما كانت مختلفة كثيرا إلا أن زوجى والشاه كانا يشتركان بالمصادفة فى كثير من الأمور ، فكلاهما ولد فى عام ١٩١٨ ، وكلاهما تخرج فى أكاديمية عسكرية فى عام ١٩٣٨ بنفس الرتبة ملازم ثان ، وكلاهما قاد واحدة من أقدم بلاد المنطقة وأقدم حضارتين فيها ، وهما الإمبراطورية الإيرانية التى تعود إلى ٣٥٠٠ سنة والحضارة المصرية التى تعود إلى سبعة آلاف سنة . وهذا الربط بين بلدينا ، كان له مغزى خاص فى تحالف الرجلين .

لكم أتذكر الرحلة جيدا ، وهى رحلتى الوحيدة لإيران ، ليس فقط لازدهار صداقتى مع فرح والتى ظلت حتى اليوم ، ولكن أيضا لمفاجأة الولادة المبكرة لأول حفيد لنا ، شريف . كنت أستريح فى الفندق قبل حضور مأدبة عشاء كبيرة أقيمت تكريما لنا عندما فتح الباب فجأة وأخبرونى أن مكالمة تليفونية تطلبنى من القاهرة « مبروك . . نهى . . جاء حفيد » . احتضنت وقبلت كبرى بناتى لبنى التى جاءت إلى إيران معنا وانهمرت فوق وجوهنا دموع الفرح بينما خر أنور إلى الأرض ساجدا . وقال داعيا بصوت مرتفع وهو يمعن فى السجود على أرضية الجناح الذى أقمنا فيه « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

وطرنا بعد ذلك إلى السعودية . .

« حمدا لله على السلامة » كانت هذه تحية الملك خالد لى فى مطار جدة وهو يصافحنى ، وقال لأنور أيضا « حمدا لله على السلامة » وهو يحتضنه ويقبل وجنتيه . ورددنا معا « الله يسلمك » .

وكان الملك خالد وعشرون أميرا سعوديا على الأقل مصطفين لتحية أنور فى المطار وقد ارتدوا ملابسهم البيضاء التقليدية ولباس الرأس السعودى ، وحيانى كل أمير فى أدب قائلا : « حمدا لله على السلامة » وكانت كاميرات التليفزيون تعمل

بينما التف حولنا المستقبلون بصوان من عصير الفاكهة واللبن المثلج الممزوج بالنعناع ، وكان الصحفيون يعرفون وأنور يعرف وبالتأكيد الأمراء السعوديون يعرفون أن هذه اللحظة كانت فريدة فى نوعها فقد اخترت أن أدخل المملكة مع زوجى أثناء الاستقبال الرسمى .

لم يلبث الأمراء السعوديون أن اندهشوا عندما ظهرت على باب الطائرة بجانب أنور . لم أشعر بأى استنكار . لقد كان الأمراء دبلوماسيين للغاية بحيث لم يظهروا أى انفعال يسىء إلى أو إلى زوجى وهو الأهم ، وذلك لأنه من المعروف أن مثل هذا المجتمع المحافظ المتشدد لا يستسيغ ظهور امرأة مسلمة علانية بصحبة رجال وأوضحت السفارة السعودية فى القاهرة هذا لنا جيدا قبل أن نبدأ رحلتنا ، واقترحوا أن أظل فى الطائرة عند وصولها لمدة ساعة أو نحو ذلك حتى يفرغ زوجى والأمراء من التحية ويغادروا المطار ، وأشارت السفارة إلى أن هذا كان هو الحل الذى اختارته حرم الرئيس تيتو رئيس يوجوسلافيا عندما اصطحبها زوجها فى زيارة رسمية للمملكة فى الأسبوع السابق ، ولكننى اعترضت ، وقلت لزوجى بعد استلام رسالة السفارة السعودية : « أنا لا احتاج لأحد كى يخبرنى أو يعلمنى كيف أكون امرأة مسلمة صالحة ، وأنا احترم دينى احتراما شديدا ، ولا أفعل شيئا ضد الإسلام . إن عملى مع النساء والأطفال والفقراء هو فى الواقع استجابة لما يدعو إليه الإسلام ، لماذا يجب أن أتوارى عن النظارة لمجرد أننى سيدة ؟ أنا لا احتجب عن الرجال فى مصر ، ولن أفعل ذلك فى أى مكان آخر سواء كنت فى اليابان أو فى السعودية أو فوق القمر ، أنا لن أغير شيئا » .

وبدا أنور مشدوها خلال خطبتى ثم قال : « أنا لست مندهشا لسماع رد فعلك ، لقد وافقت على موقفك منذ وقت طويل ، والآن قد يستغرق ذلك منهم وقتا أطول » .

فى ذلك اليوم تعقبتنى كاميرات التليفزيون السعودى وأنا أغادر صالة الاستقبالات فى المطار مع الأمراء السعوديين ، وتعقبتنى مرة أخرى وأنا أصحب شقيق الملك الأمير فواز بن عبد العزيز أمير جدة إلى الليموزين بينما ذهب أنور فى

سيارة أخرى مع الملك ، وفى الطريق سألته أسئلة كثيرة عن الخدمات التى تقدمها الأسرة المالكة لرعاياها وعنايتها باليتامى والعاجزين والمكفوفين . وسألته أيضا عن وضع المرأة فى المجتمع السعودى وقلت له : « لقد سررت وأنا أجد المرأة تعمل مضيفة جوية ، عندما تفضل الملك وقدم لى الطائرة الملكية للطيران من جدة إلى المدينة فى أثناء العمرة الأولى لى ، وظننت أنه أخيرا سمح للمرأة السعودية بالعمل ، ولكن بمجرد أن سمعت لهجة المضيفات عرفت أنهن غير سعوديات ولكن لبنانيات وآمل فى القريب أن يصحبنى سعوديات » .

« قريبا » قالها الأمير بطريقة مبهمة « قريبا » وتساءلت كيف يكون قريبا ، والمرأة فى السعودية لم تبدأ إلا مؤخرا فى ممارسة حقوقها ، ومازال أمامها شوط طويل حتى تصل إلى نهاية الطريق . ولكن ما من شك فى أنها كسبت الكثير فى خلال خمسة عشر عاما فقط ، فحتى عام ١٩٦٠ لم تكن الحكومة السعودية قد أقامت بعد أول مدرسة للبنات ، بل أنه آنذاك تظاهر كثير من الرجال ضد المدرسة حتى لقد استدعى الحرس الوطنى لإستعادة النظام ولكن الملك فيصل وقف بثبات فى وجه خصوم تعليم المرأة وأصر على أن للمرأة حق التعليم وأنفق الملايين من الريالات على تعليم البنات ، وكان هو الذى أنشأ أول جامعة للبنات فى عام ١٩٧٣ وكانت خطوة عظيمة للأمام فى دولة تأصلت فيها بعمق معتقدات قبلية حول مكانة المرأة ، وتنقسم فيها خيام البدو إلى قسمين : أحدهما للنساء والآخر للرجال ، وحتى أعلى النساء السعوديات تعليما وجدن فرصهن مقيدة بشدة من جراء التقاليد المشددة التى تحميهن بإجبارهن على الوجود فى عالم منشطر .

وفى هذه الليلة ، وبينما كان أنور يحضر مأدبة فى أحد القصور الملكية مع الملك والأمراء ، حضرت أنا مأدبة أخرى فى قصر الملكة مع ثلاثين أو نحو ذلك من أميرات الأسرة المالكة وصديقاتهن ، ووصلت الضيفات واحدة بعد الأخرى فى سيارات الليموزين التى كانت نوافذها مظللة بالسواد حتى لا يراهن أحد . وكان جميع الأميرات يرتدين أزياء جميلة تحت العباءات السوداء البسيطة التى أرتدينها للمرور من سياراتهن إلى القصر ، وجميعهن كن قد سافرن كثيرا وتعلمن

جيدا . وعلى الرغم من أن دور السينما والمسارح وقاعات الموسيقى بل كثيرا من الكتب غير مسموح بها فى السعودية ، إلا أن كثيرا من هؤلاء السيدات أحضرن معهن أجهزة ستيريو وكتبا وشرائط موسيقية وأفلاما من الخارج .

وبينما اتخذن أماكنهن على المقاعد والأرائك المصفوفة على شكل دائرة على الطريقة العربية فى الصالون كان من الصعب على أن أميز بينهن ، فكل ضيفة منهن كانت أما ابنة عم أو خال أو عمة أو خالة أو أختا أو ابنة زوج للأخريات . وهناك بروتوكول لمثل هذه المجالس ، ففى مصر كانت زوجة وزير الدفاع مثلا تعرف أين تجلس من زوجة نائب الرئيس . أما فى السعودية وسائر الدول العربية فكل شخص يجلس حيثما يشاء .

وأنسابت المحادثة بسهولة بعد تناول الحلو من الفاكهة والفطائر المطعمة بالعسل وفنجان وراء فنجان من القهوة اليمنية المغلية بالحبهان للمساعدة على الهضم . وسألتنى الأميرات والضيفات عن آخر مشروعاتى ، ونحن فى طريقنا إلى الحدائق خلف القصر ، وتحيط بها الأسوار وتنتشر فيها رائحة الياسمين وأشجار الليمون وقلن : « إن ما تفعلينه ليس فقط من أجل مصر ولكن من أجلنا جميعا » . لقد كن مبهورات كما أخبرتنى بالصور التى رأينها فى الصحف خلال حفلات افتتاح المشروعات الخيرية ومشاريع العمل المختلفة التى قمت بها . ولم تكن أى امرأة سعودية لتستطيع أن تظهر صورتها فى الصحف أو أن تظهر فى التليفزيون . أن المرأة فى السعودية لم تكن تعرف ما معنى أن تعيش فى مجتمع لا يميز بين الرجل والمرأة . وفى الليلة التالية وخلال حفل العشاء الذى أقيم فى منزل شقيق الملكة اجتمع مزيد ومزيد من النساء وسألننى عن مصر ، وقالت إحدى خريجات الجامعة : « كم هى محظوظة المرأة المصرية فهى تستطيع أن تخرج بحرية دون أن ترتدى العباءة أما هنا فنحن مختفيات ولا يعرف أحد عنا شيئا . نحن بلا هوية أما المرأة المصرية فإنها تستطيع أن تلتحق بأى دورة دراسية . أما هنا فلا يمكن أن نلتحق إلا بقسم الدراسات الإنسانية ولا يمكن أن ندخل مدارس الهندسة أو القانون ولو مارسنا الطب فإما أن نكون طبيبات أطفال أو طبيبات نساء .

قلت لها : « إن عليكن أن تبدأن بالكفاح من أجل حقوقكن » ، وهو ما كنت أقوله أيضا لكل جماعة نسائية » لن يقدم أحد لكن هذا ويقول هذه حقوقك أيتها المرأة ، هذا لن يحدث أبدا ، فإن لم نقاتل من أجل أنفسنا فلن يقاتل من أجلنا أحد . وتذكرن المثل القائل : ما تبكى علينا غير عينينا » . وسألتنى ضيفة أخرى للأسرة الملكية : « ولكن كيف نبدأ ؟ أننا نقوم بأعمال خيرية ، نعم ، ولكن عندنا ساعات فراغ كثيرة وإمكانياتنا محدودة للغاية ولا تجرؤ واحدة منا على أن تشارك فى عمل الرجل ، لأننا نخشى أن ننبذ من مجتمعنا ولا نقبل فيه فهل هذا يحدث فى مصر ؟ » .

أكدت للفتاة أنى لم أجد ذلك أبدا فالرجل والمرأة يعملان جنبا إلى جنب فى مصر والرجل يقبل ذلك ، كما لم أجد هناك خلافات فى العمل سواء كان مع الرجل أو المرأة . وقالت أخرى : « لكننا نخاف .. اننا لا نعرف ما يحدث لو خرجنا دون حجاب أو اختلطنا بالرجال فى العمل » .

وقلت لها : « قومى بوظيفتك كما يريد الله واذكرى كلماته فى القرآن : « إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » ولكن دعينا نكن عمليات فلو لم يرد الرجال لك أن تكسبى رزقك بنفسك فاستمرى فى العمل من أجل الخير ، ولكن مع زيادة فى الجهد ، فاذهبى إلى المشروعات الخيرية ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع ، واجعلى الرجال يشعرون بأنك صاحبة مسئولية ثم اخرجى أكثر وأجعليهم يعتادون ذلك وطالبى بالتنازلات تدريجيا ، ولتبدئى بأصغر الأشياء من البداية ولكن لا تكفى أبدا عن مطالبك بالتقدم وذات يوم سوف تجدين نفسك منقادة بنفسك إلى العمل ، وعندئذ سيكون فخرك بإنجازات بلا حدود » .

وفى اليوم التالى عندما كنا أنا وأنور فى طريقنا لمغادرة البلاد شاهدت زوجى والملك خالد يضحكان معا فسألت أنور ونحن فى الطائرة متجهين إلى أبو ظبى : « ما الذى كان مضحكا هكذا ؟ » ، قال أنور : « كان الملك خالد يحدثنى كم هو مسرور بزيارتك وقال لى : أن من الأفضل أن أحذر جيهان من أن تحاول أن تشعل ثورة بين النساء » . قلت : « أود لو استطعت ذلك ، ففى كل خطوة صغيرة

تكسب المرأة أرضا » . والآن فى السعودية بنوك تديرها وتعمل بها المرأة .

وفى مطار أبوظبى كان فى استقبالنا الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية ، وقال لى وهو يصافحنى : « حمدا لله على السلامة ، لقد استمتعنا بمشاهدة وصولك أمس إلى جدة فى التليفزيون ، وكانت كل النساء فى غاية السعادة لذلك » . ونظرت إليه مندهشة لا أعرف إن كان يتحدث بصدق أم يجاملنى . واستأنف الشيخ زايد قوله لزوجى مبتسما : « زوجتك ثورية مثلك تماما يا سيادة الرئيس » ، وأمعن الشيخ زايد النظر عبر كتفه وخفض صوته وقال لى : « اليوم ولأول مرة تجىء زوجتى للمطار لتحية ضيف أجنبى ، وهى آسفة لأنها لا تستطيع التقدم لتحيتك أمام الصحافة لأن هذا سيكون أمرا غير مقبول عندنا ، ولكنها ستلتقى بك عندما يرحل الرجال ، وستركب معك السيارة » .

كنت مسرورة . تحول آخر . وفى صمت ابتهجت لأجل زوجته الشيخة فاطمة التى كنت أحبها إلى أقصى حد ، فقد كنت قابلتها فى رحلة قبل ذلك إلى أبوظبى ، وأجبته : « إنه يشرفنى كرم ضيافتك وضيافة زوجتك » .

وفى هذه الليلة أقيمت لنا مأدب العشاء التقليدية ، أنور يتناول عشاء مع الرجال وأنا مع النساء وكانت الشيخة فاطمة قد رتبت استقبالا كبيرا لى ، دعت إليه زوجات كل الدبلوماسيين الأجانب وزوجات الوزراء وسيدات العائلات الكبيرة فى أبوظبى حتى الخدم كن نساء هنديات ، وباكستانيات من أولئك اللاتى يشكلن نسبة كبيرة من القوة العاملة فى الخليج وقد بدا لى هذا شيئا غير عادى لأنه فى بلدنا وحتى فى السعودية ، يجرى التقليد على أن يقوم رجال بخدمة الضيوف فى أى استقبال رسمى .

وسألتنى نساء أبوظبى فى اليوم التالى أثناء اجتماع كبير نظمته الشيخة فاطمة : « كيف فعلت الكثير فى مصر ؟ » . كان قد تجمع خمسون سيدة أو نحو ذلك بعضهن صاحبات نشاط اجتماعى والباقيات يردن أن يصبحن كذلك .

وقلن لى « أن لدينا محامية واحدة ، ولكنها من أسرة بارزة ولم يسمح لها

بالالتحاق بوزارة العدل خشية أن يلحقها العار ، وعندنا مهندسة واحدة ولم تعمل مهندسة وإنما حصلت على وظيفة فقط لأن أخاها يعمل بنفس القسم . أننا لا نستطيع أن نعمل حتى سكرتيرات لأنه غير مسموح لنا بالظهور أمام الرجال » .

قلت لهن : « هذا من سوء الحظ . إن فى مصر كثيرات من السيدات العاملات . إن ذلك فى النهاية سيجعل من السهل على المرأة أن ترقى إلى مواقع أعظم فى المسئولية . ولكن إن لم تستطعن العمل مع الرجال ، فأبحثن عن أشياء تستطعن عملها دون أن تغضبن الرجال . ساعدن فى المستشفيات ، أعقدن أسواقا خيرية لزيادة أموال المشروعات الخيرية أبدأن بهوادة . ولكن أبدأن »

وسألتنى واحدة : « وماذا لو رفض أزواجنا أن نخرج أمام الناس ؟ »

قلت لها : « عندئذ ، يجب طاعتهم بالطبع . أخرجى فى سيارة نوافذها مظلمة ، أو أعملى فى البيت بدلا من الخروج ، ووجهى الدعوة لنساء أخريات لمساعدتك ، تستطيعين حياكة أثواب مستشفيات المرضى أو صناعة أشياء يدوية للأسواق الخيرية . إن هناك أشياء كثيرة يمكنك عملها لتكسبى الاحترام . ولكن المهم هو أن تبدأى » .

كنت أعرف أن ذلك صعب على هؤلاء النساء ، لأنه فى أبو ظبى كما هو الحال فى كثير من دول الخليج الصغيرة لم تكن هناك حينئذ جامعة ، ولكن هذا لم تكن له أهميته بالنسبة للرجال ، فقد يسر بالمنح الدراسية الحكومية السخية لكل راغب فى الدراسة فى الخارج . ولكن بالنسبة للنساء اللاتى يحتجن إلى إذن عائلاتهن لمغادرة البلاد كان الموقف صعبا للغاية . وحتى الآن لم يتلق التعليم العالى فى أبو ظبى إلا أقل من مائتى سيدة معظمهن خريجات جامعات مصرية . ومع ذلك فقد كنت على ثقة من أن كثيرا من هؤلاء المجتمعات حولى سوف يحققن قريبا آمالهن . فقد كان من المقرر أن تفتتح أول جامعة فى البلاد فى عام ١٩٧٧ . ومع الشيخة فاطمة كزعيمة لنساء أبو ظبى ، فإن هؤلاء السيدات كن فى أيد صالحة .

إن الشيخة فاطمة تعمل وتقاتل من أجل حقوق المرأة ، ولكى تقدم مثالا للآخرين ، كانت مستمرة فى تعليمها تدرس الإنجليزية وتتقن العربية . وفى أنحاء أبوظبى ، بدأت برامج لمحو الأمية للسيدات فى المناطق الريفية والحضرية . وفى عام ١٩٧٣ ، امتدت بسرعة وافتتحت لها فروعا فى أربع من الإمارات الأخرى لاستئصال الأمية وتدريب المرأة على التجارة .

وكان تعليم الجيل التالى من النساء فى أبوظبى ذا أهمية خاصة للشيخة فاطمة ، التى حظيت بقدر قليل من التعليم خلال طفولتها . لقد نظمت أربع برامج تليفزيونية كى تذاع على الهواء لتشجيع الناس على إرسال بناتهم وكذلك أولادهم إلى المدارس الابتدائية والثانوية التى أنشئت حديثا فى البلاد . وهؤلاء الذين لم تتمكن من الوصول إليهم عن طريق التليفزيون ذهبت إليهم شخصيا . وعندما سمعت بأن البدو فى الجنوب سحبوا فجأة جميع بناتهم فوق سن الثامنة من المدرسة الجديدة ، طارت إلى المنطقة ورجت كل أسرة أن تعيد النظر . ومن منطلق الاحترام لها استجابت هذه الأسر لرجائها .

وإزداد احترامى الشخصى للشيخة فاطمة إزديادا كبيرا عندما حضرت ، فى تلك الليلة الاجتماع المفتوح « المجلس » الذى تعقده أسبوعيا بجميع النساء فى بلدها . وعلى الرغم من أن الزعماء الرجال لكثير من دول الخليج يعقدون « المجلس » بانتظام للاستماع لمشكلات رعاياهم ، فإن الشيخة فاطمة أيضا عقدت هذا « المجلس » من أجل النساء . وقد أعجبت بهذا التقليد الذى لم يكن عندنا فى مصر ولكنه مستمر حتى ذلك اليوم فى كثير من البلاد العربية . وليس هناك أحد فى حاجة لأن يدعى مسبقا إلى اجتماعات هذا المجلس فكل فرد بدءا من رعاة الغنم حتى كبار المسئولين يكون موضع ترحيب . وكان المئات يذهبون بعد الصلاة جماعة مع قادتهم قبل المجلس ويشاركونهم وجبة طعام بعده . وكان مقدمو الالتماسات يجلسون فى صبر لساعات منتظرين دورهم فى الكلام بينما الخدم يمرون بصوانى الطعام وأكواب الشاى المنعنع . والبعض كان يأتى لمجرد إسداء النصيحة للزعيم ودائما كان الزعيم يصغى . إنه جزء من الإسلام ألا تكون

دكتاتورا ولكن تأخذ فى اعتبارك دائما مبدأ « الشورى » ونصائح الآخرين .

ومع ذلك فقد كان معظم المشاركين فى هذه المجالس يأتون لطلب مساعدات من الحكومة فى إرسال أحد أعضاء الأسرة إلى الخارج للعلاج الطبى ، أو قرض لمساعدة الأسرة على مدار السنة إذا فشل محصولها ، أو مساعدة الزعيم فى التحقيق فى أحد المساوىء أو الوساطة فى نزاع . فإن استطاع الزعيم تلبية رغباتهم فعل . أما إذا لم يكن على علم بما يكفى لتلبية التماس معين ، كمسائل الضرائب ، فإنه يصدر توجيهاته بالتحرى لأحد الخبراء فى هذا المجال . وجميع الالتماسات يتم الرد عليها ، وذلك من قبيل المحافظة على تقاليدنا الإسلامية . ويقال أنه فى أثناء عصر الرسول ، كان أى شخص يقدم التماسا للنبى « محمد » ﷺ أو صحابته فإنه كان يحصل على تأكيد بالمساعدة ، ومما أثر عن النبى ﷺ أنه قال « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » . ولذلك لو طلبت مساعدة من أى مسلم يستطيع أداءها فإن عليه القيام بها ، سواء أكانت مالا أم نصيحة أم طعاما أم مأوى . وعندما يصبح طالب المساعدة قادرا على سداد دينه أو رد المساعدة فإنه يفعل .

وفى اجتماع الشيخة فاطمة ، كانت السيدات الجالسات فى صالونها الكبير يتحدثن بما يفكرن فيه بصراحة ويجهرن بمطالبهن كالحاجة إلى مال لارساله إلى زوج فى الخارج ، أو طلب تدخلها فى نزاع بين زوج وابنه . وقد قالت إحداهن لها : « أنهما يتشاجران بمرارة » فزوجى يريد من ابننا أن يعمل معه فى متجره ولكن ابنى يريد أن يعمل فى الحكومة » وقالت الشيخة فاطمة انها سوف ترسل إلى ابنها ممثلا شخصيا لها للتوسط وعقد مصالحة .

ولم تعبر النساء اللاتى كان عليهن الانتظار لساعات للتكلم عن ضيقهن أبدا . أما « مجلس » الرجال فكان تجمعا اجتماعيا كما كان تجمعا سياسيا ، أما هنا فالمجلس تجمع نسائى ، يتعلمن بعضهن من بعض ، ويعبرن عن آرائهن . وكانت زوجات الدبلوماسيين الأجانب يدعين للحضور كذلك ، وكانت سكرتيرة الشيخة فاطمة مصرية خريجة الجامعة الأمريكية فى القاهرة وتتحدث

الإنجليزية والفرنسية وتقوم بالترجمة لها . لقد عدت إلى مصر وأنا شديدة التأثر بالمجلس . كان القادة والشعب يعملون معا ويأكلون معا ويحلون مشكلاتهم معا ، ولم يكن هناك حاجز بين الغنى والفقير ، أو بين هؤلاء الذين فى السلطة والذين يحكمونهم . وفى عام ١٩٧٥ قتل الملك فيصل . . . قتله أحد أقاربه بينما كان يعقد المجلس فى الرياض . .

كنت دائما أقابل بأعظم درجات الاحترام والتقدير حيثما سافرت . وكنت بدورى أحث النساء اللاتى التقى بهن فى الخارج على المجىء إلى مصر لزيارتى . وكثير منهن فعلن . وكانت الشيخة فاطمة أول زوجة زعيم فى الخليج تسافر بمفردها عندما زارتنى بعد فترة قصيرة من زياراتى لها . . لم يطلب الشيخ زايد سوى أن لا تظهر صورتها فى الصحف . وجاءت إلى مصر أيضا « فرح ديبا » إمبراطورة إيران مرات عديدة ، كما جاءت « إيريس فريحة » زوجة الزعيم اللبنانى ، وبثينة نميرى » من السودان .

وكنت دائما أدعو ضيفاتى إلى مشاهدة المشروعات والاجتماع بالتنظيم النسائى فى القاهرة وزيارة مشروع (تلا) ، وكنت أصحبهن إلى المصانع والجمعيات العمالية فى القرى حيث يشاهدن نساءنا المصريات يعملن جنبا إلى جنب مع الرجال لإنجاز شىء أفضل لأنفسهن . ولكن مع كل تقدمنا فى مصر كانت هناك منطقة حساسة ظلت المرأة تعانى من بعض عيوب فيها .

منذ عام (١٩٢٩) تعرضت المرأة فى مصر لقوانين الأحوال الشخصية وهى القوانين التى أوضحت بجلاء شديد أن مكانة المرأة أدنى من مكانة الرجل ، ولقد ناضلت الجمعيات النسائية مثل الاتحاد النسائى المصرى لأعوام طويلة لإصلاح بعض هذه القوانين المهينة خاصة تلك المتعلقة بالزواج والطلاق . وفى مصر ثمانية وتسعون فى المائة من النساء متزوجات ومع ذلك فإن هذه القوانين التى كانت تحكم الزواج والطلاق كانت تميز بينهن وبين الرجال بصورة قاسية . وفى عام ١٩٧٧ التحقت بركب الكفاح من أجل إعطاء المرأة عدلا وأمنا أكبر داخل

الأسرة . وطيلة العامين التاليين كان إصلاح قوانين الأحوال الشخصية هو أهم قضية فى حياتى .

وهناك بعض القوانين التى لا حيلة لنا فى عمل شىء تجاهها . فقد سمح القرآن مثلا للرجال بتطليق زوجاتهم بإرادتهم ولكن ما هو قابل لقدر كبير من المناقشة كان هو الحال الذى أساء الرجال من خلاله استخدام هذا الامتياز . يقول الله تعالى : « **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** » (صدق الله العظيم) (سورة البقرة) . لقد أوصى كثير من العلماء بأن ينتظر الرجل على الأقل بين كل مرة ومرة ، على الرغم من أنه مسموح للرجل ببساطة أن يكرر كلمات « أنت طالق » ثلاث مرات أثناء مشاجرة واحدة لينهى زواجه . وغالبا ما يأخذ الرجال بهذا الخيار المتسرع ، بل أن بعض الرجال لم ينطقوا حتى بكلمة الطلاق أمام زوجاتهم . بل أن بعض الزوجات لم يتم إبلاغهن بأن أزواجهن قد طلقوهن ، وهى قسوة من أسوأ نوع ، على الرغم من أن سورة النساء فى القرآن تحض الرجال على معاملة زوجاتهن بالإحسان « **فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** » (صدق الله العظيم) . وكان على المرأة ـ إذا رغبت فى الانفصال عن زوجها ـ أن ترفع دعوى بالمحكمة لإنهاء زواجها وأن تثبت جبروت زوجها وعجزه عن إعالتها ، وأنه غير سوى أو مريض بمرض مزمن أو يسىء إليها بصورة خطيرة . ولكن لم يكن الطلاق يمنح لها لأن زوجها يضربها بحيث لا يحدث بها عاهة مستديمة ، أو لأنه يتخذ زوجة أخرى أو لأنه يعاملها كالأمة ، على الرغم من أن هذه الأفعال لم تكن بكل تأكيد من « الإحسان » . وبينما كانت الزوجة تنتظر تظل المحكمة تنظر فى دعواها أحيانا لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام تكون خلالها ملزمة قانونا بتقديم الطاعة الكاملة لزوجها حتى تفصل المحكمة فى الدعوى .

لقد شاهدت هذا الظلم بنفسى مع واحدة من قريباتى . . والنساء من العائلات الراقية لا يرفعن دعاوى فى المحاكم من أجل الطلاق لأن مثل هذا العمل العلنى لم يكن موضع احترام ، وإنما وبدلا من ذلك ـ كما فعلت قريبتى ـ عليهن

أن يسعين لدى آبائهن أو أقارب آخرين من الذكور للتدخل . . لقد كانت قريبتى فى غاية البؤس فى زواجها لدرجة أنها ذهبت لوالدها مهددة بالانتحار إن رفض أن يطلب من زوجها البخيل جدا أن يطلقها . كان يعد قطع الشيكولاتة فى أى علبة حلوى تشتريها ويعنفها بقسوة لو أكلت أكثر من نصيبها ومع ذلك لم يكن هذا مبررا لطلبها الطلاق . بيد أن قريبتى وصلت إلى حالة من اليأس جعلت أباها يوافق على أن يأمر زوجها بتطليقها ، ولو كان أبوها رفض لأجبرتها قوانين الأحوال الشخصية على البقاء مع زوجها ، وعندئذ لا يكون بإمكانها أن تغادر بيت الزوجية .

وإلى أن تولى أنور الرئاسة ، كانت المرأة التى تترك بيت زوجها دون إذنه أو موافقة من المحكمة تخاطر بجعل نفسها عرضة للقبض عليها . ووفقا لقانون « بيت الطاعة » الذى ألغاه أنور فى عام ١٩٧٦ كان يمكن للزوج أن يستعين بالبوليس لإعادة زوجته إليه بالقوة ، ثم يحبسها بعد ذلك ويغلق عليها بالمفتاح ليمنعها من الفرار مرة أخرى . وأسوأ من ذلك ، كان الزوج يمكنه استغلال محاولة هروب زوجته بعد ذلك كدليل فى المحاكم لإثبات نشوزها . وهذا كان معناه الا تحصل على أى حق من حقوقها لديه إذا طلقها بعد ذلك .

وبسبب هذه الاحتمالات المؤسفة ، أصر قليل من النساء على أن تشمل عقود زواجهن الأصلية حق تطليق أنفسهن من أزواجهن ، ولكن هؤلاء كن قلة قليلة . فلم يكن ثمة رجل يوافق على ذلك إلا إذا كانت المرأة فى غاية الغنى وهو لا يملك شيئا . وحتى فى هذه الحالة فإن عريس المستقبل كان يبدو متشككا فى دوافع عروسه ، وكان ينظر إلى مثل هذه الزوجة على أنها « شرسة » وغير مرغوب فيها . لقد دفعت هؤلاء النساء القلائل ثمن حق الطلاق باهظا .

فى ظل القوانين الحالية للأحوال الشخصية دفعت كثير من النساء ثمنا غاليا جدا من أجل الزواج . مسموح للرجل أكثر من زوجة ، على أساس أن تعدد الزوجات مسموح به فى الإسلام بنص القرآن . والقلة الضئيلة من الرجال فى مصر الذين مارسوا تعدد الزوجات لم يطالبهم القانون بإبلاغ زوجاتهم الأوليات بأنهم سيتخذون الزوجة الثانية ، وحتى لو تم إبلاغ الزوجة الأولى ، فلم يكن لها أى حق

فى عمل أى شىء . ووفقا لقانون الأحوال الشخصية الحالى فإن تعدد الزوجات لم يعتبر مبررا للطلاق . وكانت النتيجة غالبا قاسية .

توسلت إلىّ سيدة جميلة تحمل طفلتها الصغيرة ذات يوم وأنا أفتتح سوقا خيرية بالقاهرة قائلة : « سيدتى من فضلك ساعدينى فقد تزوج زوجى بثانية منذ ثلاثة أعوام ولكنه رفض أن يطلقنى . والآن غادر البلاد ، وعلى الرغم من أن المحكمة أرسلت إليه كثيرا من الخطابات تطالبه بتطليقى ، فإنه رفض حتى أن يرد » . ولمدة شهور أينما ذهبت لالقاء كلمة أو لافتتاح مدرسة أو جمع تبرعات لبناء مستشفى فى أى مكان يعلن عن ظهورى فيه كانت تأتى إلى هذه السيدة الشابة وطفلتها الصغيرة معها . كانت تتعقبنى ، وخطوط الدموع على وجهها وتتوسل من أجل أن أساعدها ، ولكن فى ظل القوانين القائمة لم يكن هناك شىء يمكن عمله لا من جانبى ولا من جانب المحاكم ، ولم يكن لديها أى أساس شرعى للطلاق ، ولم تكن المحاكم لتستطيع أن تأمر زوجها بتطليقها لأنه كان خارج نطاق السلطة القضائية المصرية ، ولم أتمكن من أن أرسل إليه كى أحاول إقناعه لأنه كان فى الخارج وينتقل من مكان إلى آخر ليتحاشى مسئولياته . لقد تحطم قلبى لأجلها لأنها كانت صغيرة وكان يجب أن تمكن من الزواج مرة أخرى ولكنها لم تستطع .

وكانت تجرى معاملة نساء أخريات بنفس السوء لأنه كان من حق الزوج أن يحتفظ بزوجة أو زوجتين أو ثلاث دون أن يخبر الأولى ، أبدا . وهناك قصة مشهورة كانت تدور عن الرجل الذى كان يحتفظ بزوجتين غير متشككتين فيه فى طابقين منفصلين فى عمارة كبيرة ، واحد لأم أولاده والآخر لزوجة صغيرة . فإذا تقابل مع أحد يعرفه فى المصعد ، ذهب إلى أم الأولاد ، وإن لم يتقابل صعد ثلاثة أدوار إلى زوجته الأخرى ولم تعرف أى منهما شيئا عن الأخرى حتى مات زوجهما . والتقى الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا لتقديم العزاء فى المصعد واكتشفوا الازدواج.

ومن سوء الحظ أن هذا الاكتشاف لم يكن نادرا . فقد اكتشفت أرامل نساء غريبات على أبوابهن يوم وفاة أزواجهن ، يظهرن شهادات ميلاد أطفال لاثبات

الامام الشيخ عبد الحليم محمود يعقد قران محمود عثمان على جيهان الصغيرة .



فى افتتاح قناة السويس .





السادات يقبل أحد أبطال حرب اكتوبر عند رفع العلم



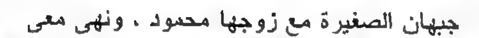


فى منزلنا



مع الرئيس جعفر النميرى .

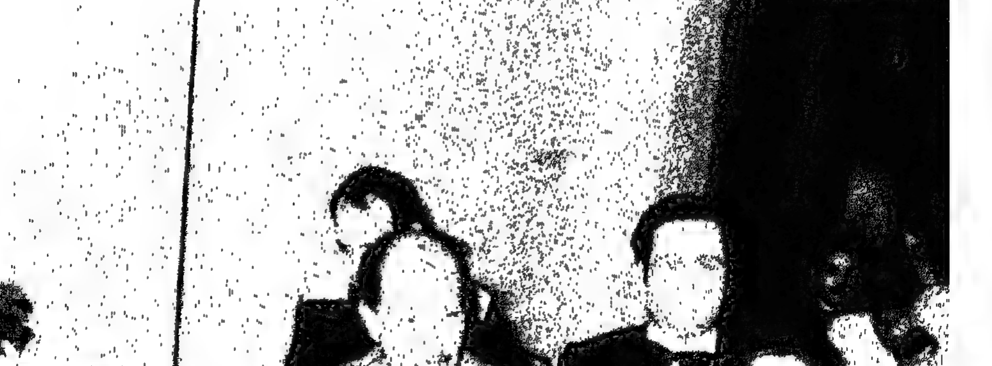
أنور بالزى الرسمى مع الأسرة .



جيهان الصغيرة مع زوجها محمود ، ونهى معى

جلسة عائلية فى حديقة المنزل .

فى احدى الحفلات الرسمية .



مع كارتر فى كامب دافيد

مع أنور وروزالين وكارتر فى أمريكا .

حسن التهامى وبطرس غالى واسامة الباز مع انور فى كانب دافيد .

فى ميت ابو الكوم وكذلك عيد ميلاد أنور فى ٢٥ ديسمبر

انور مع سياد برى رئيس الصومال

مع حسنى مبارك والفريق أول محمد على قائد القوات البحرية الأسبق .

فى بيتنا اعياد الطفولة مع احفادنا .

مع بعض الضيوف الأجانب .



مع روزالين كارتر فى منزلنا بالجيزة .

طفلة امريكية طلبت زيارتنا فى منزلنا





الأحفاد فى المعمورة فى أيام الشتاء مع أنور .

فى حفلة عيد ميلاد حفيدتنا

مع الرئيس كارتر .

مع حفيدته فى المنزل .

اعياد ميلاد الأحفاد .

كارتر وزوجته فى بيتنا بالجيزة .

كارتر فى زيارة لميت ابو الكوم ومعه جمال

فى سنة ١٩٨٠ نوقشت رسالة الماجستير بجامعة القاهرة .



وفى سنة ١٩٨٦ نوقشت رسالة الدكتوراه بجامعة القاهرة



من مصابى حرب أكتوبر ، وجدى متولى ، ليحضر مناقشة رسالة الدكتوراه .



المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى وموسى صبرى جاءا لتهنئتى بحصولى على الدكتوراه .

أنهن أيضا كن زوجات شرعيات للزوج ولذلك كن مؤهلات لنصيب كامل فى ميراث الأرملة . . ذلك النصيب الذى يقدر ضمن التركة . وأحيانا كانت الصدمة عنيفة فى زوجها الذى خدعها فى حياته ولم تكتشف خديعته إلا بعد وفاته .

وقد أعجبت بتلك القصة الشهيرة للأرملة التى تلقت زيارة مفاجئة من الأرملة الثانية لزوجها ، فذهبت على الفور إلى حجرة النوم لتغيير ملابس الحداد السوداء بفستان أحمر زاه وقالت للنساء اللاتى جئن لمشاركتها أحزانها : « لا تضيعن وقتكن فى تقديم العزاء لى . أنا لن أبكى بعد الآن على هذا الرجل الذى خدعنى كل هذه السنين » . لقد أعجبت بروحها واتفقت معها تماما . فلم يكن بوسعى أبدا أن أتسامح مع مثل هذا الغش . لو أحبت امرأة زوجها وعاشت معه فالواجب عليه أن يكون على الأقل من الشرف بحيث يخبرها بالحقيقة . وكان يجب على القانون أيضا أن يلزمه بذلك .

« إن المتعصبين سيقفون ضدنا بقوة » هكذا حذرتنى وزيرة الشئون الاجتماعية « عائشة راتب » عندما اجتمعت بها لبحث استراتيجية المرأة لاصلاح قوانين الأحوال الشخصية . وقالت « إننى عندما اقترحت تغيير القوانين قبل ذلك قام المتعصبون بمظاهرات ضدى » .

لم أندهش . فبالنسبة للمتعصبين الدينيين كان دور المرأة واضحا وهو خدمة الرجل دون سؤال وبطاعة كاملة . فقلت لعائشة « ولكننا لا نبتعد عن القرآن ، هناك أربعة مذاهب سنية فى الشريعة ، وليس فقط ذلك المذهب الشديد التحفظ الذى ينتمون إليه . وهل يجهلون القصة الواردة فى الحديث الشريف عن المرأة التى طلب منها الرسول نفسه أن تترك زوجها إذا كانت غير سعيدة معه ؟ » لم تقتنع عائشة وقالت « إن مجادلتهم أمر غاية فى الصعوبة » .

وازداد إحباطى وقلت لها : « ولكن الأصوليين يجب أن يفهموا أن القوانين الحالية تشجع الرجال على الطلاق أكثر مما تثبطهم عنه » والنبى نفسه أخبرنا « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق » .

قالت عائشة : « أنا أتفق معك تماما يا سيدتى . وسنواصل الكفاح من أجل الاصلاح . بيد أن الأصوليين مقتنعون جدا بتفسيرهم للاسلام . وتغيير القوانين سيكون دقيقا للغاية » .

انتشرت الالتماسات فى اجتماعات المنظمات النسائية المصرية المختلفة ، وضمت كثيرات من أعضائها مثل كريمة السعيد رئيس التنظيم النسائى المصرى أصواتهن لدعوة الاصلاح ، وكان هناك ثلاثة علماء من أكبر الهيئات الدينية فى البلاد وهم الشيخ محمد عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر ، والشيخ محمد عبد المنعم النمر وزير الأوقاف الدينية ، والشيخ جاد الحق على جاد الحق مفتى مصر ، فرضوا على العمل فى اللجنة المسئولة عن التوصية بالاصلاحات أمام مجلس الشعب . وحضر اللجنة أيضا عبد الآخر محمد عبد الآخر وزير العدل .

وعن قصد أبعدت اسمى فى البداية عن اللجنة فلم تكن لى صفة رسمية وقد شعرت بأن الاصلاحات ، يجب أن تجد تأييدا أكبر فى مجلس الشعب حتى ينظر إليها على أنها تحظى بتأييد قطاع عريض من المصريين . وكنت راضية تماما بالعمل خلف الكواليس مع المرأة وبتأييد أهدافها على الملأ .

وحضرت اجتماعاً لبعض الصديقات يتكلمن فيه عن القانون الجديد ، ونهضت أمينة السعيد لتحذيرى قائلة : « أخشى أن وضعك كقرينة للرئيس يجعل من الصعب عليك أن تؤيدينا ، لأننا على استعداد للتظاهر ، وأن نكون عدوانيين فى مطالبنا . سيكون علينا أن نذهب إلى أبعد شىء ، وهو ما قد يعنى أن بعضنا قد يدخل السجن . وأنت لن تتمكنى من ذلك » .

فرددت بسرعة « لو ذهبتن إلى السجن فسأذهب معكن » . لقد قالت أنديرا غاندى ذات مرة إن المرأة تذهب إلى بعيد أحيانا ، وفقط حين تذهبين إلى بعيد يستمع إليك الآخرون ، ولكن دعينا لا نفكر فى أشياء بعيدة كالسجن . إن زوجى رجل تقدمى جدا ولن يتحول ضدنا . المعارضة لنا لن تأتى من الرئيس ولكن من المتعصبين الدينيين وأنا أود أن أقدم مساعدة » .

ولازالة ما كانت اللجنة تتوقعه من احتمال المقاومة الانفعالية والطائشة للاصلاحات ، جمعت ما أمكن من القرائن القوية لتأييد هذه الاصلاحات ولم تكن فى حاجة لنظريات بل إلى حقائق وجدتها اللجنة فى عمل قدمته أستاذة قانون على درجة عالية من الاحترام فى جامعة القاهرة . لقد أظهرت دراستها المنشورة ارتباطا بين انحراف الأحداث وارتفاع معدل الطلاق فى مصر ، ووجدتها أيضا فى بحث لعزيزة حسين وهى واحدة من مؤسسى رابطة تنظيم الأسرة المصرية وأول سيدة تعين فى الوفد المصرى فى الأمم المتحدة . لقد أوضح بحث عزيزة أن ارتفاع معدل المواليد فى مصر يمثل التأمين الوحيد للمرأة ضد الطلاق ، وتراوح المعدل من نسبة طلاق منخفضة تبلغ ٤٪ بين السيدات اللاتى أنجبن أربعة أطفال وترتفع إلى ٦٢٪ للاتى لم ينجبن . ولا غرو فى أن معدل مواليدنا كان عاليا للغاية . وفى ظل قانون الأحوال الشخصية القائم كان حمل طفل وراء طفل هو الشىء الفعال الوحيد للمرأة ضد زوجها إن فكر فى طلاقها .

وبحثت اللجنة الاصلاحات المقترحة بعناية بعد أن تأكدت من أن أيا من هذه المقترحات لا يتعارض مع القرآن أو السنة . وكان الأعضاء يعرفون أن الأصوليين الدينيين ـ رغم أنهم أقلية ـ كان لهم نفوذ متزايد لا سيما بين الشباب ، فكان على اللجنة أن تتقدم بحذر شديد فى انتقاء الاصلاحات ووضع نصوصها بحيث تقدم أفضل خدمة للمرأة على أن تظل متفقة مع الشريعة الاسلامية . وبالرغم من ضرورة الحيطة قمت بإلحاح كبير للضغط بسرعة من أجل الاصلاح . لم أرد شيئا أكثر من تحقيق الأمن للمرأة وأطفالها . وعرفت أن أنور كان يؤيد جهودنا ولو أتيحت لنا فرصة للفوز بإصلاح فسيتحقق ذلك خلال قيادته .

« ملحد » ، « دكتاتور » ، « عدو الأسرة » ـ هذه مجرد « عينة » من الأوصاف التى بدأ المتطرفون الاسلاميون فى إطلاقها علينا فى ربيع عام ١٩٧٨ عندما أخرجت اللجنة قائمة بالاصلاحات المقترحة والمعتدلة حقيقة : على المحكمة عند الخلاف بين الزوجين أن تعين الحكم ، ويفضل أن يكون من الأقارب لمحاولة إصلاح الخلافات بينهما ، وبشرط أن يبلغ الزوج زوجته الأولى

بنيته فى اتخاذ زوجة جديدة ، وفى مثل هذه الأحوال فإن الزوجة الأولى لها الحق فى طلب الطلاق خلال اثنى عشر شهرا . ومن حق الأم المطلقة أن تحتفظ بمسكن الزوجية لأطفالها على الأقل حتى يبلغ الأبناء عشر سنوات والبنات اثنتى عشرة سنة أو أطول من ذلك إذا وجدت المحكمة إن فى ذلك مصلحة للأطفال . وللمرأة المطلقة فى حالات معينة الحق ليس فى الحصول على نفقة من زوجها السابق فحسب ولكن أيضا على مبلغ إجمالى تصل قيمته إلى نسبة تعادل طول فترة زواجها . ولكن الذى كان أكثر إثارة للجدل من هذه المقترحات هو حق الزوجة فى الحفاظ على مسكن الزوجية لأجل الأطفال .

كان أعضاء اللجنة يعرفون أن هذه القائمة من التعديلات المقترحة متفقة تماما مع الشريعة الاسلامية ولم يتعرضوا لقوانين الميراث ولا لحق الرجل فى اتخاذ أربع زوجات ، لأن كليهما منصوص عليه فى القرآن ، ولهذا كان من المفروغ منه عدم المساس بهما وكذلك لم تثر اللجنة مسألة أن شهادة المرأة فى المحكمة تعادل نصف شهادة الرجل ، لأن هذه أيضا كانت قانونا مبنيا على نصوص القرآن . وأيضا تركت جانبا حق الرجل فى الزواج بمجرد الطلاق بينما على المرأة أن تنتظر ثلاثة أشهر لتتأكد من أنها لا تحمل ابنا له ، لأن هذا أيضا ذكر فى القرآن . وكذلك لم تنظر اللجنة فى الاصلاحات المقترحة حول حق الرجل فى تطليق زوجته بإرادته ، وعلى الرغم من ذلك كله فقد انتشرت دعواتنا إلى مجرد هذه الاصلاحات البسيطة كالنار فى الهشيم فى أرجاء البلاد .

وزأر واحد من الشيوخ الأصوليين اعتاد أن يحمل على الاصلاحات كل أسبوع بعد صلاة الجمعة قائلا « إن هذه هى قوانين جيهان وليست قوانين الاسلام . إن هذه القوانين التى تريدها سوف تحول الرجال إلى نساء ، والنساء إلى رجال وسوف تتسبب فى انهيار بنية الأسرة المصرية وتحول المئات إلى الكفر . إن هذه القوانين ضد الشريعة . ضد كلمة الله كما نزلت فى القرآن » .

ولم يندهش أحد منا لرد فعل هذا الشيخ . برغم أننى ذهلت عندما أصبحت الاصلاحات تعرف بأنها « قوانين جيهان » وكان أول من أخبرنى بذلك أستاذا

بالجامعة الأمريكية أراد أن يدير معى حوارا عن كتاب كان يؤلفه عن المرأة المصرية .

قال لى ذات يوم « أريد أن أتحدث إليك بخصوص قوانين جيهان » .

فسألته « قوانين جيهان ؟ » ما هى هذه قوانين جيهان ؟ .

فنظر إلى فى دهشة هذا القانون يسمى باسمك ومعروف للجميع إنك وراءه . فقلت له « حسنا » هذا يجعلنى فخورة جدا ولو لم أنجز شيئا آخر فى حياتى فإن هذا يكفينى » .

وعلى الفور غرقت الصحف والمجلات وأخبار التليفزيون فى طوفان من الافتتاحيات والقصص عن « قوانين جيهان » وقد نسب إلى شيخ مشهور قوله « لا حاجة لأن تدفع النفقة للمرأة إلا لشهر واحد إلا إذا كان قد نص على ذلك فى عقد الزواج » وذلك بعد أن بنى قوله على المذهب الحنفى وحده . فرد الشيخ عبد المنعم النمر وزير الأوقاف والشئون الدينية بأن « النفقة يجب أن تدفع حتى يوفى الزوج دينه الشرعى » مستشهدا على ذلك بالمذهب الشافعى . فردد الشيخ الأصولى « بأن المرأة لا يمكنها أن تطلب الطلاق حتى ولو أضر بها زوجها بالقول أو بالفعل ، بالقوة أو بالسب » ، فرد الشيخ بيصار شيخ الجامع الأزهر وربما كان أكثر أعضاء لجنة الاصلاح مكانة وتأثيرا بأن المذهب المالكى يقول أن للمرأة الحق فى أن تطلب الطلاق متى أضر بها زوجها بالقول أو الفعل . وبكل تأكيد فإن الزواج بأخرى دون رضاها هو من باب الضرر .

وقبيل مايو ١٩٧٩ ، كانت هناك مقالات مع الاصلاحات ومقالات ضدها فى كل دورية مصرية تقريبا ، واشتدت حرارة المناقشات ، وازداد الضغط تكثيفا . وأخذت فى كل مناسبة أجاهر بتأييد الاصلاحات ، وكذلك فعل جميع أعضاء اللجنة ، وشن الأصوليون الهجوم المضاد ، وتحدانا الواحد منهم تلو الآخر من خلال نص القرآن بقولهم بأن « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض » . ورددت بأن الاسلام جاء مدافعا عن حقوق المرأة ، مستشهدة فى

ذلك بتوجيهات القرآن التى تحظر وأد البنات وتعطى المرأة حق الملكية والتعليم .

وأثناء حديثى أمام معسكر صيفى للطلاب فى الاسكندرية عن الحاجة للاصلاح ، وجدت نفسى . وقد دخلت فى مناقشة مع شيخ أصولى شاب . وعلى الرغم من اننى لم أخطط لمجادلته ، إلا أنه لم يكن لى خيار لأنه تحدانى أمام المستمعين .

صاح الشيخ الشاب قائلا : « كيف يمكن لك يا سيدتى أن تقولى أن الرجل لا يستطيع أن يتزوج أكثر من امرأة ؟ إنه حقنا » .

فرددت قائلة : « نحن لا ننكر عليكم حقكم مطلقا ، وما نفعله هو مجرد وضع عوائق أمام تعدد الزوجات لأنه كما يحدثنا القرآن يصعب للغاية على الزوج أن يعدل بين أكثر من زوجة » .

وواصل الشاب إصراره ، وسأل « لماذا ينبغى أن أبلغ زوجتى لو أعددت لاتخاذ زوجة أخرى ؟ إن عليها أن تطيعنى ، إنه واجبها ، فإذا احتفظت لها بمنزل وأعطيتها كل شىء تريده ، فإن هذا يكفى » .

قلت « لا ، هذا لا يكفى ، » « إن لك بكل تأكيد حق الزواج بثانية ، ولكن لها أيضا الحق فى أن تعلم به ، فربما اختارت أن تتركك وتتزوج من شخص آخر . . » .

ومع كل (إجابة منى عليه) أخذ الطلاب فى التصفيق المتزايد . لقد كانوا يعرفون أننى لم أقل شيئا ضد الاسلام أو الشريعة . وإلا فما كان زوجى ليوافق مطلقا على الاصلاحات ، ولا حتى أنا .

وعلى الفور ، بدأ شيوخ الأصوليين فى تشويه صورى أنا وعائشة راتب وأمينة السعيد ، على الرغم من عدم التصريح مطلقا بأسمائنا . فقد ذكروا فى خطبهم للمصلين فى المساجد أيام الجمعة « إن هؤلاء النساء اللاتى ينادين بحقوقهن إنما هن مقلدات للغربيات . إنهن يتشبهن بالرجال فى الهيام على وجوههن . إن مكان المرأة المسلمة الصالحة هو البيت » . ومضت المجلات التى

تعدها الجماعات الاسلامية المتطرفة فى نشر مقالات مطولة أننا عاطفيات للغاية وأننا نستخدم القوانين على هوانا . وأنك لو أخبرت امرأة بأن زوجها اتخذ زوجات أخريات فإنها ستتسرع فى الانفعال وستطلب الطلاق فورا دون أن تأخذ مهلة وقتية للتدبر أو محاولة الصلح .

بيد أنه كان واضحا أن المتعصبين هم الذين كانوا مفرطين فى الانفعال ، يقفزون على أقدامهم أثناء الاجتماعات ليصرخوا بالموافقة على أى كلمة لاذعة ضد المرأة ، وكانوا يصرخون قائلين « على المرأة أن تقبع فى بيتها لتطبخ ، وتغسل ، وتنظف ، وتعنى بالأطفال ولا شىء غير ذلك ، وهذه هى جنتها . وإذا عملت امرأة بين الرجال فسوف تغويهم . وإنه لإثم أن تبدى ذراعيها وساقيها ورأسها » . لقد كانت اتهاماتهم مكشوفة وغاية فى إثارة الحزن . . إنهم كانوا يحطون من صورة الرجل .

كانت القضية غاية فى التفجر لدرجة أن الشغب اندلع ذات يوم فى الأزهر ، مقر العقيدة الاسلامية الصحيحة . فالذى بدأ كمظاهرة ضد « قوانين جيهان » سرعان ما انفجر فى شكل اضطرابات ، وصرخ المئات من الطلاب : « مثنى وثلاث ورباع » وهم فى مسيرة حول ساحة المسجد وهم يرتدون القمصان البيضاء وعمامات الملتزمين ويقولون « نريد زوجة واثنتين وثلاثا وأربعا » .

ويبدو أنهم تناسوا إننا لم نعترض بأى شكل من الأشكال على حق الرجل فى تعدد الزوجات ، ففى ظل الحمية الدينية للمتظاهرين ، لم تشكل الحقيقة أى عامل مؤثر فى الموقف ، وعندما كان المتظاهرون يندفعون فى الشوارع كان على البوليس تفريق الحشد الثائر ثورة عارمة .

وقد تلقت السيدات اللائى شاركن فى هذه القوانين وأنا أيضا كثيرا من خطابات التأييد بالبريد وكذلك خطابات بالاعتراض . وقالت أمينة السعيد إنها تستطيع أن تملأ صندوق ملابس بأكمله بخطابات الكراهية . وأصبحت التهديدات ضدى وضدها أمرا شائعا ، ولكنى اعتدت على ذلك ولم أعره اهتماما . وبدأت رسوم الكارتون فى الظهور على ألواح نشرات الجامعة عنى وأنا فى زى رجل

عسكرى ، وبمجرد أن يسقط الطلاب المؤيدون لحقوق المرأة الرسوم ، تظهر رسوم جديدة .

وكانت الشكاوى التى سمعتها من أصدقائى عن الاصلاحات تافهة كذلك . وفى كل مهمة اجتماعية شهدتها انفرد بى الأزواج جانبا وأخذوا يهمسون بأنهم على الرغم من تأييدهم من كل قلوبهم لمعظم إصلاحاتنا فى الطلاق ، فإنهم يعترضون بشدة على أمر واحد : وهو ذهاب بيت الأسرة للمرأة والأطفال . ففى القاهرة المكتظة بالسكان ، كان إيجاد مسكن لائق شيئا باهظا . إن اهتمام الرجل براحته الذاتية أثر فى ازدواجية المعايير فى مجتمعنا الذى دائما ما فضل الرجل . وكنت أقول لهم « إنكم تعرفون أن النساء اللاتى يهمن على وجوههن فى الشوارع لا يعتبرن موضع احترام . وأنت كرجل يمكنك النوم فى أى مكان ، ولا يمكن ذلك لزوجتك أو أطفالك » .

وغالبا ما كان الرجال يمزحون معى حول الاصلاحات ، رغم أننى كنت أعرف أنهم فى دخيلتهم لا يمزحون حقا . كانوا يقولون فى ضحك « ما هذا الذى تفعلينه معنا يا سيدتى ؟ إننا سننادى بحقوقنا الآن أيضا » .

كنت أرد ذلك بابتسامة وأقول فى صوت رقيق : « ليس عليكم أن تنادوا بحقوقكم لأنكم حظيتم بها لآلاف وآلاف من السنين . . والآن جاء دورنا . . . » .

ومع ذلك ظل أنور مصرا على أن أولوياته الأخرى من أجل مصر لها الأسبقية على كفاحنا من أجل حقوق المرأة . وفى البيت فعلت كل شىء أستطيعه للنهوض بقضيتنا ، وكنت أشن وحدى حملة من سيدة واحدة .

سألنى أنور فى عام ١٩٧٧ ومرة أخرى فى ١٩٧٨ : « ماذا تريدين ليوم عيد ميلادك ؟ » .

أجبته : « حقوق المرأة » .

وسألنى بالمثل كذلك : « ماذا تريدين لعيد الأم ؟ » .

وأصبحت إجابتى معروفة مسبقا : « حقوق المرأة » .

لقد كان أنور يؤمن بنفس قوة إيمانى بأن المرأة كسبت حق المساواة فى مصر . وحيثما كنا أنور وأنا نتعرض لمقابلة صحفية ، كنت أنتهز الفرصة لمواجهته بالقضية علانية .

وكان يقول لى فيما بعد « إن مصر ديمقراطية يا جيهان وأنا أفعل ما يريده الشعب منى » .

وكنت أكرر قولى : « بأن أكثر من نصف سكاننا نساء يا أنور ، ولن تكون مصر ديمقراطية حتى تكون المرأة حرة تماما كالرجل ، وبصفتك قائد بلدنا فإن من واجبك أن تجعل هذا يتم » .

وبدأت فى إثارة أسئلة عن إصلاحاتنا المقترحة بين المستمعين كلما تحدث أنور ، إيمانا منى بأنه كلما اتسع نطاق التأييد لحقوق المرأة كان من الأرجح أن يستجيب أنور لذلك . . وفى أحد الاجتماعات السياسية فى القاهرة أرسلت مذكرة مع حارسى الشخصى لامتثال الديب ، وهى عضو بارز فى الحركة النسائية ، وكانت تجلس فى الجانب الآخر من القاعة ، وقلت فى المذكرة « اسألى سيادة الرئيس ، لو قيل لك أن ٩٠٪ من القلة التى ترتكب الجرائم فى بلدنا تأتى من الأسر المطلقة فهل ستفكر فى إصلاحات تقوى روابط الأسرة وتثبط فكرة الطلاق ؟ » عندما وجهت امتثال السؤال أخذ أنور فى قياس المسافة بيننا بعينيه قبل أن يجيب .

بل إننى أخذت معى حملتى من أجل حقوق المرأة إلى الخارج . . وكتبت فى مذكرة مررتها على طول الصف الطويل للدكتورة عفاف ، المستشارة المصرية بواشنطن إلى حيث كان أنور يتحدث مع المصريين الدارسين فى الولايات المتحدة : « الرئيس السادات ، أن المرأة فى مصر تعانى ، وأطفالها يعانون ، من عدم الأمن الذى تغذيه قوانين الأحوال الشخصية الظالمة لعام ١٩٢٩ ، ولو شعرت المرأة بالأمن فإن أسرتها ، نواة المجتمع ، ستكون آمنة كذلك . فمتى ستصحح

ما يشكل حاليا وضعا غير عادل وغير باعث على الاستقرار للاسرة المصرية وذلك بمنح المرأة حقوقها ؟ » .

فقال أنور على الفور وهو يبحث عن وجهى بين الجالسين : « أين جيهان ؟ » وببراءة ابتسمت له ، وأنا متأكدة من أنه يرى أنى كنت أجلس على مسافة بعيدة من الدكتورة عفاف ، ولكن أنور لم يكن ساذجا .

فقال وهو يضحك للجالسين « إن زوجتى أصبحت محامية عن المرأة . إنها تتذمر منى طول الوقت ، وتنادى بحقوق المرأة . حسنا . سوف تحصل المرأة على حقوقها ولكن ليس الآن . إن عندى أولويات أخرى أولا ، وهى إطعام الشعب وتوفير المساكن والمدارس والرعاية الطبية . وسوف أنتقل لحقوق المرأة ولكن فيما بعد » .

ربما كان لأنور أولويات أخرى ولكن أثناء الكفاح من أجل الاصلاح لم يكن عندى أى أولويات أخرى ، والظاهر أنه لم يكن أيضا لدى أعضاء الصحافة خاصة فى أمريكا حيث سألونى نفس الأسئلة مرارا وتكرارا : « ما هى حقوق المرأة فى الاسلام ، إن كان هناك حقوق ؟ » . « هل حقا يستطيع الرجل تطليق زوجته بمجرد أن يقول لها « أنت طالق » ؟ « وكيف تشعر المرأة ووالدها يجبرها على الزواج من رجل ما ؟ » . ومرارا وتكرارا كنت أجيب على نفس الأسئلة ، فى مقابلة من ثلاثين دقيقة حتى جف لسانى فى حلقى . ولكننى نادرا ما ضيعت مثل هذه الفرص لتكثيف الإلحاح على أنور ، وظل تمثيل المرأة على كل مستويات الحكومة شغلى الشاغل . ومن عملى فى المجلس الشعبى بالمنوفية ، كنت أعرف أننا كنا بحاجة لنساء ، مزيد ومزيد من النساء ، لتمثيلنا فى مجالس كل المحافظات . ومن خلال عملى مع العضوات القليلات بمجلس الشعب ، عرفت أننا فى حاجة إلى مزيد من تمثيل المرأة أيضا على المستوى القومى للحكومة . وفى أثناء رحلة قمت بها للسودان مع أنور فى عام ١٩٧٦ . علمت أن عددا من مقاعد البرلمان هناك كان مخصصا للمرأة . فقلت لأنور « إذا كانوا يحترمون المرأة بهذا القدر فى السودان ، فلماذا لا نفعل ذلك فى مصر ؟ إننا نشكل نصف عدد

السكان ولابد من تمثيلنا على مستويات صنع السياسة بأعداد أكبر بكثير » .

ووافق أنور ، وقال « أننا يجب أن نكفل التمثيل لجماعات كثيرة يا جيهان ، « فالفلاحون ممثلون بالفعل ، ولكن ما الأمر بالنسبة للشباب والطلبة » ؟ واتفقت معه قائلة : « يجب أن تكون لهم حصة كذلك ؛ فلماذا لا تخصص مقاعد للمرأة كما خصصت للشباب والطلبة ؟ » .

وفى شهر مارس عام ١٩٧٩ ـ وعيد الأم يقترب ـ قلت لزوجى « أنور ، هناك مجرد هدية خاصة واحدة أتوق إليها هذا العام ، وهى هدية أود أن أحصل عليها » .

سألنى « ما هى ؟ » .

فتوقفت ثم سألته « هل ستمنحها لى ؟ » .

فضحك قائلا « لو استطعت أن أدفع ثمنها » .

فقلت « نعم ، هذه المرة تستطيع » .

فقال « موافق يا جيهان . ما هى ؟ » .

تنفست بعمق « حقوق المرأة » .

وألقى برأسه للخلف وصاح ضاحكا « نعم يا جيهان . نعم . هذا العام سوف أمنحها لك . لأن المرأة فى مصر تستحقها » .

وفى يوم ٢٠ يونيو عام ١٩٧٩ أصدر أنور قرارا رئاسيا من مادتين عن المرأة : « إضافة ثلاثين مقعدا تخصص للمرأة فى مجلس الشعب ، وتخصيص من ١٠ : ٢٠ فى المائة من جميع المقاعد الست والعشرين فى المجالس الشعبية للمرأة » . وبخبطة واحدة جريئة ضاعف أنور من عدد النساء فى الحكم المحلى خمسة أضعاف ، ورفع عدد النساء فى التنظيمات السياسية الريفية من سبع إلى أكثر من ثلاثين . وبينما ظل فى مجلس المنوفية سيدتان فقط طيلة ثمانية أعوام فقد أصبحن الآن عشر سيدات .

ومع ذلك فقد كان القرار الثانى أقرب لقلبى : وهو طرح إصلاحات قوانين

الأحوال الشخصية للتصويت فى مجلس الشعب فى شهر يوليو .

ولم يكن هناك شىء يستطيع أن ينتقص من سعادتى . ولكن ظلت هناك عقبة واحدة ، « التصويت فى مجلس الشعب » . لقد كنا متأكدين من التأييد ، لمعرفتنا بأن إصلاحات قانون الأحوال الشخصية كانت تعبر عن رأى الأغلبية . إلا أن التصويت كان من شأنه أن يعطى الأصوليين فرصة أخيرة للتغلب علينا . وكان علينا أن نسبق اللوبى الأصولى وراء الكواليس فى المجلس قبل أن تطول المناقشات بصورة تعطيهم وقتا إضافيا لتصعيد المعارضة ، دعت عائشة جميع عضوات مجلس الشعب ، وأعدت استراتيجية محددة واقترحت عليهن : « عندما يبدأ الأعضاء الأصوليون فى إبداء معارضتهم للاصلاحات لا تقلن شيئا . لا تدعن المناقشة تنزل إلى مستوى معركة رجال ضد نساء ، يستخدم كلاهما نفس المجادلات الدينية القديمة . أتركن أعضاء المجلس من الرجال الذين يؤيدون الاصلاحات يدافعون عنها . إن هذا سيعطى صورة أفضل بكثير للشعب حين يرى الرجال فى صفنا هذه المرة وليسوا ضدنا » . وفى يوم المناقشة حبست عائشة وأنا أنفاسنا ، وأمسكت السيدات فى مجلس الشعب ألسنتهن ، وفى هذا اليوم ، يوم ٣ يوليو عام ١٩٧٩ وبعد أربع ساعات من المناقشة الصاخبة ، تمت الموافقة على إصلاحات قوانين الأحوال الشخصية بأغلبية ساحقة .

وفى اليوم التالى جاءت عضوات المجلس إلى بيتى للاحتفال ، وصرخنا معا ونحن نحتضن بعضنا بعضا « لقد صنعنا تاريخنا ، ولم نعد الأدنى » .

قالت سيدة منهن « كنت أود لو استطعت الحديث جهارا فى المناقشة بيد أنه كان من الأفضل الاستماع إلى الرجال الذين يدافعون عن حقوق أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم » . .

لقد تحققت أمانينا ، وكان هناك الكثير فى الأفق وخلال الانتخابات العامة التى أجريت بعد بضعة أسابيع من الموافقة على مخصصات المرأة انتخبت ثلاث سيدات عضوات فى مجلس الشعب علاوة على الثلاثين اللاتى نص عليهن القانون الجديد ، وفى بلدنا التى كان يعتبرها الكثير فى الغرب رجعية ، كان لدينا

حينئذ سيدات بالمجلس التشريعى الوطنى أكثر من عضوات الكونجرس الأمريكى بنسبة ٥٪ ومن عضوات الجمعية الوطنية الفرنسية بنسبة ١٠٪ .

وأخيرا حصلت المرأة المصرية على صوت سياسى ، وأصبحت فى حياتها الشخصية أكثر أمنا بكثير ، ففى العام الأول لقانون الأحوال الشخصية الجديد هبط معدل الطلاق بنسبة ٢٥٪ ، غالبا بسبب خوف الرجال - كما شعرت الجمعيات النسائية - من ترك شققهم ، ومن بين هؤلاء اللاتى حصلن على الطلاق فى ظل القوانين الجديدة كانت السيدة الشابة التى كانت تتعقبنى فى الاجتماعات العامة لأعوام كثيرة جدا تطلب المساعدة التى لم أكن أقدر حينئذ على أن أقدمها لها ، وأرجو أن تكون قد وجدت زوجا جديدا يمنحها هى وابنتها السعادة التى كانا يستحقانها .

إن « قوانين جيهان » كما يطلق على قوانين الأحوال الشخصية التى أدخلت عليها الاصلاحات بعد وقت طويل من انقضاء المناقشات حولها سوف تؤثر فى جميع أنحاء العالم العربى ، وفى آخر مرة صليت فيها فى الكعبة جاءتنى سيدة سعودية وهمست بشكرها لى وسيدات مصر الأخريات على ما فعلناه من أجل المرأة فى أنحاء العالم العربى . وعلى الرغم من أنه فى هذا الوقت كانت حكومتها وحكومات كثير من الدول العربية الأخرى قد قطعت منذ وقت طويل علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، إلا أن أعمال زوجى تجاه مكانة المرأة كانت موضع أعظم الاحترام .

لكم كان زوجى شجاعا ، ففى الوقت الذى أصدر فيه القرار الجمهورى بالنهوض بمكانة المرأة فى عام ١٩٧٩ ، أسقط الأصوليون فى إيران الحكومة ونفوا الشاه ، وازداد ظهور قوى الأصولية فى دول إسلامية أخرى كذلك . وبالنسبة لأنور فإن النهوض بالمرأة فى مصر فى مواجهة هذا المناخ السياسى الرجعى كان عملا مقداما وجريئا ، ولكن أنور لم يهتز أبدا من سن إصلاحات وابتكار سياسات تحاشاها زعماء آخرون . . أن زوجى لم يكن ذلك الرجل الذى يتزلف تطلعا لكسب الانتخابات السياسية أو يتملق الشعبية بالتوفيق بين معتقداته وبينها . وإنما

باتساع أفقه واستقلاليته لم يكن يطيق أى تدخل فى تصوره للديمقراطية من أجل مصر أو فى سعيه لانهاء مشكلات بلدنا . .

وفى عام ١٩٧٩ ، كان أنور قد استقر على حملة جريئة جديدة ، فقد بدأ قبل ذلك بسنتين برحلة منفردة ولكنها كانت غير عادية ، ولم أرافق أنور فى هذه الزيارة بالذات فقد ذهب بمفرده ، ولكن دون النظر للخطر الذى كنت أعرف أنه سيواجهه ، سافر زوجى تتبعه صلواتى وصلوات الشعب فى كل مكان ، الشعب الذى كان يتوق للسلام ، بأن يكتب الله له النجاح . وكتب له النجاح ، وغير من تاريخ مصر والشرق الأوسط كله .



الفصل الثانى عشر

الطريق الى السلام



عندما أعلن زوجى استعداده للذهاب إلى القدس لتحقيق السلام مع اسرائيل ، أدركت على الفور أنه سوف يلقى مصرعه ضحية لهذا السلام . لم أعرف متى سيقتل ولا أين ولا من الذى سيقتله . أدركت فقط أن أيامى مع زوجى أصبحت معدودة . ومنذ تلك اللحظة فى نوفمبر ١٩٧٧ حتى اغتياله أصبح الصداع الذى أصبت به منذ سنوات مزمنا . لم أعرف يوما مر بى دون ألم .

قليلون أولئك الذين عرفوا مقدما بنية أنور زيارة القدس . لم أكن منهم . ولو أن أنور ناقش قراره معى لكنت قد أيدته بنسبة مائة فى المائة . وبالرغم من أننى أدركت أنه سيفقد حياته فى النهاية ، إلا أننى أدركت أن السلام مع إسرائيل هو الطريق الوحيد المفتوح أمام مصر .

إن أية حروب فى المستقبل لم تكن لتسفر عن شيء . فالاسرائيليون قادرون على السيطرة على سيناء ، وهى منطقة مملوءة بالرمال وقبائل البدو ، لكن

اسرائيل ذات المليونى نسمة لم تكن لتستطيع أبدا أن تأمل فى احتلال مصر وإخضاع ٤٢ مليون نسمة . وفى الوقت نفسه لم نكن لنستطيع أن ننتهر اسرائيل حتى لو وصلت قواتنا إلى تل أبيب لأن الولايات المتحدة لم تكن لتسمح بذلك . وكان أنور يقول دائما « إنه من قبيل السخرية أن نخوض حربا بعد حرب مع اسرائيل ولا نكسب شيئا » .

إنه لأجل السلام خاض أنور الحرب مع اسرائيل عام ١٩٧٣ . لقد اضطر إلى ذلك . فقد قال مراراً إن السلام مع الاسرائيليين لن يتحقق حتى يوقنوا أن مصر تستطيع إلحاق أضرار جسيمة بهم مثلما ألحقوا هم أضرارا جسيمة بنا . وقد أثبت ذلك النصر الساحق الذى حققناه فى حرب ١٩٧٣ قبل أن تتدخل الولايات المتحدة . ومنذ ذلك الوقت استطاع أن يقول لاسرائيل « أنا هنا . . لست ضعيفا ، الآن دعونا نتفاوض » . ولم يكن ممكنا تأجيل تلك اللحظة أطول من ذلك .

إن التخلف عن التنمية فى مصر كان يمزق أنور ، كان يريد أن يبنى مدارس ومستشفيات ، ويقيم مراكز صناعية جديدة ، ويوفر فرص عمل ، لكن تكلفة كل شىء كانت تتزايد . وقد جلبت سياسة « الانفتاح » الاقتصادية التى إنتهجها أنور فوائد جديدة لمصر من الاستثمار الأجنبى ، لكنها تسببت فى ارتفاع معدل التضخم أيضا . كانت تكاليف المعيشة تتزايد باضطراد ، وأصبح المزيد والمزيد من أبناء شعبنا لا يقدرون على توفير إسكان لائق لأسرهم ، أوحتى الغذاء لأطفالهم . وبحلول ١٩٧٧ بلغت ديوننا الخارجية حوالى ١٥ مليار دولار .

كانت بلادنا فى ضائقة مالية تبعث على اليأس دون أن نلمح نهاية فى الأفق . لقد كلفت الحروب الأربع التى خضناها مع اسرائيل مصر مليارات الجنيهات . وبسبب تهديد اسرائيل المستمر اضطر أنور إلى مواصلة إنفاق ثلث الميزانية السنوية على الدفاع بدلا من الانفاق على الخدمات من أجل شعبنا . لقد أصبحت الحروب مكلفة جدا حتى فى البشر . فقد فقد آلاف كثيرة من الجنود المصريين حياتهم ، ولا تزال أرضنا محتلة .

كان يتعين إذن على شخص ما أن يفعل شيئا لايقاف هذه الدائرة المأساوية ، وأن يخطو الخطوة الأولى نحو إيجاد حل . ولم يدهشنى أنه سيكون زوجى .

فى ٩ نوفمبر استيقظت متأخرة قليلا واضطررت للاسراع لاستكمال واجبى من أجل طلبتى فى الجامعة قبل أن أذهب إلى غرفة نوم أنور لايقاظه .

قلت له « صباح الخير » وأنا أفتح نوافذ الغرفة . ورد قائلا « صباح النور » .

وبينما كنت أسلمه صحيفة الصباح ، لاحظت أن وجهه يبدو عليه الهدوء والصفاء . قلت : « هل نمت جيدا ؟ » قال : « جدا » ، وعيناه صافيتان لا يبدو عليهما الانتفاخ الذى يدل على الأرق والسهاد .

كنت أريد أن أجلس معه ، لتناول الافطار معا ، ولقراءة الصحف سويا ، لكنى كنت قد تأخرت عن برنامجى المقرر واعتذرت قائلة : « لن أعود إلى البيت حتى وقت متأخر من الليل . . لدى لقاء هام مع مجموعة نسائية » .

فرد أنور متهكما بقوله : « دائما أنت هكذا مستعجلة يا جيهان . . ليس لدى شىء اليوم سوى إلقاء خطاب الجلسة الافتتاحية للبرلمان » .

وفى طريقى إلى الاجتماع بالسيارة قرأت مسودة مشروع الكوبرى الجديد الذى كنا نحاول أن نجمع أمواله فى محافظة المنوفية . وحاولت ألا أصاب بالاكتئاب عندما كانت سيارتى تشق طريقها ببطء شديد وسط زحام مرور القاهرة بجانب مخلفات حرائق المسارح والمطاعم والمقاهى التى دمرتها أحداث الشغب قبل ذلك بشهور . كانت الحكومة قد نفذت مشورة صندوق النقد الدولى فى يناير ١٩٧٧ ، وأمرت بخفض الاعانات الحكومية لسلع أساسية مثل الخبز واللحم والسكر والزيت والأرز والصابون . كان ذلك بالنسبة للذين حسبوه أمرا معقولا حيث أن الدعم يكلف الحكومة أكثر من مليار جنيه سنويا فى ذلك الوقت . لكن خفض الدعم . . . بالنسبة لملايين المصريين الذين يعتمدون عليه فى إطعام أسرهم كان بمثابة الغضب الذى لا رجعة فيه .

لقد ألغى دعم الشاى .. وزاد سعر كيلو الأرز والسكر عشرة مليمات .. وارتفع سعر أنبوبة البوتاجاز إلى ٩٥ قرشا . أدركت بمجرد أن قرأت الصفحة الأولى من « الأهرام » صباح ١٨ يناير أن اضطرابات ستحدث . لكن ما لم أكن أعرفه هو ماذا سيكون حجم هذه الاضطرابات . ومن شرفة منزلى بالجيزة رأيت سحب الدخان بدأت تخيم فى سماء القاهرة . وفى قلق اتصلت بفوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس فى مكتبه أسأله : « ما الذى يحترق ؟ » متمنية أن يكون أنور فى القاهرة بدلا من أسوان حيث كان يستقبل الرئيس تيتو رئيس يوغوسلافيا .

ورد فوزى قائلا : « محلات وسط البلد والملاهى الليلية على طول شارع الهرم . إن المظاهرة التى بدأت سلمية لمعارضة تخفيضات الدعم تتحول إلى أحداث شغب . والمحرضون يحثون الجمهور على إشعال النيران » .

وعدت بسرعة إلى الشرفة . وسمعت الانفجار بعد الآخر بينما يتم إشعال النار فى مزيد من المحلات والسيارات . كان شيئا مرعبا يعيد للأذهان أحداث الشغب التى وقعت قبل حريق القاهرة فى ١٩٥٢ . لم يكن أحد يعلم على وجه اليقين من الذى تسبب فى هذا العنف حينذاك ، لكن فى هذه المرة ساورنى الشك فى الشيوعيين الذين واصلوا معارضتهم لقرار أنور بفتح مصر للمستثمرين الأجانب . المزيد والمزيد من المحلات التى تحوى سلعا أجنبية وتقدم الطعام والتسلية للسياح كان يجرى إشعال النيران فيها . كنت أفتح التليفزيون وأتصل بمكتب أنور كل ٢٠ دقيقة للاستفسار ، ثم امتدت أحداث الشغب إلى الاسكندرية وحتى إلى أسوان حيث كانت الرعاع الغاضبة تدمر كل الرموز الغربية للوفرة وبحبوحة العيش التى لم يتمكنوا من تحقيقها .

كانت الجماهير تردد شعارات مثل « يابو العبور فين الفطور ؟ » .. « جيهان يا جيهان الشعب جعان ، جيهان يا جيهان الشعب غضبان » .. وعلى مدى الأيام الثلاثة التى استغرقتها أحداث الشغب ، قتل وأصيب أكثر من مائة شخص .

ومن عمان اتصلت الملكة علياء ملكة الأردن بى قائلة : « هل أنتم بخير جميعا ؟ » ومن باريس اتصلت الامبراطورة فرح قائلة : « نحن قلقون عليكم جدا .. آمل أن ينتهى ذلك بسرعة يا جيهان .. نحن معكم بقلوبنا » لقد مس اهتمامهما أوتار قلبى ، لكن القلق انتابنى إزاء صورة مصر فى الخارج بسبب هذه الاضطرابات التى بدأتها مثل هذه القلة .

لقد تسببت أحداث الشغب فى قطع الرئيس تيتو زيارته الرسمية . وفى ١٩ يناير عاد أنور بسرعة من أسوان . وسألته « ماذا ستفعلون ؟ » قال « سأعيد الدعم » ، قلت « لكنكم سوف تتراجعون بذلك عن أوامر حكومتكم » ، فرد قائلا « أيهما أفضل .. مواصلة تنفيذ أمر خاطىء أم الاعتراف بأن اللجنة الاقتصادية أخطأت ؟ » . قلت « أنت على حق يا أنور » .

وبمجرد أن أعلن أنور إعادة الدعم هدأ الناس . لكننا جميعا أدركنا أننا نعيش فى زمن مستعار . إقتصادنا مفلس تقريبا ، هكذا كان إحساسنا ، واستمرت الحياة اليومية فى القاهرة فى مجراها . وعندما عدت من اجتماعى مع المجموعة النسائية فى مساء ٩ نوفمبر قالت ابنتى الصغرى نانا فى هياج بالغ : « مامى ، مامى هل سمعت الأخبار ؟ » توقف قلبى ، لقد كانت ابنتى نهى على وشك وضع مولودها الثانى ، فهل حدث شىء لها ؟ قلت بحدة : « ماذا حدث يا نانا » ؟ قالت وصوتها فيه مسحة من الشك « بابى سيزور القدس » ..

ـ قلت « والدك سيذهب إلى ماذا ؟ »

ـ ردت نانا بسرعة قائلة « لقد أعلن ذلك فى خطابه للبرلمان صباح اليوم .. لقد عرض أن يتوجه إلى القدس » .

قلت « يذهب إلى القدس ؟ أنور ؟ .. أين هو يا نانا ؟ » .

قالت : « فى الدور الثانى » .

واندفعت صاعدة السلالم وقلت « أنور .. هل صحيح ما قالته لى نانا » ؟

فأومأ أنور برأسه قائلا : « نعم .. لقد قبعنا طويلا فى عواصمنا نصدر

التحذيرات إلى إسرائيل لاعادة الأراضى المحتلة وصورتنا لدى العالم مضحكة وقبيحة . إننا نطالب بإعادة أرضنا لكننا نرفض أن نطلب ذلك من هؤلاء الذين يحتلونها . وقد قررت أن أذهب إلى الاسرائيليين مباشرة . ما هو الخيار الآخر لدى ؟ » .

وقال أنور : « إذا لم نستعد سيناء سلميا ، فلابد إذن من أن نمضى فى تهديدنا ، ونخوض الحرب مع إسرائيل مرة أخرى . ويفقد المزيد حياتهم . هل هذا ما نريده لشعبنا ؟ أن نضحى بحياة أبنائنا فى حروب لا يمكن لأى دولة الانتصار فيها ، أن ننفق أموالنا على الأسلحة بدلا من استخدامها فى اعادة بناء بلدنا ونساعد الشعب ؟ هذا خراب يا جيهان . . الخراب سوف يستمر . لابد أن أستكشف كل وسيلة للسلام بين بلدينا ، بل وللمنطقة كلها » .

وسألته « ولكن لماذا تذهب إلى هناك بنفسك يا أنور ؟ . فهز رأسه قائلا : « لا أستطيع انتظار مؤتمر السلام فى جنيف ؟ . . من الذى يعرف ما الذى سيأتى به مؤتمر السلام أو حتى ما إذا كان سينعقد ؟ إن شهورا وربما سنين سوف تضيع بينما كل واحد يجادل فى جدول الأعمال والوفود واشتراك الفلسطينيين . لا يا جيهان ، الطريق الوحيد للبدء فى البحث عن السلام هو أن يتحدث بلدانا بالاخلاص والصراحة كل مع الآخر . وأنا مستعد لعمل ذلك » .

هززت رأسى وأنا لا أصدق . . سلام مع اسرائيل ؟ لم يذهب زعيم عربى واحد إلى اسرائيل . لكن زوجى كان رجلا غير عادى . قلت وأنا ألف ذراعى حوله وأقبله : « آه . . أنور . . تفكر فى إمكانية السلام مع إسرائيل ، ولكن ماذا لو رفض رئيس الوزراء بيجن أن يجتمع معك ؟ » فرد قائلا : « تلك ستكون مشكلته . . الخطوة القادمة ستكون عليه » .

وشعرت بالحيرة ، ولكى أعود بنفسى إلى الأرض فتحت التليفزيون لمشاهدة الأخبار تنقل اقتراح أنور التاريخى . كان يقول فى هدوء كما لو كان يتحدث عن الطقس « إننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم إذا كان ذلك سيحول

دون قتل أو جرح مجرد جندى واحد أو ضابط واحد من أولادى . . أقولها الآن إننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم . سوف تندهش إسرائيل عندما تسمعنى الآن أمامكم ، أنا مستعد للذهاب إليهم فى عقر دارهم ، إلى الكنيست نفسه للتحدث إليهم » .

أما أعضاء البرلمان فقد بدت عليهم الدهشة ، كما لو كانوا لا يستطيعون تصديق آذانهم . كيف يمكن لأى منهم أن يستوعب بسرعة مثل هذه الفكرة الدرامية والخيالية . فلم يكن بين مصر واسرائيل أى شىء سوى العداء والشك . ولم يتحدث رسميا قط حتى ذلك الوقت أى منهما إلى الآخر . فى مصر كان مخالفا للقانون أن يتعامل أى مسئول مع أى اسرائيلى على أى مستوى مهما كان . لقد سبق أن رفضنا حتى الاعتراف بوجود اسرائيل . وفى خرائط المنطقة كان يشار إلى اسرائيل بوضوح على أنها « أرض فلسطين المحتلة » . وهذا هو المكان الذى أعلن زوجى لتوه أنه مستعد للذهاب إليه .

كما لاحظت أن أعضاء البرلمان يصفقون بهدوء حتى ياسر عرفات الذى كان فى زيارة للقاهرة إنضم إليهم . وقال الكثيرون بعد ذلك إن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية جلس متجهم الوجه من شدة المفاجأة ، لكنه ككل السياسيين الحاضرين صفق قبل أن تتضح معانى الاقتراح الكامنة ، والكلمات التى تمثل الأمل لدى الكثيرين من المصريين ، أخذها الفلسطينيون على أنها كلمات رجل خادع . وبعد خطاب أنور انسحب عرفات من البرلمان وغادر مصر عازما ألا يعود .

وظلت الصدمة تهز البلاد لمدة أسبوع . لم يصدق أى أحد أنور . لا أحد سواى . وبينما أنور ينتظر ردا من مناحم بيجين لم يتوقف جرس التليفون فى منزلنا عن الرنين . سأل صديق : « هل صحيح أن الرئيس مستعد فعلا للتوجه إلى القدس ، أم أنه مجرد كلام ؟ . . . من المؤكد أنه سيفقد شعبيته إذا ذهب إلى هناك » .

وقلت ردا عليه « أنت لا تفهم زوجى . . إنه غير عابىء بالشعبية ولكن بما هو حق لبلدنا » . وقال متصل آخر « قولى لى إن أنور لن يذهب فعلا إلى القدس » . وأجبته قائلة : « بل سيفعل إذا وافق بيجين » . قال صديقى : « لا تقولى ذلك يا جيهان » . قلت « لماذا لا . . يتعين على شخص ما أن يمهد الطريق للسلام لكى يواصل الآخرون المسيرة » .

وكان جيراننا العرب أيضا مصعوقين . إن أنور علم أنهم سيقاومون اقتراحه ، ولذلك اتخذ قراره بمفرده دون استشارة واحد منهم . وإن كان لديه أمل أكبر فى إقناع رفيقه فى السلاح الرئيس السورى حافظ الأسد لتأييد موقفه . وبعد أيام قليلة من خطابه فى البرلمان طار أنور إلى دمشق ليعود فقط خائب الأمل ومترنحا . وقال لى : « تناقشت وحاولت مع حافظ حتى الرابعة صباحا » . قالها والارهاق يكسو وجهه ، وأضاف « أبلغته أننى سأتحمل المسئولية الكاملة عن تصرفاتى . فإذا نجحت وتأكد السلام ، عندئذ سيكون انتصارا لنا جميعا ، وإذا فشلت سأتحمل وحدى عواقب فشلى » .

غير أن حافظ استمات فى معارضة مبادرة أنور السلمية ، وانقلب حتى على أنور نفسه . وبمجرد عودة أنور من سوريا بدأ راديو دمشق يشن حملة طعن على زوجى ، وأى واحد اعتزم مصاحبته فى رحلته المقترحة . وهدد راديو دمشق قائلا أى واحد يطأ بقدمه القدس المحتلة يكون بذلك خائنا للعرب ، وسوف يتحمل وطأة كل الدم العربى الذى أريق لتحرير فلسطين . وقد شعرت بالاحباط من تهجمات حافظ الأسد . فقد كان مقربا جدا لأنور وأكل مع أسرتى على المائدة ، وضحك معنا ، والآن يهدد صديقه القديم بالقتل ، ولم أكن أعرف حتى بعد اغتيال أنور أن الحكومة السورية بحثت إعتقال أنور فى دمشق لمنعه من مواصلة سعيه إلى السلام ، وفى الدقيقة الأخيرة فقط أدرك الأسد أن هذا إجراء خطير وغير ذى جدوى .

أيضا عارض بعض السياسيين المصريين اقتراح أنور السلمى . وعشية مغادرة أنور إلى سوريا للاجتماع مع الرئيس الأسد ، استقال اسماعيل فهمى وزير

الخارجية بشكل مفاجىء من منصبه لدرجة أن حقائبه ذهبت إلى دمشق بدونه . وقد صدمت لاستقالته بالرغم من أنى أفهم أنه لا يمكن أن يكون كل واحد بعيد النظر مثل زوجى . وحتى ذلك الوقت كان شعورى بالاحباط مسيطرا ، وساورنى الشك فى أن اسماعيل ربما يكون بذلك يسعى إلى حماية نفسه فى حالة فشل مهمة أنور من أجل السلام . وفى الوقت نفسه أحسست أن هناك خسارة شخصية أيضا . فقد كان أنور وأنا دائما صديقين مقربين لوزير الخارجية وزوجته عفاف . وعندما قابلت عفاف مرة أخرى بعد استقالة زوجها ، تصافحت معها لكنى لم أزرها كصديقة مرة ثانية .

كان أنور يتوقع ألا يوافقه الكثيرون على مهمته . وكان أيضا يدرك المخاطرة التى يقدم عليها سياسيا وشخصيا ، وكذلك كنت أنا الأخرى . وقد حذرته قائلة : « إذا لم يوافق الشعب على رغبتك فى السلام ، سيتعين عليك أن تستقيل من منصبك » . ورد علىّ قائلا : « أعلم ذلك ، وأوافق عليه يا جيهان ، لكن السلام يجب أن يكون أكثر أهمية من السياسة . بالتأكيد سوف أضطر لدفع الثمن . ولكن فى النهاية مصر هى الكسبانة » .

فى ١٥ نوفمبر وجه مناحم بيجن رئيس وزراء اسرائيل دعوة رسمية إلى أنور . وأعد ممثلو مصر واسرائيل تفاصيل الزيارة . وعلى خلاف التقاليد الخاصة بيوم السبت عند اليهود ، اختار أنور أن يهبط فى اسرائيل بعد غروب الشمس يوم السبت ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ وكان اليوم التالى هو عيد الأضحى عندنا . وكان مقررا أن يؤدى أنور صلاة العيد فى المسجد الأقصى فى القدس ، ثم يزور كنيسة عيد الصعود المسيحية . وبعد الظهر يلقى خطابه فى الكنيست .

وسألته متوسلة إليه « أنور ، من فضلك ، أيمكن أن ترتدى سترة واقية من الرصاص فى القدس ؟ » رفض قائلا « منذ سنوات طويلة كان هناك شك كبير بين مصر والاسرائيليين . إن جنديا قد يدخل بيت عدوه مستعدا لأى اعتداء عليه ، لكننى سأدخل اسرائيل بروح السلام » .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالاحباط بسبب عناد أنور . إنه كان يعلم مثلى جيدا أن هناك من يعارضون هذا السلام بنفس قوة تأييده له . ومن الممكن أن يقتله الصهيانة أو المتطرفون الاسلاميون أو الفلسطينيون . كنت مقتنعة أن زوجى لن يعود من القدس حيا .

لم أرفع عينى من على أنور عندما تجمع أفراد أسرتنا فى الاسماعيلية قبل أن يغادرها بأيام قليلة . وأخذنا صورة عائلية بعد أخرى ، وأنور يضحك وهو يلقى بحفيدنا الصغير شريف فى الهواء مرة بعد الأخرى . وكلما كان أنور يخرج شريف من المياه كان الطفل الصغير يصمم على إلقاء نفسه فيها . وقد رسمت فى ذهنى كل تفاصيل وملامح وجه أنور . لم يجهر أى منا بأى شىء ولكننا جميعا أدركنا أنها ربما تكون اللحظات الأخيرة التى نلتقى فيها معا .

وقال أنور « تعالى يا نانا . . تقدمى يا نهى . . صورة أخرى . . إقتربا أكثر . . عانقا بعضكما » .

ولم يتوقف جرس التليفون عن الرنين ، والخطط تتغير كل دقيقة ، أنور سيقلع من المطار فى الصحراء بجانكليس . هل سيستقل الهليكوبتر الصغيرة إلى المطار ؟ أم الهليكوبتر الكبيرة ؟ ووصل الوفد المسافر معه ومن بينهم الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء والدكتور بطرس غالى ثالث وزير خارجية له فى أسبوع واحد حيث استقال محمد رياض بعد تعيينه خلفا لاسماعيل فهمى باثنتى عشرة ساعة . وجرس التليفون لا يزال يرن آخذا أنور منا باستمرار . وأردت أن أقطع السلك لكننى لم أستطع طبعا . لم أشعر من قبل أننى ممزقة بهذا القدر ، ففى الوقت الذى أشعر فيه بسعادة بالغة لأنه سيقوم بمهمته السلمية ، كنت قلقة جدا على حياته .

وأخيرا جاء الوقت . وعلى سلالم الهليكبوبتر قلت له « ربنا معاك يا أنور . . ربنا يبارك فيك . . لا إله إلا الله » .

ورد قائلا « ومحمد رسول الله » .

وأقلعت الهليكوبتر وأنا وأطفالى واقفون فى الصحراء ، والرياح تلسع أعيننا وجلدنا بالرمال . ولم نملك سوى أن نذرف الدموع . وظل شريف يسألنى « ما الحكاية يا جدتى ؟ ما الحكاية ؟ » ولما لم أرد عليه اتجه إلى والدته يسألها « ما الحكاية يا أماه ؟ » ولم تستطع نهى أيضا أن ترد عليه .

وجلست أحملق فى شاشة التليفزيون وجسمى مشدود لعدة أيام ، لدرجة أننى لم استطع تحريك عنقى بعد ذلك . ويقول المذيع وهو نفسه غير قادر على مداراة أثر عدم التصديق فى صوته أن الطائرة المصرية ٧٠٧ التى تقل أنور إلى اسرائيل تستعد الآن للهبوط فى مطار بن جوريون ، فموعد وصول الرئيس هو الساعة ٨ ، وقد حان وقت الوصول . كنت أهدئ شريف حفيدى الذى سقط على الدرجات الأمامية ، وقطع شفته بشدة ، ونحن نندفع عائدين إلى القاهرة لمشاهدة وصول أنور على التليفزيون . وأرسلت إبنتى نهى التى كانت على وشك وضع مولودها الثانى بعد أسابيع قليلة إلى بيتها للراحة ، وأبقيت شريف معى . بدأنا نشاهد أنا وشريف طائرة أنور تهبط على الممر ونشاهد سلم شركة طيران « العال » الاسرائيلية يتجه نحو الباب الأمامى للطائرة . وكان شريف لا يزال يصرخ من الألم وهو قابع فى حجرى ، بينما إنهمرت دموعى ، دموع الخوف وعدم التصديق . زوجى فى اسرائيل . . . شىء غير ممكن .

وعزفت موسيقى الاستقبال وينفتح باب الطائرة . ها هو . . إن قلبى يدق وأنا أشاهده ينزل على سلم الطائرة . كان يبدو واثقا وهادئا . ما الذى يشعر به فى أعماقه ؟ بعد ذلك سوف يقول لى : « شعرت أن الله أرسلنى فى هذه المهمة السلمية . . وعندما وطأت قدمى لأول مرة التراب الاسرائيلى شعرت أننى لست من هذا العالم ولكننى شعرت كأننى الطير » .

شعرت وأنا أشاهده كأننى أيضا أحلم ، ولكن على وشك أن يتملكنى كابوس . وكم تمنيت أن تكون عيناى كاميرتين تليفزيونيتين لكى أستطيع مسح الجماهير لضبط المشتبه فيهم حتى أستطيع رصد أى مسدس أو بندقية قبل أن يفوت الأوان .

وقد رتبت لأنور حراسة جيدة بالطبع ، فقد تم إرسال مزيد من قوات الأمن إلى اسرائيل قبل ذلك بيوم ، للتأكد من ترتيبات الأمن . وصحبه كثير من رجال الأمن أيضا ، لكنى كنت خائفة أكثر منهم . فإن كان هو رئيسهم فهو زوجى .

لا أستطيع أن أصدق عينى . أنور يصافح ابراهام كاتزير رئيس اسرائيل ومناحم بيجين رئيس الوزراء . هناك يظهر على نفس شاشة التليفزيون زعماء دولتين متعاديتين فقد الآلاف من أبنائهما حياتهم . وأسمع نشيدنا القومى « بلادى بلادى » تعزفه الفرقة العسكرية الاسرائيلية ، وأرى الأعلام المصرية تلوح جنبا إلى جنب مع نجمة داود الاسرائيلية . كيف كان ذلك ؟

وكانت آخر مرة شاهدت فيها العلم المصرى يرفرف بجوار العلم الاسرائيلى من ١٤ عاما فى ألمانيا حيث كان أنور يتولى رئاسة البرلمان . وكنت أنا قد توجهت إلى هناك لقضاء إجازة . وعند عودتنا إلى الفندق من نزهة ذات يوم بعد الظهر رأيت منزعجة علمنا بجوار العلم الاسرائيلى على واجهة الفندق . وقلت لزوجى فى ذعر « تعال بسرعة يا أنور . . لابد أن نتصرف بسرعة » . ورد قائلا « إلى أين سنذهب ؟ » قلت : « يوجد إسرائيليون فى هذا الفندق . . لابد أن نرحل فوراً » وقال أنور : « لا يمكننا أن نرحل إذ لم نعرف بالضبط إلى أين سنذهب . سنضع خطة ونرحل غدا » ، لكنى أعلنت احتجاجى قائلة « لكنهم سيقتلوننا إذا رأونا » لكن أنور رفض واضطررت أنا لأن أبيت الليل دون أن يغمض لى جفن . فمن المؤكد اننا سوف نقتل فى أسرتنا .

وبينما يقترب عزف نشيدنا القومى فى القدس من النهاية سمعت طلقات الرصاص . وحسبتها موجهة إلى أنور وأمسكت شريف وأحكمت قبضتى عليه لدرجة أنه نسى الألم فى شفته للحظات . وأحسست كأننى أرى فجوات فى شاشة التليفزيون ، لكن زوجى لم يسقط وأدركت أن تلك الطلقات هى الإحدى والعشرون طلقة للتحية . وبدأت أعد جزئيات الوقت التى ظل زوجى فيها حيا ، حيث قضى أول عشر دقائق وبقت عشر دقائق أخرى يتعين قضاؤها وسط الجموع .

كنت أسمع جرس التليفون يدق خافتا مرات ومرات لكنى لا أرد عليه . لم أكن لأصرف تركيزى ولو لدقيقة واحدة . وكانت رسائل أصدقائنا المتوالية تقول « لا نريد ازعاجها . . لكن بلغها من فضلك اننا معها ونصلى من أجل الرئيس . . اننا اهتززنا من الأعماق بسبب ما نراه » .

كان هناك فى استقباله موشى ديان واريل شارون وجولدا مائير ومردخاى جور كلهم كانوا فى صف المستقبلين الحكوميين السابقون منهم والحاليون فى المطار . وأنور يتجه نحوهم مصافحا اياهم ومازحا وضاحكا . كنت أجهد نفسى فى قراءة ما تنطق به شفتاه وشفاههم . ما الذى يقوله كل منهم للآخر ؟ يبدو أنهم يحيى كل منهم الآخر كالأصدقاء القدماء . وإذا كانت الحرب سخيفة وغير عقلانية فان هذا المشهد السلمى يجعلها أكثر من ذلك . اريل شارون الجنرال المفزع الذى كسر دفاعاتنا فى حرب ١٩٧٣ وقاد القوات الاسرائيلية عبر القنال يشد الآن على يد أنور بحماس وحرارة شريكين قديمين فى المعركة يلتقيان من جديد .

فى وقت لاحق أبلغنى أنور أنه مازح شارون بقوله « كنت على وشك سد الثغرة التى أحدثتها فى خطوطنا تماما لكنى لم أستطع الامساك بك » ، وعلى الشاشة رأيت شارون يعتدل ضاحكا وقائلا « أنا سعيد لتحيتك كضيف فى بلدنا » وبينما أنور يتجه إلى جولدا مائير حبست نفسى . كنت قد سألت أنور قبل أن يقلع إلى القدس قائلة « من فضلك يا أنور أبذل جهدا خاصا مع مسز مائير » . ونظر إلى بدهشة قائلا « أوه . . يا جيهان . . كأنك لا تعرفيننى هل تعتقدين أننى سأبذل جهدا أقل معها لأنها ليست رجلا ؟ » .

لكننى أكدت له قائلة « لا يا أنور ، لا . . انى أعرفك لكن أحيانا يسيىء الناس فهمك . . انك تحتفظ بأحاسيسك لنفسك وأحيانا لا تنطق على الاطلاق . أن إناسا مثل مسز مائير لا يعرفونك جيدا ربما يعتقدون أنك غير ودود وتنقصك الحماسة » .

وقد رد ساخرا قائلا : « سوف ترين ما سأبذله من جهد مع مسز مائير من

أجل خاطرك فقط يا جيهان » . وشعرت عند ذلك بالحرج متذكرة كم من مرة فى سعيى من أجل حقوق المرأة ضربت لأنور أمثلة بجولدا مائير وانديرا غاندى كسيدتين ناجحتين وشجاعتين . كل منهما قادت بلدها خلال الحروب . مسز مائير خلال حرب ١٩٦٧ بين مصر واسرائيل وانديرا غاندى خلال الحرب بين الهند وباكستان . وكلاهما حققت النصر . والآن أنور على وشك تحية مسز مائير التى أكن لها الكراهية والاحترام فى وقت واحد .

على شاشة التليفزيون أرى أنور يمسك بيد مسز مائير وأرى اصغاءها بتركيز إليه . وكانت أذناى تئن من التوتر وحب الاستطلاع . وفجأة علت وجهها ابتسامة عريضة ، ولا شعوريا ابتسمت أنا أيضا .

وفى وقت لاحق أبلغنى أنور بما دار بينهما من نقاش حيث قال لها « أنت معروفة جدا فى بلدنا يا مسز مائير . . هل تعلمين بماذا توصفين ؟ »

قالت مائير « لا . . بماذا ؟ » .

قال « أقوى رجل فى اسرائيل » . ولذلك ضحكت مسز مائير وردت قائلة « انى آخذ ذلك على أنه مديح يا سيدى الرئيس » .

وعندما أبلغنى أنور بما قاله ارتعشت ابتسامتى لأنى كنت غير متأكدة أنه كان يقصد بذلك المديح . لكنه من المرجح أن يكون قد قصد ذلك . وبمجرد أن التقى وجهه بوجهها ، كما أبلغنى بعد ذلك ، قرر أن يعفو وينسى . وبدلا من التمسك بالماضى ، أراد أن يفتح صفحة جديدة بين مصر واسرائيل لبدء حقبة جديدة للسلام . وبدا كما لو كان سينجح .

وعلى طول الطريق إلى القدس كانت الجماهير المتحمسة تهتف « سادات . . سادات » وكانت الدموع تنساب من عيون الكثيرين على خدودهم . وقد كان من الصعب على الشعب الاسرائيلى أن يصدق أن زعيم الدولة العدو لهم أتى إليهم مسالما مثلما كان الشعب فى مصر عندما أعلن أنور أنه سيتوجه إلى القدس . وكانت بعض الجماهير تمسك بالصحف ، وكان مانشيت الجيروزالم

بوست « مرحبا بالرئيس السادات » . وكانت هناك نساء ، كثير من النساء بين الجماهير وأمهات تحملن أطفالهن الرضع جئن لرؤ ية رجل السلام . وكان منظر هؤلاء النساء والأطفال أكثر ما يحرك المشاعر لدى أنور . وقد قال لى بعد ذلك « أنه كان كما لو أن كل أم تقول لى : « رسالتك السلمية وصلتنا ونحن موافقون . انظر إلى أطفالنا واعلم اننا لا نريد مزيدا من الحروب » .

فى القاهرة كنت احتضن شريف وأعطيه قرصا آخر من النوفالجين . وقد وصل أنور بسلام الآن إلى فندق الملك داود حيث يقيم الوفد المصرى . وأستطيع الآن أن استريح من يقظتى لأننى سأحتاج إلى كل قواى فى الصباح .

بالنسبة لأنور كانت للصلاة فى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين منزلة فى الاسلام ذات مغزى روحى كبير لأن الحديث الشريف يقول أن الصلاة فى المسجد الأقصى تعادل ألف صلاة فيما سواه . لكنها أيضا مخاطرة كبيرة . أن قتل أول زعيم مسلم يصلى على قبة الصخرة منذ قيام اسرائيل ، أن قتل زوجى وهو يصلى فى هذا المكان المقدس سيكون أكبر اغراء لأعداء السلام المتشددين مع اسرائيل . وكنت أدعو الله وأنا احتضن شريف قائلة « يا رب اشمل زوجى بعنايتك » ثم أخُر ساجدة .

وبعد منتصف الليل مباشرة أيقظنى تليفون طارىء من زوج ابنتى حسن مرعى قائلا أن قلق نهى على والدها فى رحلته إلى القدس جعل مخاض الولادة يأتيها قبل موعده وتم نقلها إلى المستشفى . نهى . . وأسرعت إلى المستشفى فوجدت والدة حسن وخالته إلى جانبها بالفعل . وكنت أنا وأنور قد فاتنا حضور مولد شريف أول حفيد لنا لأننا كنا فى زيارة لايران . أما الآن فأنا على الأقل فى القاهرة . وقلت لنهى « استريحى » ماسحة بيدى على شعرها . « عما قليل سينتهى المخاض » . وبعد حالة مخاض عسيرة وضعت طفلة جميلة . وقلت لأمها ضاحكة « انها قبيحة جدا . . لكنها بشرة خير . . لابد أنها ستكون بشير السلام » .

واتصلت بأنور فى القدس حيث كان على وشك مغادرة الفندق للصلاة فى المسجد الأقصى ، وأخبرته « أصبح لنا حفيدة . . أن بشرتها خمرية وليست جميلة جدا . . انها شبهك » .

وضحك أنور قائلا « إذا كانت داكنة مثلى فلابد أن تكون حسنة المظهر حقا » .

وفى المستشفى كنا نشاهد زيارة أنور لقبة الصخرة كنت أشعر بالدوار المصحوب بالانهاك والصراع . كان يجب أن يجلب انجاب حفيدة لى أعظم فرحة ، لكن القلق كان لا يزال يخيم علينا .

احذر يا أنور . انظر لترى من الذى يصلى على يمينك وعلى يسارك ، أعلم أن قوات الأمن فى اسرائيل قد فتشت المصلين الذين سوف يؤدون صلاة عيد الأضحى مع أنور ، لكنى أعلم أيضا أن المتشددين مهرة جدا . كنت أمسح بعينى المصلين بينما كان أنور يصلى . ومرت عشر دقائق ولم يحدث شىء . ولكن بينما أنا جالسة يتملكنى التوتر فى القاهرة ، كان أنور يحقق حلما فى القدس .

بعد ذلك قال لى أنور « لم أستطع أن أصدق اننى كنت بالفعل أقف فى المسجد الأقصى وسط المصلين . . هل كان ذلك يحدث بالفعل لى ؟ » . . وتمنيت أن يحدث ذلك لكل المسلمين . ومرت عشر دقائق أخرى وأرى زوجى يخرج سالما ويبدأ السير عبر الساحة إلى قبة الصخرة التى نؤمن بأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم صعد من فوقها إلى السماء فى رحلته الليلية الشهيرة (المعراج) احذر يا أنور . . فقد رأيت مجموعة من المتظاهرين الفلسطينيين يلوحون بقبضات أيديهم نحوه ويسبونه بأعلى أصواتهم . وطاردتهم قوات الأمن بعيدا فى أزقة وحوارى القدس القديم . ونجا أنور من الموت خلال عشر دقائق أخرى .

وعدت بصعوبة إلى الواقع فى القاهرة ، فقد كنت على موعد لتناول الشاى بعد الظهر مع ضيفتى الرسمية مدام بورقيبة قرينة رئيس تونس . فزيارتها كانت

مقررة منذ مدة طويلة ، قبل أن يعلن زوجى عن رحلته إلى اسرائيل بكثير ، كنت قد ألغيت اجتماعى معها الليلة السابقة لكى أتمكن من رؤ ية وصول أنور إلى القدس . ولا يمكن أن أكون فظة مرة ثانية وبسرعة ارتديت ملابسى للتوجه إلى حجرة الاستقبال فى أحد الفنادق حيث كان موعد المقابلة قبل قليل من بدء خطاب أنور فى الكنيست . وقلت لابنتى الصغرى « ارعى احوال شريف يانانا » . وعندما وصلت إلى الاستقبال وجدت الجميع هناك ومن بينهم مدام بورقيبة يريدون أن يشاهدوا خطاب أنور ، وبامتنان أسرعت عائدة إلى البيت .

عندما دخل أنور الكنيست الساعة الرابعة مساء تم استقباله بحفاوة بالغة استمرت وقتا طويلا . هل سيكون الاسرائيليون متحمسين لما سيقوله عندما يسمعونه ؟ وبدأ أنور خطابه بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

« السيد الرئيس

أيها السيدات والسادة

السلام عليكم .. ورحمة الله

والسلام لنا جميعا .. باذن الله

السلام لنا جميعا .. على الأرض العربية وفى اسرائيل .. وفى كل مكان من أرض هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية ، المضطرب بتناقضاته الحادة ، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة ، تلك التى يصنعها الانسان ليقضى بها على أخيه الانسان . وفى النهاية ، وبين انقاض ما بنى الانسان وبين اشلاء الضحايا من بنى الانسان ، فلا غالب ولا مغلوب ، بل إن المغلوب الحقيقى دائما هو الانسان .. أرقى ما خلقه الله .. الانسان الذى خلقه الله ـ كما يقول غاندى قديس السلام ـ « لكى يسعى على قدميه ، يبنى الحياة .. ويعبد الله » .

مسئولية السـلام

وقد جئت اليكم اليوم على قدمين ثابتتين ، لكى نبنى حياة جديدة لكى نقيم السلام . وكلنا على هذه الأرض ، أرض الله ، كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود . . نعبد الله ولا نشرك به أحدا ، وتعاليم الله . . ووصاياه . . هى حب وصدق وطهارة وسلام .

وإننى التمس العذر لكل من استقبل قرارى عندما أعلنته للعالم كله ، أمام مجلس الشعب المصرى ، بالدهشة ، بل الذهول ، بل أن البعض قد صورت له المفاجأة العنيفة إن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك امام الرأى العام العالمى ، بل وصفه بعض آخر بأنه تكتيك سياسى لكى أخفى به نواياى فى شن حرب جديدة .

ولا أخفى عليكم أن أحد مساعدى فى مكتب رئيس الجمهورية اتصل بى فى ساعة متأخرة من الليل بعد عودتى إلى بيتى من مجلس الشعب ، ليسألنى فى قلق : وماذا نفعل يا سيادة الرئيس لو وجهت إليك اسرائيل الدعوة فعلا ؟ فأجبته بكل هدوء : سأقبلها على الفور .

لقد أعلنت أننى سأذهب إلى آخر العالم . . سأذهب إلى اسرائيل لأننى أريد أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب اسرائيل .

إننى التمس العذر لكل من أذهله القرار ، أو تشكك فى سلامة النوايا وراء اعلان القرار فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية ، تتحمل العبء الأكبر والمسئولية الأولى فى قضية الحرب والسلام ، فى منطقة الشرق الأوسط يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد إلى الذهاب إلى أرض الخصم . ونحن لا نزال فى حالة حرب ، بل نحن جميعا لا نزال نعانى من آثار أربعة حروب قاسية خلال ثلاثين عاما ، بل أن أسر ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣ لا تزال تعيش مآسى الترمل وفقد الأبناء واستشهاد الآباء والأخوات .

كما اننى ـ كما سبق أن أعلنت من قبل ـ لم أتداول فى هذا القرار مع أحد

من زملائى وأخوتى رؤساء الدول العربية ، أو دول المواجهة . . ولقد اعترض من اتصل بى منهم بعد اعلان القرار ، لأن حالة الشك الكاملة ، وفقدان الثقة الكاملة ، بين الدول العربية والشعب الفلسطينى من جهة وبين اسرائيل من جهة أخرى ، لا تزال قائمة فى كل النفوس ، ويكفى أن أشهرا طويلة كان يمكن أن يحل فيها السلام ، قد ضاعت سدى ، فى خلافات ومناقشات لا طائل منها حول اجراءات عقد مؤتمر جنيف ، وكلها تعبر عن الشك الكامل ، وفقدان الثقة الكاملة .

المخاطرة الكبرى

ولكننى ـ أصارحكم القول بكل الصدق ـ اننى اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل ، وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة ، لأنه إذا كان الله قد كتب لى قدرى أن أتولى المسئولية عن شعب مصر ، وأن أشارك فى مسئولية المصير بالنسبة للشعب العربى وشعب فلسطين ، فإن أول واجبات هذه المسئولية أن استنفد كل السبل ، لكى أجنب شعبى المصرى العربى ، وكل الشعب العربى ، ويلات حروب أخرى محطمة ، مدمرة ، لا يعلم مداها إلا الله .

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل ، إن أمانة المسئولية أمام الله وأمام الشعب ، تفرض علىّ أن أذهب إلى آخر مكان فى العالم . . بل أن أحضر إلى بيت المقدس ، لأخاطب أعضاء الكنيست ممثلى شعب اسرائيل بكل الحقائق التى تعمل فى نفسى ، وأترككم بعد ذلك لكى تقرروا لأنفسكم وليفعل الله بنا بعد ذلك ما يشاء .

أيها السيدات والسادة :

إن فى حياة الأمم والشعوب لحظات يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون بالحكمة والرؤ ية الثاقبة أن ينظروا إلى ما وراء الماضى بتعقيداته ورواسبه من أجل انطلاقة جسورة نحو آفاق جديدة .

المسئولية وشجاعة القرار

وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المسئولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب أن تتوفر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التى تتناسب مع جلال الموقف ، ويجب أن نرتفع جميعا فوق جميع صور التعصب وفوق خداع النفس وفوق نظريات التفوق البالية فمن المهم ألا ننسى أبدا أن العصمة لله وحده .

وإذا قلت اننى أريد أن أجنب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفجعة ، فإننى أعلن أمامكم ، بكل الصدق ، اننى أحمل نفس المشاعر ، وأحمل نفس المسئولية ، لكل انسان فى العالم وبالتأكيد نحو الشعب الاسرائيلى .

ضحية الحرب : الانسان

إن الروح التى تزهق فى الحرب ، هى روح انسان ، سواء كان عربيا أو اسرائيليا .

إن الزوجة التى تترمل . . هى انسانة من حقها أن تعيش فى أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو اسرائيلية .

إن الأطفال الأبرياء الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعا ، على أرض العرب أو فى اسرائيل لهم علينا المسئولية الكبرى فى أن نوفر لهم الحاضر الهانىء والغد الجميل .

من أجل كل هذا ، ومن أجل أن نحمى حياة ابنائنا واخواننا جميعا .

من أجل أن تنتج مجتمعاتنا ، وهى آمنة مطمئنة . .

من أجل تطور الانسان واسعاده واعطائه حقه فى الحياة الكريمة . .

من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة . .

من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا . .

من أجل كل هذا اتخذت قرارى أن أحضر إليكم ـ رغم كل المحاذير ـ لكى أقول كلمتى .

مسئولية تاريخية

ولقد تحملت وأتحمل متطلبات المسئولية التاريخية .

ومن أجل ذلك أعلنت من قبل ومنذ أعوام وبالتحديد فى ٤ فبراير ١٩٧١ ، اننى مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع اسرائيل ، وكان هذا هو أول اعلان يصدر من مسئول عربى منذ أن بدأ الصراع العربى الاسرائيلى .

وبكل هذه الدوافع ، التى تفرضها مسئولية القيادة أعلنت فى السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصرى ، الدعوة إلى مؤتمر دولى يتقرر فيه السلام العادل الدائم .

ولم أكن فى ذلك الوقت فى وضع من يستجدى السلام ، أو يطلب وقف النار .

وبهذه الدوافع كلها ، التى يلزم بها الواجب التاريخى والقيادى ، وقعنا اتفاق فك الاشتباك الأول ، ثم اتفاق فك الاشتباك الثانى فى سيناء . ثم سعينا نطرق الأبواب المفتوحة والمغلقة لايجاد طريق معين نحو سلام دائم عادل وفتحنا قلوبنا لشعوب العالم كله لكى تتفهم دوافعنا ، وأهدافنا ، ولكى تقتنع فعلا ، اننا دعاة عدل ، وصناع سلام .

وبهذه الدوافع كلها ، قررت بأن أحضر إليكم ، بعقل مفتوح وقلب مفتوح وارادة واعية ، لكى نقيم السلام الدائم القائم على العدل .

تباشير الأمن والأمان والسلام

وشاءت المقادير أن تجىء رحلتى اليكم ، رحلة السلام فى يوم العيد الاسلامى الكبير عيد الأضحى المبارك عيد التضحية والفداء ، حين أسلم ابراهيم

عليه السلام ، جد العرب واليهود . أقول حين أمره الله ، وتوجه إليه بكل جوارحه ، لا عن ضعف بل عن قوة روحية هائلة وعن اختيار حر للتضحية بفلذة كبده ، بدافع من ايمانه الراسخ الذى لا يتزعزع بمثل عليا تعطى الحياة مغزى عميقا .

ولعل هذه المصادفة تحمل معنى جديدا ، فى نفوسنا جميعا ، لعله يصبح أملا حقيقيا فى تباشير الأمن والأمان والسلام .

الحقائق الخمس

أيها السيدات والسادة . .

دعونا نتصارح ، بالكلمة المستقيمة ، والفكرة الواضحة التى لا تحمل أى التواء ، ودعونا نتصارح اليوم ، والعالم كله بغربه وشرقه يتابع هذه اللحظات الفريدة ، التى يمكن أن تكون نقطة تحول جذرى فى مسار التاريخ فى هذه المنطقة من العالم ، إن لم يكن فى العالم كله .

دعونا نتصارح ونحن نجيب على السؤال الكبير : كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم العادل ؟

لقد جئت إليكم أحمل جوابى الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير ، لكى يسمعه الشعب فى اسرائيل ، ولكى يسمعه العالم أجمع ، ولكى يسمعه أيضا كل أولئك الذين تصل أصوات دعوات أصواتهم المخلصة إلى أذنى ، أملا فى أن تتحقق فى النهاية النتائج التى يرجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخى .

وقبل أن أعلن لكم جوابى ، أرجو أن أؤكد لكم ، اننى اعتمد فى هذا الجواب الواضح الصريح ، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها .

الحقيقة الأولى : انه لا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين .

الحقيقة الثانية : اننى لم أتحدث ، ولن أتحدث بلغتين .

ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستين .

ولست ألتقى بأحد ، إلا بلغة واحدة ، وسياسة واحدة ، ووجه واحد .

الحقيقة الثالثة : إن المواجهة المباشرة ، وأن الخط المستقيم ، هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح .

الحقيقة الرابعة : إن دعوة السلام الدائم العادل ، المبنى على احترام قرارات الأمم المتحدة ، أصبحت اليوم دعوة العالم كله ، وأصبحت تعبيرا واضحا عن ارادة المجتمع الدولى ، سواء فى العواصم الرسمية التى تصنع السياسة والقرار ، أوعلى مستوى الرأى العام العالمى الشعبى ، ذلك الرأى العام الذى يؤثر فى صنع السياسة واتخاذ القرار .

الحقيقة الخامسة : ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها ، أن الأمة العربية لا تتحرك فى سعيها من أجل السلام الدائم العادل ، من موقع ضعف أو اهتزاز ، بل انها على العكس تماما تملك من مقومات القوة والاستقرار ، ما يجعل كلمتها نابعة من ارادة صادقة نحو السلام ، صادرة عن ادراك حضارى بأنه لكى نتجنب كارثة محققة ، علينا وعليكم وعلى العالم كله ، فإنه لا بديل عن اقرار سلام دائم وعادل ، لا تزعزعه الأنواء ولا تعبث به الشكوك ، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا .

سلام دائم عادل

من واقع هذه الحقائق ، التى أردت أن أضعكم فى صورتها ، كما أراها ، أرجو أيضا أن أحذركم أن تطرأ على أذهانكم .

أن واجب المصارحة يقتضى أن أقول لكم ما يلى :

أولا : اننى لم أجىء إليكم لكى أعقد اتفاقا منفردا بين مصر واسرائيل . ليس هذا واردا فى سياسة مصر ، فليست المشكلة هى مصر واسرائيل ، وأى سلام منفرد بين مصر واسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة واسرائيل فانه لن يقيم

السلام الدائم العادل فى المنطقة كلها . بل أكثر من ذلك ، فانه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها واسرائيل ، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية ، فان ذلك لن يحقق أبدا السلام الدائم العادل الذى يلح العالم كله اليوم عليه .

ثانيا : اننى لم أجىء اليكم لكى أسعى إلى سلام جزئى ، بمعنى أن ننهى حالة الحرب فى هذه المرحلة ، ثم نرجىء المشكلة برمتها إلى مرحلة تالية .

فليس هذا هو الحل الجذرى الذى يصل بنا إلى السلام الدائم .

ويرتبط بهذا اننى لم أجىء إليكم ، لكى نتفق على فض اشتباك ثالث فى سيناء ، أو فى سيناء والجولان والضفة الغربية ، فان هذا يعنى اننا نؤجل فقط اشتعال الفتيل إلى أى وقت مقبل .

بل هو يعنى ، اننا نفتقد شجاعة مواجهة السلام ، واننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسئوليات السلام الدائم العادل .

لماذا جئت إليكم ؟

لقد جئت إليكم ، لكى نبنى معا ، السلام الدائم العادل ، حتى لا تراق نقطة دم واحدة من جسد عربى أو اسرائيلى .

ومن أجل هذا أعلنت اننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم .

وهنا ، أعود إلى الاجابة على السؤال الكبير : كيف نحقق السلام الدائم العادل ؟

فى رأيى . . وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله ، إن الاجابة ليست مستحيلة ولا هى بالعسيرة ، على الرغم من مرور أعوام طويلة ، من ثأر الدم ، والأحقاد والكراهية ، وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة والعداء المستحكم .

الاجابة ليست عسيرة ولا هى مستحيلة ، إذا طرقنا سبيل الخط المستقيم ، بكل الصدق والايمان .

العيش معـا

أنتم تريدون العيش معنا فى هذه المنطقة من العالم .

وأنا أقول لكم بكُل الاخلاص : اننا نرحب بكم بيننا . . . بكل الأمن والأمان .

إن هذا فى حد ذاته يشكل نقطة تحول هائلة ، من علامات تحول تاريخى حاسم .

لقد كنا نرفضكم ، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا . .

نعم .

لقد كنا نرفض الاجتماع بكم . . فى أى مكان . .

نعم .

لقد كنا نصفكم باسرائيل المزعومة . .

نعم .

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمات الدولية ، وكان ممثلونا ، ولا يزالون ، لا يتبادلون التحية والسلام .

نعم .

حدث هذا ولا يزال يحدث .

لقد كنا نشترط لأى مباحثات ، وسيطا يلتقى بكل طرف على انفراد .

نعم .

هكذا تمت مباحثات فض الاشتباك الأول ، وهكذا أيضا تمت مباحثات فض الاشتباك الثانى .

كما أن ممثلينا التقوا فى مؤتمر جنيف الأول ، دون تبادل كلمة مباشرة .

نعم .

هذا حدث .

ولكننى أقول لكم اليوم . . وأعلن للعالم كله . . اننا نقبل بالعيش معكم فى سلام دائم وعادل ، ولا نريد أن نحيطكم أو أن تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير ، أو بقذائف الأحقاد والكراهية .

ولقد أعلنت أكثر من مرة ، أن اسرائيل أصبحت حقيقة واقعة ، اعترف بها العالم ، وحملت القوتان الأعظم مسئولية أمنها وحماية وجودها .

ولما كنا نريد السلام فعلا وحقا فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا فى أمن وسلام ، فعلا وحقا .

وتحطم الجدار فى عام ١٩٧٣

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفع ، حاولتم أن تبنوه على مدى ربع قرن من الزمان ، ولكنه تحطم فى عام ١٩٧٣ .

كان جدارا من الحرب النفسية المستمرة فى التهابها وتصاعدها .

كان جدارا من التخويف بالقوة القادرة على اكتساح الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها .

كان جدارا من الترويج بأننا أمة تحولت إلى جثة بلا حراك ، بل أن منكم من قال أنه حتى بعد مضى خمسين عاما مقبلة ، فلن تقوم للعرب قائمة من جديد .

كان جدارا يهدد دائما بالذراع الطويل القادر على الوصول إلى أى موقع وإلى أى بعد .

كان جدارا يحذرنا من الابادة والفناء ، إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقنا المشروع فى تحرير أرضنا المحتلة .

الجدار الآخر

وعلينا أن نعترف معا ، بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم فى عام ١٩٧٣ .
ولكن بقى جدار آخر .

هذا الجدار الآخر ، يشكل حاجزا نفسيا معقدا بيننا وبينكم حاجزا من الشكوك ، حاجزا من النفور ، حاجزا من خشية الخداع ، حاجزا من الأوهام حول أى تصرف أو فعل أو إقرار ، حاجزا من التفسير الحذر الخاطىء لكل حدث أو حديث .

وهذا الحاجز النفسى هو الذى عبرت عنه ، فى تصريحات رسمية ، بأنه يشكل سبعين فى المائة من المشكلة .

واننى أسألكم اليوم ـ بزيارتى لكم ـ لماذا لا نمد أيادينا ، بصدق وايمان واخلاص ، لكى نحطم هذا الحاجز معا ؟

لماذا لا تتفق ارادتنا ، بصدق وايمان واخلاص ، لكى نزيل معا كل شكوك الخوف والغدر والتواء المقاصد واخفاء حقائق النوايا ؟

لماذا لا نتصدى معا بشجاعة الرجال ، وبجسارة الأبطال الذين يهبون حياتهم لهدف اسمى ؟

لماذا لا نتصدى معا بهذه الشجاعة والجسارة لكى نقيم صرحا شامخا للسلام ، يحمى ولا يهدد . . يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الانسانية نحو البناء والتطور ورفعة الانسان ؟ . .

لماذا نورث هذه الأجيال نتائج سفك الدماء ، وازهاق الأرواح ، وتيتيم الأطفال ، وترمل الزوجات ، وهدم الأسر ، وأنين الضحايا .

لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق أوردها فى أمثال سليمان الحكيم .

« الغش فى قلب الذين يفكرون فى الشر ، أما المشيرون بالسلام فلهم فرح » .

« لقمة يابسة ومعها سلامة ، خير من بيت ملىء بالذبائح مع الخصام » .

لماذا لا نردد معا من مزامير داود النبى .

« إليك يا رب أصرخ . . اسمع صوت تضرعى إذا استغثت بك ، وارفع يدى إلى محراب قدسك ، لا تجذبنى مع الأشرار ، ومع فعلة الاثم ، المخاطبين أصحابهم بالسلام والشر فى قلوبهم اعطهم حسب فعلهم ، وحسب شر أعمالهم ، أطلب السلامة واسعى وراءها » .

لن يجدى التوسع شيئا

أيها السادة . .

الحق أقول لكم أن السلام لن يكون اسما على مسمى ما لم يكن قائما على العدالة وليس على احتلال أرض الغير .

ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم .

وبكل صراحة ، وبالروح التى حدت بى إلى القدوم إليكم اليوم فانى أقول لكم : إن عليكم أن تتخلوا نهائيا عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضا عن الاعتقاد بأن القوة هى خير وسيلة للتعامل مع العرب .

إن عليكم أن تستوعبوا جيدا دروس المواجهة بيننا وبينكم فلن يجديكم التوسع شيئا .

ولكى نتكلم بوضوح فإن أرضنا لا تقبل المساومة . وليست عرضة للجدل .

إن التراب الوطنى والقومى يعتبر لدينا فى منزلة الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله موسى عليه السلام « ولا يملك أى منا ، ولا يقبل ، أن يتنازل عن شبر واحد منه ، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه » .

فرصة السلام

والحق أقول لكم أيضاً : أن أمامنا اليوم الفرصة السانحة للسلام وهى فرصة لا يمكن أن يجود بمثلها الزمان إذا كنا جادين حقا فى النضال من أجل السلام .

وهى فرصة ، لو أضعناها أو بددناها ، فلسوف تجل بالمتآمر عليها ، لعنة الانسانية ولعنة التاريخ .

ما هو السلام بالنسبة لاسرائيل ؟

أن تعيش فى المنطقة مع جيرانها العرب .. فى أمن واطمئنان ..

هذا منطق أقول له نعم .

أن تعيش اسرائيل فى حدودها ، آمنة من أى عدوان .

هذا منطق أقول له نعم .

أن تحصل اسرائيل على كل أنواع الضمانات التى تؤمن لها هاتين الحقيقتين .

هذا مطلب أقول له نعم .

بل أننا نعلن اننا نقبل كل الضمانات الدولية التى تتصورونها وممن ترضونه أنتم .

نعلن اننا نقبل كل الضمانات التى تريدونها من القوتين الأعظم ، أو من احداهما ، أو من الخمسة الكبار ، أو من بعضهم .

وأعود فأعلن بكل الوضوح . اننا قابلون بأى ضمانات ترتضونها لأننا فى المقابل ، سنأخذ نفس الضمانات .

خلاصة القول اذن عندما نسأل : ما هو السلام بالنسبة لاسرائيل ؟

يكون الرد هو أن تعيش اسرائيل فى حدودها مع جيرانها العرب فى أمن وأمان وفى اطار كل ما ترتضيه من ضمانات يحصل عليها الطرف الآخر .

السلام مستحيل مع الاحتلال

ولكن كيف يتحقق هذا ؟

كيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكى نصل بها إلى السلام الدائم العادل ؟

هناك حقائق لابد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح .

هناك أرض عربية احتلتها ـ ولا تزال تحتلها ـ اسرائيل بالقوة المسلحة ونحن نصر على تحقيق الانسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية . . القدس التى حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام . والتى كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحى للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث .

وليس من المقبول أن يفكر أحد فى الوضع الخاص لمدينة القدس فى اطار الضم أو التوسع ، وانما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين .

وأهم من كل هذا فان تلك المدينة يجب الا تفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقرا ومقاما لعدة قرون . وبدلا من ايقاظ أحقاد الحروب الصليبية ، فاننا يجب أن نحيى روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين . . أى روح التسامح واحترام الحقوق .

إن دور العبادة الاسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر بل انها تقوم شاهد صدق على وجودنا الذى لم ينقطع فى هذا المكان سياسيا وروحيا وفكريا .

وهنا ، فانه يجب ألا يخطىء أحد تقدير الأهمية والاجلال اللذين نكنهما للقدس ، نحن معشر المسيحيين والمسلمين .

لا أتقدم برجاء

ودعونى أقول لكم بلا أدنى تردد ، أننى لم أجىء إليكم تحت هذه القبة لكى أتقدم برجاء أن تجلو قواتكم من الأرض المحتلة .

إن الانسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ ، أمر بديهى لا نقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد .

ولا معنى لأى حديث عن السلامَ الدائم العادل ولا معنى لأى خطوة لضمان حياتنا معا فى هذه المنطقة من العالم فى أمن وأمان ، وأنتم تحتلون أرضا عربية بالقوة المسلحة ، فليس هنالك سلام يستقيم أو يبنى مع احتلال أرض الغير .

نعم . هذه بديهية لا تقبل الجدل والنقاش إذا خلصت النوايا ، وصدق النضال لاقرار السلام الدائم العادل لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا .

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية ، فليس هناك من ينكر انها جوهر المشكلة كلها ، وليس هناك من يقبل اليوم فى العالم كله شعارات رفعت هنا فى اسرائيل ، تتجاهل وجود شعب فلسطين بل وتتساءل أين هو هذا الشعب ؟ .

إن قضية شعب فلسطين . وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو انكار من أحد .

بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو انكار .

انها واقع استقبله المجتمع الدولى ، غربا وشرقا . بالتأييد والمساندة والاعتراف فى مواثيق دولية ، وبيانات رسمية لن يجدى أحد أن يصم آذانه عن دويها المسموع ليل نهار أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية ، حليفكم الأول التى تحمل قمة الالتزام لحماية وجود اسرائيل وأمنها والتى قدمت ـ وتقدم إلى اسرائيل ـ كل عون معنوى ومادى وعسكرى .

أقول حتى الولايات المتحدة اختارت أن تواجه الحقيقة والواقع وأن تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقا مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هى قلب الصراع وجوهره ، وطالما بقيت معلقة دون حل ، فان النزاع سوف يتزايد ويتصاعد ليبلغ أبعادا جديدة ، وبكل الصدق أقول لكم أن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير

الفلسطينيين وأنه لخطأ جسيم لا يعلم مداه أحد أن نغض الطرف عن تلك القضية أو أن ننحيها جانبا .

الوطن الفلسطينى

ولن استطرد فى سرد أحداث الماضى منذ صدر وعد بلفور لستين عاما خلت ، فأنتم على بينة من الحقائق جيدا .

وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانونى والأخلاقى لاقامة وطن قومى على أرض لم تكن كلها ملكا لكم ، فأولى بكم أن تتفهموا اصرار شعب فلسطين على اقامة دولته من جديد فى وطنه .

وحين يطالب بعض الغالة والمتطرفين أن يتخلى الفلسطينيون عن هذا الهدف الأسمى ، فان معناه فى الواقع وحقيقة الأمر مطالبة له بالتخلى عن هويتهم ، وعن كل أمل لهم فى المستقبل .

اننى أحيى أصواتا اسرائيلية ، طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى ، وصولا إلى السلام ، وضمانا له .

ولذلك ، فاننى أقول لكم أيها السيدات والسادة انه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقوقه فى اقامة دولته وفى العودة .

لقد مررنا نحن العرب بهذه التجربة من قبل ، معكم ، ومع حقيقة الوجود الاسرائيلى وانتقل بنا الصراع ، من حرب إلى حرب ، ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا حتى وصلنا اليوم ـ نحن وأنتم ـ إلى حافة هاوية رهيبة ، وكارثة مروعة إذا نحن لم نغتنم اليوم معا فرصة السلام الدائم العادل .

عليكم أن تواجهوا الواقع مواجهة شجاعة ، كما واجهته أنا .

ولا حل لمشكلة أبدا بالهروب منها أو التعالى عليها .

ولا يمكن أن يستقر سلام ، بمحاولة فرض أوضاع وهمية ، أدار لها العالم كله ظهره ، وأعلن نداءه الاجماعى بوجوب احترام الحق والحقيقة .

ولا داعى للدخول فى الحلقة المفرغة مع الحق الفلسطينى .
ولا جدوى من خلق العقبات ، إلا أن تتأخر مسيرة السلام .
أو أن يقتل السلام .

وكما قلت لكم ، فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين ، كما أن المواجهة المباشرة والخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح .

والمواجهة المباشرة للمشكلة الفلسطينية ، واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم عادل ، هى فى أن تقوم دولته .

ومع كل الضمانات الدولية التى تطلبونها ، فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة تحتاج إلى معونة كل دول العالم لقيامها .

وعندما تدق أجراس السلام فلن توجد يد لتدق طبول الحرب وإذا وجدت فلن يسمع لها صوت .

السلام كتابة جديدة للتاريخ

وتصوروا معى اتفاق سلام فى جنيف ، نزفه إلى العالم المتعطش إلى السلام .

اتفاق سلام يقوم على :

أولا : انهاء الاحتلال الاسرائيلى للأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧ .

ثانيا : تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير بما فى ذلك حقه فى اقامة دولته .

ثالثا : حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق اجراءات يتفق عليها تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية ، بالاضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة .

رابعا : تلتزم كل دول المنطقة بادارة العلاقات فيما بينها طبقا لأهداف ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة ، وحل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية .

خامسا : انهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة .

كتابة جديدة للتاريخ

أيها السيدات والسادة . .

أن السلام ليس توقيعا على سطور مكتوبة ، بل أنه كتابة جديدة للتاريخ .

أن السلام ليس مباراة فى المناداة به للدفاع عن أية شهوات أولستر أية أطماع ، فالسلام فى جوهره نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات .

ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعا ، أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية لا يمكن أن تقيم الأمن ، ولكنها على العكس تحطم كل ما يبنيه الأمن .

وعلينا . .

من أجل شعوبنا . .

من أجل حضارة صنعها الانسان ، أن نحمى الانسان فى كل مكان . . من سلطان قوة السلاح .

علينا أن نعلى سلطان الانسانية بكل قوة القيم والمبادىء التى تعطى مكانة الانسان .

رسالة السلام

وإذا سمحتم لى ، أن أتوجه بندائى من هذا المنبر إلى شعب اسرائيل . . فاننى أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة إلى كل رجل وامرأة وطفل فى اسرائيل .

اننى أحمل إليكم من شعب مصر الذى يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام .

أحمل إليكم رسالة السلام رسالة شعب مصر الذى لا يعرف التعصب ، والذى يعيش أبناؤه من مسلمين ومسيحيين ويهود بروح المودة والحب والتسامح .

هذه هى مصر ، التى حملنى شعبها أمانة الرسالة المقدسة .. رسالة الأمن والأمان والسلام .

نضال السلام

فيا كل رجل وامرأة وطفل فى اسرائيل .. شجعوا قياداتكم على نضال السلام .

ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام ، بدلا من بناء القلاع والمخابىء المحصنة بصواريخ الدمار .

قدموا للعالم كله ، صورة الانسان الجديد ، فى هذه المنطقة من العالم ، لكى يكون قدوة لانسان العصر .. انسان السلام فى كل موقع ومكان .

بشروا أبناءكم .. إن ما مضى ، هو آخر الحروب ونهاية الآلام ، وأن ما هو قادم هو البداية الجديدة ، للحياة الجديدة .. حياة الحب والخير والحرية والسلام .

ويا أيتها الأم الثكلى ..
ويا أيتها الزوجة المترملة ..
ويا أيها الابن الذى فقد الأخ والأب ..
يا كل ضحايا الحروب ..
املأوا الأرض والفضاء ، بتراتيل السلام ..
أملأوا الصدور والقلوب ، بآمال السلام ..
اجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر ..
اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال ..
وارادة الشعوب هى من ارادة الله ..

معركة السلام العادل والدائم

أيها السيدات والسادة . .

قبل أن أصل إلى هذا المكان ، توجهت بكل نبضة فى قلبى ، وبكل خلجة فى ضميرى ، إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنا أؤدى صلاة العيد فى المسجد الأقصى ، وأنا أزور كنيسة القيامة ، توجهت إلى الله سبحانه وتعالى ، بالدعاء أن يلهمنى القوة ، وأن يؤكد يقين إيمانى ، بأن تحقق هذه الزيارة أهدافها ، التى أرجوها من أجل حاضر سعيد ، ومستقبل أكثر سعادة . .

لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد التى عرفتها الدول المتحاربة ، ورغم أن احتلال الأرض العربية لا زال قائما ، بل كان اعلانى عن استعدادى للحضور إلى اسرائيل مفاجأة كبرى هزت كثيرا من المشاعر ، وأذهلت كثيرا من العقول ، بل شككت فى نواياها بعض الآراء ، برغم كل ذلك فاننى استلهمت القرار بكل صفاء الايمان وطهارته ، وبكل التعبير الصادق عن ارادة شعبى ونواياه ، واخترت هذا الطريق الصعب ، بل أنه فى نظر الكثيرين أصعب طريق .

اخترت أن أحضر إليكم . . بالقلب المفتوح والفكر المفتوح .

اخترت أن أعطى هذه الدفعة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام .

اخترت أن أقدم لكم ـ وفى بيتكم ـ الحقائق المجردة عن الأغراض والأهواء .

لا مناورات لكسب جولات

لا لكى أناور .

ولا لكى أكسب جولة .

ولكن لكى نكسب معا ، أخطر الجولات والمعارك فى التاريخ المعاصر .

معركة السلام العادل والدائم .

إنها ليست معركتى فقط ، ولا هى معركة القيادات فقط فى اسرائيل . ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعا ، من حقه أن يعيش فى سلام .

إنها التزام الضمير والمسئولية فى قلوب الملايين .

ولقد تساءل الكثيرون ، عندما طرحت هذه المبادرة ، عن تصورى لما يمكن انجازه فى هذه الزيارة ، وتوقعاتى منها .

وكما أجبت السائلين ، فاننى أعلن أمامكم اننى لم أفكر فى القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة ، وانما جئت هنا لكى أبلغ رسالة .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

اللهم اننى أردد مع زكريا قوله : « احبوا الحق والسلام » .

واستلهم آيات الله العزيز الحكيم حين قال : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

صدق الله العظيم

والسلام عليكم . .

لقد ادهشنى كم كان يبدو وسيما فى بدلته السوداء يقف منتصبا شجاعا أمام البرلمان الاسرائيلى . وقلت لشريف وهو يتلوى فى حجرى « انظر إلى جدك وكن مثله » .

وعلى مدى ساعة كنت واحدة من ملايين فى العالم يشاهدون ويستمعون إلى المستحيل : زعيم مصر يقدم غصن السلام إلى الهيئة الحاكمة لاسرائيل ويقول بالعربية بينما المترجم يجتهد للحاق به فى الترجمة إلى العبرية : « أتيت إليكم اليوم وأنا أقف على أرض صلبة لتشكيل حياة جديدة ، ولارساء السلام » .

ويضيف : « أننا جميعا نحب هذه الأرض . أرض الله ، كلنا مسلمين ومسيحيين ويهود نعبد الله . . وتعاليم الله ووصاياه هى الحب والاخلاص والأمن والسلام » .

هزنى مثل آخرين لا يمكن حصرهم نداؤه البليغ لإنهاء الحرب ، قال : « أى روح تفقد فى الحرب هى روح انسان سواء كان عربيا أم اسرائيليا . أى زوجة تصبح أرملة هى انسانة من حقها أن تعيش حياة أسرية سعيدة سواء كانت عربية أم اسرائيلية ، وأى طفل برىء يحرم من رعاية وعطف والديه هو من أطفالنا ، إنهم أطفالنا سواء كانوا يعيشون على أرض عربية أم اسرائيلية . . من أجلهم جميعا . . من أجل الاجيال القادمة ، من أجل بسمة على وجه كل طفل يولد فى أرضنا ، من أجل كل ذلك اتخذت قرارى بالحضور اليكم رغم كل المخاطر لألقى خطابى » .

كانت الكاميرا تمر على وجوه جامدة للزعماء الاسرائيليين . أبا ايبان وزير الخارجية السابق . بارليف مصمم خط الدفاع الذى كان المفترض أنه منيع ، عيزرا وايزمان وزير الدفاع فى ذلك الوقت الذى بدأ وجهه شاحبا جدا . بعد ذلك علمت أن وايزمان أصر على مغادرة سريره بالمستشفى حيث كان يتماثل للشفاء من كسر رجله وكسور عديدة فى ضلوعه فى حادث سيارة لكى يحضر . وقال لاطبائه : « ستأخذون حقائب معداتكم املأوها بالهروين أو الكوكايين أو الحشيش وأى شىء آخر تحبونه . . وعندئذ ستأتون معى وتأكدوا أننى قادر على الوقوف على قدمى ٢٤ ساعة على الأقل » . وقد استقل طائرة هليكوبتر وجلس على كرسى متحرك وبيده عصاه يتوكأ عليها للذهاب إلى الكنيست . أنه هناك وما يسمعه ويسمعه كل واحد يلقى ارتياحا لدى الاسرائيليين ، بينما يحدث صدمات فى كل أنحاء العالم العربى .

ويقول أنور للكنيست : « تريدون أن تعيشوا معنا فى هذا الجزء من العالم . . وبكل اخلاص اقول لكم مرحبا بيننا بكل الأمن والأمان . هذا فى حد ذاته نقطة تحول هائلة وعلامة من علامات تغير تاريخى حاسم ، اعتدنا أن نرفضكم . ولدينا أسبابنا ومخاوفنا ، نعم . . اليوم فقط أقول لكم واعلنها إلى كل

العالم أننا نقبل العيش معكم فى سلام دائم يقوم على العدل . لا نريد أن نحيط أنفسنا أو أن نحيطكم بصواريخ مدمرة جاهزة للاطلاق ولا بقذائف الاحقاد والضغائن . . »

هذه هى الكلمات التى كانت تفزع الدول العربية منها : الاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود . أننى معجبة بزوجى جدا لشجاعته فى مواجهة حقيقة اسرائيل ، لكننى عاجزة عن المساعدة وأشعر بقشعريرة . وبالفعل بدأ الثمن الذى يتعين عليه أن يدفعه . ففى اللحظة التى هبطت فيها طائرته على الأرض الاسرائيلية قطع القذافى علاقاته الدبلوماسية مع مصر بينما قام الليبيون الساخطون بحرق مكتب العلاقات المصرية فى طرابلس تماما . وفى اللحظة التى وطأت فيها قدم أنور الأرض الاسرائيلية دعا المؤذنون فى دمشق المصلين السوريين إلى عدم الصلاة من أجل السلام بل صلاة الكراهية والغضب ، وقام الفلسطينيون فى المخيمات قرب دمشق باحراق صور أنور وتم القاء قنبلة على السفارة المصرية . كانت حمى الكراهية تنتشر فى كل أنحاء الشرق الأوسط والبحر المتوسط فى اليونان اقتحمت مجموعة من الطلبة العرب السفارة المصرية قبل أن يطلق البوليس النار عليهم فيقتلهم أو يصيبهم . وفى أسبانيا نجح الفلسطينيون فى احتلال سفارتنا واحتجزوا السفير مؤقتا كرهينة وهو محمود عبد الغفار عم واحد من أزواج بناتى . وبدأت العاصفة فورا ليس فقط فى الدول العربية بل أيضا فى اسرائيل .

كان التوتر يكسو وجوه القادة الاسرائيليين بينما كان أنور يحدد شروط السلام . فقد قال بحزم : « دعونى ابلغكم دون أدنى تردد أننى لم أحضر اليكم تحت هذا السقف لأطلب أن تنسحب قواتكم من الأراضى المحتلة . . فالانسحاب الكامل من الأراضى العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ حقيقة منطقية لا خلاف عليها . ويجب الا يتوسل أحد لذلك . . فليس هناك سلام يمكن أن يقوم على احتلال أرض الآخرين . والا سيكون سلاما غير جاد » .

رأيت عيزرا وايزمان الذى يتحدث العربية بطلاقة ولا ينتظر الترجمة إلى العبرية يدون ملحوظة بسرعة ويمررها إلى مناحم بيجين وموشى ديان ، وقد قرأها

كل منهما واشارا بالموافقة ، وعلمت بعد ذلك أن هذه الملحوظة كانت تقول « لابد أن نستعد للحرب » .

لم يتملص أنور من القضية الفلسطينية أيضا . فقد قال فى الكنيست « هنا أقول لكم سيداتى ، سادتى أنه لا فائدة من الامتناع عن الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقه المشروع فى اقامة دولة وحقه فى العودة . . يجب أن تواجهوا الحقيقة بشجاعة كما فعلت أنا . لا يمكن أبدا أن يكون هناك أى حل للمشكلة بالتهرب منها أو مقابلتها بأذن صماء . السلام لا يمكن أن يستمر إذا حدثت محاولات لغرض تصورات وهمية أدار اليها العالم ظهره وأعلن بالاجماع دعوته لاحترام الحقوق والحقائق » .

لقد ذرفت عيناى دموع الفخر عندما رجع أنور فى النهاية إلى العهد القديم للتوراه وإلى قرآننا الكريم لعرض معتقداتنا المتشابهة ، وقال أنور : « أكرر مع زكريا : الحب والحق والعدل » ومن القرآن الكريم اقتبس هذه الآية : « نؤمن بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وبما أنزل إلى موسى وعيسى والنبيين من قبلهم لا نفرق بين أحد منهم » . . وقال أنور ناظرا فى كل أركان الكنيست : « هكذا نتفق » ثم القى التحية : « السلام عليكم » .

« كان قلبى معاك طول ما أنت هناك » شعار كانت تردده الجماهير بصوت عال فى شوارع القاهرة عندما عاد أنور اليها بعد ٤٤ ساعة من مغادرته لها . واصطف ملايين المصريين على الطريق بطول ١٢ ميلا من المطار إلى منزلنا بالجيزة يهتفون ويصفرون وينثرون الزهور البيضاء ويزغردون ويرددون : « بالروح بالدم نفديك يا سادات » واضطر الجنود إلى وضع أيديهم فى أيدى البعض لمنع الجماهير من الاحاطة بسيارة أنور ومع ذلك كانت السيارة تسير ببطء شديد ، وقال المذيع فى كل من الراديو والتلفزيون أن « الرئيس الآن فى مصر الجديدة يشق طريقه بصعوبة لأن الناس لا تدعه يسير » .

واحتشد الناس فى البلكونات إذا توفرت لديهم ، وإذا لم يمكنهم كانوا يقفون فوق السيارات الواقفة ويتعلقون بالاشجار وباشارات المرور هاتفين

« يا سادات . . يا سادات » . وكانت طائرات الهليوكبتر تحلق فوق موكب سيارات الرئيس احداها تحمل جمال الذى كان يسجل بالفيديو هذا الترجيب الحار بوالده . وبدلا من أن أحاول اقحام نفسى وسط الجماهير كنت أشاهد الموقف على شاشة التلفزيون بالمنزل .

وكانت هذه المظاهرة العفوية للتعبير عن الفرح من الضخامة بحيث استغرقت الرحلة بين المطار ومنزلنا ثلاث ساعات تقريبا بدلا من ٢٠ دقيقة عادة . وكانت الشوارع بالقرب من منزلنا فى الجيزة مسدودة تماما بواسطة الجماهير التى أخذت تعزف على المزمار وتدق الطبول . لم استطع منع نفسى عندما وقف أنور أمامى أخيرا فى منزلنا واندفعت نحوه مطوقة إياه بزراعى ومقبلة أياه مباشرة أمام أعضاء الحكومة الذين كانوا معه فى الرحلة . وعندما غادر الوزراء استطعت أن أبلغه أخيرا كم كنت قلقة على حياته فى كل دقيقة كان فيها فى القدس .

وابتسم أنور قائلا لى : « أنه كان يستحق المخاطرة . . فلو لم أذهب لكان حلمى فى السلام اذن لن يصبح حقيقة أبدا ، الآن على الأقل يمكن أن نتحدث مباشرة مع الاسرائيليين » .

وأدينا صلاة العشاء جماعة شاكرين الله على النهاية الناجحة لهذه الخطوة الأولى نحو السلام . ولا نعرف مدى صعوبة الخطوات القادمة .

وبينما شمس عام ١٩٧٨ تغرب اختارت مجلة « تايم » الأمريكية أنور « رجل العام » اعترافا بسعيه الجسور من أجل السلام . لكنه لم يكن هناك سلام وكانت هناك امكانيات ضئيلة لايجاد حل . ولا اعرف أين وجد أنور الصبر لمواصلة المفاوضات . فالاسرائيليون رفضوا بكل قوة الموافقة على اعادة الأراضى العربية التى احتلوها خلال حرب ١٩٦٧ على طول قطاع غزة ، ووسعوا بالفعل مستوطناتهم فى الضفة الغربية المحتلة .

وبعد اجتماعه مع بيجين فى الاسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧ وهو عيد ميلاد أنور قال : « أن بيجين لديه عقدة من الهلوكوست . أنه أكثر الرجال الذين قابلتهم فى حياتى تشككا » وقال أنور وهو يصر على رفض التخلى عن رأيه « أننى

احترمه لحرصه على صالح بلده لكنه مثير جدا للاحباط ازاء التفاوض معه » .

وقلت له : « لابد أن الله اختار رجلا صبورا مثلك للتعامل مع رجل معقد مثل بيجين . . لو أني مكانك لنفضت يدي من المهمة من فترة طويلة . . . » .

وقد وصلت عملية السلام مع اسرائيل إلى طريق مسدود . وكذلك علاقاتنا مع كثير من جيراننا العرب . وبسبب هجمات الفلسطينيين على زوجي واحتجاجاتهم العنيفة فى الدول الأجنبية أمر أنور باغلاق كل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية فى مصر بعد يومين من عودته من القدس ، ووقتها دعا لمحادثات سلام مع كل اخواننا العرب فى فندق « مينا هاوس » بالقاهرة فى ديسمبر لكن الفلسطينيين وسوريا والعراق واليمن الجنوبية والجزائر وليبيا رفضت الحضور . وبدلا من ذلك عقدوا مؤتمر قمة فى طرابلس فى ٢ ديسمبر صوتوا فيه على تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر .

وقاطع السوفيت محادثات السلام التى دعا أنور اليها ، وأمرهم زوجى باغلاق قنصلياتهم فى مصر وكذلك قنصليات حلفائهم بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا الشرقية . وفى الوقت نفسه كان وزير الخارجية الأمريكى سيروس فانس يقوم بجولات مكوكية بين مدن الشرق الأوسط محاولا التوسط من أجل السلام .

صوت واحد فقط فى الشرق الأوسط هو الذى كان يعلن تأييده لأنور هو شاه ايران الذى بعث برقية غير متوقعة فى يناير تقول : « سأحضر إلى أسوان لليلة واحدة » . وعندما التقى أنور به فى المطار ابلغه الشاه أنه حضر ليعزز تأييده لمبادرة أنور السلمية ليس فقط للعالم كله ولكن وبصفة خاصة للعرب . وقال الشاه لزوجى : « سأتوجه إلى السعودية لأسأل الملك خالد والأمراء السعوديين عن سبب تأخير تأييدهم لك . . لابد أن يعترفوا أنك تعمل من أجل المنطقة بأسرها ، من أجل سلام شامل وعادل ، من أجل عودة الحقوق العربية » . وقد ثبت عدم جدوى رحلة الشاه إلى جده لكن أنور لم ينس قط ما بذله الشاه من جهود لم تطلب منه من

أجل زوجى . واستمر العنف ، فى فبراير ١٩٧٨ لقى يوسف السباعى أحد أقدم أصدقاء أنور ورئيس تحرير أكبر صحيفة فى مصر مصرعه باطلاق الرصاص عليه من الخلف بواسطة فلسطينيين فى نيقوسيا عاصمة قبرص ، وكانت جريمة يوسف الوحيدة هى أنه اصطحب أنور فى رحلته إلى القدس . وعندما توجهت لأقدم عزائى فيه إلى زوجته وطفليه فى القاهرة أصبت بألم فى المعدة . كم هى جريمة وحشية وكم هى حمقاء . لماذا يفرغ الفلسطينيون مرارتهم فينا . نحن أصدقائهم ؟ لماذا لم يجلسوا معنا لوضع استراتيجية لاقامة وطنهم ؟ لابد أن نعذر الفلسطينيين لأسباب كثيرة ، لأن وطنهم كان ولا يزال محتلا . كثيرون نشأوا فى رعب مخيمات اللاجئين أومع حقوق قليلة فى الأرض التى لا تزال اسرائيل تحتلها . ولكن فى الوقت نفسه يجب أن يدرك الفلسطينيون أنهم ضيعوا فرصا كثيرة لايجاد حل . وحتى الآن يعلن ياسر عرفات : « أننى مستعد للذهاب إلى اسرائيل لأقول للكنيست وللعالم كله أننا مستعدون لصنع السلام بشرط استعادة وطننا » .

وإذا أعلن عرفات هذا الاستعداد فانه سيحرج اسرائيل ويجبر القادة الاسرائيليين إما على دعوته لالقاء خطابه أو يدينهم العالم بأسره لرفضهم عرضه للمصالحة . لكن لا . العنف بدأ فى البداية ومستمر حتى اليوم .

وكانت الدول العربية هى الأخرى عنيدة ، فقد شرح أنور مرارا فى خطاباته أن السلام مع اسرائيل لن يكون مجرد معاهدة بين مصر واسرائيل لكن معاهدة تشمل كل الأراضى العربية . ومثل هذا السلام سوف يفيد المنطقة كلها وليس مصر وحدها . لكن أشقاءه العرب رفضوا الاستماع . وقال لهم أكثر من مرة : « إذا كان لديكم بديل أفضل ، بلغوه لى وأؤكد لكم أننى سأتبعه » . لكن لم يكن لدى أحد شىء وهذا ليس مثيرا للدهشة . أن العرب أدركوا مثلنا أننا لم نستطع ابدا استعادة أرضنا بالقوة ، فالولايات المتحدة لن تسمح قط بأن تهزم اسرائيل وليس بامكان أي منا أن يهزم الولايات المتحدة . وبذلك يكون الخيار الوحيد أمامنا لاستعادة أرضنا من خلال المفاوضات السلمية ، وهو خيار اكتسبه أنور بنصره

على اسرائيل فى حرب ١٩٧٣ . وبعد انتصارنا استطاعت مصر أن تتفاوض من موقع قوة .

لقد تشبثت بدراستى فى الجامعة مغرقة نفسى فى الاعداد لامتحانات آخر السنة قبل التخرج فى يونيو . وكانت مدتى الأولى فى المجلس الشعبى بالمنوفية وهى أربع سنوات على وشك الانتهاء وقررت ترشيح نفسى مرة أخرى . وقد بذلت جهدا كبيرا فى جمع الأموال لمشروعاتى الخيرية والمنظمات . وقمت بحملة من أجل قوانين الأحوال الشخصية . وكنت أخطط أيضا لأهم حدث فى أسرتى وهو زواج ابنى جمال ، أنه الزواج الذى سبب لى كثيرا من النزاع .

كان ابنى جمال قد قابل دينا عرفان فى مدرسة الجزيرة الاعدادية عندما كان عمره ١٥ عاما ووقع فى حبها منذ ذلك الوقت ، لكنى كنت أعارض زواجهما . فى أول سنة له فى الجامعة كان جمال لا يزال صغيرا على مجرد التفكير فى الزواج . وقد منعته من رؤيتها على أمل إضعاف حبهما المراهق . لكن مشاعر كل منهما نحو الآخر قويت أكثر . وحتى عندما بعثنا أنور وأنا جمال إلى لندن لقضاء أجازة الصيف لم يتغير شىء . وظل جمال يتوسل إلى قائلا : « من فضلك يا مامى ، أنا أحب دينا وأريد الزواج منها . . » ، لكنى رفضت الموافقة ورفضت حتى مقابلتها ، لقد كانت أول فتاة فى حياته ، وتمنيت من أجله أن يقابل بنات أخريات بدلا من الندم المتأخر على التسرع . أنه كان لا يزال طالبا صغيرا جدا على تحمل مسئولية زوجة وأطفال ، لقد استغرق جمال خمس سنوات فى محاولته لتغيير رأيى .

وذات يوم بعد عودتى من اجتماع مع مجلس ادارة الوفاء والأمل راعنى أن أجد جمال فى مدخل مكتبى والدموع تنساب على خديه . وقال لى : « تقضين كل وقتك تستمعين إلى مشكلات الناس وتحلين مشكلات الناس ، ولكنك لا تساعدين ابنك » .

وأصبت بصدمة ، فربما كان على حق . قال جمال : « أحب دينا . .

واحبك ولن أتزوج ابدا ما لم توافقى . . من فضلك يا ماما ، من فضلك » . وشعرت بالانزعاج وقلت : « لماذا لا تنهى دراستك ثم ننظر فى الأمر ؟ » لكن أنور دخل وراء جمال إلى الحجرة ، وقال : « جيهان ، أن كلا منهما يحب الآخر حقيقة . . فلماذا لا نعطيهما الفرصة للارتباط رسميا ؟ ثم يكون بوسعهما أن يتزوجا فى سنة بعد تخرج جمال » .

كنت لا زلت وقتها اعتقد أن جمال لا يزال صغيرا جدا لكنى شككت فى اعتراضاتى وفوق ذلك كان هذا هو نفس المأزق الذى وجدت نفسى فيه عندما احببت أنور . فهل أكرر فرض عناد أمى ؟ وهل كان أنور متعاطفا ومؤيدا كما كان ابى ؟ ونظرت إلى وجه جمال المهموم ورأيت وجهى قبل ٢٨ سنة .

وقلت لجمال : « أطلب دينا بالتليفون يا جمال . . اخبرها أننى اريد أن اتحدث معها » امتقع وجهه من أثر المفاجأة وقال : « لا يا مامى ، لا ، لا . . لا اريد أن تجبرى بسرعة على تغيير رأيك » .

قلت له بلطف ، ليس بهذه السرعة يا جمال . . كنت أختبر حبك لدينا ، ولكن بعد كل هذه السنوات دون أن يتغير رأيك ، لابد إذن أنك تحبها حقيقة أطلبها على التليفون » . وعندما تحدثت إلى دينا لم تنطق تقريبا ، فقلت لها : « دينا . . زوجى وأنا نود أن نحضر بعد ظهر اليوم لمقابلة والدك ووالدتك » . قالت وهى تتعلثم أن أمها نيكول فى باريس لكن والدها وجدتها موجودان . قلت : « رائع . . اذن سيتناول زوجى وأنا كوبا من القهوة معهما » . وعلى الفور اتصلت دينا بوالدتها التى ذهبت مباشرة بعد سماعها هذه الأخبار غير المتوقعة إلى نوتردام الشهيرة لتشكر الرب . وقالت لى بعد ذلك : « انحنيت وقبلت أرض الكنيسة » . وأضافت نيكول وهى مسيحية لبنانية أصبحت صديقتى العزيزة بعد ذلك » أخيرا ستكون ابنتى سعيدة » لم أر فى حياتى وجها سعيدا مثل وجه جمال عندما توجهنا والده وأنا إلى منزل محبوبته ، وأنا هناك كنت اختلس النظرات لدينا لأرى ما الذى جعلها فاتنة لولدى وكذلك فعلت بناتى اللاتى حضرن معنا . وبدت دينا جميلة فاتنة فى فستان استعارته بسرعة من عمتها . لأنها بوضوح تشبه الصبى فى ارتدائها

البنطلون الجينز والقميص الـ « ت. شيرت » عادة حتى اجتماعنا ، ولذلك اقترضت فستانا من عمتها ، وقد بدا والد دينا مرتبكاً عندما أبلغه أنور أنه حضر هو وزوجته وبناته ليسأل إذا كانت دينا ستتزوج جمال . كل ما استطاع أن يقوله هو : « إنه لشرف ، سيدى الرئيس . . أنه شرف » .

وكانت دينا وعمتها أيضا من الاثارة لدرجة أنهما لم تتكلما ، تاركتين جدتها وأنا فقط نتحدث . . وقلت لجدتها : « أن حفيدتك محظوظة جدا لكونها ستتزوج ابنى » ، فقالت بسرعة « نعم يا سيدتى.. . وابنك محظوظ أيضا » واحببت روحها ووافقت على انهما هما الاثنان محظوظان . وقد أحضرت معى ساعة لاهدائها إلى دينا كهدية خطوبة ووضعتها حول معصمها وقبلتها واتفقنا كلنا على أن يتم الزواج خلال عام ، لم نكن نعلم ونحن جالسون معا حينئذ المغزى الذى سيكون لهذا الزواج .

وفى يوم حار من أغسطس ١٩٧٨ خلال شهر رمضان فى الاسكندرية ابلغنى أنور : « أنه سيزور أمريكا . . لقد أحضر لى سيروس فانس دعوة من الرئيس كارتر لحضور قمة أخرى هناك مع بيجين وقد قبلت » . . ومن جديد زادت آمالى فى السلام . فقد مرت تسعة شهور تقريبا على دعوة أنور للسلام فى القدس . وإذا كان بإمكان أية دولة أن تضغط على اسرائيل لتتصرف فى تعقل فهى أمريكا وأنور أيضا أحب الرئيس جيمى كارتر جدا لعلمه أنه رجل على خلق ومتدين أيضا . وسألت أنور : « متى ستذهب ؟ » لأن زفاف جمال لم يتبق عليه سوى شهر فى ٢٤ سبتمبر . قال أنور : « فى أسرع وقت ممكن . . لكن لا تقلقى هل تظنين أننى سأتخلف عن زفاف ابنى ؟ » ذكرت أنور بأننى سأكون فى باريس مع شريف فى أوائل سبتمبر . فقد أصيب حفيدنا الصغير بمرض الربو وحجز طبيبنا له لدى اخصائى فى فرنسا قبل ذلك بشهور . قال أنور : « سوف أكون فى كامب ديفيد » .

وفى ٥ سبتمبر ١٩٧٨ ومن باريس اتصلت بأنور تليفونيا قائلة : « أنور كيف حالك ؟ وكيف تسير المحادثات ؟ هناك تعتيم اعلامى ولم اسمع شيئا » وقال

أنور : « بيجين صعب جدا ، ذلك الرجل معقد جدا » . وشجعته قائله : « لكنك تفهمه يا أنور » . قال : « أننى أحاول وأحاول وأحاول يا جيهان لكن الأمر غير مشجع » .

قلت لزوجى : « سيتغير ذلك غدا يا أنور ، فقط أنتظر وأنظر . يجب أن نتحلى بالأمل . . ربنا معاك فى جهدك . أصلى من أجلك وأعلم أن الله سيساعدك »

وكنت أتصل بأنور كل ليلة من باريس ، وكل ليلة كانت اخباره غير مشجعة . كان الرئيس كارتر يجتمع مع زوجى وبيجين كل على حدة محاولا التوسط للتغلب على خلافاتهما الكبيرة بينما وزراء خارجية الدول الثلاث سيروس فانس وموشى ديان ومحمد ابراهيم كامل يحاولون وضع التفاصيل . لكن التفاصيل كانت قليلة جدا .

بعد يومين قلت لزوجى : « يبدو أنك مرهق جدا » استطعت أن أسمع تنهيدته من هذا البعد عبر المحيط ، رد قائلا : « من المنهك أن تضطرى للكفاح الشاق من أجل السلام » . وكانت الاخبار من بقية دول العالم غير مشجعة كذلك . لقد اندلعت أحداث شغب فى طهران وكل مساء يذيع التليفزيون فى باريس نشرات اخبار مصحوبة بأفلام للعنف . لقد كان من المرعب حقا أن ترى العيون اللامعة للمتعصبين المتدينين مملوءة بالكراهية وأن تسمع الدهماء يرددون تهديدات الموت ضد الشاه .

واتصلت بفرح ديبا فى طهران أسألها : « فرح » هل أنت وزوجك بخير ؟ أننى أشاهد المظاهرات على شاشة التليفزيون وأنا قلقة عليكم » . وفى صوت اتسم بالهدوء المصطنع قالت فرح : « إننا نمر بشدة . . ونصلى لكى تمر سريعا » .

ليلة بعد ليلة. كانت الاخبار فى باريس تنقل أخبار الاضطرابات فى ايران : افلام تبين النساء ينتحبن على قبور اقاربهن الذين اختفوا فى ظروف غامضة ،

ومقابلات مع ايرانيين فى فرنسا هربوا من تعسفات « السافاك » وهو البوليس السرى الايرانى ، واخبار الفساد وسوء استخدام السلطة فى الجهاز الحكومى . وقد صدمت لأن الموقف المعقد فى ايران كان يبدو بسيطا للفرنسيين . وكنت أشعر أنه أخطر وأشد ضراوة .

اتصلت بأنور تليفونيا وقلت له « لقد تحدثت إلى فرح فى طهران » .
ـ قال « كيف حالهم ؟ » .
ـ قلت « فرح قالت أنهم طيبون ، ولكن الوقت بالطبع صعب جدا بالنسبة لهم » . قال أنور « أنا قلق جدا » وأضاف أنور الذى كان يتابع الاضطرابات فى إيران من كامب ديفيد « لقد اتصلت بالشاه بنفسى وأبلغته أننى أصلى من أجله » .

قلت لزوجى : « وأنا أصلى أيضا من أجلك ولأجل السلام » .

فى باريس كنت أقضى الصباح مع ابنتى نهى وشريف فى المستشفى حيث كان تحت العلاج ، ومعظم الوقت المتبقى فى متابعة الأخبار حول إيران فى التليفون ، ولم تكن لدى رغبة للخروج لزيارة أصدقائى أو لتناول الطعام فى المطاعم لأن الأخبار كانت تنذر بالسوء أكثر فأكثر . وقد صرفت نفسى عنها بعمل الترتيبات الأخيرة لزفاف جمال ودينا .

لقد دعونا عدداً كبيراً من أصدقائنا من بينهم كل السيدات فى جمعية تلا والسيدات الأعضاء فى البرلمان والسيدات العاملات معى فى نشاطاتى الاجتماعية .

وطلب مطربون كثيرون الغناء فى حفل الزفاف لكننا لم نستطع سوى الموافقة على أربعة أو نحو ذلك وإلا كان الفرح سيستمر أسبوعا وقد اهتززت طربا لأن صباح المطربة اللبنانية الجميلة وواحدة من أكثر المطربات شعبية فى الشرق الأوسط سوف تحضر للغناء لضيوفنا . كان جمال آخر ابن لنا يتزوج ولذلك أردت أن يكون الزفاف مثاليا ، وحرصت على الاطمئنان على كل ترتيبات الاحتفال بما فيها كعكة الزفاف ذات السبعة طوابق التى سيقوم جمال ودينا بقطعها .

فى ليلة ١٥ سبتمبر بعد وصول أنور إلى كامب ديفيد بعشرة أيام أجريت مكالمتى المعتادة مع زوجى قلت له وأنا أعلم بمجرد أن سمعت صوته أن هناك شيئا « ما هو يا أنور » قال « سأغادر كامب ديفيد » .

قلت « تغادر كامب ديفيد ؟ لا تقل ذلك لى يا أنور ماذا حدث ؟ »

قال : « بيجين غير معقول تماما . إنه يرفض إعادة الضفة إلى الحكم العربى وموشيه ديان أبلغنى الليلة الماضية أن الاسرائيليين لا ينوون التوقيع على أى اتفاق الآن . ليس هناك هدف من الاستمرار ، كل ما عملنا من أجله انتهى » .

قلت « من فضلك يا أنور . . كنت رجلا صبوراً لوقت طويل حاول لعدة أيام قليلة أخرى فقط » .

قال « لقد حزمت حقائبى وطلبنا هليكوبتر لنقلنا إلى المطار فى واشنطن » .

قلت : « هل الرئيس كارتر يعلم بذلك ؟ »

قلت : « نعم ، وقد طلب الاجتماع معى سرا ، ولكنى لا أرى داعيا لذلك » .

قلت « يا أنور ، لقد أعطيت الرئيس كارتر كلمة بأنك ستفعل ما بوسعك لتحقيق السلام والآن أنت تنسحب ، أنه رجل أخلاق ومبادىء . وكذلك أنت . لا يمكن أن تفعل ذلك معه » .

قال : « إنى أفكر فى ذلك يا جيهان » قالها وصوته متوتر ، فى تلك اللحظة شعرت بالندم لعدم وجودى إلى جانب زوجى فى كامب ديفيد . لو أننى كنت هناك لكنت قد هدأته وشجعته . واكتشفت بعد ذلك أن روزالين والرئيس كارتر طلبا أن تحضر زوجتا الزعيمين معهما إلى كامب ديفيد لتخفيف التوتر وجعلهما أكثر تعقلا . كانت إليزا بيجين هناك فى كامب ديفيد . واضطررت أن أتم اتصالاتى بالتليفون . وبعد ذلك بساعتين اتصل بى أنور قائلا : « سأبقى يا جيهان . . لكنى لا أستطيع أن أعد بشىء » .

ـ قلت « بارك الله فيك ، بارك الله فيك » .

وكنت فى حجرتى عندما دق جرس التليفون بعد ذلك بيومين ، وكان صوت أنور هذه المرة متهللا .

ـ قال « توصلنا إلى حل » أخيرا وبعد صعوبات لا حصر لها .

صحت قائلة فى التليفون « لا يمكن أن أصدق ذلك . . قلها مرة ثانية يا أنور لعلى أستطيع تصديقك » .

ـ قال « أوه ، جيهان ، قلتها مرة وأنا أعنيها . . لقد وعدت إسرائيل بإيقاف بناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وتم وضع جدول زمنى للتفاوض حول الحكم الذاتى الفلسطينى ، ونحن سنتوجه الآن إلى واشنطن حيث يتم إعلانه » .

ـ قلت « لقد أجيبت دعواتى » .

ـ قال أنور بسرعة « سأطير الليلة إلى المغرب ، احضرى وقابلينى هناك » . . قلت « سأكون هناك بالتأكيد . . مع هذه الأخبار من الممكن أن أطير حتى بدون طائرة » .

واحتضنت ابنتى وصديقة كانت معنا قائلة :

« السلام ، السلام أخيراً . . اليوم سنخرج للاحتفال فى أى مطعم فى باريس . . اختاروا أين تريدون أن تذهبوا ، إنها مهمتى » .

وفى الشارع تقابلنا مصادفة مع أصدقاء أعزاء من القاهرة ، أمين وقرينته زينة وابنتهما منى .

وسألتهم « هل سمعتم الأخبار الطيبة ؟

وصعق أمين وزوجته عندما أخبرتهما ، وقلت « تعالوا ، انضموا إلينا للاحتفال ، إننى أدعوكم » .

وأصر أمين قائلا « لابد أن تكونى ضيفتى أنا الرجل » . واحتفلنا سويا بشجاعة زوجى وصبره فى المفاوضات حتى نجحت مساعيه .

وعندما التقيت بأنور فى المغرب حذرنى من أن الاتفاق تم توقيعه بالأحرف الأولى فقط وأنه لا تزال هناك تفاصيل مطلوب تسويتها وسألته « كم من الزمن سيستغرق ذلك ؟ » .

قال « ربما ثلاثة شهور » وطرنا عائدين إلى مصر معا لحفل زواج ابننا . .

وكان الضيوف واحدا بعد الآخر يقولون لأنور « مبروك » وفى الشوارع احتشدت الجماهير للتعبير عن رضاهم عن جمال وأنور معا لجلبهما السلام إلى بلادنا ، ولم تكن الحديقة قط أجمل مما كانت عليه ذلك اليوم فاللونان الأخضر والأبيض أصبحا أيضا لونى السلام وانهمرت الدموع على خدود الكثيرين من ضيوفنا ، السلام والآن زواج ابننا ، وقال أنور صباح ذلك اليوم ونحن جالسون فى شرفتنا نشاهد الناس يرقصون فى الشارع أسفل البيت « تعال يا جمال وتعالى يا دينا » ومد يديه إلينا وكونا كلنا دائرة وبعد ذلك وفى تطور لا يمكن تصديقه بدأ يرقص ويتقدمنا فى خطوات الدبكة ، وقد رقصت وضحكت حتى أوجعتنى أجنابى والدهشة تتملكنى للسعادة التى على وجه أنور فقد كانت المرة الأولى والوحيدة التى رأيته فيها يرقص .

فى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٨ منحت جائزة نوبل للسلام مناصفة لزوجى ومناحم بيجين . وكان الناس فى أوروبا ومصر ينظرون إلى زوجى على أنه ملاك أو قديس وشهيد كان مستعدا للتضحية لانهاء سنوات الصراع بين اليهود والمسلمين فى الشرق الأوسط . كان كثير من العرب يصفون أنور بأنه شيطان ويصفون مثل هذا السلام مع إسرائيل بأنه هرطقة ، وبعد ستة شهور من عودة زوجى من كامب ديفيد كانت الدول العربية قد عرضت عليه ٥ مليارات دولار سنويا لمدة عشر سنوات لايقاف التفاوض مع إسرائيل ، ورفض العرض تماما ، وقال فى خطاب أثار الأشجان أمام مجلس الشعب أن المصريين أصحاب قيم وأخلاقيات جميعا فمصر ليست « كدولة أخرى تجعلها مائة مليون دولار تتخذ قرارا فى اتجاه ما ومائة مليون أخرى تتخذ قرارا آخر . . إن كل مليارات هذا العالم لا تستطيع شراء إرادة مصر . وقد كنت مندهشة إزاء أصدقائنا السابقين فى الدول العربية الذين اقتسمنا

معهم الكثير جدا وأعلم أيضا أن غالبية القادة العرب موافقون سرا على مبادرة أنور السلمية ولكن لا يجهرون بإعلانها ، وعندما عاد دبلوماسى أجنبى من اجتماع فى دول الخليج قال لى أن مسئولا حكوميا هناك امتدح أنور لانتهاجه السبيل الوحيد الممكن لتحرير أرضنا ، وفى اليوم التالى مباشرة أبلغ هذا المسئول الحكومى صحفيا أمام هذا الدبلوماسى أن السادات لم يكن مصيبا وأن كل العرب ضد أى نوع من الحلول مع إسرائيل لأن الاسرائيليين يحتلون أرض فلسطين ، ولم تكن الصحافة السورية أيضا رحيمة بالرغم من أن صداقتنا مع حافظ الأسد وقرينته تعود فى قدمها إلى ما قبل توليه رئاسة سوريا .

لقد أصبت باكتئاب بسبب هذه الهجمات وحزنت أيضا للانتقادات التى وجهتها زوجات الزعماء العرب لرؤية أنور السلمية . فمدام وسيلة قرينة الرئيس بورقيبة رئيس تونس أقامت لى احتفالا رائعا عندما زرنا أنور وأنا أسرة بورقيبة فى قصرهم الجميل على البحر فى تونس العاصمة ، وكانت ضيفة رسمية على فى القاهرة خلال رحلة أنور إلى القدس . فى ذلك الوقت ، كانت مؤيدة جدا لسعى أنور من أجل السلام ، لكنها الآن بعثت إلى برسالة شخصية تحتج فيها على اتفاق كامب ديفيد . وقد بعثت لها برد مناسب ولحسن الحظ لم تنقطع صداقتى معها ، لكن معظم زوجات القادة العرب الآخرين قطعن كل الاتصالات معى ، وغضبت جدا فى الحقيقة لأن علاقاتنا الشخصية كانت تعتمد على السياسة ، يا لها من خسائر لم تكن لها ضرورة ، وتذكرت جيدا عدم ارتياح زوجة أحمد الخطيب التى خدث أن وجدت نفسها فى القاهرة فى اليوم الذى هاجم فيه زوجها ـ وكان رئيسا لوزراء الجمهورية العربية المتحدة التى لم تبق طويلا ـ مصر فى الصحف ، لم توافق أى من السيدات المصريات اللائى كن يحضرن حفل غداء على انتقاد زوجها بما فيهن أنا ، لكنه كان زوجها هو الذى أغضبنا وليست هى ، وعندما نويت الذهاب للجلوس إلى جانب قرينة الخطيب انفجرت باكية وقالت وهى تبكى « عزيزتى جيهان . . أختى من فضلك هذه بيانات سياسية فقط ؟ » وهدأت من روعها قائلة : « طبعا . . إننا جميعا نعرف أن السياسة مصنوعة من الخناقات التى

فى النهاية تتم تسويتها ، ليس هذا هو اهتمامنا ، دعينا نطرح عمل السياسيين ونستمتع بدلا من ذلك بسعادتنا وروابطنا الشخصية كسيدات وصديقات » كنت دائما أشعر بذلك لكن لم يتفق معى كثيرون .

وفى صيف ١٩٧٨ اتصلت إحدى كريمات الرئيس جمال عبد الناصر بى تليفونيا قائلة : « تانت جيهان لابد أن أتحدث معك على انفراد . . لقد عدت من ليبيا لتوى برسالة لك من القذافى » قلت لها لا أستطيع مقابلتك الآن يا منى فأنور على وشك التوجه إلى السودان ، ولابد أن أكون فى وداعه . . وسوف أتصل بك بعد ذلك » وشعرت بانقباض وأنا أضع سماعة التليفون قائلة رسالة من القذافى ؟ فالقذافى كان يهدد حياة أنور منذ عدة شهور حتى الآن فهل يقتل أنور فى السودان ؟ وأسرعت إلى الدور الأرضى لابلاغ أنور أننى غيرت رأيى وأريد الذهاب معه فى رحلته ، لم أقل له شيئا عن المكالمة وبقيت ملاصقة له خلال زيارته للسودان على مدى يومين .

وبمجرد أن عدنا دعوت منى للحضور لمقابلتى وقد أكدت توقعاتى إذ عرفتنى أننى إذا رفضت أن أستخدم مكانتى عنده لجعله يتخلى عن اتفاق كامب ديفيد فسوف يكون القذافى مضطرا لقتله لقد أبلغها القذافى بذلك .

وانتابنى غضب شديد وطلبت من منى التى بدا عليها القلق من فضلك خذى رسالة منى ووصليها للقذافى قولى له أنه يعرف تماما أننى كزوجة لا أتدخل فى أى قرار سياسى أو رسمى للرئيس . . أما بالنسبة لتهديده بقتل السادات عرفيه أن الله وحده هو الذى يتحكم فى حياة الانسان ، ولم أتلق ردا . وبدلا من ذلك كثفت الصحافة الليبية هجماتها وأعلنت « جيهان السادات تريد أن تحكم مصر وزوجها يفعل أى شىء تقوله مطيعا لها . . » .

والاسرائيليون أيضا استمروا فى أفعالهم بشكل مثير . فبعد ثلاثة شهور فقط من التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاق السلام فى كامب ديفيد بدأ الاسرائيليون

يتراجعون عن كلمتهم ، فبدلا من فك المستوطنات فى الضفة الغربية استمروا فى توسيعها وأعلنوا خططا لبناء مستوطنات جديدة .

وأغتاظ أنور من هذه الأفعال المخالفة لروح اتفاقات السلام لدرجة أنه رفض التوجه إلى أوسلو مع مناحم بيجين لاستلام جائزة نوبل للسلام فى ديسمبر ، وذهب بدلا منه المهندس سيد مرعى حما ابنتى ، وتبرع أنور بالنقود المخصصة له من الجائزة وأمر بأن تمنح لقريته ميت أبو الكوم لاقامة منازل حديثة بدلا من المنازل المبنية بالطين . وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٨ قضى أنور عيد ميلاده فى ميت أبو الكوم مكتئبا ومغرقا فى التفكير بينما أحاول أنا وأبنائى الترويح عنه .

وقد أصبت أنا بإحباط شديد بسبب انتهاكات الاسرائيليين ، فمنذ زيارة أنور للقدس وملايين المصريين يعتقدون فى إمكانية السلام مع إسرائيل . إمكانية تحويل الأعداء إلى أصدقاء ، وعندما حضرت أول مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين الآخرين إلى مصر بعد زيارة أنور للقدس كان المصريون ينادون عليهم قائلين : « شالوم » أى السلام « عارضين عليهم الهدايا والمشروبات والمأكولات المنعشة ، حتى أنا وافقت بشىء من العصبية على إجراء حديث مع صحفى إسرائيلى ، فقد بلغنى أن يورى افنيرى متعاطف مع القضية الفلسطينية وكان متحدثا باسم حزب السلام فى إسرائيل حتى طردته جولدا مائير من الكنيست .

وسألته « ما الذى حدث لبلدكم » . . لقد عشتم تطلبون السلام وتريدون اعترافنا بكم . . وقد جعل زوجى أحلامكم المستحيلة تصبح حقيقة والآن كل ما تفعلونه هو وضع العقبات فى الطريق للسلام لماذا ؟ لم يستطع يورى الاختلاف معى . . وأوضح قائلا إن شعبى مصاب بالعقد . إن تاريخ اضطهاد اليهود فى أوروبا علّمنا أن ننظر إلى كل شىء بارتياب بالغ . . سيتحقق السلام لكن ذلك سوف يأخذ وقتا . .

وقلت له ساخرة : « إنكم فى الواقع لا تحتاجون إلى قائد شجاع لاحلال السلام . . ما تحتاجونه هو مجموعة من علماء النفس لتخليصكم من عقدكم .

واضطر يورى للموافقة قائلا : « إنه كذلك » . كم من الاحباط شعرنا به عندما أوشك عام ١٩٧٨ على الانتهاء فبعد أكثر من سنة على زيارة أنور للقدس وثلاثة أشهر على اتفاق كامب ديفيد لم يتحقق السلام مع إسرائيل والأخبار من إيران تزداد سوءاً ، الطلبة يتظاهرون ضد الشاه والنساء تتظاهر ضده والأطفال كان يجرى تنظيمهم للتظاهر ضده . . وفى جنازات المشاغبين الذين قتلوا على أيدى البوليس اندس المعارضون يحرضون على مظاهرات جديدة أنهم سوف يلهبون العنف أكثر فى اليوم الأربعين للجنازات ، عندما يلقى مزيد من الناس مصرعهم تلك الحلقات المعدة جيدا للعنف تقترب أكثر فأكثر من الإطاحة بالشاه .

واتصلت بالشهبانو فى طهران بعد رأس العام الجديد فى ١٩٧٩ مباشرة وقلت لها « فرح ، قرأنا فى الجرائد هنا أنكم تنوون القيام بأجازة لماذا لا تأتين أنت وزوجك لزيارتنا فى مصر ؟ » .

وردت فرح قائلة : « شكرا ، يا جيهان . . لا ننوى القيام بإجازة حاليا » وأصابتنى الحيرة وأنا أضع سماعة التليفون لقد علمت عندما قرأت عن أجازتهم المعتزمة للراحة والنقاهة إنهم على وشك أن يجبروا على الاقامة فى المنفى ، فحياتهم فى خطر بالغ فى إيران ، ألم تفهم فرح ذلك ؟ ولماذا ترفض دعوتنا ؟ بالتأكيد لابد أنها والشاه يعلمان أن أنور يعتبرهم أصدقاء أعزاء بغض النظر عن السياسة الخاصة والوضع الحالى .

وسألت زوجى « أنور » هل ستتصل بالشاه تليفونيا وترى إذا كان يستطيع تغيير موقفه بشأن الحضور إلى مصر ؟ . . إنهم لسبب ما رفضوا دعوتنا .

وقال وكان قد اتصل بهم أيضا أن السفير الأمريكى فى طهران يحث الشاه منذ فترة على مغادرة البلاد لبعض الوقت عسى أن تستطيع حكومة جديدة إعادة الاستقرار للبلاد لكن الشاه لا يريد أن يرحل ويشك أن الولايات المتحدة اتفقت معى لاخراجه من إيران . وعندما أكدت له أننا نقدم دعوة شخصية وليست دعوة سياسية غير رأيه » وسوف يصل هو وفرح الأسبوع القادم . .

قلت هذه أخبار مدهشة . . كلاهما عانى كثيرا . . وقال أنور سوف نفعل ما بوسعنا لاستقبالهما بأعظم ترحيب ممكن . . لن أنسى أبداً كم ساعدنا خلال حرب أكتوبر وأيد مبادرتى السلمية مع إسرائيل . وهذا دورنا الآن للوقوف إلى جانبه » .

وفى ١٧ يناير ١٩٧٩ وقفت بجانب أنور فى المطار فى أسوان بينما الشاه يقود طائرته الفالكون « ذات اللونين الفضى والأزرق إلى أن يقف بها . وأمر أنور باستقبال عسكرى كامل بالرغم من أن حكومة مؤقتة تم تشكيلها فى إيران ، إلا أن الشاه كان لا يزال رئيس الدولة الرسمى . وتجمع كل وزرائنا فى المطار لاستقباله وكذلك السفير الايرانى فى القاهرة عباس نيرى . لقد علم السفير نيرى مثلنا أن الشاه لن يعود إلى إيران أبدا وأنه هو نفسه سوف ينتقد بشدة من جانب نظام الحكم الجديد بسبب استقباله . لكنه مثل زوجى كان رجل مبادىء وكان الشاه لا يزال إمبراطور إيران .

كم كان وجه الشاه متغيرا وهو يهبط على السجادة الحمراء ويقف انتباه بينما كان حرس الشرف المصرى يطلق ٢١ طلقة تحية له وكانت الفرقة العسكرية تعزف النشيدين القوميين للبلدين . لم أدرك وقتها ولا أنور أن الشاه كان مريضا بالسرطان المميت لقد عزوت تغيره للتوتر المرعب الذى كان يعيشه ، وقد انفطر قلبى له . قبل أنور الشاه بحرارة على وجنتيه بالرغم من أن مساعديه نصحوه بألا يستقبله بمثل هذا الترحيب الحماسى لعلمهم أن الصورة سوف تنشر فى الصفحات الأولى للصحف فى كل أنحاء العالم .

لكن زوجى لم يكن ذلك الذى يتخلى عن صديق لمجرد أن المد السياسى كان يسير ضده وقال زوجى للشاه الذى كانت عيناه مغرورقة بالدموع : استريح يا محمد أنت فى بلدك ومع شعبك وأخوتك . .

ومشيت مع فرح خلف أنور والشاه بينما كانا يستعرضان حرس الشرف . كم كانت فرح سيدة جميلة ولا تزال ، وكم حاولت أن تعمل من أجل بلدها . ولو كان

لديها مزيد من الوقت لأتمت الكثير ذلك أنها لم تستطع أن تنخرط انخراطا تاما فى النشاطات الاجتماعية لأن لديها أربعة أطفال صغار . لكنها بعد ذلك أصبحت حلقة وصل أساسية بين زوجها والشعب تستمع إلى مشكلاتهم . أحطتها بذراعى ولاطفتها أثناء توجهنا سويا إلى فندق ابروى . على طول الطريق كانت صور الشاه التى أمر أنور بتعليقها على وجه السرعة ، والتى كانت قد تخلفت عن زيارة رسمية سابقة لكنى أشك أن يكون الشاه قد لاحظ شيئا لقد كان فى حالة ذهول شديد . .

انسابت الدموع على خديه فى السيارة بينما هو يحكى لزوجى الوداع المؤثر الذى تلقاه من العسكريين الايرانيين فى المطار فى طهران . وقال الشاه « شد حارسى الشخصى على يدى وتوسل إلى أن أبقى » وقال لى راجيا لا تتركنا ستخسر إيران بدونك والمستقبل مظلم . وقد شعرت كأننى قائد ترك لتوه ساحة القتال . .

وعلى الفور عرض زوجى اللجوء للقوات المسلحة الايرانية التى ظلت موالية للشاه خلال كل الاضطرابات . واقترح أنور قائلا لماذا لا تسحب طائرات سلاحك الجوى ووحدات بحريتك ؟ . . سوف تستضيفهم مصر حتى تستقر الأحوال فى إيران » .

لكن رد الشاه كشف عن يأسه . وقال فى حزن « الأمريكيون لن يسمحوا بذلك لقد أجبرونى على ترك البلاد . . وكان السفير يردد النظر فى ساعته باستمرار فى المطار قائلا إن كل دقيقة أتأخرها ليست فى صالحى ولا فى صالح إيران . ورأيت أثر الصدمة على أنور . وأبلغنى بعد ذلك أنه لم يستطع أن يصدق بأن تتحكم حكومة أجنبية فى شئون البلاد ، فى تلك اللحظة أدرك أن الشاه ضاع .

وظلت الصحف فى مصر وفى إيران تصف إقامة الشاه معنا « إجازة » وكذلك كانت فرح التى أحضرت معها ملابس قليلة ، وخلال الأيام الخمسة التالية التى قضيناها معا فى فندق أوبروى فى أسوان قالت لى مرارا « سوف نعود قريبا إلى طهران » .

ومع أن الشاه كان أكثر واقعية إلا أنه ظل يتحدث بشوق شديد عن العودة إلى

بلده الذى قال إن مستشاريه بالاضافة إلى الأمريكيين حثوه على الرحيل مؤقتا عنها ، معتقدين أن ذلك سيهدىء الشعب . وظل الاثنان يقولان لنا أنهما ينتظران الوقت المناسب للعودة إلى بلادهما ، ولكن كل يوم كانت الأخبار الواردة من إيران تزداد سوءا .

ولم نتحدث عن شىء آخر . لم يستطع الشاه احتواء كربه بسبب الأخطاء التى وقعت والتى ليست كلها بالضرورة أخطاءه . لقد كان أفراد من عائلته والحكومة فاسدين . وكان البوليس السرى « السافاك » وحشيا مع الناس .

معلومات كثيرة لم تصل إلى الشاه أبدا تاركة إياه غير عالم وغير قادر على التصرف ، وأبقاه مستشاروه معزولا . وقلنا له محاولين تهدئته : « الحمد لله أنكم هنا معنا فى أمان » . لقد خرج الشاه من كابوس ، ويمكن بسهولة أن يتعرض للاغتيال فى أى وقت .

كان الشاه يتمشى كل صباح لمدة ساعة حول المساحة الجميلة المحيطة بأبروى الذى اخترناه لأنه منعزل على جزيرة من صنع البشر فى وسط النيل ، ويمكنك أن ترى أضواء أسوان من أحد جوانب الفندق وقبر أغا خان إمام الطائفة الاسماعيلية من الجانب الآخر . وبالرغم من أن أغا خان جد أغا خان الحالى لم يكن مصريا إلا أنه طلب أن يدفن فى أسوان .

وفى واحدة من الألغاز التى لا يمكن تفسيرها شفاء أغا خان الذى كان مقعدا ويسير على كرسى متحرك فى أسوان . ربما كان شفاؤه يرجع إلى الطقس الجاف لدرجة أنه قبل بناء السد العالى لم ير أحد فى أسوان سحابة واحدة فى السماء . لكن أغا خان كان يحضر كل شتاء إلى أسوان للراحة والمشى قبل أن يضطر إلى قضاء بقية عمره على كرسى متحرك . وكنت أتمنى أن يزيل سحر أسوان الشحوب الذى كان يعتلى وجه الشاه أيضا .

وفى اليوم الرابع من زيارتهم وعندما اضطر أنور للانصراف لحضور اجتماع

هام فى السودان مع الرئيس نميرى ، رتبت لاصطحاب الشاه وفرح فى نزهة نيلية .

وقد بدت عليهما الراحة الآن وأصبحا مستعدين للنسيان . وجهزنا سندوتشات ومشروبات خفيفة وحلويات . ولمدة ثلاث ساعات أو نحو ذلك أبحرنا فوق مياه النيل الهادئة إلى أطلال معبد فيلة الرومانى . . وبينما قاربنا يمر بالقرب من الشاطىء أخذ الناس يقولون بأعلى صوتهم للشاه والامبراطورة مرحبا مرحبا بكما فى مصر . ورد الشاه وفرح التحية ملوحين للجماهير متأثرين جدا بشعورهم الودى لكنى رأيت فى عينى الشاه أن حماستهم آذته لأنها ذكرته بمشاعر السخط التى أبداها شعبه فى إيران علنا .

وفى ٢١ يناير استعد الشاه وفرح بعد أن بدت عليهما الراحة والاسترخاء للرحيل من مصر إلى المغرب . . وقلت لفرح عندما قبلتها مودعة « لابد أن تعودا إلى مصر حينما ترغبان . . اتصلا بنا فى أى وقت ومن أى مكان ستجدان دائما الترحيب » . وفى أول فبراير عاد آية الله الخمينى إلى إيران .

وعندما عدت إلى القاهرة وجدت أن حرائق المتطرفين التى اجتاحت إيران تشتعل الآن فى الجامعة . . وبينما كنت أسرع لمحاضرة انتابنى الفزع عندما وجدت الجماعات الاسلامية قد غطت الحوائط بالملصقات التى تثنى على الثورة الايرانية ورأيت شبانا ملتحين وشابات محجبات يوزعن منشورات تحذر من أن الحكومات التى لا تطبق الشريعة الاسلامية عليها أن تتوقع نفس النوع من الثورة الشعبية .

وبالرغم من أن شعورى لم يصل إلى حد القلق إلا أننى انزعجت . فقد أدركت أن ما حدث فى إيران لا يمكن أن يحدث فى مصر فليس هناك تشابه على الاطلاق بين الظروف فى عقائدنا . إن الشيعة فى إيران ينزعون للعنف ذلك أنه منذ القرن السابع بعد مقتل إمامهم الحسين فى العراق بأيدى قوات أموية ورث الشيعة نزعة التمرد والثورة على السلطة . . إنهم يفتخرون أيضا بأولئك الذين سعوا إلى الشهادة وهو اتجاه مستمر حتى يومنا كما نرى فى مجزرة الحرب العراقية

الايرانية ويدفن الذين يسقطون فى القتال ضد العراق فى مقبرة خاصة بالشهداء وتمنح أسرهم امتيازات خاصة .

والشيعة فى إيران يتصورون آية الله الخمينى وزعماء إيران الدينيين الآخرين بشكل يختلف كثيرا عما نرى نحن اهل السنة فى مصر . . علماء الدين من أهل السنة يؤمنون أن كل البشر متساوون عند الله ، الإمام الكبير ليس أقرب له من أفقر رجل إلا بمقدار طاعته لله . لكن فى إيران يرفعون من قدر علمائهم الدينيين إلى أرفع المناصب الروحية والسياسية متقبلين كلام آيات الله على أنها قانون ، هذا الاعتقاد فى التسلسل الهرمى أتاح للخمينى الذى كانت كلمته غير قابلة للمناقشة أن يصل إلى رئاسة الحكومة الجديدة فى إيران . . أما فى مصر فإن أكثر السنيين تعصبا لن يعتقد أبدا أن إنسانا يمكن أن يتحدث باسم الله أى نيابة عنه .

حتى الآن لا يزال المتطرفون الدينيون فى جامعة القاهرة وكل أنحاء مصر معتدلين ، وبالرغم من أنهم يمثلون أصغر شريحة من سكان مصر فإن المتعصبين منظمون جيدا ولا يمكن تجاهلهم . وقلت لأنور « إن النشء ينساقون ليقعوا فى أيدى المتطرفين » ، وقلت وأنا أحكى له ما رأيته فى الجامعة : لقد خطت مصر خطوات كثيرة إلى الأمام لكن هناك أولئك الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الوراء ووافقنى أنور بالرغم من أنه اعتقد أننى ربما كنت أبالغ فى تقدير نفوذ المتشددين فى الجامعة .

وأصررت قائلة : « أنور . . أستطيع فقط أن أبلغك بما أراه بعينى » .

وبعد ذلك ذهب إلى أسيوط فى فبراير ليخطب فى الطلبة . . وأعلن « لن نسمح بإدخال الدين فى السياسة ولا السياسة فى الدين . . وأعتقد أنه لابد أن نعود إلى الدين كثقافة وليس على الاطلاق بالطريقة التى يحث البعض عليها الآن لابد أن نتعامل معه كثقافة تعيد للعلم السلام الروحى والسلام الاجتماعى داخل وطن واحد » . . وبعد خطاب زوجى خمدت المظاهرات . استمر السلام مع إسرائيل بعيدا رغم ذلك ، فبعد ستة شهور من عودة أنور من كامب ديفيد لا تزال المفاوضات بينه وبين بيجين حول مصير القدس الشرقية التى تحتلها إسرائيل منذ

حرب ١٩٦٧ وحول ملكية البترول فى سيناء وأيضا حول مشكلة تقرير المصير للفلسطينيين تسير فى طريق مسدود . فإسرائيل تواصل توسيع مستوطناتها فى الضفة الغربية منتهكة بذلك اتفاق كامب ديفيد ، وكانت عملية السلام على شفا الانهيار .

وفى أوائل مارس قال لى أنور : « جيهان ، لقد قرر الرئيس كارتر الحضور إلى هنا للتحدث معى ، ثم إلى إسرائيل للتحدث إلى بيجين » . . . وقلت فى حذر : « هذه أخبار طيبة يا أنور » .

وواصل أنور حديثه قائلا « ومسز كارتر سوف تحضر معه أيضا » .

كانت تلك أنباء طيبة . فقد أعجبت جدا بروزالين . . وعندما قابلتها لأول مرة فى واشنطن بعد قليل من انتخاب زوجها رئيسا للولايات المتحدة عام ١٩٧٦ وجدنا أننا نشترك فى أشياء كثيرة عملنا : مع المتخلفين عقليا والمسنين والمعوقين . وقد أجرت استقبالا لى فى البيت الأبيض داعية رئيسات عدة منظمات لهن نفس اهتمامنا : المعوقين ومحو الأمية لدى الآخرين . ومن الناحية الشخصية كانت روزالين دافئة وحساسة جدا . خلال مفاوضات كامب ديفيد رتبت للوفد الأمريكى طعاما أمريكيا والوفد الاسرائيلى طعاما وفقا لما تقرره الشريعة اليهودية ولأنور وجبته البسيطة المكونة من الفراخ وخضروات مسلوقة وشاى مع أوراق نعناع مغلية . وقال أنور أنه تم تخصيص مبنى فى كامب ديفيد كمسجد للصلاة .

وصلت أسرة كارتر إلى القاهرة يوم ٨ مارس ١٩٧٩ لتلقى استقبالا رائعا فقد كان الرئيس كارتر ثانى رئيس أمريكى يزور مصر وسيكون أول رئيس يخطب فى البرلمان . وكان الأهم بالنسبة للشعب المصرى هو دأبه الشخصى بحثا عن السلام . وبينما نحن قادمون من المطار إلى قصر القبة حيث كان سيقيم كارتر وأسرته كان ملايين المصريين يصطفون على جانبى الشارع يهتفون « مرحبا يا كارتر . . نحن نحب الرئيس كارتر . . بارك الله فيك يا كارتر . . » وكانت هذه بعض الكلمات المكتوبة بخط اليد على طول الطريق .

وقد قالت روزالين مازحة ونحن فى السيارة معلقة على الزحام : متى نصل إلى القاهرة . وكان لدى أنور والرئيس كارتر الكثير للحديث بشأنه ، لكننا كنا نتطلع لأن نطلع أصدقاءنا الأمريكيين على أكبر قدر ممكن من مصر فى يومين ، وفى صباح اليوم التالى ركبنا معا فى القطار من القاهرة إلى الاسكندرية ، وأخذت روزالين تطل على الأرض الزراعية فى دلتا النيل وأعربت عن حسدها لنا على أرضنا الخصبة السوداء التى تختلف كثيرا عن التربة الحمراء التى يزرعها زوجها فى جورجيا . وعندما عدنا ذهبت معها إلى مجلس الشعب للاستماع إلى خطاب زوجها البليغ عن الرغبة فى السلام وهو يقتبس من القرآن الكريم والعهد القديم (التوراه) وموعظة الجبل من العهد الجديد (الانجيل) .

وقد قاطع أعضاء (المجلس) الرئيس كارتر مرارا بالتصفيق . فقد أراد السلام مثلنا وهو متدين مثلنا .

وفى اليوم التالى. وقبل خمسين دقيقة فقط من سفر كارتر إلى إسرائيل ، سارعنا لنريهم الأهرام . وكانت رياح الخماسين التى تستمر خمسين يوما ـ تلك العواصف الرملية التى تهب على مصر كل ربيع ـ قد بدأت يوم وصول كارتر وأسرته . ولكن بالرغم من أن الرياح لسعتنا بحرارتها وملأت عيوننا بحبيبات الرمال التى تحملها إلا أن كارتر وأسرته بدا عليهم أنهم يحسون تلك القوة الغامضة للأهرام التى نحس بها . وقال الرئيس كارتر عند رحيله إلى إسرائيل هو وروزالين « لقد شعرنا بأن حجمنا ضئيل » .

وكان وصول كارتر إلى القدس باعثا على الصدمة . فلم يحيه سوى ألف شخص فى المطار . وكانت اللافتات التى تمسك بها الجماهير تقول « عد إلى بلادك يا كارتر » ، « مرحبا بشقيق بيلى » ، كيف يكون الاسرائيليون إذن يريدون السلام ؟ . وخلال الموكب الرئاسى إلى فندق الملك داوود فى القدس حيث أقام أنور قبل ستة عشر شهرا كان المتظاهرون المعادون يقتربون منه لمسافة تكفى لقذف سيارته بالبيض .

ولذلك لم أدهش للأسلوب الفظ الذى عومل به الرئيس كارتر خلال خطابه فى الكنيست . لقد قوبل بالحفاوة فى مجلس الشعب المصرى فى القاهرة . ولكن فى الكنيست قوبلت ملاحظاته بالصمت . ولكن حتى الصمت كان أفضل من كثرة الأسئلة والمضايقات التى انفجرت بعد خطابه . لقد كان الصخب عاليا لدرجة أن مناحم بيجين رئيس الوزراء استطاع بشق النفس أن يلقى خطابه .

وقال أنور لى ونحن نشاهد معا ذلك العرض العدائى على شاشة التليفزيون « لقد انتهت » . وقد أصاب هذا التعصب من الاسرائيليين الصحافة المصرية بالانزعاج البالغ . قالت الجمهورية « إذا لم يولد السلام فإن على العالم بأسره والولايات المتحدة بصفة خاصة أن تطارد المجرم الذى ارتكب هذه الجريمة ضد الانسانية » . وأعلنت وكالات الأنباء الأمريكية أن إمكانيات السلام غير قائمة تقريبا الآن .

وفى ١٣ مارس عاد كارتر وأسرته إلى القاهرة متوقفين لفترة قصيرة فى المطار لأنه أراد أن يناقش مع أنور ما أحرزه من تقدم إذا كان هناك تقدم فى إسرائيل . وكنت مكتئبة جدا عندما ذهبت مع أنور لمقابلتهم كما كان زوجى غاضبا . وحيّ أنور الرئيس الأمريكى بقوله « إن الشعب فى مصر يتميز غيظا من الطريقة التى عامل بها الاسرائيليون صديقنا جيمى كارتر » . وبينما دخل الزعيمان حجرة خاصة لاجراء محادثات جلست أنا مع روزالين التى كانت مكتئبة تماما . ومرت ساعة ثم ساعة أخرى . وبينما نحن جالستان فى منطقة الاستقبال بالمطار دعونا أنا وروزالين .

وأدركت أن شيئا لا يصدق حدث عندما خرج الرجلان ، بدا الرئيس متجهما للغاية عندما وصل ، ولكنه الآن يبتسم . وتفحصت وجه زوجى لأستشف شيئا . وسألت « أنور ، ما الخبر ؟ . . ماذا حدث ؟ » .

عند ذلك فقط ابتسم . وقال « الرئيس كارتر وأنا تحدثنا لتونا إلى بيجين فى القدس . . وتوصلنا إلى اتفاق » .

كنت أود أن أصرخ . كنت أريد أن أقفز من الفرحة . لا أتذكر شيئا ، فقد جعلتنى تلك اللحظة لا أكاد أبصر شيئا . والتفت نحو روزالين ولكن كلانا رأت الأخرى بصعوبة بالغة لأن الدموع كانت تملأ أعيننا . « لقد استجاب الله لدعائنا » ـ قلت لها ذلك بينما اتجه زوجانا نحو مؤتمر صحفى عالمى كان فى انتظارهما . وأعلن عن السلام . انتهت عداواتنا مع إسرائيل التى استنزفتنا لمدة ثلاثين عاما . وبينما الرئيس كارتر يعلن بيانه التاريخى نظرت إلى التوتر الذى تركته على وجه زوجى عملية السلام المجهدة بصفة دائمة .

أنور السادات ، مناحم بيجين ، جيمى كارتر ، هؤلاء الرجال ، هؤلاء القادة يتصافحون ، يعانق كل منهم الآخر . إن المنظر يصعب استيعابه بسهولة . كان يوم ٢٦ مارس ١٩٧٩ بعد عشرة أيام من إعلان السلام المشترك فى مطار القاهرة . نحن الآن فى البيت الأبيض فى واشنطن ، حيث وقع الرجال الثلاثة لتوهم اتفاقيات كامب ديفيد . لا أستطيع أن أصدق أن هذا يحدث فعلا . كنت مرتبكة طوال اليوم ، بدأ اليوم بغداء هادىء مع أسرة كارتر فى الجناح الخاص بهم فى البيت الأبيض . كانت المنضدة معدة لستة : الرئيس ومسز كارتر ، رئيس الوزراء ومسز بيجين والرئيس أنور السادات وحرمه . وللمرة الأولى أجد نفسى وجها لوجه أمام رئيس وزراء إسرائيل ، الرجل الذى أعرف وجهه فقط من التليفزيون والصور التى تنشرها له الصحف المصرية .

وقال بيجين عند التعارف وهو يمد يده : « مسز سادات كم هو جميل أن التقى بك أخيرا » .

وبحركة آلية مددت يدى إلى يده التى اعتقدت دائما أنها تنتمى إلى الشيطان ، وأجبت : « يسعدنى ذلك » . لكن فى قرارة نفسى كنت أرتعش . هل هذا الرجل الذى سبب لنا كل هذا الألم والاحباط سيحترم توقيعه أم سيغير رأيه مرة أخرى ؟ وفى منتصف الغداء بدأت مسز بيجين تسعل وتختنق . وقد جلسنا كلنا مصعوقين بينما هى تلهث من أجل الهواء ، وأصبح لون وجهها أرجوانيا ، هل ستموت هنا على الفور وأمامنا ؟ يا الهى أرجوك يا رب أن تنقذها . أنقذها . كانت

هذه دعواتى . ومدت يدها فى حقيبتها ـ وهى تجاهد لتلتقط أنفاسها ـ وأخرجت منها جهازا لنثر الرذاذ . وبينما أنا أدعو الله بكل ما لدى من قوة وضعت هى الجهاز فى فمها وأخذت ترش وترش وترش . يا الهى . وببطء أخذت كحتها تخمد ونوبة الربو التى ألمت بها تنقضى . الحمد لله . الحمد لله ، الحمد لله . لقد استمرت نوبتها ثوانى قليلة لكنها كانت أطول ثوان عرفتها فى حياتى .

الآن على المنصة المقامة فى حديقة البيت الأبيض يتحدث كل زعيم ببلاغة عن السلام الدائم . آمل ألا يرى أحد دموعى وهى تنساب على خدى . وحاولت أن أستعيد رباطة جأشى لتركيز انتباهى على المتحدثين ، ولكنى لم أستطع . وبدأت أدرك أن شخصية مألوفة تجلس بالقرب منى خارج مرمى بصرى . واختلست نظرة إليها .

يا الهى ، موشى ديان هنا . شخصيا . وبسرعة رفعت عينى ولكن لأرى شخصية أخرى مألوفة ، أريل شارون وزير الدفاع السابق . وكان قلبى يدق بشدة حتى لتكاد دقاته تظهر عبر ملابسى . كلهم هنا . هذه الأساطير الاسرائيلية التى لعبت تلك الأدوار الضخمة والمفزعة فى حياتنا . الآن وبشكل مفاجىء أصبح هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء لنا لمدة ثلاثين سنة أصدقاء .

وظل إحساسى بالوهم طوال حفل العشاء الذى أقيم فى البيت الأبيض للاحتفال بتوقيع اتفاقيات السلام . لقد أعدت المناضد فى خيمة ذات لونين أخضر وأبيض ، نفس اللونين الذين استخدمتهما فى حفل زفاف ابنى . وجلس المصريون والاسرائيليون والأمريكيون على كل منضدة . والمناضد ملتصقة بعضها ببعض . ونظرت فى أرجاء الخيمة محاولة استيعابها بكاملها . فمنذ عام ١٩٤٨ وهؤلاء الرجال يحاربون بعضهم بعضا ويصيبون بعضهم بعضا ويقتلون الأبناء والأشقاء من الجانبين . الآن يجلسون معا ويقتسمون الخبز . بدت الدهشة على الكثيرين مثلى . هل سأكون قادرة على التحدث بأدب إلى هؤلاء الناس ؟ وهل سيسمح لى ؟ هل هذا ممكن ؟ من الصعب تغيير سنوات كثيرة من الشك والخوف المتبادل بهذه السرعة .

جلست بين الرئيس كارتر ورئيس الوزراء بيجين . لم يكن الحديث عن الحرب ولا عن الاستعداد العسكرى بل عن أطفالنا وأحفادنا . وقال بيجين لى أن ابنته خاسيا فى نفس عمر ابنتى لبنى . . وقال « لابد أن تأتوا لزيارتنا فى إسرائيل قريبا أنت وزوجك . . وائتوا بأولادكما » . نأتى إلى إسرائيل ؟ . . وأثناء ترفيه ما بعد الظهر الذى كان يقوم به موسيقيون من مصر وإسرائيل وأمريكا نظرت فى أرجاء الخيمة لأرى الاسرائيليين والمصريين يتقدمون بحذر ليعرف كل منهم الآخر . كنت أغمض عينى وعندما أفتحهما كنت أجد كل واحد من الجانبين لا يزال موجودا . ابنى جمال يضحك مع موشى ديان . لابد أنهما يتبادلان النكات . .

ومنذ أن تم توقيع اتفاقيات السلام اختلف كل شيء . . كل شيء ، عندما غادرت أنا وأنور البيت الأبيض فى اليوم التالى بدا كما لو كان عالما جديدا خرجنا إليه . فى رحلته إلى الولايات المتحدة فى ١٩٧٤ عندما كان أنور يزور الأمم المتحدة رفض عمدة نيويورك ابراهام بيم لقاءه . وكان مستر بيم مثل كثيرين آخرين يساوى بين النزاع السياسى بين مصر وإسرائيل والنزاع الدينى بين كل اليهود وكل المسلمين . لكنه كان مخطئا فبالرغم من أن بعض التعاطف الدينى لا يزال قائما بوضوح إلا أن اليهودى فى الولايات المتحدة أمريكى وليس إسرائيليا وكان بيننا شجار . وتساءلت وقتها عما إذا كان العمدة بيم يعتقد أنه عمدة تل أبيب أم عمدة نيويورك .

وقد واجهت أنا نفسى موقفا عدائيا فى نفس الزيارة من موظفة بروتوكول فى لوس أنجلوس ، وأنا أستقل السيارة قادمة من المطار . ردت بصعوبة عندما سألتها عن اسمها وعما إذا كان لديها أطفال وعما إذا كانت تستمتع بالطقس المشمس فى كاليفورنيا الجنوبية . وسألت مسئول المدينة الذى كان يرافق أنور عندما وصلنا إلى الفندق : « ما حكاية هذه السيدة ؟ » وبدا عليه الحرج ، وقال موضحا : « لقد رفضت فى البداية أن تقابلك تماما مدعية أنها مريضة . وقلت لها أنها كموظفة

بروتوكول ليس من شأنها أن توافق أو لا توافق على ضيوفنا . لكنها يهودية وكان الأمر صعبا عليها » .

الآن انقضى كل ذلك والعكس يحدث فى الواقع . فقد تلقينا دعوات كثيرة جدا لحفلات واستقبالات فى كل أنحاء أمريكا لتسلم شهادات تكريم من الجامعات ومفاتيح عشرين مدينة مختلفة على الأقل . ومنذ تلك اللحظة وفى أى مكان من العالم اذهب إليه كنت أرى أن أكثر الذين يتحدثون عن زوجى بتأثر شديد مصحوب عادة بالدموع فى أعينهم هم اليهود . وكان النقيض أكثر ترويعا . ففى نيويورك ، فى مساء اليوم الذى تم فيه توقيع اتفاقيات السلام تم إضاءة مبنى « الأمبايرستيت » بألوان مصر وإسرائيل . بينما كان الجو فى الدول العربية مختلفاً جدا ، حتى أثناء توقيع أنور على الاتفاقيات التى سوف تجلب السلام إلى منطقتنا ، كان الفلسطينيون يدعون إلى حظر بترولى ضد مصر والولايات المتحدة . واندلعت المظاهرات المعادية لزوجى فى سوريا ولبنان . وفى إيران استولت الجماهير المسعورة على السفارة المصرية رافعين لافتات تظهر أنور معلقا فى مشنقة . حتى الملك حسين فى الأردن الذى كان أكثر الزعماء العرب اعتدالا أخذ يهدد بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر . لقد جلب السلام لمصر أصدقاء جددا ولكنه حول أصدقاءنا القدامى إلى أعداء . ولم يكن غريبا أن يكون أشدهم كرها معمر القذافى . لقد قال زعيم ليبيا أنه لن يستريح حتى يلقى أنور مصرعه . كم أسفت لقصر نظرهم . وكم أحسست بالفخر بالشعب المصرى الذى اصطف على جانبى شوارع القاهرة لاستقبال وتحية أنور عند عودته إلى مصر . فهم الذين قاسوا كثيرا فى الحروب وهم الذين يعرفون تماما قيمة السلام . كانت الجماهير تهتف « بالروح بالدم نفديك يا سادات » . . « بالروح بالدم هنكمل المشوار » .

وبقيت حفلة واحدة ، حفلة تعنى بالنسبة لأنور أكثر من أى حفلة أخرى . ففى ٢٥ مايو ١٩٧٩ وبعد شهرين من عودته طرنا إلى العريش ومعنا الوزراء للاحتفال بأول مرحلة لعودة سيناء . لم يكن قلبى قط كبيرا مثلما كان فى هذا اليوم . لقد وفى أنور بوعده للشعب المصرى لاستعادة أرضه . وقد وفى بالوعد

دون سفك الدماء . كم بدت العريش جميلة وهادئة فى ذلك اليوم . أشجار النخيل كانت تلوح على الأرض المنبسطة ومن خلفها البحر الأزرق . كانت هناك ذكريات كثيرة . فهنا بدأنا أنور وأنا حياتنا الزوجية معا قبل ثمان وعشرين سنة . وفيها ذاقت مصر أقسى ذل بفقدان هذه الأرض لمدة إحدى عشرة سنة . الآن وبطريقة سلمية تعود إلينا ثانية . وعندما حمل حرس الشرف العلم المصرى ليرفرف مرة أخرى فوق سيناء انحنى أنور أمامه وقبله وفعل كل الوزراء نفس الشىء . وكثير من مخضرمى الحرب الذين تجمعوا معنا فى العريش لمشاهدة عودة الأرض التى حاربوا ببسالة من أجلها ، لقد دمعت عيونهم كما دمعت عيناى . إنه من أجل هذه اللحظة صلى زوجى وعمل لمدة طويلة . من يصدق أن ذلك كان سيحدث فعلا ؟

لقد شعرت بقيمة هذا الانجاز عندما قبلنا زوجى وأنا فى سبتمبر دعوة بيجين لزيارة إسرائيل . وعندما وصلنا إلى حيفا عن طريق البحر تم استقبالنا بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية لنا . وكان ينتظرنا على الشاطىء جموع من الناس يتزاحمون بشدة لدرجة أنك لا تستطيع رش الملح بينهم . كانت لافتاتهم تقول : « مرحبا بالسادات » ، « مرحبا . . مرحبا » ، لقد كانت الاثارة واضحة فى أعينهم وفى ابتساماتهم بما يكفى لادراك أنها لم تكن حفلة ترحيب أمرت بها الحكومة بل حفلة ترحيب حقيقية خالصة .

وقلت لأنور بينما كنا نستعد للنزول إلى أرض إسرائيل : « لماذا قضينا كل هذه السنين نحارب هؤلاء الناس ؟ وضحك أنور وقال : « ليس هذا يا جيهان وقت الكلام فيه » .

كانت إليزا بيجين كريمة جدا ، فقد صحبتنى لزيارة المستشفيات ومركز للمعوقين ومدارس تمريض وحتى لإلقاء محاضرة بالجامعة عن جهودنا فى مصر من أجل المعوقين . وفى إحدى المستشفيات تم استقبالى استقبالا حارا وجعلونى أشاهد جهاز فحص آلى س. إيه . تى » كان االاسرائيليون فخورين به للغاية بعد أن حصلوا عليه مؤخرا . ولم استطع السكوت فقلت « ونحن لدينا واحد أيضا فى

الوفاء والأمل » . وحملق أنور فى وجهى قائلا « لا تقولى ذلك . . هذا جديد بالنسبة لهم وهم فخورون به » . وقلت « حسنا وأنا أيضا فخورة بجهاز الفحص الآلى « سى ، إيه ، تى الذى لدينا » وأضفت مؤكدة « الذى حصلنا عليه من سنوات » قال أنور « فقط لا تتحدثى عنه » . كنت سعيدة جدا لأننى قابلت « لسيه رابين » زوجة اسحق رابين رئيس الوزراء السابق فى حفل غذاء . فقد التقينا من قبل فى عام ١٩٧٥ فى مؤتمر المرأة العالمى التابع للأمم المتحدة الذى عقد فى مكسيكو سيتى لكننى لم أتحدث إليها ورفضت حتى مصافحتها لأنهم كانوا يحتلون أرضنا . أما الآن فقد احتضنت كل منا الأخرى .

قلت لها : « اعتذر عن فظاظتى فى مكسيكو سيتى » .

وردت قائلة « لا عليك » .

وأردت أن أبلغها بالارتياح الذى أشعر به الآن ، فقلت لها « كسيدة أردت أن أجلس معك لبحث مشكلات مشتركة بيننا لكن السياسة منعت ذلك . . دعينا نجلس معا الآن » وجلسنا .

وكانت ابنتى جيهان مفتونة بشعب إسرائيل ، أينما كانت تذهب للفرجة كان الناس « يلتفون حولها فى الشوارع للترحيب بها . وفى أحد المحلات توقفت لشراء أشياء تذكارية ورفض صاحب المحل أخذ أى ثمن لها وأصر قائلا : « من فضلك أقبليها كهدايا من بلدنا لأسرتك » .

كانت لا تزال هناك لحظات تبعث على الصدمة والذعر . فقد كنت أرتعد قليلا كلما أرى هليوكبتر إسرائيلية تذكرنى بالرعب الذى كانت تحدثه فى الحروب . كانت الصدمة أقسى عندما طرنا بالفعل بالهليوكوبتر مع عيزرا وايزمان فى الطريق إلى المطار لنعود إلى مصر . قال هذا الرجل الرائع الذى أحبه زوجى كثيرا جدا جدا « هل تحبين أن تأتى إلى المقدمة وتجلسى بجانب الطيار ؟ . . يمكنك من هناك أن تشاهدى أفضل » .

ظللت أحملق فى الطيار فى زيه العسكرى وهو يشير إلى المناطق الزراعية

التى نحلق فوقها والمناطق الصناعية والمناطق التى يقطنها عرب ويهود معا . هذا الضابط نفسه بهذه الطائرة نفسها يمكن أن يكون واحدا من الذين كانوا يقتلون جنودنا قبل ذلك بسنوات قليلة . الآن يأخذنا فى جولة للفرجة وهو فخور بنا .

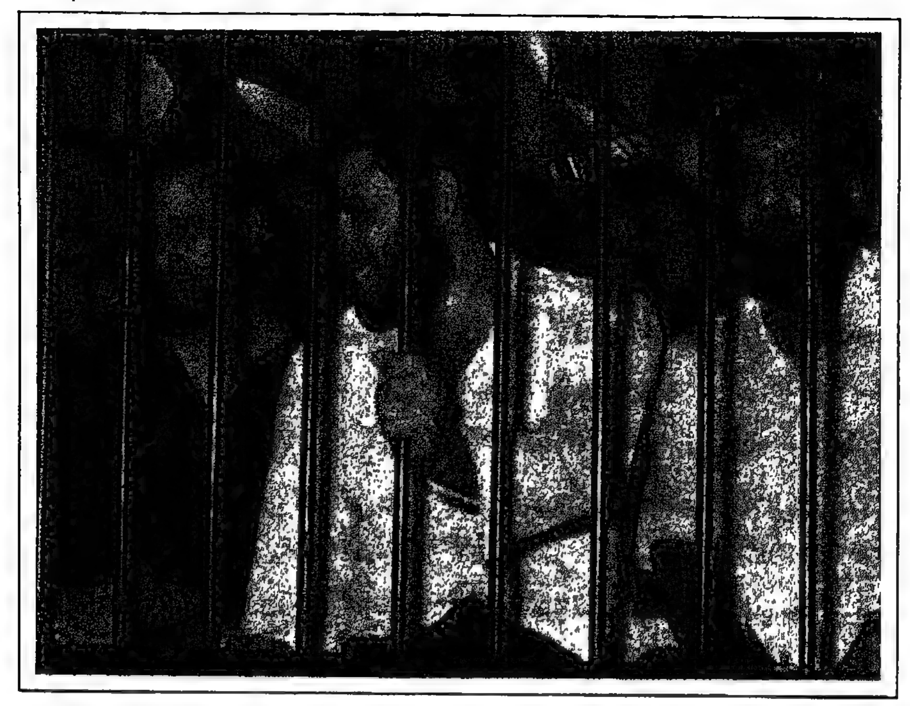
وعدنا إلى القاهرة ، وأسقطت من اعتبارى الانتقادات التى كانت قد بدأت تظهر فى الصحافة المصرية تتهم أنور بأنه دفع أكثر مما ينبغى ثمنا للسلام مع إسرائيل . هل هم غير مهتمين باستعادة سيناء ؟ . ولم أدهش أيضا للمظاهرات المتفرقة ضد الحكومة من جانب المتطرفين الاسلاميين . بالليل عندما أعلن زوجى والرئيس كارتر معا أنه تم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل اضطر البوليس لتفريق مظاهرة فى جامعة أسيوط بالغاز المسيل للدموع . أدركت أن هؤلاء المتطرفين لن يوافقوا أبدا على السلام . ولكنى اعتقدت أنهم سيرون قريبا جدا أنه لم يكن لدى مصر بديل .

وأخذت النيران التى كانت على وشك أن تلتهم زوجى تنتشر .



الفصل الثالث عشر

بسم الله



تأخرت مرة أخرى عن المحاضرات ، فأسرعت عبر بوابات جامعة القاهرة صوب قسم اللغة العربية ، ولكن حائطا من البشر اعترض طريقى وهمس أحد الأشخاص بأن هؤلاء هم الجماعات الاسلامية (الأصوليون) وأنهم يؤدون الصلاة فى فناء الحرم الجامعى .

« يؤدون الصلاة فى فناء الجامعة ؟ » أن الساعة الآن العاشرة وموعد الصلاة التالية (الظهر) يحين فى الثانية عشرة ، فضلا عن أن فناء الجامعة هو طريق إلى قاعات المحاضرات وليس مسجدا .

ولم استطع أن أمر عبر هذا الحائط البشرى ، ولم يكن أحد ليستطيع أن يمر ، وبينما اقتربت من حشد من الطلاب شاهدت عدة مئات من الشباب فى ثيابهم البيضاء يركعون ويسجدون خلال تأديتهم الصلاة ، أن عدة مئات يمنعون الآلاف من الوصول إلى فصولهم الدراسية ، وقالت طالبة كانت تقف أمامى : « يجب أن نستدعى البوليس » . ولكنى ذكرتها بأن مجىء البوليس إلى هذا المكان

أمر غير وارد ، فلقد منع « أنور السادات » وجود البوليس فى الحرم الجامعى تشجيعا لتهيئة مناخ حر داخل الجامعة .

ومرت ساعتان حتى تمكنت من الوصول إلى مكانى لحضور المحاضرات ولكن حتى هذه اللحظة استمرت المضايقات والضجيج ، وسمعنا صوت « طرق » حيث كانت أيد تطرق بقوة على باب قاعة محاضرات مجاورة للقاعة التى كنا نجلس فيها ، وتوقف الأستاذ المحاضر ، ثم أستأنف حديثه ، ولكن الطرقات استمرت وازدادت الضوضاء على الباب بشدة ، وحينئذ لم يستطع الأستاذ الاستمرار .

وتعالت أصوات أعضاء الجماعات الاسلامية (الأصوليون المتشددون) تطالب بوقف الدراسة فى الحال ، وقالوا عبر الباب « أن الوقت قد حان للصلاة . . » ، وكانت تلك الأصوات صادرة عن طلبة وطالبات على حد سواء ، ولم يفتح الأستاذ الباب ، وانتظر بدلا من ذلك تحرك الموجودين بالخارج إلى قاعة المحاضرات التالية ، ولكنى كنت أراهم فى مخيلتى ، الرجال ملتحون ويرتدون الجلابيب ، والفتيات يرتدين الثياب الطويلة والحجاب ، وعيونهن مضيئة .

لعدة سنوات شاهدت نفوذ وتأثير أعضاء الجماعات الاسلامية يتزايد أكثر وبقوة داخل الجامعة ، ففى عام ١٩٧٤ ـ وهو العام الذى التحقت فيه بالجامعة للحصول على درجة الليسانس ـ رفع « أنور » الحظر الذى فرضه عبد الناصر على الجماعات الدينية ، متمسكا بضرورة منحهم حق التعبير إذا كانت مصر تعتزم التوجه نحو الديمقراطية ، وبهدوء شكلت الجماعات الدينية المتطرفة قاعدة صغيرة ـ ولكن جيدة التنظيم معارضة لسياسات زوجى ، وفى عام ١٩٧٧ وبعد ثلاثة أشهر من عودة أنور من القدس فاجأت الجماعات الاسلامية المتشددة الجميع فى الجامعة عندما اكتسح مرشحوها الانتخابات الطلابية ، وحينئذ ـ ومع حصولى على درجة الماجستير فى خريف عام ١٩٧٩ ـ تساءلت بدهشة : أين ستنتهى قوة المتشددين ؟

وإلى حد ما كنت أفهم وجهة نظر أولئك الذين ينطوون تحت لواء الجماعات

الاسلامية (الأصوليين) فلقد ظلت مشاكلنا فى مصر مزمنة دون أى تحسن يبدو فى الأمد المنظور ، وعدد كبير من شعبنا من الفقراء ، وكثيرون لم يكن بمقدورهم العثور على مسكن مناسب ، وعدد كبير غير متعلم ، وعدد كبير أيضا لم يكن حتى يستطيع شراء الملابس ، ومن الطبيعى أن يكون أكثر مناسبة لهم فى ضوء ذلك أن يمتلكوا جلبابا واحدا أو ثوبا طويلا ، ولكن كل هذه المشكلات كانت ناجمة عن حقيقة واحدة الا وهى أن الحكومة لم تكن تستطع مساعدة عدد كبير من الشعب .

وقد أدت الضغوط المتزايدة على حياتنا الاجتماعية إلى اصابة الكثيرين بالاضطراب واليأس ، والفقراء بصفة خاصة . والآلاف الذين ينزحون يوميا إلى القاهرة من المناطق الريفية شعروا بالضياع فى المناطق الحضرية المجاورة المزدحمة والمليئة بالضوضاء . وحيث كان من الصعب أيضا ايجاد مكان للمعيشة أو فرصة عمل ، وبالطبع كانوا يميلون إلى الاستجابة للتعاليم المحكمة لأعضاء الجماعات الاسلامية (الأصوليين) التى منحتهم هوية وهدفا .

والتكوين الأسرى الذى كان دائما العمود الفقرى لاستقرار مصر كان يضعف أيضا ، فالأجيال التى عاشت معا فى القرى والمدن بدأت تتفتت وتتشتت ، وجعلت أزمة الاسكان من الصعب على الأزواج العيش بالقرب من آبائهم ، وهو ما سبب فى بعض الأوقات إهمالا ليس للكبار فقط ولكن للصغار أيضا ، فبدلا من أن يتركوا أطفالهم فى رعاية أجدادهم خلال وجودهم فى العمل ، اضطرت بعض الأمهات إلى ترك أطفالهن مع الغرباء ، والعديد من الآباء لم يكتفوا بعمل واحد بل عملوا فى عملين وثلاثة يوميا ، وكان كل فرد مشغولا ، كل شخص كان يعمل أو يتطلع للعمل ، ولم يكن لدى أحد الوقت الكافى ليخصصه للأسرة .

ورأيت أن روح الإهمال تلك بدأت تتسرب إلى داخل المدارس حيث أصبح العدد الكبير من الطلاب يحول دون استمرار ما كان قائما من قبل من نظم تشجيعية ، فقد كان المدرسون من قبل يعرفون أسر كل طلابهم وكانوا أيضا يقومون بدور ضابط الاتصال بين المدرسة والمنزل ، أما الآن فانهم يعرفون أسماء طلابهم بصعوبة ، أما فى الجامعات المزدحمة بشدة ، فان أصحاب المشاكل التى

كانت تتراوح ما بين وفاة والد أوحالة انفصال أوحتى مشكلات تعليمية كانوا يضيعون وسط المجاميع ، وحتى الطلاب الذين ليس لديهم مشكلات معينة اكتشفوا أن عملهم أن يلجأوا إلى مدرسين خصوصيين من أجل الحصول على النجاح ، ولم يكن هناك سبيل يتمكن من خلاله الأساتذة تعليم كل هذه الاعداد مرة واحدة ، وشعر الطلاب بالضياع فى هذه المرحلة الحرجة من تطورهم فى وقت يحتاجون فيه إلى عناية مكثفة .

وقد بذلت أقصى جهدى مع الطلاب ، اتحدث معهم بعد انتهاء المحاضرات وأدعوهم إلى منزلى للتحدث معهم فى أى شىء يريدون التحدث فيه ، ولكن بالقطع لم أكن أنا وحدى لاستطيع أن أعوضهم عن احساسهم بالعزلة ، ولم أكن أيضا استطيع منافسة أعضاء الجماعات الاسلامية (الأصوليين) الذين عملوا من أجل الفقراء ومن بينهم العديد من الطلاب حيث رتبوا لاستضافتهم فى المساجد ومنحهم الطعام والملابس والأموال اللازمة لشراء كتب الدراسة وأيضا للدروس الخصوصية ، وخارج الجامعة كان الاخوان المسلمون والجماعات التى خرجت من عباءتهم تعمل من أجل مساعدة الآخرين أيضا من خلال اقامة عيادات طبية فى الاحياء الفقيرة ، وتنظيم مجموعات تقوية للأطفال الذين يتعلمون بالمدارس العامة المزدحمة بشدة ، وبناء أماكن لايواء هؤلاء الذين لا يجدون منازل يقيمون فيها ، وكانت حملتهم منظمة بدقة وجيدة التمويل ، ولم يكن أحد متأكدا من الجهة التى يحصلون منها على المال ، فالبعض كان يردد أنها تأتيهم من المحافظين المتدينين فى مصر ، وآخرون يشكون فى القذافى والاخوان المسلمين فى السعودية والمتطرفين الشيعة فى ايران .

ولكن أيا كانت الجهة التى كانت تدعم أعضاء الجماعات الاسلامية (الاصوليين) فاننى كنت واثقة أنهم يشعرون بالرضى ازاء النتائج ، وفى كل مرة كان الأصوليون يؤدون فيها الصلاة كانت تلقى خطب دينية أيضا تطالب بأن تكون الشريعة هى القانون الوحيد فى مجتمعنا وأن تمنع كافة القوانين القادمة من الغرب ، وتردد ـ هذه الخطب ـ أن الاسلام مع اسرائيل محظور بنص القرآن ، وأن

الاقباط هم اعداء المسلمين ويريدون مصر لأنفسهم .

وفى الجامعة ، لم أكن استطيع أن أسير دون أن أرى واحدا من الاكشاك التى أقامها أعضاء الجماعات الاسلامية لبيع الكتب مقابل أسعار زهيدة جدا . وأيضا كانوا يحاولون من خلالها ضم الآخرين اليهم ، وقد وزعوا كميات من « الجلاليب » ـ بلا مقابل ـ للشباب الذين كانوا يتوقفون للاستماع اليهم ، وكانوا يمنحون أغطية الوجوه والثياب الطويلة أيضا للفتيات ومع مرور الأعوام كان المزيد والمزيد من الطلاب يقبلون ، وكان عدد أكبر من الشباب يلتحون والفتيات يرتدين الحجاب بدلا من التخلى عنه .

وقد أدهشنى أن أجد عددا ـ كبيرا ـ من بينهم أفضل وابرز الفتيات فى فصلى الدراسى يخترن ارتداء الحجاب ، وهو الرداء الخفيف الذى يترك الوجه مكشوفا ولكنه يستر الرأس ، والاكتاف ، وقد اختارت احدى طالباتى ارتداء الحجاب لأنها متدينة بعمق ، وهذا اختيار احترمته ، ولكن أخريات فى الجامعة جعلن منه قضية سياسية ، خاصة هؤلاء اللاتى كن يرتدين النقاب (وهو حجاب شامل يشبه القناع ويستر وجه المرأة بالكامل ويترك فقط مجرد ثقبين ترى منهما العينان) ، وأكثر هؤلاء الفتيات تشددا كن يسترن اجسامهن بالكامل ، ويغطين أيديهن بالقفازات حتى فى أيام الصيف الحارة ، وكن يرتدين أيضا جوارب سميكة ، وعندما كنت أراهم يسيرون فى ردهات الجامعة كنت أشعر « بوجع » فى قلبى ، فذلك ليس هو الاسلام .

وفى المقابل كان أعضاء الجماعات الاسلامية (الأصوليين) ينتقدون ثيابى ، وأكثر من مرة أرسلوا إلى فتيات يحسن التحدث فى محاولات من جانبهن لاقناعى على الأقل بقبول الحجاب ، ويطالبنى هؤلاء المبعوثات ويبادرنى بالسؤال « لماذا لا ترتدين الزى الشرعى ؟ . وهو الوصف الذى أطلقته الجماعات الاسلامية على الحجاب والثياب الطويلة التى يعتبرونها زيا أساسيا للمرأة ، وكنت أواجه بهذا السؤال : ألا ينبغى وأنت حرم الرئيس المصرى ونموذج للمرأة المصرية أن تكونى مثالا ؟ » .

وكنت أواجه ذلك بحزم مؤكدة : « أننى دائما ارتدى ملابس محافظة ومحترمة وذات أكمام طويلة ، ولكن الأكثر أهمية من الملابس هو أعمالكم ، فعندما يجىء يوم حساب الله لنا ، فانه لن يدخلكم الجنة فقط لأن الثياب التى ترتدونها أطول » .

ويقول الحديث : انما الأعمال بالنيات » ولم استطع لوم أعضاء الجماعات الاسلامية (الاصوليين) لاتباع ما يؤمنون به ، ولكن يجب ألا يحاولوا أن يفرضوا ارادتهم ورأى الأقلية على كل شىء آخر ، لقد كانوا يستغلون اتجاه أنور نحو السماح بحرية التعبير والغاء الرقابة ، فى حين منح الانفتاح الذى اتبعه زوجى المصريين امكانات لم يعرفوها مطلقا من قبل ، ولكن المتشددين الدينيين كانوا ينظرون فقط للجانب السىء لكل شىء ويشعرون أنهم مهددون من كل تطور جديد ، وكانت قائمة شكاواهم بلا نهاية .

لقد كانوا يكرهون الموسيقى الغربية التى كان بعض الطلاب يستمعون اليها معتبرين أن أى موسيقى باستثناء تلاوة القرآن بمثابة عمل مدنس ، وبنطلونات الجينز الزرقاء التى يرتديها الفتيان والفتيات على حد سواء كانت تثير استياءهم ، ورغم أن برامج التلفزيون الغربية كانت لها جماهيرية فى كل مصر الا أن أعضاء الجماعات الاسلامية كانوا يريدون الغاءها وحظرها ، واعتبروا أيضا الاحتفال بغير الأعياد الدينية ـ مثل عيد الأم ـ عمل غير اخلاقى ، وبالنسبة لمعظم أعضاء الجماعات الاسلامية المتشددة فان الوسائل العلمية الغربية كانت أيضا موضع شك لديهم ، ورفض بعض طلاب كليات الطب أن يدرسوا جوانب عديدة تتعلق بتشريح جثث الجنس المخالف لكل منهما .

ولم أفهم على الاطلاق هذه الآراء المتعصبة ، وكان واضحا أن المتعصبين لا يفهموننى ، وباستمرار أصبحوا ينتظروننى خارج قاعات المحاضرات لتبادل الحديث معى حول ما يعتبرونه سياسات مصر الجديدة الخاطئة مرددين « أن زوجك يترك الفساد يدخل من الغرب » ، وكنت أقول لهم : « خذوا من الطرق الغربية ما تعتبرونه صالحا وتجنبوا الباقى نحن لا نستطيع عزل أنفسنا أكثر من

ذلك ، وكشعب ذكى علينا أن نعرف الكثير بقدر المستطاع عن العالم المحيط بنا ونستخدم هذه المعرفة لتحسين أنفسنا » . ولكن آرائى كانت تجد آذانا صماء .

وكان أكثر ما يزعج أعضاء الجماعات الاسلامية المتشددة هو أنهيار الحاجز بين اختلاط الأجناس ، وكنت اعتقد أن التعليم المشترك هو أول خطوة نحو حصول المرأة على حق المساواة بالرجل ، ولكن أعضاء الجماعات الاسلامية (الاصوليين) كان يتنابهم الغضب الشديد عندما يشاهدون الفتيان والفتيات يتحدثون ويدرسون معا ، وقد جمع أعضاء الجماعات الاسلامية الأموال لتمويل خدمة أوتوبيسات خاصة بالفتيات وحدهن وكانوا يسعون لفصل الجنسين فى قاعات الدراسة وفى الكافتيريات ، واعترضوا على اطفاء الأنوار خلال عرض الأفلام التعليمية فى الفصول الدراسية متمسكين بأنه من غير الملائم أن يجتمع الرجال والنساء معا فى الظلام .

« لكم دينكم ولى دين » هكذا كنت أردد على الدوام هذه الآية القرآنية لأولئك الذين كانوا يسألوننى كيف أوافق على التعليم المختلط والاصلاحات فى ظل القوانين الوضعية بينما لازلت اعتبر نفسى مسلمة ، وكنت أردد أيضا « انما الأعمال بالنيات » .

ولكن الوضع ازداد سوءا عندما أدليت بحديث بالاشتراك مع أمينة السعيد لصحفية أمريكية موصى عليها من سفارتنا فى أمريكا ، أكدت لنا أن الموضوع سوف ينشر فى مجلة تهتم بشئون الأسرة مثل مجلة « باراد » ولم استطع تصديق ما سمعت عندما اتصل السفير المصرى فى واشنطن بى تليفونيا ليخبرنى بأن الموضوع لم ينشر فى « باراد » ولكن فى مجلة « بلادى جيرل » . ولقد نشر الحديث مع أمينة فى الواقع فى صفحة نشرت فيها أيضا صورة لرجل عار . . ولم يكن هناك ما نستطيع أن نفعله ازاء هذا الموقف ، فلقد أصبحت المجلة فى مرحلة التوزيع بالفعل ولا ذنب لنا فى هذا لأن المستشار الصحفى بسفارتنا هو الذى رشحها وأرسلها لتأخذ الحديث ، ولكن لعدة أيام كانت الصحف والمجلات فى العالم العربى بأكمله تنشر القصة بالكامل فى حين كان النقد من جانب المتشددين

فى مصر بلا رحمة .

لقد حاولت أن أتعقل فى مناقشاتى مع أعضاء الجماعات الاسلامية ، ولكنى كنت أتألم من الداخل ، فقد ارادوا أن يعودوا بمصر إلى الخلف مئات السنين ، وأن يتجاهلوا كل التقدم الذى حققناه ، لم يكونوا يرحبون بالمشروعات المشتركة التى أقامتها الحكومة بالتعاون مع مستثمرين أجانب والتى أتت الينا بمستشفيات جديدة ومدارس وفنادق وعيادات ، لم يريدوا قوانين وضعية جديدة ، لم يريدوا علاقات مع الغرب ولا سلام مع اسرائيل .

إنى أتساءل بدهشة عما إذا كان أنور قد علم بمدى مناهضتهم الشديدة له ، فرغم أن زوجى كان له مستشارون ويطلع على تقارير المخابرات الا أننى كنت أكثر قربا واختلاطا بالناس ، وعلى عكس بعض المستشارين فاننى لم أكن أخاف من تمرير خبر غير مفصل أو غير مرغوب .

وخلال خريف عام ١٩٧٩ حذرته مرارا : « المتطرفون يا أنور . . إذا لم تتحرك سريعا فانهم قد يفوزون بقوة سياسية للاطاحة بكل شيء تناضل من أجله . وتحرك أنور ووجه خطابا إلى الجماعات الاسلامية المتشددة طالبها فيه بالبقاء بعيدا عن السياسة ، وفى الوقت نفسه فانه حاول تحسين أوضاع طلاب الجامعات من خلال زيادة الدعم الذى تقدمه الحكومة لاسكان الطلاب ولكتبهم الدراسية ، وبدأ برنامجا جديدا لتحسين ظروف الخريجين الذين يشغلون وظائف فى الجهاز الحكومى . ولم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك ، وقال لى : « إننى أعرف يا جيهان أن المتعصبين خطيرون ولكنى لا استطيع أن ألقى بهم فى السجون وذلك ببساطة لأنهم لا يحبون سياساتى » .

وكان على أن أوافق وقلت : « أن اعتقال المعارضين لك أمر يتعارض مع مبادىء الديمقراطية ، ولكن ما هى العواقب للتعصب الأعمى الذى كان المتشددون ينشرونه فى كل مصر ؟ ولقد أثار دهشتى أن أرى غلاف مجلة « الدعوة » لسان حال « الاخوان المسلمون » يحذر من أن اليهود قادمون وكان ذلك عنوان لمقال نشر فى عدد المجلة الصادر فى سبتمبر عام ١٩٧٩ وكان غلاف هذا

العدد يحمل رسما كاريكاتيريا ليهودى يشنق رجلا ملتحيا ويرتدى الجلباب ، وقدم المقال نصائح حول كيفية التعامل مع الاسرائيليين فى اعقاب تطبيع علاقاتنا مع اسرائيل والذى كان مقررا أن يبدأ فى فبراير عام ١٩٨٠ ، ونصحت المجلة القراء « اشتر المنتجات المصرية حتى ولو كانت أسوأ من تلك التى ينتجها اليهود » . لا تعمل مطلقا ليهودى حتى ولو منحك راتبا مضاعفا » ، « لا تضع نقودك فى بنوك غير اسلامية » .

أما الأمر الذى كان يثير قلقا أكبر من ذلك فهو هجمات المتعصبين ضد الاقباط ، ففى مصر لم نشر مطلقا إلى أن هذا الشخص مسلم وأن الآخر مسيحى ، فعلى الدوام ننظر إلى أى مواطن على أنه مصرى ، والاسلام يعترف بقوة بحق الاقباط فى ممارسة شعائر دينهم ، ويحترم القرآن المسيحيين واليهود على حد سواء باعتبارهم « أهل كتاب » مثلهم فى ذلك مثل المسلمين حتى النبى عليه السلام ذاته كان متزوجا بمسيحية ، ولكن منذ بداية السلام مع اسرائيل تجاهلت الجماعات المتطرفة كل ذلك وراحت تثير التوتر الدينى من جديد ، وأخذت المنشورات التى وزعتها الجماعات الاسلامية تردد « أن الاقباط فى مصر يجب ألا يكون لهم صوت فى سياسات مصر » وأن « المسيحيين متواطئون فى مؤامرة مع الامبريالية بالخارج » ، « ولا تصادقوا قبطيا » .

ورغم أن عددا قليلا من الناس فقط كانوا يقرأون منشورات المتطرفين ، الا أنه كان من الصعب التغاضى عن « رسالة عدم التسامح » التى راح المتعصبون يبثونها فى كل أنحاء مصر ، وتدريجيا أصبحت المعارضة للسلام مع اسرائيل والاقباط وزوجى تزداد بقوة .

وتزايدت المعارضة أيضا من جانب جيراننا العرب ، ولأول مرة ـ وفقا لذاكرتى ـ لم تعد مصر تخشى من اعدائها على حدودها الشرقية ، وأصبح خصومنا الجدد أولئك الذين كنا نعتقد أنهم أصدقاؤنا .

ولمعاقبة أنور على عقد سلام مع اسرائيل ، اجتمع الزعماء العرب فى بغداد فى مارس من عام ١٩٧٩ وقرروا قطع كل المعونات الجديدة عن مصر ، وعانى

ملايين المصريين من القطع المفاجىء للمساعدات والتى كانت تقدر ـ قبل السلام مع اسرائيل ـ بحوالى عدة مئات من ملايين الجنيهات ، ورغم وحشية وقسوة مثل هذا القرار على دولة فقيرة مثلنا . فان الزعماء العرب صوتوا على فرض مقاطعة اقتصادية شاملة على مصر ، وفقد الآلاف وظائفهم على أثر اغلاق عدة شركات عربية يقدر رأسمالها بملايين الدولارات افرعها فى مصر ، وخلال الصيف خلت الفنادق المصرية الضخمة والملاهى الليلية والكازينوهات على ضفاف النيل من روادها بعد أن كانت تكتظ عادة بسائحى الصيف القادمين من دول الخليج التى تعانى من الحرارة الشديدة فى الصيف ، وهذا ما جرى أيضا لآلاف من الشقق الفاخرة التى كان المصريون يؤجرونها عادة للزائرين العرب ، وأوقفت بعض شركات الطيران العربية رحلاتها للقاهرة فى اللحظة التى هبطت فيها طائرة رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين بالاسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٧٨ ، واتخذت الشركات الأخرى اجراءاً مماثلا فى أعقاب توقيع أنور على اتفاقات كامب ديفيد للسلام ، ولضمان عدم سفر أحد إلى مصر ، قررت الحكومات العربية منع الطائرات المصرية من الطيران فى الاجواء العربية .

وفرضت أيضا مقاطعة سياسية علينا خلال مؤتمر بغداد حيث حاول الزعماء العرب تلقين أنور درسا ، لقد كانت مصر هى التى اقترحت فى عام ١٩٤٥ تأسيس جامعة الدول العربية ـ وهى منظمة مكونة من ٢٢ دولة عربية تعمل وكأنها « أمم متحدة » صغيرة ـ ولكن فى بغداد صوت العرب على الغاء عضوية مصر ونقل مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس العاصمة ، وتقرر الا يتم دعوة المندوبين المصريين لحضور أى مؤتمرات قمة فى المستقبل ، وفى عام ١٩٨٠ كانت سفارات الدول العربية فى القاهرة قد أغلقت أبوابها ، فجميع الدول العربية ـ باستثناء عمان والسودان ـ قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، حتى الوعاظ من الجامع الأزهر تقرر حظر حضورهم المؤتمرات الدولية حول الاسلام .

ولكن أنور لم يكن هو ذلك الشخص الذى يكره على الخنوع ، وتلك المحاولات لتحطيم ارادته جعلته أكثر تصميما على السعى للسلام وأكثر شعورا

بالمرارة إزاء أولئك الذين جرحوا مصر ، وفى كثير من خطبه رد كثيرا على منتقديه العرب وأصر على مواصلة طريق السلام ، وكنت آسفة لأن الدول العربية تصرفت بمثل هذه القسوة ، وكنت آمل أن يرى العرب فوائد السلام مع اسرائيل ويضعوا حدا لخلافاتهم مع مصر ، وفى الوقت ذاته حاولت أن أساعد بلدى بأى طريقة أستطيعها .

ولم يعد ذلك أمرا هينا ، فقد كان هناك دائما أولئك الذين يعارضوننى ويعارضون دورى الذى أقوم به خارج نطاق المنزل (الوطن) ، ولكن لم يكن هناك مطلقا مثل هذا الحجم من المعارضة التى وجدتها فى خريف عام ١٩٧٩ ، ففى ظل حكم عبد الناصر كان على الناس أن يقمعوا غضبهم ومشاعرهم ازاء الحكومة خوفا من الاعتقال ، أما الآن وقد دخلت مصر واحدة من أصعب مراحلها الاقتصادية اتاحت سياسة أنور القائمة على حرية التعبير لهم حق التعبير عن توترهم واحباطهم ، واتخذ خصوم أنور مع أعضاء الجماعات الاسلامية والشيوعيين وعدد من أعضاء احزاب المعارضة من الموقف فرصة لإدانة كل شخص وكل شىء له ارتباط بالحكومة ، وكنت أنا واحدة من الأهداف المفضلة كما كان واضحا من الاتهامات العديدة :

- « أنها تمتلك ٣٥ سيارة مرسيدس خاصة بها ، ولقد مررتها من الجمارك بزعم أنها ستنستغل من أجل أعمال الخير » .

- « لقد منحتها شركة كوكاكولا ١٠٠ ألف دولار من أجل مساعدة المعوقين الا أنها احتفظت بالمبلغ لنفسها » .

- « لقد استولت على قطعة أرض كبيرة خارج الاسكندرية بعد أن وضعت أسمها فوقها واستولت عليها » .

ماذا حدث ؟ فجأة فى كل مكان اذهب اليه اسمع شائعة أخرى عن « فسادى » وفى وقت من الأوقات عرض « ابراهيم لطفى » رئيس مجلس ادارة بنك ناصر المصرى توحيد القوى مع « الوفاء والأمل » من خلال استثمار مشترك فى

أسطول صغير من سيارات الليموزين يتم تأجيرها للسائحين ، على أن تخصص نصف الأرباح للوفاء والأمل ، ولكن عندما أرسل البنك السيارات الليموزين والسائقين إلى الوفاء والأمل حتى يتفقدها أعضاء مجلس الادارة ، أخبر السائقون بطريق الخطأ الناس بأنهم سلموا السيارات شخصيا لى فى الوفاء والأمل ، وانتشرت الكلمة بسرعة عن طريق المعارضين ورددوا أننى اشتريت السيارات لاستخدامى الخاص ، وحتى عندما قرر مجلس ادارة الوفاء والأمل عدم الاستمرار فى المشروع على الإطلاق لعدم جدواه المالية ، فان الشائعة لم تمت ، واستمر الحديث عن « سيارات جيهان » ينتشر سريعا ، وكان على أن أنفى صحته فى حديث مع التليفزيون .

لقد كان وقتا سيئا حيث بدأ بعض الأفراد الذين قلما قابلتهم فى استخدام اسمى لتبرير تصرفاتهم غير القانونية ، وقد قام أحد الموظفين السابقين بالوفاء والأمل بملء سيارة لورى ضخمة بأجهزة التليفزيون وأدوات أخرى من المنطقة الحرة فى بور سعيد وابلغ موظفى الجمارك بأنه يحمل هذه البضائع من أجل أعمال الخير وبناء على أوامر من قرينة السادات ولحسن الحظ القى القبض على هذا الشخص بينما كان يحاول تكرار هذه الخدعة لثالث مرة وذلك عندما اتصل أحد مسئولى الجمارك بمكتبى للتأكد من الأوراق ، ولو لم يتصل بى أحد فاننى ما كنت قد عرفت مطلقا ماذا حدث .

وحادثة أخرى كانت أكثر ايلاما ، ففى خطاب من ضابط بالبحرية فى عام ١٩٨٠ يقول : « لقد صدمت وأصبت بخيبة أمل ، وأننى دائما معجب بعملك مع جنودنا ، ولكن ليس ذلك ولا اقترانك بالرئيس يمنحك الحق فى أن تستولى على الأرض التى اشتريتها لأسرتى فى الاسكندرية » ، وأحسست باضطراب كامل ذلك لأن الأرض الوحيدة التى امتلكها كانت ١٢ فدانا امتلكها مناصفة مع ابنى جمال فى « ميت أبو الكوم » ، وازداد اضطرابى عندما أرسلت أحد الاشخاص من مكتبى للتحقيق فى هذه المسألة ، وابلغنى بأن الضابط على حق حيث توجد لافتة كبيرة على أرضه كتب عليها أن هذه الأرض مملوكة لجيهان السادات .

وسرعان ما اكتشفت الحقيقة ، فقد وضعت هذه اللافتة بواسطة « جيهان طلعت السادات » ابنة طلعت شقيق أنور ، فقد أشترى زوجها الأرض مع ضابط البحرية ، ثم اختلف الشريكان على مساحة الأرض المخصصة ، وقد حاولت ابنة شقيق أنور أن تحل المشكلة بتخويف الضابط فوضعت اللافتة ، ولغرض ما اسقطت « طلعت » من اسمها الذى كتبته على اللافتة ، فعندما يدرك الضابط أن حرم الرئيس معنية بهذا النزاع فانه سيتخلى عن موقفه ويستسلم .

وشعرت بالغيظ والضيق ، وكذلك أنور ، وطلب أنور من جيهان ابنة طلعت أن تسوى نزاعها على الأرض فورا فى المحكمة ، وبصورة قانونية وتم حل المسألة ، الا أن الشائعات ظلت باقية .

وكان أنور أكثر هدوءا منى فى مواجهة معظم الهجمات التى كانت تشن ضده وضدى ، وكان يقول لى : « أن هؤلاء المعارضين من أهل اللاءات ، ولا تلقى بالا لما يقولون ، فاذا لم يجدوا أمرا تتورطين فيه فانهم سيجدون شيئا آخر ليرفضوه أو يشككوا فيه » ، لقد كان على حق بالتأكيد وكنت أعرف أننى لا استطيع إرضاء كل شخص ، ولكنى أيضا كنت أعرف أننى لم آخذ أى شىء من مخصصات أعمال الخير ، وقد حاولت أن أتجاهل الاتهامات الطائشة ضدى ، إلا أنها ظلت ضارية ، والهجمات استمرت .

ففى سبتمبر من عام ١٩٧٩ ، استفسرت الممثلة الأمريكية اليزابيث تايلور عما إذا كان بإمكانها زيارة مصر ، وتحمست ، فاليزابيث هى ممثلتى المفضلة لأنها لم تكن فقط جميلة ولكنها أيضا كانت مفعمة بالروح الفنية الهائلة وكنت دائما اتطلع إلى مقابلتها ، ولكن مثلها مثل الذين زاروا اسرائيل كان محظورا عليها لعدة سنوات دخول دولتنا .

وبالقطع بعد اتفاقات كامب ديفيد لم يعد هناك حظر بالنسبة للذين زاروا اسرائيل من قبل ، والقائمة السوداء العربية لم تعد تنطبق علينا ، ومن ثم فقد كانت سعادتى بالغة أن أدعو اليزابيث تايلور إلى احتساء فنجان من الشاى معى فى منزلى بالقاهرة ، واتفق كل أبنائى على الحضور لرؤ يتها وقضينا معا وقتا جميلا ، ولكن

اليزابيث تايلور كانت تشعر بخيبة أمل لأنها لم تشاهد أنور الذى كان فى الاسماعيلية ، وقلت لها : « ربما استطيع أن ارتب لك لقاء معه قبل أن تغادرى القاهرة » .

واتصلت بأنور تليفونيا فى الاسماعيلية وابلغته « معى شخص هنا يريد مقابلتك » ، الا أنه أخطرنى بأنه مشغول جدا بدرجة يتعذر معها مقابلة أى شخص ، فأجبته « يا لسوء الحظ يا أنور . . سوف تصاب اليزابيث تايلور بخيبة أمل » ، وبعد برهة من الصمت قال ضاحكا : « فى هذه الحالة دعيها تأتى ، مرحبا بها » .

لقد رحب أنور بمقابلتها ، ولكن المعارضين كرهوا ذلك ، وانتقدونا نحن الاثنين لإضاعة الوقت مع ممثلة غربية معروفة بتعاطفها مع اسرائيل .

وفى أعقاب ذلك بفترة قصيرة كانت هناك « فضيحة » أخرى أرتبط بها اسم شخصية أمريكية شهيرة ، فبعد قليل من توقيع أنور على اتفاقات السلام تلقت سفارتنا فى الولايات المتحدة خطابا من فرانك سيناترا يعرض فيه أن يغنى فى احتفال خيرى ينظم لصالح الوفاء والأمل ، وسعدت جدا بهذه الفكرة وأصبحت أكثر تحمسا عندما قررت « اللجنة الأمريكية » التى يرأسها « مايكل بيرجراك » ـ رئيس ريفلون ـ اقامة الحفلة الخيرية فى القاهرة خلال فصل الخريف ، من يستطيع أن يطلب دعاية لبلادنا أفضل من إذاعة صور فرانك سيناترا عبر التليفزيون وهو يغنى أمام الاهرام ؟ العديد من الأمريكيين سيشاهدون ذلك فى منازلهم وسيسعون لزيارة مصر بأنفسهم .

أما عن الحفل الخيرى ذاته فإن رجال الأعمال الأجانب تقرر أن يدفعوا ٢٥٠٠ دولار نظير التذكرة وتشمل الإقامة لمدة ثلاثة أيام مع أسرهم فى أحد الفنادق بالإضافة إلى جولات سياحية فى الأماكن الشهيرة مثل المتحف المصرى ومتحف الفن الإسلامى ، وكنا نأمل عندما يجىء الأجانب أن يقيموا فى مصر لفترة أطول ينفقون دولاراتهم فى أسواقنا ومطاعمنا وفنادقنا . والعائد هائل ، فالحفل الخيرى لن يكلفنا شيئا ، النقود ستأتى من الخارج من أولئك القادرين على

تقديمها ، والأرباح ستذهب لمصر ، فقد قرر فرانك سيناترا وجميع الموسيقيين المصاحبين له المشاركة فى الحفل دون مقابل عدا مصاريف نقلهم لمصر وسيتم تحويلها من الحفل الخيرى .

وفور إذاعة نبأ الحفل الخيرى بدأ هجوم « أهل اللاءات » وبدأوا يرددون أن المصريين سوف يعزلون من حفلهم الخاص لأن قلة قليلة فقط ستكون قادرة على تحمل ثمن التذكرة ، ووافقت « أنهم على حق ، ودعنا نخصص تذاكر لأفراد شعبنا » ، وتم تخصيص نسبة ١٠ فى المائة من التذاكر للمصريين بسعر ١٠٠ جنيه للتذكرة ، ولكن فى رأى المعارضين فإن ذلك لم يكن كافيا ، وبالإضافة إلى ذلك فقد قررت اللجنة الخيرية تنظيم عرض أزياء فى فندق مينا هاوس على أن يقام قبل الحفل الموسيقى ، وهذا أيضا أدانه المعارضون الذين أصروا على أنه من العار أن تستعرض عارضات الأزياء أمام الرجال خاصة إذا كانوا يرتدون الأزياء الغربية .

وقد أدى تبنى « ريفلون » للحفل الخيرى وترحيبنا بفرانك سيناترا إلى مزيد من الانتقادات العنيفة ، وكان ريفلون محظورا عليه دخول الدول العربية لعقده صفقات تجارية مع إسرائيل ، وفرانك سيناترا أيضا كان فى القائمة السوداء لتأييده المعروف لإسرائيل ، ولكن لماذا إذن هذه الأزمة إن فرانك سيناترا كان سيساعد بلادنا ولن يضرها ، وهو فى هذه المرة سيغنى من أجل مصر ، وغنى بالفعل حتى الساعة الواحدة صباحا فى ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٧٩ ، فى ليلة كانت تشبه ليالى ألف ليلة ، فالأضواء المتعددة كانت باهرة عند الأهرام وسيناترا كان رائعا وكنت آسفة فقط لأن أنور لم يتمكن من الحضور معى ومع أولادى على الرغم من أن سيناترا المحظوظ كان قد قابله مبكرا فى منزلنا ، وقال سيناترا للصحف « هو بالفعل قط عظيم » (أى نمر عظيم) مستخدما تعبيرا أمريكيا لم يفهمه أنور ولا أنا حتى شرحته الأنباء لنا .

وحقق الحفل الخيرى نجاحا عظيما ، وتم جمع أكثر من ١٠٠ ألف دولار منه للوفاء والأمل ، وفى اليوم التالى حضر فرانك سيناترا إلى الوفاء والأمل ذاتها وغنى للفتيان والفتيات الصغار وللمحاربين القدماء على مقاعدهم المتحركة الذين

حاولوا أن يغنوا معه على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون الأغنيات ، لقد كان أمرا مثيرا أن أراهم سعداء هكذا وترقرقت الدموع فى عيون العديدين وأنا من بينهم ، وكنت فخورة بأن آخرين يؤيدون مشروعنا الذى جعل الحفل الخيرى يجذب العديد من الأجانب لمشاهدة آثارنا القديمة التى لا يجدون نظيرا لها فى أى مكان آخر من العالم ، وليعرفوا أيضا الكثير عن الشعب المصرى .

وتجاهلت الانتقادات التى وجهت للحفل الخيرى ، فإذا كان موجهو الانتقادات بمقدورهم تقديم مثل هذا المبلغ الكبير للوفاء والأمل فإننى وقتها كنت سأستمع إليهم ، ولكنهم بالقطع لن يستطيعوا ، ومن البداية قررت أن أقبل مساعدات من أجل أعمالنا الخيرية من أى شخص يعرض المساعدة ، وإذا كان آخرون يرون العكس أو لا يوافقون فهذه مشكلتهم هم .

عندما كنت فى الولايات المتحدة سألتنى صديقة يهودية « مسز سادات هل تحبين أن أجمع أموالا لمشروعاتك ؟ » فأجبتها « بالقطع .. أحب ذلك » .

ولكنها حذرتنى « عندى شرط واحد .. إذا كنت سأجمع أموالا للوفاء والأمل فإننى أيضا سأجمع أموالا من أجل « الحاداساه » فى إسرائيل .

وابتسمت متساءلة : « وما الخطأ فى ذلك » ، « ساعدى عشر منظمات فى إسرائيل إذا كنت تريدين ، فذلك لا يضرنى ، فإذا كنت ستساعديننا أيضا . فإن ذلك أمر مدهش » .

ولكن المعارضين رفضوا أن يعترفوا بأن السلام يعنى أكثر من مجرد إنهاء حالة الحرب ، وأعلن حزب التجمع اليسارى موقفه « يجب أن نوقف الغزو الإسرائيلى لمصر » . وأحرق أعضاؤه أعلاما إسرائيلية ورفعوا العلم الفلسطينى بلونيه الأبيض والأسود فى فبراير عام ١٩٨٠ فى اليوم الأول لوصول السفير الإسرائيلى إلى مصر ، وكان رد فعل حزب العمل الاشتراكى مماثلا حيث رفع العلم الفلسطينى فوق مقره الرئيسى وطبعه على صفحة كاملة من جريدته ، وكانت الجماعات الإسلامية المتشددة قد أعلنت عن موقفها منذ عدة أشهر وقالت مجلة

« الدعوة » أن تطبيع العلاقات مع إسرائيل هو بمثابة سرطان فى جسد مصر سيجىء إليها بأفكار تتناقض مع الإسلام وتهدم الأسرة المصرية » .

ورفض أنور أن يخضع لهذه الرؤى الضيقة ، فقبل شهر واحد من بداية التطبيع استعان بمقولة للرسول فى خطبة له أمام مجلس الشعب تقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر (السلام) فلن أتركه حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وأيدت زوجى وبقيت هادئة بقدر المستطاع فى مواجهة المعارضة ولم يكن كلانا يعرف أن أكثر الاختبارات صعوبة لشجاعة أنور ومبادئه ستجىء بعد شهر واحد فقط .

ففى مارس عام ١٩٨٠ اتصلت بى تليفونيا فرح من بنما لتقول « جيهان . . أن وضعنا يبعث على اليأس . . لقد انتشر السرطان فى طحال زوجى وإذا لم تجر له عملية جراحية فورا فسوف يموت ولكنى لا استطيع أن أثق فى أى شخص هنا » .

وسألتها : « لماذا يا فرح لماذا ؟ » .

وقالت وهى تكاد تبكى : « أنه من الصعب أن أشرح لك فى التليفون » . وعرفت بذلك أن تليفونها مراقب وخاضع للتصنت ، واستطردت « يجب أن نغادر بنما فى الحال . . فهناك تقارير تنذر بالشؤم » .

وعرفت على الفور ماذا كانت تقصد وإلى أى شىء كانت تشير ، فقد سمعت أنا أيضا شائعات تردد أن بنما ربما تساوم الساسة فى إيران على إعادة الشاه إلى إيران . . وإلى موت محقق بالقطع .

وسألتها : « وماذا عن عملية الشاه الجراحية يا فرح ؟ » .

فأجابت : « جيهان . . أننى لا أعرف ماذا أفعل ، أننى يجب أن أخرجه من هذه المستشفى » ، وأدركت تماما ما هو الشىء الذى لم ترد فرح أن تقوله على لرغم من أننى لم أكن أريد تصديقه . . فهل سيعمل الساسة فى إيران على قتل لشاه وهو على مائدة العمليات الجراحية ؟ .

وسألتها « ألا تستطيعين إحضار أطباء أمريكيين إلى هناك لإجراء العملية الجراحية ؟ » .

وأجابت بصوت متهدج : « لقد رفضت حكومة بنما منحهم تصريحا لذلك » .

وقلت « بالتأكيد الحكومة الأمريكية تستطيع أن تساعد فى هذه المسألة نيابة عنك » .

وعلقت بمرارة « الحكومة الأمريكية ؟ لقد نلنا ما فيه الكفاية من مساعداتها حتى نهاية العمر » .

وانهمرت الدموع من عينى لدى سماعى ذلك ، فصوتها الذى كان من قبل قويا ، أصبح مجهدا متوترا ، وثقتها السابقة تحطمت ، لقد كانت الشهور الأربعة عشر الأخيرة قاسية للغاية بالنسبة للشاه وفرح ، فمنذ اللحظة التى غادرا فيها مصر توجها إلى المغرب ثم إلى البهاما ثم المكسيك والولايات المتحدة بحثا عن مكان يأويهم إلا أنهم لم يجدوا مثل هذا المكان ، وكانت أكثر الضربات قسوة من الولايات المتحدة التى كان يفترض أنها من أقرب أصدقائهما ولكنها أسرعت بترحيل الشاه من الأراضى الأمريكية بعد أن اقتحم الطلاب المتطرفون سفارة الولايات المتحدة فى طهران فى نوفمبر عام ١٩٧٩ واحتجزوا ٥٠ أمريكيا كرهائن ، وهدد الخمينى الأمريكيين قائلا : « إذا لم يعد الشاه إلى إيران فإن الرهائن سوف يقدمون للمحاكمة » .

واستاء أنور من تصرفات ومواقف الخمينى مؤكدا للصحافة الأجنبية « أن الإسلام يعلم الحب والإخاء ولا يحث على ما يفعله هذا الرجل » . وشعر بالأسف أيضا للطريقة المهينة التى كان يعامل بها الشاه ، فالمكسيك التى استضافته قبل رحلته إلى الولايات المتحدة رفضت استقباله مرة أخرى ، وأخيرا وجد الشاه وفرح مقر إقامة مؤقت فى بنما ، ولكن الآن عليهما أن يرحلا بسرعة .

وقلت لها : « لماذا لا تحضرى إلى مصر فورا يا فرح » وأضفت : « سوف

اتصل بك مرة أخرى لأخبرك بالترتيبات » ، فأى عقوبة أخرى يمكن أن تنالها ؟ فلقد فقدت فرح دولتها ، والآن فإنها قد تفقد زوجها أيضا ، وحتى إذا لم أكن قد عرفت الشاه شخصيا ، فإن رد فعلى ما كان ليختلف عن ذلك ، رجل ضائع مريض محاصر بالأعداء وعدم مساعدته أمر غير إنسانى ، وإذا وفرنا لهذا الرجل مأوى فإن الله لن يتخلى عنا ، وهذا ما كنت أعتقده ، فالمسألة ليست « سياسية » ولكنها مسألة « مبادىء » .

واتصلت بأنور فى مكتبه وأخبرته بما دار بينى وبين فرح وسألته « لقد أخطرت فرح منذ برهة بأن فى إمكانها أن تأتى إلى مصر هى والشاه فورا . . فهل كنت على خطأ » . أو أننى سأسبب لك حرجا ؟ عموما لقد قلت لها أننى سأطلبها مرة ثانية .

فأجبنى : « لا محل للتساؤ ل يا جيهان . . أخبرى فرح بأننى سوف أرسل إليهم طائرة الرئاسة لتنقلهم فورا » . .

وسألته مرة أخرى : « أنت واثق ؟ إنك تعلم أنه ستكون هناك متاعب » .

ولكنه كان واثقا وقال : « إن الوقوف مع أصدقائنا فى المحنة سيرضى الله » .

ولم تستطع فرح أن تصدق ذلك عندما اتصلت بها لأبلغها الأخبار الطيبة تلك ، وسألت وهى غير مصدقة : « هل أنت متأكدة ؟ » هل ستسمح مصر للأطباء الأمريكيين بالحضور لإجراء العملية ؟ » ، لقد كانت خائفة لأنها لم تعد تعرف بمن تثق .

وقلت لها ثانية وثالثة : « نعم يا فرح نعم ، لدينا العديد من المتخصصين المصريين هنا لمساعدتكم إذا احتجتم إليهم . . ولكن ذلك أمر متروك لكم » .

وفى الواقع ، لم تكن طائرة أنور هى التى نقلت فرح والشاه من بنما فى اليوم التالى ـ ٢٣ مارس ـ فلأسباب سياسية أصرت الولايات المتحدة على أن تقوم شركة طيران جوية تجارية بنقل الشاه إلى مصر ، وعلاوة على ذلك فإنها ضغطت

على أنور كى لا يستقبل الشاه على الإطلاق ، ونصح السفير الأمريكى فى مصر فى رسالة إلى زوجى قائلا : « إن أمريكا ترجو وتتصور أن استقبالك للشاه من الممكن أن يؤدى إلى تقويض أمنك الخاص » ، ولكن أنور لم يتراجع تحت وطأة الضغوط السياسية الأمريكية ، فمصر هى التى تتخذ قراراتها الخاصة وليس جهة أخرى ، ولم يكن زوجى بالشخص الذى يتخلى عن أصدقائه ، وعلى الرغم من المشاكل التى كانت قائمة فى مصر إلا أنه أبلغ العالم أننا لم نتخل عن مبادئنا .

وصدمت عندما رافقنى أنور إلى المطار لاستقبال الشاه والشهبانو ، فقد كان الشاه ينزل درجات سلم الطائرة بصعوبة ، وكان نحيفا لدرجة أن حلته كانت فضفاضة عليه للغاية وكأنها ضعف مقاسها الطبيعى ، وكان وجهه يعتليه شحوب الموت ، وإذا كان هناك أى إنسان فى حاجة إلى أصدقاء ، فقد كان الشاه . وعندما نظرت إليه تألمت بسبب قسوة الأمريكيين ، ولكنى شكرت الله على أن زوجى لديه الشجاعة ليعامل الشاه بإنسانية ويرحب به بنفسه فى مصر .

وبينما كانت طائرة هليكوبتر تقلنا نحن الأربعة إلى مستشفى المعادى العسكرى لم يستطع الشاه أن يمنع دموعه من أن تنهمر وقال مخاطبا زوجى « اننى لم أفعل شيئا لأجلك ، ولكنك أنت الشخص الوحيد الذى استقبلنى وحفظ لى كرامتى ، أما الآخرون الذين ساعدتهم كثيرا فلم يقدموا لى أى مساعدة نظير ذلك » ، وأستطرد « أننى لا استطيع أن أفهم ذلك » .

وقلت له : « من فضلك يا صاحب الجلالة . . إن زوجى لم يفعل أى شىء من أجلك ما كنت أنت لتفعله من أجله ، ولو كنا نحن فى مكانك الآن اما كنت تعاملنا بنفس الطريقة ؟ » .

وبعد فترة عرض أنور على الشاه واحدا من أجمل قصورنا للإقامة فيه هو وأسرته وهو « قصر القبة » .

وبعد مرور أربعة أيام من وصول الشاه ، وصل الجراح الأمريكى مايكل دبيكى ومعه ٧ آخرون من الأطباء والممرضين والفنيين لإجراء عملية جراحية لإزالة

طحال الشاه ، وساعد الجراحون والمتخصصون المصريون الفريق الأمريكى فى الجراحة ، وشعرت بالارتياح لإنقاذ حياة الشاه ، ولكنى « تأزمت » بسبب الأحداث التى نجمت عن وصوله .

فمنذ وصول الشاه تظاهرت الأقلية المتعصبة باستمرار داخل الجامعات المصرية وهم يرددون « يسقط السادات » ، « ليرحل الشاه السكير ، الديكتاتور ، الزانى » . . وكان أنور يتوقع بعض ردود الفعل تلك ، وذلك لأن المتشددين المسلمين كانوا معجبين بشدة بآية الله الخمينى ، إلا أنه رفض أن يتراجع . لأنها مسألة مبادىء ومواقف .

وبعد أن اصطحب الشاه إلى المستشفى ألقى أنور كلمة أذيعت عبر شاشات التليفزيون شرح فيها الأسباب التى دفعت إلى استضافة الشاه فى مصر ورد الشعب المصرى بثورة من التأييد لزوجى وعرض الفلاحون من الريف أن يحضروا إلى القاهرة لحراسة الشاه ، ووافق مجلس الشعب بأغلبية هائلة ـ ٣٨٤ صوتا مقابل ٨ أصوات . على قرار زوجى باستضافة حاكم إيران السابق ولكن المتعصبين لم يتصرفوا بالمثل .

وقد أدت شائعات عن توقع أعمال إرهابية إلى وضع حراس مسلحين فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث كان رضا ابن الشاه يدرس ، وفى أسيوط ـ مركز التطرف فى مصر ـ بدأت المتاعب بالفعل ، وبينما كان الشاه يستعد لإجراء الجراحة فى القاهرة تجمع فى أسيوط أكثر من ألفى شخص لإدانة زوجى ، وقد انتهز معظم المتعصبين دينيا فرصة الاضطرابات وبدأوا يلقون خطبا مناهضة للمسيحيين ، وتحول المتظاهرون الغاضبون حينئذ إلى الأقباط وقتلوا العديدين ، وتم استدعاء قوات مكافحة الشغب المزودة بقنابل الغاز المسيلة للدموع إلى موقع الاضطرابات لوضع حد للعنف .

ألا يوجد حد لعدم قدرة المتعصبين على الفهم ؟ ، إن مساعدة صديق فى وقت الشدة مثلما ساعد زوجى الشاه هو مبدأ أساسى فى الإسلام ، وتقول إحدى آيات سورة النساء ـ وهى السورة الرابعة بالقرآن ـ « وبالوالدين إحسانا وبذى

القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب » .

ومنذ زمن « المسيح عيسى » الذى فرت أسرته إلى مصر طلبا للحماية ، قدمت مصر عادة حق اللجوء للاجئين السياسيين ، وقد عاش الرئيس اليمنى السابق عبد الله السلال كضيف على الحكومة فى مصر ، وأيضا قرينة وأسرة كوامى نكروما رئيس غانا ، وملك اليونان السابق بول والملك « زوغو » ملك ألبانيا كلاهما عاش فى مصر فى المنفى ، وكذلك كان من قبل أيضا الرئيسان التونسى الحبيب بورقيبة والجزائرى هوارى بومدين ، وقد رحبت مصر بالملك إدريس ملك ليبيا والملك سعود ملك السعودية بعد إبعادهما عن الحكم ، وقد منح أنور جوازات سفر مصرية مرة أخرى لأسرة الملك فاروق وعاد بعض أقاربه ليعيشوا فى بلادنا .

أما الآن فإن المتعصبين يصفون زوجى « بالكافر » لاستمراره فى اتباع تقليد الضيافة والمساعدة ، وكم كانوا مخطئين ، فلم يكن لدى أحد إيمان عميق مثل أنور ، فقد كان يحفظ القرآن كله ، وفى كل رمضان كان يقرأه ثلاث مرات ويقرئه مرة لأولادنا ، وكان ينام والقرآن تحت وسادته ويحتفظ بنسخة أخرى منه على المائدة المجاورة ، وكانت توجد آية قرآنية مكتوبة خلف ساعته ، ولم يكن يترك إحدى الصلوات الخمس تفوته ويكثر من السجود ويطيل وهو ما أدى إلى بروز علامة الصلاة على جبهته وهى ما تعرف عندنا باسم « الزبيبة » وفى أيام الجمع كان أنور يذهب إلى المساجد دون انقطاع ، وعادة كان يغير مكان الصلاة ليستمع إلى خطب الجمعة من شيوخ مختلفين ، وأكثر أهمية من ذلك كان أنور يدعم إيمانه بالالتزام بمبادىء الإسلام .

أما إسلام المتعصبين فكان يتسم بالكره ، وهجماتهم على الأقباط فى أسيوط جعلتنى أشعر بالمرارة ، وكانوا يستغلون الجدل الدائر حول الشاه ليحققوا ما كانوا يسعون إلى تحقيقه بالوسائل الأخرى ، تدمير الانسجام بين المسلمين والمسيحيين ، ولأكثر من عام استمعت إلى شائعات عن تحرش أعضاء الجماعات

الإسلامية المتطرفة بالأقباط فى المنيا وأسيوط وهما الأقليمان اللذان يوجد بهما أكبر نسبة من السكان الأقباط ، وفى يناير عام ١٩٨٠ قامت جماعة من المتطرفين تطلق على نفسها اسم « الجهاد » بتفجير كنيستين فى الاسكندرية ، ولم يقتل أحد من الأقباط وألقى القبض على أعضاء الجماعة .

وأخذت تقارير أعمال العنف ضد المسيحيين تنتشر داخل القاهرة ، وخلال نفس الأسبوع وبينما كانت أسيوط تشهد مظاهرات ، أصيب العديد من الطلاب عندما وقعت اشتباكات أخرى بين الطلاب الأقباط والمسلمين فى بيت للطلبة فى الاسكندرية ، وفى ٣٠ مارس احتج الأنبا شنودة بطريرك الأقباط على الحادث بإلغاء كافة احتفالات عيد القيامة ومن بينها تبادل التهانى بينه وبين زوجى ، وفى الثالث من أبريل نظم خمسة آلاف من الطلاب المسلمين مظاهرات مناهضة للشاه والأقباط معا ، وفى ٨ أبريل لقى اثنان مصرعهما وأصيب ٣٥ آخرون .

وفى مايو بدأت الشائعات تزداد بقوة . وأخبرتنى إحدى الصديقات القبطيات : « إن المتعصبين الدينيين يختطفون الفتيات المسيحيات ويجبرنهن على الزواج من مسلمين » وقال آخر « ان الكنائس تحترق فى أنحاء البلد » وأدعت منشورات الجماعات المتشددة أن القوات الحكومية فتحت النيران على المسلمين خلال حادث المنيا ـ وهو ما لم يكن صحيحا على الإطلاق ، وكان المتشددون المسيحيون يبالغون فى ترديد الشائعات فى محاولة لإجبار الحكومة على إقرار قوانين جديدة تحمى المسيحيين ، وكان المتشددون المسلمون يبالغون فى ترديد الشائعات لحمل الناس على معاداة الحكومة ، ولم يكن أحد يعرف من يصدق .

وقد أدى حادث عنيف تورطت فيه الولايات المتحدة إلى زيادة الأوضاع سوءا ، فعلى الرغم من أن أنور كان يعلم أن أعضاء الجماعات الإسلامية (المتشددين) سيرفضون ما سيقدم عليه إلا أنه وافق على السماح لفريق إنقاذ أمريكى باستخدام قاعدتنا الجوية فى « قنا » كقاعدة إنطلاق فى المحاولة التى قامت بها فى شهر أبريل لإنقاذ الرهائن الأمريكيين فى إيران وكانت المهمة بمثابة كارثة ، فالأمريكيون لم يكونوا معتادين على تقلبات الصحراء وخداعها ، وخلال

عاصفة رملية سقطت طائرة هليكوبتر وتحطمت طائرتان ولقى ثمانية أشخاص مصرعهم ، وفوجئت وفوجئنا جميعا بأن عملية عسكرية تقوم بها دولة عظمى مثل الولايات المتحدة تنتهى إلى فوضى وتخبط ، وبذا أصبح لدى أنصار الخمينى فى مصر ذخيرة جديدة يوجهونها صوب أنور ، وكان عليه أن يتحرك بسرعة .

وخلال شهر اقترح أنور حلا سياسيا لمشكلة العنف الدينى ، وعين لجنة من المسلمين والأقباط فى البرلمان للتحقيق فى التقارير الخاصة بالتوتر الدينى ، وبعد أن درس نتائج تحقيقات اللجنة ، اتخذ أنور موقفا عادلا من مشكلة الطائفية ، ومن أجل إعادة الثقة لستة ملايين مسيحى فى مصر أمر باتخاذ إجراءات فعالة ضد كافة المنظمات التى تشيع التعصب الدينى ومن ضمنها الجماعات المتطرفة فى الجامعات ، وكنوع من التنازل للمتشددين المسلمين اقترح أنور تغيير بعض نصوص الدستور المصرى ، فبعد أن كان الدستور ينص على أن « الشريعة الإسلامية » هى « مصدر » رئيسى للتشريع فى مصر اقترح أنور أن تكون الشريعة هى « المصدر » الرئيسى للتشريع فى مصر . وقد عارض أكثر الأقباط تشددا هذا الإجراء إلا أن ٩٨ فى المائة من الناخبين المصريين وافقوا عليه فى استفتاء عام أجرى فى مايو عام ١٩٨٠ .

والحكومة أيضا أيدت أنور بقوة ، وبنفس القوة رفضت أن تصدقه عندما أعلن فى الربيع قراره بالتقاعد عن الحكم فى عام ١٩٨٢ ، أى قبل عامين من انتهاء الفترة المحددة لرئاسته ، وكنت فى الاجتماع السنوى للجنة المركزية للحزب الوطنى عندما أعلن أنور قراره ، ولكن أعضاء الحزب أخذوا يرددون « للأبد . . للأبد ، يجب أن تبقى للأبد يا سادات » ، وابتسم أنور إزاء حماسة وإصرار حزبه ، وكان واضحا أنه سعيد ، وبعد وقت قليل من الاجتماع تم إقرار تعديل دستورى برفع النص الذى يحدد مدة الرئاسة بفترتين فقط ، وبذلك أصبح لأنور الحق فى أن يسعى للفوز بفترة رئاسة أخرى مدتها ست سنوات ، وهو أمر لم تكن لديه رغبة فيه .

وقد حذرت أنور « أنهم لا يصدقون أنك ستستقيل ، يجب أن تتقاعد بالفعل

ولا تكتفى بأن تقول فقط أنك ستفعل . .

وقال لى « لا تقلقى يا جيهان . . بمجرد استردادنا لكل سيناء فسوف أسلم الحكم لمبارك ، لن أكون كالممثل العجوز الذى يظل باقيا على خشبة المسرح طويلاً بعد أن يشعر المشاهدون بالملل منه » .

وفى هذا الوقت كان باديا أن ناخبى زوجى يشعرون بالرضى ، فبعد موقف أنور الجديد إزاء المتعصبين المسلمين شعر البابا شنودة بالرضى فرفع هو ورفاقه الحظر على احتفالات الأقباط ، حتى أعضاء الجماعات الإسلامية (الأصوليون) أنفسهم الذين كانوا دائمى الشكوى لم يستطيعوا إخفاء رضاهم عن التعديل لجديد الذى أدخل على الدستور .

وبينما بدأت الأزمة الدينية تخف حدتها ، أخذ أنور يتحرك لمواجهة الأزمة الاقتصادية ، فمنح مساكن خاصة لموظفى الحكومة ورفع أجورهم بنسبة ١٠٪ وخفض الرسوم المفروضة على الواردات ورفع الحد الأدنى للأجور بنسبة الثلث تقريبا واستمر فى تقديم الدعم الحكومى للسلع الأساسية مثل الخبز والوقود وزيت الطعام والكهرباء والسكر ، وبدأ البؤس الذى كان يخيم فوق الفقراء وأكثر الناقمين تخف حدته ، ولكن لم يكن أى شىء يفعله أنور يمكن أن يرضى كافة الأطراف فى تزايد التخبط بالشرق الأوسط .

وفى أحد أيام شهر يونيو عام ١٩٨٠ أبلغنى أنور « بأن تهديداً آخر جاء بالبريد » فقد أعلن الفلسطينيون أنهم سوف يختطفونك إذا ظهرت فى مؤتمر المرأة الذى سيعقد فى كوبنهاجن » .

وبقيت صامتة .

واستطرد أنور : « إننى لن أمنعك من الذهاب يا جيهان » ولكن عليك أن تحددى ما إذا كان ذلك يستحق المخاطرة » .

وأجبت بعد لحظة « حسن يا أنور . . دعهم يفعلون ما يريدون ولكنى سأذهب » .

ولم يكن هناك أى احتمال لأن أتغيب عن مؤتمر المرأة الذى عقد تحت رعاية الأمم المتحدة فى يوليو ، فلقد تعلمت الكثير فى المؤتمر الأول الذى عقد قبل خمس سنوات فى المكسيك حيث التقيت مع بندرانيكا رئيسة وزراء سيريلانكا ، ونصرت بوتو حرم رئيس الوزراء الباكستانى وأخريات كن يعملن من أجل تحسين وضع المرأة فى بلادهم ، واستمعت إلى أشياء عديدة ساعدتنى فى عملى بمصر ، وقد رفضت أن التقى فى المكسيك مع حرم اسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى وقتها ، ولكن خلال هذا العام فى كوبنهاجن كان بإمكاننا أن أتحدث مع أعضاء الوفد الإسرائيلى كأصدقاء ، لقد كان الفلسطينيون هذه المرة هم الذين أعلنوا أنفسهم أعداء لى .

كان المطار مكدسا برجال الأمن عندما نزلت أنا وأعضاء الوفد المصرى فى كوبنهاجن فقد نشرت صحيفة دانماركية موضوعا عن وجود خطة لاختطافى ومن ثم فإن الحكومة الدانماركية قررت أن تعمل على تجنب أية كوارث ، وانتشر عدد كبير من الحراس الخصوصيين فى سفارتنا حيث كنت أقيم ، وأمام الغرف التى كنت أتوجه إليها فى المؤتمر وفى المستشفيات ودور المسنين التى كنت أزورها ، وحتى فى حدائق التيفولى كانت هناك حراسة مشددة ، فقد لجأ الفلسطينيون لوسائل أخرى للهجوم على ، ولأنه ليست لهن دولة فإن السيدات الفلسطينيات تمت دعوتهن للمؤتمر كمراقبات وكنت قد التقيت فى القاهرة قبل عدة سنوات بالعديد من السيدات الفلسطينيات ومن بينهن رئيسة الوفد الفلسطينى ليلى خالد ، وكانت ليلى تبدو لطيفة وكانت سيدة خجولة فى الغالب فى هذا الوقت ، ولكن ذلك كان قبل أن تشترك فى اختطاف طائرتين أمريكيتين ، أما الآن فى كوبنهاجن فقد كانت جافة جدا ترتدى ملابس القتال وبينما كنت أعقد مؤتمرا صحفيا أتحدث فيه عن التزام العرب بإقامة السلام مع جيرانهم كانت ليلى تقول للصحفيين أنه بسبب عدم اعتراف إسرائيل بفلسطين ، فإن العنف أصبح هو اللغة الوحيدة التى تركها الإسرائيليون أمام الفلسطينيين .

وخلال كلمتى أمام وفود المؤتمر تحولت ليلى وأعضاء وفدها إلى خصوم ،

فبمجرد أن أمسكت بالميكروفون وبدأت فى الحديث نهض نصف أعضاء الوفد الفلسطينى من السيدات وخرجن من القاعة وسط ضجيج شديد ، وتجاهلت ما حدث وواصلت القاء كلمتى ، ولكن كان من الصعب أن أتجاهل الفلسطينيات اللاتى جلسن فى الخلف لمضايقتى ، وأخذت إحدى السيدات تصيح فى وجهى باللغة العربية « يسقط الخائن . . إن زوجك خان العرب » وواصلت حديثى وكأن قاعة المؤتمر ليس بها أحد غيرنا ولكن فلسطينيات آخريات بدأن يهتفن « خائن ، خائن ، السادات خائن » وكانت أصواتهن مرتفعة جدا بصورة تحول دون استمرارى فى القاء كلمتى ، وقلت لنفسى تظاهرى إنك لا تسمعين يا جيهان فالآخرون فى القاعة لا يعرفون العربية ، ولكن الصيحات تزايدت وعلت وتوقفت فقط عندما أشارت إلى رئيسة المؤتمر بالتوقف ، ولكن الفلسطينيات لم يتوقفن .

وكل ما استطعت أن أقوله هو جملة لشكسبير (السفينة تسير والكلاب تنبح) واستشهدت بهذه الجملة من « الملك لير » والقيتها عبر الميكروفون باللغة الانجليزية حتى يتمكن الجميع من فهمى ، ولكننى أشك أن الفلسطينيات سمعن كلمة واحدة مما قلت حيث كن فى هذه اللحظة مشتبكات مع البوليس الذى جاء لتهدئتهن ، واضطرب الاجتماع مرة ثانية بعد لحظات عندما نهض الوفدان الإيرانى والعراقى وغادرا القاعة تعاطفا مع الفلسطينيات ، وأكملت كلمتى حتى نهاية جلسة المؤتمر .

كم كان مخجلا ومخزيا موقف هؤلاء السيدات العربيات فى المؤتمر ، كنت أعتقد أننا جئنا إلى كوبنهاجن لمناقشة نقاط الالتقاء ولكنهن أنزلقن فقط إلى الخلافات . . انه من حق أى وفد ألا يستمع إلى الخطبة التى لا يريد الاستماع إليها ، ولقد قررت عدم الاستماع إلى كلمة سيدة إيرانية زعمت أن قانون الخمينى الجديد الذى يلزم النساء بارتداء الحجاب يمثل تقدما للسيدات لأنه يوفر لهن أموال المكياج ويشجعهن على الراحة المطلوبة فى المنزل ، ولكن مع ذلك لم أكن مطلقا مثل الوفد الفلسطينى لقد حز فى نفسى وآلمنى أن يتم إخراج السيدات العربيات من قاعة المؤتمر بالبوليس بينما العالم بأكمله يرقب ذلك .

لقد جعلنى سلوكهن حزينة ، فقد كنت دائما أبذل أقصى جهدى لكى أكون مترفقة إزاء الفلسطينيين ، ولم أهتم بالمرات العديدة التى هاجمونى أو هددونى فيها لأننى كنت متعاطفة مع قضيتهم ، ولكن فى بعض الأوقات كان ذلك صعبا ، وعلى سبيل المثال عندما كنت فى طريقى من القاهرة إلى الاسكندرية عبر الطريق الصحراوى ، مررت بسيارة مقلوبة وقد سقط السائق على الأرض مضرجا فى دمائه وكانت سيدة مسافرة تجلس إلى جواره تبكى وهى فى صدمة .

وطلبت من السائق أن يوقف السيارة . وأخذت حقيبة الأسعافات الأولية التى أحتفظ بها عادة فى السيارة وأسرعت لمساعدتهم . . وصاح المصاب « بارك الله فيك يا أخت جيهان . . بارك الله فيك يا أمى » . . وكان الرجل المصاب يتحدث بلهجة فلسطينية عندما كنت أمسح الدماء من على وجهه وأطهر الجروح التى كانت فى عنقه بمطهر طبى . وقلت له لأهدىء من روعه « لا تقلق . . ذلك أمر بسيط » .

وصاح الرجل مرة ثانية : « الله يحفظك يا أخت جيهان » . . ولكن بتأثر أكبر وبعد أن نظفت الكدمات ومحوتها من عينيه وفمه استطعت أخيرا أن أرى وجهه بوضوح لقد كان فتحى شقيق ياسر عرفات وهو طبيب يعمل فى الهلال الأحمر الفلسطينى فى هليوبوليس .

وفى الحال توجهت إلى الراكبة ـ أنعام ـ وهى شقيقة عرفات ، لعدة أسابيع ظل الفلسطينيون وياسر عرفات يهددون بقتل زوجى ويدينون أنور علنا لإقامة السلام مع إسرائيل ، والآن وجدت هؤلاء الاثنين أمامى فى حاجة إلى مساعدة . ولم يسعنى إلا أن أنسى ما هو قائم بيننا وأن أتذكر فقط السبيل الإنسانى للمساعدة ، وقلت لأنعام بعد أن هدأت من روعها وأعطيتها بعض « النوشادر » : « سوف يأخذ حارسى الخاص شقيقك إلى المستشفى وأنت سوف تكونين على ما يرام . . أما أخوك فهو فى حاجة إلى بعض الأسعافات البسيطة » . . .

وعندما رحلا اتصلت فى الحال لأتأكد أن الأطباء باشروهما بعناية ، ولم أعرف ماذا حدث بعد ذلك لأنه لا فتحى ولا إنعام اتصلا بى بعد ذلك مطلقا ،

وذلك لم يكن بالأمر الهام فإننى ما كنت أهتم به ولا أدع السياسة تجردنى من إنسانيتى .

وكان ذلك هو الدرس الذى تعلمته في عام ١٩٨٠ : أن أملك نفسى فى أوقات الشدة ، وبمجرد عودتى إلى مصر قادمة من الدانمارك تعلمته مرة أخرى ، فقد اتصل بى أنور فى المؤتمر ليخطرنى بأن الشاه مريض مرة أخرى وعندما توجهت مع فرح وأولادها لزيارته عرفت أن أجله قد اقترب . .

كان الشاه أكثر نحافة وأكثر شحوبا فى ذلك الوقت عما رأيته فى أى وقت من قبل ، كان يتنفس بصعوبة بالغة ، ومع ذلك لم يكن هناك ما يثير الشفقة عليه ، ولم يكن ضعيفا مطلقا ، على العكس ، كان من الممكن أن يقال عن الطريقة التى يستند بها إلى الوسائد فوق سريره أنه لا يزال مقاتلا ، وأكد الأطباء أنه يعانى من آلام حادة بسبب السرطان ولكن لم يكن الشاه يشكو على الاطلاق إن الله بالتأكيد كان يحب هذا الرجل ليعطيه صبرا يساعده على تحمل المصاعب بقوة ، هكذا أيقنت عندما كنت أقف بجواره فى غرفة العناية المركزة . .

وقلت للشاه « قريبا ستكون أفضل وسوف نقضى معا وقتا طيبا فى الاسكندرية » وكنت أنظر الدموع فى عيون فرح وأقول لها « كونى شجاعة ولا تظهرى مشاعرك أمامه ، إنه ذكى جدا وسوف يفهم » . . وتوفى الشاه بعد ذلك بيومين فى ٢٦ يوليو ١٩٨٠ ، ولم تكن هناك جنازة رسمية أكثر هيبة من جنازته ، فقد أشرف أنور على إعداد كل شيء بنفسه حتى أصغر التفصيلات ، وتقدم الموكب الجنائزى آلاف الطلاب من أكاديميتنا العسكرية وكانوا جميعا يرتدون زيا أبيض وأصفر وأسود تبعا لرتبتهم ، وفى أعقابهم سار جنود يحملون أكاليل الزهور وبعدهم سار جنود يمتطون ظهور جيادهم ، ثم جاء بعدهم فريق من الأشخاص يحملون نياشين الشاه العسكرية على وسائد سوداء مخملية ، ويسيرون أمام النعش الذى تم تغطيته بالعلم الايرانى وكانت تجره ثمانية خيول عربية على عربة عسكرية وجئنا نحن فى الخلف . .

وكان يوما شديد الحرارة من أيام الصيف فى القاهرة ، بينما كنا نسير مسافة ثلاثة أميال من قصر عابدين إلى مسجد الرفاعى حيث تم دفن الشاة . وكان والد الشاه قد تم دفنه فى نفس المكان قبل أن يستعيد الشاه رفاته إلى إيران ، وبناء على تعليمات أنور كنت أسير مع فرح ، وكانت تلك المرة الأولى والوحيدة على الاطلاق التى سرت فيها فى موكب جنائزى . وقال لى أنور : « افعلى أى شىء تفعله فرح ، يجب أن نساعدها على تجاوز اليوم الحزين العصيب ، وهكذا بقيت إلى جوارها أسير إلى جانب أولادى وأولادها . وكان وزراء الحكومة المصرية يسيرون معنا وأيضا الرئيس الأمريكى السابق نيكسون ، وملك اليونان السابق « قسطنطين » ، وممثلون للولايات المتحدة وألمانيا الغربية وفرنسا وإسرائيل ، وعدد لا يحصى من المواطنين المصريين ، وقد اصطف الناس على طول الطريق . وفى الشرفات وفوق الأسطح ليشاهدوا موكب الجنازة ، كانت أصوات الموسيقى أعلى من أى موسيقى سمعوها من قبل ، وكانت تتزين بزهور أكثر مما يتخيل أى شخص ، لقد كانت أعظم جنازة مهيبة شاهدها أى واحد منا فى مصر ، كما كانت الفرصة الأخيرة لنظهر للعالم أن الشاه يستحق أكثر من الطريقة التى كان يعامل بها ، فمصر على الأقل لم تدر ظهرها لصديق .

وبعد أربعة أيام من رحيل الشاه جاءت المأساة التالية عندما أعلن الكنيست الاسرائيلى القدس عاصمة موحدة لاسرائيل لا يجوز تقسيمها ، لقد كان أمرا سيئا للغاية أن ينتهك الاسرائيليون اتفاقات كامب ديفيد باستمرار فى بناء مستوطناتهم فى الضفة الغربية ، لقد كان أمرا سيئا أيضا أن يمر موعد مباحثات الحكم الذاتى للفلسطينيين منذ شهرين دون إحراز أى تقدم . . . ، ولكن كان عارا على الاسرائيليين أن يجعلوا من مدينة القدس المقدسة عاصمتهم الوحيدة . إن القدس مدينة تؤوى نحو مائة ألف مسلم فضلا عن أنها مقدسة لدى ٨٠٠ مليون آخرين .

وإذا كان الاسرائيليون يريدون جزءا من المدينة فكان ينبغى أن يتركوا القدس مقسمة كما كانت قبل حرب ١٩٦٧ ، وقد فجعنا جميعا بهذا الاجراء . فى السعودية دعا الملك إلى الجهاد ضد الصهيونيين ، كما دعا إلى ذلك أيضا كل

الزعماء العرب الآخرين وكان من الصعب على أنور أن يكظم غضبه إزاء إسرائيل ، وسألنى بألم : فى صف من هم ؟ بدلا من أن يتعاونوا معى فإن الاسرائيليين يضعوننى فى مأزق بعد آخر ، إنهم يبدون كما لو كانوا قد انضموا إلى العرب لمحاربة مصر والسلام .

وكان الاسرائيليون سيبددون تأييد عملية السلام مرة أخرى فى عام ١٩٨١ ، عندما قصفت المقاتلات الاسرائيلية المفاعل النووى فى العراق بعد يومين فقط من اجتماع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل وزوجى فى سيناء ، ولم يخطر بيجين أنور بشىء عن هذه العملية ، ولكن بالطبع المعارضين لأنور فى الداخل زعموا أنه فعل ذلك ، وعلى الفور استدعى زوجى الذى فجع بالخداع الاسرائيلى السفير الاسرائيلى إلى منزلنا فى الاسكندرية للاحتجاج على هذا العمل الاستفزازى الأخير . . ولم أشاهد أنور من قبل فى مثل هذه الحالة من الغضب ، لقد كان غضبه شديدا لدرجة أن صوته وصل إلى غرفتى فى الطابق الثالث . والآن فإن الصحف والمجلات التى تصدرها أحزاب المعارضة المصرية ستمتلىء بالمقالات المناهضة لاسرائيل ، ففى كل خطوة سلام كان زوجى يتخذها كان الاسرائيليون يعودون للخلف خطوات . . وكان الوعاظ فى كل مساجد مصر يقولون فى خطب الجمعة بعد قرار ضم القدس . . يجب أن نحرر القدس من الصهاينة . . يُجب أن نستعيد المسجد الأقصى بالقوة إذا اقتضى الأمر ، وكانت الخطب التى يلقيها شيوخ المتطرفين بصفة خاصة تحظى بإقبال كبير . ففى المساجد وفى قاعات الاجتماعات وفى غرف محاضرات الجامعة والمدرجات كان المتشددون يحتشدون ، واكتسبت حملتهم المزيد من المؤيدين لهم والمعارضين للسلام مع إسرائيل ، وكان الناس يقبلون على شراء شرائط تسجيل أحد الشيوخ كما لو كانت شرائط منوعات موسيقية . ولم يحدث مطلقا أن طرق المتعصبون باب غرفتى ليطلبوا من الطلاب وقف دراستهم لأداء الصلاة ، ولكن كنت أستطيع أن أسمعهم وهم يجيئون ويذهبون عبر القاعات ، وبصورة متزايدة أصبحوا أكثر تشددا وعنفا ، وفى إحدى المرات اندفعوا إلى داخل إحدى القاعات حيث كان الطلاب يجرون بروفات مسرحية وأجبروهم على النزول من خشبة المسرح بالسكاكين ، ورروعت

فى اليوم التالى عندما جاء العديد من الطلاب ليطلعونى على الجروح والكدمات البالغة التى أصيبوا بها فى أذرعهم وأرجلهم ، وكان رئيس اتحاد الطلاب يرتدى جبيرة ، فقد كسر المتطرفون ذراعه .

وفى الجامعات الأخرى خارج القاهرة كانت الأنباء أسوأ بكثير . . ففى الاسكندرية اقتحم الشبان الذين يرتدون الجلاليب ويطلقون لحاهم مكتب العميد وهددوه بالموت إذا لم يحظر التعليم المختلط والموسيقى الغربية والدراسة أثناء مواقيت الصلاة ، وقال العميد لهم اقتلونى إذا كنتم تريدون ولكن لن أستجيب لتهديداتكم ، وبعد ساعات من المفاوضات ترك المتعصبون رهينتهم ، ولكن بعد وعد بأن يجلس البنون فى ناحية وتجلس البنات فى الناحية المضادة فى كل فصل دراسة .

وفى أسيوط بدأ المتعصبون ثورة بالفعل ، فعندما كانوا يشاهدون رجلا وامرأة يسيران معا فى الشوارع كانوا يوقفونهما ويقولون لهما أطلعانا على وثيقة زواجكما ، وبدأ الشباب الملتحون فى استعمال العصى لضرب الفتيات على سيقانهن إذا لم تكن « الجيبات » اللاتى يرتدينها تصل إلى كعوب أقدامهن وانضم الطلاب الأعضاء فى الجماعات الاسلامية المتطرفة لقوات المتشددين خارج الجامعة وأخذوا يدمرون محلات التليفزيون فى المدينة ويكتبون كلمات مثل محل الخطيئة « على نوافذ محلات صالونات الحلاقة واستوديوهات التصوير ، وأمروا كل التجار بإغلاق متاجرهم خلال إقامة الصلاة ، وليلة بعد أخرى أخذت الأخبار تنقل بعض أعمال العنف الجديدة التى ارتكبها المتعصبون فى أسيوط . .

وفى كل صباح من خريف عام ١٩٨٠ كنت أقرأ صحف المعارضة فى الفجر وأبلغ أنور بما فيها ، كنت أذهب لأوقظه ولكن أنور نفسه كان قد توقف منذ فترة طويلة عن قراءة صحف المعارضة ، وقال لى : « إننى أعرف ماذا سيقولون » ، ومن ثم فما هى الفائدة من قراءة أكاذيبهم ومبالغاتهم ؟ ويضيف : « عندما يمارسون حريتهم بمسئولية فحينئذ سأقرأ » . وعلى الرغم من أنه كان يدرك جيدا خطر المتشددين ، إلا أنه كان يرفض اتخاذ إجراء ضدهم وقال خلال نزهة لنا فى

الحديقة « ما فائدة الديمقراطية إذا وضعت كل معارض لى فى السجن ، فى الوقت المناسب سوف أتصرف وأختار أفضل الطرق » فلقد كان حائرا بين مبادئه والخطر المتزايد .

ولكن ماذا كان طريقه ؟ طوال هذه الفترة الصعبة كلما أصبحت أنا أكثر عصبية كان أنور يزداد هدوءا ، مثلما كان هادئا خلال ثورة التصحيح ، ومثلما كان هادئا أيضا قبل هجومنا المفاجىء فى حرب ۱۹۷۳ وقبل زيارة القدس .

وكان خطر الحرب الأهلية يزداد بصورة تدعو لاتخاذ إجراء حاسم ولكن أنور أراد أن يجعل التحرك ديمقراطيا وخطوة خطوة ، وكانت هناك بالفعل دلائل على محاولاته الجديدة لارضاء المتشددين ، فقد بدأت إحدى محطات الراديو تذيع القرآن بدون توقف ، ووجهت أوامر للتليفزيون لكى يذيع آذان الصلوات الخمس فى مواقيتها على الهواء ، وتم تخصيص فصول دراسية للقرآن والحديث فى المدارس الحكومية ، وتم تخصيص ٢٥٠ مليون جنيه لبناء مساجد جديدة فى العديد من أحياء القاهرة الفقيرة ، ولكن فى كل مسجد فى القاهرة وفى العديد من الزوايا وأيضا فى الشوارع كان لا يزال هناك رجال ملتحون مستمرون فى جمع التبرعات .

وبدأ أنور يمضى المزيد من الوقت فى المنزل يصلى ويقضى فترات فى الحديقة ، وتفرغت كلية لعملى فى الجامعة وكان أصدقائى وأولادى وحتى أنور نفسه يسألوننى : « لماذا تجهدين نفسك فى العمل هكذا ؟ وكنت أجيبهم : « إننى أحقق ذاتى فى وظيفتى وأنا أحب التدريس ، وتذكروا أننى لن أكون حرم رئيس إلى الأبد » ، وسرا كنت أحمل فى ذهنى صورة اليوم الذى يتقاعد فيه أنور ويصحبنى فى أجازة إلى أوروبا وإلى الغابة السوداء كما وعدنى . . وكان المتبقى على المرحلة الأخيرة لعودة سيناء وأيضا على تقاعده أحد عشر شهرا فقط ، وبشىء من الارتياح استقبلت بداية الأجازة الصيفية فى نهاية شهر مايو . فعلى الأقل سأحصل على قسط من الراحة ، ولكن العنف استمر .

فقد شهدت بداية شهر يونيو أسوأ اشتباكات بين المسلمين والأقباط فى

تاريخ مصر ، أعلن المسلمون حقهم فى قطعة أرض اعتزم بعض الأقباط إقامة كنيسة عليها ، وتحول شجار عادى بين الجيران إلى معركة أسلحة ، وأصيب سكان الزاوية الحمراء ـ الضاحية التى وقعت بها تلك الأحداث ـ بالتوتر والاستقطاب الخطر ، وجعلتنى هذه الأخبار أنا الأخرى متوترة فهذه المرة لم تكن الاضطرابات فى أسيوط ، هذه المرة كانت الاضطرابات فى القاهرة .

وبعد خمسة أيام من هذا الحادث اشتبك المسلمون والمسيحيون فى الزاوية الحمراء مرة أخرى ، وارتفع عدد الضحايا إلى عشرة قتلى وخمسة وأربعين مصابا ، وكانت الاشتباكات هذه المرة بسبب ترك أسرة قبطية لماء قذر يسقط على شرفة أسرة مسلمة تعيش تحتها وتشاجرت الأسرتان فى البداية بالكلمات ثم بالحجارة ثم بالمدافع الرشاشة وانضم إلى الأسرتين المارة الذين ينتمون إلى الطرفين وكان ذلك يبدو أمرا غير عادى ولا يمكن تصديقه ولقد كان المتطرفون الدينيون من كلا الطرفين أسوأ من الأطفال ، فقد تركوا أكثر من ألف عام من التاريخ المشترك وحسن الجوار ينهار بسبب بعض نقاط من الماء القذر .

وغضب أنور بشدة بسبب هذه الأحداث كما اغضبت أنا أيضا ، فنحن نعيش مع الأقباط فى القاهرة خلال حياتنا ولم يكن الدين مطلقا سببا للعنف أو حتى لعدم الاتفاق ، فالأقباط جيراننا وأصدقاؤنا ونحن نشاركهم أعيادهم الدينية مثل شم النسيم وخلال أجازات الأعياد فنحن نتخلى عن خلافاتنا ، وكأطفال ـ نعم كنا فى بعض الأوقات نضايق زملاءنا الأقباط فى الفصول المدرسية ، فكنا نأكل ساندوتشات اللحوم أمامهم خلال صومهم عندما يكونون ممنوعين من تناول أى شىء من طعام فيه روح ، فقد كان الأقباط بمقدورهم فقط أن يتناولوا السَلَطة لأنه حتى الجبن ينتج من اللبن ، والبيض نأخذه من الدجاج ، ومع ذلك فإننا نحن الأطفال المسلمين كنا نعتقد أنهم محظوظون لأنهم كانت لديهم القدرة على تناول أى شىء خلال صيامهم . فعندما كنا نصوم فى شهر رمضان كان أصدقاؤنا الأقباط يغيظوننا فى المقابل ويأكلون ساندوتشات ويشربون عصير الفواكه أمامنا فى وقت كنا لا نستطيع فيه أن نأكل أو نشرب أى شىء . .

أما الآن فإن التصرفات اللا مسئولة من جانب المتطرفين أخذت تهدد عهود الثقة القديمة ، وتساءل أنور غاضبا : « لماذا يضيع الناس جهودهم فى محاربة بعضهم فى مثل هذه التفاهات ؟ فما الفرق بين الأقباط والمسلمين إننا جميعا مصريون علينا أن نحتفل معا بعودة سيناء ولدينا أشياء أكثر أهمية يجب أن تشغل بالنا أكثر من الاهتمام بالتفرقة بين القبطى والمسلم . .

ولكن التوتر لم يتلاش وانتشرت الشرطة أمام بوابات كل كنيسة قبطية ، وألقى القبض على ١١٣ شخصا لتورطهم فى أحداث العنف . وفى قرية واحدة فى صعيد مصر تمكن البوليس السرى من اكتشاف أكثر من ثلاثة آلاف قطعة سلاح من بينها مدافع مضادة للطائرات فى مراكز لخلية إسلامية . وقد انتقلت « عدوى » الحمى الدينية من قلة قليلة لتنتشر بين الكثيرين . .

وبدأ المسلمون يضعون القرآن فوق المساند الخلفية والأمامية لسياراتهم وعلى زجاج السيارات كتبوا « لاإله إلا الله محمد رسول الله » وشمر الأقباط عن أذرعهم ليظهروا الصلبان التى طبعها بعضهم عليها وعلى زجاج سياراتهم ألصقوا صور البابا شنودة بابا الأقباط .

حتى البابا شنودة نفسه كان قد ابتعد كثيرا عن دوره كزعيم دينى ليدلى برأيه فى الأمور السياسية ، وبعض رجال الدين الأقباط وضح أنهم أيضا يعملون على زيادة الصراع بدلا من تهدئته ، وكانوا يخاطبونهم قائلين : « إنكم فى خطر وعليكم أن تنجبوا أكبر عدد من الأطفال بقدر استطاعتكم » ، وهو ما أدى إلى زيادة التوتر بين الأقباط . وكان أنور شديد الغضب إزاء المتطرفين الأقباط كما كانوا هم شديدى الغضب إزاءه . .

وجاءتنى رسالة من إحدى صديقاتى العزيزات القبطيات تقول : « من فضلك يا جيهان ابذلى كل جهدك لمصالحة البابا وزوجك فالموقف أصبح أكثر خطورة » ، وحاولت أن أقنع أنور بالجلوس مع شنودة والتحدث معه بهدوء إلا أنه رفض ، وفى نفس الوقت كان موسى صبرى رئيس تحرير جريدة الأخبار وهو قبطى وكان وثيق الصلة بأنور يحاول إقناع شنودة بأن يسعى إلى السلام مع زوجى ،

ولكن المساعى باءت بالفشل « فلم يكن شنودة على استعداد لأن يكون مرنا . . »

ومع حرارة الصيف تصاعد غضب الناس . ففى شهر أغسطس وقبيل ذهابى أنا وأنور إلى أمريكا فى أول لقاء لنا مع الرئيس ريجان وزوجته نانسى تزايدت حدة التوتر إلى درجة الغليان . فقد قتلت قنبلة بعض الضيوف وأصابت آخرين خلال حفل زفاف قبطى فى شبرا وهى ضاحية فى القاهرة تسكنها أغلبية من المسيحيين ، وروعت مرة أخرى بهذه الأعمال الارهابية التى تفتقد الاحساس بالمسئولية كما أصيب أنور بلطمة قوية وأعلن عزمه على معاقبة جميع المتورطين فى هذه الأعمال بمجرد عودته . .

وفى نفس الوقت عاقبنا الأقباط فلم أستطع أن أصدق عينى عندما فتحت صحيفة « واشنطن بوست » فى اليوم الثانى من زيارتنا للولايات المتحدة حيث وجدت إعلانا منشورا على نصف صفحة كتب فيه : « الرجال الأقباط يحرقون أحياء » ثم كتب رسالة إلى الرئيس السادات يقول فيها إن الأطفال يقذف بهم من الشرفات وأن المسيحيين أجبروا على التخلى عن ديانة أسلافهم ، إن الديانة المسيحية تهاجم وأصبحت محل سخرية فى وسائل الاعلام الحكومية . .

وكان إعلان الشكاوى موقعا فى نهايته من قبل اتحادات الأقباط فى كندا وأمريكا . ومضى يقول : « سيدى الرئيس إنك دائما كنت تدين التطرف الذى ترعاه الدولة كما يجسده القذافى والخمينى فلماذا لا تضع حدا لمثل هذا الجنون فى مصر » .

وإذا كان الأقباط قد استهدفوا كسب التعاطف مع مبالغتهم فإنهم نجحوا فقط فى جعل أنور أكثر غضبا ، فبعد قراءته للاعلان صاح أنور بشدة « كفاية » واكفهر وجهه غضبا . ومع ذلك فى نهاية اليوم عاد إلى هدوئه من جديد ، وكان بشوشا خلال تبادل الحديث مع الرئيس ريجان فى حفل عشاء أقيم بالبيت الأبيض كما قضيت أنا أيضا مساء طيبا بحديثى مع نانسى الذى دار حول أبنائنا ومشروعاتنا . فى هذه الليلة نمت قليلا وأصابنى الأرق بسبب صداع كان سيئا لدرجة لم أعرفها من قبل . .

ماذا سيحدث فى مصر ، وماذا نحن فاعلون ؟ لقد تزايدت مخاوفى عندما اتصل المستشار النمساوى كرايسكى بأنور فى واشنطن ونصحه بألا يتوقف فى فيينا فى طريق عودته إلى بلاده كما كان يخطط من قبل وقال كرايسكى : إن اثنين من الفلسطينيين قد اعتقلا فى المطار وبحوزتهما أسلحة أتوماتيكية وقنابل يدوية وأن الحكومة النمساوية تقترح أن تتوجه مباشرة إلى مصر حفاظا على سلامتك الخاصة . .

لقد كان أعداؤ نا فى كل مكان ، ولكن هل كان ذلك حقا غير مألوف وقلت لنفسى سوف نكون على ما يرام متذكرة عدد المرات التى واجهنا فيها تهديدات فى الماضى . وبعد أن عدنا بسلامة الله إلى مصر كان أنور يبدو أكثر هدوءا وثقة عما قبل . وخلال الأيام التالية أجرى مشاورات مع مستشاريه فحصل على آخر المعلومات المتعلقة بأوضاع المسلمين والأقباط ، وقضى مزيدا من الوقت فى المنزل وجلس بمفرده فى شرفته وسار فى الحديقة ، ولقد كنت أدرك حالته ولم أشأ أن أسبب له أى إزعاج وكان أنور يستمع بعناية إلى نصيحة الآخرين وحينئذ فإنه يتخذ قراره الخاص . .

وفى الخامس من سبتمبر وبالضبط بعد أسبوع واحد من عودتنا من أمريكا تحرك أنور بجرأة لاستعادة النظام فى مصر ، فأمر البوليس بأن يعتقل فى ليلة كل أولئك الذين يعتقد أن لهم ارتباطا بالعنف الدينى الأخير وتم اعتقال ١٥٠٠ شخص فى سجون الدولة من بينهم عدد كبير من الشيوخ المتشددين وعدد من رجال الدين الأقباط المعروفين بآرائهم المتطرفة ومئات من هؤلاء كانوا ينتمون إلى الجماعات الاسلامية المتطرفة واحتجزوا لاستجوابهم وتم حظر إصدار مجلتهم كما تم حظر إصدار صحيفتين للأقباط ، والبابا شنودة ذاته منع من الادلاء بأية بيانات سياسية من شأنها أن تزيد حدة التوتر ، وسحب منه سلطاته وتم تعيين مجلس من خمسة أشخاص ليقوموا بمهامه فى حين أبعد أنور البابا إلى دير وادى النطرون فى الصحراء الغربية . .

وتم تقليص نفوذ العناصر النشطة من الطلاب المتطرفين الأعضاء فى

الجماعات الاسلامية وحظر أنور ارتداء الجلباب والنقاب الذى يستر الجسم تماما ما عدا العينين داخل الحرم الجامعى ، وشعر عدد كبير من الأساتذة بالارتياح الشديد ، فأخيرا أصبح بمقدور الجامعات العودة إلى دورها فى تعليم الطلبة ، واعتقل أنور عددا من المشاهير فى صفوف أحزاب المعارضة .

لقد كان وقتا حاسما فى مصر . . وقتا فى منتهى الخطورة ، فعلى الرغم من أن أنور اعتقل معظم معارضيه إلا أن آخرين تمكنوا من الهرب ، كان هناك متآمر واحد على وجه الخصوص يقلقه ، فقبل عدة أسابيع أرسل وزير الداخلية تسجيلا لأنور عن صفقة بين تاجر سلاح وأحد الأشخاص أعلن أنه فى حاجة إلى الأسلحة ليقتل أنور السادات وتم تتبع الرجل إلى منزل « عبود الزمر » وهو ضابط بالمخابرات العسكرية . ولكن عندما توجه البوليس لاعتقال الزمر مع الآخرين فى ٥ سبتمبر كان قد اختفى ، وكان أنور قلقا للغاية من الخطر الذى يمثله الزمر لدرجة أنه ذكره فى إحدى خطبه مؤكدا : « إنى أعلم أن هناك ضابطا لا يزال حرا طليقا وهو بالقطع يشاهدنى الآن . . إننى أحذره أننا سنعتقله أيضا » .

وقد حظى قرار أنور باحتجاز عناصر الشغب أخيرا بتأييد مطلق من جانب وزراء زوجى وأعضاء حزبه ، فلم يكن هناك ما هو أهم من منع أى صراع أهلى خلال المرحلة الأخيرة لعودة سيناء . ففى شهر أبريل ـ أو بعد أربعة أشهر من تلك اللحظة ـ ستكتمل عودة أراضينا . وكنت أعد الأيام ، أتطلع إلى اللحظة التى يتقاعد فيها أنور من الرئاسة وما يحيط بها ، فلدينا بعد ذلك بقية العمر لنعيش معا ولنسافر ونستمتع مع أسرتنا دون هذه التركة المثقلة بالمسئولية والأعباء . . . أربعة أشهر . . إنها فترة قصيرة بالطبع ، ولكن كم كانت تلك اللحظات فظيعة أيضا .

كانت الصحف الأوربية والأمريكية تنتقد زوجى بعنف لاحتجاز عدد كبير من المخربين السياسيين ووصفته بأنه ديكتاتور بدلا من مساندة الديمقراطية ، وتألم أنور بشدة بسبب هجماتهم تلك ، وحاولت أن أهدىء من روعه : « لا تلق بالا لذلك . . لو عرفوا الوضع هنا بصورة أفضل فإنهم سيفهمون ما فعلته » . .

ولكن أنور كان لا يزال مضطربا وكان يقول : « إننى فى حاجة إلى الوقت »

ويقول وهو يقطع الغرفة جيئة وذهابا « ألا يفهمون ذلك ؟ لقد وصلت مصر إلى درجة الغليان ، ولم يكن أمامى خيار سوى محاولة تهدئة الأوضاع بالاعتقال المؤقت لأولئك الذين سيهدمون البلد . . يجب ألا نجهض قرار عودة سيناء . . يجب ألا نفعل » .

وحاولت ثانية أن أهدىء من روعه مؤكدة : إنك على حق يا أنور والأجانب على خطأ .

ولكنه استمر فى الشعور بالمرارة وبأنه طعن ، وقال لا يوجد بديل آخر أفعله غير إطلاق سراح كل أولئك الذين كنت مضطرا لاعتقالهم وسوف أفعل ذلك فورا بمجرد أن يدرك معظمهم ما هو الأفضل لبلادنا وأن يعودوا إلى إحساسهم بالمسئولية . ولكن المتطرفين الدينيين - إننى خائف - لا أستطيع أن أفعل شيئا لهم فمعهم لا توجد نقطة نقاش . .

ولكن انتقادات الغرب وأوروبا لأنور استمرت وسط تهديدات بمؤامرات متتالية ضده .

وكان يقول كل صباح خلال سبتمبر : « أرجوك يا جيهان ، خذى حذرك وحاولى الحد من أنشطتك لعدة أشهر قليلة حتى أشعر أن الأوضاع قد استقرت ، فربما يكون هناك أناس استاءوا من الاعتقالات » .

وضاعفت عدد حرسى الخاص وأولئك المحيطين بجمال حيث كان يعلم أن ولدنا هدف واضح للمؤامرات ، وأنا من ناحيتى توسلت إليه أن يحد من أنشطته ولكنه رفض بل وظهر أكثر وأكثر مع الشعب وفى أواخر سبتمبر قام بزيارة المشروعات الزراعية فى الصالحية والنوبارية وقام بجولة لتفقد مشروعات الاسكان الجديدة فى مدينة السلام وهو يستقل سيارة مكشوفة . .

ولم يكن هناك صباح أقول له فيه إلى اللقاء وأتوقع أن أراه على قيد الحياة فى المساء ، وتوسلت إليه : « أرجوك يا أنور إذا لم تكن تريد إلغاء زيارتك فعلى الأقل استقل سيارة مغلقة أو ارتد بدلة واقية من الرصاص وكان أبناؤنا قلقين

أيضا ، وذات صباح قالت له ابنتنا نهى : « أن أغلبية الشعب تحبك ، نحن نعلم ذلك يا بابى ، ولكن قد يندفع شخص مجنون واحد لقتلك » .

ولكن أنور ازداد تصميما ، وذات صباح أطلعنى على خطاب استلمه ، من رجل أخفاه من البريطانيين منذ ٤٠ عاما بعد هروبه من السجن . وقد دعاه هذا الرجل الذى كان يعمل سائقا والذى لم يره السادات منذ ذلك الوقت ليحضر حفل زفاف ابنته فى المنصورة ، وتأثر أنور كثيرا بهذه الدعوة وجاءته الفرصة ليرد هذا الجميل الكبير بعد العديد من السنوات ، وسألته على أمل إقناعه بالعدول عن القيام برحلة أخرى خطيرة « لماذا لا ترسل هدية بدلا من ذلك ؟ » وقال أنور : « انك تعلمين يا جيهان أن إرسال هدية لا يعادل وجودى هناك » ، وهكذا قبل أنور الدعوة ، وقرر السفر فى قطار مفتوح الشرفات ، وأن يتوقف بعض الوقت فى القرى التى يمر بها فى رحلة السفر وقرر أيضا أن يتجول فى المدينة بسيارة مكشوفة بعد الزفاف .

وقبل أن يغادر القاهرة طالبه حسنى مبارك بأن يخفض على الأقل من عدد المحطات التى سيتوقف فيها القطار ، ولكن أنور رفض أن يستمع حتى إلى نصيحة نائبه وكان يريد بذلك أن يعرف رد فعل الشعب على الاعتقالات . . وعاد من المنصورة بسلام وكان غاية فى السعادة . . إن الناس هناك ظهروا كمؤيدين بشدة لإجراءاته لمكافحة الإرهاب الداخلى .

ولكن كنت غاية فى القلق وبدا أنور بصورة متزايدة يرفض النصيحة من أى شخص ، وأخذ يقضى المزيد من الوقت بمفرده . وكما لو كان يقوم بنوع من رحلة تأملية لا يستطيع أحد أن يقطعها عليه ، وبدا بعيدا ، ليس فى حالة العزلة التى كان عادة يسعى إليها عندما يكون مقدما على اتخاذ قرارات هامة ، ولكن بطريقة أكثر روحية ، وأصبح أقرب إلى الصوفية ، وكان نحيفا جدا . . كان يحرم نفسه من الطعام ويحتسى فقط الشوربة والخضراوات المسلوقة فى وجباته وبدا يتكلم بتكرار عن الموت . .

وثلاث مرات فى سبتمبر قال لى إنه سيقابل ربه ورددت عليه وأنا أمزح فى

أول مرة بينما كنا نسير معا فى الحديقة وسألته : « إنه أمر شيق يا أنور . . متى أخبرك الله إنك ستقابله » ، وفى المرة الثانية أخذت أمزح أيضا على الرغم من أننى أحسست باضطراب ، فهذا ليس السادات الذى عرفته ، الواقعى ، القوى الذى لم يعش مطلقا فى الوهم ، وفى المرة الثالثة ، لم أقل شيئا على الإطلاق .

وفى بداية شهر أكتوبر وخلال جولة أخرى لنا معا قال لى : إن الله منحنى أكثر مما كنت أحلم ، فلقد انتصرنا فى الحرب وانتصرنا فى السلام ، لقد وضعت أسس الديمقراطية فى مصر ، ووضعت مبادىء الرخاء الاقتصادى ، فماذا يريد إنسان أكثر من ذلك ؟ لقد أنجزت مهمتى التى فرضها الله على . .

وسألته : « لماذا تعتقد أنك أنجزت مهمتك ؟ إن الله لا يكشف مطلقا أسراره لأى قلب بشرى . . » .

ولكن إجابته كانت جاهزة « إننى لم أدع مطلقا يا جيهان أنى أعرف أسرار السماء ، ولكنى أشعر أن حياتى بفضل الله أدت دورها . . » .

وبدأ يتحدث عن مكان الدفن ورغبته فى أن يدفن عند جبل سيناء ، ولكن كلما تكلم هو عن هواجسه وما يجول بداخله تحدثت أنا بإسهاب عن الحياة المستقبلية التى نتطلع إليها سويا . .

وسألته بمرح : « إلى أين ستأخذنى أولا ؟ إلى الغابة السوداء فى ألمانيا أم إلى فيينا حيث نستطيع أن نغنى على الدانوب ؟ وأجابنى « آه يا جيهان » وواصلنا السير - ورفضت أن أستجيب أو أستسلم لهبوط معنوياته فلا زلت على هذه الأرض وأريده أن يكون عليها أيضا ، وفى الثانى من أكتوبر قلت له ونحن نسير فى حديقة منزلنا بالجيزة أنور . . إنك تفسد (جمال) لماذا تدعه يذهب إلى أمريكا ، يجب أن تقول له لا . .

وابتسم أنور فى وجهى قائلا . . أريد أن أفعل كل شىء من أجله خلال وجودى على قيد الحياة وسوف ترين أنه ليس مدللا ، فعندما أرحل فسوف يظهر لك أنه رجل بمعنى الكلمة وأنه قادر على تحمل المسئوليات .

وسألته « كيف تعدنى بذلك ؟ إنك سترحل وأنا سأرحل معك » .
ورد « سوف ترين يا جيهان . . سوف ترين . . » .

وفى الثالث من أكتوبر غادر جمال القاهرة متوجها إلى كاليفورنيا ، وعانق والده وعانقنى مودعا وهبط درجات السلم متوجها إلى سيارته ليعلم أن رحلته سوف تتأخر لمدة نصف ساعة ، فصعد السلم ثانية ليمضى الوقت المتبقى مع والده . .

وقال لى جمال فيما بعد : « إن أبى كان يتصرف بغرابة شديدة فى ذلك اليوم ، فعندما تركته قلت له : « لا إله إلا الله » ، ولكنه لم يجب كالمعتاد « محمد رسول الله » ولم يقل أى شىء ، فقط ابتسم : « وقال لا تبق كثيرا فى الولايات المتحدة يا جمال وعد سريعا » .

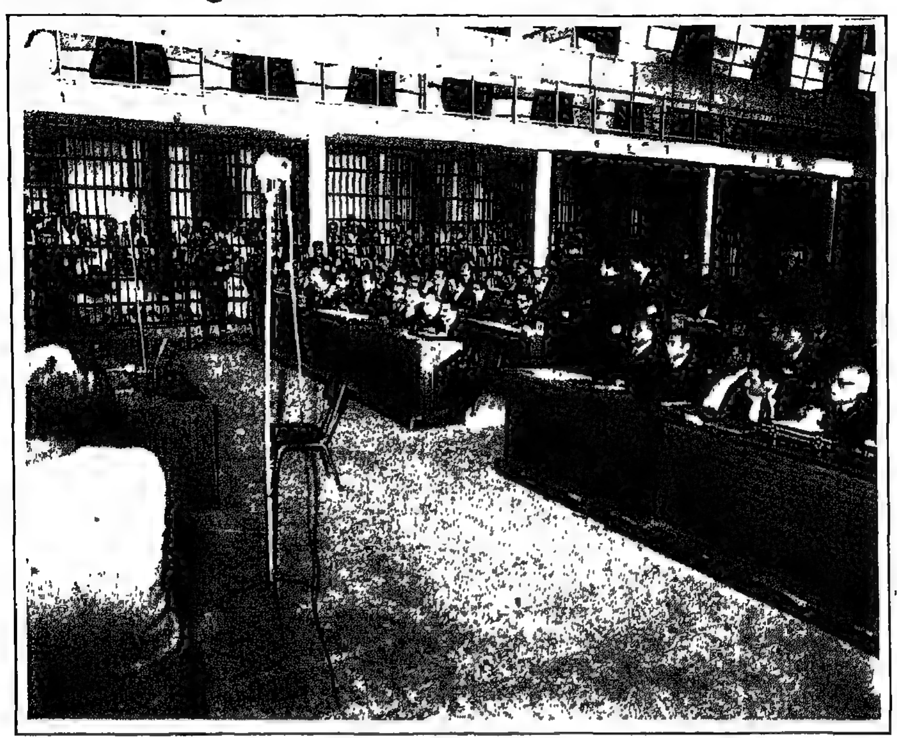
وسألته « وماذا قال أيضا يا جمال ؟ » وأجاب جمال وعلامات القلق على وجهه قال : خذ بالك من والدتك ، وهو لم يقل لى من قبل على الإطلاق هذه الجملة ، وكان عادة يقول خد بالك من شقيقاتك .

وقلت له لأهدىء من روعه : « هذا ما ستفعله فقط » وفى الخامس من أكتوبر قضيت الصباح أعمل فى رسالة الدكتوراة ، وكالعادة لم يكن لدى لحظة أضيعها وحسدت أنور لجلوسه فى الحديقة يحاول أن يقرأ فى حين كانت ياسمين ابنة جمال التى تبلغ من العمر عامين ونصف العام تدور حوله . . لكم كان أنور يبدو مسلما وسعيدا من نافذتى ، كان يتطلع كما أعلم للعرض العسكرى فى اليوم التالى ، واستعدادا لهذا اليوم أعددت حلته الجديدة وكويت وشاحه الكبير وأرسلت حذاءه « البوت » لتلميعه ، « وباستثناء جمال فقد كان كل أولاده وأحفاده يعتزمون الحضور ليشاركونا إحياء الذكرى الثامنة لانتصارنا على إسرائيل ولن يكون هناك خطر من أفراد القوات المسلحة فى العرض العسكرى فإن السادس من أكتوبر يوم عيد وفرصة لنا جميعا وهو يوم راحة من التوتر الذى كان يجتاح قلبى ، وفى هذا اليوم بالذات لا يجب أن تكون هناك سحابة واحدة فى سماء مصر تعكر صفونا فى هذا اليوم العظيم .



الفصل الرابع عشر

الحزن بلا نهاية



انقلب النهار إلى ليل ، والليل إلى نهار . ومضيت فى الشكليات التى أعقبت وفاة انور بشكل آلى ، متقبلة التعازى من اصدقائى ومن زميلاتى فى مشروعاتى ومؤسساتى الخيرية ، ومن رجالات الحكومة فى القاهرة وفى المنوفية ، ومن قادة العالم الذين جاءوا لجنازة أنور ، ومن بينهم ثلاثة رؤساء سابقين للولايات المتحدة الأمريكية ، وأمير ويلز ، ورئيس وزراء اسرائيل مناحم بيجين ، وقلت لبيجين الذى كان شاحب الوجه من الصدمة والحزن :

ـ انه لأمر محزن جدا ، ولكننى فخورة أن زوجى مات واقفا على قدميه . وفى يوم ذكرى انتصاره .

فقال :

ـ لقد فقدت شريكا فى عملية السلام ، بل صديقا ايضا .

وجاء مئات من الناس ليقدموا عزاءهم خلال الأيام الثلاثة الأولى ، بينما

بدأت تصل آلاف من رسائل المواساة . وأعطانى الاطباء مسكنات للتهدئة ، ولكن النوم طار من عينى تماما . ظللت أفكر فى أشياء كان على أن أقولها لأنور ، فى أشياء أردت أن أشاركه فيها ، وفجأة أتذكر عندئذ ، لقد ذهب أنور .

وكنت كل يوم ، فى البداية ، اتسلل من منزلنا لزيارة قبره ، لأشعر بقربه ولاهدىء روحه . وكنت اواسى نفسى ، إن انور فى الفردوس ، فلقد مات انور شهيدا حين لقى مصرعه برصاص مغتال بهذا العنف ، والشهداء فى الاسلام ينتقلون إلى الفردوس مباشرة ، ولقد بورك أنور مرتين : فإن الله قد أخذ روحه بسرعة وبأقل معاناة ، والله سبحانه يجنب الألم هؤلاء الذين يحبهم أكثر .

وبالرغم من أنى كنت أعرف دائما ان زوجى سوف يقتل لشجاعته ولرغبته فى السلام ، فلم أكن مهيأة لذلك . لقد تحطم قلبى .

وكان الناس الذين يحبوننى يقولون ، وهم واقفون فى ذهول وحزن ، عند قبر زوجى ، كلما ذهبت حتى فى أوقات متأخرة من الليل :

ـ فليباركك الله يا سيدتى .

ـ الله معك يا سيدتى .

وكان بعضهم يصلى ، وبعضهم يبكى ، والبعض الآخر يحملق فقط فى ذهول .

وكان اولادنا محطمين .

وقال جمال وهو فى أعماق أحزانه ، وهو الذى كان يجلس دائما خلف أبيه فى احتفالات السادس من اكتوبر :

ـ لو كنت معه فقط ، لكنت دفعته على الفور إلى الأرض ، والقيت بجسمى فوقه .

وكنت أحاول ان اهدىء من ولدنا قائلة :

ـ لا يا جمال ، ان حياته ليست فى يديك ، ولكنها فى يدى الله سبحانه

وتعالى ، ولا أحد كان يستطيع ان يفعل شيئا لتأجيل أجله .

ولكن جمال كان مكسور النفس وظل لمدة شهور بعد ذلك فى حزن عميق ، شاعرا انه قد تخلى عن ابيه .

وعانت ابنتنا الصغرى ، نانا ، ايضا بشكل فظيع . فكانت تزور قبر أبيها كل يوم لمدة شهور ، وتأتى للبيت كل مرة والدموع تنهمر على خديها . ولم تستطع التخلص من حزنها ، وكنت أخاف أن يكون هذا بداية مرض يلم بها ، فحثثتها برفق :

ـ لا تذهبى كل يوم يا نانا ، إن أباك لن يرضى أن يراك حزينة بهذا الشكل .

ولكنها استمرت فى زياراتها حتى اضطررنا لمنعها من أجل مصلحتها ، والآن نذهب أنا والاولاد مرة فى الاسبوع . وما زالت دموع نانا تسيل .

وأقيمت صلاة على ذكراه فى الأمم المتحدة بنيويورك ، وصلى الزعيم الدينى الروحى تشنموى أمام وفود الأمم المتحدة وهيئتها فى قاعة داج همرشولد قائلا :

ـ ان هيكله الطينى ، القفصى ، لم يعد معنا ، ولكن روحه القدسية ، الطائرة ، ستظل معنا حتى تغمر العالم بطوله وعرضه بالسلام ، السلام ، السلام .

وفى اجتماع أمم الكومنولث فى ملبورن باستراليا ، وقف قادة احدى واربعين دولة متأملين لحظة صمت عند افتتاحهم جلستهم ، واجازوا إعلانا بالحزن أرسله لى مالكولم فريزر رئيس الكومنولث :

ـ كنت اعتبره واحدا من قادة العالم العظام .

واضاف رئيس وزراء استراليا تعليقا شخصيا فى نهاية الاعلان :

ـ اننا معك فى حزنك .

وأبّنه القادة الروحيون فى شتى انحاء العالم ، ومنهم البابا جون بول الثانى الذى اطلق عليه الرصاص وجرح هو نفسه من قبل خمسة شهور فقط ، وقداسة

الدالاى لاما ، الذى كتب ممثله فى أوروبا تسرينج دورجى :

ـ إن الوفاة المأساوية غير المتوقعة للرئيس السادات كانت خسارة عظيمة لك كما لملايين البشر ـ ومنهم نحن ـ فى العالم . وسيظل فى ذاكرتنا كرجل عظيم لعالم السلام .

وجاءت رسائل التعزية الرسمية من حكومات العالم اجمع مع رسائل شخصية لى . . أرسل الرئيس جرجوريو الفاريز وزوجته عن جمهورية اورجواى مواساتهما ، كما ارسل رئيس وزراء فنلندا ، وفرانسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا ، وضياء الحق رئيس جمهورية الباكستان والسيدة حرمه ، والرئيس كينث كاوندا عن زامبيا ، وهيلموت شميدت مستشار جمهورية المانيا الفيدرالية والسيدة زوجته هانيلور ، وكتب القاضى عبد الستار رئيس جمهورية بنجلاديش الشعبية :

ـ ندعو الله ان يمنحك وافراد الاسرة القوة والجلد على تحمل هذه الخسارة المأساوية . آمين . وابرق الرئيس سوهارتو والسيدة حرمه من جمهورية اندونسيا :

ـ نصلى لله العلى القدير ان ترتاح روحه فى سلام .

واكثر الرسائل اثارة للمشاعر جاءت من دولة اسرائيل كتب ايزاك نافون :

ـ لقد صدمنا انا وأوفير صدمة عميقة للمصاب الجلل الذى الم بك . لم يكن زوجك المرحوم زعيما ذائع الصيت ذا منزلة عالمية فقط ، بل كان شخصا فوق العادة . لقد جمع فى شخصه قلب انسان حنون وعقل مفكر عظيم . لقد اعجبنا به واحببناه . . وستظل ذكراه دائما كنموذج للأجيال القادمة .

وكتبت لى اليزا بيجين ايضا من القدس آسفة لأنها لم تستطع ان ترافق زوجها فى الجنازة :

« سيدتى العزيزة ، لقد كنت فخورة جدا بك عندما شاهدتك فى حزنك وألمك . ان سلوكك النبيل هو مقياس لحب زوجك . ان الحياة تتكون من لحظات ساطعة قليلة جدا ، والباقى صراع كؤود . وبوقوفك بجانب زوجك هذه

السنين الطويلة ، ساعدته على تحقيق احلامه . اشعر انى قريبة منك ومن أولادك لأنكم جميعا اظهرتم لى ولبناتى صداقة وحنانا كثيرا جدا . « حاسيا » و « لى » ينضمان معى فى التعبير عن مواساتنا لك ولاولادك اصدقائهما الاعزاء » .

وانهالت الرسائل من امريكا ، من اعضاء مجلس الشيوخ والوزراء وأرسل لى الرئيس ريجان ومسز ريجان ألبوما لآخر زيارة لنا فى امريكا ، مع صورة خاصة لأنور صاحبت رسالة . . « إلى روحه الطاهرة » وكان ذلك هو الاتصال الثانى الذى جاءنى من اسرة ريجان فى يومين . فقد كنت استلمت بعد اصابة انور مباشرة وقبل اذاعة نبأ وفاته رسالة عاجلة فياضة بالمشاعر جدا من مسز ريجان عن طريق السفير الأمريكى فى القاهرة . لقد أرادت منى ان اعرف انها تعرف شخصيا ما أعانيه ، وانها تصلى من اجل شفاء زوجى لأنها جربت محاولة اغتيال زوجها قبل ستة شهور فقط .

ياله من عطف ذلك الذى اظهره كثيرون . وبعد شهر من وفاة انور اجد الرئيس السابق ريتشارد نيكسون يرسل لى نسخته الشخصية لكتاب تشرشل « معاصرون عظام » الذى ناقشته معه باختصار لانه يحتوى على فقرة تتناسب الآن مع حالتى :

ـ أطفاله هم افضل تذكار له ، وحياتهم تحكى وتحيى صفاته .

وكتب الرئيس نيكسون ، ذاكرا الصفحة التى اجد فيها الفقرة :

ـ يستطيع اولادك ان يكونوا فخورين جدا بميراثهم .

واستلمت رسالة مكتوبة بخط اليد فى غاية الرقة من جاكلين كيندى اوناسيس ، الذى اغتيل زوجها :

« كان الرئيس السادات واحدا من أعظم زعماء الدول إلهاما » ، وسوف تنمو وتزدهر اسطورته عبر الأجيال . واعتبر نفسى وأولادى موفورى الحظ إذ أتيحت لنا مقابلته معك . . أنت التى أضفت الكثير إلى تألقه . وإذ أدرك أن حياته غيرت التاريخ وأن مماته سيغير العالم ، أعتقد أن ذلك يجعل خسارتك اكبر من أن

تحتمل . ومع ذلك لعلك تجدين عزاء فى تقارب اسرتك ، ولعل أحاسيس العالم كله الذى يحزن اليوم معك تهبك القوة بشكل ما وتعاون على التئام جرحك . لقد بذلت من إلهامك كثيرا وطويلا ، ولهذا فأنت تستحقين الكثير جدا » .

وكتب لى كثير من الاصدقاء الذين صادقناهم فى بريطانيا ، ومن بينهم رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر ورئيس الوزراء السابق جيمس كالاهان ، ولورد وليدى كارينجتون ، وملكة انجلترا التى استضافت اسرتى كلها فى عام ١٩٧٩ فى قصر باكنجهام ، فأبرقت لى الملكة اليزابيث :

« لقد صدمت جدا لسماع النبأ الفظيع عن زوجك ، أرسل لك ولاسرتك انا والامير فيليب مواساتنا من القلب فى خسارتك المأساوية » .

وكتب لى الامير تشارلز ، الذى جاء إلى القاهرة من أجل جنازة زوجى وعبر عن صدمته لوفاته المباغتة . ولم يمر شهران بعد أن التقينا أنا وأنور معه وزوجته الجميلة ديانا وتناولنا غداء سعيدا على ظهر اليخت الملكى بريطانيا عندما رسا فى مرفأ السويس فى نهاية شهر عسلهما ، يومها كتب لى الأمير تشارلز من السفارة البريطانية فى القاهرة :

« سيكون من عظيم أسفى أنه لن تسنح لنا الفرصة للذهاب مع زوجك ، كما اقترح ، إلى بعض الاماكن التاريخية الممتعة فى مصر ، ولكن مع ذلك ، سوف اتذكر دائما حنانه وانسانيته . . صفات تبدو نادرة تماما بين كثير من قادة العالم . » وبعد الجنازة كتب الأمير تشارلز ان ديانا حزينة بمرارة لما اصابها من خيبة امل لانها لم تستطع مرافقته للقاهرة ، ولكنه ارفق رسالة رقيقة بخط يدها كتبت اميرة ويلز تقول :

ـ « ان كل افكارى وكل دعواتى معك ومع اسرتك فى هذا الوقت الموحش العصيب . انى آسفة بشكل بائس لأننى لا استطيع مصاحبة تشارلز لمصر وهذه هى الطريقة الوحيدة التى استطيع التفكير فيها حتى تشعرى بقربى منك أثناء مأساتك . هذه الرسالة تأتى لك مع أعمق عواطف المخلصة لك ديانا . »

وغالبا ما اقاوم الدموع وانا اقرأ هذه الرسائل . وكتبت فضيلة احمد فؤاد ، زوجة ابن الملك فاروق :

ـ « أقدم لك وبقية اسرتك الكريمة كل تعزياتى فى وفاة بطل السلام المحبوب محمد أنور السادات ، داعية المولى عز وجل ان يرفعه إلى جناته وان يلهمك الصبر والسلوان . لن أنسى ما احسست به كأم وما أبداه من انسانية فى اليوم الذى سمح لى ان الد ابنى على تراب مصر الحبيبة ، ارض الحب ، أرض السلام ، الارض التى رواها هذا البطل شهيد السلام والحب بدمائه الذكية . عليه سلام الله ورحمته وبركاته » .

ولقد تأثرت ايضا ببرقية جميلة من أمير جدة وزوجته فى المملكة العربية السعودية ، وبرسالة ودود من الملك حسين ملك الأردن . فبالرغم من انه قد قطع علاقات الاردن السياسية مع مصر ، فقد كان هو الوحيد بين قادة العرب الذى أدى الامانة بنعيه الشخصى لوفاة صديقه . وكنت قد ذهبت إلى الأردن لاقدم تعزياتى القلبية له بعد فجيعة وفاة زوجته علياء ، والآن يقدم الملك ، بروح الاسلام الصادقة ، تعزياته لى :

ـ « ارسل لك ، واسرتى تشاركنى ، احاسيس الحزن على وفاة زوجك ، اراح الله روحه فى صحبة ربه الذى نتطلع اليه . اننا نتطلع اليه سبحانه ـ له الثناء ـ ، ان يحميك ويرعاك انت واسرتك . اقدم لك واسرتى نفس الأحاسيس والعواطف الانسانية التى عزيتنى بها شخصيا يوم نفذ الله ارادته واختار ان ينقل بجواره واحدة من اسرتى . ارجو ان تقبلى منا أحاسيسنا بالأسف وندعو الله ان يهبك القوة والمقدرة على تحمل ارادته وقضائه . انا لله وانا اليه راجعون » .

وكانت الرسالة موقعة :

ـ اخوك حسين .

وكنت آمل من آخرين من قادة العرب ان يعثروا على مثل هذه المشاعر فى قلوبهم ليشيعوا أنور ، ولكنهم لم يفعلوا . فزوجاتهم والنساء اللاتى صادقتهن فى

البلاد العربية ابدين حنوا اكثر . فارسلت لى السيدة وسيلة من تونس اختها نايلة لتقديم تعزياتها لأنها لم تستطع الحضور بنفسها لاسباب سياسية . وارسلت الشيخة فاطمة من أبو ظبى وفدا إلى القاهرة لتقديم مواساتها ، وجاءت مجموعة من السيدات ايضا من قطر . وأثر فىّ اهتمام وشجاعة هؤلاء السيدات بشكل عميق . بينما لم يفعل ذلك كثير من العرب الآخرين ، وعمق أسفى وضاعف من إحساسى بالأسى ما قام به بعض العرب من أعمال تتنافى مع أبسط معانى الانسانية ، ومع أبسط شعور بجلال الموت ، المصير المحتوم للجميع . ففى بغداد ، حركت وسائل الاعلام الناس فى الشوارع ليرقصوا فرحا ، كما فعلت كذلك وسائل الاعلام مع الجماهير فى ليبيا بعد ما اعلنت اذاعة طرابلس موت زوجى . واستمرت الدعاية الليبية المفعمة بالكراهية والحقد لمدة أسبوع تعلن عن مشاعرها بالسعادة ، راديو ليبيا يحث شعب مصر بان يطيحوا بحكومتهم الجديدة بل أن يزحفوا على القاهرة ويقطعوا أوصال جثمان أنور . وفى إيران طالب اية الله الخومينى ايضا الناس بأن يطيحوا « بخلفاء الفرعون الاموات » ويعلنوها جمهورية اسلامية . وفى لبنان ، احتفل الفلسطينيون العسكريون ايضا بالرقص والغناء ووزعوا الشربات الذى نقدمه فى أعز وأبهج مناسباتنا . وقال قائد منظمة التحرير الفلسطينية :

ـ نحن نصافح اليد التى ضغطت على الزناد .

شعرت بحزن بالغ وأنا أشاهد مظاهرات هؤلاء الناس . وعندما يحين الأجل المحتوم لهؤلاء الذين آلمونا حتى الموت ، فسوف ينتهى غضبى نحوهم ، ولكنى سأكون أكرم منهم ، فبدلا من الابتهاج سوف أقدم تعزياتى . هذه هى رسالة الاسلام الحقيقية . ولكن بعد موت أنور كان البعض غاية فى الحقد حتى أنهم نسوا دينهم . كم كانت أعمالهم مشينة ، خصوصا ما أبداه بعض الفلسطينيين إنّ احدا لم يفعل من أجل الفلسطينيين أكثر مما فعله زوجى . ففى كل مفاوضاته مع اسرائيل ، ظل أنور حازما فى مطالبه من أجل حقهم فى الحكم الذاتى وتقرير المصير . لقد قام أنور بالخطوة الشجاعة الأولى نحو حل مشاكلنا عن طريق فرض السلام ، والآن لقد قتل بسببها .

واعلنت الاحكام العرفية فى مصر ، فلم يكن يسمح لأكثر من خمسة اشخاص بالتجمع فى الشوارع . وطوقت قرية أنور ميت ابو الكوم ومنع السفر اليها . وتم اعتقال اكثر من ألف متعصب دينى لاستجوابهم وفتشت منازلهم . ومالا يمكن تصديقه أن الشرطة عثرت على مخابىء ضخمة للاسلحة ، بل خطة مفصلة للاستيلاء على الحكم ايضا . لماذا لم تعرف قوات الأمن هذا قبلا وتحركت فى الحال ؟ وفى أقل من ثمان واربعين ساعة انتشرت حمى العنف إلى اسيوط ، حيث قاتلت الجماعات المتطرفة رجال الشرطة فى يومين من الشغب اسفرا عن وفاة ستة وستين شرطيا وواحدا وعشرين متعصبا دينيا .

وانتشرت حالة التوتر عبر البلاد ، ولا أحد يعرف ان كانت هناك حركة خفية أو حتى من سيقودها . وادعت جماعة اسمها « الجهاد » قيامها باغتيال انور ، نفس خلية الارهابين التى القت القنابل على الكنائس فى الاسكندرية عام ١٩٨٠ ، ولا احد يعرف كم عددهم ؟ ولا إلى اى مدى يتغلغلون فى اعماق المجتمع المصرى ؟ وفى القاهرة لم أكن أدرى ما اتوقعه ، ولم أكن أدرى إذا كنت أنا واولادى فى خطر . وبعيدا عن المسامع ، خرجنا الى حديقتنا بالجيزة لنناقش فى همس ان كنا نفر من مصر ام نبقى . وكنا كلنا نفس العقلية ، فوافقنا كأننا فرد واحد على ان نبقى فى مصر لنشرف انور مهما كان الخطر الذى سنواجهه .

وعندما اصبح واضحا ان مصرع زوجى كان عمل قلة مجنونة وليست مؤامرة وطنية ، عادت الاعمال الى طبيعتها تقريبا . وليس كالهرج الذى اعقب وفاة عبد الناصر ، مرت انتقالة رياسة الجمهورية من زوجى إلى حسنى مبارك بشكل سهل من خلال المؤسسات الديمقراطية القوية التى قام بتأسيسها أنور فى مصر . ولكن البلد كانت فى صدمة . فنحن لدينا معدل جريمة من اقل المعدلات فى العالم . فنحن لم نتعود على القتل والعنف فى مصر . فقط أولئك المتطرفون الذين يعتبرون العنف وسيلة شرعية لاهدافهم التى يفترضون انها دينية ولكنها سياسية فى الواقع . وهم ـ على كل حال ـ لازالوا أقلية ضئيلة من تعدادنا السكانى .

ونقلت الانباء ان واحدا من القتلة الأربعة قد صاح وهو يندفع نحو المنصة العسكرية مطلقا مدفعه الرشاش :

ـ المجد لمصر . . اهجم . .

وورد فى التحقيقات التى اعقبت ذلك ان قائدهم ، وعمره اربع وعشرون سنة ، الملازم أول خالد احمد شوقى الاسلامبولى كان يعمل تحت إمرة العقيد الزمر ، ضابط المخابرات الذى حذر أنور منه والذى هرب من الاعتقال فى أثناء تطويق التخريب السياسى والدينى فى سبتمبر .

ولقد شعرت باشمئزاز عندما شاهدت اجراءات المحاكمة فى التليفزيون فى شهر ديسمبر وقد تحولت إلى هرج ومرج . اخذ القتلة الاربعة يصيحون بالاهانات باستمرار مع شركائهم العشرين المتهمين واعاقوا الاجراءات القانونية ، وعندما كنت رئيسة للمجلس الشعبى فى المنوفية كنت اسمح بالمناقشة ، بل كنت اشجعها ، ولكنى كنت اتحكم فيها عندما تزيد عن حدها . والآن وفى قاعة المحكمة بالقاهرة لا يفعل القضاة شيئا لوقف هذا الهرج والمرج . اعرف انه يجب ألا يكون هناك تحيز ، ولكن يجب على القاضى أيضا ألا يكون بهذا الضعف . وبدون أى زجر لهم اخذ المتآمرون يصيحون بالاهانات ضد أنور وعهده كله . وبدا كأن السادات هو الذى اقترف الجريمة بدلا منهم ، كأن السادات هو الذى قام بالقتل وليس هو الذى قتل ، وكأنما لم يكن القتلة هم الذين يحاكمون ، بل السادات .

ولم يبد الاسلامبولى ولا الآخرون أى ندم أو أسف ، وبدلا من ذلك راحوا يتفاخرون بأنهم قد حققوا مهمتهم المقدسة . واعلن الاسلامبولى بأنها كانت من تدبير الله حتى يبدل القانون المدنى بالقانون الاسلامى ، وحتى ينكث السلام مع اسرائيل ، إن قتل انور كان للانتقام من اعتقالات سبتمبر لقادة المتطرفين الدينيين واتباعهم ، ومن بينهم أخوه الأكبر محمد ، وكانوا كأنهم يتطلعون إلى التهانى لا العقاب على قتلهم زوجى .

وازداد الهرج بشكل اسوأ فى شهر مارس عندما صدر الحكم بالاعدام على القتلة وعلى عبد السلام فرج منسق الهجوم ومؤلف كتاب « الفريضة الغائبة » الذى يدافع عن الجهاد ضد الزعماء غير الورعين فى رأيهم ، والحكم على معظم الآخرين بالسجن ، وصاح الاسلامبولى لزوجته وأمه المحجبتين بحجاب ثقيل قائلا :

ـ لا تحزنا ، لأنى سوف اعود إلى ربى . إننا طلقاء وانتم السجناء ، كان شيئا رهيبا ، حقا ، أن ترى مثل هذا الاستحواذ الفكرى . كيف يستطيع أى إنسان أن يحمى نفسه من مثل هذه الجماعة المتطرفة التى يطلق اتباعها الانتحاريون النار ويلقون القنابل على الابرياء بدون أدنى تفكير فى نجاتهم أو هربهم هم أنفسهم ؟

وصاح آخر من المحكوم عليهم عندما أعلن الحكم :

ـ يا قدس ، يا خلافة الموت ، ان المسلمين قادمون .

وصاح آخر ملوحا بالقرآن وبشعار نجمة داوود وهى تقطر دما :

ـ سيموت بيجين على أيدى المسلمين . كان السادات أكبر عميل صهيونى .

وانتشرت الحمى ضد السادات التى اشعلها هؤلاء المتطرفون وانضم اليهم كل الذين كانوا يعارضون أنور لتحطيم صورته . فكان أحد الشيوخ يتجلى فى خطب الجمعة قائلا :

ـ ان زوجات الرسول التزمن بحرمة بيتهن ، ينظفن ويطبخن ، وأرملة زعيمنا تبعث بطائرات الهليكوبتر لتحضر لها الخضراوات والفواكه الطازجة .

ونشرت اشاعات بعناوين كبيرة فى الصحف المعارضة بأنهم أوقفونى بعد جنازة انور فى المطار حين حاولت ان أهرب مع حقائب مملوءة بالذهب ، واننى قد سرقت أعمالا من الفن المصرى من المتحف ، وأن عملى بالتدريس فى الجامعة قد حصلت عليه بشكل غير قانونى ، بل حتى أولادى غير مؤهلين ان يكونوا طلابا فى الجامعة .

واستيقظ كل صباح على عناوين فى الصحف توجه بعض الاتهامات الجديدة لنا ، اتهامات مزيفة مائة فى المائة . وسرت احدى الاشاعات بأن أنور كان يمتلك اثنى عشر منزلا فى مصر ، بينما أنا نفسى امتلك ممتلكات فى شتى انحاء العالم . يا لها من سخرية ! اننا لا نملك حتى بيتنا بالجيزة . والملكية الوحيدة التى نمتلكها كانت فى ميت ابو الكوم . وأما استراحات الرياسة حيث كان أنور يقيم أحيانا لأسباب أمنية عندما كان يزور المحافظات فقد كانت كلها ملك الحكومة .

وقلت لأصدقائى :

ـ إذا استطاعوا ان يبرزوا مستند ملكية واحدا فقط ، اثباتا واحدا عندئذ سأصدقهم .

كان وقتا عصيبا بالنسبة لنا . وقتا عصيبا جدا .

ولا أحد كان يعرف من يصدق . ولا حتى رئيسنا الجديد . فبعد وفاة أنور بقليل ، تحدث إلى حسنى مبارك تليفونيا ليقول لى انه يريد ان يعاملنى بالضبط بالطريقة التى عامل بها زوجى حرم عبد الناصر ، بأن يعطينى نفقة حكومية لأعيش عليها ومسكنا لأسرتى ، ولكن حتى هو لم يكن متأكدا فسألنى :

ـ هل تملكين منزلك بالجيزة ؟

وكنت فى حالة رهيبة حتى اننى لم استطع أن أضحك :

ـ حتى أنت يا سيادة الرئيس تظن أن هذا المنزل ملكنا ؟ من أين استطاع أنور أو أنا أن نحصل على المال لنشترى هذا المنزل ؟ لا ، انه ايجار .

فقال :

ـ اردت ان اتأكد فقط .

كنت ممتنة طبعا ، ولكنى أصبت برجفة عندما انتهت المكالمة التليفونية ، إذا كان رجل قريب منا كمبارك لا يعرف ما نمتلكه وما لانمتلكه ، فماذا كان يفكر الناس البعيدون المنعزلون عنا ؟

ونقلت الينا ملكية منزل الجيزة والمنزل الذى فى الاسكندرية مدة حياتى وحياة ابنائى .

واستمرت الاشاعات الجديدة فى الصحف :

ـ كيف أصبحت اسرة السادات بهذا الثراء ؟

ومع صور لى ولأبنائى :

ـ انظروا فقط كيف يلبسون .

وشعرت بالغضب والحنق . لقد كنت انفق دائما أقل قدر من المال على الملابس ، مشترية فقط ثلاثة أو أربعة أثواب جديدة فى السنة ، وكانت تظل معى عشر سنين . والبدل التى كان أنور يشتريها كانت صناعة مصرية عند ترزيه « سويلم » . وكنت أعمل بنفسى كثيرا من ملابسى وملابس أولادى فى الأعياد والمناسبات خصوصا وهم أطفال . وكان الطلبة فى الجامعة يعيبون علىّ تدبيرى واقتصادى فى الانفاق . . . فكثيرا ما كنت أطفىء أنوار المدرجات الجامعية التى لا تستخدم وأحاضر طلابى فى فصول بدون اضاءة كهربائية على الاطلاق . واعتاد طلابى ان يمزحوا قائلين :

ـ هل تريدين ان نصاب بالعمى ؟

ـ فكنت اجيب :

ـ ضوء الشمس بالمجان أما الكهرباء فلا .

ـ ولكن بعد موت أنور استمرت الاتهامات المزيفة وكثرت .

وأصبح الوضع مستحيلا . فاذا بدأت الرد على هذه الاتهامات فلن استطيع التوقف ابدا . فما الفائدة اذن ؟ وقررت ان ادع الناس يقولون ما يريدون حتى يمكنهم الاستماع إلى العقل . ولكنى اخيرا لم استطع البقاء صامتة اطول من ذلك . فبعد وفاة زوجى بشهرين استدعيت للمحكمة لأن عضوا فى مجلس الأمة عن الاسكندرية اتهمنى بعدم ايداع تبرع كان قد قدمه منذ سنوات لقرية الأطفال

(S.O.S.) . فاتصلت على الفور بقرية الأطفال وحصلت على ايصال الايداع المؤرخ ونشرته فى الصحف . فالغيت القضية من المحكمة . وبدأت استلم استدعاءات للمحكمة اسبوعيا من رجل آخر ، محام يدعى اننى لم أحصل على شهادات معتمدة لقبولى بشكل قانونى بالجامعة . واجابه رئيس الجامعة ، ناشرا درجاتى وشهاداتى . ولكن استدعاءات المحكمة استمرت وكأننى انا ـ لا قتلة أنور التى يجب الآن ان تحاكم . بل قال المحامى على الملأ :

ـ الاسلامبولى يريد ان يسمع دفاعك .

الاسلامبولى ؟ ماذا كان المفروض على ان أقول ؟ إنه كان محقا فى قتل زوجى ؟ وفرغت للرد على الاستدعاءات .

واستطعت ان اتجاهل معظم الاكاذيب . ولكن بعضها آلمنى بعمق خصوصا الاشاعات التى جدت بخصوص الوفاء والأمل ، لتشويه سمعتى كسيدة لإظهار أن أى نفوذ قد حصلت عليه كان يرجع فقط لزوجى ، وقدم اثنان من المحاربين المعوقين فى الوفاء والأمل عريضة لاعضاء مجلس الوزراء ، وبالطبع ، للصحف أيضا ، يتهماننى بامداد المحاربين بطعام ردىء والاحتيال عليهم بعدم اعطائهم سيارات ! !

ويوما بعد يوم تحمل الصحف اكاذيبهم . فيرجونى ابنائى :

ـ من فضلك يا أمى ، استقيلى من الوفاء والأمل . فبعد كل مجهوداتك من اجل المعوقين ، لا تستحقين كل هذا الازعاج ؟

ولكنى لم اكن ابدا انسانة تهرب من القتال . فقلت لأبنائى ولأصدقائى الذين كانوا يحثوننى أيضا على الاستقالة :

ـ ان الوفاء والأمل ليست لهذين الاثنين فقط ، اننى اخدم الغالبية العظمى من المعوقين ، وإذا كان اثنان غير راضيين فليس معنى ذلك ان كل شىء قد فعلته بلا جدوى .

وفى دفاعى ، بدأت رسائل متعاطفة تنهال على الصحف من محاربين آخرين تخدمهم الوفاء والأمل . وعند اجتماع مجلس الادارة الذى لم احضره ولكن حضره كل أعضاء المجلس الآخرين ، تم التصويت واتخذ القرار بطرد الاثنين اللذين اثارا المتاعب .

كنت سقيمة ، سقيمة من أجل نفسى ، ومن أجل أبنائى ، ومن أجل الشرف لأسم أنور . وظللت انتظر من اى احد ان يضع حدا لهذه الهجمات التى لا أساس لها ، ولكن أحدا لم يفعل . ربما كان مثل هذا القرار جزءا من ديمقراطيتنا الجديدة . ولكنى كنت اعانى بشكل رهيب . وكذلك كان ابنائى ، الذين كان حزنهم على وفاة ابيهم قد امتزج بوصمات العار هذه الموجهة ضد اسمه . . . وظللت اقول لهم :

ـ لا تحقدوا . . . كونوا فخورين . فأبوكم هدف للانتقاد لأنه أول من أرسى الديمقراطية فى مصر ، أول من سمح لهؤلاء الذين لا يتفقون معه أن يتكلموا ويعبروا عن رأيهم . تذكروا ، أيضا ، ما قد فعله لمصر ، جلب السلام لبلدنا . هذا هو ما اراده . دعوا هذا يمر . فأبوكم راض ، وروحه راضية .

وبقى ابنائى ملتاعين لايزالون لا يفهمون لماذا يسمح للصحف ولنقاد زوجى بالحديث ضده بهذا الجفاء ؟ ويلح ابنائى على بالسؤال :

ـ إذا كانت هذه ديمقراطية ، فلماذا إذن لم ينتقدوه بهذه القسوة عندما كان حيا ؟

وأقول لهم :

ـ إن صاحب الأعمال الكبيرة له اعداء كثيرون . والذين ضده يكذبون ، وينتظرون حتى يموت ولا يستطيع ان يرد عليهم .

واستمرت الافتراءات فى الصحف لمدة ثلاث سنوات قبل أن تبدأ اخيرا فى التلاشى . ولكن عندما نشر على الأقل محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام السابق كتبا تبعث من جديد هذه الاكاذيب ، استنكرها الناس فى مصر من اجل

سفاهتها ووقاحتها . لقد حدث كثير من التكذيب . واستمر البعض يظنون اننى سيدة ثرية فى حين أن كل مالدى - فى الحقيقة - لم يكن الا نفقتى من الحكومة .

وحاول جمال ان يساعدنى من لحظة وفاة والده ، حيث ألقى أبوه على عاتقه مسئولية رعايتى انا واخواته . ولكنه كان فى الرابعة والعشرين من عمره وكان قد بدأ العمل كمهندس بتروكيميائى مع زوج أخته .

وبعد وفاة ابيه بعدة شهور جاءنى جمال بظرف . فسألته :

- ماهذا ؟

فقال :

- انه لك

فشددت عليه :

- ولكن من اين جاء ؟

اعترف اخيرا انه مرتبه ، الذى قسمه بينى وبين زوجته

فقلت له :

- جمال ، ان لدى نفقتى . أحتفظ بهذه النقود لزوجتك وابنتك .

ولكنه رفض ، وقال :

- انه واجبى يا أمى . يجب ان افعل ما طلبه أبى منى .

كان جمال يشعر انه مسئول ايضا عن اخواته . فبعد وفاة أنور ، فصلت واحدة من بنات زوجى من زواجه الأول من عملها فى الصحيفة التى كانت تعمل بها فى امريكا . وقررت ان تلتحق بالجامعة . فطلبت من اخيها - وهذا من حقها - مصاريف الجامعة . فذهب جمال فى الحال إلى البنك واقترض ما يكفيها لاتمام دراستها ، ودفع مع زوج اخته محمود عثمان مصاريف اخته ، وشعرت بالأسف لوجوب تحمله مثل هذا العبء . ولكن أنور كان على صواب خلال آخر جولة لنا بالحديقة . لقد أصبح جمال شابا مسئولا وأصبحت فخورا به .

ولما مرت الشهور ، لم استطع ان أخفى حزنى . فاستقلت من رياستى لمجلس المنوفية المحلى استقلت ايضا من الجامعة . ولم يكن لدى قلب حتى لاعمالى الخيرية ، فكنت أزور جمعية تلا مرتين فقط فى السنة الأولى ، والوفاء والأمل وقرية الاطفال اربع أو خمس مرات فقط ، كنت أعرف ، طبعا ، ان وفاة أنور كانت تنفيذا لارادة الله ، وان الذى حدث له ليس قدره هو فقط بل قدرى انا ايضا . ولكن دائما كنت أؤنب نفسى لشعورى بالذنب بأنى كنت استطيع بطريقة ما ان امنع مصرعه ، فقد كنت ـ على الأقل ـ استطيع ان ارتب بهدوء لمزيد من الأمن من اجله . وظللت لمدة سنة ألوم كل شىء وكل شخص حتى نفسى .

ولبست اللون الاسود ، وعندما انتهت فترة الحداد التقليدية بعد سنة ، ظللت على لبس الأسود . وكل صباح عندما افتح دولاب ملابسى لا أرى شيئا غير الأسود ولم اشعر بشىء إلا الأسود . ولم تكن عندى رغبة فى لبس الالوان أو لبس الحلى أو التزين . تستطيع بعض السيدات ان يفرقعن باصبعهن ويقلن بان فترة حدادهن قد انتهت . ولكنى لم استطع فلقد مات كل شىء فى داخلى .

وزاد قلق ابنائى وتوسلوا قائلين :

ـ يجب ان تخففى عن نفسك يا أمى .

وأحضروا لى بلوزات وجيبات جديدة كانت على الأقل رمادية . ولكنى كنت قد تسرمدت بالحزن . ولازلت استيقظ عند السادسة صباحا ، وبعد الصلاة اقرأ الصحف ، وأجيب على البريد وارتب الاكل اليومى مع الطباخ ، ولكننى أظل بقية اليوم اتجول بشكل قلق فى جنبات المنزل ، ليس عندى الطاقة للخروج ، وليس عندى التركيز لاستفيد من وقتى من بقائى فى بيتى . وظل مشهد وفاة أنور يفرض نفسه على عقلى . وكما فى الكابوس ، اردت الهرب منه ، ولكنى ظللت اسمع صوت النفاثات تطير فوق رأسى وصوت الرصاصات والصراخ . . . وصوت كل ما حدث فى ذلك الصباح الحزين .

ولمدة شهور كان أحفادى يجددون الفزع الذى عاشوه . . فى منصة

الاستعراض ، ويلعبون لعبة مريعة يسمونها « الاستعراض العسكرى » فيصيح واحد منهم :

ـ بووم . . بووم . .

ويطلب من الآخرين ان يغطوا رؤوسهم وان يسقطوا على الأرض . وكل مرة ترى ابنة جمال « ياسمين » وعمرها سنتان ونصف ، صورة جدها ، فتشير بيدها اليها كالمسدس . لقد افتقدوا جدهم بشكل فظيع ، متذكرين كم كان التعبير على وجهه رقيقا عندما ينظر اليهم ، وكيف كان يسمح لهم بالتسلق فوقه واللعب بشاربه . وقالت لى ليلى ابنة لبنى وعمرها أربع سنوات ذات مرة عندما كنت اروضها على النظام :

ـ سأخبر جدى بأنك كنت تضايقيننى ولكنها اومأت برأسها وسألت :

اين هو؟ اين أستطيع ان اجده ؟ أريد ان اتحدث اليه .

ومن كل الاحفاد كان اكثرهم تأثرا بموت انور هو شريف وعمره ست سنوات ، ولما كان هو اكبرهم كان مقربا بصفة خاصة لجده . كان انور هو الذى اخذ شريف فى اول يوم له للمدرسة ، وكان انور هو الذى استمع لدروس شريف عندما عاد إلى البيت . وفقد شريف الآن كل اهتمام بعمل المدرسة ، تاركا قلمه فى الفصل ورافضا ان يكتب اى شىء على الاطلاق ، وشرح لنا مدرسه ان الاطفال الآخرين دائما يحدثونه عن جده ، ولا يدعونه ينسى . وقال لى شريف يوما فى ثورة :

ـ انت تكذبين على ، تقولين جدى فى السماء ، ولكن اصدقائى يقولون انه مدفون فى الارض . انهم شاهدوا ذلك فى التليفزيون .

فشرحت برفق للولد الصغير :

ـ انهم على حق وانا على حق . ان جسد جدك مدفون فى القبر ولكن روحه ، وهى الاهم ، مع الله فى النعيم .

وعندما رفض شريف بعد شهر الذهاب إلى المدرسة نهائيا ، مدعيا ان جميع الاطفال الآخرين أفضل منه لأن لهم اجدادا إلا هو ؛ نقلناه إلى مدرسة أخرى .

تم تنفيذ الاعدام فى قتلة أنور يوم ١٥ أبريل ١٩٨٢ ، يوم جلب لى مزيدا من الآلام ، فبدلا من الذهاب إلى حتفهم كشهداء كما قد أعلنوا عن أنفسهم ، أصبحوا فجأة غير واثقين من انهم قد أرضوا الله . وامتلأ قلبى بالمرارة عندما اخبرنى ضابط حضر تنفيذ الاعدام بأن الاسلامبولى نفسه قد سأل الشيخ رجل الدين الذى شهد التنفيذ سأله أكثر من مرة ليسمع كلماته الأخيرة :

ـ هل كنت على حق فيما فعلت ؟ هل كنت على حق ؟

لقد شعرت بالاشمئزاز من أجلهم ، استطيع أن أفهم أن مثل هذه الجريمة يتم اقترافها عن عقيدة صحيحة لا عن عقيدة مضللة ، ولكن أن أرى قتلة زوجى يستفسرون فجأة لحظة تنفيذ الحكم فيهم عن تصرفاتهم جعل الأمر يبدو وكأن اغتيالهم لأنور لم يكن إلا مجرد تعبير عن حقد شخصى لم يصدر عن عقيدة دينية هم مؤمنون بها . لقد عذب بلال المؤذن المقرب للرسول ، عذبته قبيلة قريش لتجعله يرجع عن الاسلام والرسول ، ولكن بلالا لم يتخل ابدا عن ايمانه . ولا تخلت جان دارك عن ايمانها ، حتى وهى تقف فى لهيب محرقتها الجنائزية . لقد سرق هؤلاء منى زوجى ، ومن أبنائى أباهم ومن بلدى زعيمها . ولن تعيده إلى شكوكهم التى استبدت بهم فى اللحظة الاخيرة .

وبعد سنة من وفاة أنور ، سافرت إلى الخارج لأول مرة ، ذهبت إلى امريكا لقبول ميدالية الصداقة من نانسى ريجان الممنوحة لزوجى بعد وفاته ، وإلى انجلترا حيث لقبنى « صندوق لندن الكبرى للعميان » بلقب « سيدة العام » ثم إلى باريس حيث اطلق باتريك وايزمان رئيس تحرير « بوليتيك انترناسيونال » على زوجى لقب « شخصية العام » . وشرفونى بتقديم الاحترام لى ولزوجى ولكنى شعرت ان نصفى كان مفقودا . وعدت للقاهرة ، واستأنفت دراساتى بالجامعة ، وبدأت العمل لدرجة الدكتوراه عن تأثير النقد الانجليزى فى النقاد الرومانسيين

المصريين بين الحربين العالميتين . وبدأت ايضا اعادة قراءة يومياتى وتجميع الاوراق والصور استعداداً لكتابة هذا الكتاب عن زوجى وعن حياتنا معا ، وعن مصر .

كثيرون قالوا انه رجل سبق عصره . ولكنى لا اوافق كيف يمكن لفكرة السلام وانهاء الحرب ان تكون سابقة لعصرها ؟ لا . ان زوجى يمثل رأى الاغلبية فى مصر . وبفضل الله ، مرت حياته كرسالة ، مكرسا نفسه واخيرا مضحيا بها من اجل بلده . وعاش انور حياته ، بل كل لحظة فيها ، غير فاقد بصيرته ابدا . حرر ارضنا وجلب السلام لبلدنا . وقدم الدستور الدائم لعام ١٩٧١ ، وأحيا السلطة العليا للقانون ، وارسى الهيكل الاقتصادى للرخاء ، والغى الرقابة على الصحف ، واعطى شعبنا حريات لم يعرفها من قبل . وكان دائما يقول :

ـ الحرية هى أجمل وأقدس وأغلى ثمرة لثقافتنا .

وكان أمرا حتميا ان يُسىء البعض استعمال هذه الحريات ، لأن تعلم الانضباط الذاتى للديمقراطية يستغرق وقتا .

وهاجمنى آخرون بأننى أيضا سابقة لعصرى . ولكنى لا أوافقهم على ذلك ايضا ، فالمرأة المسلمة لها نفس الحقوق التى لأى امرأة أخرى لتأخذ دوراً فعالا فى المجتمع ، ولكى تعمل جنبا إلى جنب مع غيرها ومع الرجال لتحسن حياتهم وحياة هؤلاء الذين من حولها . لقد عشت فى كفاح متصل لكسر الحواجز التقليدية التى ابقت المرأة المسلمة صامتة . . إنه قدرى وارادة الله . لقد قاسيت من أجل ذلك ، نعم . ولكن كلينا ـ أنور وأنا ـ عرفنا وقبلنا إنه من أجل أى تقدم ، ومن أجل أى تغيير ، لابد من وجود ثمن يدفع وقد دفعناه بكل ترحاب .

وإذا تطلعت خلفى فسأجد انى لم أغير اى خطة فى حياتى . انى آسفة فقط لأن أنور لم يعش أطول حتى نستطيع أن نعتزل معا . إنها لتبدو مثل الجنة أن نعيش معا جوا مسالما بدون مسئوليات ، وبدون ضغوط . كان كلانا يتطلع لحياة جديدة ، لمراقبة أحفادنا وهم يكبرون والاستجمام فى بيتنا بميت أبو الكوم ،

حيث خطط أنور أن يكتب ، وكنت كثيرا ما أقول له عندما اقترب موعد عودة سيناء :

ـ انى أحلم بيوم تأخذنى فيه إلى أوربا أو أمريكا بدون حرس وبدون بروتوكول ، لنعيش حياة حقيقية .

فيجيب :

ـ لا تقلقى ، سنذهب يا جيهان .

ولكنه كان حلما لم يتحقق .

والآن فإنى مستمرة فى حياتى وكأنه لا يزال حيا ، وليس مثل بعض الأرامل الأخريات اللاتى يركن للبيت ويبكين راضخات لخسارتهن . إنى لازلت أعمل من أجل السلام ، لرفع مستوى الفقراء ، لتدريب غير القادرين على رعاية أنفسهم ، لخلق جو محبب لليتامى ، للكفاح من أجل حقوق المرأة . ان الصفاء الحقيقى الذى نشعر به كأفراد يأتى من مجهوداتنا فى مساعدة الآخرين ، أحب أن أتصور أن أنور يرى ما أفعله وأنه فخور به .

ولن اتزوج مرة اخرى ، ولن افكر حتى فى تغيير اسمى . كل ما اردته دائما هو ان اكون زوجة أنور وأن أقف بجانبه . ومع ذلك فأنا لا أعيش فى الماضى أو فى وهم ، لقد ذهب أنور ولابد أن أستمر . إنى أومن باليوم والغد وأعيش لليوم والغد . والكمال لله وحده . ولكنى بشر أحاول أن أفعل قدر المستطاع كى أكون أفضل انسانة استطيعها طالما لى وجود على الأرض . وأعرف أنى سأقابل زوجى ثانية . . . بعد الموت فى عالم الخلود الأبدى حيث لا موت ولا قتل ولا فناء ولا نهاية .

وفى يوم ما سيعرف المصريون ما فعله أنور من أجل بلدنا ويعطونه مكانته الصحيحة فى التاريخ . انى انتظر صابرة . لقد عملت على جمع أوراقه ، ولدى شرائط تسجيل لكل أحاديثه ومراسلاته مع القادة فى كل أنحاء العالم ، وإنى على يقين أنه فى يوم ما سيبنى متحفه لتخليد ذكراه .

وفى بيتنا بالجيزة أحتفظ بمتعلقاته الشخصية لهذا المتحف . وأذهب أحيانا إلى حجرة نومه وأفتح الدولاب لأشاهد زيه العسكرى الذى كان يرتديه فى آخر يوم من حياته . رفضت تنظيفه أو تغيير أى شىء فيه عندما أخذته من المستشفى . إنه معلق هناك وثقوب الرصاصات فى الكتف وفى الحزام الجلدى البنى ، ولا تزال الكتف اليمنى مشقوقة حيث أجرى له الأطباء نقل دم .

وعلى الرف يوجد غطاء الرأس العسكرى مضرجا بالدم الذى قد لا يكون دمه ، فإنه لم يكن يرتديه عندما أطلق عليه الرصاص . هناك أيضا فى الدولاب أحتفظ بالقميص الداخلى المضرج بالدم ، الذى كان يرتديه وقت الحادث ، وقد تجمد الدم وأصبح بنى اللون . . لقد احتفظت بكل ثيابه التى استشهد فيها ، ويطلبها الوطن المفدى يوما شواهد على نهاية حقبة من تاريخه المجيد ، صنعها بتكليف من القدر ابن بار من أخلص أبنائه ، أضاف إلى سجل فخاره ما يرشحه رفيقا مميزا لمن سبقوه إلى الخلود .



الخاتمة

كانت السنوات الثلاث التى أعقبت وفاة زوجى سنوات صعبة حافلة بالضيق والقلق المتزايد . ورغم ان الحكومة قررت لى معاشا ، وأننى تابعت تدريس الأدب العربى بجامعة القاهرة ، الا اننى كنت افتقد الارتياح النفسى الذى كان يوفره لى العطاء المنتشر أيام كان زوجى إلى جانبى .

وفى أحد أيام عام ١٩٨٤ جاءنا زائرا دكتور « ج . هولدرمان » ، رئيس جامعة ساوث كارولينا ، وكنت قد منحت الدكتوراه الفخرية من تلك الجامعة عام ١٩٧٩ ، وتوطدت الصداقة بين اسرتينا منذ ذلك الحين ، وقد حرص على الحضور مع زوجته وابنته للتعزية عقب وفاة زوجى . وفيما نحن فى حجرة الاستقبال بالجيزة أشار فى معرض حديثه إلى محاولة تغيير نمط حياتى ولو بالابتعاد المؤقت عن مسرح الأحداث ، واقترح على التدريس فى الولايات المتحدة . .

وقد قبلت النصيحة مترددة بعد أن ناقشتها مليا مع اولادى ، ولعل ترددى نبع من ادراكى مقدما ماذا يعنى البعد عن الوطن والأبناء والأحفاد . .

وأمضيت شتاء ١٩٨٥ فى واشنطن فى بيت أعارته لى صديقة امريكية . وكنت أتردد على جامعة ساوث كارولينا مرة فى الاسبوع لألقى محاضرات عن « وضع المرأة فى البلاد النامية » . . وفى نفس الفترة دعتنى الجامعة الامريكية فى واشنطن كأستاذة زائرة مقيمة خلال فترة الربيع لتنظيم سلسلة من الندوات حول موضوع « النساء فى عالم متغير » لاقت نجاحا كبيرا ، يرجع الفضل فيه إلى صديقات عزيزات عرفتهن خلال زياراتى لمواقع الخدمات النسائية فى أمريكا . . وتبين لى ان « د . هولدرمان » كان على حق ، فقد راقنى التغيير وتحدى الحياة فى أمريكا والتدريس بها . وكان تلاميذى فى واشنطن وساوث كارولينا متفتحين مقبلين على معرفة أدق المعلومات عن حياتنا فى مصر . ولأن التدريس فى أمريكا له سمة الحوار وتبادل الأفكار اللحظية فانى أحسب أن ما أفدته شخصيا لا يقل عما تعلموه منى . وعندما طلب إلى فى عام ١٩٨٦ أن أعود للتدريس فى جامعة ساوث كارولينا ، وأن أقبل العمل أستاذا زائرا فى جامعة رادفورد بفرجينيا لم أتردد لحظة فى القبول .

وكنت خلال أول شتائين فى أمريكا مشغولة إلى درجة كبيرة ، فالى جانب اعدادى للمحاضرات كنت أسافر اسبوعيا بالطائرة بين فرجينيا وساوث كارولينا ، كما كنت أدعى لالقاء محاضرات فى انحاء مختلفة من الولايات المتحدة عن « وضع المرأة والحاجة إلى السلام » .

وكنت فى نفس الوقت أستعد لتقديم رسالة الدكتوراه فى جامعة القاهرة عن « الأدب المقارن » . . ولقد تعبت كثيرا لكى احصل على الاجادة القصوى حتى استبعد الشبهات . . وكان قلبى يخفق بشدة عند دخولى قاعة الامتحانات فى الجامعة فى صيف عام ١٩٨٦ ، وهدأت نفسى قليلا عندما وجدتنى محوطة بحديقة من باقات الزهور التى أرسلها الأصدقاء لتشجيعى وتأييدى ، واستمرت المناقشة ثلاث ساعات ، واذكر أن الدكتور ابراهيم عبد الرحمن ذكر لابنتى عقب

المناقشة تعليقا على صعوبة الأسئلة « لم يكن أمامنا أى خيار ، حتى لا يكون هناك أدنى شك فى استحقاق والدتك للدرجة » .

وقد شعرت بالامتنان الشديد حين حصلت على الدكتوراه بمرتبة الشرف .

وكثيرا ما يسألنى أصدقائى فى مصر وأصدقائى الجدد فى أمريكا إذا كنت غير سعيدة بحياتى البسيطة بعد حياة الأبهة التى استمتعت بها كزوجة لرئيس جمهورية مصر . والواقع أنهم كانوا يستطيعون تخمين اجابتى لو قرأوا كتابى فحياة الرئاسة لها متاعبها ومنغصاتها واعباؤها الدائمة ، ولو ظل زوجى إلى جانبى لجازت المقارنة بين الحياتين ، لكن حياتى الجديدة بدون زوجى أصبح لها طابع مختلف تماما . وعلى أى حال فإنى لا أستطيع أن أنكر أن استقلالى واعتمادى على نفسى خففا كثيرا من عذابى بالذكريات ، ولولا بعدى فترة عن بلدى وأبنائى وأحفادى لزعمت أنى قانعة تماما بحياتى الجديدة المفعمة بالمشاغل اليومية .

وخلافا لما يشيع بيننا عن ضمور العلاقات الانسانية فى الدول المتقدمة ، يبدى جيرانى فى فرجينيا انعطافا حقيقيا نحو جارتهم المصرية منذ أول يوم . وقد دأبوا على دعوتى لأشاركهم مناسباتهم الاجتماعية واعيادهم ، كما نتزاور بعد الظهر لتناول الشاى وتبادل الحديث .

هكذا تمضى بى الحياة بين العمل والأسرة ، وقد جربت لوعة الشوق إلى الوطن فى رحلاتى الكثيرة مع زوجى وكان أغلبها لا يستغرق سوى أيام ، فلما قررت عام ١٩٨٥ العمل على التدريس وأخذ دكتوراه من امريكا كان أول ما قفز إلى ذهنى مدى احتمالى للغربة خاصة إذا طالت . . وقد قاسيت ومازلت وسأظل أقاسى كأى مغترب من المصريين فى الخارج . . وكلنا نعلم أن ارتباط المصرى بأرضه يفوق سواه فى سائر الاوطان لهذا كانت معاناته مضاعفة . . وطالما اعترتنى نوبات الحنين كلما عرض ما يذكرنى بمصر فتوحشنى أصغر الاشياء . . حتى الرمال فى صحارينا . . ولدى أشرطة فيديو عديدة للمسرحيات المصرية وتسجيلات لأم كلثوم أسمعها دائما فى السيارة . . وهناك التليفون دائما ، وكم

من أصدقاء يواظبون على مكالمتى من مصر فى مواعيد أحسب حسابها واترقبها فى لهفة . . وتتصل بى بناتى مرة واحدة فى الاسبوع على الاقل ، لكن الحديث عبر التليفون يجسم شعورى بأنى بعيدة جدا عنهن . . كم أريد أن أراهن بعينى واحتضن أحفادى وأتحسس كل صغيرة وكبيرة وأتأكد من أن كل شىء على ما يرام . وسأرجع توا حين أنجز شهادة الدكتوراه من أمريكا .

وقد هيأت لى أسفارى التعرف على الشعوب لأخرج بقناعة لا تهتز بأن قومى أكثر شعوب العالم مسالمة وودا وترحيبا بالضيوف . . لهذا دأبت مفاخرة أثناء اقامتى فى الولايات المتحدة على دعوة اصدقائى الجدد لزيارتى فى مصر التى اقيم فيها شهور الصيف ، وفى الأعياد كلما أمكن ، وفى ٦ أكتوبر على وجه اليقين لأحيى ذكرى زوجى العظيم .

وللقارىء ان يتصور فى النهاية كم شق على نفسى أن أكتب هذا الكتاب الذى فرض على ان استعيد بكل الحسرة والأسى ذكريات حفلت بفترات من السعادة والسلام أعلم أننى لن أعرف مثلها مرة أخرى ، ذكريات هى الألم وهى العزاء فى آن واحد .

ولعل القارىء أدرك بفطرته أن كتابى هذا وإن اندرج تقليديا تحت التصنيف المعروف بالسير الذاتية ، الا أنه بالحق والصدق سجل وفاء قصد به جلاء الكثير مما استغلق على بعض الأفهام من زوايا عظمة الزعيم الشجاع أنور السادات الذى أسبغ على ثقته كاملة فكان لى عونا على مواصلة حياتى كريمة مرفوعة الهامة معتزة بما أديت نحوه ونحو بلادى . .

رقم الايداع ١٩٨٧/٨٩٤٤

الترقيم الدولى ٩٧٧-١٣٦-٠٧٤-٤ ISBN

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر



سيدة من مصر

كثيرون قالوا إنه رجل سبق عصره ، ولكنى لا أوافق كيف يمكن لفكرة السلام وإنهاء الحرب أن تكون سابقة لعصرها ! ؟

إن زوجى يمثل رأى الأغلبية فى مصر ، وبفضل الله مرت حياته كرسالة ، مكرساً نفسه وأخيراً مضحياً بها من أجل بلده .

وعاش أنور حياته ، بل كل لحظة فيها غير فاقد بصيرته أبداً ... حرر أرضنا ، وجلب السلام لبلدنا ، وقدم الدستور الدائم لعام ١٩٧١ وأنشأ السلطة العليا للقانون ، وأرسى الهيكل الإقتصادى للرخاء ، وألغى الرقابة على الصحف ، وأعطى شعبنا حريات لم يعرفها من قبل ، وكان دائما يقول :

« الحرية هى أجمل وأقدس وأغلى ثمرة لثقافتنا »



مطابع الأهرام التجارية — القاهرة — مصر